

كتاب المنهاج في شعب الإيمان

تصنيف
الشيخ الإمام الحافظ
أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحلي
المتوفى سنة ٦٠٣ هـ - ١١٢ م

الجزء الأول

تحقيق
حايي محمد فوده

دار الكتب

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

حقوق الطبع محفوظة لدار الفكر

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله .
من الحسين بن الحسن الحلبي إلى من بلغه كتابه هذا من أهل القبلة ، المشاركين له في
الملة ، الراغبين في العلم والحكمة ، الطالبين علم المنهاج والشرعة ، المجمولين لنبى الرحمة ،
المبعوث بالحنيفية السمحة ، محمد خاتم الرسالة ، وصاحب الشفاعة ، والمؤتمن الشهيد على
الجماعة ، صلى الله عليه وسلم ، وخصه بالفضيلة والزلفة والوسيلة .

سلام عليكم ، فاني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلي على محمد عبده
ورسوله . أما بعد ، أحسن الله توفيقكم ، وسهل إلى ما يرضاه طريقكم ، وقوانا وإياكم
على طاعته ما احبنا ، وأجزل حظنا وحظكم من رحمته إذا توفانا ، ونزع من صدورنا كل
غل ، وجعل الحق أحب إلينا وإليكم من كل خل .

فالحمد لله الواحد القديم الماجد العظيم ، الواسع العلم الذي خلق الانسان في أحسن
تقويم ، وعلمه أفضل تعليم ، وكرمه على كثير ممن خلق أبين تكريم .

أحمده وأستعينه وأعوذ به من الزلل ، وأستهديه لصالح القول والعمل ، وأسأله أن
يصلي على النبي المصطفى الرسول الكريم المجتنبى محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى
آله الطيبين الطاهرين ، وسلم كثيراً ، ثم ان هذا كتاب جمعت فيه من الكلام في حقيقة
الإيمان ، وبيان ما يشتمل هذا الاسم عليه ويشار به عند الاطلاق إليه . وشرح ما جاء
عن النبي ﷺ انه قال : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ،
وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ^(١)) ، وتفصيل هذه الشعب واحدة واحدة ، والكلام
عليها بما يكشف عن حقيقتها ، ويقف الناظر فيه على جليتها . ما املت أن يعظم نفعه ،

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الإيمان » باب ٣ ورد في سنن أبي داود كتاب السنة . « باب ١٥ »
حديث رقم ٤٦٧٦ ، وفي صحيح مسلم كتاب الإيمان رقم ٥٧ .

ويكثر فائدته ، ويحسن على متأمليه عائده . وسميته المنهاج اذا ^(١) كان ابانة لما نهجه الله - تعالى جده - لنا من الدين ، وهدانا له من الصراط المستقيم ، وقال تعالى جده في كتابه : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ ^(٢) . وقسمته عشرة أقسام في عشرة أبواب : أولها باب في البيان عن حقيقة الإيمان . وثانيها باب في زيادة الإيمان ونقصانه . وثالثها باب في الاستثناء في الإيمان وما يصح منه أو لا يصح . ورابعها باب في ألفاظ الإيمان وما يصح أو لا يصح . وخامسها باب في إيمان المقلد والمرتاب والتميز بين المقلد وغيره . وسادسها باب فيمن يكون مؤمناً بإيمان غيره أو لا يكون . وسابعها باب فيمن يصح إيمانه أو لا يصح . وثامنها باب فيمن لم تبلغه الدعوة . وتسعها باب فيمن مات مستديلاً ^(٣) . وعاشرها باب في شعب الإيمان وهذا الباب ينقسم سبعة وسبعين باباً :

أولها باب في الإيمان بالله عز وجل بآياته وبيناته . والثاني باب في الإيمان بالنبى ومن تقدمه من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بدلائله وحججه . والثالث باب في الإيمان بالملائكة . والرابع باب في الإيمان بالقرآن وسائر كتب الله تعالى المنزلة . والخامس باب في الإيمان بالقدر وان خيره وشره من الله . والسادس باب في الإيمان باليوم الآخر وتفسيره . والسابع باب في الإيمان بالبعث وكثير من حججه . والثامن باب في الإيمان بالحساب والميزان . والتاسع باب في الإيمان بالجنة والنار وفيه ذكر الصراط . والعاشر باب القول في محبة الله تعالى جده . والحادي عشر باب القول في مخافته والتفكير في وعيده . والثاني عشر باب في رجائه والثقة بوعده ، ودخل في هذا الباب القول في الدعاء وشروطه وآدابه وأوقاته وأحواله . والثالث عشر باب القول في التوكل عليه والاعتصام به ، دخل ^(٤) فيه القول في التداوي من الأمراض والاسترقاء وما جاء فيها وفي سائر الاحترازا ^(٥) . والرابع عشر باب حب النبي ﷺ وآله وأصحابه . والخامس عشر باب في تعظيم النبي ﷺ واجلاله وتوقيره . والسادس عشر باب في الشح بالدين .

(١) إذ كانت . (٢) سورة المائدة - آية ٤٨ .

(٣) فيمن مات مستديلاً بالنبى صلى الله عليه وسلم ومن تقدمه من النبيين صلى الله عليه وسلم أجمعين وحججه .

(٤) ودخل فيه القول ... الخ

(٥) الاحترازا : جمع احتراز . واحتراز من كذا وتحراز منه أى توقاه . ويسمى التعويد حرز .

والسابع عشر باب في طلب العلم . والثامن عشر باب في نشر العلم . والتاسع عشر باب في تلاوة القرآن وآدابها ^(١) وغيره من فضولها . والعشرون باب في الطهارات . والحادي والعشرون باب في الصلوات . والثاني والعشرون باب في الصدقات . والثالث والعشرون باب في الصيام . والرابع والعشرون باب في الاعتكاف . والخامس والعشرون باب في المناسك . والسادس والعشرون باب في الجهاد . والسابع والعشرون باب في المراقبة في سبيل الله . والثامن والعشرون باب في الثبات للعدو عند الالتقاء . والتاسع والعشرون باب في أداء خمس المغنم . والثلاثون باب في العتق ووجه التقرب به إلى الله عز وجل . والحادي والثلاثون باب في الكفارات . والثاني والثلاثون باب في الإيفاء بالمعهود . والثالث والثلاثون باب في تعديد نعم الله وما يجب من شكرها . والرابع والثلاثون باب في حفظ اللسان . والخامس والثلاثون باب في الامانات وما يجب من أدائها إلى أهلها . والسادس والثلاثون باب في تحريم النفوس والجنايات عليها . والسابع والثلاثون باب في تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها . والثامن والثلاثون باب في تحريم أموال الناس وما يجب من التعفف عنها ودخل فيه القول في السرقة وقطع الطريق . والتاسع والثلاثون باب في المطاعم والمشارب وما يجب من التورع عنه منها . والأربعون باب في الملابس والزين والأواني وما يكره منها . والحادي والأربعون باب في تحريم الملاعب والملاهي . والثاني والأربعون باب في الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل . والثالث والأربعون باب في الحث على ترك الغل والحسد . والرابع والأربعون باب في تحريم اعراض الناس وما يلزم من ترك الرتع فيها . والخامس والأربعون باب في اخلاص العمل لله وتحريم الرياء . والسادس والأربعون باب في السرور بالحسنة والاعتظام بالسيئة . والسابع والأربعون باب في معالجة كل ذنب بالتوبة منه . والثامن والأربعون باب في القرابين والابانة عن معناها وغرضها . والتاسع والأربعون باب في طاعة أولي الأمر بفضولها . والخمسون باب في التمسك بما عليه الجماعة . والحادي والخمسون باب في الحكم بين الناس وما يتشعب فيه من الكلام . والثاني والخمسون باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والثالث والخمسون باب في التعاون على البر والتقوى ، ونصرة المظلوم واغاثة اللهيان .

(١) باب في تلاوة القرآن وادمانها وغيره من فضولها .

والرابع والخمسون باب في الحياء بفضوله . والخامس والخمسون باب في بر الوالدين .
والسادس والخمسون باب في صلة الأرحام . والسابع والخمسون باب في كظم الغيظ وحسن
الخلق ولين الجانب والتواضع . والثامن والخمسون باب في الاحسان إلى الممالك . والتاسع
والخمسون باب في حق السادة على الممالك . والستون باب في حقوق الأولاد والاهلين على
الناس . والحادي والستون باب في مقاربة أهل الدين وموادتهم وافشاء السلام فيهم .
والثاني والستون باب في رد السلام . والثالث والستون باب في عيادة المريض . والرابع
والستون باب في الصلاة على من مات من أهل القبلة . والخامس والستون باب في تسميت
العاطس . والسادس والستون باب في مباحة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم .
والسابع والستون باب في إكرام الجار . والثامن والستون باب في اكرام الضيف .
والتاسع والستون باب في الستر على أصحاب القروف . والسبعون باب في الصبر على
المصائب . والحادي والسبعون باب في الزهد وقصر الأمل . والثاني والسبعون باب في الغيرة
والمضاء . والثالث والسبعون باب في الاعراض عن اللغو . والرابع والسبعون باب في
الجود والسخاء . والخامس والسبعون باب في رحم الصغير وتوقير الكبير . والسادس
والسبعون باب في الاصلاح بين الناس . والسابع والسبعون باب في أن يحب الرجل لأخيه
المسلم ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لنفسه ، ويدخل فيه اماطة الأذى عن الطريق .

ووجدت في القرآن عدة آيات تشمل كل واحدة منها على عدة من هذه الشعب التي
تقدم ذكرها ، وفي الاخبار عن النبي ﷺ مثلها ، وجعلت له باباً مفرداً أفردتها فيه ،
وتكلمت على ما يحتاج منها إلى فضل إيضاح وشرح حتى ظهر وجهه ، واستبان المراد
منه باذن الله تعالى . وقد كان بعض من ألف شعب الإيمان خرجها على تسعة وسبعين باباً،
ووجدته عمد إلى شيء واحد اختلفت العبارة عنه في الروايات (١) ، فأورده في بابين
وعده شعبتين ، وربما عمد إلى شيئين لا يتميزان ويجمعها أصل واحد ، فجعله شعبتين .
وأخل مع ذلك ببعض ما أوردناه فلم يذكر أصلاً ، فكتبت باباً مفرداً ذكرت فيه
السبب الذي دعاني إلى تخريج هذه الشعب على سبعة وسبعين باباً . وبينت أن كل ما يظن

(١) في الرواية .

غيري انه خارج من هذه الأبواب فهو ملتحق بها وداخل بالحقيقة في جملتها ، واشتملت إلى وجه ذلك وأوضحته ، فصارت جملة أبواب الكتاب اثني عشر ، كل باب منها يجمع ما قصدته ووضعه له إلا باب الشعب فإنه ينقسم إلى سبع وسبعين باباً كما تقدم بيانه .

وكان مما حدا بي على تأليف هذا الكتاب ، ورغبتي في جمع ما جمعته فيه ، خوفاً على كثير بما ضمنته إياه من دقائق العلم وخباياه ولطائف الشرع وقضاياه بين أن يدثر ويعفو رسمه فلا يذكر لزوال الهم به عن الصدور ، ووقوع الاعراض عنه من الجمهور ، والاشتغال عن العلوم بالجملة بالتبقر في الأهل والمال ، والتهافت في الحرام والحلال ، والتنافس في رتب الدنيا والتغافل عن درج الآخرة ، والانقياد لدواعي الهوى وإن قادتهم عناءاً^(١) إلى الردى وتزحزح هيبة الله عز وجل عن القلوب لما ران عليها من ظلم المعاصي والذنوب ، والميل في عامة الأمور إلى الحفظ والدعة ، وانسراح الصدر بالجهل الذي هو أدرك منازل الضعة . وفساد النيات والدخل وفتور العزائم والهمم . فإن الحال لما آل إلى ما ذكرت ، وتراجعت للتراجع الذي وصفت ، صارت طاعة الله - تعالى جده - تقام فيما تدعو إليه الضرورات الحاصلة ، وتترك فيما تحرك عليه المتوقعات الآجلة . وكان الهم بالعلم بقدر الهم بالعمل ، فطلب منه ما يضطر إلى العمل به سبب عاجل ، وهجر منه ما لا يحمل على استعماله في الوقت حامل . ولذلك وقع الاقتصار بعد تقادم العهد وتطاول الأيام من امتثال الشريعة على أبواب معدودة منها : استباحة المباحات كالتبسط في المكاسب والتوسع في المطاعم والمشارب ، وإزالة النفس هواها من المناكح والملابس ، إذ كانت الإباحة للهوى موافقة ، وللشهوات والمنى مطابقة . ومنها لزوم ما يجري من شرائع الدين مجرى الإعلام حتى لا يكاد المسلمون يتميزون عن غيرهم إلا بها كإقام الصلاة الخمس وصيام شهر رمضان وحج البيت ، فإنهم لو أهملوها لالتحقوا في ظواهر ما يبدو للناس^(٢) من أفعالهم بالذين لا يدينون دينهم ولا يعتقدون ملتهم ، فكان القائم في نفس كل ذي دين ، وراجع من معتقده إلى يقين من الميل إلى اظهار ما عنده ، والكرهية من أن يظن به

(١) عتاقاً إلى الروى .

(٢) لالتحقوا في ظواهر احوالهم وما يبدو للناس ... الخ وهو الصواب .

ما يخالف عقده هو الحامل لهم على إقامة هذه الطاعات ، والتمسك بها من بين أصناف العبادات .

ومنها القيام بما ان اهلوه لم يحتملهم ولاية الأمور عليه ، نحو الزكاة التي تلزمهم في مواشيهم وزرعهم و كرومهم وما يظهر من أموالهم ، فإنهم لو منعوها لأخذت منهم قهراً ، أو^(١) انتزعت من أيديهم جبراً ، ونحو اجتناب الكبائر التي بها الحدود . فإن السلطان قائم بأمر الله تعالى جده على كل نفس بما كسبت تردعها عن السيئات وتحول بينهما وبين الموبقات ، فمن واحد يقتله ، وآخر يقطعه ، وثالث يجلد ، ورابع يجبسه ، وخامس ينفيه ويعذبه ، ولولا ذلك لانهمكوا في هذه الجنايات انها كمهم فيما لا حد له^(٢) فيه من أصناف الخطيئات ، ولهذا قال بعض السلف : « ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن » ، وقيل : لا بد للناس من وزعه^(٣) ، وهم الولاة وعما لهم لأنه لولا مكانهم لأكل الناس بعضهم بعضاً ، وعطلت الحقوق وانتهكت الحرمات ، فعم الصلاح بمكانهم واعتدل النظام بحسن قيامهم .

ومنها اعراضهم عن الحرمات^(٤) التي لا يشتهونها ولا تقبل إليها قلوبهم ، وتنكرها نفوسهم كلحم الخنزير والميتة والدم ونكاح الأم والبنت والأخت فإن كل غرض يكون لأكل لحم الخنزير في أكله فهو حاصل له في غيره ولا فائدة في لذة أو منفعة تكون فيه إلا ومثلها أو أكثر منها موجود في اللحوم المحللة ، ثم انها على كثرتها واختلاف طعومها تزيح^(٥) علة القرم^(٦) ، وتقضي شهوة المطعم ، فلا يبقى معها إلى لحم الخنزير حاجة ، ولا نفع اليه ضرورة ، واما الميتة والدم فإنهما لحبشهما ورجاستهما لا يشتهيان ، ولو كانا محللين لكانا يتركان ، فكيف وهما محظوران ومحرمات ! واما نكاح المحارم فان في القلوب النفار منه والكره له لما فيه من هتك الحرمة ومجانبة^(٧) الحياء والشبه بالبهايم .

(١) وانتزعت من أيديهم جبراً ...

(٢) وانها كمهم فيما لا حد فيه .

(٣) والقول للحسن بن علي : لا بد للناس من وازع أي من سلطان يكفهم .

(٤) وعن الحرمات . (٥) تزيل . (٦) القرم : شدة شهوة اللحم .

(٧) مجانبه : ابتعاد ، تنحية الحياء بعيداً .

فصارت الشريعة في هذه الأبواب لموافقتها الأهواء مستعملة (١) ، كما صارت في المباحثات لمثل هذا السبب ممثلة ، ولولا ان ذلك كذلك ، لترك من شرب الخمر ما ترك من لحم الخنزير ، ومن الزنا بالأجنبيات ما هجر من نكاح المحارم والقربات . فعلنا ان ما اتبع من هذه الشرائع قلما حمل على اتباعها من الدواعي التي بينهاها .

ومنها التعامل بالعقود والمحافظة فيها على الحدود ، وذلك أن أحدهم لا يقضي عن صاحبه فيما يجب له من حق عليه ، ومن اعتدى على آخر في نفس أو مال لم يسك الآخر عنه ، حتى يرافعه إلى سلطانه أو قاضي بلده ، فأخذ على يده ، وأنصف المظلوم من ظالمه ، فصاروا لذلك يتبايعون ويتواهبون ويتكاثرون ويتعاقدون العقود المشروعة ويذرون الغصب والاختلاس والنهب في الامر الأكثر ، والأعم الأغلب ، لمعرفة بما يلحقهم فيها من التبعات ، ويؤديهم إليه عقباها من المثلات ، ثم قد يتفق خلال ذلك من ذوي الجهالة والسفالة هنات وزلات يؤتون فيها من الاعتزاز بأنهم عسى لا يلحقون ، ولا يقدر عليهم فيؤاخذون ، فتجتريء على ذلك قلوبهم ، وتقوى في الشر عزائمهم ، واما من غلب الخوف على قلبه وصار الاحتراز من همه ، فما أقل ما تقع منه هذه الأمور ، ولهذا صار الطريق المخوف إذا نقص (٢) بعضه ، أمن الناس فيه مدة ، ولم يعرض المكروه فيه الا ندره . فلولوا الردع من الفساد هو ما يخشى من الانكار الوحي (٣) لاستوت الأحوال ، وما ارتدع في كل وقت الجهال ، ولولا ان ما وصفنا استعمال الناس له من الشرائع بعد انقراض عصرى النبوة والخلافة ، جاز في (٤) الأصل الذي ذكرت لهم استعمالهم أبواب الشريعة كلها دقيقها وجليلها ، ولم يشذ عنهم منها إلا ما لم يبلغهم عنه خبر ، ولم يأتهم ببيانه اثر ، لأن من عمل من أمرين خوطب بهما أحدهما وترك الآخر مع تمكنه منه ، واقتداره عليه ، فقد أشعر أن عمله لمسا عمل لم يكن لجرد الامر لكن لداعية (سوء) دعته اليها (٥) ، ولولا ذلك لما كان فعله ما فعل اولى به من فعل ما ترك ، ولا تركه ما ترك اولى به من ترك ما فعل ، وما ينبغي أن يكون هذا بكذا مع تجلي آيات الله تعالى جده

(١) لموافقتها لاهواء مستعملة . (٢) اذا نقص نقصه .

(٣) الوحي : الكلام الخفي ، أو السريع . (٤) اجاز على الاصل .

(٥) لكن لداعية سواء دعته اليها . لكن لداعية سواء عنه اليها .

لبصائر العقلاء ووجوب حقوقه في معارف العلماء ، بل الأمر اللازم والفرض الواجب أن يجعل المؤمن أمانة الله أمامه ، وطاعة الله منهاجه ، فلا يفعل الخير إلا إعظاماً لأمره ، ولا يدع الشر إلا إذعاناً لنهيهِ . ولقد استقصر كثير من العلماء من يفعل الخير رغبة في الثواب ، ويدع الشر خيفة من العقاب ، وشبهوه بعبد السوء الذي لا يخدم مولاه إلا طمعاً في نعمته وتحرزاً وتخوفاً من سطوته ، وبالجمار البليد الذي لا ينساق حيث يساق إلا بالضرب والارهاق ، وإن كانوا لا يختلفون في أن الرجاء والخوف قدما صدق ومنزلتا حق عند الله جل ثناؤه . وإنما ذهبوا في ذلك إلى أن الله تعالى جده وإن كان أطمع وحذر ووعد وأوعد بأنه تبارك وتعالى لو أمر ونهى ولم يضمم إلى الأمر وعداً ولا إلى النهي وعيداً ، لكانت الطاعة له واجبة ، والمعصية محذورة ^(١) ، كما قال عمر رضي الله عنه لصهيب : « نعم المرء صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » . فثبت أن الثواب والعقاب زيادتان واقعتان بعد لزوم الفرض ، العبد بعبودته ، وارتهان حقوق الله تعالى جده لرقبته ، فالأليق به إذا والألزم له أن يؤدي ما عليه طاعة ، وينتهي عما ليس إليه عبودة ، ثم يكون رجاؤه الثواب إذا أطاع ، وخوفه العقاب إن عصى للبقية ^(٢) بوعده الله ووعيده ، لا لمعنى سواهما فيتباديا منه إيماناً ويكتبا له برأ وإحساناً ، لا سبباً حاصلاً على أداء اللوازم ، والانتهاه عن المعاصي والمحارم ، وإذا كان هذا فيمن وصفنا كما بيناه ، فكيف بمن لا يخطر بقلبه من وعد الله ووعيده خاطر ، ولا يزجره عن سؤئهم به من هيبة الله زاجر ، وإنما أمامه الهوى أو الضرورة أو خوف الاقران أو نهب ^(٣) السلطان أو حذر القيل والقال ، فإذا انتهى إلى ما خلاه الله تعالى فيه وامانته ، ولم ينصب عليه قيما ، ولم يقيض له به مطالباً ، ولم يجعل له فيه مخاصماً ، ولم يخش أن يرفع فيه إني وال أو قاض ، نبذه وراء ظهره وأعرض عنه اعراض من لا يحفل به ^(٤) ، ونسب من يأخذ نفسه به إلى التصنع ^(٥) أو سخر منه كما يسخر من الهازل المتلعب ، اما يستحق أن يكون مثله مثل العبد السيئ والجمار السيئ ، كلا انه أسوأ حالاً منهما ، لأن العبد إنما يدري طاعة مثله ، والجمار جاهل بصاحبه لا علم له به وحقه . فاما من تقدم وصفه فلأنما يدع طاعة ربه ويضيع حق

(١) أ : محدودة . (٢) أ : ان عصى للثقة بوعده الله ووعيده .

(٣) ح : او نهب السلطان . (٤) ح : من لا يحفل به .. (٥) أ : الى السمع ..

خالقه ، ولعل بعض المنهمكين في المعاصي خير منه في بعض المعاصي ، لأنه ان لم يخف الله تعالى جده لم يخف من دونه ، ومن كانت طاعته من أحد الوجوه التي تقدم ذكرها لا يخاف الله ويخاف من دونه ، ومن لا يقدم أحداً على الله في حذره أمثل حالاً ممن يقدم خلق الله على الله في بره . فاما حال هؤلاء المذكورين في الشغل بعلم الدين فسوف يقرب من حالهم في العمل بشرائعه ، لأنهم إذا خصوا بالعمل اياماً بأعيانها خصوها كذلك بطلب علمها ، واما ما خرج من جملتها مما يدخل في جملة الأبواب التي كتبناها في شعب الإيمان وتوخينا شرح ما فيها مما تيسر من البيان ومما يرجع إلى علم القرآن تفسيره وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومتنسخه ، وعلم السنن مستفيضها وشاذها ، وموصلها ومقطوعها ، ومسندها وموقوفها ، ومختلفها ومتفقها ، وعلم الاجماع والاختلاف ، واللسان الذي نزل به القرآن ، وجاءت به السنن والآثار ، فإن الأكثرين عنه معرضون ، ولما قد يستغنى عنه في أغلب الأحوال عليه مؤثرون . قد رضوا في التوحيد لأنفسهم بمحض التقليد وعابوا الذين جاهدوا أعداء الله تعالى جده فيه ، بالكلام الذي يقصر عنه نوافذ الهام ، والجدال الذي لا يبلغ شأوه شديد القتال ، حتى أقاموا قناة الدين ، وهدموا بنيان الملحدین ، وبلغوا في نصره الاسلام وامانة ما نصب الله عليه من الاعلام ما لم تقارب ملي ولا معطل في نصره قوله مقداره ، ولم يبلغ في تأييده والدفع عنه معشاره ، وما تركوا لمخالفهم حجة إلا ادحضوها ، ولا علة إلا نقضوها ، ولا شبهة إلا جلوها ، فليس لهم اليوم بحمد الله كلام يروع مؤمناً ، أو يشكل موقناً ، وما يخلفهم عن الدخول في دين الله إلا العناد وحب الفساد . ثم ان هؤلاء الموفقين لنصرة الله ، القائمين بحق هذه الدعوة ما خصموا أصدادهم إلا بالقرآن وبما أودعه الله تعالى من البيان إلا أنهم لم يقنعوا بعلم ما ظهر منه وتجلي دون الاحاطة بما يظن منه واختفى ، ولا بالوقوف على ما يتلى من تنزيهه ، دون الوصول إلى ما يدل من تأويله ، فصرفوا عظم همهم اليه ، وقصروا جل شغلهم عليه . حتى أدركوا حقائق ما جاءهم به الرسول ، واستبان لهم من قبلها الصحيح والمعلول ، وجدوا بعد ذلك واجتهدوا وقرروا مما عرفوا لكل شبهة مدفعاً^(١) ومن كل معضلة مخرجاً ، فمن فارقه في علم ما نزل من القرآن ، في هذا العظيم من الشأن ، كان لمعظم القرآن هاجراً ،

(١) أ : واجتهدوا ان قدروا مما عرفوا لكل شبهة .

وإن كان بما عده يصير خابراً^(١) ، لأن آيات الاعلام في كتاب الله أكثر من آيات الاحكام . وقد ذم الله تعالى وجل ثناؤه ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ ، وأقسم ليسألنهم أجمعين : عما كانوا يعملون ﴿٢﴾ ، فكيف يسع^(٣) عاقلاً أن يحتذى حذو مسؤول في القيامة ملوم ، أو موبخ فيها مذموم . وكما نزل القرآن بالاعلام والاحكام ، فكذلك قد نزل بالآداب ومكارم الاخلاق ، والاثابة عن حقائق العبادة التي تلزم المكلفين أن يأخذوا بها أنفسهم فيكونوا لله داخرين . وفصلت السنة ، ولخصت منها ما فصلت من حمل الاحكام ، ولخصت من جوامع الحلال والحرام ، ونهجت للناس من الآداب المحمودة والسنة المرضية ، في اقامة العبادات ووجوه المعاشرات والمعاملات . وما يحق لكل امرئ أن يحافظ عليه في نفسه ومع غيره مثل ما نهجت لهم من احكام المعاقبات والجنایات والمظالم والخصومات وما شيء من ذلك إلا وإلى القرآن مرجعه ، وإلى بعض معانيه منزعه . فمن ألحق هذه الأبواب بالزوائد والفصول ، وميزها عن سائر الأركان والفصول ، لم يحصل من علم الدين إلا على القليل ، وتلك منزلة لا يحمدها أهل الحصافة والتحصيل . وإذا كان هذا حال من لا ينظر في هذه الأبواب غفلة واشتغالا عنها بغيرها ، فكيف بمن يسمي الحديث حشوا ، والتفسير قصصا ؟ وإذا سمع شيئاً من محاسن الشريعة قال : هذا متاع المذكرين . فإن نبا عنه فهمه قال : انه كلام المبتدعين . وان جرى عنده علم اللسان قال : هذا علم المؤدبين . فان من كان هذا رأيه في هذه الأبواب لم يطلب علمها ولم يحم حولها ، لأنه إنما يطلب علم الشيء من عرف قدره . ومال اليه قلبه . والعلم لا يتعرض لكارهية . ولا يتصدى للزاهدين فيه ، وما الناس وان تمنوه بنائليه ، حتى يطلبوه أجد الطلب ، ويرغبوا فيه أشد الرغب ، وما هو بمعطيههم بعضه حتى يعطوه كلهم ، وإذا اعطوه كلهم كانوا من اعطائه إياهم البعض على خطر ، فكانت عاقبة هؤلاء الراصنين من علم الدين بأيسره والظانين انهم قد حصلوا على جمهوره أو أكثره ، وان خسروا منه ووزروا من عظيم الاثم وما وزروا بنبزههم^(٤) اخوانهم الذين جدوا في طلب الآثار وجمع

(١) أ : يصير خائراً .

(٢) سورة الحجر - آية ٩١ - ٩٣ . وقد وردت : « فوريك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون . عضين : الكذب ، ويخاطب به المشركين الذين جعلوا القرآن كذباً وسحراً وكهانة وشعراً .

(٣) أ : فكيف يسمع عاقلاً .. (٤) نبز : لقب .

السنن والاخبار لقب الحشو ، واطلاقهم ألسنتهم فيهم بالهجر واللغو . وإنما أتى القوم من حيث ظنوا أن تعظيم علم الاحكام الذي يعرف بالفقه لا يتم إلا بالوضع من غيره والازراء بمن يتعاطاه ويشغل به . وكانوا في ذلك كمن يصنع من قدر سورة ليرفع به من قدر سورة ، أو يزرى بسنة ليعلي به قدر سنه . والانصاف في ذلك أولى بالمسلمين من التشدد في الخلاف ، والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . ومن نظر وتبين علم : ان الفقه ان كان يستوجب الثناء ويستحق المدح والاطراء لأنه علم اصله وحي . فما وصفناه من اضراب علم الشريعة ، وحي أصله ، تنزيل كله ، وان كان ذلك لما يحتاج اليه فيه من الفهم والفتنة ، فما علم من العلوم إلا ومنه جلي ومنه خفي ، ولا وجه لادراك الخفي إلا الاستدلال بالجلي عليه ، ولا سبيل إلى الاستدلال بالجلي على الخفي إلا بعد إدراك المعاني وتبينها ، وفي ذلك ما يبين ان اسم الفقه علم العلوم ، الشريعة كلها ، اعلاها الذي يتوصل بها إلى معرفة الله تعالى جده ووحدانيتها وقده وعامة صفاته ومعرفة أنبياء الله ورسله (١) ، والفرق بينهم وبين من يدعي مثل ما ادعوا ، ولا يأتي من البينات بمثل ما أتوا ، وما بعد ذلك من علم العبادات وأحكام الاكتساب والمعاملات ، والحدود والجنايات ، والفصل بين المتنازعين ، وإيصال الحقوق إلى المستحقين ، ومن علم الأحوال والأخلاق والآداب والسيرة الحميدة والعشرة الجميلة ، والمروءة التي هي قرينة العدالة ، وابقاء معاني العبادة على تصرف الأحوال في الجملة . وعلم مع ذلك ، ان التذكير مما أمر الله تعالى جده في كتابه ، والله لا يأمر بالهزل ولا بما يهزأ به ، ولا بما يصنع امتثاله من تمثيله ويحط استعماله من قدر مستعمله ، قال الله عز وجل : ﴿ وذكروا ان الذكرى تنفسع المؤمنين ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكافر ولا مجنون ﴾ (٣) . فيسمى الله تعالى جده ، نبيه - ﷺ - مذكراً ، وسمى تبليغه وتعليمه تذكيراً ، وأمره به ارشاداً وتبصيراً . فكيف يعرض لأسباب (٤) الضعة ما جعله الله تعالى من أسباب الرفعة ؟ وكيف يجري في اعداد أهل النقص طائفة : قائدها نبيها وإمامها رسولها ؟ أو كيف يخرج علم

(١) الفقرة من (.. جده ووحدانيتها وقده وعامة صفاته ومعرفة أنبياء الله ورسله) وردت في نسخة حلب فقط .

(٢) سورة الذاريات - آية ٥٥ . (٣) سورة الطور - آية ٢٩ .

(٤) ورد في جميع النسخ : « فكيف يعرض لاسماء الصنعة » ، ولعل هذا الخطأ حاصل من النسخ .

التذكير من جملة الفقه وهو لا يقع إلا من أولي الفطنة والتمييز والخبرة بما يوجبه الحال ويرجى ان ينبجع فيمن يذكره المقدار الذي لا يستكثر ، فيمل منه ، أو يتضجر ، وبالوقت الذي يكون التذكير فيه أنفع ، ومن قلوب السامعين أوقع ، وينبوع الذكر الذي يكون إلى القبول أسرع ، وفي القلوب أنجع^(١) . وإذا تؤمل هذا المقام وما جرى فيه من الكلام ، وجد اشبه المقامات بالقضاء بين المتخاصمين ، والحكم بين المتنازعين التذكير ، لأن المذكر يفصل بين دواعي النفس ، فيميز المردية منها عن المنجية ، ويلخص الموبقة من المعتقة ، ويرجح دواعي العقل على دواعي الهوى والطبع ، ويلزم السامعين أن يقفوا عند الحدود المحدودة لهم ولا يتعدوها ، ويلزموا المثل الممثلة لهم ولا يتخطوها ، كما أن القاضي يفصل بين المحق في دعواه والمبطل الراكب هواه . ويميز البينات عن دواحض الشبهات . ويرجح من أصنافها ما يجب ترجيحه ، ويقدم منها ما يحق تقديمه ، ويلزم المتحاكمين اليه أن ينتهوا إلى ما يوجبه الحكم لهم ، ولا يرضى ببغي ان ظهر له منهم . فإن كان علم القضاء فقها كما يحتاج القاضي اليه من الفهم والفطنة والذكاء والخبرة ، فعلم التذكير مثله ، لأنه في هذا المعنى شكله . وبعد هذا فكيف ينفر الناس عن علم القصص وهو من براهين النبوة واعلام الرسالة ، إذ يقول الله عز وجل : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾^(٢) . هذا وقد سمى الله عز وجل القرآن قصصاً ، فقال : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾^(٣) . وقال : ﴿ إن هذا لهم القصص الحق ﴾^(٤) . وإنما الاقتصاص اذا الخبر على وجهه ، فسواء كان الخبر عنه أنباء الأولين أو الأحكام أو أحكام ما شرع للآخرين ، فكل ذلك قصص . والفقه محتاج فيها اليه لأن به يدرك مقاصد الاقتصاص ، وبادراكها يتميز العام عن الخاص ، وليست بتنا من تعظيم اسم الفقه والتنويه باسم الرأي وحسه ، ولا ذاك بالذي يلحقنا منه مساءة ، فانا بحمد الله من أهل ذلك كله ، وانا لنحن احكمنا معاهد الرأي والنظر ، بعد أن أوضحنا معالم النقل والخبر ، فأبيننا على من خالفنا القياس ، وأوثقنا منه القواعد والأساس ، وفصلنا أقسامه

(١) ح : وفي القلوب أنجع وهو الصواب . (٢) سورة هود - آية ٤٩ .

(٣) سورة يوسف - آية ٣ . (٤) سورة آل عمران - آية ٦٢ .

ولخصنا شروطه واعلامه . وإنما يسوءنا أن يخرج من جملة الفقه ما ليس بخارج منها لتندرع بذلك إلى نبذه وهجره ، والبخس بحقه والازراء بقدره ، ولا ذلك بالذي يتصور به إلا من يراه ، ويركب في استحسانه له هواه . ولكننا من أهل عصر من الاعصار إذا نشأوا عليه ، وحدث قبل انقراضهم من يحتاج إلى الأخذ عنهم ، احتذى حذوهم ولزم نهجهم ، وظن ان لا علم إلا ما حصلوه ، وانهم لو علموا في غيره لأحكموه ، ولو أبصروا فيه نفعا لم يضيعوه . فلا تزال الاشياء على هذا تتلاحق ، والآراء منهم تتوافق وتتطابق ، حتى لا يوجد في الناس من يحسن من تفسير القرآن ووجوه الاخبار . وحكم التذكير الذي هو فصل بين السامع وبين هواه ، كما القضاء فصل بين المدعي وبين من أنكر دعواه . وعلم القصص الذي عظم الله تعالى شأنه ، وأظهر به النبي ﷺ برهانه ، إلا قليلا فتذهب من علم الشريعة أصوله ، وتعفو منه اعلامه ورسومه ، فذاك الذي دعاني إلى تأليف هذا الكتاب ، وتقسيمه على ما بينت من الأبواب . وقد أثبت فيه بتوفيق الله وعونه جملا من العلوم المهجورة المجفوة ، بمقدار ما حملته من الأبواب التي كتبتها في شعب الإيمان ، وضمنت كل باب منها من الكلام فيما يلتحق بسمته ، ويدخل في جملته ما يكتفي به ويوصل منه إلى غيره . فمن بلغه كتابي هذا فلا يحرم نفسه جزيل الحظ من الخير الذي سهلته له وسقته اليه بالاعراض عن تدبره ، وترك الوقوف عليه إلى أن يحظى بما جمعته وينعم النظر فيما ألفته ، فإن ذلك ان تيسر له ولم يخنه فهمه ، وحسنت في سعيه نيته ، رجوت أن يبتهج باذن الله تعالى أجمعه ، ولا يرى في شيء منه ان يدفعه ، وبالله التوفيق والتسديد ، والارشاد والقصـد والتأييد ، وهو حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .



القسم الأول

باب البيان عن حقيقة الإيمان

الإيمان اسم مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمُنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، ومعناه والغرض الذي يراد به عند إطلاقه هو التصديق والتحقيق لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب والأمر والنهي كل واحد منهما قول يتردد بين أن يطاع قائله وبين أن يعصى ، فمن سمع خبراً فلم يستشعر في نفسه جواز أن يكون واعتقد أنه حق وصدق ، فإنما أمن نفسه باعتقاد ما اعتقد فيما سمع من أن يكون مكذوباً له ملبساً عليه ، ومن سمع أمراً ونهياً واعتقد الطاعة له ، فكأنما أمن نفسه باعتقاد ما اعتقد فيما سمع من أن يكون مظلوماً أو مستسخراً ، أو محمولاً على ما لا يلزمه قبوله والإنقياد له ، فمن ذهب إلى هذا المعنى أنزل قول القائل : أمنت بكذا ، والمراد نفسي منزلة قولهم ووطنت نفسي على كذا ، أو حملت نفسي على كذا ، أو رصنت نفسي أو ذلتها ، وصنت نفسي عن كذا بمعنى أمنت (٢) ، أي بدا لي صدق وما سمعت بأذني ، وحق ما أدر كته بعقلي ، واعتقدته أمناً من الخطأ فيه ، ويكون تركهم ذكر النفس في قولهم : أمنت ، إختصاراً لما قد كثر استعماله كما يقال بسم الله بمعنى بدأت ، أو ابدأ باسم الله ، وحذف ذكر الإبتداء لكثرة الإستعمال . والله أعلم .

وفيه وجه آخر وهو أن يكون معنى أمنت ، أي أمنت بخبري أو الداعي لي من التكذيب ، والخلاف بما صرحت له به من التصديق والوفاق ، فإذا قيل : أمنت بالله ، فالمعنى أمنت الداعي إلى الله من الخلاف والتكذيب بما أظهرت له من الوفاق والتصديق

(١) سورة البقرة — آية ٢٣٩ .

(٢) ح : وصنت نفسي عن كذا بمعنى تصرنت ، وقد قال الله جل وعز « قو أنفسكم » أي اتقوا

فلا يبعد أن يقال : « أمنت نفسي » بمعنى « أمنت » ، أي بدا لي الصدق ...

والإيمان بالرسول ، إيمانه في نفسه من الشقاق عليه باظهار التصديق له . والإيمان بالملائكة والكتب إيمان المخبر عنها من الخلاف باظهار الوفاق .

وقد يجوز أن يكون إيمان من آمن بالله من الملائكة لا عن رسول كان إليه إيمانه بنفسه بحسن الاعتقاد لما أوجبه استدلاله من أن يكون الذي وقع له وسوسة أو ظناً ، ويدخل في هذا إيمان المستدلين من الناس أيضاً ، وذهب بعض الناس إلى أن معنى امنت بالله ، أمنت نفسي من عذاب الله بالإعتراف به والتوحيد له ، وهذا لا يصح لأنه لا سبيل لأحد من المؤمنين إلى القطع بأنه قد آمن عذاب الله ، وقد قال الله تعالى عز وجل : ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (١) ، ولأن الأمور بعواقبها ولا يدري أحد بماذا يختم له ، ولأن لقطة الإيمان ليست تستعمل فيما يعقب الذهاب عنه عذاباً فقط ، ولكنه مستعمل حيث لا يتوهم فيه عذاب ، لأن معنى الإيمان التصديق ، فقد يجوز أن يقول القائل لصاحبه فيما يحدثه : لا أؤمن بما تقول ، كما يقول : لا أصدق (٢) : ثم لا يكون المعنى لا أؤمن نفسي من العذاب بتصديقك . فبان ان ليس تأويل الآية ما قاله هذا القائل والله أعلم .

قوله تعالى ونصرتك بالقول فصل

ثم ان الإيمان الذي يراد به التصديق لا يعدو إلى من يضاف إليه ويلصق به الا بصلة وتلك الصلة قد تكون باء وقد تكون لاماً . أما ما جاء بحرف الباء فمنه قول الله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٤) ، وقوله جل وعز : ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٥) ، وأما ما جاء باللام فمنه قوله تعالى في قصة إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ فآمن له لوط ﴾ (٦) ، وقوله حكاية عن نوح صلوات الله عليه : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (٧) ، وعن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى وهارون

-
- (١) سورة الاعراف - آية ٩٩
(٢) ح - لا اصدق به .
(٣) سورة البقرة - آية ٤
(٤) سورة البقرة - آية ٢٨٥
(٥) سورة النساء - آية ١٣٦ ، سورة الحديد - آية ٧
(٦) سورة العنكبوت - آية ٢٦
(٧) سورة الشعراء - آية ١١١

صلوات الله عليهما : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ^(١) ، وعن أبناء يعقوب صلوات الله عليهم انهم قالوا لأبيهم : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ ^(٢) ، وعن كفار العرب أنهم قالوا فيما بينهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ ^(٣) . فمن الناس من قال : ان قولهم « آمنت به » ، و « آمنت له » لغتان يعبر بهما عن معنى واحد . والصحيح ما خالف هذا ، وهو أن قولهم : « آمنت به » إنما يراد إثباته وتحقيقه والتصديق بكونه ووجوده . وقوله : « آمنت له » إنما يراد اتباعه وموافقته ، . فالإيمان بالله تعالى جده إثباته والإعتراف بوجوده ، والإيمان له القبول عنه والطاعة له . والإيمان بالنبي إثباته والإعتراف بشبوته ، والإيمان للنبي موافقته والطاعة له . ويدل على افتراق الصلتين ان احدهما تصلح حيث لا تصلح الأخرى ، فإن بني يعقوب عليه السلام لو قالوا لأبيهم : « وما أنت بمؤمن بنا » لما صلح لذلك . ولو قال كفار العرب : « ولا تؤمنوا إلا بمن اتبع دينكم » لما أدى ذلك لما أرادوه من المعنى . وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول للمنافقين : ﴿ لن تؤمن لكم ﴾ ^(٤) ، أي لن نقبل منكم عذرکم ، ولو كان مكانه : « لن تؤمن بكم » ، ما جاز ولا حسن . وقال جل ثناؤه : ﴿ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ ^(٥) ، ولو كان مكان ذلك : « ويؤمن بالمؤمنين » لما جاز ولا صلح . فثبت بما اقتصصنا ان الصلتين موضوعان لمعنيين متغايرين لا لمعنى واحد . ويدل على صحة ما ذكرت ان اسم التصديق الذي هو حقيقة الإيمان قد يحتمل صلتين : احدهما الباء والأخرى الهاء . فأما الباء فإنه يليق بالتصديق وبما يتصرف عنه من فعل ونعت . وأما الهاء فإنه يلزم ما يتصرف عنه من فعل ، فإذا جاء النعت جازت اللام مكان الهاء ، فيقال : « صدقت فلاناً وصدقت به » ، فمعنى صدقته أثبت قوله وخبره ووثقت بصحته ومعنى صدقت به : أثبت وجوده وكونه . ثم يقال : صدقت به وأنا مصدق . وإذا قيل صدقته ، جاز أن يقال : « وأنا مصدقه ومصدق له » ، قال الله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ ^(٦) ، ولا يصلح مكانه ومصدقاً بما بين يديه لأن الغرض ، ان هذا الكتاب

(١) سورة المؤمنون - آية ٤٧

(٢) سورة يوسف - آية ١٧

(٣) سورة التوبة - آية ٩٤

(٤) سورة آل عمران - آية ٧٣

(٥) سورة المائدة - آية ٤٨

(٦) سورة التوبة - آية ٦١

مثبت من وحدانية الله تعالى وقده ووجوب طاعته وتحسين العدل ، وتقييح الظلم والشهادة للذين جاؤوا بالكتب المتقدمة ، بأنهم جاؤوا بها من عند الله تعالى ما أثبتته تلك الكتب أنفسها . ولو قيل : « مصدق لما ^(١) بين يديه من الكتاب » ، لصلح ، فعلم ان اللام قائمة مقام الهاء في صدقته . ولو قيل : « ومصدقاً بما يديه » ، لم يدل ذلك على أكثر من أنه أثبت أن كتباً كانت قبله ، فثبت بهذا افتراق الصلتين ، وتغاير ما يراد بهما ، الله أعلم .

وما ينبغي لأحد أن يستنكر هذا الفرق ، فإن الوجود منه هو الموافق للصواب والحكمة إذ كان ^(٢) الإعراف بالله جل جلاله ، لا بد من أن يسبق حتى يصح القبول عنه وطاعته وعبادته من بعد ، والإعراف بالنبي كذلك لأنه يسبق ، ثم تكون متابعتة والقبول عنه ، ولو تجردت المتابعة بفعل ما يأمر به ، والإنهاء عما ينهى عنه عن الإعراف بالنبوة لما سلمت ، ولا سلمت نفعت ^(٣) ، فكان حقاً أن يعود الأصل من هاتين الخصلتين بإحدى هاتين اللفظتين والتابع منهما بالأخرى . فيكون التصديق بالله إثباته والإعراف بوجوده ، والتصديق له قبول شرائعه ^(٤) ، واتباع فرائضه على أنها صواب وحكمة وعدل ، والطاعة له فيها لازمة ، والمحافظة على حدوده ، والثقة بوعده ووعيده .

وكذلك التصديق بالنبي ، غير التصديق له ^(٥) . فالتصديق به : هو الإعراف بوجوده وكونه وإثباته نبياً في الجملة . والتصديق له : اتباعه وطاعته وقبول ما جاء عنه ، وكذلك الإيمان بالله : هو الإعراف به وإثباته : والإيمان له : طاعته واتباع أمره . وعلى هذا الإيمان بالله أو بالنبي ^(٦) ، إيمان بالدلائل التي دلت عليه ، لأنه قبول لدلائلها عنها ، وانقياد لموجها . والإيمان بالكتاب ^(٧) إيمان للدلائل التي دلت على أنه من عند الله ^(٨) .

(١) ح : مصدق ما بين يديه . (٢) أ : ... والحكمة إذا الاعتراف ...

(٣) هكذا وردت في جميع النسخ ، والمعتقد ان الصواب هو : « ولا سلامة نفعت » .

(٤) أ : والتصديق له وقبول شرائعه .

(٥) أ : غير التصديق ، فالتصديق ..

(٦) الإيمان بالله أو بالنبي إذا أردت قبلت ما فيه ونهيت بوعده بالدلائل .. وفي نسخة حلب

حذفت هذه الفقرة وهو الصواب .

(٨) ورد في الاصل « مضاف » .

(٧) أ : على انه من عند الله ايمانا .

فاما إذا قلت : « آمنت بالكتاب » ، لم تكن دللت على أكثر من أنك أثبتته كتاباً لله تعالى ، والإيمان بالنبي إيمان لله لأنه قبول لدلالته التي أيده بها ، وطاعة له فيما أتى به من عنده ، والإيمان بالله إيمان بالنبي لأنه إجابة لدعوته ومتابعة له على مقالته . وقد يجوز أن يقول : آمنت للكتاب والتزمت العمل بأمره ووعيده . فإن قال قائل : فما يمنع أن يكون الإيمان بالله إيماناً لله ؟ لأن الإيمان بالله من فرائض الله ، وطاعته فيه إيمان له ، والإيمان بالنبي إيمان للنبي لأنه مؤمن بنفسه كما هو مؤمن بالله ، والإقرار له بذلك متابعة له على ما هو عنده ، فرجع الأمر : إلى أن الإيمان بمن يضاف الإيمان إليه والإيمان له سواء ، فالفرق بينهما ساقط !

فالجواب : إنا لا ننكر ان يكون هذا كذا إذا كان أحد هذين المعنيين مضافاً^(١) إلى صيغة اللفظ الآخر وإلى تأويله ! وإنما ينكر أن يكون جميعاً مضافين إلى صيغة اللفظ إذا كانت الشواهد التي تقدم ذكرها تشهد بأن كل واحدة من اللفظتين موضوعة لغير ما وضعت له الأخرى . فكانت نفس الصيغة تدل على ذلك ، لأنه إذا قيل : آمنت بكذا ، أوجب ذلك الصاق الإيمان بذلك الكذا ، إذ الباء عندهم حرف إلصاق ، فلا يكاد هذا اللفظ يدل على أكثر من التصديق بذات من أضيف الإيمان بالله . فإذا قيل : آمنت لكذا ، أوجب ذلك إيماناً غير ملصق بذلك الكذا لكن واقعاً لأجله . فكان قولهم : « آمنت بالله » ، كقولهم « أثبت الله واعترفت به » . وقولهم : « آمنت لله » ، كقولهم : « خضعت لله ، والخضوع له عز اسمه معنى غير إثباته ، فلو جاز أن يقال : ان أحدهما هو الآخر . مع افتراقهما من حيث ذكرت ، لجاز أن يقال : ان اسم الصلاة لصيغته موضوع لطاعته ، إذ كانت الصلاة لله طاعة له ، والصيام^(٢) وكل عبادة مثلها ، فتكون الصلاة صياماً لأنها طاعة مثله ، أو الصيام صلاة لأنه طاعة مثلها ، وكل واحد منهما مستعمل حيث تستعمل الطاعة ، إذ كان كل واحد منهما طاعة . فإذا لم يحز أن يقال ذلك لافتراق الاسمين فيما صيغ كل واحد من اللفظين له من المعنى ، فكذلك الإيمان بالله والإيمان لله ، هذه منزلتهما . ويدل على صحة ذلك ان اسم الاسلام يصلح مكان اسم الإيمان عند وصله باللام ، ولا

(١) أ - واقفاً لأجله .

(٢) لم ترد الفقرة من .. « والصيام وكل عبادة ... إذ الصيام » في نسخة استنبول .

يصلح مكانه عند وصله بالباء . إذ قد يجوز أن يقال : « آمنت لله وأسلمت لله » ، ولا يجوز أن يقال : « أسلمت بالله » كما يقال : « آمنت بالله » . فثبت بهذا ثبوتاً ظاهراً إن الإيمان لله غير الإيمان بالله ، وإن الإيمان بالله إثباته والإعتراف به . فلما لم يكن من قولهم أسلمت بالله ، هذا المعنى ، لم يحز استعماله وإن الإيمان لله هو الطوعية له باتباع أوامره بعد الإعتراف به ، إذ كان اتباع الأمر مع الجحود لا يتحقق ، فلما كان ذلك إسلاماً للنفس وتسليماً لأمر الله ، صح أن يقال : « أسلمت لله » ، فبان عما (١) قلنا ان من قال : « آمنت بالله » ، كان الإثبات والإعتراف به هو المعنى المضاف إلى صيغة اللفظ ، وأما ما فيه من معنى الطاعة فهو من تأويل اللفظ لا من حكم صيغته . وأما من قال (٢) : « آمنت لله » ، كان الإذعان والطوعية له بقبول أوامره وسائر ما جاء من عنده ، هو المعنى المضاف إلى صيغة اللفظ . فأما ما فيه من معنى الإثبات له والاعتراف به ، من حيث ان اتباع الأمر والنهي لا يكون إلا مع الاعتراف ، فهو من تأويل اللفظ لا من حكم صيغته ، والله أعلم .

فصل

ومن هذا الوجه الذي بيناه أوجبنا أن تكون الطاعات كلها : فرائضها ونوافلها إيماناً ، ولم نوجب أن تكون المعاصي الواقعة من المؤمنين كفراً . وذلك أن الكفر بالله أو برسوله مقابل الإيمان به . فإذا كان الإيمان بالله أو برسوله الاعتراف به والاثبات له ، كان الكفر به جحوده والنفي له والتكذيب به . فأما الأعمال فإنها إيمان لله ولرسوله بعد وجود الإيمان به . والمراد به اقام الطاعة على شرط الاعتراف المتقدم ، فكان الذي يقابله هو الشقاق والمعصيان دون الكفر ، فلذلك قلنا أن تارك الاتباع مع الثبات على التصديق فاسق وليس بكافر . وكان هذا هو الذي يوجب اللسان إلى أن يحقق المعاني وينظر فيما يوجبه ، والله أعلم .

(٢) ح : ومن قال : آمنت ...

(١) أ : فبان لما قلنا ..

فصل

ثم ان التصديق الذي هو معنى الايمان بالله وبرسوله ينقسم : فيكون منه ما يخفى وينكتم ، ويكون منه ما يتجلى ويظهر ، وأما الذي يخفى فهو الواقع منه بالقلب ويسمى اعتقاداً ، وأما الذي يظهر فهو الواقع باللسان ويسمى إقراراً ويسمى شهادة . وكذلك الايمان لله ولرسوله ينقسم : إلى جلي وخفي . فالخفي منه هو النيات والعزائم التي لا تجوز العبادات إلا بها . واعتقاد الواجب واجباً والمباح مباحاً والرخصة رخصة والمحذور محظوراً والعبادة عبادة والحد حداً ونحو ذلك . والجلي ما يقام بالجوارح إقامة ظاهرة وهو عدة أمور : منها الطهارة ومنها الصلاة ومنها الحج ومنها العمرة ومنها الزكاة ومنها الصيام ومنها الجهاد في سبيل الله ، وأمور سواها ستذكر في مواضعها . وكل ذلك إيمان وإسلام وطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ إلا أنه إيمان لله بمعنى أنه عبادة له ، وإيمان للرسول بمعنى أنه قبول عنه دون أن يكون عبادة له ، إذ العبادة لا تحقق لأحد عز وجل .

فصل

ونقول : الخلاف في هذا الأصل الذي تقدم من قبل اللسان تمهيداً كثير ، ولكن القصد في هذا الكتاب ، الكلام على فريقين :

أحدهما : الذين يقولون ان التصديق بالقلب كاف لاثبات الايمان ومزايلة الكفر ، وان الإقرار باللسان وإن كان فرضاً ، فليس ان الكفر لا ينتفي إلا به ، وإنما هو كالصلاة والزكاة وغيرهما من أركان الاسلام . وهي وإن كانت فرضاً ، فالكفر ينتفي من دونها ، فكذلك الإقرار .

والآخر : الذين يقولون ان التصديق بالقلب واللسان معاً هما الايمان ، فمن اعتقد بقلبه وأقر بلسانه فقد استكمل الايمان ، وأما سائر الطاعات والعبادات فإسم الايمان لا يلحقها ، وإنما يقال أنها حقوق الايمان أو شرائع الايمان ، فأما الايمان نفسه الاعتقاد والإقرار . وأما نحن فنقول : ان إسم الطاعات (١) كلها فرائضها ونوافلها . فالاعتقاد

(١) أ : ان اسم الايمان للطاعات كلها فرائضها . . . الخ

إيمان ، وكل عبادة من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو جهاد أو غيرها فهي إيمان . ثم في تسميتها إيماناً وجهان :

أحدهما : ان كلها إيمان بالله عز وجل وبرسوله ﷺ .

والآخر : ان الاعتقاد والاقرار بإيمان بالله وبرسوله ، وسائر الطاعات والعبادات إيمان لله ولرسوله . وسنتكلم على كل واحد من الوجهين عند الحاجة إليه إن شاء الله .
والدليل على أن التصديق بالقلب لا ينفك عن الكفر دون أن ينضم إليه الاقرار باللسان إذا كان مقدوراً عليه - إن الله عز وجل أمر بالقول فقال : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (١) . ثم قال عز وجل : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا . وإن تولوا فإننا هم في شقاق ﴾ (٢) .
فأمر المؤمنين أن يقولوا : « آمنا » ثم أخبر - بقوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به - إن ذلك القول منهم إيمان ، وسمي قولهم مثل ذلك ان قالوه وإيماناً ، إذ لا معنى لقوله : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ﴾ الا فان آمنوا بأن قالوا : « مثل ما قلتم » ، فكانوا مؤمنين كما آمنتم . فصح أن القول إيمان ، وبأن قوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم فقد اهتدوا وان تولوا فإننا هم في شقاق ﴾ بعد ما ثبت ان تقديره ما وصفنا ان المعنى . فإن قالوا مثل ما قلتم فقد اهتدوا وان تولوا وأبوا وامتنعوا فإننا هم في شقاق ، ومشاقة الله تعالى كفر ، فصح ان القول باللسان محتاج إليه لنفي الكفر ، والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (٣) . ان ذلك القول لم ينقلهم عن الكفر ، لأنه كان بعد رؤية البأس ، فثبت أنه لو كان قبلها ، لنفعهم بأن كان ينقلهم عن الكفر إلى الإيمان .

ودلت السنة على مثل ما جاء به القرآن ، فروي أن النبي ﷺ قال : (أمرت أن

(٢) سورة البقرة - آية ١٣٧

(١) سورة آل عمران - آية ٨٤

(٣) سورة غافر - آية ٨٤ ، ٨٥

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها (١) . ومعلوم أن الإيمان هو الواجب للعصمة ، فلما أخبر النبي ﷺ : أن العصمة المزيلة (٢) بالكفر تثبت بالقول ، صح أن القول إيمان ، وإن الحاجة إليه كالحاجة إلى الاعتقاد لانتفاء الكفر ، والنظر يدل على صحة هذا القول ، لأن اللسان محل التوحيد كالقلب ، فإن القاصد إلى الإيمان كما يخطر بقلبه أن لا إله إلا الله ، ويوطن نفسه على أن ذلك كذلك ، فيكون موحداً بقلبه . فكذلك يجري لسانه بمثل ما كسب قلبه ويعبر عما في ضميره فيقول : لا إله إلا الله ، فيكون موحداً بلسانه ، فبان بذلك أن كل واحد من القلب واللسان محل التوحيد ، ووجب إذا كان اعتقاد التوحيد أمراً لا ينتفي الكفر بدونه أن يكون القول باللسان في هذا مثله ، وأن لا يقضي بزوال الكفر مع خلو محل التوحيد وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو أن الكفر لما كان يقوم بالعقد وحده وبالقول وحده ، لأن من تكلم بكلمة الكفر مختار عالمًا بمعناها غير حاك لها عن غيره كفر ، وإن كان لا يعتقد أن ما تنبي عنه الكلمة صحيح ، كما أن من اعتقد ضرباً من ضروب الكفر كفر ، وإن لم يعبر عنه بلسانه . دل ذلك على أنه لا ينتفي إلا باجتماع العقد والقول على نفيه ، لأنه لما احتيج إلى عقد القلب لنفي الكفر لم تكن العلة فيه ، إلا أن فساد العقد مثبت للكفر ، وهذا المعنى موجود في القول لأن فساده موجب للكفر ، فصح أنه محتاج إليه لنفي الكفر كالعقد ، فوجب أن لا يثبت الإيمان إلا بالجمع بين الاعتقاد الصحيح والقرار الصريح وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو أن الاجماع قد حصل على أن الاقرار فرض ، وإن كان مختلف في أن البراءة من الكفر تقع من دونه أو لا تقع ، فلا يخلو وجوبه من أوجه ثلاثة . أما أن يكون لشغل جاز حتى التوحيد للجمع بذلك بين ظاهر الإيمان وباطنه ، أو

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الإيمان » باب ، وفي صحيح مسلم « كتاب الإيمان » حديث ٣٨ ، ٣٠ . وفي صحيح الترمذي « كتاب الإيمان » باب ١ ، رقم الحديث ٢٦٠٦ . وفي سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ١ ، حديث ٣٩٢٧ ، ٣٩٢٨ .
(٢) المزيلة : المفارقة ، ح : أن العصمة الزائلة بالكفر .

ليعلم المقر غيره انه قد اعتقد التوحيد وترك ما يخالفه ، او لا لهذا ولا لذلك . ولكنه فرض كسائر الفروض التي هي الصلاة والزكاة والصيام ، فبطل أن يكون وجوب الاقرار ليعلم المقر غيره حال نفسه في الايمان ، فإن المنفرد بنفسه حيث لا بأس عنده ولا أحد معه يلزمه من الاقرار والتشهد بشهادة الحق ، ما يلزم التارك بين الجماعة ومعلوم أنه إذا كان خالياً بنفسه ، فليس يحتاج أن يعلم غيره إيمانه بل لا غير فيعلمه ، فثبت أن وجود الاقرار ليس للاعلام ، ودل على ذلك أيضاً انه لو أقر من حيث لا يسمع إلا لنفسه لسقط عنه فرض الاقرار ، فعمل أن وجوبه ليس لأعلام الغير ، وبطل أن يكون وجوبه كوجوب الصلاة والزكاة لأنه أخف كلفة وأقل شغلاً من الصلاة والزكاة والصيام ، ثم لا يتكرر تكرراً متديناً ولا يكرر امتزاجياً ، فلو كان وجوبه على أنه من فروع الايمان لتكرر كما يتكرر ما هو أشق وأثقل منه ، فإن قال : (١) فإن الاقرار يتكرر في الصلوات ، قيل : أول ما يجب الاقرار فإنها يجب في غير الصلاة فتكرره يجب مرة بعد أخرى في غير الصلاة ليكون مقصوداً بنفسه ، وأما إذا وجب في الصلاة فإنما يجب لتكملها ، وليس ذلك من وجوبها لنفسها (٢) بسبيل . ألا ترى أن عامة ما يجب على الصائم الامساك عنه ، يجب على المصلي الامساك عنه ؟ ثم لا يكون تكرر صيام لأنه شروط غيره وليس بمقصود في نفسه ! فكذلك الاقرار والله أعلم . ولما بطل هذان الوجهان صح الثالث وهو ان الاقرار انما يلزم لينضم إلى الاعتقاد ويعاونه على نفي الكفر (٣) والله أعلم .

وجه آخر : يدل على ان الاقرار انما يجب وجوب الاعتقاد ، انه يلزم العاقل البالغ معجلاً مضيقاً (٤) كما يلزمه الاعتقاد معجلاً مضيقاً ، فبان انه للجمع بين ظاهر الايمان وباطنه لا لدلالة الغير على استحداث الايمان ، فإن الفرض من الاقرار لو كان تعريف الحال لجاز أن يتأخر إلى أن تقع الحاجة إلى التعريف ، ولما لم يجوز تأخيره بعد حصول المعرفة كما لا يجوز تأخير الاعتقاد دل على ذلك على أنه لما قلنا من الجمع بين ظاهر الأمر وباطنه والله أعلم .

(١) أ : فان قال : فان الاقرار يتكرر لانه يتكرر في الصلوات .

(٢) أ : وجودها لنفسها .

(٣) أ : الكرم ، وهو من خطأ النساخ . (٤) في الاصل مضيقاً .

ووجه آخر : وهو أن الكافر إذا اعتقد وأقر كان مؤمناً ، ثم لا يلزمه في غير أحوال الصلاة أن يتكلم بشهادة الحق ، وإن اعترض في أمره شبهة فاحتاج إلى إزالتها للدفع عن نفسه كفاءه أن يقول : إني مسلم أو قد أسلمت من وقت كذا ، ولم يلزمه أن يأتي بالشهادة على وجهها (١) . فبان أن ذلك للجمع بين ظاهر الإيمان وباطنه لا لمعنى سواء ، إذ لو كان الدلالة على حال نفسه للزمه في كل حال من أحوال الأشكال الواقع في أمره أن يأتي بالشهادة على وجهها . وإذا لم يلزمه في ذلك ما يلزم في بدئ أمره ، صح أن مجموع الاعتقاد والاقرار هو الإيمان وبالله التوفيق .

فإن قال قائل : فما أنكرتم أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحده ، لأن الله عز وجل أمر بالإيمان بقوله : ﴿ آمنوا ﴾ والتصديق بالقلب إيمان في اللسان ، فمن جاء بذلك فقد وفى الأمر حقه وخرج عن عهده :

فالجواب أن التصديق المطلق قول القائل : صدقت ، بقول العرب : إن صدقت فصدقتني ، وإن أصبت فصبوني ، وإن أخطأت فخطئني ، وإن أسأت فسؤني ، على أن قيل لي : صدقت ، أصبت ، أخطأت ، أسأت . وقال الله عز وجل : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ (٢) . فسمى قوله : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ بعد تقديم الإيمان زيادة إيمان . فثبت أن الإيمان ليس التصديق بالقلب دون القول به ، وأيضاً فإن هذه الآية لم تتجرد عن سائر الآيات والسنة التي فيها اشتراط القول لثبوت الإيمان ، فوجب أن يكون محمولاً على الإيمان ومضمومه إليها . وأيضاً فإن لا خلاف بيننا وبين قائل هذا القول في أن الاقرار إيمان لأنه يقول الطاعات كلها إيمان ، والاقرار طاعة . فهو إذن إيمان . فإن كان قوله عز وجل : ﴿ آمنوا ﴾ محمولاً على الإيمان الجامع لجميع شعبه ، فالاقرار منها بل هو رأسها . وإن كان محمولاً على كل شيء يلحقه اسم الإيمان فلا ينبغي أن يكون التصديق بالقلب أندر إليه من التصديق باللسان ، ولا التصديق باللسان أندر إليه من التصديق بالقلب .

(١) ح : على وجهها ، ويلزمه في أول الأمر إذا أسلم اعتقاده أن يأتي بالشهادة على وجهها .

(٢) سورة الأحزاب - آية ٢٢ .

فان قال قائل : (١) ما أنكرتم أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحدة لقول الله عز وجل : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ : لَنْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . فاخبر أن القول ليس بإيمان وأن ما في القلب هو الإيمان .

فالجواب : ان الآية ان كانت توجب أن لا يكون القول إيماناً ، فإنما ذلك في القول العاري عن الاعتقاد ، ولسنا نخالف ذلك ، بل نقول به ، فإن قال : فإن في الآية أن التصديق بالقلب إيمان ، وأنه لو كان في قلوبهم ، لكانوا مؤمنين . قيل : لو كان في قلوبهم لكانوا مؤمنين لجميعهم بين التصديق بالقلب والقول باللسان لا التصديق بالقلب وحده ، لأن الله تعالى وصفهم بالقول ، لانه سلب ذلك القول اسم الإيمان ليعرى القلب عن حقيقته ، فدل على أن حقيقته إذا كانت موجودة في القلب كان وجود الإيمان بالقلب واللسان معاً لا باحدهما دون الآخر . فان قال : ما أنكرتم أن الاعتقاد وحده إيمان ، لأن من سلب البيان يصح منه الإيمان بقلبه ، ومن سلب العقل لم يصح الإيمان منه بلسانه . فعمل أن مدار الإيمان على القلب لا على اللسان ! فالجواب ان من سلب البيان صحت منه الصلاة بلا كلام ، ومن سلب العقل لم تصح له صلاة (٢) أصلاً ، ولا يدل ذلك على أن الجمع بين العقل والقول غير محتاج إليه في وجود حقيقة الصلاة عند القدرة على الجمع بينها ، فكذلك ما ذكرتم ، ثم لا يدل على أن الجمع بين العقل والقول غير محتاج إليه في وجود حقيقة الإيمان عند القدرة على الجمع بينها . وأيضاً فان من سلب العقل ، كما لا يصح منه الإيمان بلسانه فكذلك لا يصح منه الكفر بلسانه ، وذلك لا يدل على أن الكفر النافي للإيمان لا يقع باللسان ، فلذلك امتناع صحة الإيمان من المجنون لا يدل على أن نفي الكفر لا يقع باللسان ، والله أعلم .

فان قال : لما كان المكروه على الكفر يحفظ الإيمان على نفسه بالشبات على اعتقاده مع اجرائه الكفر على لسانه ، دل ذلك على أن الإعتماد في الإيمان على القلب .

فالجواب : ان المكروه ليس يحفظ الإيمان على نفسه ، بمجرد الاعتقاد ، لكن به وبالإقرار السابق الذي قدمه ثم لم يتبعه ما ينقصه ، وذلك أن القول الذي أكره عليه ،

(١) أ : فان قال : ما أنكرتم .

(٢) أ : لم تصح له اصلاً .

لا يكمل لنقص الإقرار السابق إذ كان المكروه لا يتكلم به لما تحته من المعنى ، وإنما يتكلم به لأنه محمول عليه بعينه ، فلا يخلص نفسه إلا به . فأوجب ذلك اهدار (١) كلامه حتى إذا هدر كان دوام الإيمان بالاعتقاد وبما تقدم من الإقرار الذي سلم عما ينقصه ويرفعه لا بالاعتقاد وحده ، والله أعلم .

فان قال : الإقرار عمل باحدى الجوارح الظاهرة ، فهو كالصلاة والصيام والحج والجهاد . ومعلوم أن كافرأ لو أسلم وقت صلاة أو قبل الفجر من ليلة من ليالي رمضان ، أو في وقت قد وقع النفي ، لم يتوقف إنتقاله عن الكفر وبرأته منه ، على فعل ما قد وجب من هذه الأعمال . فكذلك الإقرار شبيه بها ، فكان حكمه حكمها !

فالجواب : ان الاعتقاد يتوقف على الإقرار لأن المقدمه هو المعتقد ، والذي يجري على اللسان من الإيمان هو الذي يخطر على القلب ويعقد عليه . وإنما يفرق بين الأمرين الأدلة والوصف ، فان أحدهما يفعل باللسان ، والآخر بالقلب . واحدهما يظهر والآخر لا يظهر . وأما العمل نفسه ، فإنه متفق غير مختلف ولا ممنوع فيوقف الاعتقاد على الإقرار للجمع بين ظاهر الإيمان وباطنه . وأما سائر الأعمال ، فإنها غير المعتقد بالقلب ، والمعبر عنه باللسان ، وكلها تزدد من الاعتقاد والإقرار منزلة الإمارات من الصحيح ، لأن كل واحد بين الإعتقاد والإقرار صريح تصديق ، ولا يمكن أن يكون فوقهما أشد صراحة منهما . وأما الأعمال الأخر ، فإنها إمارات التصديق يعني أنه إذا كان عاقلاً لا يخضع بالتقرب إلى من ينكر وجوده ، ولا يتحمل الجهد والمشقة الغليظة في تكلف الأعمال وهو لا يشبهه . وإن كان يشبهه لا يرى (٢) أنه موضع رغبة إليه أو رهبة منه ، كانت إقامة العبادات المشروعة ممن يقيمها تصديقاً بسانعه ، وثقة بوعده ووعيده ، وتصديقاً لمن أدى إليه عنه ، انه يريد منه ما هو فاعله ومتعرف عليه . فأما أن يكون ذلك صريح تصديق ، فلا ! فلم تجز إذا وجد الصريح منه أن يتوقف الحكم به على وجود ما هو إمارة . لأن التوقف عن الحكم بأقوى الداليتين إنتظاراً لوجود أضعفها ، لا معنى له ، والله أعلم .

ودل على ما قلنا : ان رجلاً لو أقر لرجل بمال ادعاه عليه ، لاخذ بدفعه إليه ، ولم

(٢) أ : لأدى .

(١) اهدر كلامه : ابطله .

يتوقف الإقرار على الدفع حتى لا يكون صحيحاً إلا به ان كان الدفع - إذا وجد -
تصديقاً للمدعي كما كان قوله باللسان تصديقاً . وما ذاك إلا لأن القول صريح ، والدفع
امارته . فلم يجوز أن يتوقف صحة الصريح على وجود الإمارة . فكذلك هذا في الإيمان
والله أعلم .

ووجه آخر : رهو أن الاعتقاد والإقرار معاً إيمان بالله عز وجل ونزلاً منزلة واحدة .
وأما الأعمال فإنها إيمان لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، والإيمانان جميعاً واجبان ، غير أنهما
متغايران في الحد والحقيقة ، فلم يتوقف أحدهما على الآخر لذلك ، ولا تغاير بين الاعتقاد
والإقرار في حقيقتهما ، فاحتيج إلى وجودهما معاً ليقع به الجمع بين ظاهر الإيمان وباطنه
والله أعلم .

فان قيل : إن كانت الأعمال إيماناً لله عز وجل ، فهل وجدتم في كتاب أو سنة
إيجابها بهذا الاسم ؟ فإن كنتم لم تجدوه ، فليس علينا أن نقبله منكم بلا برهان .

فالجواب : إنا وجدنا ذلك لأن الله عز وجل ، أخبر عن قوم نوح عليه السلام : ﴿ أنؤمن
لك ، واتبعك الأردلون ﴾ (١) قدمهم بذلك ، فدل ذلك على أن نوحاً عليه السلام كان
يدعوهم إلى أن يؤمنوا له فيمتنعون . ولولا ذلك لما جادلوه بأن يقولوا له : ﴿ أنؤمن لك
واتبعك الأردلون ﴾ ، ولا ذم الله تعالى ذلك منهم إذ قالوه . وهكذا قوم موسى عليه
السلام : ﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ (٢) فدل ذلك على أن موسى وهارون عليهما
السلام كانا يأمرانهم أن يؤمنوا لهما . وإذا ثبت هذا في غير شريعتنا ، وكانت الشرائع
كلها متفقة على أنها أعمال وقع التعبد بها ، صح أننا من حيث أمرنا بها مأمورون بالإيمان
لنبينا ﷺ . فصح لنا ما قلناه من هذا الوجه .

فان قيل : ما أنكرتم ان معنى قولهم : « أنؤمن لك ، أنؤمن بك ، وكذلك معنى
أنؤمن لبشرين مثلنا ، أنؤمن ببشرين مثلنا !

قيل : ليس كذلك ! لأن قوم نوح لما قالوا : « أنؤمن لك ، وصلوا ذلك بقولهم :

(١) سورة الشعراء - آية ١١١

(٢) سورة المؤمنون - آية ٧ وقد وردت : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومها لنا عابدون » .

« واتبعك الأرذلون » ، فدل على أنهم أرادوا بقولهم ، أنؤمن لك . أنقبل عنك ونتابعك ولا نرى أحداً اتبعك إلا الأرذلون لنكون أسوة الأراذل ، وإنما نحن أمثال . وكذلك قوم موسى لما قالوا : « أنؤمن لبشرين مثلنا » وصلوا ذلك بقولهم « وقومها لنا عابدون » (١) ، فدل ذلك على أنهم أرادوا : نلتزم طاعتها فنكون قد عبدنا أنفسنا لهم وقومها لنا عابدون . فنحول الذلة عن قومها إلى أنفسنا ، والعز والرفعة عن أنفسنا إليها وإلى قومها . ولو كان المراد نفس التصديق لم يلق أن نعتذر من التأخر عنه بما حكى الله (٢) عنهم ، أنهم قالوا : لا في الطباع والعادات ولا في قياس النظر ، لأن أتباع الأراذل رجلا لا يجعل أن يكون صادقاً في قوله ، ولا العبادة تجعل أن يكون العبد صادقاً في قوله . فأما الاعتذار من ترك الطاعة والإنقياد بمثل ما ذكر فلائق بما في الطباع ، وإن كانت الشرائع لا تسوغه . فيثبت أن المراد بالاثنتين ما قلنا ، وفي ذلك ثبوت ما وصفنا . وبالله التوفيق .

وجواب آخر : وهو أنا وجدنا في الكتاب والسنة إيجاب العمل والندب إلى أعمال . ووجدنا في اللسان ان اتباع الأمر إيمان للأمر . فعلنا بذلك أن الأعمال التي أمر الله جل وعز بها طاعة له ، والفرق بين الإيماني قد مضى ذكره وتقريبه والله أعلم ، وبه العصمة والتوفيق .

ذكر الكلام مع الفريق الآخر : وأما الدليل على أن الطاعات كلها إيمان . فهو ان الإيمان عند العرب التصديق ، وكل طاعة تصديق ، لأن أحداً لا يطيع من لا يشبهه ، أو لا يثبت أمره ولا يعتد به ، وإذا كانت الطاعة لا تقع إلا لأمر أمر علمنا أن فعل الطاعة تصديق بالأمر وللأمر ، فكذلك قلنا أنه إيمان .

ووجه آخر : وهو أن الدوام على الإيمان إيمان ، وهو منزلة بعد الانتقال عن الكفر ، وإنما كان ذلك إيماناً لأنه طاعة ، فكل طاعة فهو إيمان قياساً عليه .

ووجه آخر : وهو أن كل مستحق بفعله ثواب وبتركه عقاب ، فهو إيمان قياساً على الإقرار والاعتقاد .

(٢) ح : بما حكى الله تعالى عنهم .

(١) المؤمنون : ٧ .

ووجه آخر : وهو أنه ما لا يلائم الكفر ولا (١) يكون معه برأ وقربة فهو إيمان كالإقرار .

ووجه آخر : وهو أن الله عز وجل وصف المؤمنين في كتابه فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَيْبِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۝ ﴾ (٢) ، فلما أخبر عز وجل : أن المؤمنين هم الذين جمعوا هذه الأعمال ، دلت ذلك على أنها من جوامع الإيمان . فان قيل : هذا حجة عليكم ! لأن الله جل وعز أثبت أن هؤلاء مؤمنون حقاً . وأنتم تقولون : أن هؤلاء الموصوفين ان لم يحجبوا ، ولم يجاهدوا من غير وقوع الكفاية بغيرهم ، أو ادعي أحدهم إلى شهادة قد تحملها فأبى ، أو جحد وديعة عنده ، أو كذب ، أو قتل ، أو زنا ، أو سرق ، أو شرب خمرأ ، فليسوا المؤمنين حقاً ، لأن إيمانهم إيمان ناقص ، فالآية توجب أن يكونوا مؤمنين حقاً . فهي إذا حجة عليكم !

فالجواب : ان هذه معارضة ساقطة عنا ، لأن الآية فيمن إذا تليت عليه آيات الله زادت إيماناً ، وليس المتخلف عن الفرائض ، والقعود عن الواجبات اللوازم ، من زيادة الإيمان بسبيل . فالآية فيمن إذا ذكر الله وجل قلبه ، وليس ارتكاب المعاصي ومخالفة الأوامر من إمارات الوجل . فصح ان الذين بيننا : ان يكونوا مؤمنين حقاً أو حسبنا أن يكونوا ناقصي الإيمان ، غير داخلين في الآية . وأيضاً فإنه إذا ثبت ان الموصوفين في الآية ، إذا كانوا بيا استوجبوا إسم المؤمنين حقاً لمكان الأعمال التي وصفهم الله بها ، ولم تكن الأعمال المتعبد بها هذه وحدها ، صح ان المراد بذكرها هي وما في معناها من الأعمال المفروضة أو المندوب إليها ، والصلاة إشارة إلى الطاعات التي تقام بالأبدان خاصة ، والانفاق مما رزق الله عز وجل إلى الطاعات التي تقام بالأموال ، ووجل القلوب إشارة إلى الإستقامة من كل وجه . ويدخل فيها اقام الطاعات والإبتعاد عن المعاصي . وأيضاً فإن الله عز وجل وصف الصلاة : أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . فبان بذلك ، ان المحافظ على الصلوات ، المقيم بها كما شرعت ، الموفي حقها من الإستكانة والتباؤس والخشوع لا

(١) ورد في الاصل لا تحيل ان يكون . . . ولعله من خطأ النساخ . (٢) الانفال : الآيات ٢ - ٤ .

يكون إلا منتهباً عن الفحشاء والمنكر ، فخلصت الآية إذا في الممتمتين من الفواحش التي وقعت بها المعارضة ، والله أعلم .

فان قيل في الآية ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ والوجل أمر يجده المؤمن مجتلباً ، لأن من اعتقد من وحدانية الله وعظمته وقدرته والثقة بوعده ووعيده ، ما يحق ويلزم ، ثم عكف على التفكير والتدبر ، ولم يعرف عنه إلى شهوات الدنيا بقلبه ، أورث في قلبه الخشية . وكلما استجد لله تعالى ذكراً استجد منه خشية ، فيكون ما يجده منها في قلبه من جلب اكسابه . فلذلك يصح أن يضاف إليه ويسمى إيماناً ، ويمدح به ويشني عليه به والله أعلم .

ووجه آخر : وهو أن الله جل وعز وصف الإيمان في هذه الآية بالزيادة . ومعلوم أن الإقرار والاعتقاد إذا كانا هما الإيمان ، فزيادة الإيمان تأكيد الاعتقاد ، وتكرير الإقرار فثبت أن تكرير التوحيد إيمان . فإذا ثبت ذلك بلغ أن الصلاة وما معها من أعمال الإيمان إيمان ، إذ يستحيل أن يكون التوحيد المنتقل به إيماناً ، والصلاة المفروضة وما يجري من الشهادة المفروضة فيها غير إيمان ، وبالله التوفيق .

فان قيل : ما أنكرتم أن زيادة الإيمان تأكيد الاعتقاد ، فإن الاعتقاد قد يكون في أول درجاته يدنو من الشك ، وقد يكون أكد ومن الشك أبعد . ولهذا صار المعتقد يوصف بقلبه الرأي مرة ، وبالإحاطة واليقين أخرى ، وكل واحد منهما منزله وراء الشك . فإذا جاز أن يزول الشك إلى غلبة الرأي ، ثم يزداد حتى يصير يقيناً ، جاز أن يزداد حتى يقارب الضرورة أو يكون بمثلها . فهذا زيادة الإيمان ولهذا قال النبي ﷺ : (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال شعرة من إيمان) (١) ، وأنه ﷺ أشار بذلك إلى زيادة الاعتقاد ونقصانه ، وقربه من الضرورة وبعده . وإلى هذا أشار الله عز وجل بقوله : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أتوا الكتاب ، ويزداد الذين

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة ، إنما هناك حديث مشابه ورد في صحيح مسلم « كتاب الإيمان رقم ١٤٧ ، ١٤٨ » وفي سنن الترمذي « كتاب البر والصلة ، رقم ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ » على النحو التالي : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان » .

آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ﴿١﴾ . فإن سياق الآية يدل على أن المراد بزيادة الإيمان زيادة اليقين .

فالجواب : ان هذا السؤال غير ملائم أصل السائل ، لأنه يأبى أن يكون الاعتقاد وحده إيماناً في مبتدئه ولا في دوامه . فلا يصح أن يقول : إن الزيادة التي تخص الاعتقاد زيادة إيمان ، بل ينبغي له أن يقول : ان الاعتقاد إذا تزايد وتأكد الإقرار معه بالتكرير أو بذكر شبهه ، فذاك ازدياد إيمان . وإذا قال ذلك ، فقد أوجب أن يكون ذكر الله ومدحه والثناء عليه ، الذي دعا تأكيداً لاعتقاد إليه إيماناً . وإذا دخل في هذا ، لم يجد بداً من أن يقول : وإذا بعثه ما تأكد من إيمانه على أن لا يدع طاعة إلا أتاها ، ولا معصية إلا اتقاها ، كان ذلك منه إيماناً .

فان قيل : اني كنت لا أقول أن الاعتقاد وحده إيمان ثابت ، لا نقول أن الصلاة وحدها إيمان ، ثم لم يمتنع من أن يقول : ان أقام الصلاة زيادة إيمان ، فلم أمتنع علي أن أقول تأكيداً لاعتقادي (٢) زيادة إيمان ؟ وقيل له : ليسا سواء ، لأن زيادة الاعتقاد والإقرار بالصلاة عندي كزيادة المال بانضمام مستقاد منه مستقاد ، اتفق الجنس أو اختلف ، وكل شيء من ذلك حدث ، فلا يقتضي صحة وصفه بالزيادة معي سوى سلامة الحادث قبله . فكذلك هذا ، وأما أنت فإنك تجعل الاعتقاد الماضي بما حدث من تأكده أقوى ، وتلك القوة للحادثة محض الاعتقاد ولا تتمدها إلى الإقرار . وإذا كان عندك ، ان مجموع الاعتقاد والإقرار هو الإيمان ؟ لم يكن لك أن تقول : ان تأكد الاعتقاد وحده وقوته زيادة إيمان . واما أنا فإني أجعل سابع الأعمال زوائد إيمان من طرق كثيرة الأجزاء والعدد . فكلما أحدث منها حادث ، وصادفه ما تقدمه ثابتاً ، صح لي أن أقول زيادة إيمان ، لأنه من طريق العدد . فكثير بما تقدمه ، والذي تقدمه بكثير به . وهذا فرق ما بيننا .

وجواب آخر : عن أصل الكلام وهو الذي يسلمه ، من أن تأكد الاعتقاد زيادة إيمان ، حجة عليه . لأن أدنى اليقين كاف للنقل عن الكفر إلى الإيمان . ثم كان ما جاوزه

(٢) أ - لاعتقاده زيادة الإيمان .

(١) المدثر : آية ٣١ .

مما يدعي المتيقن من المضطر زيادة إيمان باتفاق ، ولم تكن العلة فيه إلا أنه زيادة تصديق .
فكذلك كل حادث من طاعة فهو فصل تصديق ، لأن الطاعة لا تكون إلا لأمر مرغوب
إليه مرغوب إليه . فإذا وجدت من أحد كان وجودها تصديقاً بالمعبود والموعود . فوجب
أن يكون ذلك إيماناً ، وحدوثه حدوث إيمان .

فان قال : التصديق الواقع بالفعل هذا الذي سبق وقوعه بالاعتقاد . وإنما الفعل
اظهار لذلك التصديق ! قيل : هذا لا يمنع من أن يكون الفعل تصديقاً سوى التصديق
الواقع بالاعتقاد . فيكون انضمامه إليه زيادة تصديق حادث ، كما ان الاقرار اظهار
للمعتقد أيضاً ثم لا يمنع ذلك من أن يكون تصديقاً سوى التصديق الواقع بالاعتقاد ،
ويكون انضمامه إليه زيادة تصديق حادث والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ لَئِيسْتِيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدُّوا الَّذِينَ آمَنُوا
إِيمَانًا ﴾^(١) . فليس المراد به : ان المؤمنين يزدادون يقيناً ، وإنما هو : ويصدق المؤمنون
بالله ورسوله . فهذا الخبر غير شاكين فيه ، فيزداد إيمانهم بانضمام شعبة منه إلى شعبة
تقدمتها ، وهذا يوجب أن يكون تصديق حادث زيادة إيمان . وما من طاعة تحدث إلا
وهي تصديق حادث كما بينت ، فوجب أن يكون إيماناً .

ووجه آخر للسألة : وهو أن الله عز وجل سمى الصلاة إيماناً ، فقال في كتابه نصاً :
﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾^(٢) . وأجمع المفسرون على أنه أراد صلاتكم إلى بيت
المقدس . فثبت أن الصلاة إيمان . وإذا ثبت ذلك ، فكل طاعة إيمان ، إذ لم أعلم فارها
فرق في هذه التسمية^(٣) بين الصلاة وسائر الطاعات .

ووجه آخر يدل على أن الطاعات كلها إيمان . وهو أن المؤمن إذا طوى الإيمان في
الوقت بعد الوقت . فجدد الاعتقاد وكرر الاقرار ، كان ذلك إيماناً منه . وإنما كان
كذلك ، لأنه بر وقربة ، فكذلك كل طاعة فهي بر وقربة وعبادة فإن أنكروا ما قلناه
ثبتناه عليهم بالدليل وقلنا لهم : لما كان الاعتقاد والاقرار إيماناً^(٤) وجب إذا كرروا

(١) المدثر : ٣١ . (٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) أ - فرق في هذه القسمة ..

(٤) الفقرة من (.. فان انكروا ... إيماناً) غير واردة في نسخة استاقبول .

تكريرهما بر باتفاق ان يكون حكم الاعادة حكم الابتداء ، حتى إذا كان المبتدأ إيماناً كان المعاد إيماناً ، ألا ترى أن الصلاة إذا أعيدت - وكانت أعادتها برا - كانت صلاة كالأولى . والوضوء إذا جدد ، كان الثاني وضوءاً كالأول . والحج إذا كرر كان حجاً كالأول . وكذلك الاعتقاد والاقرار إذا أعيدا وكانت أعادتهما برا ، وجب أن يكون المعاد إيماناً كالأول . فان قالوا : كيف يكون المعاد إيماناً كالأول وهو لا يزيل كفرأ ؟ قيل : كما كان الوضوء المجدد وضوءاً ولا يزيل حدثاً ، وكما كانت الصلاة الثانية صلاة وليست تسقط فرضاً ، والحج الثاني حجاً وليس يرفع واجباً ، كذلك الاعتقاد والاقرار إذا أعيدا كانا إيماناً ، وإذا لم يرفعا كفرأ ، والله أعلم .

ووجه آخر : وهو أن كل عبادة كان التكذيب بها كفرأ ، كان فعلها مع الإخلاص جزءاً من أجزاء الإيمان كالإقرار . وانه لما كان التكذيب بوجوبه كفرأ ، كان الاتيان به مع الاخلاص من أجزاء الإيمان . وكذلك كل عبادة . ومما يقرر هذا ، ان التصديق بالشرائع لما كان إيماناً ، لم يحز أن لا يكون فعلها وأداؤها إيماناً ، كما أن التصديق بوجوب الاقرار لما كان إيماناً ، لم يحز أن يكون فعلها مع الإخلاص إيماناً . والله أعلم . فقد بان أن ما كان اعتقاد حكم العبادة فيه إيماناً فلا يخلو فعله وأداؤه مع الاخلاص من ^(١) أن يكون إيماناً ، والله أعلم .

فان قيل : ان الاعتقاد الذي هو أول جزء من أجزاء الإيمان يتقدمه العلم بوجوبه ، ويتقدم ذلك العلم الاستدلال المؤدي اليه إلى علم التوحيد ، ثم اعتقاد وجوب ما ظهر بالدليل ، وعقد القلب عليه دون التغافل عنه ، إيمان .

قيل : هذا يختلف ! فإن كان رجل سمع التوحيد والنبوة فقبلها واعتقدتها واعترف بها تصديقاً لمن أخبره بهما ، ثم أراد أن يعلم ذلك بالدليل . واستدل غير شاك عند استدلاله ، في ان ما اعتقد حق ، وان صحته ان لم تظهر له باستدلاله . فلتقصيره وخطائه جهته ، كان هذا الاستدلال منه إيماناً . وإذا ظهر له نية مطلوبة ، واعتقد ان الاستسلام لما قال الدليل عليه واجب ^(٢) ، وان اغفاله وتضييقه حرام ، كان هذا الاعتقاد إيماناً منه .

(١) أ - مع الاخلاص مع ان يكون إيماناً .

(٢) أ - واعتقد ان الاستسلام لما قام الدليل ..

فاما ان كان رجل خطر بقلبه النظر في حال العالم فلم يعتقد فيه شيئاً حتى استدل
فكان عنده ان الاستدلال قد يؤدي إلى حدث العالم ، وقد يؤدي إلى قدمه . لم يكن
هذا الاستدلال منه إيماناً بعد ان كانت حقيقة الإيمان ما ثبت في صدر هذا الكتاب
وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو ان الاستكبار على الله عز وجل بترك الطاعة له فيما أقر به كفر ،
فدل على ان الاستجداء له بالطاعة إنما يدل على ذلك ان الاستكبار على الله تبارك وتعالى
الاقرار به لما كان كفراً كان الازعان له بالاقرار بربوبيته ووحدانيته إيماناً . فكان كل
طاعة في هذا مثله .

ووجه آخر : وهو ان الله عز وجل قال : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ (١) . فلا يخلو
قوله عز وجل هذا من أحد معنيين :

اما ان يكون المراد به فزادتهم ثقة بنبوة النبي ﷺ لما فيها من اطلاعه على أسرار
المنافقين ، إذ كان لا يمكن أن يكون وقف عليها إلا من قبل الوحي .

أو يكون المراد ، أيكم رغبته هذه السورة في جهاد المشركين ، ودعته إلى بذل النفس
والمال فيه . فإن كان المراد هو الأول ، فقد بان ان احداث تصديق النبي ﷺ بامثال
أمر من أوامره ، واقام عبادة الله على حده هو الذي دعا اليها ونبه عليها زيادة إيمان .
وإن كان المراد هو الثاني فقد ثبت ان الجهاد إيمان ، فوجب على قياسه أن تكون كل
عبادة إيماناً . وهكذا قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
لِيَزِدُّوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٢) ، لا يخلو من أن يكون المراد به ليثقوا بصدق النبي ﷺ
فيما أخبرهم به من الفتح الكائن ، فتمجّل السرور به ، ولا يحزنوا بما وقع عليهم من الصد عن
البيت ، أو يكون المراد به ليطيعوه بالدخول في الصلح الذي يأمرهم به ، وإن كان
شديداً (٣) عليهم أن يخلوا من أخراهم ويرجعوا وراءهم . فإن كان المراد هو الوجه الأول
لزم أن تكون الثقة بصدقه لذي كل عزمة على طاعة بتنفيذها وفعلها ، وكل عزمة على

(٢) الفتح : ٤ .

(١) التوبة : ١٢٤ .

(٣) أ : وان كان عليهم .

معدية بتركها والامساك عنها ، زيادة إيمان . لأنها تصديق حادث في أمر حادث ، إذ لا فرق بين أن يكونوا صدقوه في بدء الأمر جملة ، ثم يعودوا فيصدقوه في نبأ من أنباء الغيب ، ويثقوا بوعده فيه . وبين أن يكونوا صدقوه في جملة ما جاء به من عند الله تعالى جميعه ، ولم يصدقوه بفعل ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ثقة بموعوده من الجزاء عليه . وإن كان المراد هو الوجه الثاني ، فقد بان أو صح بيان أن كل ما وقع بأمر الشرع طاعة له وتسليما فهو إيمان ، وبالله التوفيق .

ووجه آخر : وهو أن الله عز وجل قال : ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ ^(١) ، فقابل عز وجل بين ما حبه الينا وبين ما كره الينا ، ثم أفرد الإيمان بالذكر فيما حجب ، وقابله بالكفر والفسوق فيما كره ، فدل ذلك على أن للإيمان ضدین ^(٢) ، أو أن من الإيمان ما نقيضه الكفر ، ومن الإيمان ما نقيضه الفسوق ، وفي ذلك ما أبان أن الطاعات كلها إيمان ، ولولا ذلك لم يكن الفسوق ترك إيمان ، والله أعلم .

ووجه : وهو أن النبي ﷺ قال : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) ^(٣) ، ولا يخلو أن يكون أراد بذلك : أن تعاطي هذه الفواحش ترفع الإيمان ، وأما ما أراد من ذلك ، فإن كنا لا نقول بالأول فقد ثبت أن التمتعف ^(٤) عن الفواحش إيمان .

فصل

ذكر الأسئلة والاعتراضات : فإن قيل ما أنكرتم أن الأعمال كلها ما خلا الاعتقاد والاقرار ليست بإيمان ، وبينها في كتابه فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ^(٥) فثبت بذلك أن الأعمال ليست بإيمان .

(١) الحجرات : ٧ . (٢) ١ : على أن الإيمان ضدان . (٣) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ٣ ، حديث رقم ٣٩٣٦ ، ولم يرد في باقي كتب الحديث . (٤) وردت (التمتعف) في الاصل . (٥) سورة البقرة : آية ٢٧٧ ، وفي سورة يونس : آية ٩ ، وفي سور أخرى كثيرة .

فالجواب : ان الله عز وجل كما قال : ﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ،
فلذلك قال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) ،
ولم يدل ذلك على ان التواصي بالحق وبالصبر ليس من الأعمال الصالحة ، فكذلك قوله
عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ لا يدل على ان عمل الصالحات ليس بإيمان ،
وقد قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى
رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٢) ، فأثبت لهم الإيمان مطلقاً أولاً ، وناداهم باسمه
ثم أمرهم بالإيمان بالرسول والكتب ، ولم يدل ذلك على أن الإيمان بالرسول والكتب ليس
بالإيمان الذي لا تمام الإيمان بالله إلا به ، فكذلك قوله عز وجل : ان الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ؛ لا يدل على ان عمل الصالحات ليس بالإيمان الذي لا كمال للاعتقاد والاقرار
إلا به . وقد قال عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ (٣) .
ولم بذلك فضله بينهما وبين الملائكة في الذكر ، على أنها ليسا بملكين ، فكذلك لا بد
فضله عز وجل بين عمل الصالحات وبين الإيمان ، على أن العمل الصالح ليس بإيمان ، ثم
المعنى في ذلك ، والله أعلم ، ان الذين آمنوا أقل الإيمان وهو الناقل عن الكفر والخروج
منه ، ثم لم يقتصروا عليه ، ولكنهم ضموا اليه الصالحات فعملوها ، حتى ارتقى إيمانهم
من درجة الأقل إلى الأكمل ، كما يقال : ان من صلى وأطال القنوات والقراءة واستكثر
من الذكر فله كذا ، فيراد بمن يصلي : من حصل الاركان التي لا أقل منها ، وبما وراء
ذلك ، من ضم إليها من نوافل الخير ما يقع منه مع غيره صلاة فيكثر ذلك الخير بها ،
ويفضل ويشرف . أو يقول : ان المراد بالذين آمنوا ، الإيمان بالله وبعمل الصالحات ،
الإيمان لله ، والإيمان متغايران ، فلذلك سميا باسمين ليدل بالتفريق بينهما ، والاسم على
تغايرهما . وقد مضى بيان هذا المعنى .

فان قيل : فإن الله عز وجل قد قال في انه اجزى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ
لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (٤) ،

(١) العصر : ٣ . (٢) النساء : ١٣٦ .

(٣) البقرة : ٩٨ ، وقد وردت في النص : (من كان يؤمن بالله وملائكته ..) وهذا خطأ .

(٤) الانعام : ١٥٨ .

فدل ذلك على ان الاكساب الصالحة معترضة في الايمان ، لا انها بنفسها ايمان .
فالجواب : انه لا يمتنع ان يقال لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ،
 فيكون قد حاز أقل الايمان إلى أفضله ، إذ كسب الخير في الايمان ايمان . كما لا يمنع أن
 يقال : لمن صلى إذا دخل الوقت ، أو قرأ في صلاته فضل قراءة ، أو سبغ فيها أو كبر ،
 فيكون المعنى - أو فعل ما ذكرنا - فيكون قد كسب لصلاته كمالاً ، إذ القراءة
 والتسبيح والتكبير في الصلاة صلاة .

ويدل على أن كسب الخير في الإيمان إيمان ، قول الله عز وجل في أجزائه الظهار الذي
 هو منكر من القول ، وزور بعد إيجاب الكفارة : ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ (١)
 وإنما أراد ذلك ليمتنعوا من الظهار ، الذي هو منكر من القول وزور طاعة لله الذي
 حرمه عليكم ، فسميت الطاعة لله بترك الظهار إيماناً ، فثبت ان كل طاعة ايمان ، وان معنى
 الآيات المتقدمة ما وصفت والله أعلم .

فان قيل : روينا (ان رسول الله ﷺ برز للناس يوماً ، فجاءه رجل فقال : يا رسول
 الله ، ما الإسلام ؟ قال : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي
 الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : يا رسول الله ، ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد
 الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٢) . فبان بهذا الحديث : ان الإيمان غير
 الإسلام ، وأن هذه الشرائع إن كانت إسلاماً فالإسلام إيمان .

قال الله عز وجل : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم
 لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٣) . فأخبر انهم لا يؤمنون حتى
 يسلموا الأمر رسول الله ، وإذا كان التسليم لأمر رسول الله ، إنما كان التسليم لأمر الله إيماناً .
 والإسلام والتسليم كالتكريم والإكرام ، والتعظيم والاعظام ، والتكبير والاكبار ،
 والطاعات كلها تسليم وإسلام لله عز وجل . فثبت انها إيمان ، ويدل على صحة هذا ان
 الله عز وجل قال : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٤) . وقال : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ (٥) ،

(١) المجادلة : ٤ .
 (٢) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » حديث رقم ٦٤ . وفي
 صحيح البخاري « كتاب الايمان » باب ٣٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان » رقم ٥٧ .
 (٣) النساء : ٦٥ . (٤) آل عمران : ١٩ . (٥) البقرة : ١٣٦ .

فصح ان قولنا : آمنا بالله ، اسلام . وحكي عن إبراهيم عليه السلام انه قال له : ﴿ أسلم ! قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ (١) ، فبان ان الاسلام إيمان . وقال في آية أخرى من قصة لوط عليه السلام : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ (٢) ، فساهم مرة مؤمنين ومرة مسلمين ، وهو لا يريد لواحدة من التسميتين الإلتياز من غيرهم بأديانهم .

فصح ان الإسلام والإيمان إسمان لدين واحد ، وإن كانت حقيقة الإسلام التسليم ، وحقيقة الإيمان التصديق ، وان اختلاف الحقيقة فيهما لا يمنع أن يجعل اسماً لدين واحد ، كالغيث والمطر هما اسمان لمسمى واحد ، وان كانت حقيقة الغيث في اللسان غير حقيقة المطر . وقال النبي ﷺ : « لي خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد والمأحي والحاشر ، والعاقب » (٣) ، ومعلوم أن لكل اسم من هذه الأسماء الخمسة معنى وحقيقة سوى الذي هو فيها لغيره . ثم لم يمنع ذلك من أن يكون اسماً لمسمى واحد . فكذلك الاسلام والإيمان . ثم بين ان بين حقيقة اسم الإيمان وحقيقة اسم الاسلام من التناسب ما ليس بين حقائق هذه الأسماء التي وقع الاستشهاد بها ، لأن الإيمان إذا كان هو التصديق بالله ، والتصديق بالله يقتضي الإيمان له بالطاعة ، وذاك هو الإسلام . والاسلام له لا يكون إلا مع التصديق . فاما التكذيب فإنه من موانع الإسلام دون حواله . فصح ان الاسلام إيمان ، والإيمان إسلام .

فان قيل : فان كان هذا هكذا ! فلم فصل في الحديث بين الإسلام والإيمان ؟ .

جواب : وقد فصل بينهما وبين الإحسان . أفيدل ذلك على أن الإيمان والاسلام ليسا بإحسان ؟ وقد قيل في أول درجات الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . ليدل ذلك على ان اخلاص العبادة لله وبجانبه الشرك والرياء ليس بإيمان . فإن كان لا يدل على ذلك ، فلذلك لا يدل على ذلك ! كذلك لا يدل على ان اقام الصلاة وإيتاء الزكاة ليسا بإيمان ، وإنما فصل بينهما - والله أعلم - لأنه أريد بالحديث : الإيمان الناقل عن الكفر ،

(٢) الذاريات : ٣٥ - ٣٦ .

(١) البقرة : ١٣١ .

(٣) ورد في صحيح البخاري « المناقب » باب ١٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الفضائل » حديث

رقم ١٢٤ ، ١٢٥ .

والإيمان التابع له ، فسمي الإيمانين إيماناً بالاطلاق ، أو أحدهما إسلاماً . أو بقول فصل بين صريح التصديق وبين اماراته ، فسمي صريحه إيماناً وسميت اماراته اسلاماً . أو بقول فصل بين ما هو إيمان بالله ، وما هو إيمان لله . فسمي الإيمان بالله إيماناً بالاطلاق ، وسمي الإيمان لله إسلاماً . وإلا فالإسهان موضوعان لدين واحد ، والله أعلم .

وجواب آخر : ان يقول : اختلفت الروايات في ذكر الإيمان والاسلام . ف قيل في بعضها : (قال : ما الإيمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت . فقال : ما الاسلام ؟ قال : اقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت والغسل من الجنابة) (١) . وهذا يؤول إلى أن يكون الإيمان هو الخصال الناقلة عن الكفر ، والاسلام هو الطاعات التي تصح وراء الانتفاء عن الكفر ، وهي شرائع الإيمان .

وقيل في بعض الروايات : (ما الاسلام ؟ قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، إلى آخره . قال : ما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) (٢) . وهذا يوجب أن يكون الايمان هو الاعتقاد بالقلب ، وأن يكون الاقرار مع سائر الطاعات من جملة الاسلام ، ويكون الاسلام غير الايمان . وهذا يلتحق بالمقالة التي بدأت بالكلام عليها ، إلا أن فيه على أهل هذا القول - الذي تتكلم عليهم - حجة ، وهي انه لا خلاف بيننا وبينهم ان الشهادة إيمان كالاعتقاد ، وقد سميت في هذا الحديث إسلاماً ، وألحقت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . فقد وجب بذلك أن يكون الإيمان والاسلام اسمين لدين واحد ، وأن تكون الطاعات كلها إيماناً . غير ان الإيمان ما بطن والاسلام ما ظهر ، ثم هما جميعاً إيمان ، لأنه لا صحة للباطن إلا بالظاهر ، ولا بالظاهر إلا بالباطن . وهما جميعاً إسلام ، لأن كل واحد من تقويم الظاهر والباطن إذعان لله وخضوع ، ولا يكون ذلك إلا مع التصديق . وبالله التوفيق .

ويدل على صحة هذا خبر ثالث ، وهو ما روي ان النبي ﷺ قال لو قد عبد القيس :

(١) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ٣٧ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » حديث رقم ٦٣ .

(هل تدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله ! قال : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان ، وان تعطوا من المغنم الخمس) (١) . فسمى الشهادة وهذه الاعمال إيماناً ، كما سهاها في الرواية التي قبل هذه اسلاماً فبان ان كل واحد من الاعتقاد والاقرار والطاعات كلها إيمان ، وكل واحد منها إسلام .

ثم جاءت رواية رابعة تؤكد هذا كله ، وهو أن النبي ﷺ قال لرجل من أهل الشام : (أسلم تسلم ! قال : وما الاسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك . قال : فأني الاسلام أفضل ؟ قال : الايمان . وقال : وما الايمان ؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت ، قال : وأي الايمان أفضل ؟ قال : الهجرة . قال : وما الهجرة ؟ قال : ان تهجر السوء . قال : فأني الهجرة أفضل ؟ قال : الجهاد . قال : وما الجهاد ؟ قال : ان تقاتل الكفار إذا لقيتهم لا تغفل ولا تجبن) ، ثم قال النبي ﷺ باصبعيه (هما من أفضل الأعمال : حجة مبرورة وعمرة) (٢) .

فأبان هذا الحديث ان الاسلام الذي أخبر الله عز وجل انه هو الذي عنده بقوله : ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ ، وقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ (٣) . وقوله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (٤) ، ينتظم الاعتقاد والأعمال الظاهرة . لأن قوله : (الاسلام ان تسلم قلبك لله) اشارة إلى تصحيح الاعتقاد . وقوله (٥) (ويسلم المؤمنون من لسانك ويدك) اشارة إلى تصحيح المعاملات الظاهرة . ثم صرح بذلك فأخبر ان الايمان أفضل الاسلام ، وفسره : بأنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث . أراد ان الايمان بالغيب أفضل من الايمان بما يشاهد ويرى . وهذا موافق لقول الله عز وجل : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ (٦) مدحاً لهم وثناء عليهم .

(١) ورد في صحيح البخاري «كتاب الايمان» باب ٤٠ ، وفي سنن أبي داود «كتاب سنه» باب ١٥ .

(٢) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ١٦٤ .

(٣) آل عمران : ٨٥ . (٤) المائدة : ٣ .

(٥) يعني قول الرسول صلى الله عليه وسلم . (٦) البقرة : ١٣ .

ثم أبان الاعتقاد وعامة الأعمال إيمان ، فقال : (أفضل الايمان الهجرة) ثم فرع الهجرة ، فدل ذلك على أن الطاعات كلها إيمان كما هي إسلام . وان الاسلام الاذعان لله جل وعز ، سواء وقع بأمر ظاهر أو بأمر باطن ، بعد أن يكون الأمر مما رضي الله لعباده أن يتقربوا به اليه .

ثم جاء نصاً عن النبي ﷺ انه قال : (أتدرون أي عرى الايمان أوثق ؟ قالوا : الصلاة ! قال : ان الصلاة حسنة ، وما هي به . قالوا : الحج ! قال : ان الحج لحسن ، وما هو به ، قالوا : الصيام ! قال : ان الصيام لحسن ، وما هو به . قالوا : الجهاد ! قال : ان الجهاد لحسن ، وما هو به . فلما رأهم يذكرون شرائع الاسلام ولا يصيبون ، قال لهم : (أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله) (١) لا ينكر عليهم ان ما عددوا عرى الايمان ، ولكنه أخبر أن الأوثق الذي سألهم عنه غيرها . وزاد ذلك بياناً في حديث آخر فقال : (من أعطى الله ، ومنع الله ، وأنكح الله ، ونكح الله ، وأحب في الله وأبغض في الله ، فقد استكمل الايمان) (٢) . فصرح بأن هذه الخصال إيمان . وأبان بأن أوثق عرى الايمان الاخلاص .

وجاء عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - انه قال : (ان الايمان بني على خمس : تعبد الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان) ، كذلك حدثنا رسول الله ﷺ . وجاء عن ابن عمر - رضي الله عنهما - في رواية أنه قال قال رسول الله ﷺ : (بني الاسلام على خمس ..) (٣) فذكر هذه الأعمال ، فبان بذلك أن الايمان والاسلام اسمان لدين واحد ينتظم أعمالاً كثيرة ، ويتصف أوصافاً مختلفة ، وان واحداً من هذين الاسمين ليس لشيء منها دون شيء ، والله أعلم .

ثم الذي يشمل جميع ما ذكرنا وبيننا قول النبي ﷺ : (الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق) (٤) . ومعلوم ان هذه

(١) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ .

(٢) لم يرد الا في سنن الترمذي « كتاب صفة القيامة » باب ٦٠ حديث رقم ٢٥٢١ .

(٣) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ١ ، ٣ . وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان »

رقم الحديث ١٩ - ٢٢ .

(٤) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الايمان » رقم ٥٧ .

الشعب هي الأعمال والشرائع . وقد جاءت الاخبار بالنص عليها أو على أكثرها ، ودل الكتاب عليها . فثبت ان اسم الايمان شامل لها ، وستذكر في بابها إن شاء الله تعالى .
فان قال قائل : لو كانت الطاعات كلها إيماناً أوجب أن يكون تركها كفراً ، فإنكم شبهتم كل طاعة بالاقرار ، وترك الاقرار كفر ، فلذلك كان فعله إيماناً . وترك الصلاة ليس بكفر فصح ان فعلها ليس بإيمان .

فالجواب - وبالله التوفيق - ان الطاعات كلها إيمان بشرط أن تكون موجودة في الايمان ، والطاعة في الايمان ، والطاعة في الايمان إيمان ، ومتى جعلنا فعل الطاعة بشرط التمسك بالايمان المتقدم إيماناً ، لم يلزمنا ان نجعل تركها وحدها كفراً . لأن تركها وحدها ليس بضد (١) لمجموع الفعل وقريته ، فإن هو ترك الفعل وقريته بأن جحد وجوبه أو جحد الامر به أو المبلغ له لم ينكر أن يكون ذلك كفراً منه .

فان قيل : هذا جواب غير شديد لأن الاقرار إنما يصح إذا صادف الاعتقاد ، ولا يدل ذلك على أن المتكلم بالكفر مع الاختيار لا ينفك عن الايمان إلا مع تبديل الاعتقاد ، ولكنه ينقله وان كان الاعتقاد سليماً بحاله ، فقد كان ينبغي أن يقولوا : ان ترك الصلاة ينفك عن الايمان وان لم يكن معه تبديل الاعتقاد ، ان كان فعلها إيماناً .

فالجواب : ان التكلم بالكفر ينسخ الاقرار ، فمن تكلم به ولم يبدل الاعتقاد كان كمن اعتقد في أول أمره ولم يعترف . وليس في مجرد ترك الصلاة فسخ اقرار ولا تبديل اعتقاد فافترقا .

فان قيل : الطاعة في الايمان ان كانت تكون إيماناً ، فذاك لا يمنع من أن يزول الايمان بالمعصية ، كما ان الركوع في عقد الصلاة يكون صلاة ، ثم ان تركه في موضعه رفع عقد الصلاة .

قيـل : لا يشتبهان ، لأن كل عمل من أعمال الصلاة تقتضي صحته إيصال ما بعده به ، فإذا انفرد لم يكن بنفسه صلاة . وكل شعبة من شعب الايمان عندي لا تقتضي صحتها اتصال امثالها بها ، لكن ما أتى به منها صحيح في نفسه وان لم يلحق به غيره . فلهذا

(١) أ : ليس يصل .

لم يكن ترك الصلاة مثلاً رافعاً لعقد الايمان ، كما كان ترك الركوع مثلاً في موضعه من الصلاة رافعاً لعقد الصلاة . وقد نجد أيام شهر رمضان مجتمعة فيما يجب من صيامها ، ثم ان صيام كل يوم إذا لحق الشهر لمصادفته إياه ووقوعه فيه ، والفطر فيه لا يوجب هتك حرمة الشهر أصلاً حتى تفسد به صيام ما مضى قبله . فلا ينكر أن تكون كل طاعة إيماناً لوقوعها في الايمان ، والمعصية لا توجب حل رباط الايمان أصلاً حتى تحبط ما قدم منه والله أعلم .

وجواب آخر : عن أصل السؤال وهو أن الأعمال تترك من الاعتقاد والاقرار منزلة الامارات من البيان الصحيح الصريح ، وقد تقدم هذا المعنى . فكما أن كافراً لو أسلم في وقت صلاة يصبح إسلامه بالاعتقاد والاقرار ، ولم يتوقفاً على أن يقيم الصلاة ، لأن وقف البيان الصريح على وجود الامارة لا معنى له ، وإنما توقف الشيء على وجود شيء مثله أو ما هو أقوى منه . فاما وقفه على امارات نفسه فلا يجوز ، وكذلك من وجبت عليه من المؤمنين طاعة فتركها لم يكفر ، لأن ترك الطاعات تنزل من صريح الكفر منزلة الطاعة من صريح الايمان في انه امارة من امارات الكفر ، فلا يجوز أن يستعمل الامارة ويلغى ما قد حصل من صريح الايمان . فقدم الامارة على البيان كما لم يحز في الابتداء أن يتوقف عن الحكم بالايان بعد وجود الاعتقاد والاقرار انتظار الامارات ، والله أعلم .

وجواب ثالث : وهو ان الايمان ضربان : إيمان بالله ورسوله ، وإيمان بالله ورسوله ﷺ . فالإيمان بالله ضده الكفر ، لان ضد التصديق بالله تعالى هو التكذيب به ، وذلك كفر . وضد التصديق بنبوة النبي ﷺ التكذيب به ، وذلك كفر . وإنما الايمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، فضده النفاق والخلاف والفسوق والعصيان ، إذ الايمان له هو الطاعة والاتباع ، وليس ضد التكذيب الكفر ، وقد قلنا بذلك وأثبتناه فلم يلزمنا أن نثبت وراه ما ليس بضد لهذا الضرب من الايمان ، ولا مناقض إياه ، والله أعلم .

فان قال قائل : فما انكرت ان الأعمال ليست بايمان ، لأن فعل ما يجب منها لا ينفك عن كفره ، وتركه لا يقع في كفره . فالواجبات من هذا الوجه كالمباحات فلما لم يكن فعل المباح إيماناً ، لم يكن فعل الواجب إيماناً .

فالجواب : ان فعل المباح إرادة لوجه الله إيمان ، وذلك كالكسب الذي يراد به إعانة العاجز ، والتسحر لصيام الغد ، واثيان الأهل من غير حاجة اليه نظراً لها ، أو توقفاً لولد يعبد الله ويوحده ، وكالافطار عند مجيء الليل تحرراً من شبه الوصال . وليس شيء من الطاعات إلا ويراد به وجه الله تعالى ، فإذا قلنا : إن المباح الذي يراد به وجه الله تعالى ، ففعله إيمان . فقد سويتنا بين الطاعات وبين ما يشبهها من المباحات ، ومنقط السؤال عنا لأنه لا يبقى وراء هذا الصنف من المباح إلا ما يراد به وجه الله ، وليس ذلك لصفة الطاعات ، فلا يلزمنا ان نسوي بينها مع اختلافها وتباينها في المعنى والله أعلم .

وجواب آخر : وهو ان هذا الإعتلال لا يقوم به حجة ، لان معناها في ان كل طاعة ايمان ، إن الإيمان هو التصديق ، والطاعة تصديق بالأمر وأمره ووعدته ووعدته فكانت إيماناً ، فهذا مالا يتشبه جحدته ولا نفيه بالمقاييسات ، لان كل ما ينصب منها ، لنفي ان تكون كل طاعة إيماناً ، فإنما يرجع إلى نفي ان تكون كل طاعة تصديقاً ، وما كان تصديقاً ضرورة ، فنفي ان يكون تصديقاً بالمقاييس لا معنى لها . وهو كمن ينفي أن يكون خبر يذكره خبراً بعله يعتل فلا يقبل منه ، لأنه إذا كان الخبر مما يدخله الصدق والكذب ، وكان ما يذكره قولاً يدخله الصدق والكذب ، فقد وجب أن يكون خبراً ، وكل علة نفي بها أن يكون خبراً فإنما ينفي أن يكون متملاً للصدق والكذب ، وذلك وصف ثابت له ضرورة فلا يلتفت إلى نفيها بالمقاييس ، فلذلك هذا الاعتلال ، وبالله التوفيق .

فصل

ان قال قائل : اخبرنا عن قولكم : إن الطاعات من الإيمان ، ما الذي تستفيدون به إذا ثبت لكم ، وأنتم لا تقولون ان ترك العمل الواجب كفر ، ولا ان الفسوق خروج من الإيمان ، وليس بدخول في الكفر ، فما الذي يفيد ثبوت هذا الأصل على قولكم ؟ وما الذي يجب به من الحكم عندكم ؟

قيل :- وبالله التوفيق - أول ما في هذا ان كل أصل وقع البحث عن حقيقته ، فإنما ذلك لادراكه على ما هو عليه ، لا لما يرى انه يتوصل منه اليه . وقد أمرنا بالإيمان ،

ووجدنا الإيمان شعباً منسوبة إليه ، فلما نظرنا في ان تلك الشعب كلها إيمان ، أو بعضها إيمان ، وبعضها حقوق الإيمان من غير أن تكون إيماناً نفسها . تبين لنا بالدليل ان كلها إيمان ، فوصفناها بذلك لتكون خبرين عن الإيمان ما هو عليه ، ومعتقدين إياه على وجهه وحقيقته ثم سواء استفدنا وراء ذلك فائدة أخرى أم لم نستفد ، فقد أثرتنا (١) بالنظر اعتقاد الشيء على ما هو عليه ، وحصلنا به على الغرض المطلوب ، وبالله التوفيق . ثم ان هذا الأصل إذا ثبت تفرغ عنه ان الكفار مخاطبون بالشرائع كلها ، ومخاطبون بالاعتقاد والإقرار . لان الطاعات كلها إذا كانت إيماناً لم يحز ان يخاطبوا بشيء منها دون شيء مع اتساعهم لجميعها . ولا يخرج على قول من لا يثبت الطاعات كلها إيماناً ، ان يكونوا مخاطبين بالأعمال إلا بعد أن يصح لهم الاعتقاد والإقرار ، كما لا يطالب أحد بحق عقد من العقود - ما كان - إلا بعد أن يصح منه أصله ، والله أعلم .

وقد جاء في هذا الفصل خاصة ان رجلاً قال : يا رسول الله ! أيؤاخذ الله أحد أبا عمل في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية (ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر) (٢) وهذا على ان الطاعات في الإيمان ، والمعاصي في الكفر كفر . فإذا أسلم الكافر أحبط إسلامه كفره ، فإن أحسن في الاسلام أحبطت طاعاته تلك المعاصي التي قدمها في حال كفره ، وإن لم يحسن في الاسلام بقيت تلك المعاصي مجالها إذا لم يجد ما يحبطها ، فأخذ بأساءته في الاسلام وفيما قبله . ومما يؤكدهذا ان المعاصي قد توجد من المسلم في إسلامه فلم يلزم أن يحبط ما وجد منها في الكفر بالاسلام الحادث . وبان بهذا أن قول الله عز وجل ﴿ قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (٣) معناه يغفر لهم كفرهم فيما خلا من أعمارهم ، فإن كان عاماً للكفر والذنوب فهو مغفور بشروط الانتهاء . وفي ذلك بيان انهم ان لم ينتهوا عن المعاصي التي كانوا عليها لم يغفر لهم ، كما انهم ما لم ينتهوا عن الكفر لم يغفر لهم .

(١) ح : اعرفنا .

(٢) ورد الحديث ناقصاً في النسخة (أ) وقد ورد في صحيح البخاري (كتاب المرتدين) حديث رقم ٤ على النحو التالي : (يا رسول الله ، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال : من احسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر) . كما ورد في صحيح مسلم (إيمان) رقم ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) الأنفال : ٣٨ .

فان قيل : فالزموم قضاء ما سلف من صلاة أو صوم !

قيل : لا يلزمنا هذا ، لأنهم ان صلوا وصاموا بعدما أسلموا ، سقط عنهم ما تركوا في الكفر بدلالة الحديث ، وان لم يصلوا أو لم يصوموا ، أمروا بالصلاة والصيام ، وحملهم على ذلك حملهم على ما إذا فعلوه سقط ما مضى عنهم ، فلم يلزمنا أن نأمرهم بتجديد القضاء لما تركوا .

فان قيل : فما بال المسلم التارك للصلوات ، إذا بات واستقبل فأقام الصلاة لا يسقط ذلك عنه ما مضى منها .

قيل : لأن ترك المسلم الصلاة لا يستند إلى أصل معفو عنه ، فكان شرط يؤتيه قضاء ما ترك منها ، وترك الكافر الصلاة مستند بعد الاسلام إلى أصل قد عفي عنه وهو الكفر . ثم ان ذلك العفو عن ماضيه انما وقع لا بتدارك - كان له من الأصل إذ ذاك - غير ممكن ، لكن باستقبال خلافها والله أعلم .

ومما يتفرع عن هذا الأصل أن الفاسق ينبغي أن يكون مردوداً لشهادة غير معتمد القضاء بين الناس ، ولا لولاية التزويج ولا لولاية أموال الغير ، لأنه ناقص الدين ، ونقصان الدين يحول عن الترتي إلى مراتب أهل الفضل والكمال في الدين . فإن قضى قاض لم يحز قضاؤه ، كما لو أفضى شهادة كافر لم ينعقد قضاؤه ومن لم ينسبه إلى نقصان الدين ردت شهادته للتهمة ، فأداه ذلك إلى أن يقول ان الحاكم ان ظن به خيراً أو قبل شهادته كان قضاؤه جائزاً ، لأن الأصل انه برىء من الكذب غير مفارق له حتى يثبت خلافه ، وأجاز الوصاية اليه ، واثبت له الولاية على أطفاله ، ونحن لا نقول ذلك والله أعلم .

ومما يتفرع عن هذا الأصل ، ان الأعمال إذا كانت إيماناً كان بكاملها تكامل الإيمان ، وتناقصها تناقص الإيمان . وكان المؤمنون متفاضلين في إيمانهم ، كما هم متفاضلون في أعمالهم . وحرم أن يقول قائل : (إيماني وإيمان الملائكة والنبيين واحد) لأن الطاعات كلها إذا كانت إيماناً ! فمن أكثر طاعة كان أكثر إيماناً ، ومن كان أفضل طاعة كان أفضل إيماناً ، ومن خلط الطاعات بالمعاصي كان أنقص إيماناً ممن أخلص الطاعات ، والله أعلم .

ويتبع هذا الأصل ان المعاصي إذا كانت تنقص الإيمان جاز ان يكون فيها ما يوجب

القتل ، لأن الإيمان هو العاصم للنفس فلا يجوز أن تزول العصمة وهو باق بحاله . وعلى كماله الذي كان له حين أوجب العصمة . وفي هذا ما أبان ان قتل القاتل والزاني المُنْحَصِن وتارك الصلاة لا يخرج إلا على أن تكون هذه الجنايات مؤثرة في سبب العصمة ، ناقصة من درجاته ، مخففة لوزنه . ولولا ذلك لما جاز أن يستحل بها الدم . فإن قيل : فيقولوا ان كل معصية فهي تبيح الدم ! قيل : لا يلزمنا أن نقول ذلك ، لأن سبب العصمة إذا كان إيماناً لا ثلثة فيه . فحديث فيه ثلثة احتمل أن يقال : ان العصمة تزول ، واحتمل أن يفصل الثلم ويقال فيها عظم منها انها تزيل العصمة ، وفيما صغر منها انها لا تزيلها . كما يقال : ان العمل الكثير الذي ليس من جنس الصلاة يفسد الصلاة ، والعمل القليل لا يفسدها . وقد قالوا : إذا زاد في صلاته أقل من ركعة لم يفسدها ، وإن زاد فيها ركعة أفسدها . وأما الصوم فإن قليل الأكل فيه والشرب وكثيره سواء . ولكن مهما كان سبب العصمة في الأصل إيماناً لا ثلثة فيه لم يحز أن يكون هذا السبب قائماً بكماله والعصمة زائلة . فبان بهذا ان قيل : أحد من المسلمين عمل معصية تكون منه ، لا تخرج إلا على أن تكون الطاعات إيماناً ، والمعاصي ثلماً في الإيمان ، والله أعلم .



القسم الثاني

باب القول في زيادة الايمان ونقصانه

قال الله عز وجل : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أئكم زادته هذه إيماناً ﴾ ^(٣) . وقال : والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ ^(٤) .
فثبت بهذه الآيات ان الإيمان قابل للزيادة .

فإن قال قائل : ما أنكرتم ان زيادة الإيمان زيادة العلم والمعرفة ، فإن للعلم منازل أولها غالب الظن ثم اليقين ثم الضرورة .

فالجواب : أن يقال له : أخبرنا عن اليقين الواقع للمؤمن ، أهو إيمان ؟ فإذا قال : نعم ! قيل له : فزيادة اليقين الواقعة له إيمان . فإن قال : لا ! قل له : فكيف يزداد الأيمان بما ليس بإيمان ؟ وإن قال : هي إيمان ! قيل : فقد زاد الإيمان بكل حال ، ووجب إذا كان الناس متفاضلين في يقينهم ، فكان منهم من هو كالمضطر إلى العلم في انه لا يتبهاً تشكيكه في الدين بشدة سكون قلبه الى معتقده ، ومنهم من يكون دونه حتى لا يؤمن عليه التشكيل إن دخلت عليه شبهة ، وجب ان يكونوا متفاضلين في إيمانهم وبطل ان يكونوا في الأيمان سواء ، فضلاً في أن يكونوا والملائكة والنبيين - صلوات الله عليهم - وغيرهم فيه سواء . ويقال : أرأيت زيادة اليقين ؟ هل يقع الا عن دلالة تقوم وتظهر فيسلم لها ويوثق بمدلولها ؟ فإذا قال : بلى ! قيل له : فالاستسلام لها والتصديقتي بمدلولها طاعة زائدة بعد حصول حقيقة الإيمان ، فما جاز أن يزيد الإيمان بها . فما انكرت انه يزيد بكل طاعة ؟

(٢) الانفال : ٢ .

(٤) محمد : ١٧ .

(١) الفتح : ٤ .

(٣) التوبة : ١٢٤ .

فإن قال : إنما زاد الإيمان بقبول الدلالة الزائدة في اليقين لأن قيامها إنما كان على نفس ما سبق اعتقاده من الإيمان ، فكان قبولها بقبول الإيمان ، وليس كذلك الصلاة مثلاً وإن كانت طاعة . ولا الصيام ، ولا الصدقة ، لأنه غير الإيمان الذي تقدم اعتقاده ، والإقرار به .

قيل له : إن الدلالة الثانية ، إن كانت قائمة على نفس المعتقد الأول ، فليس المعتقد هو الإيمان . إنما الاعتقاد الذي هو فعل العبد ، هو الإيمان . فاما المعتقد لثبوت الباري من أنه الباري ، ووحدانيته ، ونبوة النبي ﷺ ، فذاك مؤمن به وهو نفسه موجود ثابت صدق به أو كذب . فإذا كان كذلك ، فالدلالة الثانية إذا أدت من قامت له إلى الاعتقاد مثل الأول - حتى لو لم يكن الأول لكان بالثاني مؤمناً ، فازداد بالمعتقد بصيرة وسكون قلب اليه وثقة به - كان إيمانه زائداً بزيادة اعتقاد حادث . وذلك الاعتقاد ليس إلا التصديق . فكذلك إذا صلى بعد إيمانه ^(١) أو صام فقد زاد تصديقاً لأن من لا يصدق بالله لا يصوم ولا يصلي « كما ان من لا يصدق بالله لا يشهد له بالوجود والوحدانية والخلق والأمر ، فقد صار اتباع الصلاة والصيام الإيذان باتباع الاعتقاد الاعتقاد . فإذا كان كذلك زيادة إيمان وجب أن تكون الصلاة زيادة إيمان .

وقال قائل : معنى زيادة الإيمان المذكورة في هذه الآيات إعادة لفظ الإيمان وتكرره ، ويسمى الإزدیاد من ألفاظ الإيمان إزدیاد مجازاً ، وبدل على ذلك أنه لم يقل ليزيد إيمانهم وإنما قال : ﴿ ليزدادوا إيماناً ﴾ ليستكثرأ منه بأن يعيدوه ويكبروه .

فالجواب : بأنه لا فرق بين قول القائل : ازددت إيماناً وبين قوله : زاد إيماني ، كما لا فرق بين قوله : ازددت مالاً ، وبين قوله : زاد مالي ، ولا بين قوله : ازددت أولاداً ، وبين قوله : زاد أولادي ، فإذا كان كذلك ، لم يحصل هذا السائل من فرقة بين العبادتين على عوض ^(٢) صحيح . ثم الذي قال حجة عليه ، أننا نسأله عن تكرير الإيمان : إيمان هو أم لا ؟ .

فإن قال : ليس بإيمان ! قيل له : فكيف يزداد المكرر إيماناً بأن تلفظ بما ليس بإيمان ! أريت لو روى خبر أو أنشد شعر أكان يكون مرداد إيمان ، فكيف صار يتكرر لفظ الإيمان مرداداً إيمان ، إن لم يكن ما لفظ به إيماناً ؟ .

(٢) أ : على عوج صحيح .

(١) أ : فكذلك إيمانه إذا صلى أو صام .

فان قال : هو إيمان . قيل له : أرأيت لو حكاه عن غيره ، أو قرأه من كتاب يريد أن يبثه لغيره ، كان يكون مرداد إيمان . فإذا قال : لا ! قيل له : فهلا علمت انه أراد التقرب بتكريره ، إنه إنما كان ذلك إيماناً منه ، يكون به مرداد إيمان ، لأنه قرينة منه وبر ، وكل بر وقرينة فواجب أن يكون إيماناً ، وفاعله مرداداً من إيمان ، وبما يدل على أن الإيمان قابل للزيادة ، إجماعهم على أن المولود من المسلمين مؤمن ، فإذا بلغ عاقلاً فأحدث اعتقاداً وإقراراً كانا منه إيماناً ، وهذا زيادة إيمان كانت منه . فثبت أن المؤمن قديماً من فيزداد إيمانه المتقدم بانضمام المتأخر اليه .

فإن قال : إنما كان هذا إيماناً منه لأنه لو لم يفعله لكان كافراً . وهل في سائر الطاعات مفقود ، قيل : ليس كذلك ! لأنه لو بلغ ولم يخطر بقلبه انه يحتاج إلى تحديد الإيمان ، أو كان بلوغه الستين فلم يعلم أنه قد بلغ ، فأحدث اعتقاداً للحق ، ويشهد به للعادة لكان ذلك منه إيماناً ، ولو لم يوجد ذلك منه ما كان كافراً ، إنما يكفر إذا أبى وامتنع بعد البلوغ .

فأما إذا كان تركه تحديد الاعتقاد والشهادة ، لأن ذلك لم يخطر بقلبه ، وكان ذا هلا عنه ، أو لأنه لم يعلم أنه قد بلغ فليس ذلك بكفر ، ومع هذا لو شهد لكان مؤمناً ، فعلنا أن ذلك لم يكف إيماناً لأن تركه كفر ، ولكن لأنه طاعة في نفسه ، فوجب أن تكون كل طاعة إيماناً . وهكذا الأخرس من علة يؤمن باعتقاده وإشارته ، فيكون مؤمناً فإذا برأ وزال عنه العلة وجب أن يتشهد فكان تشهده إيماناً على إيمان . وإذا ثبت ما قلناه ، فقد ظهر إن المؤمن قد يؤمن فيكون بإيمانه الثاني مرداداً من الإيمان ، والله أعلم .

دليل آخر : وهو إجماعهم أن الناس لما آمنوا بالله تعالى وبالنبي ﷺ كانوا مؤمنين . فلما جاءهم بالصلاة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم ، فلما جاءهم بالزكاة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم . وكلما جاءهم بطاعة فقبلوها كان ذلك إيماناً منهم ، وهم في كل ذلك من قبله مؤمنون . فصح أن المؤمن قد يؤمن فيزداد ما تقدم من إيمانه بما تأخر .

فإن أعادوا سؤلهم وقالوا : إنما كان يكون قولهم كل ما جاء به إيماناً ، لأنهم لو امتنعوا كانوا كفاراً ، ولسنا ننكر أن ما كان تركه كفراً كان فعله إيماناً ، وإنما نخالفكم فيما لا يكون تركه كفراً .

قيل لهم : إن قبولهم الشيء بعد الشيء ، مما كان يشرع لهم إذا كان لا يحتاج إليه لرفع كفر واقع موجود ، وإنما يخشى أن يعودوا كفاراً إن لم يقتلوا ، فهم فيما بين حدوث العلم لهم بما قد شرع وبين قبوله ، وفي حال القبول مؤمنون ثم القبول زيادة إيمان منهم . فثبت بهذا جواز أن يكون للإيمان امداد إذا تلاحقت زاد الايمان بها . وعلى أنهم إنما احتاجوا إلى القبول لئلا يكفروا بالرد ، كان القبول منهم طاعة ، كما لو ردوا فكفروا كان ذلك منهم معصية ، فبأن ان قبولهم إنما كان إيماناً لأنه كان طاعة ، فوجب أن تكون كل طاعة في إيمان إيماناً .

وجواب آخر : وهو ان قبول ما يتجدد شرعه في زمان الشرع إذا كان إيماناً ، لأن لأن تركه كفر ورفع لما تقدم من عقد الإيمان بالقلب واللسان . فوجب أن يكون التعفف عن كل كبيرة وتركها لوجه الله تعالى إيماناً ، لأن تركه إلى خلافه جرح للإيمان . والجرح في مناقضة المجروح كالفسخ في مناقضة المفسوخ .

ألا ترى ان محظورات الاحرام كلها مضادة للاحرام ، وإن كان أحدهما مختصاً بالافساد لأنها إن كانت لا تفسده فلا يخلو من أن يجرحه . والجرح كالإفساد وان اختلفا في ان الإفساد يرفع الاحرام كله ، والجرح ينقضه ولا ينقضه فكان يرفع بعضه . فلذلك كل ما يجرح الايمان فهو في مناقضه كالفسد له . فاذا كان القبول لما تجدد شرعه إيماناً لأن خلافه رافع للإيمان ، وجب أن تكون الصلاة في وقتها إيماناً ، لان تركها ، حتى يخرج وقتها من غير عذر ، خارج للإيمان . ألا ترى ان الامساك في الاحرام إذا كان احراماً لان الاقدام عليها رافع له كان الامساك عن الحلقي ، وقيل الصيد وتقليم الظفر احراماً ، لأن الاقدام عليها خارج للاحرام . والله أعلم .

فان قيل : ومن سلم لكم ان ترك الفرض جارج للإيمان !

قيل : اجمعت الأمة على تسمية الفسق جرحاً . ومعلوم ان ذلك ليس جرحاً لبدنه ، إنما هو جرح لدينه .

فان قيل : أرادوا بذلك جرح عرضه . قيل : وليس تحت جرح العرض الا لصاق شين وسبة به ، ولو لم يكن ما ينسب إليه من الفسق ناقصاً من دينه شيئاً لم يكن شيئاً ولا

سبه ، فصح ان عرضه انها يصير مجروحا بالفسق لئلا يلتصق عن ذلك به من نقصان الدين والله أعلم .

وجواب اخر : وهو أن يقال لمن سأل هذا السؤال : أخبرنا عن اليهودي المشبه الذي بزعم أن عزيزا ابن الله ، والنصراني الذي زعم ان المسيح ابن الله . إذا قال اليهودي لم يكن المسيح نبيا ، أيكون هذا كفرا منه ؟ أو النصراني إذا قال مثل ذلك لنبينا ﷺ ، أيكون كفرا منه ؟ فإذا قال : نعم ! قيل له : أرأيت لو قال اليهودي : كان المسيح ومحمد نبيين ، ولكنه لم ينزع ^(١) عن قوله عزيز ابن الله ، أو قال النصراني : محمد رسول الله ولم ينزع عن قوله «المسيح ابن الله» ، أيكونان مؤمنين ؟ فإذا قال : لا ! قيل له : فإذا جاز أن يكون كل واحد منهما مردادا من الكفر بشيء ، لو تركاه لم يكن تركهما له إيمانا . فلم لأجزت أن يكون المؤمن مردادا من الايمان بشيء ، لو تركه كفرا ! وما الفرق ؟

وجواب اخر وهو ان الفرض والنفل ^(٢) مجتمعان ، في ان فعلهما طاعة وبر ، ثم يختلفان ، فيكون ترك الفرض معصية ، ولا يكون ترك النفل معصية ، ولا يستدل بافتراقهما في ذلك على افتراقهما ^(٣) في أن يكون فعلوا طاعة فلذلك قبول الفرض بعد الفرض عن النبي ﷺ ، وفعل الفرض بعد الفرض يجتمعان في ان يكونا إيمانا ، ويفترقان في أن يكون ترك القبول كفرا ، ولا يكون ترك الفعل كفرا . ولا يجب على افتراقهما في ذلك ، افتراقهما في أن يكون فعلهما جميعا إيمانا .

وجواب اخر : وهو ان مفارقة الفعل القبول ، في ان ترك القبول كفر ، وترك الفعل ليس بكفر ، لا يوجب الفرق بينهما في أن يكون كل واحد منهما إيمانا . فان الله عز وجل قال : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ ^(٤) فالزم الصحيح المقيم أن يصوم ، والزم وجعل للمريض والمسافر أن يصوم . كان الشهر عدة من أيام أخر . فالصحيح المقيم ان لم يصم عصي وفسق ، والمريض والمسافر إذا لم يصم ، لم يعص ولم يفسق ولم يمنع افتراقهما - من هذا الوجه - أن يتفقا في ان كل واحد منهما إذا

(١) لم ينزع عن : لم ينته عن . (٢) النفل : عطية التطوع ومنه نافلة الصلاة .

(٣) أ : ولا يستدل بافتراقهما في ذلك على افتراقهما في ان يكون فعلهما طاعة .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

صام كان باراً مطيعاً مؤدياً فريضة الشهر . ولم يجز أن يقال : إن الصحيح المقيم إذا صام مطيع ، لأنه لو لم يصم كان عاصياً . والمريض والمسافر إذا صاماً فليساً بمطيعين ، لأنها لو لم يصوما لم يكونا عاصيين . فكذلك القابل للفرض والفاعل له ، مطيعان مؤمنان ، هذا بقبوله وذلك بفعله ، ولو كان القابل لو لم يقبل « لم » يكفر ، والفاعل لو لم يفعل لم يكفر .

فان قيل : المريض انما لم يعص بالفطر لأنه خير بين الصوم وبين الفطر . قيل : اليس التخيير غير حكم فطره ولم يغير حكم صومه ، فلا تنكروا أن الدليل قد غير حكم ترك الطاعات ومنع من أن يكون ذلك كفراً ، ولا يغير حكم فعلها ، ولا يمنع من أن يكون إيماناً ، وبالله التوفيق .

فان قال قائل : القبول لكل ما تجدد شرطه بمنزلة عادة الايمان المتقدم ، لأن الايمان المتقدم اشتمل على القبول لما جاء به النبي ﷺ فسواء كان قد جاء بما بعث به جملة ، أو جاء به شيئاً فشيئاً .

فالجواب : انه لو كان اعاده بالتقدم لم يحتج اليه ، وقد جاء عن النبي ﷺ انه لما بعث معاذ إلى اليمن قيل له : (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله ، فإن هم أجابوك إلى ذلك ، فاعلمهم ان عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم) (١) ، فلو كان الاعتراف بالله ورسوله قبولاً لكل ما يؤديه الرسول عن الله تعالى . قال لهم : فان هم أجابوك إلى رسول الله فاعلمهم ان عليهم الصلاة والزكاة . ولما لم يقل ذلك بل علق كل أمر من ذلك باجابة اليه جديدة ، صح ان التصديق المتقدم على سبيل الأعمال لا يعني عن القبول عند التفصيل . وأكد هذا وأوضحه ان قبول الفرض إنما يجب ويصح بعد الفرض ويستحيل أن يقع القبول لما لم يفرض .

فثبت بهذا أن القابل للفرض عند الدخول في الايمان ، ليس قبول ما لم يفرض ، لكنه التزام لقبول ما يعرض ، فإذا وقع الفرض وجب القبول والوفاء بما تقدم من التزامه ، لا انه يقع ملتزماً مقبولاً ، ألا ترى ان الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، وسمعوا منهما البشارة بالنبي ﷺ ، والتزموا الايمان به ان لحقوا أيامه وأدركوا بعثه ، فلو بعث

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الزكاة » باب ١ حديث رقم ١٧٨٣ . وفي صحيح البخارى « الزكاة » باب ١ ، ٦٣ . وفي سنن النسائي « الزكاة » باب ١ .

وهم أو بعضهم أحياء ، لم يكونوا بمجرد تصديقهم المبشرين به بعينه ، حتى يحدثوا إيماناً به وتصديقاً له .

فكذلك المصدق بالنبي ﷺ ، وإن التزم قبول ما يأتي به فذلك لا يجعله عندما يأتي به قابلاً له ملتزماً إياه . حتى يحدث له قبولاً . فثبت أنه إذا قبل ، كان ذلك القبول منه إيماناً حادثاً وراء ما قدم من الإيمان ، وانضمام الإيمان إلى الإيمان ، فوجب ازدياد السابق باللاحق . فصح أن الإيمان قابل الزيادة ، والله أعلم .

ودل الكتاب على ما وصفت « قال الله عز وجل : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١) » وقال ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ (٢) . فبان أن شرح الصدر بالحكم الحادث والتسليم له محتاج إليه ، وإن كان التزام الإيمان بكل من يبعثه الله تعالى وبرسله قد تقدم ، والله أعلم .

وأيضاً فإنه إذا ثبت أحداث القبول لما يحدث فرضه إيماناً ، وكان القبول في هذا الوقت تنفيذ الملتزم منه الفرض ، وجب أن يكون تنفيذ كل ملتزم إيماناً مثله ، إذ لا فرق بين التزام قبول الصلاة أن شرعت ، ثم قبولها عندما تشرع ، وبين قبولها إذا شرعت ثم فعلها إذا دخل وقتها ، والله أعلم .

ومما يدل على زيادة الايماء ونقصانه قول النبي ﷺ : (اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) (٣) . فدل هذا القول على أن حسن الخلق إيمان ، وإن عدمه نقصان إيمان ، وإن المؤمنين متفاوتون في إيمانهم . فبعضهم اكمل إيماناً من بعض .

فإن قال قائل : هذا من أخبار الآحاد ، وكتاب الله عز وجل أولى منه ، والله عز وجل يقول : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (٤) وليس بعد الكمال شيء ! فثبت أن دين الله تعالى محدود ولا يحتمل زيادة عليه ، ولا نقصاناً منه .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(١) النساء : ٦٥ .

(٣) ورد في سنن أبي داود « كتاب السنة » باب ١٤ ، وفي سنن الدارمي « كتاب الرقائق » باب ٧٤ ،

ص ٣٢٣ . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل - ج ٤ - صفحة ٢٥٠ ، ٤٧٢ .

(٤) المائدة : ٣ .

فالجواب : ان معنى قول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ أي أكملت لكم وضعه ، فلا أفرض عليكم من بعد ، ما لم أفرضه إلى اليوم . ولا أضع عنكم بعد اليوم ما قد فرضته قبل اليوم ، ولا تغليظ من الآن ولا تخفيف ، ولا نسخ ولا تبديل . وليس معناه انه اكمل لنا ديننا من قبل العلم لنا ، لان ذلك لو كان كذلك لسقط عن مخاطبيين بالآية الدوام على الايمان . لان الدين قد كمل وليس بعد الكمال شيء ، وإذا كان الدوام على الايمان مستقبلا وهو إيمان ، فكذلك الطاعات الباقية التي تجب شيئا فشيئا كلها إيمان . والكمال راجع إلى كمال الشرع والوضع لا إلى كمال اداء المؤدين له وقيام القائمين به والله أعلم .

ثم ان في الجواب ما يشتق منه العلم بزيادة الايمان ، لأن الايمان فرض دائم . ولكنه لما لم يكن في الوضع استدامة عقده بالقلب والاعراب عنه باللسان ، جعل ما يقع من ذلك على " صحة كالمكرر على الدوام في كل وقت ما لم يتعقب بالنقص والافساد . وإذا كان الدوام على الايمان بمعنى التحديد في كل زمان ، صح ان المؤمنين في كل وقت إيمانا وذلك يوجب أن يكون كل متقدم منه مرداداً بما يحدث بعده ، كما انه إذا كانت في كل وقت صلاة ، وجب أن يكون ما تقدم من صلاته مرداداً بما يعقبها والله أعلم .

وان قال قائل : الزيادة على الايمان لا تتحقق إلا وراء الايمان ، كما ان الزيادة على المكتوبات الخمس لا تكون إلا خارجة منها ؛ والزيادة على الصيام لا تكون إلا وراء إيمانه والزيادة على الدين لا تكون إلا بعد إيفائه بتمامه فكذلك الزيادة على الايمان ، إن كانت فينبغي أن تكون بعد إيفاء الايمان بتمامه وانتهائه إلى غايته ، ثم الزيادة عليه . وإذا كان من قولكم ان ايمان المؤمن انما ينتهي بتناهي عمره ! فاني يتوهم الزيادة عليه ؟

فالجواب : ان الزيادة على الصلوات الخمس كما لا تكون الا خارجة منها ، والزيادة على الصيام المفروض لا تكون إلا خارجة منها ، فكذلك الزيادة على الايمان الذي هو بضع وسبعون شعبة ، لو كانت ، لم تكن إلا خارجة منها . ولكن الايمان الذي يتشعب هذه (الشعب) ، ينبغي أن تكون كل شعبة منها ايمانا . كما ان فرض الصلاة إذا انقسمت إلى خمس صلوات في خمسة أوقات ، ثم انقسمت كل صلاة منها إلى ركعات ، وجب أن تكون كل شعبة من هذه الشعب صلاة .

وكما ان فرض الصيام اذا انقسم إلى أيام الشهر ، كان صوم كل يوم صوماً بالحقيقة وركناً .

كما ان الزيادة على الدين ، وإن لم تكن الا وراء الدين ، فان كل جزء من أجزاء الدين دين . فلذلك لما ثبت بالحديث : (ان الإيمان بضع وسبعون شعبة) وجب أن تكون كل شعبة منها إيماناً . وإذا وجب ذلك لزم أن تكون كل شعبة مما تقدمت تزداد بما يتبعها من شعبة مثلها . فيكون الآتي بجميع هذه الشعب كامل الإيمان ، والآتي ببعضها ناقص الإيمان والله أعلم .

فان قال قائل : لو كانت هذه الشعب كلها إيماناً لاستحال أن يكون من يعرفها مؤمناً !

فالجواب : إن هذه دعوى لا برهان عليها لأنه لا خلاف في ان الايمان بانبياء الله يصح على غير معرفة بعددهم وصفاتهم وأسمائهم . فكذلك الايمان بكتب الله تعالى يصح من غير علم بما فيها ، وقبول ما جاء به نبينا ﷺ يصح من غير علم به . وقبول فرض الصلاة يصح ويكون إيماناً . وكذلك قبول الزكاة من غير علم باركانها وشروطها . فكذلك الايمان ممن لا يعلم في الحال شعبه وأبوابه والله أعلم .

ومما يدل على أن الايمان يزيد وينقص قول النبي ﷺ للنساء (انكن ناقصات عقل ودين ، فقلن يا رسول الله : ما نقصان عقلنا وديننا ؟ قال : أما نقصان دينكن ، فهو ان الواحدة منكن تجلس نصف دهرها لا تصلي . وأما نقصان عقلكن فهو ان شهادة اثنتين منكن عدلت شهادة واحد) (١) .

فإذا كانت المرأة لنقصان صلاتها عن صلاة الرجال تكون أنقص ديناً منهم ، مع انها غير جانية بترك ما تترك من الصلاة ، أفلا يكون الجاني بترك الصلوات انقص ديناً من المقيم بها المواظب ؟؟ وفي هذا ما ابان خطأ من يقول : (إيماني وإيمان الملائكة واحد) مع اخبار الله عز وجل بانهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٢) . ومعنى التسابيح الصلاة لقوله عز وجل : ﴿ قلوا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (٣) . وبقوله ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (٤) . وكقوله عز وجل : ﴿ سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ (٥) .

(١) ورد في صحيح البخاري «كتاب الحيض» باب رقم ٦ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٢ ، رقم ٣٧٤ . (٢) الانبياء : ٢٠ (٣) الصافات : ١٤٣ (٤) طه : ١٣٠ (٥) الروم : ١٧

فاذا كانت المرأة من أجل انها انقص صلوات من الرجل انقص ديناً منه ، فينبغي أن يكون البشر الذين يصلون كل يوم وليلة خمس صلوات انقص ديناً من الملائكة الذين يصلون الليل والنهار لا يفوتون . ثم وجب ان المستويين في مقدار الصلاة إذا كان أحدهما أكمل صلاة كان اكمل إيماناً . والملائكة أكمل صلاة من البشر لأن صلاتهم تخلص عن الانكار التي لا يليق بها فربما انسيت مرضاً أو حدثت سهواً ، وصلاة البشر لا تحلو من أمثالها فصح انهم اكمل صلوات من البشر ، فوجب أن يكونوا اكمل إيماناً .

ودليل آخر : وهو ان المعطل وان كان كافراً بتعطيله ، فإن نصرته للتعطيل ودعوته اليه وذبه عنه كفر ، والمشبه وإن كان كافراً فإنه كلما احدث تشبيهاً كان قد أحدث كفراً مثبت ان المسلم كلما وحد الله وذكره واثنى عليه وقدمه وسبحه كان بذلك المستحدث إيماناً ، قياساً على التعطيل إذا كان في أصله كفراً كان الاثبات في أصله إيماناً ، وإذا كان التشبه والتشبيه كفراً ، كان التوحيد والتقديس إيماناً . وفي هذا ما ابان ان الزيادة في التوحيد والذكر زيادة إيمان . والله أعلم .

فصل

وإذا ثبت ان الايمان يزيد وينقص ، فتبين انه كيف يزيد وكيف ينقص وبالله التوفيق ان الايمان ينقسم إلى أصل وفرع ، فاصله : الاعتقاد والاقرار . والفروع هي الطاعات كلها . وإنما كانت إيماناً لان الايمان هو التصديق . والتصديق الواقع بالقلب واللسان هو الذي يحرك على سائر الطاعات ويدعو اليها . وإنما يقع من المؤمن قصداً إلى تحقيق القول بالفعل وتسوية الظاهر بالباطن ، ولأن الطاعة لا تكون إلا لأمر ، كما ان الاعتراف لا يكون إلا لذي حق واجب . فلما كان الاعتراف إيماناً لما فيه من إشارة التعرف له والتصديق به ، وجب ان تكون الطاعات لأوامره إيماناً لما فيها من إثباته والتصديق به . وإنما قصد بالطاعة المبايعة للاعتراف ، فجعلها فروعاً .

ان الاعتقاد والاعتراف باللسان يصح وجودهما في انفسهما عاريتين عما وراءهما ، فإذا وجدا بهما وحركا على غيرهما من العبادات ، ولا يكون وجود الصلاة مثلاً أو الصيام أو

الحج من أحد مع جحد الباري جل ثناؤه ، أو جحد الرسول الجائي لهذه الفرائض ، حتى إذا وجدت حركت وبعثت بعد الاعتقاد والاعتراف . فعملنا ان الاعتقاد والاعتراف هما الاصل اذ كانا يصحان بانفسهما . ثم لا يصح أن يقال هذا لأن الموجود من المقر هو المعتقد ، وإذا صحا استتبعا غيرهما وان نما وراءهما . وفروع إذا كانت تحتاج إلى معنى آخر يثبت قبلها ويستتبعها ، ولم يجب عليها أن يصح بانفسها ثم تستتبع غيرها ، والله أعلم .

فإن قيل : فالاعتقاد هو المحرك على الاقرار . فقل : ان الاقرار فرع وليس باصل . قيل : لا يصح ان يقال هذا لأن الموجود من المقر هو المعتقد والموجود من المعتقد هو المقر به ، وهما جميعاً التوحيد الصريح . لان الاقرار توحيد صريح ، فلما كان أحدهما هو الآخر وإنما يختلفان في الآلة لا في أنفسهما ، لأن أحد الفعلين باللسان والآخر بالقلب ، لم يجران ينقسم إلى أصل وفرع . لأن الانقسام إنما يليق بعملين ، وقد بينا ان الاعتقاد والاقرار عمل واحد . وأما سائر الطاعات فاتباع لهُذين لانهما اللذان يحركان عليها ويدعوان اليها كما تقدم وصفها ، فلاق لها ان تكون فروعاً لهما والله أعلم .

وإذا ثبت ان الطاعات إيمان ، فإن اصل الايمان إذا حصل اثم تبعته طاعة زاد الايمان . المتقدم بها ، لأنه ايمان انضم اليه ايمان كما يقتضيه ، ثم إذا تبعت تلك الطاعة طاعة أخرى ازداد الاصل المتقدم بها لأنه إيمان انضم اليه ايمان والطاعة التي تلتها بها ، لأن الاصل كان يقتضي هذه من طريق انه كان تحرك عليها لما فيها من تحقيق القول بالعمل ، وتعديل الباطن بالظاهر والطاعة بالأولى كانت تقضيها أيضاً لاشتراكهما في أمر الأمر بهما ، فلا جائز أن يفرق بينهما في الفعل بعدما جمعهما الامر الذي لاجله كان ما وجد منهما ، ثم على هذا إلى ان نكمل شعب الايمان هذه احدى العلتين ، والعلة الاخرى ان الطاعات لما كانت لا تكون إلا لامر كانت إذا وجدت اثباتاً له وتصديقاً به كالاقرار . فاذا كان الايمان هو التصديق فكما انضم تصديق إلى تصديق فواجب ان يزداد الاول بالثاني ويتكرر به ، فيقال قد زاد الايمان ، والله أعلم .

وأما نقصان الايمان فقد اختلف فيه ، فقيل ان الايمان يزيد ولا ينقص ، وقيل : بل ينقص كما يزيد ! ومن قال هذا فللنقصان عنده تأويلان : أحدهما : ان نقصان

الايمان انفراد أصله عن فروعه ، او انفراد أصله وبعض فروعه عما نفي منها مما اشتمل عليه الخطاب والتكليف . لان النقصان خلاف الزيادة ، فكلمها وصفت به الزيادة وجدت ، وجب أن يكون خلافه هو النقصان . فاذا قيل لمن آمن وصلى زاد ايمانه ، وجب أن يقال لمن آمن ووجبت عليه الصلاة فلم يصل انه ناقص الايمان ! .

وإذا قلنا لمن آمن ووجبت عليه الصلاة فصلى ، ولما وجبت عليه الزكاة منعها ، انه ناقص الايمان ! فمعنى ذلك انه عدم منه فعل مأمور به ، ولو وجد منه كان إيمانا في نفسه وزاد به متقدم ايمانه . فلما لم يكن أوجب ذلك انفراد ايمانه المتقدم عما كان من مقتضاه ومعناه في الحقيقة معناه كان ذلك نقصانا .

والتأويل الثاني : ان نقصان الايمان قد يكون من هذا الوجه ، وقد يكون نقصانا يلحقه بارتفاع شعبة شعبة ، كانت موجودة فبطلت عليه وارتفعت ، فنقص إيمانه . يعني ان الزيادة التي كانت لايمانه لاجل تلك الشعبة ، فلما عدمت فحل النقص محلها وأخذ مكانها . وذلك عند قائل هذا القول أن يأتي الرجل بفرع أو أكثر من فروع الايمان ، لم يرتكب معصية وذلك أن هذه المعصية تحبط ما تقدمها من الطاعات بقدرها ، فيصير ذلك القدر من الطاعة كأن لم يكن منه ، وذلك إيمان كان حاصلا له ، فلما حبط كان جزء آمن إيمانه نقص .

واحتج بصاحب هذه المقالة : ان المعاصي خلاف الطاعات ، كما ان الكفر خلاف أصل الايمان ، فلما كانت الطاعات فروع الايمان وجب أن تكون المعاصي فروع الكفر . ثم إذا وجب ذلك ، وكان الكفر محبطاً لأصل الايمان إذا طرأ عليه ، وجب أن تكون المعاصي التي هي فروع محبطة بقدرها من الطاعات التي هي فروع الايمان إذا طرأت عليها . فاذا قيل هؤلاء إذا اجزتم ان تحبط المعصية قدرها من الطاعة ، أقولون ان المعاصي اذا تتابعت وكتبت ، وقلت الطاعات فاحبطتها المعاصي ، ولم يبق إلا أصل الايمان ، ان ما بقي من المعاصي يحبط من أصل الايمان سبباً ؟ .

وما تقولون في كافر أسلم . فكان أول عمل استقبله بعد إسلامه معصية واقعها انتقص تلك المعصية ! من قالوا : كلا ، الفرع لا يعترض على الاصل ، وإنما يعترض الفرع على فرع مثله ، وعلى الاصل أصل مثله ، فيكون حاصل قول هؤلاء في نقص المعصية الايمان . وانها تنقص ما زاد على الاصل . فأما الاصل فغير محتمل للنقصان . والاصل محتمل الزيادة

فجعلوا محل النقصان غير محل الزيادة ، ودخلوا في معنى من يقول : الايمان يزيد ولا ينقص وهم يشعرون . واحتج هؤلاء لقولهم بقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (١) . وانما أراد بذلك ان رفع الصوت فوق صوته يوقع معصية ، فيخرج إيمان الرافع ويحبط بعض عمله . وإنما قال : ﴿ أعمالكم ﴾ لان الخطاب للجماعة ، فاذا أحبط لكل واحد منهم بعض عمله فانما هي أعمال احبطت ، والله أعلم .

واحتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى ﴾ (٢) . قالوا : ابان الله تعالى بهذه ان العبادة قد تحبط مع بقاء الايمان بخيانة تكون من صاحبها ، وقد روي عن سفيان بن عيينه انه سئل عن الايمان : هل يزيد ؟ فقال : نعم . فقل : أينقص ؟ قال : نعم ، وقد أخاف أن ينقص حتى يذهب كله . وفي رواية أخرى انه قال : ينقص حتى لا يبقى معك مثل هذا ، وقلل اصابعه . وهذا ليس فيه الاحتراز الذي حكيته عن أصل القول الأول . وقد علم ان سفيان لم يكن ممن يكفر أهل القبلة بالذنوب ، فانما يخرج جوابه على هذا : ان المعاصي تحبط الطاعات . بل يحترز عن هذه العبادة فلا يطلق أصلا ، لأن عصاة المؤمنين يأملون من الله العفو اما ابتداء أو تفضلا أو بشفاعه النبي ﷺ . ومعلوم ان الله تعالى إذا عفا عنهم وضع السيئات وأثابهم على الحسنات ، فلو كانت حبطت لم يكن للشفاعة ولا للعفو معنى ! الا ترى ان الكفر اذا احبط الايمان لم يكن فيما حبط منه شفاعه وكذلك لو حبط فروعه بالمعاصي لم يكن فيما حبط منها بشفاعه ثم بسنة ، والله أعلم .

أن تكون العبادة عن رأي سفيان ان حسنات المؤمن تصير مرتبة بتبعات سيئاته ، فان عفا الله تبارك وتعالى عنه وزادت حسناته على سيئاته ، وضع من ثواب حسناته بقدر ما يوازن الحسنات منها قصاصاً بها ، واستحق بما وراهها النار ، وأصل الايمان وفروعه في ذلك سوى ، فيكون نقصان الايمان من قوله نقصان ثوابه ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه ينقص من ميزانه ، فلا يثقل به . ويكون وجه هذا ان حسنات المؤمن إذا صارت وقاية له من النار ، فأولاها بذلك أصل الايمان لأنه أقوى ، فهو بالوقاية أولى .

(١) الحجرات : ٢

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

وأيضاً فإنه قد ثبت ان ثواب الايمان قد ينقص سيئات المؤمن ، وذلك أن الله جل وعز إذا لم يعف عن المؤمن المسيء فادخله النار، وعذبه فيها مدة من المدد قد علم أن نقصاً قد لحقه في ثواب إيمانه ، لأن ثواب إيمانه — لولا سيئاته — كان يكون أن يدخل الجنة مع الداخلين ثم يبقى خالدًا ولما وافى القيمة مسيئاً تخلف عنهم ، ففاته التمتع بالجنة مدة كونه في النار . وإذا كان هذا جائزاً ، لم يصح ان يجعل الأصل في الباب إلا التسوية بين أصل الايمان وفروعه ، في أن السيئة توجب ارتهان الحسنات بتبعاتها ، إن كانت أحاطت بها أبطلت الثواب كله ! وان لم تحط بها أبطلت من الثواب بقدر نفسها .

فان قيل لقائل هذا القول : فيما تقول فيمن استوت حسناته وسيئاته ، فلم يكن من ثواب أصلها وفروعه شيء يعبد بعدما أجرت أن يكون هذا ، ولا دار إلا الجنة أو النار! أين يكون مأواه ؟ فان قلت : النار ! فقد اخلفت لأنه ليس بكافر . وإن قلت : الجنة ! فقد أحلت ، لأنه إن كان مؤمناً فالجنة جزاء الايمان ، فمن لا جزاء له عند الله فأنسى يستحق الجنة ! فقد يشبه أن يكون جوابه في هذا الموضع : ان من كان بهذه الصفة ، فان الله تبارك وتعالى اما يمن عليه بالعفو عن سيئاته كلها أو بعضها ، أو يشفع له النبي ﷺ فيعفو الله عنه السيئات أو بعضها ، فان غفر له كلها أدخله الجنة بالعفو كما كانت مرتبة من سيئاته والله أعلم .

واحتج لهذا القول بأن النبي ﷺ قال : « من اقتنى كلباً ليس كلب صيد أو ماشية ، نقص كل يوم من أجره قيراط » (١) . فقد ابان أن المعصية تعترض على أجر الحسنات ، ولم يقل أنها تحبطها أو شيئاً منها ، ولم يفصل — مع ذلك — من أجر عمل وأجر عمل سواء ، فكانت أجور الأعمال كلها في ذلك بمنزلة واحدة .

ومما يحتاج به للقولين جميعاً ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (ما تعدون المفلس منكم ؟ فقالوا : من لا درهم له ولا دينار ! فقال ان المفلس من يأتي يوم القيامة وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، فيؤخذ من حسناته فيدفع إلى الآخر فإذا لم يبق له حسنات ، أخذت سيئات

(١) له رد الا في سنن ابن ماجه « الصيد » باب ٢ . حديث رقم ٣٢٠٤ ، وفي سنن الدارمي

« الصيد » باب ٢ ، ص ٩٠

هذا ، فحملت عليه ، ثم قذف في النار) (١) ، فإبان رسول الله ﷺ أن الظالم لا يقذف في النار ما لم يتبع بظلمه في حسناته لكن البداءة تقع بسلب الحسنات ، فإذا نفذت عدل به إلى النار . فدل ذلك على أن كل عاص فهذا سبيله ، ثم ذلك في القول الأول : ان تحبسط سيئاته حسناته ما عدا أصل الإيمان . فإذا لم يبق له حسنة سوى أصل الإيمان تحبسط سيئة عذب على سيئته بالنار والله أعلم ، وفروعه سواء ، فإذا لم يبق له ثواب وكانت له سيئة عذب عليها بالنار والله أعلم .

وفي القول الثاني أن تحريم ثواب حسناته وأصل الإيمان وفروعه سواء ، فإذا لم يبق له ثواب وكانت له سيئة عذب عليها بالنار والله أعلم . ومن ذهب إلى أن الإيمان يزيد ولا ينقص فإنه يقول : أصل الإيمان يتكثر بفروعه ، وفروعه تتكثر ببعضها ببعض ، والمعاصي لا تحبسط الطاعات ، وإذا لم تحبسطها فلا نقصان يلحق الإيمان . والدليل على صحة ذلك أن فروع الإيمان متأبدة بأصلها ، فما لا يحبسط أصلها لا يحبسطها ، لأن الفروع لا تتميز عن أصلها ، فإذا لم يجز وجود الكفر مع الإيمان ، لم يجز وجود فروعه مع الإيمان ، ولأن طاعات المؤمن إنما كانت فروع الإيمان لوجودها في الإيمان المحرك عليها ، ولأن طاعات المؤمن إنما كانت فروع الإيمان لوجودها في الإيمان المحرك عليها . كذلك معاصي الكافر فروع للكفر لأن كفره هو المحرك له عليها . وقد علمنا أن الأفعال الحسنة في أنفسها إذا وجدت من الكافر لم تكن فروع الإيمان ، ولأن طاعات المؤمن لما كانت فروع الإيمان كانت إيماناً . فلو كانت سيئاته فروع الكفر فلتكن كفراً .

فان قال : حسنات الكافر فروع الإيمان كما أن سيئات المؤمن فروع الكفر . قيل : ذلك محال ! لأن الفرع يقتضي أصلاً يصدر عنه ، فإذا لم يكن في المؤمن كفراً استحال أن تكون منه فروع الكفر . وإذا لم يكن من الكافر إيماناً استحال أن يكون منه فروع إيمان . فان قال : لو بطل أن تكون سيئات المؤمن من فروع الكفر لبطل أن تكون حسنات الكافر من فروع الإيمان ، فبطل أن تكون سيئات المؤمن معاصي لبطلان أن تكون حسنات الكافر طاعات .

(١) لم يرد الا في صحيح مسلم « كتاب بر الوالدين » حديث رقم ٦٠ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٢ ، رقم ٣٠٣ .

قيل : من لا يلزم هذا لأن الطاعة والمعصية لا تكونا إلا لأمر . ولأن الطاعة موافقة للأمر وامتناله ، فمن لا يثبت الأمر لا يمكن أن تؤخذ منه طاعة . والعصيان مفارقة الأمر ، فمن أثبت الأمر أمكن وجود مفارقتها منه ، والمؤمن يثبت له فيصح وجود العصيان منه وبالله التوفيق .

فان قيل : فان لم تكن معاصي المؤمن من فروع الكفر ، فما هي ؟

قيل : ليس بواجب أن تكون المعصية إلا فرع للكفر ، لان العصيان كما ذكرنا مفارقة الأمر ، وليس الداعي إلى مفارقة الأمر الكفر وحده ، ولو كان كذلك لاستحال وجود معصية من المؤمن . ولكن الهوى وحب الشهوات داع إلى المعصية ، كما أن الكفر داع إليها . وإنما توجد المعصية من المؤمن إجابة منه للهوى ، ومثلاً منه إلى قضاء شهوته ، وليست تقع منه قصداً إلى خلاف الباري جل ثناؤه . ولو وقعت لهذا لكانت كفراً . فأما الطاعة فلا داعي إليها إلا تعظيم الأمر وابتغاء مرضاته ولهذا لم يصح وجودهما من الكافر ، فلهذا كانت طاعة المؤمن كلها فروعاً لإيمانه ، ولم تكن معاصيه كفراً ولا من فروع الكفر ، وبالله التوفيق .

وإذا كان الأمر على ما وصفت كان الجواب عن قول القائل : إن لم تكن معصية المؤمن من فروع الكفر : فما هي ؟ ان يقال : هي من فروع هواه ووقوع شهواته . والكفر أيضاً من فروع هواه وشهواته ، والكفر والمعاصي من ينبوع واحد . فاما أن تكون معاصي المؤمن فروعاً لكفر غير موجود منه ، فذلك محال ! وإذا استحال هذا لم يجوز أن يقال : انها تحبط حسناته وطاعاته . لأن الإيمان كما لا يبطل إلا بالكفر ، فكذلك فروعه لا تبطل إلا بالكفر ، اذ الطاعات ايمان ولا ضد للإيمان الا الكفر والله أعلم .

ومما يدل على فساد هذا القول أيضاً أنه يؤدي الى المحال ، لأن قائله يقول : ان السيئات تحبط الحسنات ما وجدت ، فيتخلص المسيء بما يخطر من حسناته من عذاب النار ، حتى إذا لم يبق أصل الايمان فعمل سيئة هلك وحقت عليه النار ، وهذا محال . لأن الحسنه إنما كانت تقى صاحبها النار ، فأولى بذلك حسنة الإيمان نفسه ، لانه أصل ، ولا أصل أقوى . فينبغي أن يكون أحسن وأوفى . فأما ان يكون ما دونه يكمل لدفع النار عن صاحبه ، والأصل لا يكمل لذلك فهذا لا يبين له وجه . وبالله التوفيق .

فان قال صاحب هذا القول : إني لا أقول ما يؤدي إلى الحال الذي ذكرت ، ولكنني أقول : ان كل معصية فهي تحبط من الطاعة المتقدمة بقدرها ، فاذا أحاطت المعاصي بالطاعات التي دون الإيمان أحبطتها ، والعذاب مع ذلك واجب على صاحبها إلا أن يعفو الله تعالى عنه ، فلا أقول ان بطلان الطاعة عذاب المعصية دون النار ، بل هو كما أجمع المسلمون عليه من أن المسلم إذا ارتد حبط ما مضى من إيمانه ، ثم لا يكون ما يبطل من ثواب إيمانه جزاء كفره حتى لا يدخل النار ، بل النار جزاؤه لإحباطه إيمانه . فكذلك معصية المؤمن إذا احبطت طاعاته إلى دون الإيمان ، كان جزاء إحباطه إياها النار . وإذا كان هذا هكذا : وكانت الطاعة إيماناً ، فحبطت بالمعصية ، فقد تحقق نقصان الايمان بالمعصية .

قيل له : إن الذي ظننته لا يصح لأن ثواب الطاعة إذا بطل لأجل المعصية فقد سلب فائدة الطاعة . فوجب أن يسقط بذلك ضرر المعصية . ولو جاز أن يحرم ثواب الطاعة - ومع ذلك يعذب بالنار على المعصية - جاز أن يعذب مرتين . فأما المرتد فليس له عند الله ثواب . فمن وافاها كافراً فلا وعد له منه .

فان قال قائل : إنما وعد ثواب الطاعة من يوافي بها يوم القيامة ، ولم يواف بها من أحبطت معاصيه طاعته .

قيل : لو لم يواف بها لم تنفعه الشفاعة كما لا تنفع المرتد ، ولما نفعته صح ان قد وافى بها . وأيضاً فان من الفروق بينهما ان المرتد ناقض الإسلام بالكفر ، والنقض حرام عليه . فاذا وجد منه حبط إسلامه بنقضه إياه ، واستحق العذاب على النقض . وأما المحسن باقام الصلوات وإيتاء الزكوات ، إذا زنا أو سرق أو شرب ، فليس ينقض شيئاً من ذلك ما قدم من طاعاته ، لان الزنا ليس ضد الصلاة ، فيصير ناقضاً له بها . ألا ترى ان هذا هكذا يكون في أحكام الدنيا . فان المرتد يكلف إعادة عقد الايمان ، والزاني بعد صلاته لا يكلف إعادة الصلاة ، والسارق بعد صيامه وزكاته لا يكلف إعادة صومه وزكاة ماله . وإذا كان هذا هكذا ، صح أن الزنا ان أحبط الصلاة أو شيئاً منها ، فليس يمكن أن يكون ذلك إلا على وجه معاقبة الزاني على الزنا بجرمان ثواب الصلاة عنه . فان كان ذلك واقعاً فلا ينبغي أن يعذب مع ذلك بالنار ، فيكون كمن عذب مرتين ، وبالله التوفيق .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (١) . قد يخرج على غير ما قاله المحتج به ، وهو أن يكون المعنى : لا تحملنكم أيها المهاجرون هجرتكم معه ، ولا أيها الأنصار إيوائكم إياه على أن تضيعوا حرمة وترفعوا أصواتكم فوق صوته . فتكونوا بذلك صارفين ما تقدم منكم من الهجرة أو الإيواء أو النصرة ، فمن ابتغاء وجه الله به إلى عرض غيره ووجه سواه ، فلا تستوجبوا مع ذلك أجراً .

ويخرج على وجه آخر وهو أن يقال : لا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، فإن ذلك قد يبلغ حد الإضرار به والاستخفاف له ، فتكفروا وتحبط أعمالكم ، إلا أن تتوبوا أو تسلموا . وكذلك قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ (٢) . فليس على : أن المن يحبط الصدقة . فيجب على قياس ذلك : أن ضرب المتصدق عليه - ظالماً له - حبطت صدقته ، وإنما وجهه : أن الصدقة ينبغي بها وجه الله ، وهو المأمول منه ثوابها . فإذا من المتصدق على السائل وإذا بالتعير ، فقد صرفها عن ابتغاء وجه الله بها إلى ما يؤدي به السائل ، فحبط أجره عند الله تعالى ، لهذا وصل عند المتصدق عليه مع ذلك لأنه ان كان حباه فقد آذاه ، وإن أعطاه لقد أجزاه . ولو كان ذلك على معنى إفساد الطاعة بالمعصية ، لم تختص بالبطلان صدقته ويحبط من جملة طاعاته جزء غير معلوم للعباد ، فإن الرجل لو أعتق عبداً ثم قتله ، أو قطع من أطرافه طرفاً ، لم يحبط - عند قائل هذا القول - عتقه بعينه ، وإنما يزعم أنه من يحبط من طاعاته شيء غير معلوم عندنا . وهكذا لو تصدق على محتاج بصدقة ، ثم ضربه أو جرحه ، لم يقل أن صدقته بعينها هي التي تحبط فلما أحبط الله عز وجل الصدقة الماضية بالمن والأذى ، علمنا أن وجه إبطائها ما ذكرنا ، والله أعلم . فهذا ما يدخل هذا ، وأما الوجه الآخر : وهو أن الحسنات يرتبن بتبعية السيئات فيخرج المخرج من ثواب إحسانه ما يوازي تبعة سيئته ، وقد يمكن أن تحبط السيئات بالحسنات أصلها وفرعها فلا يبقى للمؤمن عند الله ثواب . فإن من الطعن على هذا القول ما يشمله والذي يقدمه وهو أن سيئات المؤمن متناهية الأجزاء ، وحسناته ليست بمتناهية ، لأن مع ثوابها الخلود في الجنة ، وما دام خالداً فيها فلا

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

(١) الحجرات : ٢

يخلو من التمتع بها والتقلب في نعيمها ، وإنما يكون الجزاء بالحسنة عشرأ أو اكثر ، من طريق انه يكون له في نفسه مقدار مقدر ، الا ان ذلك المقدار يكون دائماً لا يسلم اليه جملة وقتاً واحداً ، ثم لا يعاد له ، كضيف تقدر له في اليوم واليلة أشياء معلومة إلا انه تكون له جارية ما دام نازلاً من أضيافة ، وإذا كان كذلك لم تبلغ السيئات - وان كثرت - ان تحبط بثواب حسنة واحدة من حسنات المؤمن ، فضلاً عن أن تحبط بجميعها ، لأن الخلود لا غاية له ، فلا يتوهم ان تكون البيعة المتناهية التي يستحقها المؤمن بسيئته تأتي على ثواب حسنة لا نهاية له ، فيصح ان هذا من القولين ، في أنفسها باطلان ، فلا احباط حسنة فضلاً عن حسنات جائز بسيئة أو بسيئات ، ولا أخذ ثوابها كله عن بيعه سيئة أو سيئات يقبل أو يستقيم . فصح ان الايمان لا ينقص من طريق احباط الحسنة بالسيئة ، ولا ينقص من ميزان المؤمن أصلاً بذهاب جميع ثوابها منه . والله أعلم .

فأما قول النبي ﷺ : (من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان) (١) ، لأن المعنى لو كان غير هذا لم يظهر مقدار المنقوص ولو يعلم ان القيراطين كم ينقصان ، وإذا كان المعنى ما ذكرت ، فإنما هو محرم لأجل هذه السيئة بعض ثواب عمله . ولسنا ننكر جواز ان يحرم الله تعالى المؤمن بعض أجزاء عمله ، ويقلل ثوابه لأجل سيئة أو سيئات تكون منه ، وإنما أنكرنا قول من يقول : ان السيئة تحبط الطاعة أو توجب أبطال ثوابها أصلاً ، وذلك لم يأت به من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ خير ، ولا يمكن أن تكون ماء شرب الخلود للمؤمنين في الجنة والله أعلم .

فإن قال قائل : فما تقول في المؤمن إذا خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً !

قيل : امره إلى الله تعالى ان شاء عفا عنه وإن شاء ادخله النار وعذبه بسيئته ، ثم أخرجه إلى الجنة فأثابه بآيانه والصالح من عمله ، وإن شاء حرمه من جملة ثواب الصالح من عمله ، ما يكون كفاء للعقاب الذي استحقه ، فكان ذلك جزاءه ، ووقاه به عذاب النار ، وليس يمكن أن يقطع من هذه الوجوه بشيء ، وبالله التوفيق .

وبان ما ذكرنا ان الايمان لا ينقص بالاطلاق من هذين الوجهين ، وان نقصان الايمان ان

(١) لم يرد الا في سنن الدارمي « باب الصيد » ج ٢ ص ٩٠

يتجرد عن الاعمال التي يقتضيها وفيها تحقيقة ، ولو وجدت لكان زائداً متكثرأ بها ، فهو نقصان إضافة تجرده عن فروعه إلى حال إيصال فروعه به ، وهو نقصان باضافة الايمان ، من كان هذا صفاته إلى الايمان من اتصلت فروع ايمانه به ، وقد أخبر النبي ﷺ : (ان المرأة تكون ناقصة من أنها تجلس نصف دهرها لا تصلي) وذلك على معنى ان صلاتها تنقص في العدد عن صلاة الرجل ، فعلمنا ان نقصان الدين ونقصان الايمان انها يكون بتكامل عدد شعبها وتناقصه ، إذا كانت سيئاته الكثيرة لا توازي تبعاتها ثواب حسنة واحدة من حسناته ، لم يكن ميزانه إلا ثقيلاً ، ولم تكن حسناته إلا أكثر بكثرة ثوابها واربابه على تبعات سيئاته ، فلا معنى للوزن إذا !

فالجواب : ان الميزان الثقيل الذي وصفه الله تبارك وتعالى هو ميزان المؤمن الذي يوافي القيمة بلا كبائر ، أو تأثباً من الكبائر ان كانت له ، فهذا الذي قابل الله تبارك وتعالى بينه وبين الكافر ، فميزان الكافر يخف ، لأنه إذا وضع كفره وفروع كفره في كفه ، لم توجد له حسنة توضع في ^(١) الكفة الأخرى ، فيقع الارتفاع . وميزان المؤمن الذي وصفناه يثقل لأنه إذا وضع إيمانه وفروع إيمانه في كفه ، لم توجد كبيرة توضع في الكفة الأخرى ، فيثقل بالخير ميزانه . كما خلا من الخير للكافر ميزانه .

ألا ترى انه جل وعز لما وصف المؤمن بهذه الصفة كيف قطع بأنه يفلح ، وأنه في عيشة راضية ، فبان بذلك انه اراد بالمؤمن المطلق الذي لم يواف القيمة مع إيمانه بكبيرة ، وذلك لا يرفع ان يكون في المؤمنين من يكون حاله غير هذا ، الا انه لم يذكر ، لأن الموازنة كانت بين الكافر وبين المؤمن . فاقضى ذلك ان يكون من المؤمنين من يخالف الكافر بالاطلاق ، وإنما توازن اعمال المؤمن الذي ذكرنا لظاهر فضله ، كما توزن أعمال الكافر لخزيه وذله ، فان أعماله توزن بمكياله ^(٢) على فراغه ، وخلوه من كل خير ، وكذلك توزن أعمال المؤمن التقى تحسناً لحاله واشادة بخلوه من كل شر ، وتبرئاً لأمره على رؤوس الاشهاد .

وأما المؤمن الذي يوافي القيامة بكبيرة أو كبائر ، فان لميزانه حالاً أخرى - سوى حال المؤمن التقى ، وحال الكافر المخزي - وهو أن تكون كفتا ميزانه ثقيلتين ، لأن في كل واحد منها ما يحتمل الوزن ، غير ان كفة الحسنات تكون أثقل لأن مع الحسنات أصلها

(٢) أ : بنكاله .

(١) ح : فوضع .

وهو الإيمان ، وليس مع السيئات أصلها وهو الكفر ، ولأن الحسنات أريد بها وجه الله تعالى ، والسيئات لم يرد بها مخالفة الله تعالى ، فإذا ظهر بالوزن قدر السيئات صارت بذلك المقدار معارضة للحسنات ان كان ثقلها كنصف ثقل الحسنات أو كثلثه ، أو كربعه جرى أمره على ما ذكرنا قبل هذا ، وهو ان الله تعالى اما ان يعفو عن سيئاته ، واما أن يعذبه عليها بالنار ، واما ان ينقص عن ^(١) ثواب حسناته بقدر جزاء السيئات ، فيفوته بعض ثواب طاعاته ويبقى له بعضه ، والله أعلم .

فأما قول السائل : لو كانت سيئات المؤمن لا توازي تبعاتها ثواب حسنة من حسناته ، فلم توزن أعماله ؟

فجوابه : ان ثواب الحسنة وإن كان دائماً لا ينقطع ، فان الاعمال هي الموزونة لا جزاؤها ، إلا ان الأمر إذا آلت ^(٢) إلى الجزاء فقير ممكن أن تحبط سيئته أو سيئات حسنة ، لأن جزاء السيئة مثلها إلى وقت معلوم . وجزاء الحسنة أمثالها دائماً لا إلى وقت مخصوص . فلو أن أبطل ثواب الحسنة كله لاجل السيئة ، فانما يبطل إلى ^(٣) مثل الوقت الذي كان يمتد اليه عذابه بالسيئة لو عذب ، أو إلى وقت ما في الجملة ، ولا بد من أن يكون الثواب فيما بعد ذلك واصلًا اليه . فلا يصح مع هذا احباط الحسنة بالسيئة ولا بالسيئات ولا الاشتغال بتفريع ان السيئات إذا احبطت الحسنات كلها فلم يبق إلا الإيمان . فهل يمكن أن يخلص الاحباط أو لا يمكن ؟ ، ولا الحاجة تدعو إلى الاحتراز من اسم الاحباط بالعدول إلى اسم ارتهان الحسنات بتبعية السيئات والله أعلم .

فصل

وهذا الذي ذهبنا اليه في الايمان هو المروي عن النبي ﷺ .

روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ انه قال : (الايمان معرفة بالقلب وقرار

(١) أ : ان ينقص من . (٢) أ : إذا آل الى الجزاء . (٣) فانما يبطل لثقل

باللسان وعمل بالاركان (١) ، ومن قبل هذا فقد اخبر الله تعالى عن ابراهيم خليله صلوات الله عليه انه قال : ﴿ رب ارني كيف تحيي الموتى ! قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ (٢) .

ومعلوم أن طمأنينة القلب بصدق وعد الله ، أو بقدرته على ما خبر انه فاعله ، ايمان فإنما يسأل الله تعالى ما يزيده إيماناً على إيمان ، فثبت بذلك ان الايمان قابل للزيادة ، فان قيل : انما سأل الله تعالى أن يضطره إلى العلم باجابة الموتى والتصديق بما وقع العلم به ضرورة ، ولا يكون عبادة (٣) .

قيل : لم يسأل الله تعالى أن يضطره إلى العلم باحيائه الموتى للقيمة ، ولا الله تعالى فعل ذلك به ، وإنما سأل أن يريه كيف يحيي الأجساد بعد موتها وتقطعها ، فإراه ذلك عياناً في أربعة من الطير ، وليس ذلك باضطرار إلى أن الناس يحيون بعد موتهم ، لكنه أكد لليقين المتقدم بأن الله تعالى قادر على احياء ما امات وجمع ما يفرق ، ثم ما ينشأ عن المشاهدة من ذلك في الطير . من العلم بان الذي قدر على ذلك لا يعجزه مثله في الناس استدلال لا ضرورة ، وهو فصل الايمان في المؤمن يعرض للزيادة والله أعلم .

ومما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب قوله : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) (٤) .

فبان بهذا الحديث ان الطاعات إيمان ، ولولا ذلك لم يكن الانكار بالقلب إيماناً أضعف من الانكار باللسان واليد ، والله أعلم . وفي الباب مما جاء عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين . فما جاء عن الصحابة ما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم . وعنه : أنه كان يخرج إلى الخلق فيقول : تعالوا نزدد إيماناً !

ومنه ما جاء عن علي رضي الله عنه ، ان رجلاً سأل عن الايمان فقال : الايمان على

(١) لم يرد هذا الحديث الا في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، رقم ٦٥ . وقد جاء في هذه السنن : ان اسناد هذا الحديث ضعيف لاتفاقهم على ضعف ابي الصلت (الراوى) ج ١ ، ص ٢٦ .

(٢) البقرة : ٢٦٠

(٣) أ : ولا يكون عبادة ..

(٤) ورد في سنن النسائي « الايمان » باب ١٧ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٧٨ .

أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد . وعنه أنه قال : الإيمان يبدو لمظة في القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت المظة . وقيل ما حده في المظة التي هي الذوق وهو أن يلمظ الإنسان بلسانه أو الدابة شيئاً يسيراً ، أي يذوقه . فكذلك القلب يدخله من الإيمان شيء يسير ، ثم يشيع فيه فيكثر . وعنه أنه قال : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، وعنه : لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يدع المرء وهو محق ، وحتى يدع الكذب في الممازحة . وعنه أنه قال : الطهور نصف الإيمان . وعنه : من لم يصل فهو كافر ، وعنه : من ترك صلاة واحدة متعمداً فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه : لن يصيب رجل حقيقة الإيمان حتى يترك المرء ، وهو يعلم أنه صادق ، ويترك الممازحة في الكذب .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لأصحابه : إجلسوا بنا نؤمن ساعة .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : من لم يصل فلا دين له . وعنه : الصبر نصف الإيمان . وعنه : أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وسيصلي قوم ولا دين لهم ، وعنه : لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما وافق السنة .

وعنه : ثلاث من كن فيه فهو منافق : كذوب إذا حدث ، مخلف إذا وعد ، خائن إذا أوتمن ، فمن كانت منهن فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . وعنه : ينتهي الإيمان إلى الورع ، ومن أفضل الدين أن لا تنال ^(١) مالا ، فكل من ذكر الله .

وعنه : لا يجد الرجل حلاوة الإيمان حتى يحل بذروته ، حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى ، وحتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف ، وحتى يكون حامده وذامه سواء . وفسره أصحاب عبد الله : حتى يكون الفقر في الحلال أحب إليه من الغنى في الحرام ، وحتى يكون التواضع في طاعة أحب إليه من الشرف في معصية الله ، وحتى يكون حامده وذامه عنده في الحق سواء .

(١) أ : ان لا تزال مالا ، وهو خطأ .

وعنه أنه كان يقول : اللهم زدني إيماناً و يقيناً ، وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال :
ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الايمان : الانفاق من الاقتار ، وانصاف الناس من نفسك ،
وبذل السلام للعالم . وعنه قال : ثلاث من جمعهن فقد جمع الايمان : الانفاق من الاقتار ،
ان تنفق وأنت مقل ، تعلم ان الله سيخلف لك ، والانصاف من نفسك إذا كان بينك وبين
أحد شيء فلا تمس به إلى سلطان ، فإنك إذا مشيت به إلى السلطان فلم تترك ، وبذل
السلام للعالم .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : الاسلام ثمانية أسهم : فالاسلام سهم ، والصلاة
سهم ، والزكاة سهم ، وصوم رمضان سهم ، وحج البيت سهم ، والجهاد في سبيل الله سهم ،
والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، وقد خاب من لا سهم له .

وسئل حذيفة رضي الله عنه : من المنافق ؟ فقال : الذي يصف الايمان ولا يعمل به .
وعنه انه قال : اني لاعرف أهل دينين في النار : قوماً يقولون أن الايمان كلام وان قتل
الرجل أباه وأمه وعمل المعاصي ، وقوماً يقولون : ما بال أولاء يقولون خمس صلوات وإنما
أمرنا أن نصلي أول النهار وآخره ! . وعنه قال : يخرج من النار من كان في قلبه دون شعيرة
من الايمان ، ومن كان في قلبه حبة من خردل من إيمان . وعنه : قال : أول ما تفقدون
من دينكم التخشع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة .

وعن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول :
تعالوا فلنؤمن ساعة ، فلنذكر الله ونزداد إيماناً . تعالوا لنذكر الله بطاعته لعله يذكرنا
بمغفرته ، فهش القوم للذكر واشتاقوا ، فقالوا : اللهم لو نعلم الذي هو أحب إلينا لفعلنا .
فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن
تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ (١) .
وقال أبو الدرداء : كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني مقبلاً ضرب بين يدي ، وإذا لقيني
مدبراً ضرب بين كتفي . ثم يقول : عويمر اجلس بي نؤمن ساعة . فنجلس نذكر الله ، ثم
يقول : عويمر هذه مجالس الايمان .

وعن أبي الدرداء وابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهم قالوا : الايمان يزيد وينقص ، ولا يخرج هذا إلا على أن يكون قولاً وعملاً .

وعن ابن عباس في قول الله عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »^(١) . قال : والعمل الصالح يرفع الكلام الطيب .

وعن عمرو بن حبيب ، وكان بائع رسول الله ﷺ قال : ان الايمان زيادة ونقصان . قيل : ما زيادته ونقصانه ؟ قال : إذا ذكرنا الله وحمدناه وخشيناه فذلك زيادة ، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه .

وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : (كنا غلمانا جزاورة مع رسول الله ﷺ ، فبعلمنا الايمان قبل القرآن ، ثم يعلمنا القرآن . فازدنا به إيماناً . وانكم اليوم تعلمون القرآن قبل الايمان) .

وأما التابعون ومن دونهم فإنه جاء عن عروة بن الزهري رضي الله عنه أنه قال : ما نقصت أمانة عبد إلا نقص إيمانه . وأما عطاء بن أبي رباح ، فإن معقل بن عبد الله قال : قلت لعطاء بن أبي رباح أن ناساً يقولون : انه ليست في الايمان زيادة . فقال : أرأيت حين يقول الله عز وجل : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾^(٢) . فما هذا الذي زادهم^(٣) لعمري ان في الايمان لزيادة . قال : قلت انهم يقولون أن الصلاة والزكاة عمل وليس من الايمان . قال : أفرأيت حين يقول الله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾^(٤) فما هذا إذا ؟ قال : قلت قد يحلل هذا اثنا عشر شيخاً ، قال : يحيى بن سعيد : عمر بن در وأصحابه . قال : لا ، والله الذي لا إله إلا هو ما كان من هذا قط . قال : فذكرته للزهري ، فقال : سبحان الله ، قال رسول الله ﷺ : « لا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولا يزن الزاني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ، ولا يتهب نهبه والناس يرمونه بالحدق وهو مؤمن »^(٥) . قلت : فأين المنتهب ؟ قال بيده ، الغزو^(٦) .

(١) فاطر : ١٠ (٢) محمد : ١٧ (٣) أ : الذي اداهم . (٤) البينة : ٥ .
(٥) لم يرد الا في سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ٣ ، حديث رقم ٣٩٣٦ ، وقد حمل هذا الحديث على كمال الايمان .
(٦) أ : بيده الغز .

وقال عبد الله بن معقل : سألت الزهري وعطاء بن أبي رباح وميمون بن مهران عن
يزعم أن الصلاة والزكاة ليستا من الايمان . فكلهم قال : هما من الايمان .
وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : ست خصال من فعلهن فقد استكمل الايمان .
قتل أعداء الله بالصف ، والصيام في شدة أيام الصيف ، وتعجيل الصلاة يوم الغيم ،
واكمال الوضوء في اليوم الشاتي ، والصبر على المعصية ، وترك الجدال وأنت تعلم أنك
صادقاً .

وعن الحسن بن أبي الحسين قال : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾^(١)
قال : الكلام الطيب يرفعه العمل الصالح . يعرض القول على العمل ، فان وافق القول
العمل والارد . وعنه رحمه الله قال : ليس الايمان بالتمني ولا بالتجلي ولكنه ما وقر في
القلب وصدقة العمل^(٢) . وعنه قال : الايمان قول وعمل . وعنه قال : لو شاء الله لجعل
هذا الدين قولاً لا عمل فيه ، ولكن جعل دينه قولاً وعملًا ، وعملًا وقولاً ، فمن قال قولاً
حسنًا وعمل سيئاً رد قوله عليه عمله ، ومن عمل صالحاً رفع قوله عمله .

وعن الأوزاعي رضي الله عنه قال : أدركت الناس وهم يقولون : الايمان كلام ولا
يفرقون بين الايمان والعمل . وعنه قال : لا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم العمل إلا
بنية موافقة للسنة ، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل ، والعمل من
الايمان ، والايمان من العمل ، وإنما الايمان إسم يجمع كما تجمع هذه الأديان اسمها ويصدقها
العمل . فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله ، فتلك العروة الوثقى لا انفصام
لها ، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله لم يقبل منه ، وهو في الآخرة من
الخاسرين .

وعنه قال في كلام ذكره : ويقولون ان فرائض الله على عباده ليست من الايمان ،
وان الناس لا يتفاضلون في إيمانهم ، وان برهم وفاجرهم في الايمان سواء . وما هكذا جاء
الحديث عن رسول الله ﷺ ، بلغنا أنه قال : (الايمان بضع وسبعون باباً أولها شهادة أن
لا إله إلا الله ، وادناها امانة الأذى عن الطريق . والحياة شعبة من الايمان)^(٣) . وقال :

(١) فاطر : ١٠ (٢) ورد في الاصل : وصدقة الايمان .

(٣) ورد في صحيح البخارى « الايمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » حديث رقم ٥٧ ،
وفي سنن أبي حازم « السنة » باب ١٥ ، حديث رقم ٤٦٧٦ .

وقال الله جل ثناؤه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ والدين هو التصديق وهو الإيمان .

وصف الله تعالى الدين قولاً وعملاً فقال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ (١) . فالتوبة من الشرك هي الإيمان والصلاة والزكاة عمل .

وعن عبيد الله بن عمر قال : ليس الإيمان بالتجلي ولا بالتمني ، ولكن إيمان قول يعقل ، وعمل يعمل . وعنه قال : من صدق الإيمان وبره أن يخلو الرجل بالمرأة الجميلة فيدعها ، لا يدعها إلا لله ، ومن صدق الايمان وبره اسباغ الوضوء في المكاره وعد أموراً سواه .

وعن مجاهد قال : الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب إلى عدي بن عدي : أن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع وحدوداً ، من استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، وان اعش بئتها لكم (٢) . وإن أمت فوالله ما أنا على صحبتكم بمريض .

وعن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : الايمان يشبه الماء ، البحر ماء ، والغدير ماء ، والماء في القدح ماء ، والماء في الحارة ، فتفاضل الايمان مثل البحر والحارة . وعنه أن رجلاً قال له : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ! وليس مفتاح إلا وله أسنان . فمن أتى الباب بأسنانه فتح له ، ومن لم يأت به بأسنانه لم يفتح له .

وعنه قال : الايمان قائد والعمل سائق والنفس حرون بينهما . فإذا قاد القائد ولم يسق السائق لم يغن شيئاً ، فإذا ساق السائق ولم يقد القائد لم يغن شيئاً . وإذا قاد القائد وساق السائق تبعته النفس طوعاً أو كرهاً .

وعن بكر بن عبد الله المزني أنه قال : انتهيت إلى هذا المسجد وهو غاص بأهله مغمم بالرجال ، قيل لي : أي هؤلاء خير ؟ قلت لسائلي : أتعرف أنصحهم لهم ، فإن عرفه عرف أنه خيرهم ، ولو انتهيت إلى هذا المسجد وهو غاص بأهله مغمم من الرجال . فقييل لي : أي هؤلاء شرهم ؟ فقلت لسائلي : أتعرف أغشهم لهم ، فإن عرفه عرفت أنه شرهم ، انه منافق بريء من الايمان ، لو شهد عليه بذلك لشهدت أنه في النار ، ولكني أخاف على

(٢) أ : وان اعش بينتها لكم .

(١) التوبة : ١١ .

خيرهم وأرجو لشرهم ، فإذا خفت على خيرهم فكيف خوفي على شرهم ، وإذا رجوت لشرهم ، فكيف رجائي لخيرهم ، هكذا السنة .

وعنه قال : فقد الحواريون نبهم ، فخرجوا يطلبونه فوجدوه يمشي على الماء . فقال له رجل منهم : يا نبي الله ! قال : تعال . فذهب يضع رجله ، فإذا هو قد انغمر . فقال : هات يدك يا فقير الايمان .

وعن ابطاه بن المنكور قال : الايمان قول وعمل لا يفرق بينهما ، وأما الضحّاك بن مزاحم فإن له في هذا الباب رسالة بليغة وهي .

ان أحق ما بدأ ^(١) به العبد من الكلام أن يحمد الله ويشني عليه . والحمد لله نحمده ونشني عليه بما اصطنع عندنا إذ هدانا للإسلام ، وعلمنا القرآن ، ومن علينا بنبينا محمد ﷺ ، وان دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ هو الايمان ، والايمان هو الاسلام ، وبه أرسل المرسلين قبله فقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ^(٢) . وهو الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، والتصديق والاقرار بما جاء به من عند الله . والتسليم لقضاء الله ، والرضى بقدره . من كان مؤمناً يحرم دمه وماله . ووجب له ما يجب للمسلمين من الحقوق ، ووجب عليه ما يجب على المسلمين من الأحكام ، ولكن لا يستوجب ثوابه ، ولا ينال الكرامة إلا بالعمل به ، والعمل به اتباع طاعة الله ، واتباع طاعة الله أداء الفرائض واجتناب المحارم والاقتداء بالصالحين وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، والمحافظة على إتيان الجمعة ، والجهاد في سبيل الله ، والاغتسال من الجنابة ، واسباغ الطهر ، وحسن الوضوء للصلاة ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، وصلة ما أمر الله به أن يوصل ، وحسن الخلق إلى الخلق ، ومعرفة حق كل ذي حق من والد ووالده ، ومن قرابة ویتيم ومسكين وابن السبيل وسائل وغارم ومكاتب وجار وما ملكك اليمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحب في الله والبغض فيه ، وموالاة أولياء الله ، ومعاداة أعداء الله ، والحكم بما أنزل الله ، وطاعة أولى الأمر في الكره والرضى ، والوفاء بالعهد ، والصدق في الحديث ، وإنجاز الوعود ، والوفاء بالنذر ، وحفظ الأمانة من كتمان السر

(١) ما يبدأ به العبد .

(٢) الانبياء : ٢٥ .

والمال ، وأداء الأمانة إلى أهلها ، وكتاب الدين المؤجل بشهادة ذوي العدل ، والشهادة على المبايعة ، وإجابة الداعي للشهادة على الدين وكتابه بالعدل كما علمه الله ، وإقامة الشهادة على وجهها بالقسط ، ولو على النفس أو الوالدين والأقربين ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وذكر الله عند عزائم الأمور ، وذكر الله على كل حال ، وحفظ النفس ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وحفظ الأركان كلها ، وكظم الغيظ ، ودفع السيئة بالحسنة ، والصبر على المصيبات ، والقصد في الرضا والغضب ، والاقتصاد في الشيء ، بالقول والعمل ، والتوبة إلى الله من قريب ، والاستعفار للذنوب ، ومعرفة الحق لأهله ، ومعرفة العدل إذا رأى عامله ، ومعرفة الجور إذا رأى عامله ، والمحافظة على حدود الله ، ورد ما يختلف فيه من حكم ، وغيره إلى الله ، ورد ما يتنازع فيه من شيء إلى أولى الأمر الذين يستنبطونه ، وترك ما يريب . والاستئذان في البيوت ، فلا يدخل البيوت حتى يستأذن ويسلم على أهلها من قبل أن ينظر في البيت أو يستمع فيه ، فإن لم يجد أحداً فلا يدخل بغير إذن أهلها ، فإن قيل ارجعوا ، فالرجوع أولى ، فإن اذنوا فقد حل الدخول ، وأما البيوت التي ليس فيها سكان وفيها منافع لعابري السبيل أو غيرهم يسكن فيها أو يتمتع بها ، فليس فيها استئذان . والاستئذان لما ملكت اليمين من صغير وكبير ، ومن لم يبلغ الحلم من خدمة أهل البيت ، ثلاثة أحيان من الليل والنهار : من آخر الليل قبل صلاة الفجر ، وعند القيلولة إذا خلا رب البيت بأهله ، ومن بعد صلاة العشاء إذا آوى رب البيت وأهله إلى مضاجعهم . فإذا بلغ الأطفال من خدمة أهل البيت الحلم فقد وجب عليهم الاستئذان كل الأحيان . واجتناب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، واجتناب أكل أموال الناس بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، واجتناب أكل مال اليتيم ظلماً ، واجتناب شرب الخمر ، واجتناب الحرام من الأشربة والطعام . واجتناب كسب المال بغير الحق ، واجتناب التبذير في غير حق ، واجتناب التطفيف في الكيل والوزن . واجتناب نكث البيعة وخلع الأئمة ، واجتناب الغدر والمعصية ، واجتناب اليمين الآثمة ، واجتناب بر اليمين بالمعصية ، واجتناب الكذب والتزديد في الحديث . واجتناب الشهادة بالزور ، واجتناب قول البهتان ، واجتناب قذف المحصن والمحصنة ، واجتناب الهمز واللمز والتنازير بالألقاب ، واجتناب النميمة والاعتياب ، واجتناب التجسس وسوء الظن بالصالحين والصالحات ، وافتقار الإصرار

على الذنب ، والتهاون به ، واتقاء منع الماعون ، والامساك عن الحق ، والتأدى في النفي ،
 والتقصير عن الرشد ، والكبر والفخر والخيلاء والفجور ، والمبادرة بالشر ، والاعجاب
 بالنفس والفرح والمزح ، والتنزه من لفظ السوء ، والفحش والخناء وسوء الخلق والنول
 والقذر ، كل هذا صفة دين الله وهذا الايمان وما شرع فيه من الاقرار بما جاء من عنده ،
 وبين فيه من حلاله وحرامه ، وسننه وفرائضه ، وقد سمي لكم ما ينتفع به ذوو الألباب ،
 وفوق كل ذي علم عليم . ويجمع ذلك كله التقوى ، فاتقوا الله واعتصموا بحبله ولا قوة
 إلا بالله ، أسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يبلغ به رضوان الله والجنة ، والحمد لله وصلى الله
 على محمد كلما ذكر .

وقال مالك بن أنس وسفيان الثوري ابن عيينة وهشام الدستواني ومحمد بن عبد الله بن
 عمرو بن عثمان^(١) وابن جريج ومحمد بن مسلم الطائفي وفضيل بن عياض ومعمرو وشريك وأبو
 بكر بن عياش وعبد العزيز بن أبي سلمة وحامد بن سلمة ، وحامد بن زيد وعبد الكريم
 الجرزي وأيوب وحفص ويحيى بن سليم ووكيعة وجريير والغزاري الكبير وعبد الله بن
 المبارك : الايمان قول وعمل ، وقال مسعر : يزيد وينقص . وقال سفيان الثوري : لا
 يستقيم قول إلا بعمل ولا عمل إلا بقول ، ولا قول وعمل إلا بنية ، ولا قول وعمل ونية
 إلا بموافقة السنة .

وقال ابراهيم بن شماس : سألت رجل سفيان بن عيينة وأنا عنده عن الايمان فقال :
 الايمان قول وعمل يزيد وينقص ، يزيد ما شاء الله ، وينقص حتى لا يبقى معك إلا مثل
 هذا ، وقلل أصابعه . قال : فكيف يصنع بقوم يزعمون أن الايمان قول بلا عمل ؟ فقال :
 يا ابن أخي ، إن الله تعالى بعث محمداً إلى الخلق كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله . فإذا قالوها حقنوا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها ففعلوا ، ثم أمره أن يأمرهم
 بالصلاة ، فأمرهم ففعلوا ! فوالله لو لم يفعلوا ما نفعمهم الاقرار الأول ، ولا صلاتهم ولا
 هجرتهم إلى المدينة . ولما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يردهم إلى مكة يقاتلون
 آبائهم وأبناءهم حتى يقولوا قولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم ، ففعلوا ، حتى
 أتى أحدهم برأس أبيه فقال : يا رسول الله هذا رأس الشيخ الكافر ! فلو لم يفعلوا ما

(١) أ : محمد بن عبد الله بن عمر وابن عثمان .

نفعهم الاقرار ولا صلاتهم ولا هجرتهم إلى المدينة . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الاقرار الأول ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم . فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم أمرهم أن يطوفوا بالبيت العتيق تذلاً ويحلقوا رؤوسهم تعبداً ، فأمرهم ففعلوا . فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الاقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ، فلما علم الله صدق ذلك من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الايمان وحدوده قال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (١) . هكذا السنة يا ابن أخي فابلغها عني من سألك من الناس .

وقال فضيل (٢) بن عياض اصل الايمان وفروعه بعد أداء الشهادة بالتوحيد، والشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ ، وأداء الفرائض صدق الحديث وحفظ الامانة ، وترك الخيانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، والنصيحة لجميع المسلمين والرحمة للعامة أو للناس . فقيل له : هذا من رأيك أو سمعته ؟ فقال : بل سمعناه وتعلمناه ، ولو لم آخذه من أهل الفقه والفضل لم أتكلم به .

فصل

وقد دعا قوماً قولهم : إن الإيمان هو المعرفة والإقرار وليست الأعمال من الإيمان ، إلى أن قالوا : كل مؤمن وإن عمل ما عمل من المعاصي فإيمانه كإيمان أكثر الناس طاعة وأشدهم اجتهاداً في العبادة . ومنهم من اجتراً ولم يأب أن يقول : إيماني وإيمان جبريل وميكائيل على السواء . واستعظم السلف هذا القول . فروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله ﷺ يبوح به ، إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل (٤) .

وذكر لابن أبي مليكة إيمان ، فقال : أترون إيماناً مثل إيمان جبريل وميكائيل ، وبهذا كان رجلاً صاحب شراب .

(١) المائة : ٣ . (٢) أ : فضل بن عياض .

(٣) أ : وإن عمل ما عمل من المعاصي فإيمانه . (٤) ح : على إيمان وجبريل وميكائيل .

وقال جويبر : كان الضحاك بن مزاحم يمجّب من يقول : إيمانه كإيمان جبريل . وإنكر ذلك عطاء بن أبي رباح وميمون بن مهران أشد ، وقد كان ينبغي لمن يترك زيادة الإيمان بانضمام فروعه إليه ولا ينكر زيادته من قبل زيادة اليقين وفروعه أن لا يقول : إيماني كإيمان الملائكة والنبيين صلوات الله عليهم لأنه اعلم بالله تعالى ، ومن كان أعلم به كان يقينه فوق يقين من يقصر علمه من علمهم وبالله التوفيق .

وقد يبرأ أحد الذين ينسب هذا القول منه ، فقال : لا نقول هذا ، ولكننا نقول دين الله واحد وعباده فيما شرع لهم منه سواء . فيقال لم تتكلم عنه ، ومن قال لكم : إن الله تعالى أديانا وعبادة منها أوزاع ؟ إنما نقول : دين الله واحد ، وهو الاسلام الذي وصفه فقال : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ ^(١) وقال : ﴿ ومن يستغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ^(٢) . وسمى الدائنين بهذا الدين مسلمين ومؤمنين . وسمى النبي ﷺ هذا الدين الاسلام مرة ، ودعاه باسم الايمان اخرى . فهما اسمان لدين واحد . إلا ان هذا الدين له شعب فمن استكملها كان مستكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يكن مستكمل الايمان وهذا لا يوجب أن يكون دين الله أكثر من واحد ، وإن يكون لقوم دين ، وآخر دين . ولو وجب إذا قلنا : إن الطاعات كلها إيمان ، أن نكون اثبتنا لله تعالى أديانا ، لوجب على الجميع إذا قالوا : الاقرار والاعتقاد معاً إيمان ، وهما خصلتان ، أن يكونوا أثبتوا لله تعالى دينين ، وإن كان وصفهم عملين ، فإنهما إيمان لا يوجب أن يكون دين الله اثنين . فكذلك وصفنا أعمالاً كثيرة بأنها إيمان لا يوجب أن يكون لله تعالى أديان كثيرة .

وأيضاً فإن الصلاة عبادة واحدة لكنها تنقسم إلى خمس صلوات ^(٣) في كل يوم وليلة ، فمن أقامها جميعاً كان مستكملها ، وإن أقام بعضاً وترك بعضاً ، لم يكن مستكملها ذلك لا يخرج فرض الصلاة من أن يكون متفقاً في نفسه ، وإن يكون شرعة للناس واحداً فإن الناس إنما يوفون في التخالف من قبل أفعالهم التي يباشرونها ، وإلا فالذي أمروا به غير مختلف في نفسه . والقول في كل صلاة وما ينقسم اليه من قول أو فعل هكذا أيضاً . وكذلك صيام رمضان فرض واحد ، ولكنه ينقسم إلى أيام ، فمن صامها جميعاً كان

(٣) أ : فعلات .

(٢) آل عمران : ٨٥

(١) آل عمران : ١٩

مستكملاً فرض الشهر ، ومن ترك بعضها لم يكن مستكملاً له ، وذلك لا يجعل الفرض مختلفاً في نفسه لكنه متفق ، وإنما الاختلاف في أفعال الناس دونه .

كذلك دين الله تعالى واحد . ولكن إقامة ذلك الدين من الناس مختلف ، فمنهم أقل أفعالا ، ومنهم أكثر أفعالا ، وذلك لا يجعل الدين اديانا ، والله أعلم .

وقال القائل : دعا الله تعالى عباده إلى الإقرار به ، وتوحيده ، وتصديق نبيه . فكان من أجاب الى ذلك مؤمناً ، ومن لم يجب اليه كافرأ . ثم شرع الشرائع من بعد فرض الفرائض وحد الحدود ، فثبت بذلك انها ليست من الايمان ، إذا كان ثبوت الايمان للناس سابقاً لها .
فيقال له : أرأيت نبينا محمداً ﷺ قبل أن أوحى الله اليه إذا كان يمضي التبعدي إلى حرام^(١) فلا يهتدي إلى شيء سوى متابعة السجود لله تعالى ، أكان مؤمناً بالله ؟ و خليل الله ابراهيم صلوات الله عليه حين قال لقومه : ﴿إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾^(٢) ، أكان مؤمناً بالله تعالى ؟ فلا بد من نعم ! فيقال له : أكان ذلك التصديق والاقرار منه إيماناً ؟ فلا بد من نعم ! فيقال : كيف جرى عليه حكم الايمان قبل ذلك ؟ وإذا اخترت أن يكون منه إيمان على إيمان . فما انكرت ان الايمان وان تقدم على ما وصفته شرعت^(٣) الشرائع ، فإن عامة هذه الشرائع إيمان ، وفعلها فعل إيمان .

فان قال : انما كان المتقدم إيماناً لله تعالى ، والحادث إيماناً بالنبوة !

قيل : وكذلك ما تقدم وسبق شرع الشرائع إيماناً بالله تعالى وبالنبى ، والحادث صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد ، فما بين الأمرين من فرق ؟ ويقال له : أرأيت إذا فرض الله الصلاة ركعتين ثم زاد في الحصر ، أكانت الزيادة زيادة الصلاة في الظهر والعصر والعشاء أولاً ؟ فإذا كانت زيادة صلاة فيها ، قيل له : اليس قد صحت للناس هذه الصلوات من قبل أن تكون هذه الزيادة ، فلم لا علمت بذلك ، ان هذه الزيادة لا ظهر ولا عصر ولا عشاء كما قلت ان الشرائع لما شرعت ، وقد صح للناس إيمانهم ، دل ذلك على انها ليست إيمان .
ويقال له : أرأيت الايمان إذا تقدم كما وصفت ثم شرعت الشرائع لم يلزم قبولها إذا شرعت ؟

(١) وهو غار حراء قرب مكة المكرمة . (٢) الانعام : ٧٩ . (٣) أ : شرعة .

فان قال : لان الايمان بالله والنبي وصول لامرهما .

قيل له : أو يسبق القبول الأمر ، فان قال : نعم ! قيل له : أرأيت رجلا اعتقد في زمان النبي ﷺ قبل أن تأتيه الرسالة ، انه ان نبيء سمع له فنبى وأطاع . استغنى بالعقد الذي تقدم منه على الايمان به بعد ان جاءته الرسالة . فلا بد من لا ، فيقال له؟ ما أنكرت ان تصديق النبي ﷺ بعد ما نبي ، والاقرار به لا يغني عن قبول ما يشرع على لسانه إذا شرع .

ثم يقال له : فإذا احتاج إلى القبول ! فقليل : أما ان يكون ذلك إيمانا منه ، فإذا قال ذلك ، يكون إيمانا منه . قيل له : كيف وقد سبق الايمان قبل أن يكون هذا الشرع ، وإذا أجزت ان يكون الايمان باثنا موجودا ثم يشرع ما يكون قبوله إيمانا ، فيكون ذلك إيمانا على إيمان ، فلم لا أجزت أن يشرع ما يكون العمل به إيمانا ، فيكون إيمانا على إيمان ، وبالله التوفيق .

قال هذا القائل : وإنما ميز الله تعالى بين الايمان والعمل ، ليتقدم الايمان متجردا عن كل عمل إلى ان شرعت الأعمال وانزلت الفرائض والحدود ، فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ (١) ففرق بين الايمان والأعمال الصالحة ! فيقال له : أرأيت إن لم تكن الاعمال الصالحة إيمانا ! اتقول : إن الايمان من الأعمال الصالحة ؟ فلا بد من نعم ؟ فيقال له : فقد ميز الله بينهما ، فان أجاز مع هذا التمييز أن يكون الايمان من الأعمال الصالحة ، فلم لا جاز أن تكون الأعمال الصالحة من الايمان ؟

ويقال له : ما أنكرت ان معنى الآية : ان الذين آمنوا بالسنتهم ، وعملوا سائر الطاعات بعامة جوارحهم فكانوا مؤمنين مستكملي الايمان ، وإنما أفرد الايمان من الصالحات لأنه أراه (٢) الايمان باللسان بعد رسوخه في القلب ولو أراد الايمان المطلق لكان في ذكر الايمان كفاية عن ذكر الصالحات ، وإذا كان هذا مما تحتمله الآية وجب حملها عليه للدليل الذي سبق ذكره والله أعلم .

قال هذا القائل : ويدل على اختلاف الايمان والأعمال ، انك تجد الناس متفاضلين في الأعمال ، ولا تجدهم متقاربين في الايمان ، وتفاضل في الدين ، وقد بين النبي ﷺ ذلك نصا ،

(٢) أ : اراد الايمان .

(١) البقرة : ٢٧٧ .

حيث أخبر ان جلوس المرأة نصف دهرها لا تصلي نقصان ، فكيف يجوز مع هذا أن يقال : الناس يتفاضلون في العمل ، ليسوا بمتفاضلين في الدين ؟

قال القائل : فان الله عز وجل شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا : ﴿ والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١) . فكان الدين يستوي فيه المتقدمون والمتأخرون والملائكة والنبيون والأنس والجان ، وهو التوحيد . ثم كانت شرائع الأنبياء عليهم السلام من الاختلاف بحيث لا يخفى ، فدل ذلك على انها شرائع الدين . وأما الدين فهو ما لم يختلفوا فيه .

فيقال له : أخبرنا عن قبول الشرائع إذا شرعت أهو إيمان ؟ فإذا قال : نعم ! . قيل له : فهل كان على الانبياء أن يقبل بعضهم شرع بعض مع تفرق أزمانهم وتباعد أعصارهم (٢) فلا بد من لا ، فيقال له : فان جاز أن يتباينوا وأمهم ، فما يلزمهم من قبول الشرائع ، ولا يلزم كل واحد ان لا يقبل على نفسه إلا ما شرع له إذا كان نبياً ، أو ما شرع لنبية ان كان من إحدى الأمم ، ثم يكون القبول إيماناً وديناً ، لم لا جاز ان يتباينوا وأمهم في الإيمان التي هي الشرائع ، وتكون الشرائع إيماناً وديناً . فان قال : إن شرائعهم — وإن اختلفت — فقبول الشريعة معنى واحد ، وليست بمعان في الكثرة والاختلاف . فإن كانا ففي المقبول لا في القبول !

قيل له : فما انكرت ان العمل بالشريعة معنى واحد وليس بمعان ، فالكثرة والاختلاف إن كانا ففي المعمول لا في العمل ! ويقال له : أخبرنا عن تصديق الأنبياء ، إيمان أو غير إيمان ؟ فإذا قال ذلك قيل له : أليس على كل متأخر من الأنبياء أن يؤمن بالأنبياء الذين تقدموه ، فاما المتقدمون فليس عليهم من المتأخرين فرض إيمان إلا أن يكون أحدهم أخبر أن نبياً كان بعده ، فيكون عليه الايمان بأنه نبي ، فاما الايمان بأنه نبي فأنكر إذا كان هذا هكذا ، فقد اختلف حالهم في ذلك فكان على بعضهم من الفرض فيه ما لم يكن على غيره وذلك لا يدل على ان الشرائع ليست من الايمان والدين .

ويقال له : ما انكرت ان الدين هو الطاعة ، ومعنى الآية : شرع لكم من الزامكم الطاعة

(٢) هكذا وردت في الأصل والصواب : عصورهم .

(١) الشورى : ١٣

ما شرع لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبيكم ﷺ وعليهم ، أي انه لم يرض من أحد من عباده أن يعصيه في أوامره ونواهيه ، بل أخذ الأنبياء عامة وأممهم بطاعته واتباع أوامره ، فلذلك ألزمهم طاعته ، لم يرخص لهم في خلافها ، وليس بقابل منكم غيرها ، فأقيموا الطلاق أي الطاعة فلا تتفرقوا ، وليس في هذا ما يوجب اختلافاً بين المتقدمين والمتأخرين في الدين ، لأن وجوب الطاعة بشملهم ، وإن كان ما تجب الطاعة فيه متفرقاً ، والأعمال لم تكن إيماناً عندنا لإيمانها ، حتى إذا كانت مختلفة أوجب ذلك اختلاف الإيमान وتفرق الدين وإنما كانت إيماناً لأنها طاعات ، فإذا كان معنى الطاعة تجمعها ، فقد وجد الاتفاق في دين الجميع والله أعلم .

ثم ان قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١) يدخل في جملة أن لا تتفرقوا في الدين ، فيكون من بعضهم الطاعة ومن بعضهم خلافاً . فأما إقامة الطاعة من يقيمها لا ينفع إلا نفسه دون من وجد منهم خلافاً ، ويدخل فيه أن لا يختلفوا فيه . فيقول بعضهم لشيء من الطاعات هذا خارج من الدين الذي تعبدنا به ، فإن الدين هو الطاعة ، فإذا شرع والله أعلم .

قال التماثل : وقد يكون في الناس من لا علم له بالفرائض وهو مع ذلك يسمى مؤمناً ، ولولم يعلم ما يلزمه الاقرار به لم يكن مؤمناً ، وإنما في هذا ما يبين اختلاف الاقرار والعمل . فيقال له : وفي الناس من لا علم له بالتوحيد ، وأنت تسميه مؤمناً مثل الصبي المولود بين المسلمين ، والمجنون - صغيراً كان أو كبيراً - إذا كان مولوداً بين المسلمين ، ولا يدل ذلك على أن التوحيد ليس بإيمان ، فكذلك الصغير المؤمن إذا بلغ ولم يعلم بلوغ نفسه أو لم يخطر وجود التوحيد في قلبه فهو مؤمن ، ولا يدل على أن التوحيد ليس بإيمان .

ويقال : كل من كان عليه فرض يؤاخذ به الله بتركه ، فلم يطلب علمه مع امكان طلبه ، وأخل بفعله لجهله ، فليس بمؤمن مطلق إيمان ، لكنه ناقص الإيमान من وجهين : أحدهما ترك طلب العلم والآخر الإخلال بالعمل ، فكلامك غير لازم .

ويقال له : أخبرنا عن تعظيم النبي ﷺ في حياته ، أكان إيماناً ؟ فإذا قال نعم ! قيل له : فمن آمن به ولم يره اليس كان يصح إيمانه ؟ فإذا قال : بلى ! قيل له فإذا لم يكن رآه لم يعلمه بعينه فيعظمه ، أي يدل هذا على أن تعظيمه إياه ليس بإيمان ؟ فإذا قال : لا !

(١) الشورى : ١٣ .

قيل له : فما انكرت ان ما يعلم الفرائض باعيانها فيعمل بها ، يكون مؤمناً فلا يدل ذلك على انه إذا علمها فعمل بها لم يكن عمله بها إيماناً ، وبالله التوفيق .

وقال القائل : ولو كان العمل من الايمان لكان المنافقون مؤمنين ، لأنهم يعملون ما يعمل غيرهم . فيقال له : أرأيت ان قال لك قائل : ان الاقرار ليس بايمان لان المنافقين كانوا يقولون ، فلو كان الاقرار إيماناً لكان المنافقون مؤمنين ، فان قال كان إقرارهم فاسداً لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون . قيل : فكذلك أعمالهم فاسدة ، لأنهم كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون ، وشرط الاعمال الاخلاص . فمن لا اخلاص له لا عمل له والله أعلم وبالله التوفيق .

وهذه مسألة وجدتها في هذا الباب لبعض المغرورين ، فنقصها عليه وإن كنت لم أعرفه ، وزعم : ان الايمان هو التصديق والاعتقاد دون سائر العبادات ، لأن الله تعالى سمى من صدق بما جاء به مؤمناً بقوله : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (١) ، وهذه عبارة عن الاعتقاد دون غيره من الأفعال .

فيقال له : ليس في هذه الآية الا ان الله تبارك وتعالى شهد لرسوله وللمؤمنين الذين كانوا معه ، بانهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله . ولسنا ننكر بانهم فعلوا ذلك واستوجبوا هذا الوصف ، وليس من مدحهم والثناء عليهم بانهم آمنوا ما يبين حد الايمان وحقيقته ، لأن وصف الواحد بالإيمان مطلقاً لا ينبغي عما كان منه من عقد أو قول أو فعل ، فكان به ولاجله مؤمناً .

ألا ترى ان الله عز وجل قال فيما مدح به قوماً : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار ﴾ (٢) .

فلم يتسع ذلك لايمانه حد الصبر أو الصدق أو القنوت والاستغفار ، ولا حقيقته ، ولم يكن فيه إلا ان فاعلي هذه الأفعال مستحقون للثناء والمدح ، وكان علم حقائقهما وحدودها مطلوباً من غير هذه الآية .

وهكذا لما قال : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون

(٢) آل عمران : ١٧ .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴿١﴾ علم به ان المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم هم الذين يجاهدون في سبيله فيقتلون ويقتلون . وهم بهذه الصفات ، ثم لا يعلم بهذا حد (٢) واحدة من هذه الخصال ولا حقيقتها .

وهكذا كل من سماه الله عز وجل في كتابه باسم مشتق من فعل أو حكي عنه فعلا بالاسم الموضوع لتعريفه ، فان ذلك يدل على وجود ذلك الفعل منه ، ولكنه إذا احتج إلى علم حقيقه ذلك الفعل وحده ، لم يستفد من قبل تلك القسمة ، ولا من جهة تلك الحكاية . ولذلك إذا أخبرنا الله عز وجل أو الرسول ان المؤمنين كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، علم بخبره ان الايمان حقا قد كان منهم ، ولكن ذلك لا يكشف عن حقيقة الايمان وحده ، ولا ينبى عن انهم ماذا قالوا له فعلوا ، فاصرف (٣) اخبار الله تعالى عنهم بالايمان اليه ، وإذا آل الأمر إلى التحديد ، فانما يحده بما قام الدليل عليه عنده ، ثم لا يضاف من ذلك إلى هذه الآية شيء . فقد بان لك انك الفراء من هذه الآية .

ويقال له : ما أنكرت ان هذه الآية إلى ان تكون حجة عليك اقرب منها إلى أن تكون حجة لك ! لأن الله عز وجل كما نعت المؤمنين بانهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فكذلك نعتهم بانهم قالوا : سمعنا وأطعنا ولم يكن يمدحهم بكذب قالوه ، فصح انهم لم يقولوا ، وأطعنا ، إلا ان الطاعة لما سمعوا قد وجدت منهم . وهم لم يكونوا سمعوا فرض الاعتراف في هذه الآية دون الشرائع من الأوامر والنواهي ، فعلمنا ان الطاعة لما سمعوا قد وجدت منهم ، وثم لم يكونوا في عامة هذه المسموعات ، كانت قد وجدت منهم . فانما أخبر الله تعالى عنهم بالايمان ، وسماهم مؤمنين بهذه الخصال ، فهذه الخصال كلها لا لشيء منها دون شيء ، بان بذلك ان الطاعات كلها إيمان والله أعلم .

ويقال : اليس قد أخبر الله عز وجل عن الرسول وعن المؤمنين انهم قالوا : ﴿٤﴾ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴿٥﴾ كما أخبر عنهم انهم آمنوا به وملائكته وكتبه ورسله ، فما انكرت ان هذه الأقوال والدعوات كلها إيمان منهم إذ كان انما سماهم مؤمنين لما أخبر عنهم بانه كان منهم ، وقد أخبر عن

(١) التوبة : ١١٢ (٢) أ : ثم لا يعلم حد واحدة .

(٣) ح : فانصرف اخبار الله تعالى . (٤) البقرة : ٢٨٥ - ٢٨٦ .

كون هذه الدعوات منهم كما أخبر عنهم عن كون الاعتراف بالله وبملائكته وكتبه ورسله منهم . فثبت ان كل ذلك إيمان ، لأنه لو لم يكن إيماناً لم يكن الذي وجد منهم لأجله مؤمنين . وقد أوجبت الآية انهم كانوا مؤمنين لوجود ذلك كله منهم ، وبالله التوفيق .

ويقال له : زعمت أن هذه الآية عبارة عن الإعتقاد ، وذلك يلزمك أن يخرج الاقرار من جملة الايمان ، لأن الله جل وعز جعلهم بزعمك مؤمنين بالاعتقاد ، فإن جاز مع ذلك أن يضم الاقرار إلى الإعتقاد - وليس ذلك بزعمك في الآية - لم لا جاز لغيرك ان تضم العبارات إلى الإعتقاد ، وان لم يكن في الآية على أن معنى الآية : والمؤمنون كلهم قالوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله . والدليل على ذلك أنه وصل بهذا قوله ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ^(١) . وهذا لا يليق إلا أن ^(٢) يكون كلام المؤمنين ولو لم يكن تقدير قوله جل وعز : ﴿ كل آمن بالله وملائكته ورسله ﴾ ^(٣) . ولم يفرقوا بين أحد من رسله . فلما قيل : ﴿ لا نفرق ﴾ ذلك على أن تقدير الحكاية ما وضعت ، وفي ذلك ما يوجب أن يكون اختصاص الإقرار بالآية أشبه من اختصاص الإعتقاد ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : وأمرهم بعد صحة الإعتقاد أن يشهدوا لأنفسهم بالإيمان والإسلام ، لقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ إلى قوله : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ^(٤) فمدح من شهد بذلك لنفسه ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ﴾ ^(٥) . فأخبر بأنهم يصيرون بهذا مؤمنين ، لقوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ .

وهذا كله راجع إلى التصديق دون غيره من الأفعال ، فثبت أنه الايمان لا غير ، فقال له في قوله « أمرهم بعد صحة الاعتقاد أن يشهدوا لأنفسهم بالايان » من أين قلت هذا ؟ فان ادعى أنه قاله ، إن هذه الآية مرتبة على الآية التي بدأ بذكرها ، وان تلك في الاعتقاد ، وهذه في الاقرار ، طوب بالحجة في ما تدعيه من ذلك ، ولن تجد إليه سبيلاً ، وإن لح ^(٦) في إثبات ان الاقرار يترتب على الاعتقاد ، بدليل آخر ، قبل في ذلك منه .

(٣) البقرة : ٢٨٥

(٢) أ : الا انه يكون .

(١) البقرة : ٢٨٥

(٦) أ : وان لحا .

(٥) آل عمران : ١٩٣

(٤) البقرة : ١٣٦

وقيل لهم : ان الله تعالى يأمرهم أن يشهدوا لأنفسهم بالايان ، فان الايمان فرض الله تعالى على عباده ، فإذا التزموه فإنما يشهدون به على أنفسهم ، كما قال جل وعز : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) ولا يشهدون به لأنفسهم ، بل الله تعالى ينبغي أن يشهد به لهم ، ليعلموا أنه قد يقبل منهم . وإذا بطل هذا ، فالجواب : - وبالله التوفيق - انه أمرهم أن يصفوا إيمانهم لخصومهم ، وهم اليهود والنصارى ، ويعلموهم أن إيمانهم : محمد ﷺ قصد إلى شقاقهم وخلافهم ، لكن لأنه نبي ، والتفريق بين أنبياء الله ورسله في الإيمان بهم غير جائز ، فانهم قد آمنوا بعبسى وموسى ولم يمنعه من الايمان بهما ، إنهم لا يؤمنون بنبيهم ، فلو كان القصد إلى الشقاق دون التدوين لم يكن منهم هذا .

ثم قال : ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ (٢) أي فان آمنوا بنبيكم وبعمامة الأنبياء ولم يفرقوا بينهم كما لم يفرقوا ، فقد اهتدوا ، وان أبوا الا التفريق فهم الناكبون عن التدبر إلى الشقاق ، فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . فهذا معنى الآية ، وليس فيها بيان ان الايمان الذي أمروا به أن يصفوا به أنفسهم ، فإذا كان وما حده ؟ وما حقيقته ؟ وإذا كانت هذه الآية خطاباً لقوم قد اعتقدوا الحق وأقروا به ، وصلوا وصاموا وعبدوا الله تعالى بضروب من العبادات ، وقابلوا أوامره ونواهيه بالطاعة ، فهم إذا قالوا آمنا بالله وما أنزل إلينا اشتهل ذلك عندنا على كل طاعة وجدت منهم إلى ذلك الوقت .

فان خالفنا الرجل في ذلك وقال : انه لا يشتمل إلا على الاقرار والاعتقاد ، فلمهم على قوله دليل ، فانا له فيما قال مخالفون ، وله بالدلالة عليه مطالبون .

فان قال القائل على ذلك ، لانه جل وعز قال : ﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ . ومعلوم انهم لو شهدوا شهادتي الحق لكانوا مؤمنين مهتدين ، فظهر بذلك انه لم يدخل في قوله عز وجل : ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ (٣) إلا شهادة الحق .

قيل لهم : إنما يكونون مهتدين إذا أدوا ما عليهم ، إلا أنهم ان شهدوا شهادتي الحق ، لم يتراكم عليهم في ذلك الفوز الفرائض كلها ، وإنما تجب شيئاً فشيئاً . فإذا أدوا في اول

(١) النساء : ١٣٥

(٢) البقرة : ١٣٧

(٣) البقرة : ١٣٦

أوقات دخولهم في زمن الحق ما عليهم في ذلك الفوز ، فقد اهتمدوا ، كما أن المؤمنين الذين أمروا أن يقولوا آمنا لما كانوا مؤدين ما عليهم كانوا مهتدين ، وصح منهم أن يقولوا بالاطلاق آمنا ، والله أعلم .

وجواب آخر : وهو اننا لو سلمنا له أن قول الله جل وعز : ﴿ قُولُوا آمَنَّا ﴾ إشارة إلى اعتقادهم وإقرارهم ، فليس في ذلك ما يقيم له حجة ، لأننا لم ننكر أن يكون ذلك إيماناً ، فنكلف إقامة الدليل عليه . وإنما أنكرنا أن لا يكون ما عداه إيماناً ، فإنما ينبغي أن يقيم الدليل على ما تنفيه ونثبتته ، لا على ما نثبتته جميعاً ولا ننكره ، وكل ما قلنا في هذه الآية فهو في قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ ^(١) مثله . لأن فيه مدحاً للذين يقولون بهذا القول ، وليس فيه تحديد الإيمان الذي أخبروا أنهم سمعوا منادياً ينادي إلى عبادة الله التي تنقسم أقساماً ووجوهاً كثيرة . غير أن أعلاها وأثبتها التوحيد ، فدخلت العبادات كلها في الإيمان الذي نادى به ، ودخل في قول المحبين ، فآمنا ، ووصفهم أنفسهم بذلك إقامتهم كل ما دعاهم إليه المنادي .

فان قال الرجل : لم يكن ذلك كذلك ، وإنما المراد من النداء الاجابة إلى التوحيد ، فإنما كان إلى الإيمان ، والاجابة إن كانت إليه فإنما كانت إلى الإيمان ، ولسنا ننكر ذلك الإيمان . وإنما الخلاف في الطاعات سواء ، وليس إذا كان التوحيد إيماناً ، أو امتنع أن تكون سائر الطاعات إيماناً ، فما دليله على أنها ليست إيمان . فإن المختلف فيه أحق باقامة الدليل عليه من المتفق عليه والله أعلم وبه التوفيق .

ويقال له : أرأيت لو قال لك قائل أن تصديق النبي ﷺ ليس بإيمان ، فإنما الإيمان هو التصديق بالله تعالى . لأن الله تعالى أثنى على ذلك : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ ^(٢) ، ولم يذكر الإيمان بالرسول ، فاذا كنت تقول له : فان فرغ إلى أن ذلك لما قام الدليل عليه لا في هذه الآية . قيل له : وكذلك الطاعات كلها ، قد قام الدليل على أنها إيمان ، لا في هذه الآية ، فما أنكرت أن الرجوع إليها أولى من الرجوع إلى ما لا دلالة له فيه على موضع الخلاف وبالله التوفيق .

(٣) أ : الى ان ذلك بما قام الدليل عليه .

(٢١) آل عمران : ١٩٣

قال الرجل : وقد فرق الله تعالى بين الايمان وبين سائر الخيرات بقوله : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾^(١) .

فيقال له : ما في هذه الآية ما يدل على أن اكتساب الخير في الايمان ليس بايمان .
فان قال : لأن ذلك لو كان كذلك ، لكان كأنه قال : أو كسبت في إيمانها إيماناً .
قيل : وما الذي يمنع أن يقال ذلك وما فيه من المعاني التي يفسد بمثلها الكلام
فأقم الدلالة على صحة ما تدعيه ان كانت عندك ، فانا لما تقولوه رادون ، ولك بحجة
مؤاخذون .

فان قال : انه لما قال : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ دل ذلك على أن المكسوب
غير المكسوب فيه ، بلى كذلك لا تكون دوائر الايمان المبتدأ غير ما يقام فيه من صلاة
وصيام وزكاة وحج وجهاد ، وان كان كل ذلك إيماناً ، كما أن دوام عقد الصلاة
وحرمتها غير ما يؤتى به فيها من ركوع وسجود وغيرها ، وان كان كل ذلك صلاة . فلم
قلت : ان الخير المكسوب في الايمان لا يكون إيماناً ؟

ويقال له : ما أنكرت أن تقدير قول الله عز وجل : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾
أو كسبت لايمانها ، كما لا تفعل الخيرات التي هي إيمان ، والاستكثار منها ، ونظيره
قول الناس : افاد فلان علي في علمه تقدماً ، أو في صناعته نفاذاً ، أي استفاد كمالاً في
علمه وكمالاً في صناعته . لأن التقدم في العلم علم ، والنفد في الصناعة صناعة .

قال الرجل : وقال عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾^(٢) وقال : ﴿ فمن
يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾^(٣) ، فلا يجوز أن تكون الأعمال الصالحة هي الايمان ،
فيكون شرط صحة الشيء وسبب قيامه هو الشيء نفسه . فدل ذلك على أن الايمان
غيرها .

فيقال له : ما أنكرت أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾
أي فيكون إيمانه بالله تاماً كمالاً إذ العمل الصالح إيمان . وهو كقول القائل : من صلى
وأحسن الركوع والسجود فله كذا ، فيكون المعنى . من صلى وأحسن الركوع والسجود

(٣) الانبياء : ٩٤

(٢) التباين : ٩ والطلاق : ١١

(١) الانعام : ١٥٨

فكانت صلاته بذلك تامة لا نقص فيها ولا خلل ، إذ الركوع والسجود صلاة ، وإحسانهما إحسان صلاة ، وقال عز وجل : ﴿ ومن تقنت منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ لا يدل على أن العمل الصالح ليس من جملة القنوت لله ورسوله . فكذلك قوله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ورسوله ﴾ لا يدل على أن العمل الصالح ليس من الايمان . وأما قوله عز وجل . ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ يعملها لأنه قد يعمل العمل الصالح في نفسه من لا يكون بفعله إياه مؤمناً ، وإن اعتاق العبد والصدقة على الفقير عملان صالحان بانفسهما ، لأن الكافر إذا عملها لم يكن بفعله إياها مؤمناً . وهذا كما يقال : من يركع ويسجد وهو مصل فله كذا ، فيراد به أن يكون ركوعه وسجوده صلاة ، ويكون المعنى : وهو مصلّي بفعلها ، فكذلك هذا والله أعلم .

فأما قوله : لا يجوز أن يكون شرط صحة الشيء هو الشيء نفسه ! فجوابه أن يقال له : إن كان كذلك ، لا يجوز ! فأنت القائل بما لا يجوز والداخل في معناه ، كان الايمان شرط لصحة الصالحات . ولا خلاف في انه بنفسه من الصالحات فقد صار شرط صحة الشيء نفسه باتفاق !

فان قال : لا ! قيل له : فقل : إن الإيمان ليس من الأعمال الصالحة كما قلت ان الأعمال الصالحات ليست من الإيمان . وإن جاز ذلك أن يقول : إن الإيمان من الصالحات ، وإن كانت الآية واردة بلفظ يوجب ظاهرها ، ان يكون الايمان شرط الصالحات ، فيكون ما شرط من الإيمان لصحة الصالحات من الايمان . فتجعل الصالحات وما شرط لصحتها من الايمان شيئاً واحداً ، ولا فصل بين القولين .

ويقال له على كلامه في هذه الآيات كلها : انكرت ان جميعها واردة في الإيمان بالله ورسوله . ولست انتكر ان الايمان بالله ورسوله ما ذكرت . ولكن وراء ذلك إيماناً بالله ورسوله ، وجوب أحد الايمانين لا يمنع وجوب الآخر . وكذلك استحقاق أحدهما اسم الايمان لا يمنع استحقاق الآخر اسمه . فما انكرت ان الطاعات كلها تستوجب اسم الايمان لله ولرسوله ، وإن كانت لا تستوجب اسم الايمان بالله . فان معنى قول الله عز وجل : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ (١) أي ومن يؤمن بالله ويؤمن له . ومعنى ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو

مؤمن ﴿١﴾ . أي فهو مؤمن لله ، وقد قدم الإيمان به . ومعنى : ﴿لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ ﴿٢﴾ . ذلك إيماناً لله ورسوله . ويكون الدليل على ذلك ما تقدم بحقيقة من هذا المعنى في الباب الأول والله أعلم .

ويقال له : هل يجوز أن يكتسب الكافر من كفره شراً يكون ذلك زيادة كفر منه مثل : أن يكون كافراً بنبي فيجحد نبوة نبي آخر! ويكون جاحداً للنبوات فيحدث شبهة لله بخلقه ! فإذا قال : يجوز . قيل : لم لا جاز أن يكتسب المؤمن في إيمانه خيراً يكون ذلك إيماناً فيزداد بذلك إيمانه ، وما الفرق ؟

ويقال : أليس أصحابك قد حملوا ما جاء من القرآن في زيادة الإيمان على أحد معنيين : إما زيادة اليقين ، وإما تكرير الاقرار . فيما تقول فيمن كان له في إيمانه فضل استدلال على صحة دينه ، وقوى بذلك يقينه أو كرر الاقرار ؟ ليس كل واحد من الأمرين خير كسبه في إيمانه ، وهو في نفسه إيمان . فما انكرت أن يكون ذلك الخير الذي أراده الله تعالى بقوله : ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ ﴿٣﴾ إيماناً إذ قد ظهر أن تسمية الله تعالى الفعل الواقع في الإيمان خيراً مكتسباً في الإيمان ، لا ينفي أن يكون ذلك الخير إيماناً ، وهذا كقبول الشرع بعد الشرع في زمن النبي ﷺ بعد صحة الإيمان به كان كسب خير في الإيمان ، وكان بنفسه إيماناً ، فلا ينكر أن تكون كل عبادة وطاعة كذلك ، والله أعلم .

قال الرجل : والأشياء تعرف باضدادها ، والكفر الذي هو ضد الاسم التصديق لا غير ! فيقال له : إن هذه العبادة ليست من كلام أهل التحقيق وهي خطأ ، لأن الأشياء تعرف إما ضرورة ، وإما بالدلائل الدالة عليها . فإما أن يقال : إن كل شيء فإنما يعرف بضده ، فهذا يوافق إلى أن لا يعرف شيء من المتضادات قط ، لأن الإيمان إذا كان يعرف بالكفر ، ويجب أن تسبق المعرفة بالكفر ، وتتأخر المعرفة بالإيمان ، إلى أن يقابل بالكفر فينظر ما الذي تنتجه تلك المقابلة ، فيعتقد ، وفي هذا ما أبان سقوط هذا الكلام ، إذ كان ذلك يؤدي إلى أن لا يعرف إيمان ولا كفر أبداً وبالله التوفيق .

ويقال له : زعمت أن الكفر لما كان الجحود ، ووجب أن يكون الإيمان الذي هو ضد

الكفر التصديق ، وهذا مسلم لك وزيادة ، لانا نقول : الايمان كله التصديق ، والطاعات كلها تصديق ، لأن من لا يصدق بالباري عز وجل ولا يصدق برسوله ، لا يظمأ نهاره بالصوم ولا يسهر ليله بالقيام ، ولا يتعبد جوارحه وأعضاءه بالصلاة ، ولا ينقص ماله بالزكوات ، ولا يجهد نفسه بالحج ، ولا يتعرض للقتل بالجهاد ، ولا يبكي من خوف الجحيم ، وإذا كانت الطاعات كلها تصديقا ، وجب أن تكون كلها إيمانا ، وما كان منها ضد الكفر وكان ضد الفسق فسواء ، والله أعلم .

ويقال له : الكفر والإيمان في انقسامها إلى الأصل والفرع سببان عندنا ، لأن الجحود أصل الكفر ، والمعاصي كلها فروع . إذ الجروح صريح والمعاصي امارات وكذلك الاقرار الذي ينشأ عن الاعتقاد صريح الايمان ، والطاعات امارات ، وامارات الكفر في الكفر كفر ، وامارات الايمان في الإيمان إيمان . والامارة مقصر بها عن رتبة الصريح في الأمرين ، فاذا كانت الأشياء تعرف باضدادها ، فما أنكرت أن هذا وجه معرفة الكفر والايمان وبالله التوفيق .

قال الرجل : ويدل على ان سوى التصديق من العبادات ليس بايمان ، ان الكفار لم يفرعوا عند مبايعتهم بأس الله إلى غير التصديق ، كفرعون لما أدركه الفرق قال : ﴿ آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ ^(٢) . وقوله : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ﴾ ^(٣) . وقوله : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ﴾ ^(٤) . فانما فرعت الكفر عند الضرورة إلى ما عرفوه حقيقة الايمان وهو التصديق دون شيء من العبادات ، فثبت ان الايمان غير التصديق .

فيقال له : ان الكفار يفرعون عند رؤية البأس إلى أصل الايمان ، وهو صريحه الذي يضاد صريح الكفر وأصله ، وليس ذلك إلا الاعتقاد والاقرار ولا يفرعون إلى فروع الايمان لأن مزيلة أصل الكفر لا يقع بها لكن ذلك لا يمنع من أن يكونوا بعد الدخول في دين الحق محتاجين اليها ، لتكمل درجات الايمان وشعبه ، ولئلا يعصوا بترك الفرائض

(٢) غافر : ٨٤ .

(٤) الانعام : ١٥٨ .

(١) يونس : ٩٠ .

(٣) السجدة : ٢٩ .

فيكونوا قد ضموا إلى أصل الايمان المعاصي التي هي فروع الإيمان وإمارات التصديق ،
فيكمل بذلك إيمانهم .

وهذا كما ان من أراد الصلاة كفاه في الانتقال من الصلاة إلى الصلاة أن ينوي ويكبر
وليس إذا صار بمجرد التكبير داخلا في الصلاة وجب أن لا تكون الصلاة كلها التكبير ،
وامتنع أن تكون بعضه فرائض يحتاج إلى الإيمان بها شيئاً فشيئاً لا لتتمة الانتقال ، ولكن
لتتمة ما وقع الانتقال به .

وهكذا من يريد الحج ولا يحتاج إلى الإنتقال من الاحلال إلى الاحرام إلى أكثره من
عقد الاحرام ، وأراد به قلبه ولا يدل ذلك على ان هذا هو الحج دون غيره ، بل وراء
ذلك أعمال يحتاج إلى الاتيان بها لا لتتمة الانتقال لكن لتتمة ما وقع الانتقال به ، فانه أمر
بالاحرام ليقف بعرفه محرماً ، ويطوف ويسعى محرماً .

فكذلك الكافر إذا عزم على الإيمان كفاه في الانتقال من الكفر إلى الإيمان الاعتقاد
والإقرار وذلك لا يدل على ان هذا هو الإيمان ، بل وراء ذلك فرائض تتابع ، فكلما وجب
منها احتاج منها إلى الإيمان به ، إذ هو لم يؤمن بالانتقال وحده ، وإنما أمر به ، وبأن يصلي
في إيمانه ، ويؤتي ويصوم ويحج ويجاهد ، فلا يكمل إيمانه إلا بأداء واجباته كما لا يكمل
حجه الذي صار داخلاً فيه ، إلا بأداء واجباته ، ولا صلاته إذا صار داخلاً فيها بتكبيره
إلا بأداء واجباته ، والله أعلم .

ويقال له في قوله : ان الكفار لم يفرعوا عند معاينة البأس إلا إلى التصديق بدليل
كذا وكذا ، فثبت أن الإيمان غير التصديق ، وهل سمعت أحداً من أصحابنا يقول : إن
ما ليس بتصديق فهو بايمان ؟ قلنا : ما عرفنا أحداً يقول ذلك . والإيمان عندنا هو التصديق ،
وما ليس بتصديق فليس بايمان ، إلا ان الطاعات عندنا كلها تصديق من الوجه الذي تقدم
بيانه . وإذا كان تصديقاً وكان الإيمان التصديق ، لم يكن تصديق بأن يكون إيماناً أحق
من تصديق ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : ويدل على ذلك انه لا تخلوا كل عبادة من أن تكون إيماناً بنفسها على
الانفراد ، أو يكون الايمان اسماً لجميع الخيرات ، فان كانت كل عبادة إيماناً على الانفراد
ودينا وإسلاماً فهي إذا اديان ، ويكون مع الواحد عشرة أديان أو عشرون ديناً ، ومع

آخر أقل من ذلك ، أو أكثر فيبطل أن يفهم من الأمر بالإيمان والاسلام مراد ، ويكون من ترك عبادة من العبادات تارك من أديان الإسلام ، ويجب وصفه بالانتقال من دين إلى دين وإيمان إلى إيمان ، كما يقال ذلك في العبادات ، ويجب إذا أفسد عبادة أن يقال : قد أفسد ديناً وخرج منه .

ويبطل القول بزيادة الإيمان لأنه لا يعرف ما يوصف بزيادة الطاعة ، لأن المقصود منهما مجهول ، وكذلك القول بالكمال إلا أن يشار إلى عبادة بعينها ، فثبت أنه لا يجوز أن تكون كل طاعة إيماناً على الانفراد ، وإن كان الإيمان عندهم اسماً لاجتماع جميع الطاعات وهو دين واحد ، وإيمان واحد ، فالقول بزيادة الإيمان لا معنى له لأنه لا أحد يبلغ في فعل العبادات والطاعات نهايته ، فهو أبداً في جمع الإيمان وتحصيله غير مستكمل له ، ولا بالغ غايته ، فبطل أيضاً اعتبار هذا الوجه ، فدل أن غير التصديق من الخيرات ليس بإيمان .

ويقال له : قولك أن غير التصديق من الخيرات ليس بإيمان كلام متناقض لأن فعل الخير كله تصديق كما مضى بيانه وتقديره ، فإذا كان الإيمان التصديق ، فكان فعل الخير تصديقاً وجب أن يكون إيماناً . ويقال له : أن الطاعات كلها إيمان ، وكل واحد منها إيمان إذا صحت وسلمت ، ولا يلزم على ذلك أن يكون من جاء بعشرين طاعة جاء بعشرين إيماناً كما أن عندك أن الاعتقاد والإقرار إيمان ، ثم لا يقول أن من جمعها كان جامعاً بين دينين ، أو بين إيمانين .

فإن قال : التصديق يجمعها . قيل : والطاعة تجمعها ، وما يتبع من الفرائض والنوافل عشرين كانت أو ثلاثين أو مائة ، ولا يكون بذلك أدياناً ولا عدة أديان . وأيضاً كان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار والقدر واجب ، والتصديق بكل ذلك إيمان . ثم لا يقال : أنها عدة أديان وإيمان ، فكذلك الطاعات إذا عدت من الإيمان لم يلزم أن يكون الإيمان أعداداً كثيرة ، والاسلام أدياناً جمعه لا ديناً واحد ، وهكذا يقبل كل ما كان بشرع ، واحداً بعد واحد . ويقبل ما قد شرع إيمان ومعلوم أنه إذا كان لكل شريعة تقبل ، كثير التقبل ، ثم لا يصير الدين بذلك أدياناً ، ولا الإيمان يصير معدوداً ، فكذلك العمل وإن كثر ، فكذلك لا يلحق الإيمان عدداً ، ولا يجعل الدين أدياناً ، والله أعلم .

وأما جواز أن يقال لمن انتقل من صلاة إلى صلاة ، أو من حج إلى عمرة ، فلا يلزمنا أن نقوله . لأننا قد بينا أن الدين واحد وإن كثر . والطاعات لا تنحصر علينا مع ذلك هذا الكلام . وأيضاً فإن الناس كانوا يقبلون فرض صيام الليل وفرض الصدقة عند التخوف وفرض النيات من الواحد للعشرة ، فكان يقبل ذلك إيماناً منهم ، فلما نسخ ووضع عنهم سقط ذلك الثقيل ، وخرجوا منه إلى اعتقاد أن شيئاً من ذلك لا يلزم ، فكان هذا الاعتقاد هو الإيمان . وما كان يجوز أن يقال : أنهم خرجوا من دين إلى دين ، لأنهم خرجوا من تقبل فرض إلى تقبل سقوطه ، وإن كان ذلك الثقيل ديناً فلا ينكر أن تكون الصلوات إيماناً وديناً ، ومع ذلك لا يجوز أن يقال للخارج من صلاة إلى صلاة خارج من دين إلى دين ، وأيضاً فإن الإيمان عندك الاعتقاد والإقرار ، فمن اعتقد واعترف فقد آمن .

ثم لا يقول : إذا تم اعتقاده واعترافه وانقطع كلامه فقد انقطع دينه وانقضى إيمانه ، ولا إذا أمسك عن الإقرار أنه يمسك عن الإيمان أو يمسك عن الدين ، فكذلك لا يلزمنا إذا قامت الصلاة دين ، أن أقول لمن خرج من صلاة إلى صلاة ، أنه خرج من دين إلى دين ، وأما أن كل طاعة إذا كانت ديناً لم يصح القول بزيادة الإيمان ، لأنه لا يدري ما الذي يوصف بالزيادة ، فإنه يعارض عليه بأن النبي ﷺ لما دعا الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلو أجابوه لكانوا مؤمنين ! فإذا قال : نعم ! قيل له ؟ فإن أمرهم بعد ذلك بالصلاة فقبلوا لكان يكون منزلهم إياها زيادة إيمان . فلا بد من نعم . فيقال له : فإذا كانت الشرائع لم تكمل ! فعلى ماذا كانت الزيادة ؟ وإن قال : كانت الزيادة على ما نص ، قيل : فكذلك كل طاعة يستجدها المبدفهي زيادة إيمان على ما مضى من طاعته ، لا على نهاية الطاعات التي لم توجد .

ويقال له : أرأيت لو بعث الله جل ثناؤه في زمن النبوة نبياً ، فدعا الناس إلى الله تعالى ، فأمنوا وصدقوا ، ثم بعث نبياً آخر ، فأخبرهم النبي ﷺ الأول ، بأن الثاني نبي ، أو جاء بمجزة تدل على صدقة ، كان يلزم أن يؤمنوا به ، فلا بد من نعم ! فيقال له : صلي فإذا آمنوا به ، أيكون ذلك زيادة إيمان منهم ؟ فلا بد من نعم ! فيقال له : فعلى ماذا تكون الزيادة والنبوة لما بيناه ، والأنبياء لم يتكاملوا ؟ فإن قال : تكون زيادة إيمان على ما تقدم من الإيمان بالرسول المبعوثين . قيل : فقل في الطاعة بعد الطاعة مثل ذلك ، وبالله التوفيق .

وأما قوله : وكذلك الكمال . فجوابه : ان وصف الايمان بالكمال يصح لأن له شعباً معلومة ، فمن استكملها فهو كامل الإيمان في حق ما مضى من أيامه ، وإنما يبقى أن يستقبل مثل ما قدم ان بقي (١) ، فإن فعل ذلك إلى آخره عمره ما يكامل الإيمان ، وهو كما يقول فيمن صدق بقلبه ولسانه انه كامل الإيمان ، لكن في حق الحال وهو محتاج إلى الثبات عليه فيما يستقبل ، ووقوع الحاجة إلى الاستدامة في المستقبل ، لم يمنعك من وصف الوجود في الحال ما جلبته به من الكمال . فقولي في الطاعات كقولك في الدوام والله أعلم .

وأما قوله : ان الايمان ، ان كان جميع الطاعات ، والمؤمن إذا بدأ في جمع الايمان وتحصيله ، فمتى تثبت له الزيادة ؟

فجوابه : إنما لا يثبت الزيادة من حيث قدر العبادة ، وإنما تثبت الزيادة في فعل المؤمن على معنى انه إذا عمل طاعة فكانت له إيماناً ثم عمل طاعة أخرى كانت له زيادة إيمان . ومعنى الزيادة انها زيادة على ما مضى ، لا انها زيادة على كل ما يمكن أن يتقرب به إلى الله تعالى . لأن ما في قدر العباد من ذلك إنما ينقضي بانقضائهم . وهذا كما أن من صلى ثم صلى ، كانت الثانية له زيادة صلاة . ولا يقال : كيف تكون زيادة وما في قدرة العبد من الصلاة غير محدود ؟ فلذلك كل طاعة تحدث فهي زيادة إيمان ، وإن لم تكن الطاعات التي قدر العبادة محدودة عندهم ولا معلومة لهم والله أعلم .

قال الرجل : والانتهاه عن الكفر لا يكون إلا بالايمان . لقوله تبارك وتعالى :

﴿ قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (٢) . ولو كان الايمان إسماعاً لجميع الطاعات لم يصير منتهياً عن الكفر حتى يأتي بها كلها ، فلما كان التصديق انتهى عن الكفر وبه تجب المغفرة ثبت أن الايمان سواه .

يقال له : لسنا ننكر أن الانتهاه عن الكفر لا يمكن إلا بالايمان ، وإنما نشكر أن لا يكون سوى ما ينتهي به عن أصل الكفر ، ويقال : ان ما ينتهي به عن الكفر إيمان . وما يحتذر به من الفسق أو ينتهي به عنه إيمان . وكل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من

(١) أ : مثل ما قدم ان يبقى .

(٢) الانفال : ٣٨ .

شرائعه ، فهو إيمان . فينبغي أن يدل على أشياء من ذلك ليس بإيمان ، لا على أن ما ينتهي به عن الكفر إيمان ، وعلى أن جواذبنا في الكافر إذا كان جمع بين أصل الكفر وفروعه من السيئات والمعاصي ، ان أنها^(١) عن أصل الكفر يكون باصل الايمان ، وعن فروعه بفروع الايمان .

وقد جاء أن رجلاً قال : (يا رسول الله ! أيؤاخذ الله أحداً بما عمل في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر)^(٢) . وقد مضى شرح معنى هذا الحديث فيما تقدم وفي هذا بيان ان ما قدره من أن الايمان الا ما ينتهي به عن أصل الكفر غير ثابت له ، والله أعلم .

ويقال له : ان الكافر اذا أسلم لم تزدحم عليه العبادات كلها فور إسلامه . فإن كان اعتقاد إقراره إيماناً كافياً في ذلك ، فلأنه لا أمر متوجه عليه فيه . وقد يؤمن الآخرس بالاعتقاد وحده لأن فرض الاقرار لا يتوجه عليه ، ثم لا يدل ذلك على أن لسانه لو أطلق لم يلزمه الاقرار ، ولم يكن منه إيماناً . فكذلك الجامع بين الاعتقاد والاقرار يكون مؤمناً بهما ، وذلك لا يدل على أن وقت الصلاة إذا دخل فصلى لم يكن ذلك منه إيماناً والله أعلم .

قال الرجل : فإن احتجوا بما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « الايمان بضع وسبعون شعبة »^(٣) قبل الاحتجاج بهذا الخبر . لأن في نفس الخبر ما يمنع من قبوله ، وهو أنه قال : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » ولا يحتمل أن يشك رسول الله ﷺ في عدد شعب الايمان . فهو في الراوي ، ولا يجوز إثبات دين الاسلام بخبر شك الراوي في متنه ، وإن صح الخبر لم يكن لهم فيه حجة من وجوه :

أحدهما : ان الخبر سمى كل شيء شعبة الايمان ، وهم يسمون كل شيء منها إيماناً ، ويدعون على كتاب الله انه جاء بتسمية الصلاة إيماناً بزعمهم ، ورسوله صيرها شعبة إيمان ،

(١) أ : ان انتهاه عن اصل الكفر .

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب المرتدين » رقم ٤ ، كما ورد في صحيح مسلم « ايمان »

رقم ١٨٩ - ١٩٠

(٣) ورد في صحيح البخاري « كتاب الايمان » باب ٣ ،

فهو خلاف . والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (١) . فلا يجوز أن نخالف الرسول ولا نغير عليه . قال : والخبر جعل شهادة الاخلاص شعبة من الايمان ، وجعل غيرها أسما لوضع وسبعون ، وهم جعلوا هذه الشهادة وغيرها أغياراً لها . والخبر جعل الايمان إسماء لوضع وسبعون ، فلا يجوز تسمية الواحد من السبعين باسم الايمان والصلاة واحدة من تلك الجملة ، ولا يجوز أن يطلق عليها إسم الايمان . فبطل الاحتجاج بالخبر .

فيقال له : ان النبي ﷺ لا يشك في شعب ولا يخفى عليه عددها ، وما روى عنه ﷺ أحد أنه قال : « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة » وإنما هذا يشك من بعض الرواة ، ولئن كان أحدهم شك ، فقد روى غيره قطعاً من غير شك أنه قال : « الايمان بضع وسبعون باباً » وأكثر الروايات على هذا فلا يجوز تعطيلها والاعراض عنها لشك عرض لغيرهم فيها ، ولو أن رجلاً أقام شهوداً على رجل بمال . فقال أحدهم : له عليه ألفان أو ألف درهم ، وقطع الآخرون بأخذ العددين لم ترد شهادة القاطعين لشك الذي شك من بينهم ، فلم تقطع بما قطعوا به ، فكذلك هذا .

وأما قوله : ان الخبر سمى الطاعات شعب الايمان ، وأنتم تزعمون أن كل شعبة منها إيمان .

فجوابه : ان شعبة الايمان إيمان ، كما أن شعبة العبادة عبادة ، وشعبة الطاعة طاعة ، ولو قال قائل : العبادة كذا كذا شعبة ، فعدد الصلاة والطهارة والزكاة والصيام والحج والجهاد وسائر ما يعبد الله به خلقه مائة مائة حتى أتى على آخرها . ثم قال هذه شعب العبادة لم يمنع ذلك من أن يقول لكل واحد منهما : انها عبادة . ولو قال : هذه شعب الطاعة ، لم يمنع ذلك من أن يقول لكل واحدة منها انها طاعة . ولو قال : هذه شعب الشريعة لم يمنع ذلك من أن يقول لكل واحدة منها انها شريعة . أو قال : هذه أحكام الله وأوامره ونواهيه ، لم يمنع ذلك من أن يقول لكل شيء بعينه أنه حكم الله ، وأمره ، أو نهي . فذلك إذا قال : انها شعب الايمان لم يمنع ذلك من أن يقول لكل واحدة انها إيمان . وقد يقول القائل : الصلاة خمس ، فعدد الظهر والعصر والمغرب والعشاء

(١) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ .

والفجر ، ثم يسمي كل واحدة منها صلاة ، فلا يناقض ذلك قوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة » .

وأما قوله : الخبر جعل شهادة الاخلاص من شعب الايمان ، وجعل غيرها أجزاء لها ، وهم جعلوا هذه الشهادة إيماناً وغيرها أغياراً لها فبهتت ، لأن النبي ﷺ قال : « الايمان بضع وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق »^(١) . فجعل شعب الايمان المتشعب بضعاً وسبعين شعبة لا لشهادة أن لا إله إلا الله .

ومن المحال أن يكون الصيام والصلاة والزكاة والحج أجزاء للشهادة ، والنبي ﷺ لا يتكلم بالمحال . وأما نحن فلم يقل : ان الشهادة إيمان ، بمعنى أنها جميع الايمان ، لكن على أنها أصل الايمان . ولم يقل : أن سائر الشعب غير الايمان ، كما يقول : انها غير الشهادة أو غير أصل الايمان كما لا . يقول : ان كل واحد من الاعتقاد والاقرار غير الايمان . وان كنا نقول : ان الاعتقاد غير الاقرار ، والاقرار غير الاعتقاد ، والله أعلم .

وأما قوله : ان الخبر جعل الايمان إسماً لبضع وسبعين ، فلا يجوز أن يسمي أحدها إيماناً .

فجوابه : ان أحد هذه البضع والسبعين شهادة أن لا إله إلا الله وهي إيمان باتفاق ، فكذلك كل واحدة من سائر الشعب إيمان ، وإن كان الايمان في الأصل إسماً لبضع وسبعين شعبة ، وبالله التوفيق .

قال الرجل : فإن احتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »^(٢) . قيل لهم : ان صح هذا الخبر لم يحز حمله على الظاهر ، لأنه لا يجوز أن يوزن توحيد الرب بمثقال ذرة من خردل ، بل لوزن بالدينار والآخرة لرجحها ، وقد جعل الله عقوبة عدم الايمان عذاب الأبدي ، فلا يجوز أن يكون كل شيء يزن بمثقال حبة من خردل يحمل عقوبة عدمه الخلود في النار .

(١) ورد في صحيح البخاري «كتاب الايمان» باب رقم ٣
(٢) لم اجد هذا الحديث في الكتب التسعة ، انما هناك حديث مشابه ورد في سنن الترمذي «كتاب البر والصلة» رقم ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وقد ورد على النحو التالي : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان) .

- وكان في النسخة بعد هذا الكلام غلط وقع فيه الناسخ فلم يوقف منه على غرض -
ويقال له : ان الاحتجاج بهذا الحديث لا يكون لاثبات أن الطاعات كلها إيمان ، فان
كنت أضفت إلينا لهذا ، فقد غلطت ، وان كنت انتقلت عن الفصل الذي ابتدأت به إلى
فصل آخر ، وهو أن الايمان هل يزيد وينقص ، وأردت بما حكيته عنا: انا ان احتججنا
بهذا الحديث لاثبات أن الايمان قد ينقص حتى لا يكون في قلب إلا وزن خردلة ، ثم قد
يكون في قلب آخر وزن شعيرة ، وفي قلب ثالث وزن بره ، كما وردت به الأخبار ،
وهذا يدل على تفاوت الناس في إيمانهم ، ثم جعلت جوابنا عن هذا ما ذكرت ، فلقد
أسأت الجواب. لأنك زعمت أن التوحيد لا يجوز أن يكون خردلة ، بل لو وزن السموات
والأرض لرجحها ، وان التوحيد فعل المتوحد كما أن سائر العبادات فعل المتعبد ، وما
كان فعل العبد يجوز أن يقع هذا ناقصاً خفيفاً . وإن كان المقصود بذلك الفعل هو الله
جل ثناؤه .

ألا ترى أن الصلاة عبادة الرجل لله جل ثناؤه ، كما أن الايمان توحيد ، وقد يصلي
الرجل صلاة يوفيهها حقوقها فتكون ثقيلة في ميزانه ، وقد يصليها مقتصرة على أقل ما
تحوي ، ويؤديها غافلاً عنها تاركا الخشوع فيها مستعجلاً بالفراغ منها ، فلا يكون لها ذلك
الوزن بل يكون يترك الأول بدرجات كثيرة ، فكذلك لا ينكر أن يكون إيمان بعض
المؤمنين كاملاً بتكامل شعبه وحقوقه ، ويضرب له المثل بالحسد وما يشبهه . وإيمان
بعضهم خفيفاً ناقصاً ، فيضرب له المثل بوزن الذرة ووزن الخردل ، وليس في ذلك شيء
يرجع إلى الله تعالى .

ألا ترى أن توحيد الرب قد يعدم في بعض العباد وهم المشركون ، فلا يكون لهم ما
يوزن أصلاً . فمن أين استحال منه إذا وجد الناقض الخفيف الذي لا يوزن إلا الشيء
اليسير ، من نحو ما ضرب له مثلاً ، والله أعلم .

فان قيل : فكيف يكون ذلك قبل أن يكون في قلب واحد توحيد ليس معه خوف
غالب على القلب فيردع ، ولا رجاء حاضر له فيطمع ، بل يكون صاحبه ساهياً قد اذهلته
الدنيا عن الآخرة فإنه إذا كان بهذه الصفة انفرد التوحيد بها إذا كانت كلها تصديقا ،

والتصديق من وجه واحد أضعف من التصديق من وجوه كثيرة ، فإذا كان كذلك خف وزنه ، وإذا تتابعت شهادته ثقل وزنه .

وله وجه آخر : وهو أن يكون إيماناً واحداً عن أشياء باستدلال قوي ونظر كامل ، وإيماناً آخر واقعاً عن الخير والركون إلى الخير به . فيكون الأول أثقل وزناً والثاني أخف وزناً . فأما قوله : ان شيئاً يكون خردلة ، فلا يجوز أن يستحق الخلود في النار بعدمه ، فكلام فارغ لأنه وإن كان خفيف الوزن فهو إيمان إذا عدم وجد مكانه الكفر ، وعليه يكون التعذيب بالنار ، فلا ينظر مع هذا إلى أن الإيمان المعلوم كان خفيف الوزن أو ثقيله . وإنما ينظر إلى أن الموجود بدلاً منه وهذا الكفر ، والكفر أغلظ الجنايات ، فحقه أن يقابل بأغلظ العقوبات والله أعلم .

وأما من ولي من أصحابنا من أن الإيمان قد ينقص حتى لا يبقى منه شيء ، بمعنى أن المعاصي تحبط ثواب الطاعة بعد الطاعة حتى يخلص الأمر إلى ثواب الإيمان ، فلا يزال ينقص منه شيء بعد شيء حتى لا يبقى مما يحبط ثوابه منه إلا قدر برة أو قدر شعيرة أو قدر خردلة أو قدر ذرة ، فانه يقول : المراد بالحديث (يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من الإيمان) (١) . أو شيء لم تحبط المعاصي ثوابه ، وإن كان ذلك بقدر ذرة أو خردلة ، ولا يخلد في النار من كان بهذه الصفة . وفي هذا دلالة على أن الطاعات من الإيمان وإن المعاصي تحبط ثوابها إذ كان الحديث لا يخرج إلا على هذا المعنى .

فان قيل : أرأيت ان كانت المعاصي أحبطت ثواب جميع إيمانه ، أي يخلد في النار ، قيل : لا ، وليس تخصيص الذي بقي في قلبه قدر ذرة وخردلة من الإيمان بالذكر ، ما يمنع من أن يكون الذي لم يبق في قلبه إيمان الا وقد احبط المعاصي ثوابه غير يخلد في النار ولكن هذا إذا لم يخلد في النار ادخل الجنة بالشفاعة ، فيكون ذلك إحساناً يبتدأ به لا ثواباً . والذي في قلبه شيء من إيمان لم يبطل ثوابه إذا لم يخلد في النار ادخل الجنة لثبات بإيمانه والشفاعة ان وقعت به قليلاً ، يعذب أو لينقص عذابه ، فهو فرق ما بينهما والله أعلم .

(١) انظر الحديث السابق .

قال الرجل : وقد يجوز أن يكون معنى الحديث ان من أتى بمثقال حبة من خردل من خير بعد الإيمان ، ولم يكن خير غير ذلك اخرج من النار بالشفاعة ، وإذا لم يكن له خير قط . فإله تعالى يتفضل عليه بالعفو ولا يجعل لأحد فيه شفاعه . لأن التوحيد اعتقاد فيما بينه وبين ربه فهو الذي يتفضل عليه بالاعراج من النار . فيقال له : انك قد أتيت الخير بعد التوحيد إيماناً ، ولا تشعر لأن الحديث خائفاً في مثقال ذرة من الإيمان . فقلت معناه : خير كسبه بعد التوحيد ، فأوجبت بذلك أن يكون الخير بعد التوحيد إيماناً ، ومع هذا فكلامك غير صحيح ، لأن الحديث اقتضى الإيمان الذي يكون بالقلب فعلم انها غير مرادة بالحديث وقوفك بين من يعفى عنه بلا شفاعه . وبين من لا يعفى عنه إلا بشفاعة ، نادر غريب . لأنك جعلت احوج الرجلين إلى الشفاعه و أبعدها من استحقاق الفضل خارجاً من أن تكون له الشفاعه لاحقاً بمن يبدأ بالفضل والإحسان بلا مسألة ، وأدناها إلى الفضل أبعدها منه ، وأولاهها بان لا ينال خيراً إلا بالشفاعة ، وهكذا يكون حال من ينبغي ما ليس له ، والله أعلم .

قال الرجل : فان احتجوا بما ذكر في القرآن من زيادات الإيمان ، قيل لهم : لا حجة لكم فيها لأن الإيمان عندكم اسم لجميع الطاعات ولا سبيل إلى استجماعها . فالإيمان على قولكم ناقص أبداً غير كامل ، فكيف يجوز أن يوصف بالزيادة عليه ؟

فيقال له : إن الإيمان اسم لجميع الطاعات ، ولكل واحدة منها . فمن أداها جميعاً كان كامل الإيمان ، وأما في حال الاداء ، فان من أدى منها شيئاً واجب زاد به ما تقدم من أدائه ، فإن وجب شيء آخر بعده فاداه ، زاد به ما مضى قبله . ولا يكون ناقص الإيمان بأن لا يكون قد حل عليه واجب بفعله إلا بالاضافة له ، إلى من حل ذلك عليه بفعله ، إنما ينقص إيمانه حقاً إذا وجب عليه شيء فلم يفعله فبطل . بهذا قولكم ان الإيمان عندكم ناقص أبداً ، وقولك لا سبيل إلى استجماع الطاعات كلها بحال ، لأنها قد اجتمعت في الشرع ولو لم يكن إلى الجمع بينها في الفعل ، ما جمع بينها في الشرع ولا نظمت في التكليف والله أعلم .

قال الرجل : والآية سمت الزيادات إيماناً لقوله تعالى : ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ (١) وعندكم

انها أجزاء الايمان ، وبعض جزء الشيء لا يستحق اسم الشيء نفسه ، وفي هذه الآية تحقيق اسم الايمان لكل جزء منها . فثبت ان القول يجعل كل طاعة جزءاً من الايمان ، قول فاسد وبراعة ان هذا الرجل أما أن يكون في نهاية الغفلة أو في نهاية الاعجاب بنفسه لأنه يقول بالشيء ثم ينقضه في الحال نفسه ويجب بما فيه كثير قوله وهو لا يشعر قلبه بدأ كلامه لأن الآية سمت الزيادات إيماناً ، فيقال له : ما هذه الزيادات أولاً فانك قد أثبتتها ، وفي جوابك الأول احتلتها ، فهل هي إلا الطاعات التي يترادف ، فكلمنا وجد منها شيء ازداد ما قبله ، ثم قال : وعندكم انها أجزاء الإيمان وبعض التي لا يستحق اسم الشيء ثم ينقص هذا على نفسه . فقال : وفي الآية تحقيق اسم الإيمان لكل جزء من أجزاء الإيمان . فما عذرنا في رفع اسم الإيمان عن شيء حققته الآية ؟ ثم رجع في هذا وقال : فثبت ان القول يجعل كل طاعة جزءاً من الإيمان فاسد .

فيقال له : أليس زعمت ان الآية حققت اسم الايمان لكل جزء من أجزائه ، فاثبت تجزأ الإيمان ، واثبت اسم الإيمان لكل واحد من الأجزاء . فيكون القول بما حققته الآية فاسداً ، وفي هذا ما أبان غفلته . ويقال له : إن بعض أجزاء الشيء قد يستحق اسم الشيء نفسه لأن كل القرآن قرآن ، وكل سورة منها وكل كلمة وكل آية قرآن . فالطاعة طاعة وكل نوع منها طاعة ، والعبادة عبادة وكل صنف منها عبادة . والساء ساء وكل جزء منها ساء ، والماء ماء وكل جزء منها ماء ، والأرض أرض وكل جزء منها أرض . فمن أي استحالة أن تكون شعب الإيمان إيماناً ، وكل شعبة منها إيماناً ، فتكون زيادة الطاعات زيادة إيمان .

قال الرجل : والايمان عندهم اسم لاجتماع جميع الخيرات ، وما جعل اسماً للكل استحالة وصفه بالزيادة ، لأنه ليس وراء الكل شيء يتصل به ، فيكون زيادة عليه .

فيقال : إن الايمان اسم لجميع الخيرات : فرائضها ونوافلها وأنواعها منه . وليست بخارجة من الشعب البضع والسبعين ولا زيادة عليها ، لأن الحدود في الشريعة لا سبيل لأحد إلى الزيادة عليه ، ولكن هذا التوفيق يلحق هذه الشعب من قبل الوضع والشرع ، فأما أفعالنا وأعمالنا وأداؤنا هذه الشعب فانها قد تقل وتكثر ، كما انها قد توجد وقد تعدم ، والشرع بحالة لا يتغير ، فإذا جاز أن تكون هذه الشعب من حيث الشرع

موجودة ، ولا يوجد من بعض الناس فعل شيء منها جاز أن يكون من حيث الشرع محدودة ويوجد من الناس التفاوت فيها ، فمن جامع بينها وبين مفرق ، فمن جمع فقد كمل إيمانه ، ومن فرق نقص إيمانه . ألا ترى أن الصلاة المفروضة محدودة في الشريعة ، ثم قد توجد في أفعال المؤمنين لها بالزيادة والنقصان ، فمن أقامها كان كمال الإيمان ومن أقام بعضها وترك بعضها كان ناقص الصلاة وأجزاؤه كالصلاة واعدادها والله أعلم .

قال الرجل : فتأويل الآية يخرج على وجوه :

أحدها : أن يكون المراد بها الزيادة في فضل الإيمان ودرجته ، وحسنه وجماله ، لا في أجزائه وأبعاضه ، كما سميت صلاة واحدة بمكة بالف صلاة ، وأريد بذلك الزيادة في الفضل والدرجة لا في العدد . والآخر أن ما كان زيادة في نفس الشيء وأجزائه فإن ارتفاعه يوجب نقصاناً فيه ، وترك الطاعات لا يوجب نقصاناً في نفس الإيمان . فدل ذلك على أنه ارتد به الفضل والدرجة ، وهكذا يقول : أن الإيمان يزيد في الفضل والدرجة والحسن والجمال ، ومن تعاطى المعاصي كان إيمانه في الفضل والمنزلة ، ومن الإيمان من يتعاطى أفعال الطاعات .

فيقال له : أن الآية لا تحتل ما ذكرت لأن الله عز وجل قال : ﴿ وَإِذَا مَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُم زَادَتْ هَذِهِ إِيْمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ . (١) ومعلوم أن نزول السورة لا يزيد المؤمنين فضل درجاتهم في إيمانهم ، ولكنها قد تزيدهم إيماناً من حيث يعتقدونها ويعملون بها ، فتكثر بذلك طاعاتهم . فصح أن المعنى هذا دون ما قاله .

فإن قال : وما يمنع من أن يقال أنها تزيدهم إيماناً من حيث يعتقدونها ويعملون بها فتكثر ، فتزداد بذلك درجات إيمانهم . قيل : يمنع من هذا أن الإيمان عندك إنما هو الاعتقاد والاقرار فقط . وبمجموع هذين لا ينبغي أن يزداد تفضلاً في درجات الثواب بطاعة تقام وخير يكسب بعده أن لم يكن ذلك إيماناً ، لأن ثواب الإيمان لا يزداد ودرجاته لا تتضاعف بما ليس بإيمان .

ألا ترى أن درجات الصلاة عندك لا تزداد بالصيام ولا درجات الصيام بالحج، فكذلك يلزمك أن تقول : ان فضل شهادة الحق ودرجاته لا تزداد بخير ، سواها يؤتى به بعدها ان لم يكن إيماناً مثلها . فان قلت : بل يزداد ، لزمك أن تقول : ان كل خير يكتسب بعدها من دوامها فهو إيمان ، وانما يزداد فضل الشهادة بها لانضمام اشتباها ، كما يزداد فضل الصيام واجتماع حقوقها وشروعها والله أعلم . وكل ما قلته في هذه الآية فهو في غيرها مثله وبالله التوفيق .

وأما استشهادك بالصلاة بمكة فغير صحيح . لأن تضعيفها لا يتعلق بزيادة فعل يكون من المصلي سوى ما يكون منه لا بمكة فمثلها ان المراد به تضعيف الثواب فقط ، وأما زيادة الايمان فلا تحدث الا بفعل يحدثه المؤمن زائداً على ما تقدم منه ، فان لم يكن ذلك الفعل إيماناً ، لم يحز أن يزيد في درجات الشهادة المقدمة ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يكون فعل المباحات يزيد في درجات ، ولما لم يحز ذلك وزادت الطاعات عنده في درجات الشهادة صح انها إيمان مثلها ، فاذا انضمت اليه يثوب بها ، فازداد بذلك ثوابها ، والله أعلم .

وأما استدلاله على ان المراد بزيادة الايمان زيادة درجاته ونقصان ثوابه ، بل كان زيادة في نفس الشيء ، فان ارتفاعه يوجب نقصاناً فيه ، وترك الطاعات يوجب نقصاناً في الايمان ، ومع ذلك يحتج عليه بقول نفسه فلا يبالي وكأنه لا غرض له الا أن يسود بياضاً .

أو يقال : قد قال : وليس هذا من الآية بسبيل ، فان سئل عن نقصان الايمان ترك الطاعات . قيل له : أقل ذلك ان صح يكن له طاعة ، إلا شهادة الحق صار صريح إيمانه معارضاً بامارات الكفر ، لا ان المعاصي كلها فروع الكفر ، وهي إذا عارضته أو هنته كما لو صاحبت الطاعات التي هي امارات التصديق لقوته . ولهذا سمي المسلمون الفسق جرحاً وخلافه عدالة . فقلت : إن ترك الطاعات ناقص من الايمان ، وإن الأمر في ذلك بخلاف ما قدره والله أعلم .

وأما من قال : إن المعاصي تحبط الثواب ، وقد تخلص إلى ثواب الشهادة إذا أحبطت ثواب ما دونها ، فانه يقول : ان المعاصي تنقص الشهادة لأنه يجعلها لا ثواب لها ، وإذا جعلها كذلك فقد نقص قدرها وحط رتبته .

فان قال الرجل : أرأيت من قال من أصحابك هذا، لم يقل ان زيادة الايمان زيادة ثوابه،
كما قال ان نقصان الايمان نقصان ثوابه .

قيل : بل يلزمه عند هذا ، وهو ان الايمان إذا كان لا ينقص ثوابه الا بفعل ضده وهي
المعصية التي هي من فروع الكفر ، لم يرد إلا بفعل مثله وهو الطاعة ، التي هي من فروع
التصديق ، فتزداد الطاعة المتقدمة بالطاعة المتأخرة ، ويتضاعف الثواب . فاما أن يزداد
ثواب الايمان لا بايمان يحدث بعده ، فذلك محال ، كما ان نقصانه لا بخلاف إيمان يحدث
بعده محال ، والله أعلم وبالله التوفيق .

واما من قال : إن نقصان الايمان إنما يزداد به نقصانه عن حد الكمال المبين له أو
نقصانه ، بالاضافة إلى ما هو أكمل منه ، وانه لا يقول : المعاصي تنقص الشهادة .
لأن معنى نقصان الايمان عنده انقطاع اصداده عنه ، فيقال : المعاصي نقصت إيمانه فعل
ما تركه إلى ضده لكان ذلك إيماناً منه ، ولكثرت به اجزاء ايمانه . فلما كان خلاف
ذلك منه انه وعالجوا الموجود من الايمان ، فكان إيمانه ناقصاً بالاضافة إلى ما كان يكون
لو لم ينفرد بالاضافة إلى إيمان غيره ممن لم يحسن مثل جنابته (١) ، ونقصان الايمان من هذا
القول كنقصان المال ، وزيادته كزيادة المال ، أو نقصانه كنقصان بعض الأعضاء وزيادته
لتكامل الأعضاء ، أو نقصانه كنقصان المال وزيادته كزيادة على مقداره .

قال الرجل ايضاً : فان الزيادة في الايمان إنما ذكرت عند زيادة الايمان والسور ،
فمعناها الثبات على الايمان والقرار عليه والصلابة فيه ، لأن الآيات تظهر الحجج ، وتزيل
الشبهة فيزداد المؤمن بذلك قوة وثباتاً على الايمان . والدليل على صحة هذا التأويل قوله
تعالى : ﴿ قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ﴾ (٢) .

فالذي وصفه بالزيادة في تلك الآيات وصفه بالثبوت في هذه الآية ، فدل ان معناها
القرآن ، والقرآن عليه وكذلك ضرب الله تعالى مثل الايمان بشجرة أصلها ثابت وفرعها
في السماء وصفه بالثبات والقرار عليه ، ووصف الكفر بضد ذلك فقال : ﴿ اجتثت من فوق
الارض ما لها من قرار ﴾ (٣) . فيقال له : ان الايمان الزائد للمؤمنين بنزول السور : هو ان

(١) لم يحسن مثل جنائه .

(٢) النحل : ١٠٢

(٣) ابراهيم : ٢٦

يؤمنوا بالتأويل أولاً ، فيعتقدوا انه من عند الله تعالى ، ثم ان يعملوا ان كان فيه فرض سبيله أن ينفذ . فان السورة التي قيل فيها : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ (١) . هي التي قيل فيها : ﴿ وإذا أنزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا : ذرنا نكون مع القاعدين ﴾ (٢) . فعلنا ان قوله عز وجل : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) إنما أريد به انها إذا أنزلت بالجهاد مع رسول الله ﷺ جاهدوا ولم يتحققوا عنه مستأذنين ولا غير مستأذنين .

ألا ترى انه قال : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً على رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ (٣) . إنما أراد به أهل الطول من المنافقين الذين لا يكون لهم عذر مقدم ومع ذلك يقولون للنبي ﷺ : ﴿ ذرنا نكون مع القاعدين ﴾ (٤) كل ذلك فعل يحدثونه فيحدث لهم به زيادة إيمان أو زيادة رجس ، فصح ان المراد بالآية ما قلنا والله أعلم .
واما قوله : ان المراد بالآية ان الآيات إذا أنزلت أظهرت الحجج وأزالت الشبهة ، فيزاد المؤمن بذلك قوة في الايمان !

فجوابه : ان تلك القوة ليست إلا فضل تصديق ما كان يحدث منه زيادة إيمان ، فقد بينا ان كل طاعة تصديق ، فليكن حدوثها زيادة ايمان ، هذا ومن قوله : ﴿ ان ما كان قبل نزول الآية فهو ايمان تام ولا معنى للزيادة على التمام ثم ينقصه على نفسه ، ويزعم ان فضل التصديق الواقع بنزول آيات يتضمن على الحق دلالات زيادة حادثة على ما تقدم من الايمان .

فيقال له : اما أن لا يكون الأول تاماً بالاطلاق فيكون ، تعوض الزيادة ، أو ان كان تاماً فقد يكون تمام فوق تمام . فلا ينكر أن يرد عليه من الطاعات ما يزيده تماماً وبالله التوفيق .

وكذلك ما قاله في الثبات على الإيمان لأنه ان كان أراد أن السور إذا أنزلت اراد بها نفهم حتى يصير ذلك سبباً للثبات لولاه لكان لا يقع منهم ، فهو تأويله الأول ، وإذا

(٢) التوبة : ٨٦

(٤) التوبة : ٨٦

(١) التوبة : ١٢٤

(٣) التوبة : ١٢٥

كان كذلك ، فكل طاعة تحدث فهو تصديق حادث ، فوجب أن تكون زيادة إيمان وبالله التوفيق .

قال الرجل : وجه آخر محتمل أن يكون المراد بالإيمان نوره في القلوب ، وضياؤه فيها ، لا نفسه ، لأن الله تعالى وصف الإيمان بالنور والضياء لقوله تعالى : ﴿ ويخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ كأنها كوكب دري تو قد من شجرة مباركة ﴾ ^(٣) . وقد سمي هو الشمس شمساً ، ونور القمر قمراً ، فلذلك يجوز أن يسمي الإيمان نوراً ، فالنور لا نور له ، وإنما النور البين وعندك أن الله عز وجل سمي الإيمان نوراً ، فإذا لم يكن للنور نور ، لم يكن لك أن تحمل الوارد بزيادة إيمان على النور .

فإن زعم أن الإيمان نور وأن له نوراً ، لم يمكنه أن يرجع في إثبات ذلك إلى هذه الآيات ، ويسأل عن نور الايمان : الايمان ما هو ؟ فلا يمكنه أن يشير إلى معنى سوى أنه يدعو إلى الطاعات ويحول عليها ، ويزجر عن المعاصي والميل إليها .

وذلك نفس قولنا ، لأن كل ما حول عليه إيمان فهو إيمان ، فان بدء ^(٤) الايمان الاعتقاد بالقلب فلما كان ايمانا كان ما يحول عليه من الإقرار ايمانا . ولما كان الإقرار ايمانا . كان ما يحول الإقرار عليه من قبول الشرائع ايمانا . كذلك قبول الطاعات إيمان . فوجب أن يكون ما يحول للقبول من الأفعال ايمانا قبول الايمان هو أن اعتقاده يهدي إلى الإقرار ويقبل الأمر والنهي ، والتقبل يهدي ولا يعقل له معنى سوى هذا وبالله التوفيق .

قال الرجل : وروى عن بعض السلف في تأويل الآيات ، ان معناها : انهم كانوا آمنوا بالله ورسله ويجمع ما يأتي من الله ، فإذا أتى فرض بعد فرض ازداد ايمانهم بالتفسير مع إيمانه بالجملة . وقال أهل التفسير بأجمعهم في تأويلها : انه التصديق أي زادهم تصديقاً إلى تصديقهم ، ويقيناً إلى يقينهم ، ولا أحد منهم صرف تأويلها إلى الصلاة والزكاة ، ولا إلى شيء من القرب ، فمن صرفه إليها فقد خالف أهل التفسير .

(١) المائدة : ١٦ .

(٢) التوبة : ٣٢

(٣) النور : ٣٥

(٤) أ : فان بذور الايمان .

فيقال له : ان الذي حكيمته عن بعض السلف صحيح ، ولكن ليس إذا كان ذلك زيادة إيمان امتنع أن يكون غيره وهو العمل بذلك المتقبل إيماناً ، فقبول ما يحدث بعينه إيمان ، لأنه طاعة ، فكذلك ينبغي أن يكون العمل به إيماناً لأنه طاعة ويثبت بزيادة الايمان بكل حال .

وأما المفسرون في إجماعهم على تأويل الآية : هو التصديق . فمرحبا بهم . ومن خالفهم فإنه لا يخالفهم ، ويقول كما قالوا : ان زيادة الإيمان ليست إلا زيادة التصديق ، لكن كل طاعة تصديق ، فحدوثها كحدوث فضل اليقين أو الثبات وبالله التوفيق .

قال الرجل : واحتجوا بما روى عن بعض الصحابة : ان القبلة لما حولت خشي كثير من الصحابة على من مات منهم ضياع صلاتهم ، فنزل : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ^(١) . يعني صلاتكم إلى بيت المقدس .

قيل لهم : ان هذا الخبر لا يصح عن الصحابة لأنه لا يجوز أن يسبق إلى فهم أحد ان الله تبارك وتعالى يضيع عملاً عمل بأمر رسول الله ﷺ . ولأن ذلك يوجب شكاً في خبر رسول الله ﷺ ، ولو كان ذلك كما ذكروا ، لكان خوف الصحابة على أنفسهم من ذلك أوجب من الخوف على من مات منهم ، والسؤال عن إعادة تلك الصلوات الزم لهم من غيرهم ، ولم يرو عنهم في ذلك شيء . فدل أن هذا التأويل باطل ، ولأن الآية جاءت بذكر من بقي من الصحابة دون من مات منهم لقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ولم يقل إيمانهم . واذا بطلت القصة التي هي دلالة تسميتهم الصلاة إيماناً بطل التأويل .

فيقال له : الذي ذكرت أنه لم يرو وقد روى ، وجاء أن هذه الآية كما نزلت سألو رسول الله ﷺ عن صلاتهم إلى بيت المقدس ، ومعنى هذا أنهم سألو : أهل عليهم أعادتها؟ وروى أنهم سألو عن اخوانهم الذين قتلوا قبل تحويل القبلة . ومعنى هذا أنهم لما سألو عن أنفسهم فأخبروا ان لا إعادة عليهم ، ظنوا أن سقوط الاعادة عنهم إنما هو لأنهم أدر كوا القبلة الجديدة ، فلما صلوا إليها لم يتبعوها فيما صلوا قبلها إلى غيرها .

وأما اخوانهم الذين ماتوا من قبل فمضى أن تضيع صلواتهم فسألوا عنهم . وهذا كما روى : انه لما نزل تحريم الخمر ، قالوا : كيف فمن مات وهو يشربها ؟ فأنزل الله عز

وجل : ﴿ ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ ^(١) . وأخبروا أن الأحياء الذين شربوا قبل التحريم والذي سبق موتهم نزول التحريم سواء في سقوط التبعة عنهم في ذلك . فكذلك أخبروا بقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ^(٢) ان الأحياء من المصلين إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة والأموات سواء ، في صلواتهم محتسبة .

وقد يجوز أن يكون السائلون عن هذا قوماً سوى فقهاء الصحابة ، فكان لا يحضرهم عند هذا السؤال ذكر قول الله عز وجل : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ ^(٣) ولأن العمل إذا أدى بأمر الله وأمر رسوله ﷺ يبطل على عاملة وان لحقه بعد ذلك نهي عنه وتبديل له . هذا وقد كان الزمان زمان الشرع ، وقد كان يمكن أن ينوبهم فقهاؤهم ان كانوا هم السائلين .

ان العمل إذا نسخ بطل ووجبت إعادته على منهاجه المستأنف دون ما مضى ، فإن هذا مما كان يجوز أن يشرع ثم كان يكون ، فتزل الله عز وجل : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ محمولاً على العمل إذا أسلم . وتكون إحدى شرائط سلامته ، أن لا يلحقه نسخ ولا تبديل . وإذا كان هذا جائزاً ومتوهماً مظنوناً ، لم ينكر أن يصير سبباً للسؤال عن الصلوات المقدمة ، فجاوبوا عنها بما أجيبوا به ، ولم يحز أن يتسرع إلى إنكار رواية لا تعدلها في الشهرة والاستقامة رواية ، وما خلا منها كتاب مفسر ولا أحد تكلم في معاني القرآن ، والله أعلم .

قال الرجل : تأويل الآية عندنا خرج على وجهين :

أحدهما : أن تكون الصلاة مضمرة عند الإيمان كأنه قال : وما كان الله ليضيع إيمانكم بالصلاة إلى بيت المقدس ، وإنما سألوا عن الصلاة نفسها . فدل ذلك على أنها في الإيمان المذكور في الآية . ألا ترى انه لما نزل تحريم الحرام يسألوا عن إيمان من شربها مستحلاً لها ، وإنما سألوا عن الشرب نفسه .

ويقال له : ان كانت الصلاة سميت إيماناً لأنه سببها ، فهو سبب كل طاعة فليس إيماناً ، وهذا مما ذكرنا من نقصه في بعض الأوقات على نفسه .

قال الرجل : احتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ^(١) قيل لهم : لا يصح هذا التأويل ، لأنه يوجب وصف الدين بالنقصان ، ولا يجوز أن يقال أن الدين غير كامل في وقت من الأوقات . لأنه يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شهدوا بدرأ وبايعوا رسول الله ﷺ البيعتين جميعاً ، وبذلوا أنفسهم لله مع عظيم ما حل بهم من أنواع المحن . على دين ناقص ، وكذلك كان رسول الله ﷺ في ذلك ، وكان يدعو الناس إلى دين ناقص . ومعلوم أن النقص عيب دين الله فيتم . كما قال : ﴿ ديناً قبيحاً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ^(٢) . ولو كانت الآية على ما توهموا من أن الدين كان غير كامل لقوله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ لوجب أن يكون قوله : ﴿ ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ ^(٣) يدل على أنه كان لا يرضى به بعد ذلك .

فيقال له : لم قلت أن كل نقصان فهو عيب ؟ وما دليلك على هذا ؟ فإنا للدعواك جاحدون . ثم يقال له : رأيت نقصان الشهر ! هل يكون عيباً له ؟ ونقصان صلاة المسافر ، أهو عيب لها ؟ ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ ^(٤) أهو عيب له بكل حال ؟ ونقصان أيام الحيض عن الممهود ، ونقصان أيام الحمل أهو عيب ؟ ونقصان المال بسرقة أو حريق أو غريق ، إذا لم يفتقر به صاحبه أهو عيب له ؟

فإذا كانت هذه الوجوه من النقصان وما يشبهها غير عيب ! فما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في زمان الشرع قبل أن يلحق بها الأجزاء الباقية في علم الله تعالى ليس بشين ولا عيب . ولا أنكرت أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ يخرج على وجهين :

أحدهما أن يكون المراد بلفظه أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته ، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصاً نقصان عيب ، لكنه يوصف بنقصان مقيد . فيقال له : انه كان ناقصاً عما كان عند الله ، انه ملحقه به وضامه إليه ، كالرجل يبلغه الله مائة سنة . فيقال : اكمل الله عمره ، ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان من

(٢) الانعام : ١٦١

(٤) فاطر : ١١

(١) المائدة : ٣

(٣) المائدة : ٣

سنتين ، كان ناقصاً نقص قصور وخلل . فإن النبي ﷺ قال : « من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر » (١) . ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيد ، فيقال : كان ناقصاً عما كان عند الله ، انه مبلغه إياه معمره إليه ، وقد بلغ الله ، فالظهر والعصر والعشاء أربع ركعات . فلو قيل عند ذلك أكملها لكان الكلام صحيحاً ، ولا يجب عن ذلك انها كانت - حين كانت ركعتين - ناقصة بمعض قصور وخلل .

ولو قيل : كانت ناقصة عمل عبد الله انه ضامه إليها ، وزائدة عليها لكان ذلك صحيحاً ، فهذا هكذا في شرائع الاسلام ، وما كان شرع منها شيئاً فشيئاً إلى أن أنهى الله تعالى : ان الدين منتهاه الذي كان له عنده ، والله أعلم .

والوجه الآخر : انه أراد بقوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ انه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره . فاستجمع لهم الدين أداء لأركانه ، وقياماً بفرائضه . فانه ﷺ يقول : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » (٢) .

وقد كانوا شهدوا وصلوا وزكوا وصاموا واجاهدوا واعتصموا ولم يكونوا حجوا ، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي ﷺ ، أنزل الله تعالى وهم بالموقف عشية عرفه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (٣) فإنما أراد به انه اكمل وضعه لهم ، وفي ذلك دلالة على أن أعمال البر كلها دين وإيمان وإسلام . ومن قال بالوجه الأول ذهب إلى أنه أكمل الدين وصفاً ، واحتج بما روى من أن هذه الآية لما نزلت استقرت الفرائض فما غير منها شيء إلى أن قبض رسول الله ﷺ ، وفي ذلك دليل على أن الطاعات كلها دين كما الاعتقاد والاقرار دين والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ (٤) فإنما معناه ورضيت إسلامكم الذي أنتم عليه اليوم ديناً لكم إلى آخر الأبد . فلا أغير شيئاً منه ولا أزيد

(١) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٣٢٠ ، ٤١٧ .

(٢) ورد في صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب ١ ، ٢ . وفي صحيح مسلم « الايمان » حديث

(٣) (٤٣) المائدة : ٣

رقم ١٩ - ٢١

ولا أنقص ، فاما من قبل ذلك فانه كان يرضى شيئاً من دينهم لهم وقتاً ثم لا يرضاه لهم بل رضي خلافه فلما أكمل الدين أخبر أنه قد رضي لهم جميع ما هم عليه لهم ديناً فلا يغيره أبداً . فهذا معنى الآية وهو بعيد مما ظنه الرجل وبالله التوفيق .

قال الرجل : وعلى انه لا سبيل إلى إكمال الدين على مذهبهم ، لأن الدين عندهم اسم لا حد له من الخيرات ، ولا يقدر أحد على القيام بانفاقه ، فلا تمام للدين على هذا المذهب ويبطل امتنان الله على العباد بإكمال الدين .

فيقال له : ان الخيرات لا حد لها من ناحية العباد وأفعالهم ، وإلا فشمب الايمان محدودة معلومة ، فما دخل في جعلها فإيمان وجماعها جماع إيمان . وهذا كما ان الصلاة عبادة محدودة معلومة ، ولكن لا حد لما يفعله الناس منها ولا مقداراً . والمأكل والمشروب بين معلوم ، ولكن أكل الناس وشربهم لا حد لها ولا مقدار . فهكذا الإيمان محدود في حكم الله تعالى معلوم ، ولكن فعل العباد له عوداً على بدء لا حد لها ، وإنما وصف الله تعالى بالإكمال وضمه وشرعه لأفعالهم والله أعلم .

قال الرجل : ويحتمل أن يكون معنى الآية ، أظهرت دينكم فقد رتم على إعلانه في كل موضع ، ويشس عدوكم من أين يتركون دينكم لقوله عز وجل : ﴿ اليوم ينش الذين كفروا من دينكم ﴾ ^(١) وكما قال : ﴿ والله متم نوره ﴾ ^(٢) ليس ان نوره كان غير تام حتى يتمه ، وإنما أراد إظهاره الخلق . ألا ترى أنه قال : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ ^(٣) فلو كان نوره ناقصاً ، فدل انه كان تاماً .

فيقال له : ان الإظهار لا يسمى إكمالاً ، وقد يكون الشيء كاملاً غير ظاهر ، وظاهراً غير كامل . ولا يجوز مع هذا أن يكون بالإكمال في الآية الإظهار ، وأيضاً فإنه لم يقع يوم نزات هذه الآية للدين اظهار لم يكن من قبل ، وهى تأويلنا قد وقع له كمال لم يكن من قبل . فنحن إذا أحربنا على ظاهرها اعتدل لنا ظاهرها .

وأنت إذا تأولتها امتنع عليك ما ينحلها فسيان ما القولان . وأيضاً فكيف يجوز أن يكون المراد اظهار الدين الذي وعده بقوله عز وجل : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ ^(٤) .

(٤) الصف : ٩

(٣٢) الصف : ٨

(١) المائة : ٣

وقد كان ما بقي من مشارق الأرض ومغاريها غير مفتوح أكثر من المفتوح ، وفي ذلك ما يبين ان المراد بالآية ما قلنا وبه وردت الآثار فلا معك عنها إلى الهواجس التي تشبه الوسوس .

وأما قوله عز وجل : ﴿ والله متم نوره ﴾ فالمراد به دينه الذي هدى به عباده ، وإنما أتمه شيئاً فشيئاً ثم أكمله ، فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ومن ظن أن الله عز وجل نوراً سوى هدايته فهو إلى الايمان أحوج منه إلى الكلام في الايمان .

ويقال له : أحسبت ان الدين في كل وقت كان كاملاً ، فما الذي منع من أن يكون الكمال درجات ، فيكون كامل أكمل من كامل . وقد قال الله عز وجل : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ ^(١) فقلت : هذا كمال ، ووراءه ما هو أبلغ منه وهو ثلاثون شهراً . وقال النبي ﷺ : (من وقف بعرفة فقد تم حجه) ^(٢) . وأجمعنا على أن وراءه تماماً آخر . فلم أحلت أن يكون للدين في الكمال متأول ، ثم يكون لها آخر إذا انتهى إليه قبل بالاطلاق ، وقد كمل الدين وبالله التوفيق .

قال الرجل : فإن احتجوا بقول الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا ﴾ ^(٣) . قيل لهم : ان المراد بالجهاد مجاهدة نفسه .

فيقال له : قد ثبت ان جهاد المسلم نفسه إيماناً ، وأنت لا تقول ذلك ، فسواء خالفت الآية بانكار أن يكون هذا الجهاد إيماناً ، وإنكار أن يكون جهاد المشركين إيماناً ، وعلى أنه قيل في الآية : ﴿ باموالهم وأنفسهم ﴾ ^(٤) فصح ان المراد بها جهاد الكفار والله أعلم .

قال الرجل : وإن كان المراد جهاد الكفرة ، فالمراد هو القبول دون الفعل ، لأن الفعل لو كان شرط الايمان ، لكان سائر ما ذكر من صفات المؤمنين ، مثل قوله : ﴿ يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ^(٥) ومثل قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ ^(٦) ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ^(٧) شرطاً في الايمان . فبطل أن يكون على وجه الأرض مؤمناً ، فسقط الخطاب الذي جاء المؤمنين . فثبت ان المراد هو القبول ، فيقال : ان الله عز وجل لما

(٢) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٥) التوبة : ٧١

(٧) العصر : ٣

(١) البقرة : ٢٣٣

(٤) الحجرات : ١٥

(٦) البلد : ١٧

قال : ﴿ وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله ﴾ ^(١) علمنا ان المراد هو الفعل لأن القبول لا يكون بالمال . فانه من فرائض الايمان .

ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ ^(٢) أي المحققون قو لهم بفعلهم ، والصدق لا يظهر في القبول وإنما يظهر الفعل ، والذي يقول ولا يفعل ليس بصادق . فبان ان الآية في الفعل ، وكل ما عداه من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والتواصي بالصبر والرحمة والحق فكله إيمان ، والقول فيه وفي الجهاد واحد من الفعله أن يتكلف الرجل هذه الفعول كلها لينفي ان تكون الطاعات إيماناً كما قلنا ، ثم يذهب عليه ان هذه الأمور كلها طاعات والقول فيها كالقول في غيرها . وما أشبهه أن يكون معجباً فيغفله اعجابه ، أو لم يجاوز في هذا الباب أحداً ، وإنما تكلم على ما وجدته في بعض الكتب والله حسبه .

واما قوله : لو كان كذلك لم يكن على وجه الأرض مؤمن ، فجوابه : انه ان لم يكن على وجه الأرض من يستوفي شعب الايمان ، فلم يكن كذلك في الأرض مؤمن كامل الايمان ، لم يلزمنا لأجل ذلك أن ينقص من شعب الايمان . أو يقول : انها ليست شعب الايمان ، كما انه لو لم يكن في الأرض من يزيد على التوحيد شيئاً ويأبى الاقرار بالنبوة والرسالة والملائكة واليوم الآخر ، لم يلزمنا أن نقول : إن مجرد التوحيد إيمان ، لأننا ان لم نقل ذلك لم يكن في الأرض مؤمن . وأما بطلان الحساب الذي قصد به المؤمنون ، فلا يكون وإن لم يكن في الأرض كامل الايمان ، لأن المقدار الحاصل من الايمان الموجود من تعبدهم اسم المؤمنين ولا سيما إذا كان صريح الايمان فقد وجد منهم ، وإنما نقول ما يفوتهم من الامارات والفروع وبالله التوفيق .

قال الرجل : وكذلك الجواب لمن يحتاج ، فمنهم بالخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ انه قال : (الدين النصيحة ! فسئل : لمن ؟ فقال : لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين قالوا : فما لله ؟ قال : التوحيد واتباع ما أمر . قالوا : وما لرسوله ؟ قال : طاعته فيما جاء به . قالوا وما لجماعة المؤمنين ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ^(٣) . فإن المراد بذلك

(٢٠١) الحجرات : ١٥

(٣) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٢ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٩٥

كله التصديق والقبول دون الفعل لما تقدم ذكره من الدليل ، لأن الاعتقاد لو وجد ولم يدرك من أوقات الفعل شيئاً كان مؤمناً .

فيقال له : ان هذه الأمور كلها مبنية على التوحيد . ومعلوم ان المراد به إقامته لا يقبله ، فكذلك ما بعده ذكر من اتباع أمر الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمراد به الفعل التقبل . وأيضاً فإنه لا خير للمسلمين ولا فائدة في أن يتقبل بعضهم أمر بعض بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، ولا ذلك إلى التقبل يصح ، وإنما النصح فعل ذلك وإقامته ، فصح انه هو المراد بالحديث ، هو الفعل لا القبول وحده والله أعلم .

واما قوله : إن الاعتقاد لو وجد ولم يدرك من أوقات الفعل شيئاً لكان مؤمناً . فجوابه : ان الاعتقاد لو وجد ولم يدرك من أوقات الفعل شيئاً لم يكن فاسقاً بل كان عدلاً . أفيدل ذلك على أنه لو أدرك وقت الفعل المأمور به فلم يفعل كان عدلاً ولم يكن به فاسقاً ؟ فإذا قال : لا ! قيل له : وكذلك إذا لم يدرك من وقت الفعل شيئاً كان من غير الفعل الذي لم يدرك وقته مؤمناً ولا يدل ذلك على انه لو أدركه وهو مأمور به ففعله ، ثم لم يكن ذلك إيماناً منه ، ولم يكن به مؤمناً . فالقول في إيمانه عندي كالقول في عدالته عندك . ويقال له : الإيمان فعل الطاعة المأمور بها ومن لا يدرك وقت الطاعة فهو غير مأمور بها ، فان فاته فعلها فلم يفته إيمان ، وإذا أمر بها وأدرك وقتها ، فان فعلها كانت منه إيماناً وإن لم يفعلها فسق ، وكان ذلك جرحاً لإيمانه ، فانما الممول على الأمر ، والأمر الا على مجرد الفعل ، ولا فعل ، والله أعلم .



القسم الثالث

باب الاستثناء في الايمان

روى عن قوم من السلف انهم كانوا إذا سئلوا عن إيمانهم يقول : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولا يقول : أنا مؤمن . وروى عن آخرين انهم كانوا يقطعون بانهم : قد آمنوا . وذهب قوم من المتأخرين إلى أن يستثنوا ، فيقول أحدهم : أنا مؤمن ان شاء الله ، وإذا سئل عن معنى استثنائه قال : لا شك في اني آمنت ، ولكن لا أدري ما الذي يختم به لي ، فإذا كان في علم الله اني أفارق الدنيا متمسكا بما أنا عليه الآن ، فله الحمد ، وإن لم يكن للآخرى فان الايمان الذي أنا عليه الآن يعبط ويصير كان لم يكن فإنما استثنى ، فاني لا أعلم أيسلم إيماني أو لا يسلم ، فأما اعتقاد الحق والاعتراف به فلست أشك في أنها قد كانت مني ، واني متمسك به الآن .

ومنهم من يقول : لا أريد بالاستثناء حالتي التي أنا فيها ، وإنما أريد المستقبل . فأقول أنا مؤمن في المستقبل إن شاء الله كما اني الآن مؤمن حقا ، وكنت بالامس حقا بلا شك ولا ارتياب .

وهذا الكلام وإن كان ذا وجه يوجه فليس جوابا لمن يسأل . فيقال له : هل أنت مؤمن ، لأن هذا السؤال يقع على الحال ، وإذا لم يجب عنها شيء ، فافرد بالخبر عنه المستقبل لم يكن مجيبا ، وكانت مبدأ كلام من غير ما وقع السؤال عنه . فأما من روى عنه ان كان يرى أن يقول : أنا مؤمن ، فاولهم وصدرهم عبد الله بن مسعود

روى ابراهيم بن علقمة قال كنا مع عبد الله بن سعد فلقينا قوما فسلموا . فقلنا : من القوم ؟ قالوا : نحن المؤمنون ! قال : فلم نجبهم شيئا ولم نرد ما نرد عليهم ، حتى لقينا عبد الله ، فأخبرناه بما قالوا ، فقال : ما رددم عليهم ؟ فقلنا : لم نرد عليهم شيئا . قال : قولاً ، قلت أمن أهل الجنة أنتم ؟ إن المؤمنين من أهل الجنة .

وقال أبو وائل كان عبد الله يقول : من شهد انه مؤمن ، فليشهد انه في الجنة .

وقال علقمة : قال رجل عند عبد الله اني مؤمن ! فقال عبد الله : قل اني في الجنة ، كلنا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .

وعن الحسن أن رجلاً قال عند ابن مسعود : اني مؤمن ! فقال : ما تقول ؟ فقالوا : يا أبا عبد الرحمن يقول اني مؤمن . قال : فسلوه أفي الجنة هو ؟ فسألوه فقال : الله أعلم . فقال : هلا وكلت الأولى إلى الله كما وكلت الآخرة .

وعن إبراهيم ^(١) قال : قال رجل لعلقمة : ألسنت مؤمناً ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وعن إبراهيم : إذا سئلت ، أمؤمن أنت ؟ فقل : أرجو أو عن محل . قال : ذكرنا لإبراهيم ناساً كانوا يأتونا فيؤذوننا فيقولون : أمؤمن أنت ؟ قال : فإن أتاكم منهم أحد فقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب .

وأما من قطع القول بأنه مؤمن ولم يستثن ، فمنهم عبد الله بن عمر . روى أنه أخرج شاة لينبحها ، فقال له رجل : اذبحها ، فراء سيء الحياة ، فقال له : أمسلم أنت ؟ فقال : إن شاء الله . فقال ابن عمر : ما أنت بذابح لنا اليوم شيئاً .

وروى عمر بن در أنه قال : لمطاء بن أبي رباح : ان بمصرنا قوماً شكاكاً يقولون : لا ندري أمؤمنون نحن أولاً ؟ فقال عطاء : سموا أنفسكم مؤمنين ، ولا تقولوا نحن من أهل الجنة . فإنه ليس أحد يلقى الله إلا وله الحجة عليه نبي أو ملك ، أما نبي فقد أذنب ذنباً ، أو ملك أنعم الله عليه بالطاعة فلم يبلغ شكرها .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : إذا سئلت ، أمؤمن أنت ، فلا تقل إن شاء الله . وروى أهل هذا القول عن النبي ﷺ : (أقرؤا بالآيمان ، وسموا أنفسكم مؤمنين ، والذي نفسي بيده ، كما لا يخرج العبد المشرك العمل الصالح من كفر به ، كذلك لا يخرج الذنوب العبد لمؤمن من إيمانه) ^(٢) .

وقد ذهب ذاهب إلى أنه يجوز أن يقول المؤمن : أنا مؤمن عند الله ، ولا يجوز أن يقول : إني مؤمن في علم الله ، واعتل بأن (عند) تتغير ، والعلم لا يتغير وسئل عن الفرق بين (عند) و (علم) ^(٣) من قبل التفسير ، قبل أن يفرق بينهما في الحكم ، فانا لا نعلم

(١) ويقصد إبراهيم بن علقمة . (٢) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٣) أ : وسئل عن الفرق بين عند علم من قبل التفسير .

لقول القائل : عندي أن فلان ابن فلان ممي ، الا ان الذي أعلمه من نسبته انه ابن فلان . ولا يقول القائل : عندي أن هذا حلال إلا أن الذي أعلمه من حكمه أنه حلال . ولا يقول القائل : عندي أن هذا الجاني زيد ، إلا أن الذي أعلمه منه أنه زيد ، وكل ما يليق به علم وعند ، فمعنى احدهما فيه معنى للآخر .

ثم قال له : ما تريد بقولك عند تتغير ! فإن ذلك أريد به أنه يجوز أن يكون زيد عنده اليوم مؤمناً ، اما بعلمه مؤمناً فلا بد من نعم . فيقال له : ما الفرق بين علم وعند ؟ ويقال له : ان كان العلم لا يتغير ، فعند لا تتغير ! فإن قال : كيف لا يتغير ويكون الشيء عنده على وجه ، وهو بعينه في وجه آخر عنده على غير ذلك الوجه . قيل : فكذلك يعلم الشيء وقتاً على صفة ، ويعلمه في وقت آخر على خلاف تلك الصفة . فان قال : علمه لا يتغير ، وإنما يغير المعلوم قبل ، فقل إن عندكم تتغير وإنما تغير ما عنده وليس بينها فرق .

فصل

والعدل بين هذه المذاهب أن المؤمن لا ينبغي له أن يمتنع من تسمية نفسه مؤمناً في الحال ، لأجل ما يخشاه من سوء العاقبة نعوذ بالله منه . لأن ذلك وإن وقع وحبط ما تقدم من إيمانه ، فليس ينقلب الموجود منه معدوماً من أصله ، وإنما يحبط آخره ويبطل ثوابه . وذلك الذي لا يحبط لا يخلو من أن يكون قبل أن يحبط موجوداً لفقد كان مؤمناً إذا قبل أن يزيد ، وإن حبط بالركة إيمانه فلا معنى لاستثنائه ، ولو كان سوء العاقبة وما يخش منه معتبراً في هذا الباب لم يعلم أحد من من الذي خاطبهم الله تعالى باسم الإيمان ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ^(١) و ﴿ يا أيها المؤمنون ﴾ أو يخبر عنهم فيقول : ﴿ إن المؤمنون والمؤمنات ﴾ أو ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ^(٢) ولم يوقف على أنه مراد بخطابه لدحره ، لأن كل واحد منها إذا كان معلقاً باسم الإيمان ، وكان إسم الإيمان بين أن يثبت أو يزول مما دام إمكان الأمرين فيه قائماً فلا سبيل إلى القطع بواحد منها .

(١) البقرة : ١٥٣

(٢) البقرة : ٦٢

وفي تعذر إزالة الحكم أو الخبر المعلق به عن كل فرد من أفراد المؤمنين ، فوجب أن يكون القول في الكافر كالقول في المؤمن ، ففي هذا إبطال خطاب الله تعالى من أصله ، لأنه : اما للمؤمنين واما للكافرين . فاذا لم يكن أن يعرف المؤمن ولا الكافر لأن المؤمن يعرض أن يكفر فيحبط ما مضى من إيمانه ، ويتبين أنه لم يكن مؤمناً إذ قد حبط إيمانه من أصله . والكافر يعرض أن يؤمن فيحبط ما مضى من كفره ، ويتبين أنه لم يكن كافراً ، إذ قد حبط كفره من أصله ، فليس في الدنيا مؤمن يعرف بعينه ، ولا كافر يعرف بعينه ، وتعطيل خطاب الله تعالى بواحد ، وما أدى إلى هذا فبين أنه فاسد لأجل القول به .

ويقال لقائل هذا القول : أرأيت من سئل ف قيل له : إنسان أنت ، هل يجوز أن يقول : لا ؟ لأنه يستيقن أنه صائر تراباً ، والتراب لا يكون إنساناً ! فإن كان المؤمن لا ينبغي أن يسمي نفسه مؤمناً بالإطلاق لأنه يشك في عاقبة أمره ، ويخشى أن يصير فيها إلى غير الإيمان ، فالإنسان الذي يستيقن أنه صائر تراباً أولى أن لا يطلق إسم الانسان عليه .

فان قال : انه وإن صار غداً تراباً ، فلا يخلو اليوم من أن يكون إنساناً . قيل : والمؤمن إن صار غداً كافراً فلا يخلو اليوم من أن يكون إنساناً ، قيل : والمؤمن إن صار غداً كافراً فلا يخلو اليوم من أن يكون مؤمناً ، ولولا أنه مؤمن اليوم ما أمكن أن يزيد عنه إذا كان مؤمناً أصلياً ، فكيف يزيد عنه وهو ليس فيه ؟ فثبت إذا أنه مؤمن في الحال .

فان قال : إن ذلك الإيمان يحبط إذا ردفه الكفر ، قيل : ينبغي إذا كان الرجل مؤمناً أصلياً ان لا تثبت رده ، لأن كل ما أدى إثباته إلى ابطاله فإنه لا يثبت ، ويعلم أن رده ، إذا ثبت وقيل أنها أحبطت الإيمان من أصله ، فوجب إذا أنزل انه لم يكن مؤمناً قط ، ان لا يثبت منه الانتقال عن الإنسان إلى الكفر وإذا لم يثبت هذا ، فالردة إذا لم تكن ، وفي إجماع المسلمين على ثبوت الإيمان قبله . فبان بهذا أن الكفر إذا طرأ على الإنسان قطعه من حين وجد ، إلا أن ما مضى يحبط آخره لا ان عنه يحبط فيصير كأن لم يكن ، وينقلب الموجود منه بالحقيقة معدوماً ، وإذا كان كذلك لم يصح الإستثناء

حذر أئمن سوء العاقبة . فإن الردة وإن عرضت لم تخرج المرتد إن كان مؤمناً حين سئل عن دينه فقال : إني مؤمن ، والله أعلم .

فأما من أنكر من السلف إطلاق اسم الإيمان ، فالموضع الذي يليق به ما قال : ان يقول : أنا مؤمن وأعيش مؤمناً وأموت مؤمناً أو ألقى ربي مؤمناً ولا يستثنى . وكذلك قال عبد الله ، ويقال له : أفي الجنة أنت ؟ لأن من مات مؤمناً كان في الجنة ، وليس كل من كان مؤمناً ساعة من عمره أو يوماً أو سنة كان في الجنة . فعملنا أن عبد الله إذا قال هذا لمن اتكل على ان لم يجد في قلبه إلا حب الإيمان والركون إليه ، والنبو عن الكفر والبغض له ، فقطع لذلك أنه مؤمن مطلق في عامة أحواله وأوقاته ، فلا يعيش إلا مؤمناً ولا يموت إلا مؤمناً ولم يكل أمره إلى الله تعالى بذلك .

وأما قول المؤمن : أنا الآن مؤمن ، فليس مما ينكر ، وهو نظير قوله ان كان قائماً : أنا قائم ، وإن كان قاعداً أنا قاعد . وليس هذا بالذي ينكر ، بل هو الذي لا يجوز غيره والله أعلم .

وأما الذي يصح من هذا ومن الاستثناء فهو أن يكون الخير في المستقبل خاصة فيكون ^(١) المؤمن أرجو أن يمن الله علي بالتثبيت ولا يستثنى هدايته بعد إيمانه . وحديث علقمة وإبراهيم موضوع في هذا الموضع . والإستثناء موضع آخر يصح فيه ويحسن وهو أن يرد على كمال الإيمان لا على أصله ^(٢) ، وأشد ، كما نفى أن رجلاً سأل قتادة : أمؤمن أنت ! يقال : آمنا ، أنا مؤمن بالله وبكتبه ورسله والبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره من الله .

وأما الصفة التي قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ (٣) ۚ فَلَأَدْرِي أَنَا مِنْهُمْ أَمْ لَا ! فَقَدْ أَبَانَ قِتَادَةَ أَنَّهُ قَدْ آمَنَ الْإِيمَانُ الَّذِي يَبْعُدُهُ عَنِ الْكُفْرِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدْرِي اسْتَكْمَلَ الْأَوْصَافَ الَّتِي حَكَى اللَّهُ تَعَالَى قَوْمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ،

(١) هكذا وردت في الاصل والارجح انها فيقول المؤمن .

(۲) وردت في الاصل (اهله)

(۳) الانفال: ۲-۴

فأوجب لهم بها المغفرة والدرجات، فكان ذلك تشكيكاً منه في الاستكمال الذي يوجب الدرجات لا في مجانبة الكفر الذي سقط عنه العذاب .

فمن وضع الاستثناء في أحد هذين الموضعين فليس من الشكاك ولا يصير منهم بأن تسمية غيره شاكاً أو يلعن الشكاك وإنما يكون كما قال النبي ﷺ في قریش : « أنظروا كيف يدفع الله عني ، سموني مذموماً وأنا محمد » (٢) .

كذلك يدفع الله بلطفه عن هؤلاء المستثنين بأن يسب غيرهم الشكاك ويلعن الشكاك، وإنما هؤلاء موقنون (٣) وما أرى أنه تنازعا في المقالة التي لحظناها منازع أو يخالفنا فيها مخالف والله أعلم .



(٢) ١ : مؤمنون .

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب القسمة .

القسم الرابع

باب في ألفاظ الإيمان

قال الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَمْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا : آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكْ يَنْفَعْمِهِمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ، وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) .

وقال النبي ﷺ : « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا هَذَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا » ، فَكَانَ الْقَوْلُ الَّذِي قَبْلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا أَسْلَمُوا أَوْ اسْتَفَاضَ وَانْتَشَرَ فَصَارَ عِلْمُ الْإِيْمَانِ ، وَأَشْرَكَتِ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ فِي مَعْرِفَةِ قَوْلِ : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ .

وجاء عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنْ لَمْ تَسْمَعْ وَتَسْمِعْ إِسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ

(٣) آل عمران : ٢٠

(٢) غافر : ٨٤ ، ٨٥

(١) البقرة : ١٣٦

(٥) البقرة : ١٣١

(٤) الزخرف : ٢٦ - ٢٨ ، والشورى : ١٥

(٦) الانعام : ٧٩

الجنة» (١). ولا أعلم من أهل الفتيا خلافاً في أن الإيمان قد ينعقد بغير القول المعروف فدل ذلك على أن معنى قول رسول الله ﷺ «حتى يقولوا لا إله إلا الله» أي يقولوها وما يؤدي معناها، ودل (٢) الكتاب على ذلك أيضاً لأن الله عز وجل أخبر أن إبراهيم صلوات الله عليه قال لأبيه وقومه: ﴿إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى﴾ ثم قال: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ وليست هذه الكلمة بعينها موجودة في عقبه إنما الموجود فيهم قول: «لا إله إلا الله» فثبت أنه لا فرق بين هذا القول وبين ما يؤدي معناه والله أعلم.

التفريع إذا قال الكافر: آمنت بالله ولم يكن يدين من قبل ديننا صار مؤمناً بالله، وإن كان ممن يشرك بالله غيره لم يكن بهذا القول مؤمناً حتى يقول: آمنت بالله وحده وكفرت بما أشرك به.

قال الله عز وجل: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرت بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ (٣) فأخبر أن ذلك إيمان منهم، إلا أنهم لم ينفعهم لأجل الحال والوقت. فدل ذلك على أنهم لو قالوه في غير ذلك الوقت أو في غير تلك الحالة لكان مقبولاً منهم، وكان أنزل لا إله إلا الله وإن كان كفره من قبل جعله نبوءة نبينا ﷺ فقال:

«آمنت بالنبى محمد ومحمد النبى»، كان ذلك كقوله محمد رسول الله كما يكون قوله: «آمنت بالله»، كقوله: الله ربي، وإن قال أسلمت لرب العالمين، ولأن الله عز وجل قال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (٤) فمن قال: أسلمت لله، فقد دخل في الإسلام، الذى هو الدين عند الله تعالى وتقبله. فإن قال: أسلمت وجهي لله، فهو كقوله: أسلمت لله.

قال الله عز وجل لنبيه صلوات الله عليه: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله﴾ (٥). وقال: ﴿وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ (٦).

(١) ورد في صحيح البخاري «الإيمان» باب ١٧، ٢٨. وفي صحيح مسلم «كتاب الإيمان»

حديث رقم ٣٢، ٣٦

(٣) غافر: ٨٤، ٨٥

(٢) وردت في الأصل (وكذلك) وهذا خطأ.

(٤) آل عمران: ٨٥

(٥) آل عمران: ٢٠

(٦) آل عمران: ١٩

وظاهر هذا انهم لما قالوا : أسلمنا لله ، أو ، أسلمنا وجوهنا لله لكانوا مسلمين ويحتمل ان الكافر اذا قيل له : أسلم لله ، أو آمن بالله ، فقال : أسلمت أو آمنت ، كان مؤمناً ، وكان ذلك جواباً صحيحاً ، وهذا ظاهر الآية .

وإن قال : أو من بالله ، أو قال : أسلم لله ، بهذا ابان ، كما ان قول الرجل : أقسم بالله يمين ، ولا يحمل على الوعد أن يريد ، فان ادعى انه أراد ، كان القول قوله . فإذا قال الكافر : الله ربي ؛ أو قال : الله خالقي ، فان كان من قبل لا يدين ديناً فهذا منه إيمان وان كان من الذين يقولون بقدوم أشياء مع الله - تعالى عما يقولون علواً كثيراً - لم يكن مؤمناً حتى يقول : لا قديم إلا الله ، وإن قال من فكر : بان لا خالق إلا الله ، لم يكن مؤمناً . لأنهم يقولون : الله خالق ما خلق لكن من أصل قديم .

فإذا قال اليهود المشبه ، ويقول : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ^(١) ، وإن قال مع ذلك محمد رسول الله ، فان كان يعلم أن محمداً ﷺ جاء بابطال التشبيه كان مؤمناً ، وإن كان لا يعلم ذلك لم يكن إيمانه بالله حتى يتبرأ من التشبيه ، وكذلك الذين يقولون بقدوم أشياء مع الله جل ثناؤه ، وإن علم أن محمداً ﷺ جاء بابطال ذلك فقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، كان ذلك إيماناً منه ، وإن كان لا يعلم ذلك ، لم يكن مؤمناً بالله ، نازعاً عن كفره به حتى يعترف بأنه لا قديم إلا الله .

وإن قال النصراني لا إله إلا الله و كان يعتقد من قبل ان عيسى هو الله لم يكن هذا إيماناً بالله عز وجل ، وهكذا ان كان يعتقد ان عيسى ابن الله حتى يتبرأ من دينه الأول ، فان قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهو يعلم أن محمداً ﷺ جاء بأن الله لم يلد ولم يولد ، وان عيسى عبد الله ورسوله كان إيماناً تاماً صحيحاً ، وإن كان لا يعلم ذلك لم يكن نازعاً عن كفره حتى يتبرأ من قوله .

فان قال قائل : إذا كان من يدخل في الإسلام لا يحتاج في صحة إيمانه محمد ﷺ إلى أن يعلم ما الذي جاء به من الشرائع ، فلم احتاج إلى أن يعلم انه جاء بابطال التشبيه ، وبأن لا شيء دون الله قديماً حتى يصح إيمانه به !

قيل : الشرائع لا طريق إلى معرفتها إلا السمع وهو يعرض التبديل . فمن صدق بنبوة

نبي فقد الزم أن يقبل شرائعه عنه ، وأما توحيد الله تعالى جده وتزويجه عن الأشياء فليس ادراكه مختصا بالسمع ، ولكنه مما يدل بالعقول ، وما ثبت من ذلك فليس بممكن أن يتبدل ويتغير . فمن اعتقد ان شيئا سوى الله قديم وان الله تعالى يشبه شيئا من خلقه فانما زل عن المعقول ، ونخل العقل مالا جواز له فيه ، واعتقد أنه لا يمكن أن يكون الحق غيره . ومن كان بهذه الصفة فأى شيء من الأشياء فانما يؤمن به على أن يقبل عنه ما لا يعرف إلا بالسمع ، وما يمكن أن يكون قد يدل على لسانه من شريعة غيره ، ولا يظن به انه يأتي بخلاف ما هو المعقول عنده ، فدخل في جملة إيمانه به تقبل شرائعه ولم يدخل فيها نفي التشبيه وابطال أن يكون قديم سوى الله إلا أن يكون علم انه اتى بهما ، فاتبعه على ذلك وآمن به والله أعلم .

كذلك النصراني إذا كان يزعم أن عيسى أخبرهم انه الله ، أو ابن اله وابن الاله ، فهو يرى ان هذا لا يتبدل ولا يجوز أن يصح خبر بخلافه ، فلم يكن ذلك كالشرائع التي تعلم انها تعرض للتبديل ، ولم يصح إيمانه بنبينا محمد ﷺ حتى نعلم انه جاء : بأن عيسى عبد الله وان الله لم يلد لم يولد ، وان عيسى لم يكن يحيي الموتى ، ولا يرى ذوي المعاهات ، ولا يجعل الطين بنفخة طائراً ، وإنما كان يفعل ذلك كله ربه الذي خلقه ، ويتبعه على ذلك ويؤمن به فيكون بذلك راجعاً عن مقالته والله أعلم .

وإذا قال الثنوي ^(١) : (لا إله إلا الله) لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ بقدم النور والظلمة ، وإن قال : لا قديم إلا الله كان مؤمناً .

وإذا قال الوثني : (لا إله إلا الله) ، فان كان من قبل يثبت الباري جل جلاله ويزعم ان الوثن شريكه صار مؤمناً . وإن كان يرى ان الله هو الخالق ، ويعظم الوثن يتقرب اليه ، كما حكى الله عز وجل عن بعضهم انهم قالوا : ﴿ ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ^(٢) . فلم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من عبادة الوثن .

وإن كان يهودي يقول : (لا إله إلا الله) ، إلا انه يشبهه بخلقه ، فتبرأ من التشبيه فقال : ليس كمثله شيء ، صحت بذلك كلمته ، وإنما يبقى أن يؤمن بمحمد وعيسى صلوات

(١) نسبة الى التنويه : التي تزعم ان النور والظلمة ازلان قديمان بخلاف المجوس الذين قالوا بحسوث الظلام - الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٢٤٤
(٢) الزمر : ٣

الله عليها . فان الله عز وجل لا يقبل الايمان ممن آمن به حتى يؤمن برسوله ولا يفرق بين أحد منهم ، فان فعلتم إيمانه ، وهكذا ان كان نصراني يقول : لا اله الا الله غير انه يزعم : ان عيسى ابن الله فتبرأ من قوله ، وقال : المسيح عبد الله ورسوله صحت بذلك كلمته ، وإننا ينبغي ان يؤمن بمحمد ﷺ ، فان فعلتم إيمانه .

وإن كان نصراني يقول : لا اله الا الله ، ويزعم مع ذلك ان عيسى هو الله ، ثم يرجع وقال : عيسى خلق الله وليس هو الله صحت بذلك كلمته ، فان آمن يتبع ذلك نبينا صلوات الله عليه ، كمل إيمانه .

وإذا قال أحد البراهمة الذين يؤمنون بالله ويوحّدونه ، ولا كفر منهم إلا جحد الرسول محمد رسول الله ، صار مؤمناً لأن كفره لم يكن إلا جحد النبوة ، فإذا قبلها زال الكفر . ولو قال : إبراهيم رسول الله أو أقر بذلك النبي قبل محمد ﷺ لم يكن مؤمناً لأن إقراره بنبوة من قبله إقرار بنبوة بعض الأنبياء ، وإقراره بنبوة جميع الأنبياء لأنه صدقهم وشهد لهم .

وإذا قال اليهودي الذي لا يشبه أو النصراني الذي يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ، فان كان من الذين يزعمون ان محمداً رسول الله ، ولكن إلى العرب خاصة ، أو انه لم يبعث ، لم يكن مؤمناً حتى يتبرأ من قوله الذي هو ضلالة وكفر ، وإن كان يرى من قبل ان محمداً ليس برسول ولا نبي بعد موسى أو عيسى صار بما أقر به مؤمناً . وإن قال الكافر : محمد رسول الله ، ولا اله الا الله ، أو محمد رسول الله الذي لا اله غيره أو إلا هو ، كان هذا كله كفر . لا اله الا الله محمد رسول الله .

وإن قال المعطل : محمد رسول الله ، فقد قيل : يكون مؤمناً لأنه أثبت الرسول والرسول معاً ، وليس في انه ينبغي بلفظه أن يكون لله شريك ما يفسد إيمانه لأن كفره انما كان من قبل التعطيل لا من قبل التشريك . وإذا قال الكافر لا اله الا الذي آمنت به المسلمون كان حراً مؤمناً ، أخبر الله تعالى عن فرعون انه لما أدركه الفرق قال : ﴿ آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ (١) فرد إيمانه لأجل الحال . وقيل له : الآن يدل ذلك على انه لو قال في غير تلك الحالة لقبل منه .

أو قال الكافر : آمَنتُ بالذي لا إله غيره لم يكن مؤمناً لأننا لا ندري من يريد ولعله يريد عظيم قومه أو الوثني حتى يقول آمَنتُ بالله الذي لا إله غيره فإن قال : آمَنتُ بالله وبمحمد لم يكن مؤمناً بمحمد وكان مؤمناً بالله لأنه أثبت الإله بهذا القول وإثباته إياه إيمان به ، وقد أثبت محمداً أيضاً إلا أن إثباته إياه في نفسه ، ليس بإثباته نبياً ، فلا يؤمن به حتى يقول : آمَنتُ بمحمد رسول الله ، ولو قال آمَنتُ بمحمد الرسول لم يكن ذلك لقوله آمَنتُ بمحمد النبي ، لأن النبي لا يكون إلا الله والرسول قد يكون لغير الله .

وإذا قال الكافر لا إله إلا الهيمي المميت ، فإن لم يكن من القائلين بالطباع كان مؤمناً ، وإن كان منهم لم يكن مؤمناً لأنهم ينسبون الحياة والموت إلى الطبيعة حتى يقول لا إله إلا الله أو الباري ، أو يأتي بلفظ لا إشكال فيه ولا شبهة .

وإن قال يهودي : لا إله إلا الله لم أجعله بهذا مؤمناً لأنني لا آمن أن يكون أفاد ملك قومه ، وقد قال فرعون : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَعْلَمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢) وقد كان ملكهم وهكذا إن قال لا إله إلا الرازق أو الرزاق ، لأنه قد يريد بذلك ملك الجند الذي يقيم لهم العطايا ، ولو قال لا ملك إلا الله أو لا رازق إلا الله جعلته مؤمناً ، لأنه إن كان أراد ملك قومه فإنما نفى عنه الملك فأضافها إلى الله عز وجل وهو في ذلك محق .

وعلى هذا قول القائل : لا إله إلا الله العزيز ، وقوله : لا عزيز إلا الله ، ولا إله إلا العظيم ، ولا عظيم إلا الله ، ولا إله إلا الحليم ، ولا حليم إلا الله ، ولا إله إلا الكريم ، ولا كريم إلا الله ، وإذا قل : لا إله إلا الملك الذي في السماء أو الملك السماء ، كان مؤمناً .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ أَمَّنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) وهو يريد نفسه وليس ذلك على أنه محصور فيها ، لكن بمعنى أن أمره ونهيه إنما جاء من قبل السماء ، وإن قال : لا خالق إلا الله ، كان مؤمناً ، وقد تقدم القول فيه . فإن قال : لا إله إلا الخالق ، فهو كذلك ، لأن من أثبت مع الله أصلاً قديماً للوجودات ، لم يقل : إن ذلك الأصل اله ، ويزعم إن الله خلق ما خلق من ذلك الأصل ، ولا يكون قوله : لا إله إلا الخالق توحيداً ، حتى يعترف بأن لا قديم سوى الله .

وإن قال الكافر لا إله إلا الرحمن أو لا إله إلا الله ، أو لا إله إلا الباري ، أو لا إله إلا

الله ، كان هذا كقوله : لا اله الا الله . وان قال : لا اله الا بديع السموات والارض أو
الا خالق السموات والارض أو الا فاطر السموات والارض ، فهذا مثل ان يقول لا اله الا
الخالق ، وقد تقدم القول فيه .

وان قال : لا رحيم الا الله أو لا جبار الا الله ، كان هذا مثل ان يقول : لا اله الا الله .
وان قال الدهري : لا اله الا الرحيم ، ولا اله الا الجبار ، لم يكن مؤمناً لأنه يمكن أن
يكون اراده ملكهم الذي يرحمهم بالإحسان اليهم ، أو يجبر أحوالهم ، أو يجبرهم على ما
يريد منهم .

واذا قال الكافر : لا اله الا ساكن السماء ، لم يكن مؤمناً ، لأن ساكن السماء هم الملائكة
وان قال : لا اله الا الله ساكن السماء كان هذا زيادة كفر منه ، لأن الساكن غير جائز
على الله تعالى واحتظار الأمكنة ليس من صفاته ، وان قال : لا اله ما خلا الله أو لا اله
سوى الله ، أو لا اله غير الله ، أو لا اله ما عدا الله ، أو لا اله حاش الله ، فهذا كله بمنزلة
أن يقول : لا اله الا الله ، وهكذا ان قال : من اله الا الله ، أو ما في اله الا اله واحد .

وان قال : لا اله الا الله ، أو لا اله الا الله فهما سواء . وان قال : لا اله الا صاحب
العرش ، أو لا اله الا رب العرش . فان كان من قبل دهرياً معطلاً لم يكن مؤمناً ، لأنني
لا آمن ان يريد بذلك ملك قومه ، ويريد بالعرش سرير ملكه ، وقد قيل : البلقيس ولها
عرش عظيم .

وقال سليمان صلوات الله عليه ؟ ﴿ أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي 》 ^(١) ، واذا قال رجل من
معطلة الفلاسفة أو نظارهم : أشهد أن الباري علة الموجودات أو سبب الموجودات أو
مبدأ الموجودات لم يكن ذلك ايماناً حتى يعترف بأنه مخترع كل ما سواه من الأشياء مبدعه
ومحدثه بعد ان لم يكن .

وان قال الكافر : آمنت بالله ان شاء ، لم يكن مؤمناً ، لأن مثل هذا انما يحمل على
معنى ان قال شئت ، ألا ترى ان رجلاً لو قال لامرأته : أنت طالق ان شئت ، لم يقع
الطلاق حتى تقول : شئت . ومن قال : ان مشيئة الله تعالى للأشياء قديمة ، فان هذا
الكلام فاسد ، لأنه تطبيق الايمان بشرط مشيئة محدثها الله ، ويستحيل على مشيئة الله

تعالى أن تحدث ، كما يستحيل على علمه أن يحدث . وإن قال : ان كان الله شائيا ايماني به فقد آمنت ، لم يكن مؤمنا ، لأن نفس الشرط تشكيل في المشرط اذا كان سبيل معرفته ، فأوقع ذلك شكاً في الايمان المعلق به ، والشاك في الايمان لا ايمان له . هذا جواب ينبغي أن لا يختلف فيه .

وإذا قال الكافر : لا اله الا الله ، أحمد رسول الله ، فذلك وقوله محمد رسول الله سواء ، قال الله عز وجل : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ^(٢١) وتأويل اللفظية واحد . لأن أحمد هو الاحق بالحمد ، ومحمد هو البليغ فيما يحمد ، وانما يكون الاحق بالحمد البليغ فيما يحمد ، والبليغ في الحمد أحق بالحمد من المقصر فيه ، فلا فرق بين أحمد ومحمد ، وإن قال : أبو القاسم رسول الله فكذلك والله أعلم .

فصل

وإذا قال اليهودي : أنا بريء من اليهودية ، أو قال النصراني : أنا بريء من النصرانية وحدها ، حتى إذا تبرأ منهما صار داخلاً في الاسلام ، ولكن له أصداد كثيرة فكل ملة تخالفه فهي له ضد . والتعطيل إبتداء الأصداد ، فلو تبرأ من كل ملة تخالف الاسلام كفر التعطيل الذي هو ضد وليس بملة ، ولم يمكن أن يجعل مؤمناً حتى يتبرأ منه ، فإن قال : أنا بريء من كل ما يخالف دين الاسلام من دين ورأى وهوى ، كان مسلماً لأنه لم يمكن تبرئته من عامة ما يخالف الاسلام الآن بأن يجعل مسلماً ، فإنه لا يمكن أن يجعل مسلماً ، فإنه لا يمكن أن لا يجعل مسلماً ولا مخالفاً للإسلام .

فإن قال : الإسلام حق ، لم يكن مسلماً فإنه لا يمكن أن لا يجعل مسلماً ولا مخالفاً للإسلام . فإن قال : الإسلام حق لم يكن مسلماً لأن الإقرار بالحق غير إعظامه ، وقد تقامه من يجسه ولا يرقبه ويؤخذ في هذا وفي قوله « أنا بريء من اليهودية أو النصرانية » بأن يسلّم ، فإن أسلم وإلا قتل ، وإن كان كافراً : أسلمت أو آمنت ولم يزد على هذا لم يكن مسلماً ولا مؤمناً كرجل يقول : خلقت أو أقسمت فلا يكون خالياً ، فإن قيل

لعلي : أسلم ! فقال : أنا مسلم ، لم يكن بهذا إقرار بالإسلام ، لأنه يسمى دينه الذي هو فيه إسلاماً ، ولم يزل الاسلام اسماً للمثبت الموحد .

قال الله عز وجل : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ (٣) ، أن يكونوا . والآن إذ كنتم معنى قوله : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ (٤) ، فإن كان هذا هكذا ، فقد سمي نفسه أيضاً مسلماً وجميع ذريته الموحدين مسلمين . فإن قال آخر من أولاده المتسكنين بجملة من الملل المتقدمة : إني مسلم ، فلذلك محمول منه على أنه سمي دينه اسلاماً ، لا على أنه انتقل من غير الإسلام إلى الإسلام .

وإن قيل لمعطّل أسلم ، فقال : أنا مسلم ، وأما من المسلمين ، كان هذا منه إقراراً بالاسلام ، لأن الاسلام إسم الدين وإذا أقرب به فقد أقر بالدين بعد أن لم يكن له دين أصلاً ، إذ المسلم إسم لتدين معلوم ، والمسلمون إسم لتدينين معروفين . فإذا أقر بأنه منهم أخذ باقراره .

وأما إذا قال : أسلمت ولم يقل لله ، فإن كان ذلك في موضع العقد لم يكن مسلماً حتى يقول : أسلمت لله . وإن كان على وجه الاقرار اجراه قبل منه كما أن رجلاً لو قيل له : ما فعلت بابنتك ؟ فقال : زوجتها . أو : ما فعلت بأمتك ؟ قال : بعثتها ، كان هذا جارياً في هذا الموضع ولا يجرى في موضع العقد . وهكذا ان قال المعطّل : أنا من المسلمين ، وهو يريد العقد لا الخبر لم يتم إسلامه إلا بأن يقول لله ، والعقد مقارن للخبر كما يتنبه .

فإن قيل : فقد قال الله عز وجل : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً

(٢) المائدة : ٤٤

(٤) البقرة : ١٢٨

(١) البقرة : ١٢٣ .

(٣) الحج : ٧٨

وقال إنني من المسلمين (١) مقام قول : لا إله إلا الله ، فثبت بذلك ان كل واحد من الكلامين صالح للعقد .

فالجواب : ان هذا ان كان هكذا ، فيقول المؤذن في أذانه : لا إله إلا الله ، ليس من العقد وإنما هو تأكيد للعقد الذي سبق بتطوع منه ، ولو أجزئ له أن يقول مكانه : إني من المسلمين ، فقال : لم يكن منه الاحتراز أو ليشأ ، أو ينكر أن يكون هذا القول في موضع الخبر كافياً .

وجواب آخر : وهو ان الله عز وجل ان كان جعل المؤذن بقوله : لا إله إلا الله قائلاً إني من المسلمين ، فقد جعله بقوله : حي على الصلاة داعياً إلى الله فليقم قول القائل : أنا أدعوكم إلى الله ، مقام قوله : حي على الصلاة . فثبت أن السؤال ليس : أنا من المسلمين ؟ وجواب ثالث : وهو أن المسلمين أجمعوا على أن المؤذن أن يبدل قوله : لا إله إلا الله بقوله : إني من المسلمين ، لم يقم ذلك مقامه مع ما ان الآية فيه « فكيف يستقى منها ان الكافر إذا أراد الاسلام فقال : إني من المسلمين ، قام ذلك مقام قول « لا إله إلا الله » ويدل على مفارقة العقد الخبر ان الكافر إذا قال : أسلمت لله ، قام هذا مقام شهادة الحق ولم يتم إيمانه حتى يشهد بنبوة ﷺ . ولو توهمنا قولنا : أسلمت ، كافياً ما قام ذلك إلا مقام شهادة الحق وحدها .

ومعلوم أنه إذا سئل عن دينه فقال : أنا من المسلمين ، كان هذا إقرار بدين ، فلم يدخل فيه التوحيد ، والإقرار بنبوة النبي ﷺ وقبول جميع ما جاء به من عند الله ، وهكذا لو قال : أسلمت وهو يريد أن يخبرني قد صرت من المسلمين ، فعلم بهذا ان صلاح كل واحد من هذين اللفظين لما صلح له من معنى الخبر لا يوجب صلاحاً للعقد والله أعلم . فإذا قيل له أسلم ، فقال : طالم ما أنا مسلم مثلك ، أو طالم ما أنا مسلم مثلكم ، أو طالم ما أنا مسلم مثلكم ، كان هذا إقرار بالإيمان بوجوده . وان كان كافياً في قوله لم يكن بين الله تعالى وبينه مسلماً ، كرجل طلق امرأته ثم قال لرجل غيره : طلق امرأتك فقد طالم ما أنا مطلق مثلك . أو أعتق عبده . فقال لرجل : أعتق عبداً . فقال : طالم ما أنا معتق مثلك ، أو حلف بالله ثم قال لغيره : احلف ، فقال : طالم ما أنا حالف مثلك كان هذا

اقرار بما يقول ، فان كان كذباً وارده بما قال التلييس عليه ، لم يكن عليه فيما بين الله تعالى وبينه شيء مما قال ، والله أعلم .

فصل

وان قال مسلم لمسلم : يا كافر ، فهذا على وجهين : ان أراد ان الدين الذي يعتقده كفر ، ككفر بذلك ، وان أراد به كفره في الباطن ولكنه يظهر الايمان نفاقاً ، لم يكفر ، وان لم يرد شيئاً لم يكفر لأن ظاهره انه وماه بما لم يعلم في نفسه مثله ، ولأن الاسلام ثابت له باليقين فلا يخرج منه بالشك ، وإذا تمنى مسلم كفر مسلم ، فهذا على وجهين : احدهما : أن يتمناه كما يتمنى الصديق لصديقه الشيء سيحسبه ، فيجب أن يكون له فيه نصيب ، فهذا كفر لأن استحسان الكفر كفر .

والآخر : ان يتمناه له كما يتمنى العدو لعدوه الشيء يستقطعه ، فيجب أن يقع فيه ، فهذا ليس بكفر . تمنى موسى صلوات الله عليه بعد أن أجهده فرعون ، أن لا يؤمن فرعون وملأه ليحقق عليهم العذاب ، وزاد على ذلك ان دعا الله تبارك وتعالى فقال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١) . فلم ينكر الله تعالى ذلك عليه لعله ان شدته على فرعون وغلظه عليه لما رآه من عتوه وتجره هي التي حملته على ذلك ، فمن كان في مناه فله حكمه .

فصل

وإذا نوى مسلم أن يكفر ان كان كذا ، وإذا جاء وقت كذا ، كفر بالحال . وان نوى كافر أن يسلم ان كان كذا له إذا جاء وقت كذا ، لم يكن بذلك مسلماً ، لأن كافراً لو قال أسلمت لم يكن بهذا القول مسلماً ، فأولى أن لا يكون مسلماً . أو نوى أن يقول ذلك لوقت مستقبل ولما نقله ، ولأن الاسلام فرض دائم ولا يصح إلا مع الاخلاص ، فإذا نوى مسلم أن يكفر غداً فقد أفسد الاخلاص بما أحدث من عزيمة الكفر ففسد

إسلامه بزوال شرطه وصد الإسلام الكفر ، فإذا هدم عدم إليه .

والكافر إذا نوى أن يخلص غدا فلا إخلاص منه لأنه متشبث في الحال بالكفر ، فلم يكن له إسلام في الحال ، ولا إذا جاء عدواً أيضاً . فانه إذا نوى أن يكفر غداً ، فقد استحسن الكفر فصار بذلك رافضاً للإسلام ، لأن استحسن الكفر استقباح الإسلام . وإذا نوى أن يسلم غداً فهو للكفر مستحسن في الحال ، واستحسنه إياه استقباح للإسلام في الحال ، فلماذا كفر ؟ قيل لأن فرض الإسلام فرض دائم لا يحوز تعريفه ولا تقطيعه ، فلم ينقصد استحسنه الإسلام في الحال ، إذا كان لا يستحسنه فيما بعد الحال ، والله أعلم .

* * *

القسم الخامس

باب في إيمان المقلد والمراتب

المقلد من يدين ما يدين لأنه من آبائه وقربته وعشيرته وأهل بلده ومشايخ قومه وليس عنده وراء ذلك حجة يأوي إليها ، وإذا سئل عما يدعوه إلى اختيار ما هو فيه على خلافه ، ضجر واختلط ولم يكن عنده إلا أن يقول : ديني ودين آبائي وعليه وجدت الشيوخ وهو الطريق المستقيم ، ومن خالف هذا لم يكلم إلا بالسيف .

والمراتب من يقول : اعتقدت الاسلام وتألفت أهله احتياطاً لنفسي ، فان يكن حقاً وكان بعد الموت بعث وحساب وجنة ونار ، فقد فزت وأفلحت ، وإن لم يكن من ذلك شيء لم يضرني ، وكنت في حرثي ^(١) محموداً آمناً في نفسي وأهلي ومالي ، وواحد من هذين - أعني المقلد والمراتب - ليس بمسلم . أما المقلد فلأنه أراد بدينه موافقة قوم ، وإنما ينبغي أن يراد بالدين إقامة الحق وأداء الواجب وليس يعرف الحق حقاً ولا الواجب واجباً بقول الآباء والعشائر وشيوخ البلد . فان المبطلين لهم آباء كآباء المحقين وعشائر كمعشائهم ، وشيوخ كشيوخهم ، فمن عرف الحق حقاً والواجب واجباً من مثل هذا الوجه فلم يعرفه الحقيقة ، واعتقاد الدين من غير معرفة بصحته لا يصح والله أعلم .

وأما المراتب فلا اعتقاد له لأنه شاك لا يدري الاسلام وما يقوله المسلمون حق أو غير حق . والاعتقاد توطین النفس على أحد ، فيسمى المنقسم أو أقسامه إذا كانت متباينة باثباته ونفي ما سواه . فاذا كان الاسلام هو الاعتقاد ، والاعتقاد ما وصفت وهو غير موجود من المراتب ، ثبت أنه ليس بمسلم . وأيضاً فان ما ضاد العلم بالله ضاد الايمان به ، والشك فيه مضاد للعلم به ، كما الجهل به مضاد له . فلما استحال وجود الايمان به مع جحده والجهل به استحال وجوده مع الشك فيه والارتباب به والله أعلم .

فإن سأل سائل عن المؤمن : هل يكون مقلداً ؟ أو يصح إيمانه ؟ ومن هو ؟ ومن المؤمن غير المقلد ؟

(١) الحرث كسب المال ، وفي الحديث : (احرث لديناك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) .

قيل له : أما المؤمن غير المقلد فرجلان : أحدهما الذي عرف الله تعالى جده بالدلائل والحجج الدالة على صدقه ، ثم اعترف بالله ورسوله ، فقبل عن رسوله جميع ما جاء به من عنده ، وأسلم نفسه لله بالطاعة فيما أمره به ونهاه عنه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .
والآخر : من يؤمن بالله اجابة لدعوة نبيه بعد قيام الحجة على نبوته ، وهذا فضل يضرب فيه كثير من الناس ويقولون : كيف يعرف رسول الله من لا يعرف الله ، وكيف تثبت نبوة واحد عند من لا يعرف بالباري جل جلاله حتى إذا ثبت اجاب دعوته ، ولكن الأمر ليس على ما ظنه هؤلاء ، وسنبين ذلك بيانا شافيا باذن الله تعالى فنقول - وبالله التوفيق - :

قد علمنا ان الله تبارك وتعالى ، بعث الرسل إلى ان ختمهم بنبينا محمد ﷺ ، إلى طبقات الكفار مع اختلاف آرائهم وتشتت مذاهبهم ، فما أحد منهم آمن إلا وثبت إيمانه ومن السنن الذي يخفى ان لقائل الذين آمنوا لم يكونوا كلهم يكلمون الاستدلال على الباري جل ثناؤه ووحدانيته ، ولا ان كان منهم من يستدل ثم يؤمن بل كانوا يحتجبون لما يرونه من معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، ويكتفون بها ولا يطلبون معها دلالة سواها ، وكان أسبقهم إيمانا وأعجبهم اسلاما خیرهم وأحقهم بالتقديم وأفضلهم .

فثبت بذلك ان الإیمان بالله إذا وقع إجابة لدعوة من قد ثبتت نبوته ، كان صحيحا ، سواء كان المؤمن من أهل الاستدلال بوجه آخر ولم يكن تم بنظر . فان كان المؤمن قبل ان آمن يثبت الله تعالى ، إلا انه ملحد في اسمائه وصفاته كان إيمانه الحادث تركا لذلك الاحاد لما يقوله النبي ويدعوه اليه . وإن كان قبل ذلك لا يدين ديناً .

ويروى ان لا صانع للعالم فانه لم يزل على ما هو عليه الآن ، فوجه ايمانه بالله لدعوة نبيه هو ان النبي ذكر ان للعالم الها واحدا لم يزل ولا يزال ، لا يشبه شيئا ، قادرا لا يعجزه شيء ، عالما حكما ، كان ولا شيء غيره ، فأبدع كل موجود سواه ، واخترع اختراعا لا من أصل ، وانه أرسله إلى الناس ليعرفه اليهم ، وينبهم على آثار خلقه التي يرونها ويعقلون عنها ، ويدعومهم إلى طاعته وعبادته ، وان دلالاته على صدقه هي ما أمده من كذا مما لا يستطيع الناس وإن تظاهروا أن يأتوا بمثله ، وانه إذا كان واحد من الناس تجمعهم وإياهم البشرية ثم تجمعهم وأهل بلده الهواء والأرض والماء ، وكان ما عدا هذا الذي يذكر انه أمد به ليكون دلالة على صدقه ، لا يبين فيه أحدا من الناس ، ويحتاج إلى الطعام

والشراب إلى مثل ما يحتاجون إليه ، ولا يقدر من الأشياء المعتادة إلا على مثل ما يقدرون عليه ، ويعجز عما يعجزون عنه ، وجب أن تحكموا بأنه من فعل هذا الذي اختص به مما هو خارج عن قضية العادات عاجز مثلهم ، وإنه إذا كان عاجزاً عنه ، وقد وجد به وظهر على يده حق أنه ليس من صنعه ، ولكنه من صنع غيره ، ولا جائزاً أن يكون ذلك الغير من جنسه أو مثله ، أو في القدرة تكاثره إذ لو كان كذلك لاستحال وجوده من غيره كما استحال وجوده منه .

وفي ذلك ما يوجب أن يكون من صنع صانع ، لا يفعل الا شيئاً بمثل القوة والقدرة التي بهما يصنع الصانع المشاهدون . وأنه كما لم يشبه صنعه صنعم فكذلك هو غير مشبه إياهم ، ولا جائز عليه من معاني النقص ما هو جائز عليهم ، فانتظمت حجة هذه اثبات الصانع على من يحمله ولا يعترف به ، واثبات رسالته من عنده ، فمن استسلم لحجته وصدقته في جميع قوله ، وآمن بحملة دعوته كان اثبات الرسول والمرسل منه معاً في مقام واحد ، ولم يكن اثبات الرسول ، قبل معرفة المرسل ، فهذا وجه الايمان بالله اجابة لدعوة رسوله اليه ، وهذا ما أجابه بحججه .

ومن هذا الوجه كان إيمان عامة المستجيبين للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، ثم قد كان فيهم من تنبه بعد ، فرأى وبحث ونظر ، فبصره الله تعالى من الدلائل ما شذبها ازره ، وعصم دينه ، وقوى نفسه . فطلب من هذا العلم ما ينصر به الدين ويجادل به أعداءه ، وينتصر به للتدافع عنه .

فأما أهل الايمان فما أقل من خرج إيمانه عن الطريقة التي ذكرتها إذا كان الذين شاهدوا الرسول ﷺ ، وسمعوا دعوته ، وعانوا حججه ، آمنوا به استبصاراً بها ، ولم يحتاجوا معها إلى دلالة يستشيرونها بآرائهم من شواهد عقولهم .

فكذلك الذين لم يدركوا عصره ولم يشاهدوه ، إذا بلغهم خبره ، وخبر المشاهدين له بلاغا - لا يمكن أن يكون كذبا ولا غلطاً - صاروا كالمشاهدين في وقوع العلم لهم ضرورة بكل ما بلغهم .

فإذا اذعنوا لدعوته من غير حجة جديدة يبغونها كانت منزلتهم في ذلك منزلة الأولين و كان إيمانهم سالماً صحيحاً ، ثم كذلك كلما بلغ ذلك الخبر أهل عصر بلاغا ، فوقع لهم العلم فآمنوا كانوا كالمشاهدين ، و كان إيمانهم حجة لا تغير ، وكل مؤمن اليوم فأصل إيمانه هذا البلاغ ، ثم في المؤمنين من يوسع في النظر ، واستكثر من وجوه الحجج لحاجته إليها

في الدفع والجدل، فقويت بذلك بصيرته، واشتدت من الدين مريرته ، وحسن في الاسلام بلاؤه ، وظهر جده وعناؤه . فأما الأصل فلم يكن الا ما ذكرنا والله أعلم .

فان قيل : أرأيت الذي يؤمن اليوم ولا يخطر بقلبه من حقيقة دعوة رسول الله ﷺ وحجته شيء مما ذكرت ، ولو أريد اسماعه لذلك لم يسمعه ، ولو سمعه لم يدركه ، ولو فهمه لم يفهمه ، أيقال انه مؤمن ؟

قيل : هذا لا يخلو من أن يكون سمع ان النبي ﷺ ظهر على المشركين بالحجة ، فإذا اعتمد هذا البلاغ ولأجله آمن ، كان نظير الذين آمنوا واقفين على حجته ، وإن لم يعرف هذا عين الحجة ، وهذا الذي يدخل في إيمانه شيء من التقليد ، ولا يضره لأنه لا يتسع لأكثر منه ، وبالله التوفيق .

فان قيل : أرأيت من بلغه على ألسنة المؤمنين ما وصفهم ، وبلغه على ألسنة الكافرين خلافة ، فبماذا يرجح عنده خبر المؤمنين حتى إذا قبله وآمن به صح إيمانه ، وإن كان فيه من الحقيقة ما يرجحه . فهو إذا كان غافلاً عنه وإن لم يكن في غفلة ما يوصله إلى معرفته ، فبماذا يعني ذلك عنه ؟

قيل : إن البلاغ الواقع من قبل المؤمنين رجحانا وهو ان الكفار لا يتبها لهم أن يحدوا ان النبي ﷺ ، قد جاء بآيات واعلام كثيرة ، وانها قد نقلت نقل اليهود اعلام موسى ونقل النصراني اعلام عيسى صلوات الله عليهما فهم مضطرون إلى الاعتراف بانبثاقه منها ، بما يذكره المسلمون . وإذا ثبت ذلك ولم يتبها لهم تحقيق شيء فيما يتكلمون فيها ، كانوا بترك الايمان به معاندين ، ولم يكن في شيء مما يبلغ مزيد الايمان عنهم ما يقف موقف ما يبلغه عن المؤمنين ، فلا يؤثر خلافهم أثراً ، ولا أوقع فيما عند المسلمين من أمر دينهم خلا وبالله التوفيق . فأما من يبلغه الخبران ، ولم يكن ممن يدرك الراجحان ، فانه إذا كان لا يدرك أمور الكلامين وأبينهما فبالحرى ان لا يدرك ابهما وأظلمهما وهو ما يعارض به الكفار من شبههم وزخاريف أقوالهم ، وإذا لم يدركها وسلم البلاغ الذي وصفناه عن النبي ﷺ في صدره خلص من الشك إيمانه وصح والله أعلم .

وأيضاً فان تلك الاعلام وإن كان لا يحصل منها اليوم إلا على الخبر ، فالقرآن قائم بين أظهرنا ونحن ندعي ان الأنس والجن لا يقدرון على الاتيان بمثله ، فيدل عجزهم اليوم

كما كان سلفهم عنه عاجزين في الزمان الأول على صدق البلاغ الواقع من قبل المسلمين ، وكذب البلاغ الواقع من قبل المخالفين .

وإن سأل سائل عن آمن وصح إيمانه إذا سمع من بعض الكفار طعناً في دلائل التوحيد ولم يكن من أهل النظر يهتدي إلى جوابه ، ماذا يصنع ؟

قيل له : ان هذا لا يخلو عند سماعه معارضة المخالفين من أن يفهمها ويشغل بها قلبه ، ولا يفهمها ولا يشتغل بها قلبه . فان لم يفهمها ولا اشتغل بها قلبه فليس عليه منها شيء ، وإن فهمها واشتغل بها قلبه لزمه أن يسأل عنها من يكشفها عن قلبه ، فان قدر على ذلك ولم يسأل وشرح بالشك صدرأ كفر ، وإن لم يشرح بالشك صدرأ ولكنه اعتقد فيما سمع انه شبهه وان ناراها ما يحلها وعلم ذلك موجود عند أهله كفاه ذلك ، لأنه إذا جاز أن يثبت له الايمان لو لم يسمع من المخالفين معارضة اتكالا على النبي ﷺ ، قد جاء بالحجة الباهرة التي لا يذهب عنها إلا المعاند ، ولأجلها آمن به من آمن .

وإن كان لا يعرفها بعينها جاز أن يدوم بعد سماع المعارضة ، اتكالا على ان تلك الحجة لا تخلو من أن يكون فيها الدفع عن نفسها - وإن كان لا يعلم وجه ذلك الدفع ، أو على : ان عند القائلين بها من الانفصال عن الشبهة الواردة عليها ما تزاح به العلة ، ولا يخلو ذلك من أن يكون وجد في الناس من يعلمه أو لم يوجد .

وكان هذا الذي وصفنا كفره بهذا الاعتقاد داخلا في الذين مدحهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ^(١) لأنه استكمل الايمان بالحجة التي أوردها رسول الله ﷺ ، حتى بلغ من سكونه اليها وثقته بها ان لم يعدل عنها ولم يشكك فيها عند توجه الطعن والمعارضة عليه وعجزه عن الجواب . لكنه وثق بأن ما أوردته عليه شبهه وان بازائها ما يدحضها ، فلم يكن هذا مما يتخلف عن اثبات الجنة والنار والبعث والحساب بمحشر الرسول ﷺ ، وكان الدخول في الآية التي ذكرتها واستحباب الثناء أولى وأحق والله أعلم .

ولما ذكرناه في أصل هذا الباب من وفوق الاكتفاء بمعجزات الرسل صلوات الله عليهم نهى من نهى عن السلف عن الخوض في مسائل الكلام ، وذلك انهم رأوا : انه لا يحتاج اليه لبيان صحة هذا الدين في أصله إذا كان رسول الله ﷺ انما بعث مؤيداً بالحجج فكانت مشاهدتها

للذين شاهدوا ، وبلاغها المستفيض لمن بلغه ، كافياً في إثبات التوحيد والنبوة معاً عن غيرها ، ولم يأمنوا أن يوسع الناس في علم الكلام ، أن يكون فيهم من لا يكمل عقله ويضعف برأيه ، فيرتبك في بعض ضلالات الضالين وشبه الملحدين ، فلا يستطيع منها مخرجاً ، كالرجل الضعيف غير الماهر بالسباحة إذا وقع في ما غامر قوى لم يؤمن أن يغرق فيه ولا يقدر على التخلص منه ، ولم ينهوا عن علم الكلام لأن عينه مذموم أو غير مقيد .

وكيف يكون العلم الذي يتخلص به إلى معرفة الله تعالى وعلم صفاته ومعرفة رسوله والفرق بين النبي والمصادق عليه ، وبين المتنبي الكاذب عليه ، مذموماً أو مرغوباً عنه ، ولكنهم لاشفاقهم على الضعفة أن لا يبلغوا ما يريدون منه فيصلوا بهوا ، وكثيراً من الخاصة كذلك كان الاحتياط للبعض في أن يحصلوا منه ما يقدرون به على جدال المخالفين انهموا أن يقالوا بالحجة ، وبوهموا المسلمين ان دينهم تقليد وانهم ان فحصوا عنه تثبت لهم آثار ذلك فيه : بانه ليس على أحد من في سرية مطمئن بين أهله وولده أن يشتري السلاح ويجمع ويستغل فعل من قد أحس بمدو يقصده ، وبلغه خبر عن أحد يريده ، ولكن ذلك ان وقع وتحقق فحدث عليه خوف ، وتغير له حال لزمه أن يغير تدبيره ويحكم أمره ويستعد للدفع ان قصد ، ويتأهب للدفع ان حضر ، ولا يغفل عن ليس عنه بغافل ، ولا يهمل من ليس بهمل .

هذا وقد يحضر المسلم من الكفار من يقول : إني لا أعرف حجة دينكم ، ولا أعلم فيما تدعون اليه برهاناً ، فان اقمتم على حجة أذعنت لها ! فان هو لم يقدر على ايراد الحجة عليه أصلاً ، أو قدر من ذلك على ما هو أصل الدعوة لما ثبت فلما ادخل الكافر عليه شبهة أو أحدث له معارضة ، انقطع وبقي حائراً عاجزاً لا مزيد عنده على ما كان سمعه ، قام الكافر من عنده وهو في كفره أرسخ منه ، أرجأه وابتدأ مكالمته ولم يتعد أن يكون المسلم قد جهل حال نفسه وظن ان القصور في الدعوة دون علمه ، والخلل في الحجة لا في معرفته ، فاذا الرجلان قد تفرقا عن اتفاق على الكفر بعد ان كان يرجى ان يتفرقا عن إيمان .

فينبغي للمسلم أن لا يعطل هذا العلم ، ولا يغفل عنه أصلاً ، بل يعد منه للخصام والجدال مثل ما يعده المقاتل للقتال ، والله أعلم .

القسم السادس

باب القول فيمن يكون مؤمناً بإيمان غيره ولا يكون

نقول - وبالله التوفيق - ان ما ولد بين أبوين مسلمين فهو في عامة الأحكام مسلم . وإن كان أبواه كافرين فهو في عامة الأحكام كافر مثلها ، فإن أسلم أو أسلم أحدهما وهو صغير ، صار مسلماً . وإن أسلم الجد فقد قبل إسلام الأب - وقيل : يفارقه . فإذا سبي الصغير من دار الحرب مع أبويه فدينه دينهما ، وكذلك ان سبي ومعه أحدهما فدينه دينه ، وإن لم يكن معه واحد من أبويه ، فدينه دين سابه .

وما يقال من هذا في الصغير ، والقول في الكبير المعتوه مثله ، ثم نذكر وجوه هذه الفصول بأذن الله وتوفيقه فنقول : اما اتباع ولد المسلمين أباهما فلأن الأمل في طلب النسل انه طريق إلى استبقاء الجنس ، والغرض من استبقاء الجنس اكبار المؤمنين بالله ، والعابدين له ، إذ كان الله عز وجل إنما خلق الجن والانس ليعبدوه .

وقال النبي ﷺ : « تناكحوا تكثروا » ، فإني أباهي بكم الأمم ^(١) . وإذا كان هذا هكذا ، صح وقوع الاذن من الله عز وجل في طلب النسل ، فحكم الولد بحكمها في الدين أيضاً ، لأنهما إلى غرضهما من الزيادة في عدد المؤمنين به ، ولم يتأخر ذلك إلى أن يبلغ المولود فتوجد حقيقة الايمان والعبادة منه اذا كان يمكن أن يحترم قبل البلوغ ، ويمكن ان بلغ أن يخالف الأبوين ، فحكم له بحكمها عادلاً لما ذكرت والله أعلم .

وإنما ولد الكافر فإنما اتبعهما لأن غرضهما أيضاً من طلب النسل اكبار أهل الدين ، إلا ان الدين عندهما فإنهما عليه فألحق بهما ، كما يقر أهل الكتاب على ما هم عليه بالجزية ، لأن عندهم : ان ما هم عليه هو الحق وإن كان الأمر بخلافه والله أعلم .

وأيضاً فان الأبوين المسلمين إذا اكتسبا الايمان وفشا ، فأدامه الله تعالى لهما بعد في سائر الأوقات وان كان الايمان لا يخطر بقلوبهما ما لم يحدثا بالكفر كذلك عداه عنهما إلى

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴿١﴾ .

ووردت الأخبار بأن الله عز وجل لما خلق آدم صلوات الله عليه اخرج كل من علم انه كائن من صلبه امثال النذر ، فأخذ عليهم الميثاق ما لم يحدث خلافه .

فان قيل : قال الناس لا يذكر أحد منهم انه أعطى من نفسه هذا الميثاق لا حقيقة ولا ظنا ، ولئن كان هذا مما أخذ عليهم فهم في هذه الدار أخذ عهدان منهم في الدار الآخرة ، فكيف لا يذكرونه في أقرب الأوقات من وقت هذه الكائنة ، ويذكرونه في أبعدها ؟

قيل : ان هذا الميثاق لما أخذ عليهم مخرجين من صلب آدم ، لا شك أنه أخذ وقد ركب فيهم الحركة والنطق والعقل ، فلما أعيدهوا إلى صلب آدم بطل ما كانوا ، فردوا به من هذه المعاني فزال العلم الذي كان متعلقاً بها ، ولما عادوا يخرجون من صلبه واحد أبعد واحد على سبيل التوالد ، انسوا ذلك الميثاق لأن الدار كانت دار ابتلاء وامتحان وتعب ، فلو ذكر كل واحد ما كان فيه فيها خلال حقه وصدقه يجرى الايمان مجرى الضرورات ، وارتفعت الهمة واقتضت الحكمة انساءهم اياه ، وابتداءهم بالخطاب والتكليف مقرونين بارسال الرسل وتأيدهم بالأعلام بعد تركيب العقل فيهم وتمكينهم من التمييز بين الحق والباطل ليكون منهم ما يكون ، حتى إذا كان يوم القيامة ذكروا من ذلك ما كانوا نسوه ، للاججاج به عليهم مع ما أمدوا به على السنة الرسل من التنبيه والوعظ والوعيد وبالله التوفيق .

والحجة الثالثة : ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل خلقت عبادي حنفاء فأحالتهم الشياطين عن دينهم » (١) . وهذا يدل على أن أصل الناس في دينهم الايمان وانهم في ذلك بمنزلة الماء والثوب والأرض التي أصلها الطهارة ما لم يرد عليها راد ينجسها .

ومن قال بالقول الآخر دفع هذه المقالة ، فإن الدين كسب لا حيلة ، لأن الله تبارك

(١) الاعراف : ١٢٧ .

(٢) ورد في صحيح مسلم «كتاب الجنة» رقم ٦٣ . وفي مسند الامام احمد بن حنبل - ج ٤ ، ص ١٦٢ .

وتعالى يثيب ما حسن منه ويعاقب على ما قبح منه ، ويأمر بالحسن وينهى عن القبيح ، وما كان بابه باب الحيلة ، فانه لا ثواب ولا عقاب لأحد عليه ، فان الله تعالى لا يثيب البصير على بصره ولا يعاقب الأعمى على عماء ، وكذلك كل من جرى مجراه . وهو يثيب المسلم باسلامه ، ويعاقب المبطلين على باطلهم ، فثبت بذلك : ان الدين من باب الإكتساب لا من باب الجبلة والبنية ^(١) ، وإذا كان كذلك ، والمولود بين الكافرين لم يكسب دين الحق ولم يكسبه له أبواه فأنى كان مسلماً !

وأيضاً فان الله عز وجل لو خلقه مسلماً ، لم يرع اتباعه الأبوين الكافرين في كفرهما لوجبهين : احدهما لأنه ليس من دينه أن يقبل من أحد كفرأ بعد الايمان . والآخر ان كل من اتبع غيره في شيء فانما يتبع فيما لا يكون له بنفسه ، فيكون محتاجاً ، فلو كان له بنفسه دين لم يتبع في الدين أبويه .

فأما قول الله عز وجل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ ^(٢) فطرة الله التي فطر الناس عليها الاسلام ، لكن ما يتوصل به إلى الاسلام هو الحق من دلالة العقل ، وهي التي لا يتبها لأحد تبديلها ، فان ذهب عنها ذاهب كانت هي بحالها حجة عليه وداعية له إلى الصراط المستقيم ، وبالله التوفيق .

وأما النبي ﷺ لما لم يقل حتى يكون أبواه يسلمانه ، دل على ان المراد بالفطرة الاسلام ، فلا دلالة له فيه لأنه انما أراد أن يبين أن فساد الدين ضرر يلحق الأولاد من قبل آبائهم وأمهاتهم . فذكر الأديان الفاسدة ، ولم يذكر الدين الصحيح ولأن بنوته للولد بابويه نفع وصلاح له وتأس من الضرر ، فانما سكنت عنه لهذا : لا لأن ثبوت الدين الحق له من قبل الخلقه - فاننا قد بينا أن الدين لا يجري مجرى الخلق - ولكنه من باب الاكتساب . وفي ذلك ما يمنع أن يكون المراد بالفطرة الدين .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ^(٣) فانما معناه انه أخرجهم من أصلاب آبائهم عقلاء مذكرب فيهم من آلة التمييز ما يعلمون به ان لهم خالقاً ، فأشهدهم بما في عقولهم المركبة في أبدانهم

(٢) الاعراف : ١٧٢

(٢) الروم : ٣٠

(١) البنية : الجبلة ، الفطرة

على أنفسهم ، لأنه لو خاطبهم وأمرهم ، ونهاهم من غير أن يعطيهم عقلاً يدركون به مراده لم يكن عليهم سؤال ولا عيب ، وإذا أعطاهم آلة التمييز والمعرفة نوجه عليهم العيب والسؤال ، ولم يكن لهم أن يقولوا كنا عما يلزمنا غافلين ، ولا نوجه لاختلافهم أن يجبلوا على إسلامهم .

فالميثاق إذاً هو العقل لا غيره ، وتبين فساد تعلق من خالف هذا بالآية ان الله تعالى لم يقل : وإذا أخذ ربك من ظهر آدم ذريته ، وإنما قال : ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم ﴾ فظاهر ذلك أنه أراد تأكيد بعضهم من بعض على عمر الأزمان ، وبإشهادهم على أنفسهم ، أعطاهم عقلاً يدهم على صانعهم ووحدانيته وقده و الله أعلم . وأيضاً فإنه ان كان أخرج من صلب آدم صلوات الله عليه جميع ذريته وسألهم عن نفسه ، فاعترفوا بأنه ربهم ، ولا شك في أنه ركب فيهم الخبرة والعقل والنطق وسألهم ، لأن ما لا يدري ما لا يقال له فلا معنى لسؤاله ، وان كان فعل ذلك بهم فلا يخلو من أن يكون قولهم « بلى شهدنا » اضطراراً واستدلالاً ، فما بالهم لم تتفرق بهم السبل ، ولم تضطرب آراؤهم ، وكان كأمثال الذر وحبوبهم ومعارفهم ، وقواهم بحسب أبدانهم أن تكون على الإصابة بعد ما أكمل خلقهم ، وأغرزت عقولهم وقويت معاني الخير فيهم أقدر وله أخلق . وإن كان ذلك وقع منهم اضطراباً فلهم من الحجة يوم القيامة أن يقولوا : لا نكث لعهد منا ولا نقص لميثاق ، لأننا شهدنا اضطراباً ، فلما زال علم الضرورة عنا ، وكلنا إلى آرائنا ، كان منا من أصاب ومنا من أخطأ . كما كان ذلك يكون الجلون وآراؤهم في كل شيء .

وهكذا ان قال قائل : كان إقرارهم عن استدلالهم ولكنهم عصموا عنده من الخطأ ووقفوا للإصابة .

قيل لهم : فلهم اذا كان يوم القيمة أن يقولوا : أيدنا يوم شهدنا على أنفسنا بتوفيق وعصمة حرمانها من بعد ، ولو أمددنا بها أبدالكاذات شهادتنا في كل وقت وحال كشهادتنا في أول الأمر ، ولم يختلف . فقد بان المقصود الذي يدعيه أهل هذا القول ، ولا يحصل بالأهل الذي يصفونه ، وأيضاً فان الله تعالى يقول : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (١) .

فلو كان الناس قد أخذ عليهم بالآيمان ميثاق كما يقولونه - الذي جلينا قلوبهم - لما كانت لهم على الله حجة وان لم يرسل اليهم الرسل ، وقد أخبر الله عز وجل : أنها كانت تكون ، فثبت أن أخذ الميثاق عليهم من الوجه الذي يقولونه ، لم يكن ، والله أعلم .

فلو قيل : لو امتنع أن يكون المراد بالآية : أعطاهم العقول ، لنفس هذه الآية أيضاً ، قيل : ولا سواء ، لأن ما وضع في العقل من المعارف فهو مختلف : فمنه ما ليس فيه الا وجه واحد ، ومنه ما له وجهان أو أكثر ، ومنه ما يدرك البدئية ، وفيه ما يدرك بالاستدلال والناس في العقول وسائر القوى يختلفون : فمنهم التام عقله ، الساكن نفسه ، الجيد طبعه ، ومنهم : الناقص عقله ، المضطرب نفسه ، الركيك طبعه . ومنهم : ذو الشغل الواحد ، فهمه مقصور عليه . وفيهم ذو الأشغال الكثيرة ، فهمه متوزع بينها ، منقسم عليها . يختلف استدلال المستدلين بحسب اختلاف أحوالهم ، فيكمل من واحد وينقص من آخر ، ويضعف رأي واحد ، ويقوى رأي آخر . فاحتاجوا لذلك إلى الامداد بالرسل ليقووا عزائمهم ويحدوا سرائرهم ، فيأمنوا مكانهم الوقوع في الغلط والخطأ ، وإنما الاقرار وان كان وقع عن الجماعة فشيء قد مضى ، ولا يتغير عن حاله - كان بعده رسول أو لم يكن - وأكثر ما يمكن أن ينسوه أو ينكروه عند أهل هذا القول انهم غير معدودين بما عرض لهم فيه ، وان الاقرار محتج به عليهم يوم القيامة ، فلا حاجة مع هذا إلى الرسل إذا ! وإذا أخبر الله عز وجل انه أرسل الرسل لقطع الحجة صح ان هذا الاقرار الذي يصفونه على الوجه الذي يذكرونه غير واقع من الجماعة والله أعلم .

وأما ما يروى عن النبي ﷺ من قوله : (يقول الله عز وجل : خلقت عبادي حنفاء فاحالهم الشياطين عن دينهم) (١) ، انه خلق آدم وحواء صلوات الله عليهما ، وجعلهما مسلمين وذراً أولادهم الأولين على الاسلام ، فكذلك كانوا إلى أن ألقى الشيطان فيهم حدث الكفر ، فحال به عن ذلك حال عما كان عليه الأصل ، وليس المعني أن كل مولود فانه يكون مسلماً ، ثم يكفر منهم من يكفر .

ويقال : لمن زعم أن أصل الناس الإسلام كما أن أصل الماء والتراب واليابس الطهارة :

(١) ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ١٦٢ .

قد علمنا أن كل شيء من هذا ، حكم بأنه طاهر في أصله ، فإن تلك الطهارة تظهر عليها ما بانها ، وللإسلام في أهله آيات . فما انه الإسلام في أولاد المشركين وهم كما يتفضلون عن أمهاتهم يمكن لها بحكم المشركين أو حين يكونون اجنة في بطون أمهاتهم كذلك أيضاً ، وإذا لم يكن للإسلام فيهم انه قط علم ان الإسلام فيهم وانه لا دين لهم من قبل أنفسهم إذا الدين كسب ولا كسب لهم فهم كذلك يتبعون آباءهم وأمهاتهم ويجعل ما كسباه من الدين ككسبه لعله الحرونة والله أعلم .

فصل

ثم القول في الأطفال وما هم صائرون إليه من الجنة والنار ، يتبع الأصل الذي سبق ذكره وتقديره . فمن قال : ان كل مولود فإنا يولد على الحق ، حتى يكون أبواه ينقلانه إلى الباطل . قال : ان الطفل المولود بين مشركين إذا مات ولم يبلغ مبلغ الاختبار ، فيختار الدين الحق أو الذي عليه أبواه ، زالت عنه ولاية أبويه فزال ما كان فيها من تغيير دينه ، فرجع إلى أصل أمره ، فكان بذلك من أهل الجنة .

ومن قال : بالقول الآخر قال لا يقطع في أمرهم بشيء ، وقد يجوز أن يكون مع آبائهم وأمهاتهم في النار ، لأن الله عز وجل قد اتبعهم إياهم في الدنيا ، فيمكن أن يتبعهم إياهم في الآخرة . قال : قد يجوز أن يوردوا النار وان لم يدينوا ، لأن من أورد النار ، فلانه خلق لها ، ومن أدخل الجنة ، فلأنه خلق لها . واحتج بقول الله عز وجل : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ﴾ (١) . ويجوز أن يصاروا إلى الجنة في هذا القول . فيدل ذلك على أنهم خلقوا لها وان لم يكونوا كسبوا في الدنيا خيراً . وقد قيل : انهم يصاروا إلى الجنة ليكونوا خدام أهلها ، لا لتكون الجنة ثواباً لهم . فإن الثواب يقابل الطاعة ، وهم لا طاعة لهم . فيكونون لأهل الجنة في الجنة كخدام الملوك في قصورهم وبساتينهم . ومعلوم انهم بان ينعموا بها يلبسوا فيها كسادتهم .

فكذلك هؤلاء الأطفال وان ينعموا بالجنة فليسوا فيها كالذين جعلت الجنة ثواباً لهم ،

والله أعلم . وقد قيل : ان كل من علم الله منه انه ان بلغه الكبر آمن به وعده أدخله الجنة ، وكل من علم منه انه بلغه كفر وفخر ، أدخله النار . ومن ذهب إلى هذا احتج بما روى أن النبي ﷺ ، سئل عن أطفال المشركين . فقال : (الله أعلم بما كانوا عاملين) (١) ، وقد يحتمل أن يكون المراد بهذا الخبر غير هذا المعنى ، وهو أن الله أعلم بما هم صائرون إليه ، وما هو كائن من أمرهم . ويجوز أن يكون سئل عن هذا قبل أن يتبين له ما بهم ، فقد كان ﷺ بمكة قبل ما كتب بدعاء الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، ولم يكشف له عن عاقبة أمره وأمر المشركين ، ثم أنزل عليه : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٢) . ثم أنزل عليه : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، أنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (٣) ، وأنزل عليه ، ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ (٤) .

فاعلم ان الذي يفعل به أن يظهره عليهم ، والذي يفعل بهم أن يقهروا أو يذلوا ، الا أن يدخلوا في دين الحق ، وكذلك يجوز أن يكون لم يعلم خبر الأطفال عند حدوث هذا السؤال فيوقف ، وقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » ، أيدخلون الجنة آمنين أم يكونون في النار معذبين .

ولم يرد بذلك ان كل واحد منهم يعامل في الآخرة بما علم الله انه لو خلاه في الدنيا لفعله ، لأن ذلك لو كان جزاء ، فالجزاء لا يكون بما لو وجد ليجزي إليه سبيلا لفعله أو إذا يكون بما قد فعل ، ألا ترى أن أحداً من العصاة لا يعذب على معصية كانت تقع منه لو أمهل وترك في الدنيا ، أكثر مما كان بها واحداً من الفقراء لا يعذب على منع زكاة كان يكون منه ، لو أولي مالا ، فالأطفال الذين هم أضعف منه وأقل قوة أولى أن لا يعاملوا بمثل هذه المعاملة وبالله التوفيق .

وقد قيل أن أمرهم يجري على ما ورد به الخبر عن النبي ﷺ : « من انه تؤجج لهم نار يوم القيامة ، ويؤمرون بدخولها ، فمن هم اصرف بها إلى الجنة ، ومن أبي أمر به إلى

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب القدر » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « القدر » حديث

(٢) التوبة : ٣٣

(٤) الصف : ١٣

رقم ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ .
(٣) الصافات : ١٧١

النار ، وقال الله عز وجل : إياي عصيتم ، فكيف لو رسلني بالغيب أتتكم ، (١) . وليس هذا الحديث ثابت ، وهو مخالف لأصول المسلمين ، لأن الآخرة ليست بدار إمتحان . فإن المعرفة بالله فيها تكون ضرورة ، ولا محنة مع الضرورة ، لأن الأطفال هناك لا لهول من أن يكونوا عقلاء أو غير عقلاء . فإن كانوا عقلاء كانوا مضطرين إلى المعرفة ، فلا يليق بأحوالهم المحنة . وإن كانوا غير عقلاء ، فهم من المحنة أبعد .

فان قيل : ولم ، اذا كانوا مضطرين إلى المعرفة لم يجوز أن يكونوا ممتحنين ما وراء المعرفة .

قيل : لأن سائر الطاعات تقع بالمعرفة ، فإذا وقع الإمتحان وقع ما وراءها ، وإذا سقط الإمتحان بها لم يثبت فيما وراءها . ولو لا ان هذا هكذا لجاز أن يؤمر الكفار إلى الآخرة بامر ، بعد أن عرفوا الله ضرورة واعترفوا به ، فإذا انتهوا إليه ادخلوا الجنة . وأن يمتحن الفقراء بأن يؤتوا في الآخرة مالا ، ثم يؤمر قوم ان سلوهم منه شيئاً ، فمن أعطى أدخل الجنة ، ومن أبى أدخل النار وعذب عذاب مانع الزكاة . فإذا لم يجوز هذا لم يجوز مثله ، وعليه ان مرجع هذا الحديث إلى انهم يقدمون على كفر ، لو كفروا في الدنيا لكان يقع منهم . وقد بينا أن التعذيب على مثله لا يكون . وأيضاً فان دلائل الشرع قد استقرت على أن التخليد في النار لا يكون إلا على الشرك ، وامتناع الصغار في الآخرة من دخول النار المؤججة ليس بشرك ، فكيف يجوز أن يخلدوا لأجله نار جهنم .

فان قيل إذا لا يخلد المسلم بمعاصيه لأنه مؤمن ، فهؤلاء لا إيمان لهم مكتسباً . قيل : والكفار إنما يخلدون لكفرهم ، وهؤلاء لا كفر منهم أصلاً . فثبت بهذا كله ان هذا الحديث مخالف لأصول المسلمين ، ولا يجوز إثباته ، وبالله التوفيق .

فصل

وأما ولدان المسلمين ، فقد توقف فيهم من توقف في ولدان المشركين ، فقال : إذا كان كل منهم معامل بما علم الله تعالى منه انه فاعله لو بلغه ، فكذلك ولدان المسلمين .

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

واحتج بما روى ان صبياً مات لرجل من المسلمين فقالت عائشة رضي الله عنها :
(يا رسول الله ، طوباه ، عصفور من عصافير الجنة لم يدرك شرأ ، ولم يعمل به . فقال النبي ﷺ
أو غير ذلك يا عائشة ! ان الله تعالى خلق للجنة أهلاً ، خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم .
وخلق للنار أهلاً ، وجعلها لهم وهم في أصلاب آبائهم) (١) .

فما مضى ان ما يروى عن قول النبي ﷺ في أطفال المشركين : (الله أعلم بما كانوا
عاملين) (٢) . يحتمل أن يكون معناه غير ما يقول المحتج به .

وأما هذا الحديث الآخر ، فيحتمل أن يكون انكار النبي ﷺ على التي قطعت : إن
الصبي في الجنة ، لأن القطع في ذلك بإيمان أبويها ، وقد كان يحتمل أن يكونا منافقين ،
فيكون الصبي ابن كافر . فيخرج هذا على قول من يقول : قد يجوز أن يكون ولدان
المشركين في النار ، وقد يحتمل أن يكون انكر ذلك لأنه لم يكن أنزل عليه في ولدان
المسلمين شيء ، ثم أنزل قوله عز وجل : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم
ذريتهم ﴾ (٣) . فأخبر عز وجل : ان الذين آمنوا في الحياة الدنيا وجعل ذرياتهم اتباعاً لهم
في الإيمان ، فانه يلحق بهم ذرياتهم في الآخرة . فثبت بذلك ان ذراري المسلمين في الجنة .
جاء عن النبي ﷺ انه قال : (سألت ربي عز وجل أن يريني أهل الجنة وأهل النار ،
فجاءني جبريل وميكائيل في اليوم فقالا : انطلق يا أبا القاسم ، وذكر الحديث إلى أن قال :
وأنا أسمع لفظ الصبيان ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هم ذرية أهل الاسلام الذين
يموتون قبل آبائهم ، تكفل بهم ابراهيم صلوات الله عليه حتى يلحق بهم آبائهم) (٤) . ففي
هذا الحديث أيضاً بيان انهم في الجنة ، والله أعلم .

فصل

وإذا سبى الصبي من دار الحرب ومعه أبواه أو أحدهما ، فدينه دين من معه من أبويه
لأنها بيعة يان على كفرهما بعد السبي ، فكان في ذلك تابعاً لهما كما كان عند الولادة تابعاً لهما

(١) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، حديث رقم ٨٢ . وفي صحيح مسلم « القدر »
باب ٣١ .
(٢) ورد في صحيح البخارى « كتاب القدر » باب ٣ .
(٣) الطور : ٢١ .
(٤) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

والله أعلم ، فان سبي وحده فدينه دين السابي لأنه وليه الذي لا أولى به منه كفالة وحمل مؤونة وغيرهما . فقام في دينه مقام أبويه كما قام في الولاية والكفالة مقامهما والله أعلم .
 وإذا أسلم أبو الطفل أو أحدهما كان الطفل مسلماً ، فأما إذا أسلم الأبوان معاً فلان دينه دين الأبوين وكذلك كان في حال كفرهما كافرين ، فوجب أن يكون في حال إسلامهما مسلماً ، وبأن أسلم أحدهما صار مسلماً ، لأن الجمع بين الإسلام والكفر له غير ممكن . فكان الإسلام أغلب لأنه أحق والكفر باطل ولن يغلب الباطل حقاً . قال الله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ .

وإن أسلم الجد فقد قيل : يكون الولد مسلماً وقيل : لا يكون ، والأولى أن اب الصغير إن لم يكن حياً ، وكان جده يكفله ، فإسلامه له إسلام ، وإن لم يكن الجد عليه ولاية ، فليس إسلامه بإسلام ، لأن المعتبر هو الولاية والكفالة ، ألا ترى أنه لو سبي دون أبويه لكان دينه دين السابي دون الأبوين ، وكذلك إذا صادف الولاية للجد بموت الأب أو عتقه أو رقه ، وجب أن يكون إسلامه كإسلام الأب ، وإذا كان الأب حياً ، والولاية له ، فإسلام الجد غير معتبر كما لا يعتبر إسلام السابي إذا كان مع الصغير أبواه أو أحدهما ، والله أعلم .

فان قيل : إن كان دين الصغير دين وليه ، فينبغي أن يكون دينه دين السابي ، وإن كان معه أبواه ، لأنه لا ولاية لهما عليه وإنما هي للسابي . وينبغي إذا أسلم الأبوان وهما رقيقان أو أحدهما أن لا يصير بذلك مسلماً .

فالجواب : إن الأصل في هذا الباب أن الولد تابع في الدين لأبويه ، فإذا ولد بين كافرين كان كافراً بكفرهما ، لأنه جزء منهما ، على السياق الذي تقدم تقريره في الباب الأول . وإذا سبوا جميعاً كان حكمهم حكمهما ، لأن السبي لم يوجب تغيير دين الأبوين ، فكان الولد تابعاً لهما في أن يبقى على دينه لبقائهما ، وأمكن بهذا الاتباع بعد أن كان سبي الواحد قد ضمهم فكانوا في الإجماع بعد السبي كما كانوا قبله .

وأما إذا سبي وحده فهذا المعنى غير موجود لأنه لا سبي في الأبوين ، فيقال : إن سبيها إذا لم يوجب تغيير دينهما ، كان الولد في ذلك بمنزلة لهما ، وإذا لم يتبها اتباعه إياها

وكانت ولايته وكفالته قد صارت إلى السابي ، ولم يكن للصغير بد من دين ، كان السابي أولى بان يجعل دين الصغير دينه ، فكانت الولاية لترجح السابي بها على غيره بعد أن فات اتباع الصغير أبويه ، وذلك لا يوجب أن يكون دينه دين السابي مع وجود أبويه .

فإن قيل : فلم لا تركتموه تبعاً لوالديه في دينها ، وإن كان منفرداً عنها ، وما أنكروتم أنه إذا سبي معها كان تابعاً لها في دينها لأنه صغير ، فكذلك يتبعها . وإن سبي وحده لأنه صغير وليس سبيه وحده أكثر من موت أبويه ، ولو ماتا لم ينقطع بذلك اتباعه إياهما في الدين ، فلم لا كان سبيه وحده كذلك ؟

قيل : إن السبي إذا كان يقطع حقوق المسيبي ولم يغير دينه إذا كان بالغاً عاقلاً صار ذلك اقراراً مبتدأ له على دينه ، فنزل ذلك منزلة عقد الذمة ، ألا ترى أن المسيبي لا يقبل على الكفر الذي كان يقبل عليه حين كان حزبياً ، كما لا يقبل الذمي على الكفر الذي كان عليه حين كان حزبياً ، ومعلوم أن الصغير يتبع في الذمة أباه ، وكذلك يتبع ولد المسيبي أبويه . وإذا كان هذا هكذا لم يحز إذا أسبي وحده ومات الأبوين هذا المعنى أن يثبت الولد فيعود أصلاً في كفره بعد ما كان تابعاً ، وإذا لم يثبت ذلك له وهو لا يحل قبله ولا يمكن إجباره على تغيير الدين فليس إلا أن يسلب كفر أبويه ويجعل دينه دين غيره . ثم كان السابي أولى الناس به فجعل تابعاً له في دينه ، وكان هذا هو الذي يقتضيه صغره ، وإلا أبقاه على كفر أبويه والله أعلم . وأما إذا مات أبواه وهو صغير ، فإن الكفر استقر منها بالموت ، واستحال أن يوجب ذلك زواله عنه ، وهو تابع لها فيه .

فإن قيل : فلم لا يستقر فيه تابع . قيل : لم يستقر حكماً ، إن المستقر لمجزهما بعد الموت عن تعبير الدين ، ولو كان الاستقرار حكماً لتبهما فيه والله أعلم .

فأما إذا سبي أبواه فالسبي أيضاً لم يضمهم حتى إذا صار أبواه مقرين على كفرهما صار مقرراً مثلها ، فبقي في الكفر أسوة باهل داره كما لو سبي وحده لكان في الدين أسوة بسابيه والله أعلم .

وأما إذا أسلم أبو الصغير وهما عبدان ، فانهما إن كافا سبياً معه ثم أسلما عند السابي أو عند من باعه السابي إياهما أو وهبهما له ، كان بذلك مسلماً . وإن سبي الصغير دونهما ثم أسبيا ، سواء سبيناهما من سبي الصغير أو غيره ، ثم أسلما لم يصير الصغير مسلماً بإسلامهما ،

لان السبي إذا جرى عليهم معاً ، فقد حدث لهما اقرار على كفرهما بالسبي ، ولست أعني بالاقرار في هذا الموضع أكثر من ان دينهما لم يتبدل بالسبي كما تبدل ذهابهما فأوجب ذلك أن يكون الصغير تابعاً لهما في التقاء على ذلك الكفر ، كما كان تابعاً لهما في نفس الكفر حين حدث بينهما .

وأما إذا سبي وحده ، ثم سبي الابوان ، فان انفراده بالسبي قد أوجب تغيير دينه ، فلا يعود تابعاً لهما بسبي يحدث عليهما ، لان حال الاتباع حال يحقق الولد مع أبويه كالملوق الذي هو حال يحدث له مع أبويه ، والسبي الذي هو حال له مع أبويه . فإذا فات امكان الاتباع لانفراده بوقوع السبي عليه ، لم يعد هذا الحكم ، بل يسبي أبواه بعده فيجتمع معهما قياساً على ان الميراث إذا كان يستحق باتفاق الدينين عند الموت ، فان كان ذلك إذا فات عند الموت لم يعد باسلام يحدثه الولد الكافر بعد موت الاب ، وكذلك هذا ، وإذا لم يعد تابعاً لأبويه — إذا سبوا بعده — في الدين ، فسبوا ، أسلموا بعد ذلك أو لم يسلموا .

وأيضاً فانه إذا سبي وحده لم يخل سايه من أن يكون مسلماً أو كافراً : فان كان مسلماً فمن المحال أن يعود الصغير الذي صار مسلماً باسلام سايه إلى الكفر ، إذا لحق به أبواه ، لأن الله عز وجل لا يقبل الكفر بعد الإسلام ولا يقرر أحداً عليه ، وإذا كان كافراً غير كفر الابوين ، والانتقال من كفر إلى كفر غير مقبول من أحد أيضاً ان كان كفره كفر الصغير وأبويه والعلة فيما ذكرت بها ، وهي تجمع الاحوال كلها من أن حال الاتباع حال يتجدد للولد مع أبويه ، فلما فات امكان الاتباع إلى الحال التي تحدث وهي السبي دون أبويه ، لم يعد هذا الحكم بأن يلحق به أبواه من بعد فيجتمعوا ، وإذا كان الامر على ما وصفنا لم يصير مسلماً باسلام أبويه لان كفره لم يكن من قبلها ، فيزول بزوال عنها والله أعلم .

فصل

وإذا حكمنا للمولود بين كافرين بأنه كافر ، فان غاية هذا الحكم أن يبلغ الصغير ، فإذا بلغ فله حكم نفسه . فان اختار دين أبويه ، كافراً من ذلك الوقت بكفر نفسه ،

وإن مات على ذلك لم يدخل الجنة أبداً . وإن اختار الإسلام كان مسلماً ، فان قتله قاتل قبل أن يمكنه اختيار دين أبويه ، والإسلام ضمنه لأنه على جملة الدين المتقدم إلى أن يختار تركه فيسلم ، وإن عمل قبله وهو كافر عليه القصاص ، وإن أمكنه الاختيار فلم يفعل ولم يسلم بذلك كان مختاراً لدين أبويه وترك ، فان قتله قاتل في هذه الحالة ضمنه .

وإذا أسلم أبواه أو أحدهما وهو صغير كان مسلماً فان بلغ بقلبه أن يحدد الإسلام ، فان غفل عن ذلك ولم يعلمه أصلاً فهو على حكم الدين المتقدم إلى أن يمكنه الإسلام أو غيره ، ولا إمكان مع الجهل ولا مع السهو والغفلة ، فان قتله على ذلك قاتل عمداً فعليه القصاص إلا أن يكون مسلماً ، فلا يقبض منه للشبهة ، وهي انه بالغ ، لم تثبت له حكم الإسلام بنفسه ، وإن أمكنه الاختيار فأسلم ، كان كسائر المسلمين ، وإن كفر وبالاسلام فان اختار كفرأ سوى دين أبويه الذي كان له لم يترك ، وإن أراد الرجوع إلى دين أبويه قبل ان يسلم ، فقد قيل : يترك ، لأنه وإن كان كافراً بكفرهما في بدء امره ، ثم أزيل الكفر عنه بما عدم من اتفاق أبويه على الكفر ، فلما صار له علم نفسه زال حكم الاتباع عنه ، فان عاد إلى ذلك الكفر فكان ما بينهما لم يكن .

وقيل : لا يقر عليه لأنه كفر بعد إيمان وهذا أولي . والاول مبني على انه صار مسلماً تبعاً لأبويه لما أسلم . والثاني مبني على انه كافر بكفرهما تبعاً لهما ، فلما أسلمما وهو صغير زالت عليه كفره ، فلم يجوز ان يكون كافراً مع زوال علة الكفر .

وكل كافر زال كفره فلا يزول إلا إلى الإسلام ، لأنه لا ضد له سواء . وإن كان المولود بين المسلمين فهو مسلم ما دام صغيراً ، فاذا بلغ كان عليه ان يحدد الايمان ، فان غفل عنه ولم يعلم ذلك أصلاً فهو على حكم الاسلام ، وإذا علم ان عليه التجديد فلم يحدد الاسلام وهو يمكنه ، فلا يقر على كفره ، بل يكون كسائر المرتدين والله اعلم .

القسم السابع

باب القول فيمن يصح إيمانه ولا يصح

أجمع المسلمون على أن البالغ العاقل من الكفار إذا أسلم طائفاً صح إسلامه . وأجمعوا على أن الطفل إذا لقن شهادة الحق فقالها متلقناً وهو لا يميزها ولا يعرف ما يراد بها لم يكن ذلك منه إسلاماً .

فأما المراهق الذي يدري ويميز ويعرف من كلمة الاخلاص لفظها وتفسيرها أو يعلم في الجملة أنها شهادة الحق ، فقد اختلفوا فيه : إذا تكلم بها مريداً للإسلام فكان أشبه قول المختلفين عندنا أن إسلامه لا يصح لأنه غير مخاطب في كتاب ولا سنة ، فكان كالمعتوه لأن الإسلام شهادة أو اقرار والصبي ليس من أهل واحد منهما ، فثبت أنه ليس من أهل الإسلام بنفسه ، ولأنه لو أسلم أبواه وأمه صار مسلماً بإسلامه ، ومن ثبت له ذلك الإسلام بغيره لا يثبت له بنفسه كالطفل الصغير إذا لقن والمعتوه ، ولأنه لم يسلم لم تجب النار عليه ما لم يكفر وهو بالغ . فدل على أنه لا يصح إسلامه بنفسه كالطفل لأنه ليس عليه جهاد المشركين في ماله لصغره ، فدل ذلك على أن الإسلام له بنفسه كالطفل ، ولأن عقد الإسلام عقد لازم ، والصبي ليس من أهل العقود اللازمة بنفسه كالبيع والنكاح والطلاق . ولأن الإسلام ضمان ، وضمان الصبي لا يصح كما لو ضمن دين رجل ، ولأن رده ليست بردة ، فكذلك إسلامه ليس بإسلام .

والدليل على أن رده ليست بردة أنه لا يعاقب عقوبة المرتدين وهو صغير ، وكل قول لم يؤخذ الصبي بعقوبته لصغره ، فإن ذلك القول موضوع عنه أصلاً وهو في حكم الساكت عنه كالقذف . وإذا كان كذلك ثبت أن رده موضوع عنه ، ولأن من لا ردة له لا إسلام له كالمجنون . ولأن الموجب لكفره كفر وليه وكافليه ، أعني أبويه ، وإسلامه لا يزيل كفرهما . فاستحال أن لا يثبت له الإسلام ، فإن الحكم لا يرتفع مع بقاء علته .

فإن قيل : بل العلة في كفره ، عدم الإسلام منه بعد وقوع المعرفة له به . قيل : هذا باطل ، لأنه لو كان بين أبوين مسلمين لم يكن قبل البلوغ كافراً . إذا لم يعقد الإسلام بنفسه بعد وقوع المعرفة له به ، فثبت أنه إذا كان بين أبوين كافرين ، فلأنما ألحقه حكم الكفر من قبل أبويه لا لما وصفت والله أعلم .

فإن قال قائل : ليس إذا كان الصبي كافراً لكفر أبويه ، وكان إسلامه لا يزيل كفرهما ، وجب أن لا يصح إسلامه . فإن الصبي المسي إنمّا يكون كافراً لكفر أبويه ، وإذا سباه مسلم دونها ، صار مسلماً ، وإن كان سبيه إياه لا يزيل كفر أبويه .

فالجواب : إن إسلام السابي يحمله مسلماً إذا سباه وحده دون أبويه ، فإنه نزل منه منزلة أبويه . لما يقل حق الولاية والكفالة عنها إليه ، فصار كان أسلم ، ولو أسلم لصار مسلماً بإسلامها . فكذلك إذا سباه مسلم وحده صار مسلماً بإسلامه .

فإن قيل : فقولوا إنه يصير مسلماً إذا سباه مع أبويه ، لأنه وإن كان سباه مع أبويه ، فإن حق الولاية يكون له عليه وعلى أبويه جميعاً .

قيل : وإن سباه مع أبويه فإن حق الولاية والكفالة يحتاج إليها الصغير في تربيته ، وتنشئته تكون لأبويه . ولا يكون للسابي أن يحول بينها ولا بينه ، ولا يجوز بيعه إياه دونها ولا بيعها دونه ، وإن كانت أمه ترضعه لم يكن له أن يحول بينها وبين أرضاعه ، ولأن في حق الكفالة التي يتبع لها الرجال مباشرة ، وإشارة بها على الأم ما كان يكون له من قبل ، فلذلك كان تابعاً لها في الدين . وأما إذا سبي وحده فقد بطل عليها ما كان لها فيه من ولاية وكفالة ، وصار للسابي ، فلذلك صار دينه دينه والله أعلم .

فإن قيل : أليس ولد الأمة يكون رقيقاً لرق أمه ، ثم قد يمتق وأمّه رقيقاً بحالها فيعتق ، ولا يدفع عن الحرية لأجل أن رقه كان حكماً لرق الأم ورقها دائم . فكذلك الشاة إذا ماتت نجس جلدها لموتها ، ثم يدمغ فيطهر والموت قائم فيه ، ولم يرتفع بالدفاع عنه . فلم لا اجتزأ أن يكون الصغير كافراً بكفر أبويه ، فإذا عقل وميز واسلم صح إسلامه . فإن كان الكفر في أبيه فلأنما الجواب : أن رق الأم بشرائطه علة لمعوق الولد رقيقاً ، فأما دوام رقه فليس معلولاً برك الأم .

وكذلك الموت بشرائطه علة لتنجيس الجلد ، فأما دوام نجاسته فليس معلولاً بالموت ،

لكن علة دوام الرق تمسك المولي بحقه منه ، وعلة دوام النجاسة إهمال الجلد وإخلاقه من الدباغة ، وأما علة كفر الصغير في حال العلق وبعدما فكفر الوالدين اللذين هما ولياه وكافلاه بانفسها لا غير ، وذلك لا يرتفع باسلامه ، فلم يجوز أن يكون مسلماً مع بقاء ما يوجب كفره .

فان قال : فاني أقول علوق الولد كافراً لكفر أبويه ودوام كفره إنما هو لتمسكه به وامتناعه من الاسلام .

قيل : لو كان كذلك لم يصير مسلماً باسلام أبويه ، كما لا يمتق الولد المنفصل بعتق أمه ، وفي وقوع الإجماع على أنه يصير مسلماً ما دل على أن كفره من قبل أبويه . وأيضاً فالمولود بين مسلمين يلزمه إذا بلغ أن يتشهد شهادة الحق ويحدد الايمان ولا يلزمه ذلك قبل البلوغ وإن كان يدري ويميز لزوماً لو تركه لكفر ، فكذلك المولود بين كافرين كان يلزمه الايمان إذا بلغ فلا يلزمه قبل البلوغ ، لزوماً إذا تركه كفر . فصح ان كفره من قبل أبويه اللذين هما ولياه وكافلاه بانفسها والله أعلم .

قالوا : روينا أن علياً رضي الله عنه أسلم وهو صغير لم يبلغ وان حكمه ، فدل ذلك على صحة الصغير .

فالجواب : ان الخبر ورد بأن النبي ﷺ دعاه يومئذ إلى الإسلام والصلاة فأسلم وصلى ، فصح إسلامه وصحت صلاته . وانت تقول : لا صلاة للصغر ، فالحديث حجة عليك . وأما أنا فأقول إنما أمره رسول الله ﷺ بالإسلام والصلاة ، فهو أحد شيئين : اما أن يكون خصه بالخطاب لما صار من أهل التمييز والمعرفة دون سائر الصغار ، ليكون ذلك كرامة له ومنقبة ، فلما توجه عليه الخطاب والدعوة فلا يصح منهم الإسلام .

أو يكون خطاب النبي ﷺ إياه بالدعاء الى الإسلام والصلاة يومئذ على انه بالغ عنده ، لأن البلوغ بالسنتين ليس مما شرع في أول الإسلام ، بل ليس يحفظ قبل قصة ابن عمر في أحد والحدوق في ذلك شيء . فالظاهر أن الناس كانوا يحجرون في ذلك على رأيهم وما تعارفوه وتوارثوه : من أن الصبي من لا يمكن أن يولد له ، والرجل من يمكن أن يولد له . وكان علي ابن عشر سنين لما أسلم . وظاهر من قال : انه ابن عشر انه استكمل عشرأ ودخل في الحادي عشر ، ومن بلغ هذا السن فقد يمكن أن يولد له ، ولهذا قلنا ان امرأة

ابن العشر إذا جاءت بولد كان لاحقاً به حتى يبلغ ، فينفيه باللعان .

وان كان هذا هكذا فلا شبه أن علياً رضي الله عنه كان في حكم يومئذ بالغاً ، فلذلك صح إسلامه ، وتوجه الخطاب عليه . فلما شرع البلوغ بعد ذلك بالسنين ، ونظر إلى السن الذي كل من بلغها جاز ان يولد له دون السن الذي يندر ممن بلغها للإيلاد، كان من قصرت سنوه عن ذلك الحد صغيراً في الحكم ، ولم يجب أن يصح إسلامه ، وهذا أولى ما يقال في هذه القصة والله أعلم .

قال القائل : الايمان من موجبات العقول ، فاذا عقل الصبي الايمان الزمه عقله أن يؤمن فاذا آمن وجب يعتد بإيمانه لأنه فعل ما التزمته الحجة بفعله .

فالجواب : ان الذين يذهبون إلى أن الوجوب والسقوط يدر كان في بعض الأشياء بالعقل ، وان الإيمان بالله جل ثناؤه حسن لعينه ، والكفر به قبيح لعينه ، لا يزيدون في الإيمان على ما أصف ، وهو أن العاقل إذا استدل فعرف أن يعتقد - ومعنى يعتقد أن يوطن القلب على أن ما ظهر له صحيح ، ثم ان يحدث بما عرف فأخبر عنه صدق ولم يكذب . فاما أن يكون عليه في قضية العقل أن يخبره عما اعتقده ، ويتحدث به فلا ، وليس ما يلزمه أن يصدق أو يحدث خاصاً لما عرفه من الله تعالى ، ولكنه عام لكل ما عرفه وأدركه .

وأجمعنا على أن الإيمان لا يتم بمجرد الاعتقاد ولكنه يحتاج معه إلى الإقرار باللسان ، وإذا لم يكن إضافة وجوب الإقرار إلى العقل لم يحز أن يقال : ان اقرار الصبي إيمان لأجل انه يعقل والإيمان من موجبات العقول . ويدل على ما قلنا ان العقلاء اختلفوا في ان اقرار من كمال الايمان حتى لا يتبقى الكفر إلا به ، أو هو من شرائعه وفروعه ، وليس من شرطه كماله ، ولم يختلفوا في وجوب الاعتقاد بعد حصول المعرفة ، فلو كان الإقرار من موجبات العقول لم يختلفوا في وجوبه كما لم يختلفوا في الاعتقاد ، وكما لم يختلفوا في انه ان قصد الاخبار عن معتقده كان عليه أن يصدق ويخبر بالحق والله أعلم .

وأيضاً فان الإيمان الذي يضاف وجوبه إلى العقل ، هو الإيمان بعد المعرفة الناشئة عن الاستدلال ، والصبي لا يكمل لمثل هذه المعرفة ، فلم يكمل لوجوب الإيمان عليه بالعقل . ويدل على ما قلنا ان الكفار الذين تقع لهم معرفة الباري جل جلاله لما يرون ان الإيمان به

واجب ، وإن كانوا بأنفسهم عقلاء مميزين ، بل كان ذلك عندهم داخلاً في أبواب المحال .
وإنما رأى أن الإيمان واجب بالعقل من حصلت له المعرفة ، فثبت أن الإيمان الناشئ
عن المعرفة هو الذي يضاف وجوبه إلى العقل والمعرفة في قصة العقل له أن يكون
اضطرار ، وليس ذلك قولنا . وأما أن يكون استدلالاً - وهو قولنا - والصبي لا
يتكامل الاستدلال المؤدي إلى المعرفة فلم يمكن أن يضاف وجوب الإيمان عليه إلى العقل
والله أعلم .

وأيضاً فإن الإيمان بالله لا يتجرد على الإيمان بالنبي ﷺ ، ووجوب الإيمان بالنبي ﷺ
يقع لدعوته ، ودعوته خطاب يذيع بالسمع ، فلما لم يكن الصبي حط في الخطاب
المسمعي ، دل ذلك على أن حجة النبوة ، إنما تقوم عليه ، فتلزمه إذا بلغ ، وفي ذلك دليل
على أنه لا يكون مسلماً - وإن آمن بالله - ما لم يبلغ مؤمن برسوله ﷺ .

فإن قيل : أرأيت أن قلنا أن المقدار الذي يلزمه بالعقل من الإيمان يصح منه إلى أن
يصير من أهل الزيادة عليه .

قيل : ليس لك أن تقول هذا ، لأنك تقبل منه الإيمان بالله ورسوله ، وتنزله في غاية
الأحكام الشرعية منزلة الكبير . فلو كنت صححت منه ما يوجب العقل دون غيره ، لوجب
أن لا يلبسه الإيمان كله ، وهو إنما يلبس ببعضه .

وأما من يخالف هذا الرأي فإنه يقول : العقل يدرك به الحسن حسناً والمقبح قبيحاً ،
أو المتحسن والمقبح غيره . كما أن البصر يدرك به الأسود أسود والأبيض أبيض ، والمسود
والمبيض غيره .

والدلائل على الباري جل ثناؤه ووحدانيته وقديسيته قائمة ظاهرة متجلية للعقول .
فأما أن ذلك المعروف المدل يجب اعتقاده ، ويقبح أغفاله ، ويجب الإقرار به ويقبح
كتمانها ، فهذا من فرائض الأمر والنهي المسموعين ، وليس واحد منهما حسناً لعينه ولا
قبيحاً لعينه . وكذلك الصدق والكذب والعلم والعدل وشكر المنعم وكفرانه .

ولولا أن هذا هكذا لوجب إذا بلغ الصبي حد من يعقل ويميز ، واستدل بأدنى ما
يقدر عليه أو بما ينمي عليه غيره ، فحدث له عنه المعرفة ، فعرف واعتقد وأخبر عن
النبي ﷺ إعلامه ، ووجد ذلك متتابعاً في الناس فحدث له المعرفة به واعتقده أن

يكون مؤمناً ثم يلزمه إذا قررت عنده الشرائع العامة المتوارثة ، ووقعت له المعرفة بها أن يؤديها ، لأن إفادة العقل صاحبه ، المعرفة بما يوجبه الاخبار العامة لا يتأخر لأجل أن الصبيان غير مخاطبين ، وإذا وقعت المعرفة وجب الاعتقاد ، ثم إذا كان المعتقد أمراً فطاعة الله واجبة بالعقل عندهم . فينبغي أن يجب التقيد فلا يبقى شيء من الشرائع سوى ما جاءت به الأخبار الخاصة ، الا يلزم الصبي العاقل ، وفي هذا بعض الشرع المتفق عليه وإزالته عن سنته ، فصح وثبت أن المعول في الفرائض كلها على الأمر ، والأمر غير متوجه على الصبي ، فلم يكن له بنفسه إيمان ولا كفر والله أعلم .

فان قال : لا يلزم ما ذكرت لأن الصبي وإن أفاده عقله : المعرفة بما توجبه الأخبار العامة عن أمر ونهي ، فإن تلك الأوامر والنواهي إنما هي على البالغين ، فلا يلزم الصبي بتنفيذها ، لأن معرفة الواحد فرض على غيره ، لا يلزمه تنفيذه بنفسه .

قيل له : أما علمت أن أهل هذا القول يقولون : وكذلك الصبي وإن عرف ربه بعقله ، فلا يعرف أن فرضاً عليه توحيده والإيمان به ، وإنما يعرف ذلك بالأمر ، وهو أن عرف أن أمراً بذلك واقع من الله تعالى لم يلزمه امتثاله ، لأن الأمر للبالغ دونه ، وليس عليه بتنفيذ ما أمر به غيره ، والإيمان والشرائع في قولهم سواء والله أعلم .

وأيضاً فلو كان في العقل وجوب شيء وحسنه وسقوطه ضده وقبحه ، لم يحز أن يتأخر عن الصبي العاقل الخطاب الشرعي ، لأن المعرفة بما يخاطب تقع له المعرفة بما تركت في عقله ، فإذا صار محجوباً بموجب العقل وجب أن يصير محجوباً بموجب السمع ، لأن الخطاب يقرع سمعه ، كما المعقول يخطر بقلبه ، وصغره لا يدفعه عن المعرفة بواحد من الأمرين .

ولما كان من قول الأمة انه غير محجوج بخطاب سمعي دل ذلك على انه غير محجوج بدليل عقلي ، ولو كان في العقل الدليل الذي يقولون ، لم يحز إلا أن يكون محجوباً به . ولو جاز أن ما يحدث له من العلم بالمعقول فلما أجمعوا على أن حجة لا يقوم عليه بالسمع وهو صغير ، دل على انها لا تقوم عليه بالعقل . فثبت انه ليس في العقل هذه الدلالة التي يدعونها ، وإنما فيه احداث الحسن حسناً والقبيح قبيحاً ، فاما أن يكون حسن لعينه أو قبيح لعينه

ولا يـُـكون ، وإنما يحسن ما ينبغي فعله الأمر به ، ويصح ما لا ينبغي فعله بالنهي عنه وبالله التوفيق .

ويقال لهذا القائل : قال الله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ (١) ومعلوم ان العقول لا تعدم حينئذ ولكن تكون بحالها دالة على ما كانت تدل عليه من قبل ، ولكن خطاب السمع لما زال ، لم تعتد بعد ذلك بإيمان أحد ولا بتوبته ، وكذلك الكفار في القيامة تكون عقولهم معهم لا يعدمون منها شيئاً ، ولكن خطاب البعيد لما كان زائلاً عنهم لم يعتد بإيمانهم ، وأحسنوا أن الصبي المراهق عاقل يميز لحب الإيمان في عقله حسناً والكفر قبيحاً ، أليس خطاب البعيد غير متوجه عليه ! فما أنكرتم أنه لا إيمان له وبالله التوفيق .

وقال قائل : في الإعتراض على ما استشهدت به من العقول : ليس إذا كان الصبي لا يعقد النكاح والطلاق على نفسه ، بطل أن يعقد الإنسان على نفسه ، فإن أمه لا تعقد النكاح والطلاق عليه ، ثم لا يدل ذلك على أنها لا تعقد الإسلام عليه لعقده على نفسها .

فالجواب : ان الصبي لا يعقد شيئاً من العقود من نفسه ، فذلك لا يعقد الإسلام الذي هو أشرف العقود وأعلاها ، وجواز أن تعقد الأم عليه الإسلام لعقده على نفسها مع عجزها عن عقد سائر العقود عليه ، لا يدل على جواز أن يعقد بنفسه الإسلام على نفسه ، مع عجزه عن سائر العقود على نفسه ، لأنه تابع في الدين لغيره في الجملة ، والتابع يمنع أصلاً من أن يولد يتبع في الحرية والرق أمه مرة وأباه أخرى ، ولا يمكن أن يكون أصلاً في واحد منها ، فيعلق جزءاً وأبواه مملوكان ، لا غرور بينهما أو رقيقاً وأبواه حران . فكذلك الصغير قد يتبع في الإسلام أمه مرة وأباه أخرى ، ولا يمكن أن يكون أصلاً في الدين فيسلم فيكون مسلماً وأبواه كافران .

وأيضاً فإن هذه المعارضة غير صحيحة لأن المرأة لا تلي على ولدها الصغير نكاحاً

ولا طلاقاً ، لا تلي عليه إسلاماً وإنما يسلم بنفسها فيصير الولد في الحكم مسلماً ، فلم يظهر
بين الإسلام والنكاح والطلاق من الوجه الذي أراده السائل فرق ، والله أعلم وبه
التوفيق للصواب .

فصل

وإذا أسر الحزبي وهو من المعطلة أو عبدة الأوثان ف قيل له : لتسلم أو لنقتلك ، فاسلم ،
صح إسلامه في ظاهر الحكم . فان لم يؤمن من قلبه فهو عند الله تعالى منافق ، وإنما كان
إسلامه صحيحاً في الظاهر ، لأن إكراهه عليه كان حقاً إذا لم يكن بدين الله تعالى ديناً ،
فان الله تبارك وتعالى لا يرضى من قادر على التدين والتعطل ، ولا يسوغ أحداً أن يشرك
به شيئاً إذا كان لا الاكراه لحق لم يكن هو المكروه والمختار فرق في الحكم كمن أكرهه على
طلاق لحق ، أو تفسير اقرار محمل ، فان طلاق ذلك وتفسير هذا كالواقع من المختار .

فان قيل : ولم يكره أحد على الإيمان ، والإيمان لا يصح إلا بالإعتقاد ، والإكراه على
الإعتقاد لا يتأتى لأنه معيب .

قيل له : لأنه ليس وراء الإكراه إلا الإمساك والتجافي عنه مكان الإكراه أعدل ،
لأنه قد ينتبه على الإكراه على قبح الكفر وضيعته ، فيحدث له ميل إلى الإسلام ورغبة
فيه فيكون إيمانه إيمان مختار ، ولو ترك لتمادي في كفره ، فيكون الإكراه أشبه باستفتاح
الكفر واستحبابه من الإمساك والله أعلم .

وأيضاً فإن الكافر إذا كان قد سمع دين الإسلام ودعوة النبي ﷺ وبعض ما جاء به
من الاعلام ، فالأغلب ان امتناعه من الإسلام عناد وليس عن شبهة واقعة له . فإذا حمل على
الإسلام بالوعد فاسلم ، فالظاهر ان إسلامه لتبين الحق له ، وان كان أخره إلى أن يوعد
عليه ، وإنما الإكراه إنما أثر في إزالة عناده لا في تقرير صحة الإسلام .

كما ان المريض الذي يعرض عليه الدواء فيمتنع من شربه إذا حمل عليه بوعيد فتناوله
لم يخل من أن يكون مستشفياً بالدواء وان كان آخر تناوله إلى أن يوعد عليه ، وكان

اثر الاكراه ازالة الإمتناع لا تحقيق شفعة الدواء عنده . فلهذا جعل مسلماً في ظاهر الحكم وان كان إسلامه عن إكراه والله أعلم .

مسألة وأما الذمي إذا استكرهه المسلمون على الاسلام فأسلم ، لم يلزمه الاسلام إلا بأن يقر بأن رأيه تغير وأسلم مختاراً لأنه لم يكن لهم ان يستكروه بعد ثبوت الذمة له ، فكان ذلك كاستكراه الكفار المسلم على الكفر . ومعلوم انه ان تكلم بالكفر غير مختار لم يكفر . فكذلك الذمي إذا استكروه على الاسلام فكلم بالحق غير مختار لم يسلم .

فان قيل : الاكراه على الاسلام اكراه على حق فلم لا كان إسلام المكره كاسلام المختار . قيل : الاكراه على الحق ينبغي أن يكون بحق حتى يصير المكره كالمختار . فاما إذا كان ما يقع الإكراه عليه حقاً في نفسه ، الا أن الاكراه عليه غير مملوك ، للمكره فيه حكم المختار .

ألا ترى أن رجلاً من عرض (١) الناس لو استكروه رجلاً على بيع شيء من ماله في دين عليه في بلد فيه سلطان أو قاض لم يلزمه ذلك البيع . ولو استكروه عليه الحاكم فباع لزمه ، وما افترقا إلا لأن الحاكم يملك والأجنبي لا يملكه ، والبيع إذا لم يوصل إلى البعد إلا به حق في الحالين ، فكذلك إكراه الذمي على الاسلام غير مملوك للمسلم ، وان كان الاسلام حقاً ، فواجب أن لا يكون المكره عليه كالمختار والله أعلم .

فان قيل : لم لا قلتم ان المسلمين إذا استكروهوا الذمي ساروا بذلك فاقضين عهده ، فإذا أسلم كان ذلك كإسلام من لا عهد له .

قيل : عهده لا ينتقض ، فنقض من ينقضه من المسلمين من غير جنائية يحدثها أو اختلاف شرط أن يكون منه ، وليس نقضهم عهده كنقضه ، لأن العهد له وهو المحتاج إليه ، فإذا نقضه انتقض ، لأنه لا يضر بذلك إلا نفسه ، وإذا نقضه المسلمون من غير عذر لم ينتقض لأنه إنما عقد له دفعاً لما يخشاه من الضرر من جنائيتهم ، فلو لم يلزمهم وكان ينتقض أو ينقضوه لم يكن فيه فائدة واستوى وجوده وعدمه والله أعلم .

(١) من عرض الناس : أي من عامة الناس .

فصل

وإذا ارتد المسلم عن دينه وهو سكران أخذ به ، لأنه فيها عليه بمنزلة الصاحي الا ترى انه لو أقرب دين أو طلق امرأته أو أعتق عبده لزمه ، وهو في وجوب الصلاة يدخل الوقت كالصاحي . فكذلك الردة عليه ، فكان فيها كالصاحي . فان رجع إلى الاسلام وهو سكران صح إسلامه لأنه إقرار وعدل ويلزم نفسه به حقوقاً . فهو كمنكاحه وطلاقه وعتاقه وإقراره بالديون والجنايات ، فلما كان تلك يلزمه فالاسلام أولى أن يلزمه والله أعلم .

القسم الثامن

باب القول فيمن لم تبلغه الدعوة

إن كان في ناحية من الأرض قوم لم تبلغهم الدعوة فالقول فيهم : أن من كان منهم عاقلاً مميزاً متمكناً من الرأي والنظر ، إلا أنه لا يدين ديناً ، ولا يعرف لنفسه خالقاً ولا يعتقد رأياً من الآراء ، وإنما يعيش عيش البهائم ، فهو كافر ، إن قتله قاتل فلا شيء عليه . وإن كان يعتقد ديناً نظر فإن كان يعتقد ديناً مستقيماً في أصله كالنصرانية قبل أن يبدل إلا أنه لم يتحول عنه لأن دعوة نبينا ﷺ لم تبلغه ، فهذا مسلم ، إن قتله قاتل فعليه دية مسلم .

وسمعت بعض أصحابنا يقول : عليه القود (١) ، فإن كان يعتقد ديناً كان مستقيماً في الأصل إلا أنه يدل عن بيه بما خلط من الباطل فليس بمسلم وينظر فإن كان ذلك نصرانية أو يهودية مبدأه ففيه ثلث دية المسلم ، وإن كان مجوسياً ففيه دية أهل دينه ، وإن كانوا عبدة أوثان أو معطلين فهم كفار لا حرمة لهم ، ولا شيء على من قتلهم .

وإنما قلنا إن كان منهم عاقل مميز ، إذا رأى ونظر إلا أنه لا يعتقد ديناً فهو كافر ، لأنه وإن لم يكن يسمع دعوة نبينا ﷺ ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد الأنبياء الذين كانوا قبله صلوات الله عليهم على كثرتهم ، وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم ، وخالفوهم فإن الخبر قد يبلغ على لسان الموافق ، وإذا سمع أية دعوة كانت إلى الله فترك أن يستدل بعقله على صحتها ، وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فكفر والله أعلم .

وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبي ، ولا عرف أن في العالم من يثبت إلهاً ، ولا يرى أن ذلك يكون فاذا كان ، فأمره على الاختلاف : فمن ذهب إلى أن للمقول أحكاماً من نحو القطع ، فحسن الشيء أو قبحه أو سقوطه ، فإنه يقول : إن على هذا أن

(١) القود : القصاص .

ينظر في حال نفسه ويتكبر في أن وجوده على أي وجه كان أو يقسم ذلك ثوابه وفهمه ثم يستدل على الصواب منها بالدلائل الواضحة اللائحة بالحق المستنير بالصدق ، وإذا كان ذلك واجباً عليه فاعفله وأعرض عنه كان حكمه حكم المعرض عن الدعوة بعد أن بلغته والله أعلم .

وأما من لا يرى هذا الرأي فإنه يقول : العقل وإن كان طريقاً إلى المعرفة ، فينبغي أن يأتي الأمر بالاستدلال فيلزم ، أو يرد الأمر بالإيمان فيجب . وإنما إمكان معرفة الله تعالى بالعقل كما كان معرفة ما وعد الله به ، وإمكان سائر الأعمال التي تصلح لها الأعضاء والجوارح ، وإذا كان شيء من ذلك لا يلزم إلا بامر ، فكذلك هذه المعرفة . وإذا كان كذلك - وقد أخبر الله تعالى : ﴿ انه لا يرضى لعباده الكفر ﴾ ^(١) - صح ان لا يؤخر عنهم الأمر بالإيمان ، فلا يمكن إذا وجود من لم تبلغهم الدعوة إلى الإيمان ، ولا معنى لوضع هذه المسألة فيه ، والبحث انه كافر أو مؤمن ، والله أعلم .

فصل

وأما من كان منهم متمسكاً بدين مستقيم كان حقاً في وقت لم يبلغه الخبر عن غيره فهو مسلم ، لانه لا يصير محجوجاً بغيره ما لم يبلغه خبره . ألا ترى أن أهل قباء لم تلزمهم الحجة بتحويل القبلة إلى الكعبة ما لم يبلغهم الخبر ، ولذلك استداروا فبنوا ولم يستأنفوا ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ^(٢) بمعنى الرسول للتبليغ ، فمن (لم) تبلغه دعوة الرسل فكمن لم يرسل اليه .

ألا ترى أن الرسول إذا أوحى اليه وهو في بيته لم يصد قومه محجوجين بما أنزل عليه قبل أن يبلغهم ، فكذلك البعداء منه هذا حكمهم . وروى أن النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله ، وكان إذا بعث سرية يقول لأمرهم : إذا لقيت العدو فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وإني رسول الله . فلما لم يأمر بالقتال إلا بعد الدعوة علمنا ان الحجة لا تلزم من لم يسمع الدعوة إلا بأن

(٢) الإسراء : ١٥

(١) ورد في سورة الزمر - آية ٧ : « ولا يرضى لعباده الكفر »

يبلغها أمام القتال ، وهذا هو الذي لا يجوز غيره ، لأن القتال إنما هو على الدين فيستحيل أن يتقدم الاعلام بالدين لمن ينبغي أن يتقدم الدعوة والاعلام. فان وفقت الاجابة وإلا كان القتال بعد الإصرار والله أعلم .

وإذا كان الامر على ما وصفت ، وجب إذا قيل من ذكرت أن يكون فيه دينه مسلم لأنه مسلم هذا ما قاله فيه غيري ، وقائل هذا القول - وإن كان من أهل الفتيا - فيحتمل أن يكون غير ما قال : وهو أن يكون نصف الدية لانه ناقص الايمان ، والنبي ﷺ لما وصف المرأة بنقصان الدين ، من حيث انه لم يسمع بمحمد ﷺ ، فرسول خاتم النبيين وسيد المرسلين أول من يكمل دينه ، وإنه ان كان غير آثم وخرج لقصور الدعوة عنه ، فالمرأة أيضاً بما تدعه من الصلوات غير آثمة ولا حرجة ، ولم يمنع ذلك من حط دينها عن دية الرجل . ثم إذا لم تكمل الدية ، وجب نصفها قياساً على المرأة ، لانه لا أصل له يرد اليه غيرها ، ولا يقصر عن الثلث قياساً على أن أهل الذمة لانه لا إيمان لهم وهذا مؤمن إلا انه ناقص الإيمان كالمرأة .

وفي هذا القول لا قود على قاتله ، وإن كان الرجل يقبل بالمرأة لان النقصان في أصل إيمانه ، ونقصان دين المرأة في أحد فروع الإيمان لا في أصله ، فلما تساوى المسلم والمسلمة في أصل الإيمان ، وكان التباين بينهما في بعض الفروع ، تساوى في القصاص الذي هو أصل فاصل ، وتبايناً في الدية التي هي بدل وفرع . وأما من لم تبلفه الدعوة فانه لم يساو المسلم في أصل الايمان ولا في فروعه ، فوجب أن لا يساويه في النفس ولا في الدية والله أعلم .

فان قيل : أو كل من ينقص دينه تنقص دينه ؟

قيل : لا ! ولكن الصلاة تأتي الايمان التام ، والإيمان بالرسول يأتي الإيمان بالله ، فمن كان مسلماً بمجرد إيمانه بالله ، وكان ناقص الدين من حيث لم تبلفه دعوة رسول الله ﷺ فيؤمن به ، كان كالتي تم إيمانها بالله ورسوله أو كانت ناقصة الدين من حيث انها تحبض شطر أيامها في الاغلب ، فلا يمكنها أن تصلي ، والله أعلم .

وأما من كان متمسكاً بدين مبدل ، فحكمه حكم أهله في الضمان ومقدار الدية . لان ضمان الكتابي إنما يسقط بمناصبه المسلمين ، الا ترى أنه إذا اعتصم بذمة أو امان ضمن ،

والذي لم تبلغه الدعوة ليس بمناسب ولا مخالف ، فوجب أن يكون مضمونا .
فان قيل : بل ضمان الجاني إنما يجب إذا اعتصم بذمة أو أمان ! ألا ترى ان الناصب منهم
لا يضمن ، والذي لم تبلغه الدعوة ليس معتصما بواحد منهما ، فوجب ان لا يضمن .
قيل له : ان الذي قلناه اولى ، لان اصل الكتابيين من حسن ، كانوا مقرين على اديانهم
الضمان ، وسقوط الضمان حادت بحدوث الخلاف والمناسبة ، والخلاف لا يظهر إلا بعد
وجود الدعوة ، فمن لم تبلغه الدعوة فلا خلاف منه ، فوجب ان يكون مردوداً إلى
اصل امره ، والله اعلم بالصواب .



القسم التاسع

باب فيمن مات مستدلاً بقول

- وبالله التوفيق - من بلغ عاقلاً ميمزاً ، او عرف الدعوة وسمع بعض اعلام النبي ﷺ بالبلاغ المطبق الذي لا يمكن ان يكون كذباً ولا غلطاً ، فلم يدعن له ، ودافع بالايان ليستدل وينظر ، فهو كافر ، وإن مات مستدلاً مات كافراً ، لان اعلام الانبياء صلوات الله عليهم باهرة للعقول ، فكما ان من شاهدها ولم يؤمن بها ، وشكك فيها نفسه وزعم انه يستدل وينظر لم يكن معذوراً .

فكذلك من بلغه خبر هذا البلاغ الذي وصفت ، فلم يؤمن لم يكن معذوراً . فأما من كان في طرف من الارض بعيد ، لا يبلغه إلا الافراد في الافراط ، فسمع خبر النبي ﷺ وبعض اعلامه ، فتوقف عن الايمان به لينظر : ايصدق الخبر به او يكذب ؟ واعتقد ان الاخبار ان تظاهرت بمثل ذلك ، آمن الا انه لم يبرح من موضعه ليخشى الاخبار ، والبراح يمكنه فهو كافر ، لأنه رضي لنفسه بالشك بدلاً من اليقين ، وغرر مع ذلك بالدين ، وإن كان البراح لا يمكنه ولم يكن عنده إلا خبر من يمكن الكذب منه ، لم يكن محجوجاً به .

ولا يشبه هذا ، الواحد كان يبعثه رسول الله ﷺ إلى أحد الملوك بكتابه ليدعوه إلى الاسلام لأنه لم يغفل ذلك الا بعد انتشار خبره وتطايير الركب ان بذكره ، وما غافص^(١) أحداً برسول أو كتاب ، فكان يخلص كتابه إذا ورد على المكتوب اليه للدعوة دون التعريف ، فلذلك كان من ورد عليه الكتاب على يد واحد ، محجوجاً بدعوته والله أعلم .

وإذا سمع سامع بدعوته ولم يسمع بشيء من اعلامه لم يكن محجوجاً بما سمع ، الا

(١) ما غافص احداً : ما اخذ احداً على حين غرة .

انه ينبغي له أن يتوقف ، فان سارع إلى تكذيبه كفر ، وإن لم يسمع بشيء من اعلام نبوته إلا القرآن ، وقوله : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وكان من عليه أهل البلاغة ، وأخذت من نفسه لينظر : هل يتبها له بمعارضته ، وهو يعتقد انها لم تستوله ^(١) واعتاصت عليه آمن به وانقضت مدة لو كانت المعارضة مؤاتيه في ممكنته لواته فيها وأمكنته ، فلم يقدر على شيء وآخر الإيمان به كفر . فان قبل أن يمكنه معرفة حاله وهو يراود نفسه فربما طمع ، وربما يشس ، ولم يظهر له من حال نفسه ما يمكنه القطع به . وكان من قبل هذا البلاغ متمسكاً بدين حق مات مؤمناً بإيمانه المتقدم .

فان قيل : لم كفرتموه إذا يشس من امكان المعارضة ، وهو يقول : الست أنا الناس كلهم ؟ ولعل غيري يقدر على ما عجزت عنه ، وأما أنا واحد من الجمع !

قيل : لأن مباينة القرآن سائر الكلام المنظوم ، إنما هي من قبل خروج نظمه عن معارف الناس ، فإنه ليست له طريقة تدرك فيحافظ عليها ، كما للشعر الذي إذا أجاب طبع الواحد اليه والأقدر على تعلمه والتوصل اليه بأسبابه ، وإذا كان كذلك ، فكـل من كان من أهل البلاغة والنظم وجاهد نفسه في معارضه سورة من القرآن فلم يقدر عليها ، لأن معرفته لم تحط بنظمه ولم تقف له على هيئة مطردة وطريقة منسقة صار محجوباً لعجزه . وكان علمه بما ظهر له من حاله علماً بأحوال من كان في مثل معناه .

ألا ترى انه لو بلغه فمكان القرآن انه يقول الدلالة على نبوتي ، ولزوم ان احداً لا يسمع كلامي وقولي الا وينسينا اسمه ، فلا يذكره ولا غيره إلا ان اذكره ، ففسي هذا المبلغ اسمه عنده هذا البلاغ ونسبه مبلغه وجهده في تذكره ولم يذكر لصار محجوباً بما بلغه . وإن لم يكن له أن يتوقف عن الايمان ممثلاً بأن يقول : ان كنت نسيت اسمي ولم أذكره فلعل غيري لا ينساه أو يذكره ، لأنه لم ينس اسمه لمعارض من العوارض التي تحدث للطباع فينسى ويففل . فقال : لعل الناس يتباينون في ذلك ، فعمسى أن يعرض لواحد ولا يعرض لغيره ، وانما نسي لأمر خارج من الطباع فهو وغيره فيه سواء ، وليس إلا التصديق والتسليم ، فكذلك هذا في المعجز عن معارضة القرآن والله أعلم .

فان سأل مسائل : عن امرأة ولدت ولدأ على رأس جبل إلى ان يميش وحده ، ماتت أمه

(١) أ : لم تستبق له .

وبقي وحده فكبر وعقل ولم ير انساناً قط ، ولا سمع خبراً الا انه يفكر في أمره أول ما اتسع للرأي والنظر ليعلم ما هو وما هذه المحسوسات التي يراها وهل يجب أن يكون لها قاعل ؟ أو هي قديمة ؟ فلم يزل ينظر ويستدل ولا يغفل عن النظر وقتاً إلى وقت تدفعه عنه ضرورة ، فمات قبل أن ينتهي استدلاله ، فيظهر له ما يطلب ، أيموت كافراً أو يموت مسلماً ؟

قيل له : هذا ينبغي أن ينظر فيه من أصول سبق ذكرها :

أحدها : القول بالميثاق . فمن اثبته زعم أن الناس كلهم مولودون على حكم الميثاق المأخوذ عليهم . فمن نقصه بالكفر زال عنه حكمه ، ومن لم ينقصه بحدث يحدّثه ثبت له حكمه . فقال في هذا الذي مات مستدلاً انه مات مؤمناً ومآبه الجنة .

وهكذا من لم يقل بالميثاق ويزعم ان الله تعالى جعل أصل الناس الاستقامة ، كما جعل أصل الماء الطهارة ، فكذلك يقول ايضاً . ومن قال : أصل الناس انه لا دين لأحد منهم بنفسه ، ولكن يجعل في صفه تابعاً لأبويه ، وإذا بلغ كان له حكم نفسه ، قال ان الذي وقع السؤال عنه لا يمكن أن يكن لأنه لو كان ، لا يمكن أن يقطع بأنه يموت كافراً ، ولا بأنه يموت مسلماً .

وقد قسم الله عبادَه قسمين ، فقال : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾^(١) ولما قسمهم في الآخرة جعلهم بين وعد ووعيد ، فقال : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾^(٢) وقال : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السمر ﴾^(٣) فثبت أن أحداً لا يخرج من هذين القسمين . وصح ان المسألة بنفسها فاسدة ، وجوابها ان المولود الذي سئل عنه ان كان بلغ حد الاستدلال . فان الله تعالى يمهل إلى ينهي استدلاله حقاً فيصيب ، أو ينهيه وعنده نفسه باطلاً فيخطيء فيحق له الوعد أو يحق عليه الوعيد ولا يعاجله بالإحترام قبل أحد هذين والله أعلم .

فان قيل : أرأيتم إذا استدل أو عرف الحق فأمن بالله كان إيمانه ذلك فرضاً أداه ، وكان استدلاله وإيمانه حسنين عند الله تعالى أولاً . فان قلتم : لم يكونا حسنين لزمكم أن تقولوا كانا قبيحين . وإن قلتم : كانا حسنين فقد اعترفتم بأن الإيمان حسن لئنه ، وإن

ذلك مدرك بالعقل من حلمه ، وليس يحتاج في تحسينه إلى أمر يرد به .

فالجواب : ان من قال ان من الأشياء أشياء حسنة لأعيانها ، وأشياء قبيحة لأعيانها ، والعقل فارق بين الصنفين ، فانه يقول : كان إيمانه واستدلالة حسنين واجبين ، وتركهما - لو تركهما - قبيحين محظورين . ومن خالف هذا الرأي قال : السؤال محال ! لان الله تعالى اخبر انه لا يرضى لعباده الكفر ، وإذا لم يرضه لهم نهاهم عنه وأمرهم بضده ، فلا يمكن أحد المتسعين لادراك الامر ومعرفته يحكى عن الأمر بالإيمان ، فيحتاج إلى أن يتكلم عليه إذا خلا عنه واستدل بعقله على الإيمان . واعتقده ، كان ذلك منه حسناً أو غير حسن وواجباً له غير واجب ويعتبر هذه المسائل بعد معرفة الاصل لا وجه له لأن ذلك انما يراد به المغالطة وليست من فعل أهل الدين انما فعلهم النصح للمسلمين ، وبالله التوفيق .



القسم العاشر

باب القول في شعب الايمان

اولها : باب في الإيمان بالله تعالى .

جاء عن النبي ﷺ انه قال : ﴿ الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ﴾ ^(١) . وهذه الشهادة فرض تجمع الاعتقاد بالقلب والاعتراف باللسان ، والاعتقاد والاقرار وإن كانا عملين يعملان يجارحتين مختلفتين فإن نوع العمل واحد ، وما مثلها إلا مثل من قال شيئاً وكتبه ، فإنه وإن عمل عملين يجارحتين مختلفتين فإن نوع العمل واحد ، وهو الإبانة عما حصل مبيناً باليد واللسان من قرآن أو شعر أو حديث أو مثل أو قصص أو ما كان من أصناف الكلام أو مثل من مد يديه ورجله إلى شيء فحركه ، فإنه وإن كان عمل عملين يجارحتين مختلفتين ، فإن نوع العمل واحد وهو تحريك شيء بعينه .

فكذلك الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان عملان يعملان يجارحتين ، إلا أن نوع العمل واحد ، والمنسوب إلى القلب منه هو المنسوب إلى اللسان والمنسوب إلى اللسان هو المنسوب إلى القلب ، كما أن المكتوب مما جمع بين كتبه وقوله هو المنقول ، والمنقول هو المكتوب .

فإن قيل : فما العمل للحاصل بالاعتقاد والإقرار ؟ قيل : مجموع عدة أشياء : أحدها : إثبات الباري عز وجل جلاله ليقع به مفارقة التعميل . والثاني : إثبات وحدانيته ليقع به البراءة من الشرك . والثالث : إثبات أنه ليس بنحوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه . والرابع : أن وجود كل ما سواه كان من قبل ابداعه واختراعه إياه لتقع به

(١) ورد في صحيح البخاري « الإيمان » باب ٣ ، وفي صحيح مسلم « الإيمان » باب ٧٥

من قول يقول بالصلة والمعلول . والخامس : اثبات انه مدبر ما ابدع ومصرفه على ما شاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع أو تدبير الكواكب أو تدبير الملائكة .

فأما البراءة بإثبات الباري عز وجل والإعتراف له بالوجود من معاني التعطيل ، فإن قوماً ضلوا عن معرفة الله عز وجل وكفروا وألحدوا وزعموا أنه لا فاعل لهذا العالم ، وانه لم يزل على ما عليه ، ولا موجود إلا المحسوسات ، وليس وراءها شيء ، وان الكوائن والحوادث إنما تكون تحدث من قبل الطبائع التي في العناصر وهي الماء والنار والهوى والأرض ، ولا مدبر للعالم يكون ما يكون باختياره وصنعه . فإذا أثبت المثبت للعالم إلهاً ونسب الفعل والصنع إليه ، فقد فارق الإلحاد والتعطيل ، وهذا أحسن مذاهب الملحدّين والعاملين يسميهم غيرهم من أهل الالحاد الفرقة المتجاهلة وقد يدعونهم غير الفلاسفة .

وأما البراءة من الشرك إثبات الوحدانية ، فلأن قوماً ادعوا فاعلين ، وزعموا أن أحدهما يفعل الخير والآخر يفعل الشر ، وزعم قوم أن بدء الخلق كان من النفس ، إلا أنه كان يقع منها لا على سبيل السداد والحكمة ، وأخذ الباري على يدها ، وعهد إلى مادة تدعّمه كانت موجودة معه لا تنزل ، فركب منها هذا العالم على ما هو عليه من السداد والحكمة ، وإذا ثبت المثبت أن لا إله إلا الله واحد ، وأن لا خالق سواه ، ولا قديم غيره ، فقد انتفى عن قوله الشريك الذي هو في البطلان ، ووجوب إسم الكفر لقائله كالإلحاد والتعطيل .

وأما البراءة من التشبيه بإثبات انه ليس بجوهر ولا عرض ، فلأن قوماً زاغوا عن الحق فوصفوا الباري جل ثناؤه ببعض صفات المحدثين ، فمنهم من قال : انه جوهر ، ومنهم من قال : انه جسم ، ومنهم من أجاز أن يكون على المرش كما يكون الملك على سريره ، وكان ذلك في وجوب إسم الكفر لقائله كالتعطيل والتشريك .

فإذا أثبت المثبت انه ليس كمثل شيء ، وجماع ذلك انه ليس بجوهر ولا عرض فقد انتفى التشبيه لأنه لو كان جوهرأ أو عرضاً لجاز عليه ما يجوز على سائر الجواهر والاعراض ، ولأنه إذا لم يكن جوهرأ ولا عرضاً لم يميز عليه ما يجوز على الجواهر من حيث أنها جواهر كالتآلف والتجسم وسفل الأمكنة والحركة والسكون ، ولا ما يجوز على الاعراض من حيث انها أعراض كالحادث وعدم البقاء .

وأما البراءة من التعليل باثبات انه مبدع كل سواه ، فلأن قوماً من الأوائل خالفوا المعطلة ثم خذلوا عن بلوغ الحق فقالوا : ان الباري موجود ، غير انه عله لسائر الموجودات وسبب لها ، بمعنى أن وجوده اقتضى وجودها شيئاً فشيئاً على ترتيب لهم يذكرونه ، وان المعلول إذا كان لا يفارق العلة ، فواجب إذا كان الباري لم يزل أن يكون مادة هذا العالم لم يزل به ، فمن أثبت له المبدع الموجود المحدث لكل ما سواه من جوهر وعرض باختياره وإرادته المخترع لها لا من الأصل فقد انتفى عن قوله التعليل الذي هو في وجوب الكفر لقائله كالتمطيل .

وأما البراءة من التشريك في التدبير باثبات انه لا مدبر لشيء من الموجودات إلا الله ، فلان قوماً زعموا أن الملائكة تدبر العالم وسموها آلهة . وزعم قوم أن الكواكب تدبر ما تحتها وان كل كائنة وحادثة في الأرض ، فانما هي من آثار حركات الكواكب واحتراقها ، واتصالها وانفصالها وغير ذلك من أحوالها .

فمن أثبت أن الله عز وجل هو المدبر لما أبدع ولا مدبر سواه ، فقد انتفى عن قوله التشريك في التدبير الذي هو في وجوب إسم الكفر لقائله ، كالتشريك في القدم أو في الخلق ، وكان معنى من هذه المعاني معتقده ، ولهذا لم يكن الاعتقاد إحدى شعب الإيمان أو الاعتراف شعبة ثانية ، بل كانا معاً شعبة واحدة إذا كان المحصل بعقد القلب هو المحصل بلفظ اللسان .

فصل

ثم ان الله جل ثناؤه ضمن هذه المعاني كلها كلمة واحدة وهي لا اله إلا الله ، وأمر المأمورين بالإيمان أن يعتقدوها ويقولوها ، فقال عز وجل : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ (١) وقال فيما ذم به مستكبري العرب : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون : « أأنا لنار كوا آلهتنا لشاعر مجنون » ﴾ (٢) والمعنى انهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله استكبروا ولم يقولوا ، بل قالوا مكانها أأنا لنار كوا آلهتنا لشاعر مجنون . ووصف الله تعالى نفسه بما في هذه الكلمة في غير موضع من كتابه فقال : ﴿ الله لا

إله إلا هو الحي القيوم ﴿١﴾ . وقال : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾ ﴿٢﴾ . وأضاف هذه الكلمة في بعض الآيات إلى إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقال بعد أن أخبر عنه انه قال لابنه وقومه : ﴿ إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ ﴿٣﴾ .

وقيل : الكلمة لا إله إلا الله ، ومجاز قوله : إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني إلا الله . فيحتمل أن يكون أولاده المؤمنون أخذوا هذه الكلمة عنه ، فكانوا يقولون : لا إله إلا الله .

ثم ان الله عز وجل جدها بعدد رسوها بالنبي ﷺ إذ بعثه لأنه كان من ذرية إبراهيم صل الله عليها ، وورثة من هذه الكلمة ما ورثه البيت والمقام وزمزم والصفاء والمروة وعرفه والمشمع ومنا والكلمات التي ابتلاه بها فأتها والقربان . فقال النبي ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » ﴿٤﴾ . في هذا بيان أن هذه الكلمة يكفي الاسلام بها من جميع أصناف الكفر بالله عز وجل .

وإذا تأملناها وجدناها بالحقيقة كذلك . لأن من قال : لا إله إلا الله ، فقد أثبت الله ونفى غيره ، فخرج باثبات ما أثبت من التعطيل ، وبما ضم إليه من نفي غيره عن التشريك وأثبت باسم الاله الابداع والتدبير معاً اذا كانت الالهية لا تصير مثبتة له تعالى باضافة الموجودات إليه على ومعنى انه سبب لوجودها دون أن يكون فصلاً وصنعاً ، ويكون لوجودها بارادته واختياره تعلق ، وبإضافته فعل يكون منه فيها سوى الابداع إليه مثل التركيب والنظم والتأليف . فان الأبوين قد يكونان سبباً للولد على بعض الوجوه ، ثم لا يستحق واحد منها اسم الاله .

والنجار والصانع ومن يجري مجراها ، كل واحد منهم يركب ويهيىء ولا يستحق اسم الاله ، فعلم بهذا أن اسم الاله لا يجب الا للمبدع ، وإذا وقع الإعراف بالابداع ، فقد وقع بالتدبير ، لأن الإيجاد تدبير ولأن تدبير الموجود إنما يكون باثباته أو بإحداث

(١) البقرة : ٢٥٥

(٢) غافر : ٦٥

(٣) الزخرف : ٢٦

(٤) ورد في صحيح البخاري «الايان» باب ١٧ ، وفي صحيح مسلم «الايان» حديث رقم ٣٦٠٣٤ .

أعراض فيه أو إعدامه بعد إيجاده ، وكل ذلك ان كان فهو إبداع وإحداث ، وفي ذلك انه لا معنى لفصل التدبير عن الابداع وتميزه عنه ، وان الاعتراف بالابداع ينتظم وجميع وجوهه زعامة ما دخل في بابه . هذا هو الأمر الجاري على سنن النظر ما لم يناقض قوله مناقض ، فيسلم أمراً ويحدد مثله ، أو يعطي أصلاً وينع فرعه .

فاما التشبيه فان هذه الكلمة أيضاً تأتي على نفيه ، لأن إسم الاله إذا ثبت بكل وصف يعود عليه بالابطال وجب أن يكون متيقناً بثبوته ، والتشبيه من هذه الجملة لأنه إذا كان له من خلقه شبه ، وجب أن يجوز عليه من ذلك الوجه ما يجوز على شبهه ، وإذا جاز ذلك عليه لم يستحق إسم الأله كما لا يستحقه خلقه الذي شبهه به ، فتبين بهذا ان اسم الاله والتشبيه لا يجتمعان كما ان إسم الاله ونفي الابداع عنه لا يأتلان وبالله التوفيق .

فمن أراد التدوين بدين الحق وأطلق لسانه بهذه الكلمة قد استجمعت له هذه المعاني التي سبق شرحها وتلخيصها ما لم يخطر بقلبه عند التفصيل شيء يخالف الجملة ، فان خطر احتاج إلى أن يعتقد الحق فيه مفصلاً ، ولم ينفعه الاجمال مع دخول الشبهة عليه في التفصيل . ثم إذا انضم إلى ما ذكرته من شهادة الحق ما يذكر في باب الشعبة الثانية من شعب الايمان من اعتقاد نبوة النبي ﷺ ، والاعتراف بها ، فصل الايمان بعامة أسماء الله وصفاته لاقتضاء العقائد التي سبق وصفها وتعميدها بمعانيها ، واثبات الرسول ﷺ بالالفاظ الدالر عليها ، فان تصديقه في الرسالة تأتي على قبولها منه وتسمية الله جل ثناؤه بها . وبالله التوفيق .

فصل

ثم ان أسماء الله تعالى التي ورد بها الكتاب والسنة وأجمع العلماء على تسميته بها مقسمة بين العقائد الخمس التي سبق ذكرها وتعميدها . فيلتحق بكل واحد منها بعضها وقد يكون منها ما يلتحق بمعنيين ويدخل في ما بين ، أو أكثر ثم تنتظمها جميعاً شهادة أن لا إله إلا الله ، وهذا شرح ذلك وتفصيله :

١ - ذكر الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده منها القديم :
 وذلك مما يؤثر عن النبي ﷺ ولم يأت به الكتاب نصاً ، وإن كان قد جاء فيما تقتضيه .
 ومعناه : الموجود الذي ليس لوجوده ابتداء ، والموجود الذي لم يزل في أصل القديم
 في الناس السابق ، لان القديم هو القادم . قال الله عز وجل فيما أخبر به عن فرعون :
 ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ (١) . فقليل لله عز وجل قديم بمعنى أنه سابق للموجودات .
 ولم يحز إذا كان كذلك أن يكون لوجوده ابتداء . لانه لو كان لوجوده ابتداء
 لاقتضى ذلك أن يكون غير له أو جده ، ويوجب أن يكون ذلك الغير موجوداً قبله .
 فكان لا يصح حينئذ أن يكون هو سابقاً للموجودات . فبان انا إذا وصفناه بأنه سابق
 للموجودات فقد أوجبنا أن لا يكون لوجوده ابتداء ، وكان القديم في وصفه جل ثناؤه
 عبارة عن هذا المعنى وبالله التوفيق .

ومنها الاول ومنها الآخر : وقد ورد القرآن بهذين الاسمين .

والاول : هو الذي لا قبل له . والآخر : هو الذي لا بعد له ، قبل وبعد (٢) نهايتان ،
 فتقبل نهاية الوجود من قبل ابتدائه ، وبعد غايته من قبل انتهائه ، فاذا لم يكن له ابتداء
 ولا انتهاء لم يكن للوجود قبل ولا بعد ، فكان هو الاول والآخر .

ومنها الباقي : قال الله عز وجل : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ (٣) .
 وهذا أيضاً من لواحق قولنا : قديم ، لانه إذا كان موجوداً لا عن أول ولا لسبب ، لم
 يحز عليه الانقطاع بسبب وجوده ، فلما لم يكن لوجود القديم سبب ، يتوهم ان ذلك
 السبب ان ارتفع عدم ، علمنا انه لا انقطاع له .

ومنها الحق : قال الله عز وجل : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٤) . والحق
 ما لا يسع افكاره ويلزم اثباته والاعتراف به ، ووجود الباري تعالى أولى ما يجب الاعتراف
 به ، ولا يسع جعده . إذ لا مثبت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الظاهرة ما تظاهرت
 على وجود الباري جل جلاله .

(٢) هكذا وردت في الاصل والاصح (قبل وبعد)

(١) هود : ٩٨

(٤) النور : ٢٥

(٣) الرحمن : ٢٧

ومنها المبين : وهو الذي لا يخفى ولا يتكتم . والباري جل ثناؤه ليس بخاف ولا منكتم ، لان له من الافعال الدالة عليه ما يستحيل معها أن يخفى ، فلا يوقف عليه ولا يدري .

ومنها الظاهر : ومعناه البادي بافعاله وهو جل ثناؤه بهذه الصفة ، فلا يمكن معها أن يحجب وجوده وينكر ثبوته .

ومنها الوارث : لان معناه الباقي بعد ذهاب غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة لانه يبقى بعد ذهاب الملاك الذي اتمهم في هذه الدنيا بما أقام ، لان وجودهم وجود الاملاك كان به ووجوده ليس بغيره . وهذا الاسم مما يؤثر عن النبي ﷺ وليس له في الكتاب ذكر والله أعلم .

٢ - ذكر الأسماء التي تجمع اثبات وحدانيته عن اسمه :

اولها الواحد : فهو واحد من حيث انه ليس له شريك ، فيجري عليه لاجله حكم العدد ، وتبطل به وحدانيته . والآخر : انه واحد ، هي ان ذاته ذات لا يجوز عليه التكثر لغيره ، والاشارة فيه إلى انه ليس بجوهر ولا عرض ، لا قوام له إلا بغير يحله ، والقديم فرد لا يجوز عليه حاجة إلى غيره ، ولا يكثر بغيره ، ولا هذا لو قيل ان معنى الواحد انه القائم بنفسه لكان ذلك صحيحاً ولرجع المعنى إلى انه ليس بجوهر ولا عرض ، لان قيام الجوهر بفاعله ومثبته ، وقيام العرض بجوهر يحله .

والثالث : ان معنى الواحد : القديم . فاذا قلنا الواحد ، فانما يريد به الذي لا يمكن انه يكون أكثر من واحد ، والذي لا يمكن ان يكون أكثر من واحد هو القديم ، لان القديم بالاطلاق السابق للموجودات ، ومهما كان قديماً كان كل واحد منها غير سابق بالاطلاق ، لانه ان سبق غير صاحبه فليس بسابق لصاحبه وهو موجود لوجوده ، فيكون إذا قديماً من وجه غير قديم من وجه ، ويكون القدم وصفاً لهما معاً ، ولا يكون وصفاً لهما معاً ، ولا يكون وصفاً لكل واحد منها . فثبت ان القديم بالاطلاق لا يكون إلا واحداً . فالواحد إذا هو القديم الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً .

فان قال : إذا كان القديم هو السابق للموجودات ، والبادي إذا لم يستحق هذا الاسم

إلا بعد وجود الموجودات ، لأنه من قبل وجودها لم يكن موصوفاً بسبقها .

قيل : ان الموجودات لما كانت بإيجاده وابداعه كان سابقاً لها بوجوده القديم ، فان وجوده لا يكون عرضاً ، وإذا كان وجوده بعدما أبدع هذا الوجود الذي كان موصوفاً به قبل الإبداع ، فهو إذا استحق به الوصف بالسبق استحققه استحقاقاً قديماً لا استحقاقاً حادثاً .

كما ان القدرة وان كانت لا تكون إلا على مقدور ، فانه إذا استحق به الوصف بالقدرة استحقه استحقاقاً قديماً لا استحقاقاً قديماً حادثاً ، لأنه إنما يوجد المقدور بالقدرة التي كانت له قبل أن يوجد ، وليست قدرته عرضية ، فتكون قدرته الآن غير قدرته قبل الآن ، فكذلك الوجود والله أعلم . وقد ورد الكتاب بهذا الاسم ، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ .

ومنها الوتر : لأنه إذا لم (يكن) قديم سواء ، لا إله ولا غير إله ، لم ينبغي لشيء من الموجودات أن يضم إليه فيعده معه ، فيكون والمعدود معه شفعاً ، لكنه واحد فرد وتر .

ومنها الكافي : لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك ، صح ان الكفايات كلها واقعة به وحده فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرجاء إلا منه . وقد ورد الكتاب بهذا أيضاً ، قال الله عز وجل : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ^(١) ، وجاء ذلك أيضاً عن رسول الله ﷺ .

ومنها العلي : قال الله عز وجل : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ ^(٢) ومعناه الذي ليس فوقه مما يجب له من معاني الجلال احد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلي بالاطلاق ، والرفيع في هذا المعنى . قال الله عز وجل : « رفيع الدرجات ﴾ ^(٣) . ومعناه هو الذي لا أرفع قدرأ منه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، وهو اصنافها وأبوابها لا يستحق لها غيره .

٣ - ذكر الاسماء التي تتبع اثبات الابتداء والاختراع له .

أولها : الله ، ومعناه إله ، وهذا أكثر الأسماء واجمعها للمعاني ، والأشبه انه كاسماء

(١) الزمر : ٣٦ (٢) البقرة : ٢٥٥ والشورى : ٤ (٣) غافر : ١٥

الاعلام موضوع غير مشتق ، ومعناه القديم التام القدرة ، فانه إذا كان سابقاً لعامة الموجودات كان وجودها به ، وإذا كان تام القدرة أو جد المعدوم ، وصرف ما يوجد على ما يزيد ، واختص لذلك باسم الاله .

ولهذا لا يجوز أن يسمى هذا الاسم أحد سواء يوجه من الوجوه ، وتأويل من التأويلات وهو الذي أراده الله جل ثناؤه بقوله : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ (١) . أي هل تعلم من يستحق إسم الاله غيره . ومن قال : الا انه هو المستحق للعبادة ، فقد يرجع قوله : إلى أن الاله إذا كان هو القديم التام القدرة ، فكان كل موجود سراً صنعاً له ، والمصنوع إذا علم صانعه كان حقاً عليه أن يستحذي له في الطاعة ، ويذل له بالعبودية لأن هذا المعنى تفسير هذا الاسم .

ومنها الحي : قال الله عز وجل : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾ (٢) وإنما يقال ذلك لأن الفعل على سبيل الاختيار لا يوجد إلا مزجي ، وأفعال الله عز وجل كلها صادرة عنه باختياره إذا أثبتنا انه حي .

ومنها العالم : قال الله عز وجل : « عالم الغيب والشهادة » (٣) ومعناه انه يدرك الاشياء على ما هي به ، وإنما وجب أن يوصف عز اسمه بالعالم ، لأنه قد ثبت أن ما عداه من الموجودات فعل له وانه لا يمكن أن يكون فعل إلا باختيار وارادة ، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم ، كما لا يظهر إلا من حي .

ومنها القادر : قال الله عز وجل : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (٤) . وقال : ﴿ بلى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ (٥) وهذا يدل على معنى انه لا يعجزه شيء بل تيسر له ما يريد على ما يريد ، لأن أفعاله قد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز ، كما لا يظم إلا من حي عالم .

ومنها الحكيم : قال الله تعالى : ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ (٦) ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة ، وصنعه متقن ، ولا

(٣) الزمر : ٤٦

(٢) غافر : ٦٥

(١) مريم : ٦٥ .

(٦) الحجر : ٢٥

(٥) الاحقاف : ٣٣

(٤) القيامة : ٤٠ .

يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم ، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير .

ومنها السيد : وهو إسم لم يأت به الكتاب ، ولكنه مأثور عن النبي ﷺ فأنه روي عنه أنه قال لو فد بني عامر : (لا تقولوا السيد فان الله هو السيد) (١) . ومعناه المحتاج إليه الاطلاق ، فان سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون وبأمره يعملون ، وعن رأيه يصدرن ، ومن قوته يستمدون .

فاذا كانت الملائكة والأنس والجن خلقاً للباري جل ثناؤه لم يكن بهم غيبة في يدي أمرهم وهو الموجود ، إذ لو لم يوجد لم يوجدوا ولا في الابقاء بمعد الایجاد ، ولا في العوارض أثناء البقاء كان حقاً له جل ثناؤه وأن يكون سيداً ، وكان حقاً عليه أن يدعوه بهذا الاسم .

ومنها الجليل : وذلك أيضاً مما ورد به الاثر عن رسول الله ﷺ ، وفي الكتاب : ﴿ ذو الجلال ﴾ (٢) ومعناه المستحق للأمر والنهي ، فان جلال الواحد فيما بين الناس إنما يظهر بان يكون له غيره أمر نافذ ولا تحد من طاعته فيه يد ، وإذا كان من حق الباري جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً وطاعته له لازمة وجب له اسم الجليل حقاً ، وكان لمن عرفه أن يدعوه بهذا الاسم ، وبما يجري مجراه ويؤدي معناه . ومنها البديع : ومعناه المبتدع وهو يحدث ما لم يكن مثله قط . قال الله عز وجل : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ (٣) أي مبدعها . والمبدع من له إبداع ، فلما ثبت وجود الابداع من الله تعالى لعامة الجواهر والاعراض استحق أن يسمى بديعاً ومبدعاً .

ومنها الباري : قال الله عز وجل : ﴿ الباري المصور ﴾ (٤) وهذا الاسم محتمل معنيين : أحدهما : الموجد لما كان في معلومه من أصناف الخلائق ، وهذا هو الذي يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (٥) ، ولا شك ان إثبات الابداع والاعتراف به للباري عز وجل ليس يكون على أنه أبدع بفتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه ، لكن على انه كان عالماً بما

(٢) الرحمن : ٢٧

(٥) الحديد : ٢٢

(١) ورد في سنن أبي داود « كتاب الادب » باب ٨

(٤) الحشر : ٢٤

(٣) البقرة : ١١٦

أبدع قبل أن يبدع ، فكما وجب عند الابداع اسم البديع ، وجب له إسم البارئ .
والآخر : ان المراد بالبارئ فالبر الاعيان ، أى انه أبدع الماء والتراب والنار والهواء
لا من شيء ، ثم خلق منها الأجسام المختلفة ، كما قال عز وجل : ﴿ وجعلنا من الماء كل
شيء حي ﴾ (١) . وقال : ﴿ إني خالق بشرأ من طين ﴾ (٢) وقال : ﴿ ومن آياته أن
خلقكم من تراب ﴾ (٣) وقال : ﴿ خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ (٤) وقال :
﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من نار ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ،
ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاماً ، فكسونا العظام لحماً
ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ (٦) فيكون هذا من قولهم : برأ القواس القوس إذا صنعها من موادها
التي كانت لها فجاءت منها لا كهيئتها ، والاعتراف لله عز وجل بالابداع يقتضي الاعتراف
له بالبرء ، وكان المعترف يعلم من نفسه انه منقول من حال إلى حال إلى أن صار بمن يقدر
على الاعتقاد والاعتراف .

ومنها الثارئة : ومعناه المنشئ ، والمعنى قال الله عز وجل : ﴿ جعل لكم من
أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذكروكم فيه ﴾ (٧) أي جعلكم أزواجاً وذكرهم
وأناثاً لينشئكم ويكثركم وينميكم ، فظهر بذلك أن الذرة ما قلنا ، وصار الاعتراف
بالابداع يلزم من الاعتراف بالذرة ما يلزم من الاعتراف بالبرء .

ومنها الخالق : قال الله عز وجل : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾ (٨) ومعناه الذي صنف
المبدعات وجعل لكل صنف منها قدراً ، فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير
والانسان والبهيم والدابة والطائر والحيوان والموات ، ولا شك أن الاعتراف بالابداع
يقتضي الاعتراف بالخالق إذ كان الخلق هيئة الابداع فلا يعني أحدهما عن الآخر .

ومنها الخلاق : قال الله عز وجل : ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ (٩) ومعناه الخالق
خلقاً من بعد خلق .

(١) الانبياء : ٣٠	(٢) ص : ٧١	(٣) الروم : ٢٠
(٤) التنجل : ٤	(٥) الرحمن : ١٤ ، ١٥	(٦) المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤
(٧) الشورى : ١١	(٨) فاطر : ٣	(٩) يس : ٨١

ومنها الصانع : ومعناه المركب والمهيء ، قال الله عز وجل : ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ ^(١) وقد يكون الصانع الفاعل ، ويدخل فيه الاختراع والتركيب معاً .

ومنها الفاطر : ومعناه فاتق المرتق من السماء والأرض . قال الله عز وجل : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ ^(٢) فقد يكون المعنى كانت السماء دخاناً فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، ^(٣) وكانت الأرض غير مدحوة فدحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، ^(٤) ومن قال هذا قال : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض ^(٥) ﴾ ومعناه . ألم يعلموا وقد يكون المعنى ما روي عن بعض الآثار : فتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات . وقال ابن عباس رضي الله عنه : كنت لا أدري ما معنى فاطر حتى سمعت اعرابيين يختصمان في بشر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي حفرتها وسففت عن الماء فيه فنبع وظهر ، والاعتراف بالابداع يقتضي هذا المعنى ويأتي عليه .

ومنها المقتدر : قال الله عز وجل : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ ^(٦) وهو المظهر قدرته بفعل ما يقدر عليه ، وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه وإن كان يقدر على أشياء كثيرة لم يفعلها ولو شاء لفعلها ، فاستحق بذلك أن يسمى مقتدراً .

ومنها الملك والمليك في معناه . قال عز وجل : ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ^(٧) . وقال : ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ ^(٨) وذلك مما يقتضيه الابداع لان الابداع هو المخترع للشيء من العدم إلى الوجود ، فلا يتوهم أن يكون أحد أحق بما أبدع منه ، ولا أولى بالتصرف فيه منه ، وهذا هو الملك .

وأما المليك فهو استحقاق السياسة وذلك فيما بيننا قد يصغر ويكبر بحسب قدر المسوس وقدر السائس في نفسه ومعانيه . وأما ملك الباري عز اسمه : فهو الذي لا يتوهم ملك يدانيه فضلاً على أن يفوته ، لأنه إنما استحقه بابداعه مما يسوسه ، وإيجاده إياه بعد ان لم يكن ، ولا يخش أن ينزع منه ، أو يدفع عنه فهو الملك حقاً وملك من سواه مجاز .

(٣) التازعات : ٢٩

(٦) القمر : ٤٢

(٢) الانبياء : ٣٠

(٥) الانبياء : ٣٠

(٨) القمر : ٥٥

(١) النمل : ٨٨

(٤) التازعات : ٣١

(٧) طه : ١٤

ومنها الجبار : في قول من يجعله من الجبر الذي هو نظير الكره ، لأنه يدخل فيه أحداث الشيء عن عدم ، فانه إذا أراد وجوده كان ولم يتخلف كونه عن حال ارادته ولم يكن فيه غير ذلك ، فيكون فعله له كالجبر ، إذ الجبر طريق إلى دفع الامتناع عن المراد ، فإذا كان ما يريده الباري جل ثناؤه لا يمتنع عليه فذلك في الصورة جبر . وقد قال الله عز وجل : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ ^(١) فهذا الباب ^(٢) لم يميزه عن الابداع وجعل الاعتراف له ، فانه بديع اعترافاً له بأنه جبار .

٤ - ذكر الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده :

منها الأحد : وهو الذي لا شبيه له ولا نظير ، كما ان الواحد هو الذي لا شريك له ولا عدل ، ولهذا سمي الله عز وجل نفسه بهذا الاسم لما وصف نفسه بأنه ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وكان قوله عز وجل : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ^(٣) من تفسير قوله : ﴿ أحد ﴾ والمعنى لم يتفرع هو عن شيء ، ولا تفرع هو عن شيء كما تفرع الولد عن أبيه وأمه ويتفرع عنهما الولد ، فاذا كان كذلك فما يدعوه المشركون الهاً من دونه لا يجوز أن يكون الهاً إذا كانت امارات الحدوث من التجزئ والتناهي قائمة فيه ولازمة له ، والباري لا يتجزأ ولا يتناهي فهو إذا غير مشبه إياه ، ولا مشارك له في صفته .

ومنها العظيم : ومعناه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالاطلاق لان عظيم القوم انما يكون مالك أمورهم الذي لا يقدر على مقاومته ومخالفة أموره الا انه وان كان كذلك ، فقد تلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فتوهنه وتضعفه ، حتى يستطاع مقاومته بل قهره وابطاله ، والله جل ثناؤه قادر لا يعجزه شيء ، ولا يمكن ان يعصى كرهاً ، أو يخالف أمره قهراً ، فهو العظيم إذا حقاً وصدقاً ، وكان هذا الاسم لمن دونه مجازاً .

ومنها العزيز : ومعناه الذي لا يوصل اليه ولا يمكن ادخال مكروه عليه . فان العزيز في لسان العرب هو من العزة والصلابة ، وقيل للحديد الصلب غرور لشدته وتعذر كسره ، وخلافه الذليل الذي هو في اللسان من الذلة وهو اللين والطواعية . وقيل للمركوب

(٢) ورد في كتاب الاسماء والصفات : « فمن الحق بهذا الباب

(٣) الاخلاص : ٢

(١) فصلت : ١١

لم يميزه .. » وهو الصواب .

المطواع ذلول للينة وسلاسته . فإذا قيل لله عزيز ، فإنما يراد به الاعتراف له بالقدم الذي لا يتهاى معه تغييره عما لم يزل عليه من القدرة والقوة ، وذلك عائد إلى تنزيهه عما يحوز على المصنوعين لاعتراضهم بالحدوث في أنفسهم للحوادث أن تصيبهم وتغيرهم .

ومنها المتعال : ومعناه المرتفع عن أن يحوز عليه ما يحوز على المحدثين من الأزواج والأولاد والجوارح والأعضاء ، واتخاذ السرير للجلوس عليه والاحتجاب بالستور عن أن تنفذ الأبصار إليه ، والانتقال من مكان إلى مكان ونحو ذلك . فإن اثبات بعض هذه الأشياء توجب النهاية ، وبعضها يوجب الحاجة ، وبعضها يوجب التغير والاستحالة ، وشيء من ذلك غير لائق بالقديم ولا جائز عليه .

ومنها الباطن : وهو الذي لا يحس وإنما يدرك بآثاره وأفعاله .

ومنها الكبير : ومعناه المعروف عباده على ما يريده منهم من غير أن يروه . وكبير القوم هو الذي يستغني عن التبذل لهم ، ولا يحتاج في بعض الناس وفي بعض الأمور إلى الاستظهار على المأمور بإبداء نفسه ومخاطبته كفاحاً لحشيته أن لا يطيعه إذا سمع أمره من غيره . والله عز وجل لا يحتاج إلى شيء ولا يعجز شيء .

ومنها السلام : لأن معناه السالم من المصائب ، إذ هي غير جائزة عليه وإن جوازها على المصنوعات ، لأنها أحداث وبدائع . فكما جاز أن يوجدوا بعد أن لم يكونوا موجودين جاز أن يعدموا بعد (ما) وجدوا ، وجاز أن تتبدل أعراضهم وتتناقض أو تتزايد أجزاؤهم ، والقديم لا علة لوجوده^(١) ، فلا يحوز التغير عليه . ولا يمكن أن يمرضه نقص أو شين ، أو تكون له صفة تخالف الفضل والكمال .

ومنها الفنى : ومعناه الكامل بماله وعنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة لأن الحاجة نقص ، والحاجة عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، والحاجة إليه فضل ، فوجد ما ليس عند المحتاج . والنقص منفي عن القديم بكل حال ، والعجز غير جائز عليه ، ولا يمكن لأحد (أن يكون) عليه فضل ، إذ كل شيء سواه خلق له وبدع أبدعه ولا يملك من أمره شيئاً ، وإنما يكون كما يريده الله عز وجل ويدبره فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضله عليه .

(١) لقد وردت في الأصل : والقدم لا تحلة لوجوده .

ومنها السبوح : ومعناه المنزه عن المصائب والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح التنزيه .

ومنها القدوس : ومعناه المدوح بالفضائل والحاسن ، والتقديس مضمن في صريح التسبيح ، والتسبيح مضمن في صريح التقديس ، لأن نفي المذام إثبات للمدائح ، كقولنا لا شريك له ولا شبيه له . إثبات أنه واحد أحد . وكقولنا لا يعجزه شيء إثبات أنه قادر قوي . وكقولنا : انه لا يظلم أحداً إثبات أنه عدل في حكمه . وإثبات المدائح له نفي للمذام عنه ، كقولنا : انه عالم نقي للجهل عنه ، وكقولنا : انه قادر ، نقي للعجز عنه .

إلا أن قولنا هو كذا ظاهرة التقديس ، وقولنا ليس بكذا ظاهرة التسبيح ، لأن التسبيح موجود في ضمن التقديس ، والتقديس موجود في ضمن التسبيح ، وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة الاخلاص . فقال عز اسمه : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ﴾ (١) . فهذا تقديس ، ثم قال : ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (٢) . فهذا تسبيح . والأمران معاً راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والتشبيه عنه .

ومنها المجيد : ومعناه المنيع المحمود . لأن العرب لا تقول لكل محمود مجيداً ، ولا لكل منيع مجيداً . أو قد يكون الواحد منيعاً غير محمود كالمتمر الخليع الجائر ، أو اللص المتحصن ببعض القلاع . وقد يكون محموداً غير منيع كامير السوقه والصابرين من أهل القبلة ، فلما لم يقل لكل واحد منها مجيد ، علمنا أن المجيد من جمع بينهما ، فكان منيعاً لا يرام ، وكان في منعته حسن الخصال جميل الفعال والباري جل ثناؤه يحل عن أن يرام وأن يوصل إليه ، وهو مع ذلك محسن مجمل لا يستطيع العبد أن يحصي نعمته ولو استنفذ فيه مدته ، فاستحق إسم المجيد وما هو أعلى منه .

ومنها القريب : ومعناه لا مسافة بين العبد وبينه ، فلا يسمع دعاءه أو يخفى عليه حاله كيف ما تصرفت به ، فإن ذلك يوجب أن يكون له نهاية ، وحاشا له من النهاية . ومنها المحيط : ومعناه الذي لا يقدر على الفرار منه ، وهذه الصفة ليست

(٢) الاخلاص : ٣٠٢

(١) الاخلاص : ١

حقاً إلا الله جل ثناؤه ، وهي راجعة إلى كمال العلم والقدرة ، وانتفاء الغفلة والعجز عنه .
ومنها **الفعال** لما يريد : ومعناه الفاعل فعلاً بعد فعل ، كلما أراد فعل وليس كالمخلوق
الذي ان قدر على فعل عجز عن غيره .

ومنها **التقدير** : وهو تام القدرة لا يلبس قدرته عجز بوجه .
ومنها **الغالب** : وهو البالغ مراده من خلفه ، أحبوا أو كرهوا ، وهذه إشارة أيضاً
إلى كمال القدرة والحكمة وأنه لا يقهر ولا يخدع .

ومنها **الطالبي** : وهو إسم جرت عادة الناس باستعماله في اليمين مع الغالب ومعناه
المتبوع غير المهمل ، وذلك ان الله عز وجل يهمل ولا يهمل ، وهو على الامهال بالغ أمره ،
كما قال عز وجل في كتابه : ﴿ ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي
لهم ليزدادوا إثماً ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدأ ﴾ ^(٢) . وقال :
﴿ إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ ^(٣) .

ومنها **الواسع** : ومعناه الكثير مقدوراته ومعلوماته ، والمنبسط فضله ورحمته ،
وهذا تنزيهه من النقص والعلة واعتراف له بأنه لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه شيء ورحمته
وسعت كل شيء .

ومنها **الجميل** : وهذا الإسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه : ذو الأسماء
الحسنى . لأن القبائح إذا لم تلق به لم يحز أن يشتق اسم من اسمائها وإنما تشتق أسماءه من
صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمة .

ومنها **الواجد** : وهو أيضاً في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ، ومعناه : الذي لا يضل
عنه شيء ولا يفوته شيء .

ومنها **المحصي** : وهذا مما يؤثر عن النبي ﷺ ، وفي الكتاب : ﴿ وأحصى كل شيء
عددا ﴾ ^(٤) . ومعناه : العالم بمقادير الحوادث ، ما يحيط به منها علوم العباد ، وما لا
يحيط به منها علومهم كالأنفاس والأرزاق والمعاصي والقروف وعدد القطر والرممل

(٢) مريم : ٨٤

(٤) الجن : ٢٨

(١) آل عمران : ١٧٨

(٣) الطلاق : ٣

والحصى والنبات واصناف الحيوان والموات وعامة الموجودات وما يبقى منها أو يضمحل ويفنى ، وهذا راجع إلى نفي العجز الموجود في المخلوقين عن إدراك ما يكبر مقداره ، ويتوالى وجوده ، وتتفاوت أحواله عن اسمه .

ومنها المتين : وهو الذي لا تتناقض قوته فيهن ويفتر ، إذ كان يحدث ما يحدث في غيره لا في نفسه ، وذلك أن التغير لا يحوز عليه .

ومنها ذو الطول : ومعناه الكثير الخير ، لا يعوزه من أصناف الخيرات شيء ان أراد أن يكرم به عبده وليس كذى طول من عباده قد يجب أن يوجد بالشيء ولا يحده .

ومنها السميع : ومعناه المدرك للأصوات التي يدر كها المخلوقون من غير أن يكون له اذن ، وذلك راجع إلى أن الاصوات لا تخفى عليه ، وان كان غير موصوف بالحس المركب في الاذن كالاهم من الناس لما لم يكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لإدراك الصوت .

ومنها البصير : ومعناه المدرك للأشخاص والالوان التي يدر كها المخلوقون بإبصارهم من غير أن يكون له جارحة العين ، وذلك راجع الى (أن) ما ذكرناه لا يخفى عليه ، وان كان غير موصوف بالحس المركب في العين كالاعمى الذي لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلاً لادراك شخص أو لون .

ومنها العليم : لان معناه المدرك لما يدر كه المخلوقين بعقولهم وحواسهم وما لا يستطيعون إدراكه من غير أن يكون موصوفاً بعقل أو حس . وذلك راجع إلى أنه لا يغرب عنه شيء ولا يعجزه ادراك شيء كما يعجز (عن ذلك) من لا عقل له ولا حس ، من المخلوقين . ومعنى ذلك انه يشبههم ولا يشبهونه .

ومنها العلام : ومعناه العلام بأصناف المعلومات على تفاوتها ، فهو يعلم الموجود ، ويعلم ما هو كائن ، وانه إذا كان كيف يكون ، ويعلم ما ليس بكائن ، وانه لو كان كيف كان يكون .

ومنها الخبير : المتحقق لما يعلم كالمستيقن من العباد إذا كان الشك غير جائز عليه ، وان الشك ينزع إلى الجهل ، وحاشا له من الجهل ، ومعنى ذلك ، أن العبد قد يوصف بعلم الشيء إذا كان ذلك مما يوجب كثرة وانه لا سبيل له إلى أكثر منه ، وان كان يجيز

الخطأ على نفسه فيه ، والله جل ثناؤه لا يوصف بمثل ذلك ، إذا كان العجز غير جائز عليه . والانسان إنما يؤتى فيما وصفت من قبل القصور والعجز .

ومنها الشهيد : ومعناه المطلع على ما لا يعلمه المخلوقون إلا بالشهود ، وهو الخضور ، ومعنى ذلك انه وان كان لا يوصف بالخضور الذي هو المجاورة والمقاربة . فإن ما يجري ويكون من خلقه لا يخفى (عليه) كما لا يخفى على النائي من القوم ما يكون منهم ، وذلك ان النائي إنما يؤتى من قبل قصور آله ونقص جارحته . والله جل جلاله ليس بذى آلة ولا جارحة فيدخل عليه فيها ما يدخل على المحتاج إليها .

ومنها الحسيب : ومعناه المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب ، لان الحاسب يدرك الاجزاء شيئاً فشيئاً ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه والله تعالى لا يتوقف علمه بشيء على أمر يكون وحال يحدث .

٤ - ذكر الاسماء التي تنبغ أسباب التدبير له دون ما سواه :

فأول ذلك المدير : ومعناه مصرف الامور على ما يوجب حسن عواقبها . واشتقاقه من الدبر ، فكان المدير هو الذي ينظر إلى دبر الامور فيدخل فيه على علم به ، والله عز وجل عالم بما هو كائن قبل أن يكون ، فلا يخفى عليه عواقب الامر . وهذا الاسم فيما يؤثر عن نبينا ﷺ .

ومنها القيوم : لان معناه القائم على كل شيء من خلقه يدبره بما يريد .

ومنها الرحمن : وهو المزيج للعلل ، وذلك انه لما أمر الجن أن يعبدوه عرفهم وجوه العبادات وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشارع وقوى وجوارح يعملون بها لتنفيذ ما أراده منهم . وخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنقذهم وأمهلهم وحملهم دون ما يتسع به بينهم . فصات العلل مزاحه وحجج العصاة والمقصرين منقطعة .

ومنها الرحيم : ومعناه المتيب على العمل فلا يضيع لعامل عملاً ولا يهدر لساع سعيًا ، وينيله بفضل رحمته من الثواب أضعاف عمله .

ومنها الخليم : لان معناه الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم ،

ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع وهو منهمك في معاصيه ، كما يبقى البر التقي وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره ، فضلا عن أن يدعوه ، كما يقيمها الناسك الذي يسأله وربما شغلته العبادة عن المسألة .

ومنها الكريم : ومعناه النفاع ، من قولهم : شاة كريمة ، إذا كانت غزيرة اللبن تدر على الحالب ، ولا تقلص باخلافا ، ولا تجبس لبنها .

ولا شك في كثرة المنافع التي من الله تعالى (بها) على عباده ابتداء منه وتفضلا فهو باسم الكريم أحق من كل كريم .

ومنها الصبور : وذلك مما وردت به الاخبار عن الرسول ﷺ ، وليس له في الكتاب ذلك . ومعناه : الذي لا يعاجل بالعقوبة . وهذه صفة ربنا جل ثناؤه لانه يملئ ويمهل وينظر ولا يهيجل .

ومنها العفو : ومعناه الواضح عن عباده تبعات خطاياهم وآثارهم ، فلا يستوفيها منهم ، وذلك إذا تابوا واستغفروا ، أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا ، (فيكفر عنهم ما فعلوا) ، بما تركوا ، أو بشفاعه من يشفع لهم ، ويجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به ، وجزاء له بعمله .

ومنها الغافر : وهو الذي يستر على المذنب ولا يؤاخذ به فيشهره ويفضحه .

ومنها الغفار : وهو المبالغ في الستر ، فلا يشهر المذنب لا في الدنيا ولا في الآخرة .

ومنها الغفور : وهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده ، ويزيد عفوه على مؤاخذته .

ومنها الرؤوف : ومعناه المتساهل على عباده لانه لم يحملهم ما لا يطيقون بدرجات كثيرة ، ومع ذلك غلظ فرائضه في حال شدة القوة ، وخففها في حال الضعف ونقصان القوة ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر ، والصحيح بما لم يأخذ به المريض ، وهذا كله رأفة ورحمة .

ومنها الصمد : ومعناه المصمود بالحوائح ، أي المقصود . وقد يقال ذلك على انه المستحق لان يقصد بها ، ثم لا يبطل هذا الاستحقاق ، ولا تزول هذه الصفة بذهاب من يذهب عن الحق ويضل السبيل ، لانه إذا كان هو الخالق والمدير لما خلق لا خالق غيره

ولا مدبر سواه ، فالذهاب عن قصده بالحاجة وهي بالحقيقة واقعة إليه ولا قاضي لها غيره ، جهل وحق ، والجهل بالله تعالى كفر .

ومنها الحميد : وهو المستحق لان يحمد لانه جل ثناؤه بدأ فأوجد ثم جمع بين النعمتين الجليلتين الحياة والعقل ، ووالى بين منحه ، وتابع آلاءه ومننه حتى فأتى العبد ، وان استفرغ فيها الجهد . فمن ذا الذي يستحق الحمد سواه ، بل له الحمد كله لا لغيره ، كما ان المن منه لا من غيره .

ومنها القاضي : ومعناه المزم حكمه . وبيان ذلك : الحاكم بين العباد لا يقول إلا ما يقوله المفتي ، غير ان الفتيا لما كانت لا تلزم لزوم الحكم ، والحكم يلزم ، سمي الحاكم قاضيا ، ولم يسم المفتي قاضيا ، فعلمنا أن القاضي هو المزم ، وحكم الله تعالى كله لازم فهو إذا قاضي وحكمه قضاء .

ومنها القاهر : ومعناه انه بدأ خلقه بما يريد فيقع في ذلك ما يشق ويثقل ويفهم ويحزن ، ويكون منه سلب الحياة أو نقص الجوارح ، فلا يستطيع أحد رد تدبيره والخروج من تقديره .

ومنها القهار : أن يقهر ولا يقهر بحال .

ومنها الفتاح : وهو الحاكم ، أى يفتح ما انغلق من عباده ويميز الحق من الباطل ، ويعلي الحق ويخزي الباطل ، وقد يكون « ذلك » منة في الدنيا والآخرة .

ومنها الكاشف : ولا يدعي بهذا الاسم إلا مضافاً إلى شيء . فيقال : كاشف الضر أو كاشف الكرب . ومعناه : الفارج والمجلي . يكشف الكرب ويجلي القلب ، ويفرج الهم ويزيح الضر والغم .

ومنها اللطيف : وهو الذي يريد بعباده المؤمنين الخير واليسر ، ويقيض لهم أسباب الصلاح والبر .

ومنها المؤمن : ومعناه المصدق ، لأنه إذا وعد صدق وعده ، ويحتمل المؤمن عبادة بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويحور عليهم .

ومنها المهيمن : ومعناه لا ينقص للمطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئاً ، فلا يشبههم عليه ، لأن الثواب لا يعجزه ، ولا هو مستكره عليه فيحتاج إلى كتمان بعض الأعمال أو

جدها ، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا كثرت الأعمال على كتمان بعضها ، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه . لأنه ليس منتفعاً بملكه حتى إذا نفع غيره إلى انتفاعه عنه بنفسه ، وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئاً ، لا يزيد العصاة على ما اجترحوه (١) من السيئات شيئاً فيزيدهم عقاباً على ما استحقوه . لأن واحداً من الكذب والظلم على جائز عليه . وقد سمي عقوبة أهل النار جزاء ، فما لم يقابل منها ذنباً لم يكن وفاقاً ، فدل ذلك على انه لا يفعله .

ومنها الباسط : ومعناه الناصر فضله على عباده ، يرزق ويوسع ويجود ويفضل ويمكن ويحول ويعطي أكثر مما يحتاج إليه .

ومنها القابض : يطوى بره ومعرفه عن يريد ، ويضيق ويقتّر أو يحرم فيفقر ، ولا ينبغي أن يدعى ربنا جل جلاله باسم القابض حتى يقال معه الباسط .

ومنها الجواد : ومعناه الكثير العطايا .

ومنها المنان : وهو عظيم المواهب . فانه أعطى الحياة والعقل والنطق وصوراً أحسن الصور ، وأنعم فأجزل ، وأسنى النعم وأكثر العطايا والمنح . قال — وقوله الحق — ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (٢)

ومنها المقيت : وعندنا انه الممد ، وأصله من القوت الذي هو مدد البرية . ومعناه أنه دبر الحيوانات بأن جبلها على أن يحلل منها على مر الأوقات شيئاً بعد شيء ، ويعوض ما يتحلل غيره فهو يدها في كل وقت بما جعله (قواماً لها إلى أن يريد ابطال شيء منها فيحبس عنه ما جعله) (٣) مادة لبقائه فيهلك .

ومنها الرازق : ومعناه المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواماً إلا به ، والمنعم لهم باتصال حاجتهم من ذلك اليهم ، لئلا تنغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم ولا يفقدوها أصلاً بفقد إياه .

ومنها الرزاق : وهو الرزاق رزقاً بعد رزق والمكثر الواسع لها .

ومنها الجبار : في قول من جعل ذلك من جبر الكسر ، أي الصلح لأحوال عباده

(١) اجترحوه : كسبه .

(٢) ابراهيم : ٣٤

(٣) هكذا وردت في كتاب الاسماء والصفات للامام البيهقي على لسان الحلبي .

والجابر لها ، والمخرج لهم مما يسؤمهم إلى ما يسرهم ، ومما يضرهم إلى ما ينفعهم .

ومنها الكفيل : ومعناه المتقبل للكفايات ، وليس ذلك بمعقد وضمان ككفالة الواحد من الناس ، وإنما هو على معنى : انه لما خلق المحتاج والزمه الحاجة ، وقدر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة العلة ، وإقامة الكفالة ، لم يخله من إيصال ما علق بقاؤه به اليه ، واداراه في الأوقات والأحوال عليه . وقد فعل ذلك ربنا جل جلاله إذ ليس في وسع مرزق أن يرزق نفسه ، وإنما الله تعالى يرزق الجماعة من الناس والدواب ، والجنة في بطون أمهاتها ، والطير التي تعدو خماصاً وتروح بطانا ، والهوام والحشرات والسباع في الفلوات .

ومنها الغياث : وهو المغيث . وأكثر ما يقال : غياث المستغيثين ، ومعناه : المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومريحهم ومخلصهم .

ومنها المجيب : وأكثر ما يدعى بهذا الاسم مع القريب ، فقال : القريب المجيب ، وقال : مجيب الدعاء ، أو مجيب دعوة المضطرين . ومعناه : الذي ينيل سائله ما يريد . لا يقدر على ذلك غيره .

ومنها الولي : وهو الوالي ، ومعناه مالك التدبير . ولهذا يقال : المقيم على اليتيم ولي اليتيم ، وللأمير الوالي .

ومنها البر : ومعناه الرفيق بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ويعفون عن كثير من سيئاتهم ، ولا يؤاخذهم بجميع جنایاتهم ، ويحزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يحزيهم بالسيئة إلا مثلها ، ويكتب لهم بهم بالحسنة ، ولا يكتب لهم بالسيئة . والولد البر بابيه هو الرفيق به ، المتحري لحبابه المتوفي لمكارمه .

وقد قيل : ان البر في صفات الله جل ثناؤه المولى ، ومعناه المأمول منه النظر والمعرفة لأنه هو المالك ولا يتفرغ للملوك إلا ماله .

ومنها الحافظ : ومعناه الصائن عبده من أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه ، وهذا الاسم فيما يؤثر عن النبي ﷺ ، وجاء في القرآن : ﴿ فإله خير حافظاً ﴾ ^(١) وجاء : ﴿ بما حفظ الله ﴾ ^(٢) ومن حفظ فهو حافظ .

(١) يوسف : ٦٤

(٢) النساء : ٣٤

ومنها الحفيظ : ومعناه الموثوق به بترك التصنيع .

ومنها الناصر : وهو الميسر للقلبة .

ومنها النصير : وهو الموثوق منه بان لا يسلم وليه ولا يخذله .

ومنها الشاكر : ومعناه المادح لمن يطيعه والمثني عليه والمثيب له بطاعته فضلاً من نعمته .

ومنها الشكور : وهو الذي يدوم شكره ويعم كل مطيع وكل صغير من الطاعة أو كبير .

ومنها خالق الحب والنوى : يصونها في الأرض عن العفن والفساد ، ويهيئهما للنشوء والنمو ، ثم يشقها للانبات ويخرج من الحب الزرع ومن النوى الشجر لا يقدر على ذلك غيره .

ومنها المتكبر : وهو المكلم عباده وحيا وعلى السنة الرسل ، قال الله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ (١) .

ومنا الرب : وهو المبلغ كما ابداع حد كماله الذي قدره له ، وهو يسئل النطفة من الصلب ويجعلها علقة ، والعلقة مضغة ثم يجعل المضغة عظماً ثم يكسو العظم لحماً ، ثم يخلق في البدن الروح ويخرجه خلقاً آخر وهو صغير ضعيف فلا يزال ينميه وينشئه حتى يجعله رجلاً ، ويكون في بدء أمره شاباً ثم يجعله كهلاً ثم شيخاً . وهكذا كل شيء خلقه فهو القائم عليه به ، والمبلغ إياه الحد الذي وصفه وجعله نهاية ومقداراً له .

ومنها المعيي : وهو جاعل الخلق حياً باحداث الحياة فيه (٢) . وفي القرآن : ﴿ يحييكم ثم يميتكم ﴾ (٣) . وفيه : ﴿ فأما هم الله ثم أحياهم ﴾ (٤) .

ومنها الضار : وهو الناقص عبده مما جعل له اليه الحاجة .

فمنها النافع : وهو الساد للخلة (٥) ، والزائد على ما اليه الحاجة ، وقد يجوز أن يدعى

(١) الشورى : ٥١ (٢) ورد في الاصل : (وهو جاعل الخلق ميتاً بسلبه الحياة واحداث الموت فيه) وهذا تعريف لاسم (المميت) وقد جاء في كتاب الاسماء والصفات ما اورده في النص اعلاه .
(٣) الجاثية : ٢٦

(٤) لم يرد هذا النص في القرآن الكريم ، وانما هناك آيات تشبه هذا النص كقوله تعالى : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ . البقرة : ٢٨ . او كقوله : ﴿ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ . البقرة : ٢٤٣ .
(٥) الخلة : الحاجة والفقر .

الله جل ثناؤه باسم النافع وحده ، ولا يجوز أن يدعى بالضرار وحده حتى يجمع بين الاسمين كما قلت في الباسط والقابض . وهذان الإسمان فيما يؤثر عن النبي ﷺ .

ومنها الوهاب : وهو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه .

ومنها المعطي والمانع : جاء عن النبي ﷺ فيما كان يدعو به : (اللهم لا مانع لأعطيت ولا معطي لما منعت)^(١) (فالمعطي) هو الممكن من نعمه ، والمانع هو الحائل دون نعمه . ولا يدعى الله باسم المانع حتى يقال عنه المعطي ، كما قلت في الضرار والنافع .

ومنها الخافض والرافع : وهذان الإسمان مما يؤثر عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي أن يفرد الخافض عن الرافع في الدعاء كما قلت في المانع والمعطي ، فالخافض هو الواضع من الأقدار ، والرافع المعلي للأقدار .

ومنها الرقيب : وهو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص ، أو يدخل عليه (خلل) من قبل غفلته عنه .

ومنها الثواب : وهو المعيد إلى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته وندم على معيته ، ولا يحبط بما قدم من خير ، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان .

ومنها الديان : أخذ من ﴿ مالك يوم الدين ﴾^(٢) ، وهو الحاسب والجازي لا يضيع عملاً ، ولكنه يجزي بالخير خيراً وبالشر شراً .

ومنها الوفي : من قوله : ﴿ فيوفيههم أجورهم ﴾^(٣) . وقوله : ﴿ أوف بعهدكم ﴾^(٤) ومعناه لا يعجزه جزاء المحسنين ، ولا يمنعه مانع من بلوغ تمامه ، ولا تلجئه ضرورة إلى النقص من مقداره .

ومنها الودود : وقد قيل : هو الواد لأهل طاعته ، أي الراضي عنهم بسأعمالهم ، والمحسن اليهم لأجلها والمادح لهم بها . وقد قيل : هو الودود بكثرة إحسانه ، أي المستحق لأن يود فيعبد ويحمد .

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب اقامة الصلاة » رقم ٨٧٩ ، ص ٢٨٤ . وفي صحيح البخاري

« كتاب الدعوات » الباب ١٨ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الصلاة » رقم ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٤) البقرة : ٤٠

(٣) النساء : ١٧٣

(٢) الفاتحة : ١٠

ومنها العدل : ومعناه لا يحكم الا بالحق ولا يقول الا الحق ولا بفعل إلا الحق ، والحق هذا يلزم الاعتراف به ، هكذا ينبغي أن يكون .

ومنها الحكم : وهو الذي فيه الحكم . وأصل الحكم منع الفساد ، وشرائع الله تعالى كلها استصلاح العباد .

ومنها المقسط : وهو المنيل عباده القسط من نفسه ، وهو العدل ، وقد يكون الجاعل لكل واحد منهم قسطاً من خيره .

ومنها الصادق : خاطب (الله) عباده بما يرضيه عنهم ، ويستخطه عليهم ، وبما لهم من الثواب عنده إذا أرضوه ، والعقاب إذا أسخطوه ، فصدقهم ولم يعزهم ولم يعزهم ولم يلبس عليهم . وهذه الأسماء فيما جاء عن نبينا ﷺ .

ومنها النور : وهو الهادي لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدر كون إلا ما سهل لهم ^(١) ادراكه . والحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته .

ومنها الرشيد : وهو المرشد ، وهذا مما يؤثر عن النبي ﷺ . معناه الدال على المصالح والداعي إليها ، فهذا من قوله عز وجل : ﴿ وهيماء لنا من أمرنا رشداً ﴾ ^(٢) ، فإن مهيماء الرشيد مرشد . وقال : ﴿ ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ^(٣) ، فكان ذلك دليلاً على أن من هداه فهو وليه ومرشده .

ومنها الهادي : وهو الدال على سبل النجاة والمبين لها للثلا يزيغ العبد (ويضل) فيقع فيما يرديه ويهلكه .

ومنها الختان : وهو الواسع الرحمة ، وقد يكون المبالغ في اكرام أهل طاعته إذا وافوا دار القرار لأن من حن إلى غيره من الناس أكرمه عند لقائه وكلف به عند قدومه .

ومنها الجامع : وفي القرآن : ربنا انك جامع الناس لاشتات الدارين من الأموات وذلك يوم القيامة .

ومنها الباعث : يبعث من في القبور احياء ليحاسبهم ويحجزهم بأعمالهم .

ومنها المقدم : وهو الممطي لموالي الرتب .

(٢) الكهف : ١٧

(٢) الكهف : ١٠

(١) وردت في الاصل (سهلهم)

ومنها المؤخر : وهو الدافع عن عوالي الرتب .

ومنها المعز : وهو الميسر أسباب المنعة .

ومنها المذل : وهو المعرض للهوان والضعفة . وهذه الأسماء السبعة مما ورد به الخبر عن النبي ﷺ ، ولا ينبغي أن يدعى جل ثناؤه بالمؤخر إلا مع المقدم ، ولا بالمذل إلا مع المعز ، ولا بالمميت إلا مع الحي المحي ، كما قلت في المانع والمعطي .

ومنها الوكيل : وهو الموكل والمفوض إليه ، علماً بأن الخلق والأمر ، لا يملك أحد من دونه شيئاً .

ومنها سريع الحساب : فقليل معناه لأ يشغله حساب أحد عن حساب غيره ، فيطول الأمر في محاسبة الخلق عليه . وقيل معناه : انه يحاسب يوم القيامة في وقت قريب لوتولى المخلوقون مثل ذلك الأمر في مثله لما قدروا عليه ، ولاحتاجوا إلى سنين لا يحصيها إلا الله عز وجل .

ومنها ذو الفضل : وهو المنعم عما لا يلزمه .

ومنها ذو انتقام : وجاء في الآثار : المنتقم وهو المبلغ بالمعقاب قدر الإستحقاق .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ : انه قال : « لا تقولوا الطبيب » « ولكن » قولوا الرفيق ، فانما الطبيب هو الله (١) . ومعنى هذا ان المعالج للمريض من الأدميين وإن كان حاذقاً متقدماً في صناعته ، فانه قد لا يحيط علماً بنفس الداء ولئن عرفه وميزه فلا يعرف مقداره ، ولا مقدار ما استولى عليه من بدن العليل وقوته ، ولا يقدم (٢) في معالجته إلا طبيباً عاملاً بالأغلب من رأيه وفهمه ، لأن منزلته في علم الدواء كمنزلته التي ذكرتها في علم الداء ، فهو لذلك ربما يصيب وربما يخطئ ، وربما يزيد فيغلو وربما ينقص فيكبو ، فاسم الرفيق « إذا » أولى من اسم الطبيب لأنه يرفق بالعليل فيحميه ما يخش أن لا يحتمله بدنه ويطعمه ويسقيه ما يرى انه أرفق له .

فأما الطبيب فهو العالم بحقيقة الداء والدواء ، والقادر على الصحة والشفاء ، وليس

(١) ورد بهذا المعنى في مسند الامام احمد بن حنبل ج ٤ ، ص ١٦٣ .

(٢) يقدم : يتقدم .

بهذه الصفة إلا الخالق البارئ المصور ، فلا ينبغي أن يسمى بهذا الاسم أحد سواه . فأما صفة تسمية الله تعالى به فهو أن يذكر ذلك في أحوال الإستشفاء مثل أن يقال : اللهم انك أنت المصح والممرض والمداوي والطبيب ونحو ذلك . فأما أن يقال : يا طبيب كما يقال يا رحيم أو يا حلیم أو يا كريم ، فان ذلك مفارقة لأداب الدعاء ، والله أعلم .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ : قال « اللهم اشف أنت الشافي » (١) وقد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ، لأن الله عز وجل يشفي الصدور من الشبهة والشكوك ومن الحسد والغلول (٢) ، والابدان من الامراض والآفات ، ولا يقدر على ذلك غيره ، ولا يدعى بهذا الاسم سواه . ومعنى الشفاء رفع ما يؤدي أو يؤلم في البدن .

ومنها ما جاء عن رسول الله ﷺ : انه قال : « ان الله حي كريم » (٣) ومعناه أنه يكره أن يرد العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة اعطاؤه إياه وإجابته إليه ، فهو لا يفعل ذلك الا وأنه لا يخاف من فعله ذما كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعل أمور وترك أمور ، فان الخوف غير جائز عليه والله أعلم .

فصل

ولله جل ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة :

منها ذو العرش : ومعناه الملك الذي يقصد الصافون حول العرش لتعظيمه وعبادته ، فهذا قد يتبع إثبات الباري جل ثناؤه على معنى ان للعباد ملكاً ورباً يستحق عليهم أن يعبدوه ، وقد يتبع التوحيد على أن المعبود واحد والملك واحد وليس العرش إلا لواحد ، وقد يتبع إثبات الابداع والاختراع له لأنه لا يثبت العرش إلا لمن ينسب الاختراع إليه ، وقد يتبع التدبير له ، على معنى انه هو الذي رتب الخلائق ودبر الامور مقلداً بالعرش على

(١) ورد في سنن ابن ماجه «كتاب الجنائز» رقم ١٦١٩ ، وفي صحيح البخارى «كتاب المرض» باب ١٩ .

(٢) مفردها غله وهي الخيانة والحقد .

(٣) ورد في سنن ابن ماجه «كتاب الدعاء» باب ١٣ رقم الحديث ٣٨٦٥ ، وفي سنن ابي داود

«كتاب الوتر» باب ٢٣

كل شيء ، وجعله مصدراً لقضاياه واقداره ، فرتب له حملة من الملائكة ، وآخرين منهم يصفون حوله ويعبدونه .

ومنها ذو الجلال والاكرام : ومعناه المستحق بان يهاب لسلطانه ويشئ عليه بما يليق بعلو شأنه . وهذا قد يدخل في باب الاثبات على معنى : ان للخلق رباً يستحق عليهم الاجلال والاكرام ، ويدخل في باب التوحيد على معنى : ان هذا الحق ليس إلا المستحق واحد .

ومنها الفرد : لان معناه المنفرد بالقدم والابداع والتدبير .

ومنها ذو المعارج : وهو الذي إليه يعرج بالارواح والاعمال . وهذا أيضاً يدخل في باب الاثبات والتوحيد والابداع والتدبير ، وبالله التوفيق .

فصل

وإذا ثبت التحاق معاني هذه الاسماء التي عددها بالعقائد الخمس التي وصفتها ، وثبت انضمام شهادة أن لا إله إلا الله إياها ، ثبت انها تنظم معنى هذه الأسماء التابعة لها ويشتمل عليها كلها ، فحصلت أجمع الأفكار وأسناها وأفخمها وأعلاها وأولاها بان يتقرب إلى الله تعالى ويؤدي شكر ما علم من البيان بادامة ذكرها واستعمال اللسان ما أمكن بها ، وحق لها أن تدعى كلمة التقوى كما دعاها الله ، ويعصم الدماء والأموال والأعراض بها ، ويدخل الجنة من كانت آخر كلامه ، وترزح عن النار من قالها مخلصاً من قلبه ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، فالحمد لله الذي هدانا وإياه يستودعها ليحفظها علينا ويؤديها بفضلنا أحوج ما يكون لها وينفعنا بها انه ولي ذلك والقادر عليه .

فصل

وما يتبع الايمان بالله جل ثناؤه التفكير في إثبات الله تعالى جده للاستدلال بها على إثباته ووحدانيته وقده وعظمته ووجوب طاعته ، فان في أخطار ذلك بالقلب تأكيذاً للايمان وتثبيتاً للقلب ، والاطراء له ، ودفعاً لخطوات الباطل عنه ، والتفكير في وعد الله

ووعيده لينتهي إلى ما وعد به الثواب ويبقى ما أوعده عليه بالعقاب .
قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (٢) فأخبر عز وجل ان في خلق السموات والارض وغيرهما آيات ، وأمرنا بالنظر فيهما ، والمنظر فيها تدبرها ليوقف منها على ما هي اثبات له ودلالات عليه ، من أن لنا فاعلا حياً عالماً قادراً حكيماً ، إذ كانت آثار الصنعة لازمة لها ، والصنع يقتضي صانعاً فلا يتعذر منه الصنع حتى يكون عالماً به قبل أن يصنعه ، قادراً عليه ، ولا يأتي منه متقناً شيء حتى يكون مع علمه وقدرته حكيماً ، ولا تجتمع القدرة والعلم والحكمة في فاعل إلا وان يكون حياً يريد ويختار ، فيأتي الفعل منه على ما يريد .

فان قال قائل ومن لكم بان أثر الصنعة موجود في السموات والارض !
قيل له : ان السماء جسم محدود متناه ، والمحدود والمتناهي لا يجوز أن يكون قديماً ! لان القديم هو الموجود الذي لا سبب لوجوده ، وما لا سبب لوجوده .
فلا جائز أن يكون له نهاية لانه لا يكون وجوده إلا إلى تلك النهاية أولى به من وجوده دونها أو وراءها . ولان المتناهي لا يكون الوجود ، لانه إلى نهايته يكون موجوداً ثم يكون وراء نهايته عدماً ، والقديم لا يعدم فصح ان المتناهي لا يجوز أن يكون قديماً والسماء متناهية ، فثبت بمقدمه .

فان قال قائل : وما الدليل على ان السماء متناهية !
قيل : الدليل على ذلك ، أنها متناهية عياناً من الجهة التي تليها ، فدل ذلك على انها متناهية من الجهات التي تراها ولا نشاهدها ، لان بتناهيها من هذه الجهة قد أوجب أن لا يكون منها قديماً موجوداً إلا لسبب فصح ان مالا يليها منها فهي كذلك أيضاً ، لانه لا يجوز أن يكون شيء واحد بعضه قديم (٢) وبعضه غير قديم . وأيضاً فان السماء جسم

(٢) الاعراف : ١٨٥

(١) آل عمران : ١٩٠

(٣) وردت في الاصل (قديماً) .

واحد وكل جزء منه محدود متناهي ، فدل ذلك على ان جميعها محدود متناهي .
فان قال قائل : ما أنكرت انها على ما هي عليه من الاجزاء المهيمة ولا غاية لها
ولا نهاية !

قيل له : قد ثبت ان كل جزء منها متناه ، فبطل بذلك أن يكون لها جميع ، لانه
إذا كان كل جزء منها متناهياً ، فبطل بذلك أن يكون لها جميع ! لانه إذا كان كل جزء
منها متناهياً ثبت انه ليس موجوداً بذاته لا لسبب لكن وجوده عند فاعل ، وإذا ثبت
ذلك لم يخل الفاعل أن يكون قد يقل السماع وفرع منها ، أو يكون لم يفعلها ولم يفرع
منها ، فان كان قد فعلها وفرع منها ، فقد ثبت ان الاجزاء جميعاً وكلاً ، وفي ذلك
ثبوت الابتداء والانتها .

وان كان لم يفرغ منها والموجود يومنا إذا نقص السماء لا كلها ، وليس هذا قول أحد
على أنه : ان كان لم يفرغ فمن ذلك لم يكن متناهياً ، كما قد خرج إلى الوجود منها متناهي
ولا ضير مما لم يخرج إلى الوجود لان اتباع الفعل لا يبطل ثبوت الابتداء ، ولا انكار وجود
الانتها ، ولان كل جزء من السماء إذا كان متناهياً ، وكان هذا وصفاً لا يشذ عنه جزء ،
ولم يبق منها ما يوصف بعدم التناهي اليه ، لانه لا يبقى ، وأقولنا كل جزء شيء لاخر ،
فيرجع الوصف بعد التناهي اليه ، فصح باطلاق القول : ان السماء متناهية . وفي ثبوت
التناهي ان يكون وجودها لذاتها لا لسبب . فصح ان وجودها لموجود أوجدها ، وليس
ذلك إلا الله القديم جل ثناؤه .

فان قال : انكم ان كنتم وجدتم السماء متناهية ، فانما وجدتموها متناهية إلى جسم
فاقصوا بذلك على ان الجهة التي لا تليكم منها متناهية إلى شيء آخر ، فتكون ذوات
الموجودات غير متناهية ، وكل نوع منها متناهي الخواص الثابتة له ، لهذا لا يوجب الحدث !
فالجواب : ان الموجودات إذا كانت على أنواعها ، وكل نوع منها متناهياً في خواص
ثابتة له ، فقد وجب أن تكون الانواع كلها متناهية ^(١) في الخواص الثابتة لجمعها . وإذا
كانت لا تنفك عن تلك الخواص ، وقد وجب أن تكون متناهية في حكمها ، فليس وراء
ذلك إلا أن تكون متناهية في أنفسها .

(١) ورد في الاصل : متناهية .

ويقال له : ان كان ما عارضتنا به لازماً ؟ فقل : إن الذي تنتهي اليه أجسام العالم بما تسميه خلاء لما كان متناهيًا إلى أجسام ، وجب أن يكون وله وراء ذلك تناهي إلى أجسام وأنت لا تقول ، بل تقول ان الخلاء لا نهاية له ، فبطلت بذلك معارضتك .

ويقال له : السماء من الجهة التي تليها متناهية عندك إلى النار ، والنار إلى الهواء والهواء إلى الماء والارضين ، ومعلوم انه لا سبيل إلى اثبات انها تنتهي من الجهة التي لا تليها إلى مثل ما تنهت اليه من الجهة التي تليها ، فثبت ان القضاء في هذا الغائب بحكم المشاهد ممتنع باتفاق . وأيضاً فان الذي يدعونه لا سبيل إلى إثباته لأنه لو كان في الأول مكان خال لا شيء متمكن فيه لما جاء ! فان تغير عن حاله . فيصير ببعضه أو كله مكاناً للأجسام يتمكن فيه ! لأنه لو كان مات خلا كبقية ، لكان التغير مستحيلًا عليه مع بقاء نفسه ، ولما كان إثبات الخلاء يؤدي إلى المحال صح أنه سبيل إلى إثباته ، وان أجسام العالم كانت لا إلى شيء والله أعلم .

وأيضاً : فان الأفلاك لا تعزى عن الأحداث لأنها دائمة التحرك ، والحركة حدث ، لأن الحدث ما لم يكن ثم كان ، فلما لم يعرض الحدث وجب أن يكون بانفصالها لأن كل ما لم يكن خالياً من شيء لم يحز أن يكون له الوجود سبق عليه ، الا ترى ان الرجلين إذا كانا قوامين^(١) قد ولدا في وقت واحد ، لم يحز إذا كان أحدهما ابن خمسين سنة أن يكون الآخر ابن ستين سنة ، فكذلك إذا كانت الأفلاك لم تخل من الحركة ، وكانت الحركة بأحد ، لم يحز أن تكون الأفلاك قديمة .

فان قال قائل : فاني أقول ان الأفلاك كانت ساكنة ثم تحركت ! قيل له : هذا محال ، لأنها لو كانت قديمة ، وكانت في قدمها ساكنة ، لكان حكم سكونها حكم وجودها ، وهو انها تكون ساكنة لسكون لا سبب له ، كما تكون موجودة بوجود لا سبب له ، ولو كان كذلك لما جاز أن يعدم ذلك السكون إلى الحركة ، كما لا يجوز - عندك - على ذاتها أن تعدم ، وان كانت ، قد كانت ساكنة ثم تحركت . فذلك دليل على أن سكونها لم يكن لها إلا عن سبب ، وهو لتسكين الفاعل أبلها^(٢) وإذا كان التسكين

(٢) هكذا وردت في النص والاصح (قبلها) .

(١) ورد في الاصل اذا كانا (برين) .

فعل فاعل بها كالتحويل ببنيانها ، لم يخل من تسكين مسكن وتحريك محرك ، فلم يحز مع ذلك إلا أن تكون سابقة لها . فثبت أن فاعل السكون والحركة فيما هو فاعلها ، وبالله التوفيق .

فان قال قائل : ان حركة الفلك حركة دور وحركة الدور لا بدء : ولا نهاية ، فكيف ؟
فالجواب : ان هذا جهل عظيم ! لأن حركة المنحنون وحركة الرحى حركة دور ، ولا يخلو الواحد منهما من أن تكون لحركته بدء ونهاية . لأنه من قبل أن يتحرك يكون ساكناً ثم يعود بعد حركته إلى السكون ، فمن استحال أن تكون لحركة الأفلاك بدء ونهاية ، وإن كانت حركة دور .

ويقال له : حركة دور الدور ولا تخلو من الإبتداء لأنها إذا لم تكن ثم كانت ثم انقطعت ، فقد وجد الإبتداء والإنتهاء ضرورة . وأما الذي يصح أن يقال في هذا ان جزءاً مما يتحرك حركة الدور لا يسبق الحركة إليه قبل جزء ، فتكون الأجزاء لا أول لها من حلول الحركة إياها ، ولسنا ندفع أن يكون ذلك حال الفلك . وأما الحركة نفسها ببدءها وانتهاءها فيما بينا عيان ، فكان حكم الغائب مثله والله أعلم

ويقال : ان المتحرك دائماً دائماً الغير ، والموجود لذاته لا لسبب لا يجوز عليه التغير ، فلو كان الفلك موجوداً لذاته لا لسبب ، لم يحز أن يكون دائماً المتحرك فيكون وقتاً فوق الأرض ووقتاً تحت الأرض ، ولم يكن لونه فوق الأرض حين يكون فوقها أولى من كونه تحتها ، ولا كونه تحتها حين يكون كذلك أولى من كونه فوقها ، فثبت أنه موجود لسبب ، فان الذي له حده هو الذي يدبرها يؤخذ عليه .

وأيضاً فان الأفلاك طيمات معدود ، وإذا ثبت العدد أثبت التناهي ، وفي ذلك ما يوجب حداثتها . وأيضاً فإن الافلاك أجزاء من السماء متحركة ، وفي ذلك بيان أن بعض السماء متحرك وبعضها ساكن وكل واحد منهما حد للآخر ، فإن الجزء المتحرك منها ينتهي إلى الساكن والجزء الساكن منها ينتهي إلى المتحرك ، فقد ثبتت النهاية للبعضين ، وفي ثبوت المنتهين بطلان أن يكون بطلان موجود لذاتها لا لسبب وبالله التوفيق .

وما قلته في السماء فهو في الأرض مثله وأبين ؟ لأن أجزاء الأرض تقبل في العيان أنواعا من الإستحالة ، وكذلك الماء والهواء لأن أجزاء كل واحد من هذه الأشياء يجتمع مرة

ويفترق أخرى وينقل من حال إلى حال وفي ذلك شيان : أحدهما ان ذلك يبين انها ليست موجودة لأنفسها من غير سبب ، لأن الموجود لنفسه لا يجوز عليه التغيير ، فانا اذا توهمنا له صفة ما وجب أن يتوهمها ثانية له لنفسه كالوجود ، فاذا ثبت له ذلك الصفة لم يجوز أن يعدم الى خلافها لأن ذات القديم لا يجوز أن تكون محلا للحوادث ، وفي تعاقب الأحوال المختلفة على أجزاء ما ذكرنا دليل على أنها غير موجودة لأنفسها . والآخر : انها إذا لم تكن قط منفكة من الحوادث ، فقد وجب أن تكون بانفسها حدثا كما ثبت .

فان قال قائل : فانا لا نقول أن الطينة الأولى كانت خالية من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون .

قيل له : ومن سلم لكم أن طينة كانت ، تصفونها بما ذكرتم أو خلافه ، وانه ضرورة تدعو إلى انتهائها . ويقال لهم : إن كانت ! فاي العرضين سبق إليهما الاجتماع أو الافتراق؟ لانا نجد الاجسام قابلة للأمرين ، فان قالوا : الاجتماع هو الذي سبق ! قيل : فهذا يدل على انها كانت ابعاضاً مجتمعة فكيف يقولون : انها كانت خالية من الاجتماع! على انها لو كانت في الأول مفترقة لكان الافتراق واجبا لها لذاتها ، ولما جاز على الافتراق أن يقدم ولو كانت في الأول مجتمعة ، لكان الاجتماع واجبا لها لذاتها ، ولما جاز عليها أن يقدم في وجود الاجتماع والافتراق متعلقين على الأجسام دل على أن كل واحد منها ليس بأولى في وجود الجسم غير منفك منها ما دل على أنه حدث مثلها والله أعلم .

فان قال قائل : إذا ثبت لكم ان ابعاض الأرض والماء والهواء تقبل الإستحالة ولم يثبت لكم ان كلها تقبل الإستحالة ، ولأن السماء تقبل الإستحالة في جزء لا في كل ، فمن أين ادعيت ان كلها أو السماء حدث .

فالجواب : انه إذا لم يكن جزء من هذه الأشياء إلا وهو قابل للاستحالة ، صح ان الكل لم يعدم إستحالته ، لأن الإستحالة غير جائزة عليه لكنه الذي يحيل ابعاضها منها ليس يحل كلها ولو شاء أن يحيله لم يمتنع عليه . وهذا أيضاً حجة في الافلاك وفي سائر أجزاء السماء ، لأن السماء متماثلة الاجزاء ، فلما جاز على بعضها أن لا يتحرك جاز على البعض الآخر أن يعدم حركته فيصير إلى مثل حال سائر الاجزاء ، وجاز على غير المتحرك منها

أن يتحرك فيصير إلى مثل سائر الاجزاء ، وفي هذا ما ابان ان المتحرك منها غير متحرك لعينه ، ولا غير المتحرك منها غير متحرك لعينه ، ولا لان بخلاف الصفة التي هي لواحد منها غير جائز عليه والله أعلم .

وأيضاً: فان دلالة الحدث ليست في الإستحالة في السماء فقط إذ لم يكن لجملة النار أو جملة الهواء أو جملة التراب إستحالة مشاهدة، أو لم يكن للسماء إستحالة مشاهدة في جزء امتنع عليها القضاء الحدث . فان استحالة الاجسام التي في الارض باصلها جملة غير مشاهدة ، وانما المشاهد استحالة أجزاء بها ، لان الواحد بعد الواحد يموتون، وتصيبهم الآفات ، وكذلك الواحد بعد الواحد من الشجر والدواب والطيور ، وليس في أن الاجسام كلها تشاهد بطلانها وانتقاصها، دليل على أن البطلان والانتقاص غير جائزين على كلها، بل هما جائزان على الكل لجوازهما على الابعاض والحكم بالحدث عليها كذلك واجب .

فكذلك استحالة كل الماء والنار والهواء والتراب وان لم يكن مشاهدة . فكذلك لا يدل على أن الإستحالة غير جائزة ، لكنها جائزة عليه لجوازها على الابعاض والحكم بالحدث كذلك عليه واجب . واستحالة السماء في الاجزاء والكل وان لم تكن مشاهده ، فقد وجد من نظر الاستحالة ما يدل على الحدث ووجود بعض امارات الحدث تكفي لإيجاب حكم الحدث . فان القدم كما لا يقارن جميع دلائل الحدث ، فكذلك لا يقارن أحدهما . وقد ذكرنا فيما تقدم أن مجرى السماء واشهاداتها يدلان على حدثها . فان كانت إستحالتها لم توجد ولم تشاهد في كل ولا جزء ، فذلك لا يفسد هذا الاصل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان اشتغال الفلك على كواكب لها طباع في الحر والبرد والرطوبة واليبس يدل على أن الفلك يضر الاجسام الارضية المستمثلة على هذه المعاني وذلك يدل على أنه محدث مصنوع ، لان هذه المعاني متضادة متنافرة ، فلم يكن لتجتمع وتتألف بانفسها ، فان الناس لو اجتمعوا فاحتالوا ليجمعوا بين نار وماء في مكان واحد ، ويدفعوا النار عن اماته الماء والماء عن إطفاء النار ، لما قدروا عليه .

فلما كانت هذه المعاني قد اجتمعت في الكواكب ، علمنا ان ما سرى فوقها فثبتوها

(١) لقد وردت في الاصل (الطائر) .

على الاجتماع، ودبر الكواكب بالجمع بينها فيها، ولولا أن ذلك كذلك لم يجتمع مع مضارها ومنافعها في جسم واحد .

ويمكن أن يستدل بهذا المعنى على أن الافلاك قابلة للاستحالة والتغير والفساد ، لانه إذا اجتمعت فيها كيفيات متفاوتة ، فقد ضاهت الاجسام الارضية ، وهي بزعمهم أنها تقبل الفساد لاجتماع الكيفيات المتضادات فيها. فاذا كان هذا المعنى موجوداً في الكواكب وجب القضاء عليها بأنها قابلة للفساد وثبت بذلك حدثها لان القدر لا يفسد ولا يتغير وبالله التوفيق .

وأيضاً فان من قولهم ان كل ما يكون في هذا العالم فمتأثر من الافلاك والكواكب في هذا العالم التغير والفساد والاستحالة ، فان كان ذلك كله من آثار الافلاك والكواكب ففيها إذا مكان الفساد والاستحالة والغير ، وإن لم يكن ذلك شيء منها فكيف يتأثر شيء منها في غيرها ما ليس فيها ؟ فأخذ القولين خطأ ، وبالله التوفيق .

فصل

فان قال قائل : ان كان دليلكم على حدث الجوهر بغير الاوصاف عليها ، فان هذا المعنى منتقض عليكم بالباري جل ثناؤه فانه قدير بلا خلاف ، ولم يكن موصوفاً بالفعل إلى أن فعل واستحق إسم الفاعل ، وأفعاله أيضاً لم تقع ضربة واحدة ، ولكنه فعل وترك .

وكذلك هو في المستقبل يفعل ولا يفعل ، وقد قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(١) فهو يريد بعد ان لم يكن مريداً ، ويقول : كن ، بعد ان لم يكن قائلاً ، ثم يدع الارادة ويدع القول . ويعلم المعلوم معدوماً ، فإذا أوجده علمه موجوداً ، وكل هذا أحوال شتى وأوصاف مختلفة ، ولم يكن في جوارها على الباري عز وجل ما يفسد القول بقدمه . فما أنكرتم أن اختلاف الاحوال على الجواهر لا يفسد القول بقدمها !

(١) يس : ٨٢ .

وان قلتم ان الفعل وغير الفعل موجبان بغير أحوال المفعول . فلا يوجب ان تغير أحوال الفاعل . قلنا : وكذلك تعاقب الاعراض على الجواهر ، فوجب تغير الاعراض في أنفسها . فأما الجواهر فإنها بحالها لا تتبدل ، ولأنها لا تستحيل ولا تتغير ولا تفسد ، فما دلالتكم إذا على حدثها ؟

فالجواب : ان حمل الجواهر للاعراض هو الدليل على حدثها ، وذلك أن للعرض حدوثاً وانقضاء ولا بد له من شيء يكون حدوثه وانقضائه فيه ، ووجدنا الجوهر حاملاً للأمرين فيه ودل ذلك على أن بقاء الجوهر عرض حادث ، فلذلك أمكن أن يحدث العرض فيه .

ولو كان الجوهر قديماً لم يكن بقاءه عرضاً ، فكان لا يلائم الوجود العرض من شيء آخر ولا يحمله ، الا ترى أن الباري جل ثناؤه لا يجوز أن يكون حاملاً للأعراض وما ذلك إلا كما وصفت ، فلو كانت الجواهر قديمة لكان حكمها فيما ذكرت حكمه ، ولما لم يكن كذلك بل كانت حاصلة للاعراض ، علمنا أن المعاني التي تسمى أعراضاً إنما جاز أن يعترض فيها المجانسة التي بين ثقلها حال حدوث الاعراض فيها وبين بذلك الاعراض .

وهذا يدل على أن الجواهر ليست بقديمة ، ومعنى وصفنا إياها بالتغير انها مجال للاعراض فهو يقبلها أو يحملها مع اختلافها فتصير لاجل ما تحملها منها موصوفاً مرة بصفة وموصوفاً بضدها أخرى . والعقلاء لا يفرقون الغير إلا هذا ، وما يزيد وضوحاً ان من الاعراض التي تحمل الجواهر ما يعدمها بفعل حال إلا وقد يحلها خلاف ذلك فيعجزها عن ذلك الفعل حالاً ، وكالإنسان يصبح ليفعل أفعالا كثيرة ، ثم يعرض فلا يتبع للملك الافعال ، ومعلوم أن الفعل إنما يقع من الجواهر وإذا اتسمت للفعل حالاً ولم يتسع له أخرى ، فقد وجب التغير .

وأما الباري جل جلاله فإنه تعالى عن الاعراض أن تحله ، والاحوال أن تكون له . وأما وجود الفعل منه بعد ان لم يكن ، فلا يوجب لغيره لانه لا يفعل في نفسه وإنما يفعل في غيره ، فذلك الغير هو الذي اختلف حاله ، فكان مرة معدوماً ومرة موجوداً ، وأما الارادة والقول فان أصحاب الحديث يقولون : ان الله جل جلاله لم يزل مريداً أن

تكون كل كائنة في الوقت الذي كانت فيه ، وهذا يبين انه لا تغير له بوجه من الوجوه .
وأما غير أهل الحديث ، فإن الارادة عندهم من صفات الفعل ، لا من صفات الذات ،
فهل تحل المراد ولا تحل الود ، كما أن الخلق حل المخلوق ولا تحل الخالق ، فلا يؤدي
واحد من القرائن إلى إجازة التغير على الباري جل ثناؤه وتقدست أسماؤه .

وأما العلم فانه اثبات الشيء على ما هو به ، وإذا كان الشيء معدوماً وما علمه معدوماً
وإذا كان موجوداً ، علمه موجوداً ، فيثبت في كل حال على ما هو به ، وذلك لا يوجب
تغير علمه ، انما يوجب تغير المعلوم ، لأنه علمه بالمعدوم لم يكن إلا اثباته إياه على ماهو
به ، فإذا صار موجوداً فقد أثبتته على ما هو به بان ان العلم اختلف وبالله التوفيق .

فصل

فان قالوا : لا يجوز أن تكون طينة العالم إلا قديمة لأن حدوث شيء لا من شيء ،
مستحيل في العقل !

فيقال لهم : ان كان ذلك مستحيلا في عقولكم ، فليس بمستحيل في عقول عالم من
الناس مثلكم ، أو أكثر منكم . فكيف صارت عقولكم عيارا على عقول غيركم دون أن
تكون عقول غيركم عياراً على عقولكم ! وقد أجبوا ان الحادث القديم قسمان يخرجهما
العقل عند تقسيم الموجود وكتخريجه الموجود والمعدوم والجائز والممتنع والحسن والقبيح .
فكما ان حقيقة كل من ذلك ثابتة لا تدفع ، فكذلك الحادث والقديم لا تدفع حقيقة واحد
منهما فلا يحال وجوده . فاذا كانت حقيقة القديم الموجود لا عن أول كانت حقيقة الحادث
الموجود عن أول ، فوجب أن لا تدفع حقيقة الحدث عن بعض الموجودات ، ولا يقال
لا حادث ، كما لا يقال لا موجود أو لا معدوم ، أو لا حسن ، أو لا قبيح ، أو لا جائز ،
أو لا ممتنع . فصح بما ذكرنا ان الحدوث ليس بمستحيل في الفعل إذا كان العقل قد خرج
في مقابلة القدر ، ولا جائز أن يثبت به يمنع مفعه ويدفعه .

وقد أجبوا بأن حدوث الشيء لا من شيء ان كان غير جائز ، فلسنا نقول ان شيئاً
حدث بنفسه لا من شيء ، بل نقول انما حدث بمن يحدثه ، لأنه أحدثه محدث وأوجده

موجود ، وأكدهذا على من أقرب الله جل ثناؤه ، وأنكر الاختراع بأن الله جل ثناؤه لو كان لا يقدر على أكثر من تركيب الجسم من جواهر موجودة لكان ذلك نقصاً به وعجزاً ، لأن منزلته لا تعدوا في التركيب منزلة الناس .

وكان فضل ما بين تركيبه وتركيب الناس ، كفضل صناعة الصانع على صناعة النجار ، وفضل صناعة الرفاء على صناعة الخياط ، وفضل صناعة الخباز والطباخ على صناعة من يجمع شيئاً إلى شيء بلا تأليف أو تركيب وذلك غير جائز . فصح أن لا يحتاج في الخلق إلى مادة تكون حاضرة في تركيب منها جسم ، لأن الحاجة نقص ، وشيء من النقائص غير جائز عليه وبالله التوفيق .

ويقال لهم : ليس في إبداع شيء إلا من شيء إلا ما في تركيب الجواهر من غير مماسة إياها ، وذلك ليس يستحيل في العقل . فما أنكرتم ان الإبداع ليس بمستحيل فيه .

ويقال لهم : إذا جاز ان تركيب الباري جل ثناؤه الجواهر بلا مماسة ، لأنه قادر لا بسبب ، فلذلك يفعلها ويوجدتها عن عدم لأنه قادر لا بسبب ، ولا يلزم على هذا الحال الذي لا يجوز وصفه لمقدور ، لأن ذلك إنما استحال لتناقضه ، ولا تناقض في وجود الجوهر بعد عدمه . فصح انه يجوز أن يكون مقدوراً بلا مماسة .

ويقال لهم : الموجود الحي العالم القادر لا لسبب ينيل غير الموجود وجوداً ، فلا يستحيل ، كما انه ينيل غير العالم علماً ، وغير الحي حياة وغير القادر قدرة ، بل ذلك أولى ، لان الإيجاد أخص بالموجود من العلم والأحياء والأقدار ، وإذا جاز عليه إيجاد العلم أو القدرة أو الحياة لغيره ، لأنه مع هذه الصفات موجود لا لسبب كان إيجاد الوجود لغيره مثل ذلك أو أجوز وبالله التوفيق .

ويقال لهم : إن المادة التي تدعون قدمها ، إذا حقق الخلاف فيها رجع إلى اللفظ دون المعنى ، لأنكم تزعمون انها قديمة بالقوة دون الفعل ، والذي يعقل من الموجود بالقوة والموجود بالفعل ، ان الموجود بقوة ما يمكن ان يخرج إلى حقيقة الوجود ولما خرج ، والموجود بالفعل هو الذي خرج الى حقيقة الوجود وارتفع عنه اسم المعدم ، وإذا كان كذلك ، فليس يجب قولكم : إن المادة قديمة ، إلا انه يمكن وجوها . وقد قلتم : انها ما لم تخرج إلى حقيقة الوجود ، وهي التي تسمونه الوجود بالفعل لم تقبل الخلق والتركيب فثبت

ان الباري جل ثناؤه اخرجها - عند تركيب ما ركب فيها - الى حقيقة الوجود ، وليس قبل ذلك الاخراج الا العدم . فصح انها كانت معدومة فأوجدها الباري وبالله التوفيق .
ويؤكد هذا اتفاقهم على انها - قبل تركيب ما ركب منها - لا جسم ولا جوهر ولا عرض ، وهو بعد التركيب جواهر وأجسام فثبت ان الباري هو الفاعل للجواهر جواهر كما انه هو الفاعل للاجسام أجساماً ، وانها من قبل أن تكون جواهر لم تكن إلا عدماً ، إذ لو كانت موجودة لا جوهرأ ولا عرضأ ، لكان موجوداً كذلك لنفسه ، ولم يحز أن يتغير عن ذلك إلى حال يحدث له في نفسه ، إذ القديم لا يتغير وبالله التوفيق .

فقال القائل: اليس الباري جل ثناؤه كان غير فاعل ففعل ، ولم يستحل ذلك من حيث انه قديم ، فما أنكرتم ان المادة لم تكن جوهرأ ولا عرضأ تصير جوهرأ وعرضأ ولا يستحيل ذلك من حيث انه قديم .

فالجواب : ان الباري عز وجل كان غير فاعل ففعل ، وأفعل في غيره لا في نفسه ، فلم يوجب ذلك ، وإنما أوجب بغير المفعول . والمادة التي تدعيها قديمة إذا لم تكن جوهرأ فجعلها الله تعالى جوهرأ . فقد عبر بفعله الذي فعله فيها ، نفسها . والقديم لا يقبل فعلا لفاعل ولا يتغير ، فانه لو جاز عليه أن يتغير لجاز أن يقدم هذا ما شاء وبالله التوفيق .

فصل

وكل ما ثبت من حدث السماء والأرض فهو دليل على أن لها محدثاً لا يجوز أن يكون حدثاً اتفاقاً . فانه لو جاز أن تحدث السموات والأرضون اتفاقاً ، فلجاز أن يزداد كوكبه ويزداد جبل في الأرض اتفاقاً . ولئن جاز أن يحدث اتفاقاً فلجاز أن يعدم اتفاقاً . وليجز أن يحدث الانسان اتفاقاً ، وليجز أن يحدث عنها أخرى اتفاقاً دون هذه السماء . فإذا كانت اجادة كل شيء مما ذكرنا تجاهلاً ، كانت اجازة ان تكون السموات والأرضون على ما هما عليه من النظام والصنع الشديد المتفق حديث اتفاقاً أولى بالتجاهل وبالله التوفيق .
فان قال قائل : أرأيتم لو قلب هذا عليكم ، قال فقال : لو كان وجودها عن احداث يحدث وخلق خالق لجاز أن يوجد مثلها أو شيء مما ذكرتم اليوم خلقاً له .

قيل له : ولا سؤالا بها اذا كانت خلقا لخالق فعلق وجودها بمشيئته ، فان شاء أحدث وخلق ، وإن شاء لم يحدث ولم يخلق . فأما إذا كان الحدوث اتفاقا ، فليس شيء بالحدوث اتفاقا أولى من شيء ، ولا وقت وجود الاتفاق فيه أولى من وقت ، وإن لم يكن الوجود اتفاقا أولى من القدم اتفاقا ، فهذا فرق ما بين القولين وبالله التوفيق .

فصل

فان قال قائل : قد ثبت جواز أن يكون الباري جل ثناؤه اخترع الجوهر ، فما الذي يدل على أن وجودها من قبل اختراعه لا من حيث انه كان علة له ، فوجب عن وجوده وجودها .

قيل : - وبالله التوفيق - انكرنا ذلك لأن قائل هذا القول لا يخلو من أن يقول : ان الجوهر وجدت لوجود الباري عن غير اختيار منه واردة لوجودها وكونها ، أو يقول : وجب عن وجودها من غير اختيار كان منه ، ولا ارادة !

فان قال : انما وجدت باختياره وإرادته ! قيل له : وجدت عندك بعد ان لم تكن . أو يقول : كانت موجودة معه باختياره وإرادته ! قيل له : وجدت عندك بعد ان لم تكن . أو يقول : كانت موجودة معه باختياره وإرادته ، فان قال : وجدت باختياره وإرادته بعد ان لم تكن ، فهذا قولنا . وإنما الخلاف بيننا في تسمية الله عز وجل علة ، فانا لا نخبر ذلك لما فيه من اتهام الباطل ، وانه اسم لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا وقع عليه من المسلمين اجماع ، ولا هو في معنى ما ورد به النص أو وقع الاجماع عليه .

وإن قال : كانت موجودة معه لا باختياره وإرادته ! قيل له : فهي إذا قديمة عندك . فكل دليل اقنائه على حدثها فهو حجة عليه . ويقال له : ما أنكرت انه يستحيل ، فلا يمكن أن تكون لم تزل موجودة معه بشرط اختياره وإرادته لأن وجودها معه ، يوجب قدمها ، وتعلق ذلك الوجود بإرادته يحل قدمها ، لا ما كان لوجوده سبب لم يكن قديما إذ القديم هو الذي لا سبب لوجوده . وما كان لوجوده سبب ، اختص وجوده بذلك السبب ، فكان موجودا من جهته ولا لجه . ولو توهم منفكا من ذلك السبب لم يكن أن يتوهم موجودا ، وهذا هو المحدث .

فأما القديم فهو الموجود بالاطلاق الذي لا يمكن أن يضاف وجوده إلى ما سواه .
فصح ان وصف الجواهر بانها لم تنزل موجودة مع الباري جل جلاله ، وإن وجودها معه
كانت باختياره و ارادته ، قول متناقض وحكم فاسد .

فان قال : انما كان يلزمني هذا لو أجزت امكان ان كان يكون الباري في الأزل غير
مريد لوجود هذه الجواهر معه . قيل : هذا هو الحال الذي لا يجوز الذهاب اليه . لأن
الجواهر ان كانت لم تنزل موجودة مع الباري ، لم يحز أن يكون الباري بانه شاء لوجودها .
كما لا يجوز أن يوصف بانه شاء لوجود نفسه ، ولأن ما تعلق وجوده بمشيئة شاء
وجب ان يكون وجوده بعد المشيئة ، ولأن مشيئة الموجود لما ليس في حال المشيئة
لمعدوم ، ولا يقوم في وهم . وإنما يتصور في مثل هذا ان يقال : انه شاء لبقاء الموجود
وذلك أيضاً لا يصح ، لأن الجواهر ان لم تنزل موجودة معه ، فوجدتها معلوم بمشيئته .
وإذا كانت موجودة لا بمشيئته لم يحتج في بقائها إلى مشيئة ، لأن القديم لا يجوز عليه العدم
وبالله التوفيق .

ويقال له : إذا نفيت عن الباري صفة الابداع ، دليلك على وجوده ؟ فانا إذا نستدل
على وجوده ، فوجدنا آثار الحدث في عامة الموجودات ، واقتضائها محدثا ، فان لم تكن
الموجودات محدثات فيما إذا عرفت ان لها بارئاً وأثبتته .

فان قال : وجب عن وجوده وجودها من غير اختيار كان منه ولا إرادة ، دخل
عليه ما ذكرت في الوجه الأول ، وهو أن يقال له : محدث بعد ان لم تكن أو لم تنزل
موجودة معه .

فان قال : لم تنزل موجودة معه . قيل له : فما الفصل بينك وبين من قال : انها علة
لها ؟ وقيل أيضاً عن الدليل الذي دله مع هذا القول على التبادي ولن تجد اليه سبيلا .
ويقال له : ما أنكرت أن هذا حكم فاسد ، لأن وجود غيره من قبل اقتضائه إياه
يحل قدم ذلك الغير ، لأن القديم هو الموجود لنفسه لا لسبب فان كان لوجوده سبب كان
موجوداً من قبل ذلك السبب ، ولم يستحق الوصف بالموجود إلا من جهته خاصة ، فثبت
أن الجمع بين إثبات القديم لغيره ووصفه بان وجوده كان من قبل انقضائه إياه قول متناقض
وحكم فاسد .

وان قال : حدثت بعد ان لم يكن . قيل له : ان جاز أن يحدث بعد ان لم يكن لا باختياره ، فأجوز من ذلك وأحق أن تكون حادثة باختياره . وأيضاً فسان وجوده لو اقتضى وجودها لا باختياره لوجب أن تكون قديمة لأنه قديم . ولما جاز له أن يكون موجوداً ، وما يجب وجوده عن وجوده غير موجود لأن ذلك لو جاز وقتاً لجاز أبداً ومنه بطلان أن يكون الباري علة كما قال هذا القائل وبالله التوفيق .

فصل

وإذا ظهر ان العالم صنع صانع حي عالم قادر حكيم ، فالحكيم لا يخلق خلقاً ، ولا يعمل فعلاً لا لعرض صحيح منه ، وهذا هو المعنى الذى نبه الله عز وجل عليه عبادة بقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً ﴾ (١) ، وبقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ (٢) . أي لا لشيء أو من غير غرض كان في خلقهم .

وإذا ثبت ذلك ، وكان العالم مشتمل على حي عاقل مبين ، وعلى احياء لا تفعل ولا تبين وجماد ، لم يحز أن يكون ما يقل مخلوقاً لما لا يعقل ، لأن العاقل أفضل وأشرف من غير العاقل ، فلا يجوز أن يكون العاقل الحكيم خلق الاشرف للادراك والأفضل الأنقص ، لأن ما كان مخلوقاً لغيره كان المخلوق له هو الغالب عليه إذا كان سبباً لوجود ما خلق له .

ولا يجوز أن يكون الأنقص غالباً على الأفضل ، ولأن ما لا يعقل إذا لم يعلم معاني نفسه استحال أن يعلم معاني غيره ، وإذا لم يعقلها ذهب خلق غيره له هدرأ ، وكان فعل ذلك مناقضاً للحكمة . فثبت ان ما لا يعقل مخلوق لمن يعقل ، وذلك أن ينتفع بكل شيء منه على الوجه الذي يصلح له ، والإعتبار يجمعها كلها ، لانه ما من شيء إلا وفيه الدليل على الفاعل القديم المبدع الحي القادر العالم الحكيم ، ثم يكون وراء ذلك في شيء منفعة الاكل وفي آخر منفعة الركوب ، وفي آخر منفعة الحمل عليه إلى غير ذلك مما يكثُر عدده ، ثم الذي يعقل مخلوق ليعلم ما يقع العلم به على حسب العلم الواقع له .

(٢) الطور : ٣٥

(١) المؤمنون : ١١٥

قال الله عز وجل : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ^(١) والعلم بهذه المحسوسات إنما يقع له بالاستدلال والنظر ، وأصلها التفكير المشار إليه بقوله عز وجل : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ^(٣) . وقوله : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ ^(٤) فثبت بذلك أن حفظ الايمان بإدامة التفكير والنظر في الآيات والفكر ليرسخ في القلب منه ما علق به ، ويزداد على الأيام تأكيداً بازدياد الشواهد التي تدرك بالفكر ووضوحها على الأيام ، من أحق الأمور بصرف الهمم إليه ، والعكوف في أكثر الأوقات إليه ، وبالله التوفيق .

فصل

فأما ما وراء إثبات الصانع جل جلاله من التوحيد والتقديس ، فإن دلائل التوحيد كثيرة ، فمنها ما يستدل به على أنه لا قديم سواه ، ومنها ما يستدل به على أن لا إله سواه . فأما أنه لا قديم سواه ، فإن الكلام فيه مع الذين يشبتون نفساً قديمة ومادة قديمة . والذي حملهم على هذا استنكارهم حدوث شيء لا من شيء ، فقد تقدم القول على هذا ، وما يقربه ويثبت به ما فيه كفاية .

وأما النفس ، فقد اختلف متكلموا المسلمين فيها ، فمنهم من أثبتها ، ومنهم من لم يعترف بها ، وإن ثبت وجودها فلا سبيل للملحدين إلى دعوى القدم ، أما إذا كانوا بانفسهم يقولون أنها نزلت من عالم لها علوي ، إلى هذا العالم السفلي ، وتشبثت بالجواهر ، وأنها من قبل كانت عالمة ، فلما حلت ما ليس من جنسها بسبب وغفلت ، فاحتيج إلى تذكيرها ، والتعليم هو التذكير ، وانما تجاور ابدان الحيوانات قسراً لا اختياراً ثم تفارقها عند الموت وترجع إلى عالمها .

ومن تأمل أن هذا كله تغير وتغلب ، والقديم لا يتغير ، فلا يكون له أحوال ، فبطل بما

(٢) الروم : ٨

(١) الذاريات : ٥٦

(٤) آل عمران : ١٩١

(٣) النحل : ١١

يصفونها به أن تكون قديمة . فاما إذا كلموا فيها على سبيل الإنكار ، فقد قيل لهم : ان النفس ليست تكون حياً ، فوقع العلم به ضرورة ولا ببديهة العقل ، والنظر لا يوجبها ، وضر الصادق الذي يلزم الحجة بمثله لم يأتنا به ، فلم يستغني إثباته ؟ فقالوا : بل النظر يدل عليها لأن الأصل الحي العاقل الناطق الحساس الدراك إذا لم يفقد من أعضائه وجوارحه شيئاً .

ومع ذلك فان العقل والبيان والادراكات كلها ترتفع عنه وتزيله . فدل ذلك على أنه كان لهذه المعاني قبل الموت حامل سوى البدن يحملها كلها من صفاته ، وانها انما عدت وارتفعت لزوال ذلك الحامل وانقطاع مجاورته للبدن .

ولولا ان هذا هكذا لوجب أن يرتفع ولا يعدم مع بقاء البدن برمته ، ف قيل في الانفصال عن هذا ان الله عز وجل ركب العقل في القلب وكل نوع من الحسن في جارية تختص به ، والبيان في اللسان . وجعل كل عضو مما ذكرت متيسراً لما هيأ له بالروح الذي جعله سبباً للحياة ، فإذا نزع الروح من البدن ، زال تيسر القلب للعقل وتيسر الاعضاء الحساسة ، وتيسر اللسان للنطق والبيان ، وفي تنزيل الامر على هذا بيان ان لا ضرورة إلى إثبات شيء يدعى نفساً سوى الروح والبدن وإحيائه بهذه الامور اليه وبالله التوفيق . ولا أعلم في الاعتراف بها ضرراً عائداً على الدين بوجه من الوجوه ، وقد قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ يا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ^(٤) . وقال : ﴿ إن النفس لامارة بالسوء ﴾ ^(٥) . الى غير ذلك من آيات كثيرة .

ومع هذا فانا نقر مع السائل في الثواب والعقاب تلجأ إلى إثبات النفس على ما سيجيء بيانه .

وكذلك ما وصف الله تعالى الشهداء من انهم أحياء عنده ، وذهب إليه ابن عباس من

(٣) الانعام : ٩٣

(٢) الشمس : ٨

(١) الفجر : ٢٨

(٥) يوسف : ٥٣

(٤) آل عمران : ١٨٥

أن الإستثناء في قوله عز وجل : ﴿ فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ﴾ (١) راجع إليهم يدعو إلى انتهاؤها ، والله أعلم .

وأما انه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فدلالته إثبات الصانع الواحد لاقتضاء الصنع إياه فالصنع يقتضي الصانع ، ولكنه لا يقتضي عدداً ، وفي وجود الصانع الواحد ما يقوم به الصنع ، فلم يحز إثبات صانع آخر غير مشاهدة ولا دلالة عقل بوجه من الوجوه .

وأيضاً فإنه لو كان صانعان لم يخل من أن يقدر بكل واحد منهما على قهر الآخر ولا يقهر عليه ، فإن كان يقدر عليه ، فالمقدور عاجز ، وإن كان لا يقدر فهذا عاجزان ، والعاجز لا يكون إلهاً .

وأيضاً فلو كان إلهان لكان من حق كل واحد منهما أن يكون تام القدرة نافذاً الأمر ، وإذا وقع منهما القصد إلى الخلق ، أن يخلق منهما التدبير ، فيريد أحدهما غير ما يريده الآخر ، يفعلهُ الآخر ليظهر بذلك الإلهية وقدرته ، فإن ذلك ان لم يكن وقع الخلق والتدبير منهما متفق ، لم يعرفا إذا كان الإله إنما يعرف بما كان من أفعاله فإذا لم يظهر فعلاً ، لم يمكن أن يكون فاعلها واحداً ، لم يعرف الفاعلان ، فلو كانا ، ووقع ذلك منهما لم يخف في هذا العالم آثارهم ، ولزال النظام عنه ، وغلب التفاوت عليه ، وفي وجودنا إياه متسعاً مطرداً على ضرب واحد من ضروب التدبير لا تفاوت فيه ما دل على أن خالقه ومدبره واحد .

فان قيل : ما أنكرت انهما إلهان قادران حكيان فلا يختلفان ، لأن ما يريده أحدهما لا يخلو من أن يكون حكمه ، فلو خالفه الآخر لم يكن حكيماً ، وفي كونها حكيمين ما أحال أن يكونا متخالفين .

قيل : ان كانا حكيمين ما تختلف أفعالهما إذا فعلاً ليظهر كل واحد منهما بأفعاله التي لا يمكن أن تكون واقعة من الذي وقعت منه أضدادها فان الحكمة لا تطلق التلبيس ، ومن التلبيس أن لا يفعل كل واحد منهما إلا ما يريده الآخر ، لأنه لا يظهر بالفعل الواحد ان له فاعلين إذا كان الفعل لا يقتضي لوجوده وتيسره إلا فاعلاً ، والمعدد ليس من شرطه

بالاتفاق على الفعل أداء تلبيس واتهام من كل واحد منهما ، ان الاله واحد ، وهذا خلاف الحكمة . فثبت بما ذكرنا ان عدم التفاوت في الخلق والتدبير ليس إلا من وجه : ان الاله واحد ، وبالله التوفيق .

وأيضاً : فانه ان كان فاعلان يتفقان على الأفعال بحكمتها ، ولا يختلفان ، فلا يخلو كل واحد منهما من أن يكون قادراً على التفرد بما يفعله الآخر ، أو غير قادر . فان كان غيره قادر ، فهما جميعاً ناقصان ، إذ كان كل واحد منهما محتاجاً إلى معاونة الآخر . فان كان فساداً فيها إذا اجتمعا على الفعل ففعلاً ، وجد الفعل منها على وجه التغالب والمنسجم من كل واحد منهما للآخر ، على أن يخلص الفعل له وحده فينسب إليه دونه ، والمتغالبان المتقاومان هما جميعاً عاجزان ، وان العاجز لا يكون إلهاً ، فثبت أن عدم التفاوت في الخلق إنما كان لأن الخالق واحد وبالله التوفيق .

فصل

وأما التقديس فدلالته : ان القديم لو أشبه المحدث في صفاته لبطل أن يكون قديماً ، لأن شبه المحدث لا يكون إلا محدثاً ، كما ان شبه الطويل لا يكون إلا طويلاً ، وشبه الأسود لا يكون إلا أسود . فلما وجب أن يكون الصانع قديماً ، بطل أن يكون خلقه شيئاً . وأيضاً فانه ليس في الأفعال فعل يشبه فاعله ، ولا فاعل يشبه فعله ، فعلنا أن الباري عز وجل لا يشبه خلقه ، وان شيئاً من خلقه لا يشبهه ، وبالله التوفيق .

فصل

ونقول : انا كما وجدنا في السماء والأرض آثار الحدث ، نعلمنا بذلك أنهما محدثان ، فلذلك وجدنا فيهما آثار التدبير المتقن السديد ، فعلنا ان محدثهما الذي كان أول تدبيره الانشاء والإختراع حي عالم حكيم ، وانه هو الذي يدبرهما بعد الانشاء بما هما عليه ، ويبلغهما مشيئته التي كانت له في إنشائهما وخلقهما .

فان قيل : وما آثار التدبير ؟ قيل : أما السماء فحملت الأفلاك بما رتب في كل فلك

منها من النجوم والبروج ، فلك فيه الكواكب الثابتة فلك ، وكل كوكب من الكواكب السيارة فلك . والفلك من الفلك بعد معلوم ، ولكل فلك إستدارة معلومة ودرجات معلومة ، ولكل كوكب سير وجد فيه معروفه ، وللشمس والقمر من بينهما من الاختصاص بالضياء والنور ما ليس لغيرهما ، فإذا كانت الشمس فوق الأرض فذلك النهار ، وإذا كانت تحت الأرض فذلك الليل .

ولفصول السنة من التعلق الظاهر : تسير الشمس ما لا تخفى ، فانها إذا تحركت من أول الحمل إلى أن تبلغ آخر الجوزاء فالزمان ربيع ^(١) ، وإذا تحركت من أول السرطان إلى أن تبلغ آخر السنبلة فالزمان صيف ^(٢) ، وإذا تحركت من أول الميزان إلى آخر القوس فالزمان خريف ^(٣) ، وإذا تحركت من أول الجدي إلى آخر الحوت فالزمان شتاء ^(٤) .

ويظهر في الربيع اليسر والنمو وتزهر الأشجار وتظهر الثمار ثم نضجها وادراكها ما بين أول الربيع إلى أوائل الخريف ثم تعبر الحر ويظهر البرد ، فلا يزال يقوى ويستدحق لا يبقى على الأشجار ورقة ، وتتابع الانداء ، وتجمد المياه ، وكل ذلك أمور تكرر سنين لا تحصيلها العباد ، وجرى فيها على وتيرة واحدة لم ينقص فيما بينهما في شيء منها عادة قط .

ودون السماء السحاب المثلث بالماء تسوقه الرياح ، ثم ينزل منه ما ينزل أكاماً ، جعله الله حياة للناس وعامة الحيوانات وبعدها للارضين الموات واما ثلجاً واما برداً ، وفي كل منهما منفعة وفائدة لا تنقضه ويعتده ويمنع من أن يسوغ إليه الانحلال ، فيستقبل به أيام القيظ على تبريد الماء الذي لا يمكن شربه على ما هو عليه من السخونة المفرطة . فيجتمع إلى مسكن العطش به اطفاء بواثر الامراض ، والتحرز به من كثير من الحوادث والأعراض . ودونها أيضاً الرياح اللواقح والسوابق للفلك من البحار والأرض التي هي قرار ومهاد ،

(١) وهي الفترة الواقعة ما بين ٢١ آذار الى ٢٠ حزيران وهي فترة الربيع تماماً .

(٢) وهي الفترة الواقعة من ٢٠ حزيران الى ٢٠ ايلول وهي فترة الصيف تماماً .

(٣) وهي الفترة الواقعة من ٢١ ايلول الى ٢٠ كانون الاول وهي فترة الخريف .

(٤) وهي الفترة الواقعة من ٢١ كانون الاول الى ٢٠ آذار وهي فترة الشتاء .

وللأحياء والأموات كفات وفيها أعواد وهي للماء الذي فيه الحياة معادن ومنار .
وفيها جبال هي للأرض أوتاد تحوطها من أن تميلها الرياح العواصف ، والرجفات والزلازل ،
وفيها معادن الذهب والفضة ، والحديد والنحاس والرصاص ، ومعادن الأحجار النفيسة ،
ومعادن العفر والنوره والزرنيخ وعيون الملح والنفط والكبريت وفي البحر من الحيتان
لحوم طرية ، ومن الزين اللؤلؤ والزبرجل والمرجان ، نظير ما على الجبال من اليواقيت ،
وفي المعادن من الفيروز ونج والجزع والعقيق ، وفي كل شيء من ذلك منفعة للناس عرض
وحاجة .

وفي سهولها المساكن من الامصار والقرى والحصون وغيرها ، ومنها المزارع والمغارس
والحدائق البهجة والزروع أصناف والفرائس أصناف ، وفي كل صنف منها منفعة ،
وللناس فيها ارب وبغية . وعلى ظهرها من الحيوان : الناس المخصوصون بالعقل والبيان
وانتصاب القامة ، ثم الدواب المقسمة إلى سباع وغير سباع ، والطائر المنقسمة كذلك والهوام ،
وللناس عليها كلها السلطان .

وإذا تأمل من المتأمل نفسه علم ماله من الفضل على جميع الحيوانات الارضية ، وما في
بينته وجلته من امارات التدبير الحكيم والصنع المتقن السديد .

فان الدواب كلها وإن شاركت الانسان في أن لها أعضاء وجوارح ، كما ان له أعضاء
وجوارح ، وان لم يكن منها كهن منه ، وكان لكل منها ومنه رأس فيه العينان واللبصر ،
والاذنان للسمع ، والانف للشم ، ودونه اليـدـان للبطش واللاخذ والدفع ، ودونهما
الرجلان للمشي ، وذلك للناس خاصة ، وللمشي على أجمعها للدواب ، والفم للاكل والشرب
والاسنان للطحن ، والفروج من الذكور والإناث لطلب النسل ، وللاناث الارحام خاصة ،
والانثاء لأنهن الحوامل والمراضع ، وليس من الذكور إلا اللقاح .

فقد اختص الناس بالعقل والبيان فساسوا من سواهم ، وتوصلوا بعلم ما في الارض
وتمييزه ومعرفته إلى استزاح منافعها ، بضروب المكاسب والاستثمار بفوائدها ، فكانت
لهم الملابس والري والمراكب والفرش والاثاث والخزائن والذخائر وبيوت الاموال ،
وأكلوا من أصناف الطعام ما يشتهون ، وركبوا من الدواب ما يريدون ، وأصابوا من

النساء ما يحبون ، وافترشوا من أصناف الفراش ما يختارون ، ولبسوا من ضروب اللباس ما يستحسنون .

وكانت أحوال الحيوانات سواهم مقصورة من الضرورة دون الاختيار لفقدهم من العقل والبيان ، فأوجد منها الناس إلى غير ذلك من أحوال الموجودات التي تذكر على العد ، وكلها مجتمعة المعنى في الدلالة على انها وضع وتدبير ، ونظم وترتيب ، وان الواضع لها والمدير والناظم المرتب عالم حكيم قادر قوي ، فان لم يعلم الحاجة ، لم يعلم ما تزاح به العلة ، لم يقدر على وضعه وإيجاده . وإذا علم لم يوجد منه وضعه حتى يكون قادراً عليه ، فدل عليه على وجود الحاجة ووجود ما تقضي به الحاجة على ان الموجد عليهم حكيم قادر قوي .

ألا ترى أن صانع المشربه لا يصوغها إلا عن علم بما يصلح له وقدره ، وكان على الصناعة وكذلك صانع المسرحية والمنارة والمجمره وكذلك صاحب المنزل لا يسخر منزله من الآلات إلا عن علم بما يصلح كل شيء منها له قدرة على جميعها ، واعدادها لوقت الحاجة اليها .

فكيف يتوهم أن تكون السموات والأرضون وما بينهما وفيها وجدت على ما هي عليه ، إلا صنفاً لصانع عليم حكيم قادر قوي كلا ما يمكن ذلك ولا يجوز ، وما هي إلا من صنع اللطيف الخبير تبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين .

فصل

فأما الكواكب فلا يمكن أن تكون مدبرة لهذا العالم لأنها مدبرة ، وفي هذا بيان انها غير موكولة إلى نفسها ، فكيف يكون غيرها موكلاً اليها ؟ ألا ترى انها تكون مستقيمة السير حالاً ، ولا سبيل لها في تلك الحلل إلى أن تكون راجعة ، وتكون راجعة حالاً ، ولا سبيل لها في تلك الحال إلى أن تكون مستقيمة وزائدة السير مرة وناقصة أخرى ، وسالبة تارة ومحركة أخرى ، ولا سبيل لها إذا كانت على حال وقتاً إلى أن تكون فيه على خلافها ، وكل ذلك يدل على أنها غير موصوفة بتدبير أنفسها ، فدل ذلك على أنها من الوصف بتدبير غيرها أبعد .

وأيضاً فإن التدبير انما يكمل له الحي القادر ، والكواكب بمعزلة عن هذه الأوصاف ،

فلا يمكن ان تكون مدبرة ، والدليل على خلوها عن الحياة ، لزوم التسخير إياها حسب لزوم احراق النار ، والترطيب بالماء .

والله جل جلاله إذا أشعر الحياة خلقاً أشعره أثرها وهو الإرادة والاختيار ، فلما لم يكن للكواكب في سيرها واستقامتها ورجوعها واحتراقها وغير ذلك من أحوالها اختيار علمنا انها ليست بحية ، والفلك نفسه ليست توجل الحركة الدائمة منه اختياراً ، ولا سبيل له إلى السكون ، فعلمها انها مسخرة حية مريدة مختارة ، فانا موصوفة بالملائكة لا يختلف حالهم في طاعة الباري جل جلاله ، فلا يدل ذلك على انهم ليسوا باحياء ، ولكنهم أموات مسخرون .

قلنا : وجود الخلاف فيهم ممكن عندنا ، وقد كان ذلك فيما اقتضه الله جل ثناؤه علينا في شأن آدم إلا أنهم قاموا بعد ، ورجعوا إلى ما كان أولى بهم . فثبت انهم مختارون للطاعة على المعصية بفضل ما عندهم من المعرفة ، وفي أنفسهم من الخافة ، وتلك الطاعة لهم عبادة . ومن يخالفنا لا يقول : إن حركات الأفلاك والكواكب عبادة منها وطاعة ، ولا يمكنه أن يدعي ذلك أبداً ، فأنى يجوز له أن يناقضنا بالملائكة ، وأيضاً فان سيرها في أفلاكها إنما هو كما ركب الله في ذلك السير من منافع غيرها به فهو يجري الماء في الأنهار ، وليس ذلك إلا من قبل الاختيار ، ولا هو عبادة للماء ولا طاعة منه ، فكذلك تسير الكواكب في أفلاكها .

فان قال : كيف يجوز أن تكون تلك الأجسام العلوية على شرفها وفضلها مبرأ بما أوتيته الأجسام السفلية من صفات الحياة والسمع والبصر ، بل إذا كانت هذه في انحطاط أقدارها على أقدار العلوية مكرمة بهذه الصفات ، فالعلوية أولى وأحق بأن تكون مكرمة بها . قيل له : ان الأرض هي التي تكون في مقابلة السماء ، وليست حية عاقلة سمیعة بصيرة ، فيكون لك أن تقول : انها إذا كانت بهذه الصفات ، فالسما أولى أن تكون كذلك ، إذ هي أشرف وأفضل ، ولا كل ما في الأرض من الزين جائز لهذه الصفات ، ونقول : إن ما في السماء من الكواكب التي هي زينة لها بوجوب هذه الصفات لها أحق وأخلق ، وإنما الحياة والعقل والسمع والبصر في الأرض للناس ، خاصة الذين هم سكان الأرض المكلفون المتعبدون فيها ، فبأزائم الملائكة في السموات .

ولسنا ننكر أن يكونوا أحياء فاعلين يسمعون ويبصرون ، وإن يكونوا فيما لهم من هذه الصفات فوق الناس ، فمن أين يلزمنا وراء ذلك أن نقول : ان الأفلاك والكواكب أحياء يعقلون ويسمعون ويبصرون ، كلا ما يلزمنا ذلك بوجه من الوجوه وبالله التوفيق .
فان مسئل سائل عن الكواكب : هل يجوز اضافة شيء من الكوائن التي تكون في هذا العالم الها ؟

قيل له : أما القول بانها أحياء عاقلة ، سمیة بصيرة ، تدبر ما تحتها فباطل ، ولو ثبت انها أحياء لكانت إضافة الفعل اليها من حيث هي في هذا العالم من غير سبب يتصل بينها وبينه باطلا ، لأن الجسم انما يفعل في نفسه ، ثم قد يتأثر غيره عنه لافصاله به ، ولا يمكن ان فعل الجسم في غيره ، وهذا كمن يدفع رجلا فيندفع ، فتكون حقيقة ذلك انه جمع قوته في آلة دفعه ، ثم قرنها من أراد دفعه والصقها به واعتمد عليها يجده ، فكان فاعلا ذلك كله في نفسه ، ثم ان الذي الصق نفسه به واعتمد بقوته عليها يجده فكان فاعلا ذلك كله في نفسه ، ثم ان الذي الصق نفسه به واعتمد بقوته عليه ، لما لم يكن فيه متحمل له اندفع به ، فكان الاندفاع أثرا حادثا في المدفوع عن الدافع لاتصاله به .
ولو أراد رجل من أقوى الرجال وأشدهم أن يدفع آخر عن مكانه وهو ناء عنه من غير سبب فيصل منه ، ما استوى ذلك ولا قدر عليه .

وليس الفعل في الغير الا من يستحيل الفعل منه في نفسه ، وذلك هو ان الله جل ثناؤه الذي ليس يحسم ، ولا يجوز عليه أن تحله الأعراض والحوادث ، فمن أدى ذلك للكواكب فهو مبطل في دعواه .

وأما القول بان منها مطبوعا بالحرارة والبرودة والرطوبة أو اليبوسة ، وانه قديكون لبعضها بعض اتصال ممتزج منه طبائعها ، ثم ينادي تلك الطبائع بالمجاورة إلى الجو بمجاورته الأرض إلى الأرض ، فيكون سببا لآثار تحدث في الأجسام الارضية عنها . فهذا قديكون الا بان تلك الآثار حينئذ تكون أفعالا لله جل ثناؤه ، لا للكواكب ، وليس ذلك باكثر من حياة الأرض الميتة بالماء الذي يساق اليها ، ثم لا يجوز أن يظن به فعلا ، فضلا عن أن يقال : أن تنقل الكواكب وتبدل أحوالها مواقيت لا قضية الله تعالى وأقداره .

فكما انه جعل دلوك الشمس ميقاتا للصلاة ، ولا يضاف وجوب الصلاة إلى الشمس ،

وجعل اهللال رمضان ميقاتا لشهر الصيام ولا يضاف ذلك إلى القمر ، فكذلك جعل انتقال الشمس إلى البروج الصيفية ميقاتا لحر الهواء وانتقالها إلى البروج الشتوية ميقاتا لبرد الهواء وانبساط نور القمر على الرطاب ميقاتا وحالا لنشوتها ونموها ، وانبساط حر الشمس على الثمار ميقاتا وحالا لطيفها ونضجها ، ولا يضاف شيء من ذلك إلى الشمس ولا إلى القمر ، ولا يدعى فعلا لهما ولا لواحد منهما .

ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) وبالله التوفيق .
فان قيل : فما تقولون في إضافة النحوس والسعادة إلى الكواكب ؟

قيل : قد قال الله عز وجل في قصة عاد : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ﴾ (٢) . وقال : ﴿ في أيام نحسات ﴾ (٣) . جاء في بعض الأخبار التي تؤثر عن جبريل صلوات الله عليه : يوم الاربعاء يوم نحس مستمر ، وعن الاربعاء التي لا تدور فعلنا بيان الشريعة ان من الايام نحسا ، والذي يقابل النحس هو السعد فإذا ثبت ان بعض الايام نحس ، ثبت ان بعضها سعد ، والأيام في هذا كالأشخاص ، منها مسعودة ومنها منحوسة ، ومن الناس شقي وسعيد . فان لصاق أحد الكواكب إلى أنها تسعد باختيارها أوقاتا أو أشخاصا أو تنحسها ، فقد قال باطل .

وان قال : إن الكواكب طبائع وأمزجة مختلفة وتلك أيضا يتغير منها اتصال بعضها ببعض وانفصال بعضها عن بعض فطرة فطرها الله تعالى عليها ، فإن ما فيها من هذه المعاني ينادي بتوسط الشمس والقمر إلى الأرض وما فيها ، فأى شيء منها كان هو المبادئ إلى أن الأجسام الأرضية كانت الآثار التي تحدث عن ذلك فيها بحسبها .

فقد يكون منها ما وصلت إلى الأبدان كانت سببا للاسقام ، وقد يكون منها ما يكون فيضطرب سببا للصحة والسلامة ، وقد يكون منها ما إذا وصل إلى الأرواح والنفوس كانت سببا لحسن الخلق وبدل المعروف والانصاف والرغبة في الخير ، ويكون ما إذا وصلت إلى ما ذكرنا كانت سببا للبهج والظلم والاقدام على الشر . فهذا قد يكون الا ان يكون كل ذلك إذا أفعال الله جل ثناؤه وأقداره لا صنع للكوكب فيها .

وما أكثر مما يزيد من هذه الآثار التي ذكرناها إذا كانت نسبة بالدعاء والصدقة ، وما أكثر مما يريد منها إذا كانت حسنة بالذنب والخطيئة ، فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد في هذا الباب والله أعلم .

فصل

وأما الملائكة فانها وإن كانت حية عاعلة سمیعة بصيرة ، فليس تدبير العالم ، ولا أمر الله جل ثناؤه ، كما لا خلق الا الله . قال الله جل ثناؤه : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) . وبيان ذلك ان الملائكة محدثون مدبرون ، فكما امتنع لأجل الحدث من غيرهم امتنع منهم ، ومعلوم ان الناس لا يتكلمون لتدبير أنفسهم ، إذ لو امتنعوا له لكان ينبغي ان يستغني بتدبيرهم أنفسهم عن تدبير غيرهم إياهم ، وإنما توفي العجز عما وصفنا من قبل الحدث والملائكة مشاركة لهم فيه فكانوا إلى العجز عنها مثلهم .

فان قيل : ليست الملائكة لقبض الأرواح ولسوق السحاب ، ولقلب المدائن ولنسخ الأعمال ، وإن كان الناس لا يقدرون على شيء من ذلك ، فما أنكرتم انها تقدر على عامة ما ذكرتم ، وإن كان الناس لا يقدرون عليها ؟

قيل : الناس لم يعجزوا عن الأعمال التي ذكرتموها لحدثهم ، ولكن لکنافتهم أو قصور قولهم ، فلما نابتهم الملائكة في الكيافة فكانوا في اللطافة وفي الضعف كانوا في غاية القوة ، نزلوا من الناس منزلة بعضهم من بعض والتفاوت في الأعمال موجود فيهم ، فكان وجوده بين الملائكة وبينهم كذلك . وليس الكلام على هذا ، وإنما الكلام على ما يعجز الناس عنه بكونهم محدثين مصنوعين ، وإن مما عجزوا ، لذلك لم يحز أن تقدر الملائكة عليه لأن المشركين في المعنى لا يجوز أن يتباينا في الحكم فلا يتشاركا فيه وبالله التوفيق . وأيضاً فان الملائكة من سكان العلو أجسام كالكواكب ، وقد بينا انه لا يمكن أن يكون من الكواكب فصل في هذا العالم ، أو كانت أحياء عاقلة من سبب متصل بينهما

(١) الاعراف : ٥٤

وبينه . فان الجسم لا يفعل في غيره وإنما يفعل في نفسه ، وكانت الملائكة هذا مثلهم وبالله التوفيق .

فان قيل : فان في القرآن اضافة التدبير في الملائكة ، قال الله عز وجل : ﴿ فإلمدبرات أمراً ﴾ (١) وفي سورة أخرى : ﴿ فإلمقسفات أمراً ﴾ (٢) وإنما أراد بالإثنين الملائكة !

قيل : معنى المدبرات المنفذات لما دبر الله تعالى على أيديها ، وكما يقال للفاصل بين الخصمين حاكم ، والحكم ليس إلا الله عز وجل وهو الحاكم ، غير انه سمي من ينفذ الحكم بين عباده حاكماً ، لانهم منه يسمعون الحكم ، كذلك تدبير الله عز وجل انها يظهر من قبل الملائكة . فقيل لها : المدبرات والمقسفات كذلك ، والله أعلم بالصواب .



(٢) الذاريات : ٤

(١) النازعات : ٥

الثاني من شعب الايمان

- وهو باب في الإيمان بالنبي ومن تقدمه من النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين بدلائله وحججه - (١) .

ويتلو الإيمان بالله جل ثناؤه إعتقاداً وإقراراً بالإيمان برسل الله صلوات الله عليهم عامة إعتقاداً وإقراراً ، إلا أن الإيمان بمن عدا نبينا صلوات الله عليه هو الإيمان ، فانهم كانوا مرسلين إلى الذين ذكروا لهم ، انهم رسل الله إليهم ، وكانوا في ذلك صادقين محقين ، والإيمان بالمصطفى نبينا صلوات الله عليه هو التصديق بأذنه نبي الله ورسوله إلى الذين بعث فيهم والي من بعدهم من الانس والجن إلى قيام الساعة .

قال الله جل ثناؤه : ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) فقرن الإيمان برسوله بالإيمان به . وقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا يَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٤) . وفي هذه الآية ان الله عز وجل جعل الكفر ببعض رسله كفراً بجميعهم ، ثم جعل الكفر كفراً به .

وقال بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥) .

فشئت ان حسب المآب إنما يكون لمن لم يفرق بين رسل الله تعالى وآمن بجماعتهم .

(١) لم يرد هذا العنوان بالأصل وإنما ورد فقط تحت عنوان : الباب الثاني من شعب الايمان ويتلو الايمان بالله جل ثناؤه .

(٢) الحديد : ٧ (٣) البقرة : ٢٨٥ (٤) النساء : ١٥٠ (٥) النساء : ١٥٢

والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن الإيمان له ، وهو يقول فأجابته من عند الله جل ثناؤه والعزم على العمل به ، لأن تصديقه في انه رسول الله إلزاماً لطاعته ، كما كان الأمر بالله إلزاماً لطاعته إذا أقر أو نهى ، وذلك راجع إلى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان فاما رجوعه إلى الإيمان بالله تعالى فلأنه يستحيل وجود التصديق بان أحدا رسول الله مع عدم الإعراف بالله ، إذ الرسل تقتضي مرسلًا كما تقتضي مرسلًا إليه وكان يقضي رسالة ، فمن صدق أحدا في أنه رسول الله فقد أثبت الله وصدق به .

وأما رجوعه إلى معنى الإيمان فيه فلان القبول عن رسول الله قبول عن الله ، والطاعة طاعة لله عز وجل ، وإذا كان الله هو المعبود دون رسوله ، وهو المرغوب إليه ، والمرغوب منه دون من سواه ، فمن ثبت له انه رسوله وجبت الطاعة لأوامره لأنها أوامر المرسل الذي تجب طاعته شكراً للنعمة التي أولاها الابداع والاخراج من العدم إلى الوجود ثم الحياة ثم العقل ثم البيان ، واجلالاً له عن أن يعصى ، وهو المالك الذي لا يد فوق يده ولا مانع يردّه بوعيده والإيمان برسول الله ﷺ ، وان كان في الجملة تصديقه في الرسالة على الوجه الذي يذكره ويصفه ، وانه يتفرع ويتشعب فروعاً وشعباً :

أولها : تصديقه في أن الله عز وجل ثناؤه أرسله فميزه برتبة الرسالة من سائر الناس .
والثاني : تصديقه في أنه عز اسمه ، أرسله بما يقول : وان الذي يؤديه هو رسالة الله التي أرسله بها .

والثالث : تصديقه في انه أرسله إلى من يذكر انه أرسله إليهم من خصوص أو عموم .
والرابع : تصديقه في أنه خاتم النبيين لا رسول ولا نبي بعده ، والشرعية المشروعة له آخر الشرعية وعليها تقوم الساعة .

والخامس : تصديقه في صفة إرساله إذ أثبتتها لقومه . فان قال : أوحى إلي على لسان ملك ، صدق في أن الذي يأتيه ملك ، والذي ينزل عليه وحي من الله جل ثناؤه ليقع بذلك تنزهه من الكهانة .

وان قال : ألهمني ربي ، صدق في أن ما يحده في قلبه قذف من الله تعالى ليقع بذلك تنزيهه عن الوسوسة . وان قال : هتف بي ، صدق في أنه قد نودي في الحقيقة فاسمع ما

يقول ليقع بذلك تنزيهه عن التخييلات الباطلة والأوهام الفاسدة . وان قال : رأيت في المنام ، صدق في أن الله جل ثناؤه أراه في المنام ما يقول ، ليقع بذلك تنزيهه عن درجة الذين يحملون في منامهم بما لا أصل له والله أعلم .

فصل

ومما يجب معرفته في هذا الباب معنى النبوة وتفسيرها عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »^(١) . والفرق بين النبي والرسول فنقول - وبالله التوفيق - : ان النبوة إسم مشتق من النبأ وهو الخبر ، إلا أن المراد به في هذا الموضع خبر خاص وهو الذي يلزم الله عز وجل به أحداً من عباده فيميزه بالقائه إليه عن غيره ، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد ، فتكون النبوة على هذا الخبر والمعرفة بالخبرات الموصوفة التي ذكرتها ، والنبي هو الخبر بها .

فان انضاف إلى هذا التوفيق أمر تبليغه إلى الناس ودعائهم إليه ، كان نبياً رسولاً . وان ألقى إليه ما ذكرنا ليعمل به في خاصته ، ولم يؤمّن بتبليغه والدعاء إليه كان نبياً ولم يكن رسولاً ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

ثم ان الأنبياء صلوات الله عليهم يخصون وراء ما وصفت بآيات يؤكدون فيها لتمييزوا بها عن ليس مثلهم كما تميزوا بالعلم الذي أوتوه . فيكون الخصوص وأفعالهم من الوجهين الا أن ما في حيز التعليم فهو النبوة ، وما وقع في حيز التأييد فهو حجة النبوة . والخصوص من قبل التعليم قد يكون في الجهة التي منها يلقون العلم ، وبه تكون في العلم التي تلقى فيهم ، والواقع من ذلك في جهة العلم وجوه منها وهو أعلاها : درجة تكليم الله عز وجل من كلم منهم ، قال الله عز وجل : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾^(٢) وقال : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾^(٣) وقال :

(١) ورد في سنن ابن ماجه « تعبير الرؤيا » باب ١ . حديث رقم ٣٨٩٤ . وفي صحيح البخاري « تعبير الرؤيا » باب ٢ ، ٤ ، ١٠ ، ٢٦ .
(٢) النساء : ١٦٤ .
(٣) النازعات : ٨٥ .

﴿ فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ (١) .

ومنها ان يلهم الله تعالى واحداً منهم بالكلام يسمعه على شيء فيجده في نفسه من غير موصل يقدمه إلا منه إليه بحس واستدلال .

ومنها أن يوحى إليه على لسان ملك فيراه فيكلمه كما يكلم واحداً من البشر صاحبه فيقع له العلم بما يسمعه منه .

ومنها ان يأمر الملك فينفث في روعه كإروى عن النبي ﷺ انه قال : (ان روح القدس نفث في روعي : فان نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب) (٢) . وهذا هو الوحي الذي يخص القلب دون السمع وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (٣) . وقال الله عز وجل : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٤) .

وذلك - والله أعلم - أن ينفث الملك في روع المؤمن من الأطماع في الظفر بالعدو ، والرغبة في الثواب والأجر والاتكال من القرار ، فيحملة ما يحده في قلبه من هذه المعاني في الثبات ويزول عنه ما يسوس به الشيطان من التخويف والاحباط من الظفر ، والحمل على اغتنام السلامة بالرجوع إلى الأهل ، إذا كان الملك ينفث في روع كل مؤمن . فما الفرق بين النبي وبين من دونه ؟

قيل له : لا ينفث في روع من دون النبي ﷺ علم الأحكام ولا علم الكوائن والحوادث المستقبلية ، والوعد والوعيد ، وإنما ينفث في روعه ما تقدم ذكره وما يشبهه فيكون ذلك مدداً للتوفيق يدرأ به عنه وساوس الشيطان عن صدره والله أعلم .

ومنها اكمال عقل النبي وتقويته وصيانتة عن الخبل والجنون فلا يعرضان له ، وبالحر في أن يكون ذلك لا آلة التمييز والعيان على الدلائل كلها هو العقل ، فيحق أن يكون من اصطفاه الله تعالى بتكليمه وإرسال ملك إليه بأمره ونهيه ووعدته ووعيدته أقوى

(١) القصص : ٣٠ (٢) لم يرد الا في سنن ابن ماجه « كتاب تجارات » باب ٢ ، حديث رقم ٢١٤٤ وهو حديث ضعيف .
(٣) الشعراء : ١٩٣ (٤) الانفال : ١٢

الناس تمييزاً وأصحهم إدراكاً في كل ما يلقي إليه ، وأثبتهم فصلاً فيما هو عنده الخطاب والتكليف ، ولولاه لم يكن بين الناس وبين البهائم فرق ، ولا لهم عليها فضل ، فانه إنما يبلغ عن الله يلقي عنه ويتلقى عنه بحسب ما يؤول فيه من قوة الإدراك والقبول .

فاذا لم تكن تلك القوة في نهاية الشدة ، ثم انضاف إلى ذلك خروج للامر فيما يلقي الله من العرف والعادة ، واقتربت به الهيبة والخشية حتى يقيد لهما أحواله في تلك الوقت عياناً ، عما كانت تكون عليه في سائر الأوقات عسر عليه ضبط ما يلقي إليه وتثبته على وجهه وحقيقته ، فيثبت بما وصفنا أن عقول الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أكمل العقول وأراءهم أشد الآراء ، ولذلك يكملون لقبول الوحي أولاً ، وتبليغه ثانياً والله أعلم .

ومنها **تقوية حفظه** وذكره حتى يسمع السور التي لم يسمعها ، ولا كلاماً مثلها منظوماً بنظم خارج عن نظوم كلام الناس ، من الملك مرة واحدة فيعيها طويلاً كانت أو قصيرة ويحويها قلبه ولا ينس منها حرفاً حتى يبلغها الناس كما أخذها من الملك .

ومنها ان **يعصم** من الزلل في رأيه ، فاذا اجتهد في الحوادث رأيه لم يخطئ ، ولم يحلم إلا بالصواب والحق .

ومنها **اذكاء فهمه** حتى يتسع لضروب من الاستنباط بها أوحى إليه لا يبلغها فهم من دونه ، وحقيق أن يكون كذلك . وان العلماء من أمتة متفاضلون ، فمنهم من يدرك بفهمه ما لا يدركه فهم غيره وان فهمه ، فالنبي الذي هو أعلم العلماء أولى بأن يفضل أمتة فيكمل من الاستنباط لما يقصر عنه غيره . وقال بعض العلماء : ان عامة سنن رسول الله ﷺ راجعة إلى القرآن . ومعلوم أنه ليس كل شيء منها تقف العلماء على أصله ، فذاك إذا لأن النبي ﷺ ، كان يدرك من معاني الوحي مما لا يبلغه فهم غيره فيحسب ذلك كأن يكون استنباطه والله أعلم .

ومنها **اذكاء بصره** حتى يدرك الشيء النائي الذي لا يقوى بصره في كل وقت ، ولا يصبر غيره على إدراك ما بعد ذلك البعد ولا ما دونه كما قال نبينا ﷺ : زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاريها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها ^(١) . ومعلوم أن البصراء

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » باب ٩ ، حديث رقم ٣٩٥٢

يتفاوتون في البصر تفاوتاً بعيداً . وقد كانت زرقاء اليمامة تدرك الشيء من مسيرة ثلاث ، وقصتها في ذلك مشهورة . فلا ينكر أن تفاوت بين النبي وبين غيره باذكاء بصره حالاً ووقتاً ليدرك به ما يفوض له مما يراد توقيفه عليه ، ويكون معنى قوله : (زويت لي الأرض) على هذا أي قربت علي ادراك مشارقها ومغاربها ، فكانت من احاطة بصره بي لها كأنها حاضرة إياه والله أعلم .

ومنها اذكاء سمعه : حتى يسمع ما لا يقدر غيره على سماعه لبعده المسافة بينه وبينه ، كما روي على نبينا ﷺ انه قال : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما منها موضع قدم إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى » (٢) ، وروي عنه أنه سمع وحيه فذكر انها هوى بصخرة قذفت في جهنم لم تبلغ قعرها إلى الآن ، ولا سبيل للملحدين إلى استبعاد هذا واستنكاره ، فانهم يدعون لفيثاغورس انه كان يسمع أصوات الكواكب والافلاك إذا تحركت ، وانه الف الحانه عليها ، وهم عندنا في ذلك كاذبون إلا أن يثبت ان فيثاغورس كان نبياً ، فيجوز أن يكون اسمع ما ليس في العبادات امكان اسماعه وتأليفه الالحان عليها انه يصدق .

ومنها إحضار النبي : مشاهد لا يبلغ فوق البشر أن يبلغها ، كالمروج بنبينا ﷺ ، ورفع موسى حياً إلى السماء في قول أكثر المسلمين . ورفع ادريس والياس على ماوردت به الأخبار . وهذا إنما يدخل في باب الاعلام لنبينا ﷺ خاصة لأنه عرج به إلى السماء ليشاهد فيها من الآيات الباهرة للعقول ما لم يكن يشاهد مثلها في الأرض ، وليوصي به فرض الصلاة ، فيرجع به إلى أمته . فأما عيسى عليه السلام وإدريس ، فإنما رفعاً للاسكان ، واخراجها من بين أهل الأرض لتعليم شيء لم يكونوا علماء من قبل والله أعلم .

ومنها اذكاء شمه كما فعله باسرائيل صلوات الله عليه بان يوسف عليه السلام لما أمر بحمل قميصه اليه والقائه على وجهه ، وفصلت العير من مصر ، قال أبوه : ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ (١) .

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب ١٩ ، حديث رقم ٤١٩٠ .

وفي سنن الترمذى « كتاب الزهد » باب ٩ ، حديث رقم ٢٣١٢ .

(٢) يوسف : ٩٤ .

ومنها تسييره في مدة يسيرة مسافة طويلة لا يقدر البشر على قطع مثلها في مثل تلك المدة ، كالاسراء بنبيينا صلوات الله عليه من مكة إلى بيت المقدس ، وردة منها إلى مكة في بعض ليلة . قال الله عز وجل : ﴿ سبحان الذي أصرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (١) ، ولأنه عز وجل أخبر عن فائدة ذلك والحكمة فيه ، قال : ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (٢) . دخل في باب الاعلام والتوفيق ، وإن كان يدخل من وجه آخر في باب التأييد .

ومنها تعيير العبادة في مخاطبته ، فقد روى انه قيل للنبي ﷺ : (كيف يأتيك الوحي يا رسول الله ؟ فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفضي عني وقد وعيت ما قال . وأحيانا تمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما قال) (٣) وإنما كان الأول أشد الوحي عليه ، لأن الملك إذا مثل له رجلا فلقبه في صورة حسنة لم يداخله به روع ولا أمر تحول بينه وبين القبول عنه ، وكلمه مع ذلك بلسانه الذي يعرفه كلاماً عهد مثله ، فلم يبعد مراده من فهمه .

وأما إذا لم ير ملكاً وسمع صوتاً مثل صلصلة الجرس واضطر إلى علم انه وحي ، فأول ما في ذلك ان مثل هذا الصوت إذا قرع القلب ، ثم إذا أقيم مقام الكلام ولم يكن في نفسه معهوداً نبا القلب عنه أول ما يرد عليه ، ثم إذا وقع العلم بانه خطاب يحتاج إلى تلقيه وحفظه زاد ذلك في شغل القلب به .

ثم ان المخاطب بمثل هذا الصوت لا يخلو من أن يحول في ذلك الوقت عن طباعه ، حتى انه ربما أثر ذلك في أحواله الظاهرة منه ، ليصير كالصحيح إذا مرض ، أو الماشي إذا جهد ونصب ، أو الصائم إذا جاع أو عطش .

وكان ما يعرض للنبي ﷺ عند نزول الوحي عليه من البرحاء والومضاء من العرق منه في اليوم الثاني ، ونقله على الراحة حتى يكاد بطنها يلتصق بالأرض وينكسر عضاها ، من هذا الوجه وقد روى في قول الله عز وجل : ﴿ حتى إذا فرغ عن قلوبهم ، قالوا ماذا قال

(٣) ورد في صحيح البخاري « كتاب بدء الوحي » باب ٢ ،

(٢٠١) الاسراء : ١

وفي « كتاب بدء الخلق » باب ٦ .

ربكم ، قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴿١﴾ . ان الله عز وجل إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات مثل صوت الصلصلة على الصنوان ، ففزعوا فإذا انقضى الوحي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ، قالوا الحق ، وهو العلي الكبير . فإذا كان الوحي الذي يوحى إلى الملائكة صوتاً مثل صوت السلسلة ﴿٢﴾ على الصفوان .

فالنبي ﷺ إذا أوحى إليه بصوت مثل صوت الجرس ، كان هذا الوحي شبيهاً بالوحي الذي يوحى إلى الملائكة قبسه ، والله أعلم انه في تلك الحال كان يلزم بأديانه من طباع الملائكة وتمثله في بعض الوجوه لهم ، كما كان الملك في بعض الأحوال يمثل رجلاً لتعليمه ومخاطبته فيلقى الوحي الذي يوحى بمثله إلى الملائكة ، ويشهد ذلك عليه ، إلا ان الله عز وجل يعصمه خلال ذلك من الاغفال والنسيان فكانت تلك الحالة تنقضي عنه . وقد وعى ما قيل له والله أعلم .

ومنها أن يحدث الله تعالى في صيوان قد ذبح وشوى كلاماً فيسمعه النبي ﷺ ليبدله على أمر مغيب عنه ، كما روى ان الذراع قالت له في بيت يهودي : إني مسمومة فلاتاً كلني وهذا يدخل في باب التعليم من الوجه الذي بينته ، ويدخل في باب التأييد من حيث ان كلام الذراع شيء غير معهود .

ومنها أن يحدث الله تعالى في الحيوان الذي لا صوت له ، صوتاً يحضره نبي ويسمعه إياه فتختص بأدراكه ، ثم يخبر به غيره ، قال الله عز وجل في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ﴿٣﴾ .

وهذا يدخل في باب التعليم ، ويدخل في باب التأييد ، فأما دخوله في باب التعليم فقد يكون انه أريد باقرار النملة على الكلام ، واستماعه ذلك منها . ويكون من وجه أن يعلمه ان في طريقه نملاً كثيراً ليعدل يجنوده عن ذلك الطريق فلا يحطموها وهم لا يشعرون . وأما دخوله في باب التأييد ، فمن وجه انه أمر غير معهود خص سليمان بأحد آيه ونقص الصلاة به لأجله فكان كسائر الآيات والبيئات ، وهذا مصحح ان كان قومه

(١) سبأ : ٢٣ (٢) هكذا وردت في الاصل والاصح (الصلصلة) (٣) النمل : ١٨

سمعوا للنملة نعمة ما ، ثم بين لهم سليمان من مرادها ما لم يعرفوه .

ومنها انطاق الثبات لسليان صلوات الله عليه ، فقد روى انه كان إذا أصبح كل يوم رأى حشيشة جديدة ، قد نبتت بين يديه ، فيقول لها : ما أنت ولما أنت ؟ فتقول : أنا كذا وأصلح لكذا ، فلما كان اليوم الذي نبت فيه الخروب قال سليمان : قد اذن الله في حراب هذا المسجد .

ومثل هذا لا ينكر للانبياء ، صلوات الله عليهم ، لأن آياتهم لو كانت من جنس الأمور المعهودة المألوفة لم يكن لهم فيها حجة لانهم محتاجون إلى ما يميزهم عن غيرهم ، والتمييز لا يقع بالامر المشترك فواجب إذا ان تكون آياتهم كلها مبانة للعادات . وأيضاً فان الذي يقدر على أن ينطق غير النبات لا يعجزه أن ينطق بالنبات .

فان قيل : إنها ينطق غير النبات بآلة المنطق ، والنبات ليست له تلك الآلة !

قيل : إن الذي يسمى آلة المنطق ليس شيئاً يقتضي المنطق بكل حال ، لانه لو كان لذلك ، لما جاز أن يوجد ذو لسان أخرس ، وفي وجودنا ذاك دليل على ان الله تعالى وضع للناس فاجرائهم عليها في أن لفظهم يكون باللسان ، وإلا فاللسان والاصبع في جماد أن ينطقه الله فينطق سواء . وكذلك ما له لسان وما لا لسان له في ذلك سواء وبالله التوفيق .

ومنها ما جاء من افهام الله تعالى نبينا ﷺ كلام الذئب ، فقد روى ان نبينا ﷺ كان جالساً بالمدينة في أصحابه إذ أقبل ذئب فوقف بين يديه ، فعوى . فقال رسول الله ﷺ : (هذا وفد السباع اليكم ، فان أحببتم أن تعرضوا له شيئاً لا يعسده إلى غيره ، وإن أحببتم تركتموه واحترزتم منه ، فما أخذ فهو رزقه . قالوا يا رسول الله ما تطيب أنفسنا بشيء ، فأومأ اليه النبي ﷺ ، فولى وله عسلان (١) . فهذا يدخل في باب التعليم من وجه ان الذئب لما جاءه فسأله النظر بينه وبين أرباب المواشي ، أعلمه الله مراده بمعوانه وبحييه ، ويدخل في باب التأييد من وجه أن فيه شهادة من الذئب بنبوته .

ومنها ما جاء من افهام الله تعالى إياه رغاء البعير وحنيئه . فيما يروي أن النبي ﷺ

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

دخل حائط رجل من الانصار ، فإذا جل ، فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ فمسح شرايته وذفره (١) . ثم قال : من رب هذا الجمل فجاء فتى من الانصار فقال : هو لي يا رسول الله ! فقال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة ، فإنه شكا إلى انك تجيعة وترثبه (٢) .

وفي حديث آخر : خرج النبي ﷺ فجاءه بعير يرغو حتى سجد له فقال : أتدرون ما يقول ! زعم انه خدم مواليه أربعين سنة ، حتى إذا كبر نقصوا من علفه وزادوا في عمله ، حتى إذا كان لهم عرس أخذوا الشفار لينجروه فأرسل إلى مواليه ، فقالوا : صدق والله يا رسول الله ! فقال : اني أحب أن تدعوه ، فتركوه (٣) . فهذا يدخل في باب التعليم من وجه ، ان الجمل لما تظلم الى رسول الله ﷺ بحزينه والثاني برغائه ، أفهمه الله تعالى مراده ، فنظر لذلك في أمره وقضى حاجته ، فدخل في باب التأييد من وجه ان فيه شهادة من كل واحد منها بنبوته .

ومنها ان سمع النبي ﷺ ولا يرى مكلفاً فيقع له العلم بما قيل له ، وذكر وهب في كتابه : إن كان للانبياء منازل ، فمنهم من كان يسمع الصوت فيهمه ويحتمل ان ذلك كان يكون صوتاً يحدثه الله تعالى عند سمع النبي ﷺ فيجيبه ويلهمه الله المراد منه فيعرفه ، ويحتمل أن يكون ذلك الصوت كلاماً معهوداً ، فإذا حصل إلى سمعه عرف . ومنها الجمع بين النبي ﷺ وبين الجن ، وقد كان نبينا صلوات الله عليه مبعوثاً إلى الجن والانس ، فيمكن من مشاهدتهم ومناطقتهم ، وبلغهم الرسالة شفاهاً وعباناً . فقد حل هذا في باب العلم ، من حيث انهم عالم كثير محجوبون عن الابصار ، وفي خلقهم ما يزيد الناظر والواقف عليه بصيرة ويقينا بالله جل ثناؤه ، وانبساط قدرته . فإذا ميزت له رؤيتهم ومعرفتهم ازداد علماً بالله جل ثناؤه ، لما يشاهده من آياته فيهم ، ويراها من آثار قدرته الظاهرة عليهم . ويدخل في باب التأييد من وجه انه يمكن من لقائهم ومكالمتهم وقراءة القرآن عليهم لا تكون إلا مع حجة دعوته وثبوت نبوته .

(١) الذفرى : مؤخر رأس البعير .

(٢) ورد في سنن أبي داود «كتاب الجهاد» باب ٤٧ ، حديث رقم ٢٥٤٩ .

(٣) لم يرد الا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٧٦ .

ومنها أن يحتاج إلى جواب مخالفته إلى العلم بشيء غائب عنه ، فيمثل له حتى يراه ، فيجبره ويدفع بذلك الخصم عن نفسه ، كما أنه لما حدث الناس بأنه أسرى به إلى بيت المقدس ، وصل فيه ورجع من ليلته احضروا له من كان رأى بيت المقدس وعرفه فاستعد له ، فكان يصفه له وتبعته إلى أن كاد يخفى به بعض النعت ، فمثل له المسجد حتى نظر إليه فوصفه .

ومنها أن يقصد امرا متفق عله عند ذلك حال من جنس ما هو كائن ، فيعلم به عاقبة ذلك الأمر وحاله ، كما أنه لما خرج من المدينة يوم أحد ، تعلقت قبضة سيف رجل بشيء من رجل غيره ، فانسل من غمده ، فنظر إليه النبي ﷺ فقال : « هذا يوم ينتفى فيه السيف » (١) . فكان كما قال : وموضع الخصوص في هذا أن ما رأى جعل طريقاً له إلى العلم ، حتى قطع لأجله الحكم . وأما غيره فإن ذلك ان وقع له لم نعهده أكثر من ظن لا يغني من الحق شيئاً .

ومنها أن يشاهد من دابته حالاً بغير معهود له منها فيستدل بذلك على الأمر الذي قصد تغيير شحها حتى كان منها ما كان ، كما روى عن غزوة الحديبية : أن ناقه رسول الله ﷺ تركت ، فقال الناس : حلاب ناقه رسول الله ﷺ ، فقال : ما حلاب ، وما ذلك لها بخلق ، ولكل حبسها حابس الفيل عن مكة ، فاعلم بتروكها من غير أن كان الحران خلقاً لها أو سمع رأيه ، ففزعت منه ، أو كلال أصابها فأوهى قواها ، أن ذلك صدد من الله تعالى عن مكة أن يدخلها قهراً لئلا يصيب المسلمين من أهلها بالسوء من لا تحره إصابته له ، ثم أنزل قوله عز وجل : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ (٢) ، وتفسير ذلك موجود في موضعه والله أعلم .

ومنه أن يكون بينه وبين أحد كلام واختلاف في أمر ، فإذا جاء منهم من يخاطبه عنهم ، استدل باسمه ، مما هو كائن من أمره ، كما استدل يوم الحديبية بجي سهيل بن عمرو على أن الصلح واقع بينه وبينهم ، ويسهل سبيله إلى مكة ، فكان كما وقع له ووقع الصلح في الحال ، وأمن الناس ثم عاد العام القابل ، فقضى عمر به وبلغ مراده والحمد لله .

ومنها ان يهتم بامر فيرفع له صورة حسنة ، ويجعل له مثلاً يعلم به حسن استمرار ذلك الأمر له ، ويأتيه على ما يريده ، كما روي أن حلفاءه من مكة لما جاؤوه يشكون قريشاً إليه ، ويذكرون انهم نقضوا العهد ، نظر إلى سحابة بيضاء فقال : ان هذه السحابة لتسهل بنصر بتي كعب ، ويحتمل أن تلك السحابة كانت تضيء إضاءة فوق المعتاد من مثلها ، وكان في مرها تنجو مكة ، فعلم انها مثل ضرب لمصيبة إليها ، واشراقها بنور دعوتيه ، وحيرة قلوب أهلها بتركه ، كما تحيا الأرض بالمطر النازل من السحاب والله أعلم .

ومنها الرؤيا وهي تبشير أو إنذار أو تعليم ، وربما الأنبياء صلوات الله عليهم يفارق رؤيا غيرهم من أوجه ، أحدهما : ان ما استوى منها واعتدل وانتظم بعضها ببعض حتى صار للتأويل بها محال صدق منهم بكل حال ، وأما غيرهم فقد يصدق منهم وقد لا يصدق ، ولهذا قال النبي ﷺ : « إذا تقارب الزمان لم نكاد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً »^(١) . وهذا والله أعلم ان النبي لا يكذب ولا يكذب فلا يكذب ان رؤياهم كانت منهم قبل أنفسهم فكذبته نفسه ، فإن نفسه معصومة من الكذب ومن الهم به ، وليس وراء ذلك إلا أن يقال : انها من الله عز وجل فهو تبارك اسمه من الكذب أبعد .

والوجه الآخر الذي يجوز أن يعلم للاحكام في منامه ، ولا يجوز ذلك لغيره ممن ليس بنبي كما يوحى إليه بذلك في يقظته ، ولا يكون ذلك لغير نبي .

والوجه الثالث : يجوز أن يضرب من الأمثال الدقيقة الغامضة ما لا يضرب لغيره لأنه بقوة عقله وذكاء فهمه وسداد رأيه يكمل لادراكها ، ولا يتسع ذلك لمن لا يكائفه في أحواله .

فان قال قائل : إذا كانت الرؤيا الصالحة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، فلم جاز أن يكون للكافر فيها نصيب ، ونفسه ليست موضعاً للنبوة وقد ذكر جالينوس : انه عرض له قدم في الموضع الذي يتصل بالكبد منه بالحجاب فأمره الله جل ثناؤه في المنام أن يفصد العرق الضارب من كفه اليسرى ففعل ذلك وبرأ !

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

فالجواب : أن الكافر لم يكن موضعاً للنبوة ، وليس كل مؤمن أيضاً موضعاً لها ، ثم لم يمتنع أن يرى (المؤمن الذي لا يجوز أن يكون نبياً في منامه ما يعود عليه بخير في دنياه . فكذلك لا يمتنع أن يرى الكافر مثل ذلك ، والمعني فيه الرؤيا الصالحة وإن كانت جزءاً من النبوة فليس بانفرادها نبوة ، كما ليست كل شعبة من شعب الإيمان بانفرادها إيماناً ، ولا كل جزء من الصلاة بانفرادها صلاة والله أعلم .

ومنها فراسة الأنبياء وهي لا تخطئ كما رؤى أن البيضاء بنت عبد المطلب كانت تحت كرر فلما ولدت عامراً ، أتت به النبي ﷺ فتأمله ، ثم قل : « ما في هذا من عبد مناف مولوداً أشد حمقاً منه » (١) . فبلغ من حمقه انه ورد على ابنه عبد الله وهو أمير البصرة أيام عثمان فرآه يخطب . حتى مثل بين يديه فقال : (أيها الناس ان هذا ابني وأنا أسن منه ، وخرج من هذا وأشار إلى ذكره) .

واما فراسة المؤمن غير الأنبياء فقد تخطئ وقد تصيب ، ومنها ما روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه : « اني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي » (٢) .

وهذا يحتمل أن يكون على معنى انهم إذا كانوا على حال يريد الله تعالى أن يطلع نبيه عليها ولا يغيب عنه علمها ، مثلهم له فرأهم ، ووقف على ما هم عليه ، ويكون ذلك عياله شهادة ليقع العلم به ضرورة ، وإذا أخبر الناس به ، كان ذلك مما يزيدهم إيماناً ، وصار من جملة دلائله وبياناته ، ويكون مجاز قوله : « اني أراكم خلفي » أي اني أراكم وأنتم خلفي والله أعلم .

ومنها اطلاعه على فعل يكون من الملائكة باحد من أمته ليعتد عن سيئة ، فيعلمه ويخبر بما رأى أصحابه ، فيكون ذلك أحد حججه وبياناته ، كما روي أن حنظلة الراهب لما أصيب باحد قال للنبي ﷺ :

« اني رأيت الملائكة تفسله بصحاف الفضة بين السماء والأرض ، فسال أبو أسيد عن حاله فذهبا إليه وأبصرناه : فإذا رأسه تقطر ماء قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأخبرته . فأرسل إلى امرأته واستخبرها عن حاله ، فذكرت انه واقعها ثم خرج إلى أحد وهو جنب » .

(٢٠١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

ومنها تيسيره **حلال** عرض له وجهه أصابه بآيات يجعلها مثلاً لفتوح وخيرات مستقبلة، ويريه إياها ليسلو بها قلبه ، ويوقف عليها أصحابه ، فيثبتهم بذلك ، ويقوى على الصبر عزائمهم ، كما روى انه : كانوا يحفرون الخندق فعنت صخرة لهم أعيتهم ، فضر بها رسول الله ﷺ بالمعول ثلاث ضربات ، وظهرت من كل ضربة برقة ، فذهبت أولاهما اليمن والثانية إلى الشام والثالثة إلى المشرق ، وكان أصحابه يتبعونها أبصارهم . فقال لهم : « ان هذه فتوح يفتحها الله تعالى عليكم » (١) . فهذا يدخل في التعليم من حيث انه خبر عن كائن هذه ، وقد ظهر فيه صدقه ، فالتحق بحملة دلائله وبيناته والله أعلم .

ومنها **الزيادة في بصيرته** بانطاق الجهاد الذي لم يلحق له منطق في أصله ، لتزاح الخواطر عن قلبه ويستيقن حتى يداني المضطر انه رسول الله ﷺ . كما روي أنه لما استعان له جبريل ، لم يكن ير على حجر ولا مدر إلا ناداه : « السلام عليك يا رسول الله » . وان الجن قالوا له بمكة : « من يشهد أنك رسول الله ؟ فقل : تلك السمرة ، ثم قال لسمرة منها : من أنا ؟ فقالت : رسول الله ! » .

فهذه إثنان وثلاثون وجهاً أحصيتها للخصوص الواقع من جهة العلم . وهذه أربعة عشر وجهاً أحصيتها للخصوص الواقع في المعلومات :

منها ما حكاه الله عز وجل عن سليمان عليه السلام من قوله : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ﴾ (٢) ، ويحتمل انها كانت مناطق سيمان بنغمتها وأصواتها فيلهمه الله عز وجل مرادها . وإنما بينا هذا لأن قوله : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ يدل على انها كانت لا تفارق عاداتها في مناطقتها ، ولم يبلغنا انه كان يفارق عاداته إذا ناطقها ، فكان الأشبه بذلك ما وصفت الله أعلم .

وأما نبينا صلوات الله عليه قد جمع له بين الأمرين فشكى اليه الجمل بحنينه ، والبعير برغائه ، وعرفه عز وجل شكواها ، وسأله الذئب بعوائه فأجابه بإيمانه . وأما الظبية فانها كلمته بكلام الانس وأخبرته بانها صيدت بالأمس ولها خشف صغير ، وسألته أن يأمر بتخليتها لترضع خشفها ثم ترجع . إنها يعرف مثل هذا بالروايات والله أعلم .

(٢) النمل : ١٦ .

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

ومنها اطلاع النبي ﷺ على المعاد الذي يصير الناس اليه في الآخرة ، ليعلم عظم نعم الله تعالى عليه وعلى الناس به ، وإذا كان بعثه اليهم ليدعوهم إلى النعم الذي أراه بعضهم في الجنة ويستنقذهم من النار التي أراه إياها ، ويزداد جداً وجهداً في الدعوة الشفقة على الأمة وذلك قوله ﷺ : (دخلت الجنة فرأيت فيها نبياً كقلال هجر) (١) وذكره لعمر رضي الله عنه انه رأى قصراً من ذهب وسأل عنه فقيل لعمر . ووصفه النار ومن رأى فيها من عمرو ابن يحيى والمرأة المعذبة على حبس الهرة وحبس الطعام عنها حتى ماتت ، وغير ذلك .

ومنها تعليمه الرؤيا حتى لم يكن في وقته ولا بعده أحد أبصر منه بتأويل الرؤيا . ويقال : انه لم يكن فيمن خلا أعلم بالتأويل من ابراهيم الخليل صلوات الله عليه . والتأويل وإن كان قد أوتي منه كثير من الناس ، فان تأويلهم قد يخطئ وتأويل النبي ﷺ لا يخطئ والله أعلم .

ومنها تعليم الله عز وجل آدم عليه السلام الاسماء كلها ، وذلك انه كان خلقه ليحدث النسل وليسكنهم الارض فيعمروها ، وعلى انه يعرض لهم أحوال لا يستغنى بعضهم فيها عن اطلاع غيره على ما هو عنده ، ليتعاونوا على الكلف التي هم يحتاجون اليها ، وتزاح عليهم بعضهم لبعض ، فعلمه البيان وخلق فيه النطق وعلمه الاسماء كلها ، فأخذ من أخذ ذلك من ولده عنه ، ثم لم يزل يأخذ كل أحد عن غيره ، ولم يبتدأ أحد منهم بتعليم كما ابتدأ الله أبو البشر إلا ماروى عن رسول الله ﷺ أول من قال : الآن حمي الوطيس ، وجاء باسم الصلاة والايان والاسلام والزكاة والجزية والنفاق (٢) .

ويحتمل ان المبعوثين بالشرائع من الانبياء كان يقع لهم في كلامهم من لغاتهم مثل هذا . فاما الاصل فانما خص به آدم عليه السلام لانه كان أبا البشر ، ومن فيه نشأت الحاجة ، فكذلك على لسانه أزيحت العلة ومنها الهداية إلى وجوه العبادات والديانات والهداية للاحكام ووجوه الحلال ، أعني العبادات والاحكام جملة الشريعة التي أرادها الله تعالى بقوله : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وهي التي تتفاوت على السنة الرسل لما يعرض فيها من النسخ والتبديل .

فأما العبادات فان عظم الغرض في ارسال الرسول إلى الناس دعاهم الله تعالى ، ودلالاتهم

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة . (٢) مفردا نفقة .

على ما يستحقه من التذلل له والخشوع والاستكانة والاستشعار للغير واستنفاذ العمر في ذلك دون الركون إلى الجمام والراحة والحفظ والدعة .

وأما الاحكام فانها سياسة الله تعالى عبادة ، وتدبيره إياهم بما فيه انتظام أمورهم ودفع المكاره والمظالم عنهم . فان الناس إذا خلوا وأنفسهم لم يهتدوا إلى ما فيه صلاحهم واعتدال الجمهور .

ومنها الهداية الى تركيب العالم وهيأته وصفاته ماديا ، أو يأتي من حواشيه وأقطاره فان الوقوف على ذلك مفيد في الاعتبار وكثير من الامور ، وعلم ذلك موجود عند أهله والكتب المنسوبة إلى ادريس عليه السلام في هذه الابواب ، والمنسوبة منها الى الدين ، كانوا هذه فورثوا علمه في أيدي الناس بأبيه .

ومنها الهداية الى مصالح الايمان ، وهي علم الطب الذي حملته حفظ الصحة على الصحيح ، ودفع السقم عن السقيم ، فانه لما كان في علم الله تعالى انه لا يخلص الصحة للناس دائئا ولكن يستقيم أوقاتا ، وكان خلق في الارض أشياء إذا استعملوها زالت عوارض الاسقام عنهم ، وأشياء إذا تناولوها حلق الاسقام اليهم وقعت لهم الحاجة إلى معرفة المضار والمنافع مما في الارض على وجهه وحقيقته ، واحتاجوا مع ذلك إلى معرفة الادواء والعلل وأسبابها الجالبة لها وأعراضها التابعة له والدالة عليها ، ليستدلوا بمعرفة الاسباب على وجوه التحرز وبمعرفة الاعراض على حقائق العلل ثم يتوصلوا بمعرفة الادوية وطرق استعمالها على دفع ما قد حدث ، فتكون للسلامة وتعود الصحة ، وإذا كانت الحاجة إلى جميع ما ذكرنا واقعة ، وكانت عقول الناس تحسر عن ادراكه لا اخبار نخب إياهم احتاجوا إلى النخب عنه ، كما انهم إذا لم يعملوا ما الذي يرضي الله تعالى عنهم .

وما الذي يبيحه أو يكره وقوعه منهم احتاجوا إلى الخير عنه ، كما أزيحت هذه العلة لهم بالرسل كذلك أزيحت العلة فيهم - وصفنا بالرسل ، وذلك مذكور في الكتب ولا يمكن للامر إلا على ما وصفت .

ومنها الهداية إلى الصناعات ، قال الله عز وجل : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾ (١) يعني داود عليه السلام ، وقال لنوح عليه السلام :

(١) الانبياء : ٨٠ .

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ (١) ولا شك في أن الحاجة إلى الغزل والنسج والطحن والجرب والخياطة والبناء وما يجري مجراها ليست دون الحاجة إلى الملبوس المحصن من اللباس ، وإن الناس لو أحلوا من الدلالة عليها في أول الأمر ، لم يقفوا عليها ، ولم يبتدوا اليها ، كما أن كل من لم يجربه اليوم ولم يرشد اليه لم يبلغه علمه ولم يدركه فهمه ، فواجب إذاً أن يكون أولها تعليماً ، كما كان أول علم الاسماء تعليماً .

ومنها تخصص الأنبياء صلوات الله عليهم بالاخبار عما قد كان مما ليس علمه موجوداً عند الذين هم بين أظهرهم من غير أن يعرف لهم البقاء ممن أخبرهم به ، أو قرأوا كتاباً من الكتب الناطقة به ليكن علمهم بها واخبارهم الناس عنها دليلاً على صدقهم واحقاقهم في دعوتهم ، إذا كانت الغائبات لا تدرك إلا بالاخبار . فإذا أدركها واحد من الناس لا من قبل أحد يتبها إصابة ذلك العلم اليه منهم أثبت أن الله عز وجل هو الذي أنبأ بها .

قال الله عز وجل : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (٢) . وقال : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ . وقال : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ (٤) .

ومنها تخصصهم بالتوفيق على أسرار الناس ومحباتهم ، ودخل في هذا قول الله تعالى حكاية عن عيسى صلوات الله عليه بأن قال لقومه : ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ (٥) .

واخبار النبي ﷺ العباس : الذهب الذي استودعه أم الفضل . واخباره كثيراً من الناس بما جاؤوه كله وبما نالوه في أنفسهم من غير أن يكون سماع ذلك منهم .

ومنها توفيقهم على علم المباشرة . فإن الحاجة اليه كالحاجة إلى علم الحكم والسياسة ، فإن من لا خلق له ولا آداب له اضطر إلى الانقباض والعزلة ، ولم يتسع للانبساط والمداخلة ، ودخل عليه الخلل في أحواله وأموره .

(٣) آل عمران : ٤٤

(٢) هود : ٤٩

(١) هود : ٣٧

(٥) آل عمران : ٤٩

(٤) يوسف : ١٠٢

قال الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى ،
فقلولا له قولا لينا ، لعلله يتذكر أو يخشى﴾ (١) .

وقال لنبينا صلوات الله عليه : ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين﴾ (٢) .
وقال : ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغي يعظم لعلكم تذكرون﴾ (٣) .

وقال : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من
حولك . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله
يحب المتوكلين﴾ (٤) .

ثم للنبي تبارك اسمه عليه فقال : ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ (٥) . فسئلت عائشة
رضي الله عنها : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، يعني
أخذ نفسه بأداب القرآن فتأدب بها وارتاض عليها ، فكان كأنه لا يحسن سواها . وهذا
مما لا يكمل إلا لمعصوم . وأما من لا عصمة له فانه ان ضبط شيئاً أغفل بازائه غيره .
ومنها تعليمهم طرق الاستدلال ومحااجة الخصوم ، قال الله عز وجل : ﴿وتلك حجتنا
آتيناهم ابراهيم على قومه﴾ (٦) .

وقال : ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ان آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم : ربي
الذي يحيي ويموت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من
المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٧) .

وقال لنبيه ﷺ ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي
أحسن﴾ (٨) .

ثم علمه الاحتجاج فقال : ﴿لو كان منهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (٩) .
وأمره أن يقول لمن قال : ﴿من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها
أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (١٠) إلى غير ذلك مما يكثر احصاؤه .

(١) طه : ٤٤	(٢) الاعراف : ١٩٩	(٣) النحل : ٩٠	(٤) آل عمران : ١٥٩
(٥) القلم : ٤	(٦) الانعام : ٨٣	(٧) البقرة : ٢٥٨	(٨) النحل : ٢٥
(٩) الانبياء : ٢٢	(١٠) يس : ٧٨		

فإن ما في القرآن من آيات الاعلام والحجج أكثر مما فيه من آيات الاحكام ، فمن قدر على شيء من العلوم التي ذكرناها فلا استفادة عن الأنبياء صلوات الله عليهم ، أو عن من استفادها منهم . فأما فضيلة الابداء لهم ، وإذا كان هكذا ان علم كل دين وشريعة فلإنما يكون جميعه عند النبي المبعوث بها ، ويتفرق في الدين يأخذون عنه فلا يؤخذ عند كل واحد من الناس إلا بعضه . وتمت هذه الأقسام أربعة عشر ، فبلغت خصائص النبوة فيما مرجعه إلى العلم ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، ما واحد منها إلا ويليق به أن يكون قريباً للرؤيا الصالحة التي أخبر النبي ﷺ أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً وامن النبوة ، والله أعلم بما أراد رسوله عليه السلام .

فصل

وكلما ذكرنا في الباب الأول من الحاجة إلى معرفة آيات الله الدالة عليه وعلى وحدانيته وقدره وانفراده ما كان إلا مستبصر بها الجاهل فيؤمن ، ويستشيب بها المؤمن فلا يغوى ولا يضل ، فهو في هذا الباب مثله ، ولا غنى عن دراية اعلام النبوة جملة وتفصيلاً ، مستبصر بها المنكر معترف ، ويستظهر بها المؤمن فلا يزيغ . وليفصل بين النبي والمنتبي ، وينزل الأنبياء صلوات الله عليهم منازلهم .

ومما يعرف ما لنبيين صلوات الله عليه من الدلائل الراحمة والاعلام اللائحة التي لم يبق معها لمقاتب مقال ، ولا لسائل سؤال ، وقد أرشد الله تعالى النبوة في القرآن كما أرشد إلى آيات الحدث الدالة على الخالق والخلق ، فقال عز اسمه : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ ولو أنا أهلكنام بعباد من قبله لقاتلوا ربنا لولا أرسلنا إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ^(٣) . فأخبر انه بعث الرسل لقطع حجة العباد . وقيل في ذلك وجوه :

أحدها : ان الحجة التي قطعت على العباد هي أن يقولوا ان الله جل ثناؤه ان كان

خلقنا لعبده ، فقد كان ينبغي أن ييسر لنا العبادة التي يريدنا ويرضاها لنا ، ما هي ؟
فانه وإن كان في عقولنا وجوب الاستجداء له ، ولزوم الشكر اياماً على نعمه التي أنعمها
علينا ، فلم يكن فيها ان التدلل والعبودة منا ، بماذا ينبغي أن نكون ، على أي وجه ينبغي
أن يظهر ، فقطعت حاجتهم ، بأن أمروا ونهوا وشرعت لهم الشرائع ، ونهجت لهم المناهج ،
فعرفوا ما يراد منهم ، وزالت الشبهة عنهم .

والآخر : ان الحجة التي قطعت هي ان لا يقولوا انا كنا ركب سهو وغفلة ، وسلط
علينا الهوى ، ووضعت فينا الشهوات . فلو أمدونا بها اذا سهونا نهينا ، وإذا املنا بنا الهوى
إلى وجه قومنا لما كانت منا الا الطاعة ، ولكن لما خلمنا ونفوسنا ، ووكلنا اليها وكانت
أموالنا مما ذكرنا ، غلبت الاهواء علينا ولم نملك قهرها ، فكانت المعاصي منا لذلك .

والثالث : ان الحجة التي قطعت هي أن لا يقولوا : قد كان في عقولنا حسن الايمان
والصدق والعدل وشكر النعم ، وقبح الكفر والكذب والظلم ، ولكن لم يكن فيها . ان
من ترك الحسن إلى القبيح عذب بالنار خالداً مخلداً فيها ، وان من ترك القبيح إلى الحسن
اثيب الجنة خالداً فيها ، لأنه إذا كان يدرك بالعقل ان الله جل جلاله خلقاً هو الجنة وخلقاً
هو النار الفانية . كيف يدرك ان أحدهما معد للعصاة ، هو النار الفانية . كيف يدرك
ان أحدهما معد للعصاة ، والآخر لأهل الطاعة ، ولو انا نعذب على المعاصي وذنوب متناهية
عذاباً غير متناهي ، أو سار بالطاعة المتناهية ، وأما غير متناهي لما كان منا إلا الطاعة ،
ولم يكن منا مجال معصية ، فقطع الله تبارك وتعالى هذه الحجج كلها نبعث الرسل
وبالله التوفيق .

فصل

ثم إذا تأملنا ما في السماء والأرض من أصناف الخلائق ، وجدنا في وقوع ما وقع لنا به
من العلم ما يدل على الرسل ، كما وجدنا فيها أنفسنا وتصاريق أحوالها ما يدل على الباري
جل ثناؤه . وذلك انا نعلم ان الكواكب التي نراها بابصارنا ، لا يمكن الوقوف بالنظر اليها
على ان منها بروجاً ، وكل برج إنما يتم بكذا وكذا كوكبه منها وانها اثنا عشر ، لا أقل
منها ولا أكثر .

وان منها كواكب ثابتة وعددها كذا ، منها سيارة وعددها كذا ، وإن مقادير اجرامها كذا وكذا ، وإن أبعادها كذا وكذا ، وإن لكل نجم من النجوم السيارة فللكا على الانفراد . فان عقل عاقل منها إذا لم يسمع بشيء ما يقوله أهل العلم بهبه الساء ، والكواكب في هذه الأبواب .

ثم اعمل فكره في ادراك عملها ، وعلم شيء منها لم يزد منه إلا بعداً ، ولم يصل اليه أبداً أبداً ، إلا ان يسمع فيه من عالم شيئاً ويستدل أصلاً ، فعمسى أن يتبع بعد الآن ، ينبيء خبره ويتدرج منه إلى ما سواه . فدل ذلك على أن الاوائل لم تقل جميع ما قالت في هذه الأبواب بازائها من قبل أنفسها ، وإنما أدركت الأصول حيناً ، ثم قاست بعقولها عليه غيره . واستنبط بها ما سواه .

وهكذا الأرض لا يمكن أن يعلم ما فيها ، فيميز ما يكون قوتاً تقوم به الأبدان ، وما يكون دواء وما يكون سماً ، وما يختص بدفع ضرر السموم كالهادر ، وما يختص بحبر الكسر كالومباي ، ثم يميز من الأدوية ما يصلح منها لشيء بعينه ، وما يصلح منها بخلافه ، ومقدار ما ينبغي أن يتداوى به من كل جزء فيصاب نفعه ، ويؤمن ضرورة إلا يحبر فان أغفل عاقل منا لو لم يسمع في هذه الأبواب من أهل العلم بها شيئاً ، ثم أراد أن يهجم عليها بعقله ويدرك منها ما أدركه البصر بمجرد فهمه لما اتسع لذلك ولا قدر عليه .

فدل هذا على أن الاوائل لم تصل إلى معرفة ما عرفت وادراك ما أدركت مما سبق ذكره بمجرد افها وعقولها ، ولكنها وقعت على الأصول بالخبر بما استنبطت بازائها من تلك الأصول ما وجدت فيها ادلالة عليه ، ثم ان النبي أخبرهم بأوائل هذه لو كان مثلهم في التجلي بفعله ، والانفراد برأيه وفهمه لم يكن الاختراع عاجزاً مثلهم .

فصح ان الاخبار لها انها كان ممن وفقه الله تعالى عليها وأمره بالاداء إلى غيره ، فاولئك المخبرون المؤدودون عن الله هم الرسل صلوات الله عليهم ، ثم إن وجود الكلام للناس يدل على الرسل ، وذلك ان الموجود المعروف فيها شاء ان لم يسمع الكلام أصلاً لم يتكلم ، فان من ولد أصم لا ينطق أبداً وانما ينطق من يولد سمعاً فيسمع كلام جنسه وينشأ عليه ، فلو لا ان بشر^(١) تكلم كان قد علم البيان واستمع الكلام ، لكانت حالة حال المولودين من الناس اليوم ولما يكلم .

(١) وهو بشر بن المعتمر ، لغري فصيح له رسالة في الانشاء ، عاش في العصر الاموي .

ومن المعلوم ان الصبي لا يتكلم إلا باللغة التي يسمعها، فلولا ان رجلا من العرب ولدت له تركيه ولدأ ، فغاب الوالد عنه ونشأ مع أمه لم ينطق بالعربية التي لم يسمعها وإنما ينطق بالتركية التي سمعها من أمه ، ولا يسمع غيرها . فبان بهذا أن أصل الكلام سمع وان أول من يتكلم من البشر تكلم عن تعليم ووحى ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (١) فاسمعه الاسماء والهمة علم ما اسمعه ، وأقدره على النطق به ، فصار متكلماً .

. ثم انه لما سمع الكلام منه غير معرف نفس الكلام ، وبتلقيه بها ركب الله تعالى في لسانه من التيسير له على المراد باستدلال عقلي رجع أصله إلى العرف والعادة ، وهو أن يقف السامع من المتكلم بالمعبارة ، أو بنقص الامارات الحالية على انه إذا تكلم بكذا أو أراد بكذا وأراد كذا ، تدله حال المتكلم على إفادته ، كما قد تدل الإشارة التي هي دون العبارة على كثير من الإفادة ، فأما أصل الكلام سمع ولا يمكن فيه غير ذلك والله أعلم . وفي ظهور ما وصفت ان الدلائل الدالة على الرسل دالة على القديم جل ثناؤه لا يمكن أن يكون الذي أرسلهم واحداً مثلهم ، فيصح انه إنما أرسلهم من لا يشبههم ، ولا يجوز عليه الجهل والعجز ما يجوز على الناس ، وليس إلا للباري القديم جل ثناؤه وتباركت أسماؤه .

فصل

ثم ان رسولاً أرسله الله إلى قوم فلم يحله من إبداء آية وحجة أتاه إياه وجعل تلك الآية مخالفة العادات إذ كان ما يريد الرسول إثباته بها من رسالة الله تعالى أمراً خارجاً من العادات ، فيستدل باقران تلك الآية بدعواه ، وانه رسول الله واستظهاره بها على تصحيح دعواه على صدقه واخفائه ، فانه إذا كان لا يتميز عن سائر الناس بأمر يوجب أن ينقص الله تعالى لأجله عادة سوى دعواه انه رسوله ، ولا يعلم لينقص الله تعالى العادة على لسانه انه أوغل يده ، وفي الجملة لأجله ولسببه وجه سوى أن يكون خصه بذلك لتخصيصه إياه مما يدعيه من رسالته بغير هذا الوجه للقبول ، لم يكن لتوهم غيره مساع وإن قال لقومه :

(١) البقرة : ٣١ .

وإن كنت مفترياً على الله فاتوا بمثل ما افتريت ، فمعجزوا ولم يؤت الله تعالى أحداً منهم مثل الذي أتاها مع حاجتهم اليه لمعارضته وتكذيبه ، إن كان كاذباً مفترياً .

وقد أشعر باتيانها ما أتاها وحرمانهم مثله ، انه قد أراد إظهاره عليهم ، وقطع حجبتهم عنه ، ألا ترى ان رجلين لو جاءا قوماً ، فذكر كل واحد منهما لهم انه رسول الله اليهم ، فكذبوه ، فدعوا الله عز وجل معاً وسألاه آية تدلهم على صدقها ، فوقعتهما الاجابة لأحدهما ، واحد بأية من الآيات التي ليس في قوى البشر الاتيان بمثلها .

وتتابع العبر على الآخر ، لعلم علما لا يلامسه شك ، ان الذي أجيبت دعوته صادق ، وان الآخر كاذب ، ولم يحز أن يكون كذلك أقل من تقدم بلداً ، فابدان أو رجلان من كانا يدعي كل واحد منهما ان سلطان المسلمين ولاه ذلك البلد واستدعاه أهله ، فلا يصدقا فيكتبنا إلى السلطان نخبرهما ، ويلتمسا منه دلالة على صدقهما فيخص أحدهما بخلع أخيه ، ويعرض للآخر بضروب من الجفاء أولاً فأولاً ، فان ذلك لو كان لزال الشك في أمر المكرم وعلى انه الصادق فيما ادعاء من الولاية دون صاحبه .

وكذلك إذا كانت الدعوى من واحد فكذب قومه ، فسأل الله آية فاجابه اليها وأعجزهم عن مثلها ، ثم أجرى العادة بان كل من أصر على التكذيب بعد مجيء الآية عاقبه وعذبه ، وجب أن يعلم ان الذي أمده بالآية صادق عليه ، وان المعجزين عن معارضته كاذبون عليه مبطلون فيما ينسبونونه اليه من الافتراء على ربه ولو وقع مثل هذا لأهل بلد مع من يدعي انه واليهم أنفذه سلطان المسلمين اليهم ، فازتابوا به ، فسأل السلطان آية ، فأنفذ اليه حياً وجعله في جواب ما استدعاه من الآية التي تدلهم على صدقه ، في انه ولاده عليهم لعلوا عليه بذلك صدقه ، فهكذا فليعلم قوم كل رسول ، فسأل الله تعالى انه يعلم بها قومه صدقة ، فأمره لمعجزه وأرسله ، وقد قرن دعواه الرسالة بمعجزة ، فلم يعلم لتمييزه واختصاصه بها سوى ما ظهر من دعواه وأنه محق صادق ، وبالله التوفيق .

وأيضاً فلا خفا على ذوي البصائر والعقول ان مدعي النبوة لو سأل الله آية فأخرسه الله مكانه أو سلبه العقل ، لكان ذلك دليلاً باهراً على ان الله تعالى أراد بما صنع تكذيبه وهكذا لو ادعى انه نبي ، أو انه صرفه انه يقدر من ادراك المعقولات ووجوه الاستنباط على ما لا يبلغه ، فهم أحد سواء فسلبه الله العقل مكانه لعلم من يشاهده ويعرف حاله إن

شاء الله تعالى لم يفعل ذلك به إلا ليكذبه ويجعله نكالاً وموعظة لغيره .

فلذلك ينبغي أن يقال : انه إذا ادعى النبوة وسأل الله انه ان ما سمع جوابه سؤاله بما تعجز الانس والجن عن مثله ، أو كانت دعواه مقرونة بمعجزة وجب أن يعلم ان الله عز وجل لم يخصه بها الا ليدل على صدقه هذا ، والكذب على الله والافتراء عليه بدعوى الرسالة من عنده من أعظم الجنايات فلا يليق بحكمة الله أن يظهر على من يعاطى ذلك واجترأه عليه آية ناقضة للعادات ، وبراءة تستظهر بها على كذبه ، وبراءة تستظهر بها على كذبه ، فيفتن العباد به ، وتظهر في البلاد العبر العظيمة منه ، ولا يؤتيه آية إذا سأله قومه إياها ، سلبه سمعه أو بصره ، فان فعل هذا بالصادق في السفير عنه والحث على خلافه لفعل الأول بالكاذب في التسكين اليه والتحريض على اتباعه .

وقد نزل الله تعالى من هذا الصنع نصاً في كتابه فقال - يعني نبيه ﷺ : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ (١) . وقال في الدلالة على صدقه : ﴿ أفلا يرون انا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ (٢) . فثبت ان الله عز وجل لا يمد الكاذب المفتعل بما يكون سبباً لاعتزاز الناس به ، كما لا يخذل الصادق الحق ولا يصنع به ما يكون سبباً لانحراف الناس عنه ، وبالله التوفيق . وكل آية أتاها الله رسولا ، فانه يقدر بها عن الرسول أولاً انه رسول حقاً ، ثم عند غيره ، وقد يجوز أن يخصه بأنه يعلم النبي بها نبوة نفسه ، ثم يجعل له على قومه دلالة سواها . وفي الجملة ، فإنما يعلم النبي نبوة نفسه اكتساباً لا ضرورة ، ويكون متعبداً بالايان بنفسه ، وذلك في الأخبار المروية عن نبينا ﷺ من أول مبعضه إلى ان قوى الامر وعلا ظاهراً بيننا .

فصل

ومعجزات الرسل صلوات الله عليهم كانت أصنافاً كثيرة ، ولم يبلغنا عن الذين سبقوا إبراهيم صلوات الله عليهم أن معجزاتهم ما كانت وكيف كانت ، ونعلم في الجملة انهم لم يخلوا من أن يكونوا قد خلوا أقوالهم بما ألزمهم به الحجة .

(٢) الانبياء : ٤٤

(١) الحاقة : ٤٤ - ٤٦

فأما إبراهيم صلوات الله عليه ، فإنه على ما قيل كان في زمان لا يؤمن بالله عز وجل على وجه الأرض غيره وكان الغالب على الملك الذي كان في بلده وعلى قومه الإلحاد والتعطيل ، فجعل الله حجته على قومه النظر الثاقب الذي لم يقاوم وهو استدلاله يتعاقب للأحوال على الكواكب التي هي أعلى ما يرى وأنها وأنورها على أنها محدثة لم تكن ، ثم كانت ، وفي ثبوت حدثها وجوب أن يكون لها محدث خارج من المحسوسات خلاف ما كان يعرفونه ، انه ليس سوى المحسوسات ، قال الله عز وجل : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (١) . وإنما هي حجته التي أقامها عليه بما وصف لهم ، من أن له ولهم ولعامة ما يشاهدون صنماً .

وكذلك قوله الذي حاجه وادعى القدرة على ما كان يصنعه إبراهيم إلى الله تبارك وتعالى : ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فأما دلالة نبوته فينبغي أن تكون غير هذه الحجة ، ولا شك في أنه لم يخل منها .

فأما عصمة الله تعالى إياه من الإحتراق بالنار ، فهي تدل على إخفائه فيما كان يدعيه من الرسالة والنبوة ، فكما يدل على الصانع جل ثناؤه إلا ان ذلك أيضاً لم تكن آيته التي أيد بها دلالة على نبوته ، إذ كان القوم قصدوا بما صنعوا بمكانه معاقبة على ما كان منه من كسر للأصنام لامتحانه ، لينظروا هل له إله يدفع عنه أولاً ، إذ كان ذلك إنسياً يليق لو كانوا سألوه دلالة ، فقال : دلالاتي أن النار وان بلغت ما بلغت في لظى لا تحرقني ، وان ربي من أذاها يعصمني ، وهو كما كان قال لهم .

فثبت أن دلالاته كانت شيئاً سوى عصمة الله إياه من النار إلا أنها لما وقعت لم تخل من هذه الدلالة أيضاً ، فهدى الله تعالى من هدى وخلي بين نفسه وهواه من خلى إلى اليوم الذي يجري فيه كل ساع بما يسمي .

وقد أخبر الله عز وجل انه أراه إحياء الموتى عياناً ، فان كان إنما سأل الله تعالى ذلك على أعين الناس ليدل بأجابته إياه على صدقه فيما فعله من ذلك بدعائه له وبينه ، وان كان إنما سأل ذلك لخاصة فهو شيء أراد له ليطمئن قلبه ، فكانت دلالاته على قومه أمراً سواه وبالله التوفيق .

وأما موسى عليه السلام فإن الله عز وجل أخبر أنه أتاه تسع آيات بينات: العصا، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والطمس والبحر.

فأما العصا فكانت حجة على الملحدين والسحرة جميعاً، وكان السحر في ذلك الوقت منتشرأ، فلما انقلبت عصاه حية تسعى وتلقفت حبال السحرة وعصبيهم، علموا أن خركتها عن خبرة حادثة فيها بالحقيقة، وليست من حديد ما يتخل بالجل، فجمع ذلك الدلالة على الصانع وعلى ثبوته جميعاً.

وأما سائر الآيات التي لم يحتج إليها مع السحرة، فكانت دلالات على فرعون وقومه والقائلين بالدهر، فأظهر الله بها صحة ما أخبرهم به موسى: من أن له ولهم رباً وخالقاً إذ كانت كلها متجاوزة جداً لقوة البشرية، وثبت بامداد الله تعالى إياه بها حاجته إلى تصحيح دعواه أنه نبي الله ورسوله كما يقول وبالله التوفيق

فأما يوشع ففي الأخبار أن الشمس حبست له لما دعا الله عز وجل وسأله جل ثناؤه أن يحبسها له عند قتاله أهل أريحا وإشرافه على فتحها عشية يوم الجمعة، وإشفاقه من أن تغرب الشمس قبل الفتح فيحرم عليهم لأجل السبب القتال، ويعلم به عدوهم فيعمل السيف فيهم ويحتاجهم فكان ذلك آيته التي خص بها بعد أن كانت نبوته ثابتة بنجر موسى عليه السلام على ما يقال والله أعلم.

وأما داود صلوات الله عليه، فإن الله عز وجل ألان له الحديد وسخر له الجبال والطير فكانت تسبح معه بالعشي والاشراق، وكان على ما يقال يقرأ الزبور بأصوات مختلفة: منها صوت يطرب ومنها المهم، وتمكف الوحش والطير عليه إعجاباً به واستنابته إليه.

وأما المسيح صلوات الله عليه فإن الله عز وجل خلقه لا من أب، ولكن ذلك إنما علم بنجر الصادق عن الله تعالى، ولم تكن آيته ومعجزته، إنما آيته أن الله عز وجل أقدره على الكلام في المهد فكان يتكلم فيه كلام الحكماء وأنه كان يحيي الموتى، ويبرأ بدعائه، أو بيده إذا مسح الأكمه والأبرص، وجعل من الطين كهياً الطير، فينفخ فيه فيكون طائراً بأذن الله.

ثم إن رفعه من بين اليهود لما أرادوا قتله وصلبه، فعصمه بذلك من أن يخلص القتل

والصلب إلى بدنه ، وكان الطب عاماً غالباً في زمانه ووقته فأظهر الله تعالى بدعائه وأجراه على يده من زوال الداء العظيم دفعة واحدة بدعائه ، وحدث جراحة لم تكن أصلاً ، ورجوع الحياة إلى البدن الميت ، وعجز الخلائق من الأطباء عما هو أقل من ذلك درجات كثيرة .

إن التعديل على الطبائع وإنكار ما خرج منها باطل ، وإن للعالم خالقاً ومديراً لا يتعذر عليه إحياء ميت ، ولا إبداع خارجه ، ولا إزالة عدمه . ودل باظهار ذلك له ولأجله وبدعائه وعلى يده وحال حاجته ما يدل على صدقه على أنه محق فيما يدعيه من رسالته وبالله التوفيق .

واما المصطفى نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وعزته ، فإنه كان أكثر الرسل آيات ، ذكر بعض أهل العلم ان أعلام نبوته تبلغ ألفاً . فأما العلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته ، ودام في أمته بعد وفاته ، فهو القرآن المعجز المبين ، وحبل الله المتين الذي هو كما وصفه به من أنزله ، فقال : ﴿ وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (١) .

وقال : ﴿ انه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لا يسره إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾ (٢) . وقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ (٤) . وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ، واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ (٥) . وقال : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ﴾ (٦) . وقال عز وجل : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٧) .

فابان جل ثناؤه انه أنزله على وصف مبين لأوصاف كلام بشر ، لأنه منظوم ، وليس بمنثور ، نظمه ليس نظم الرسائل ولا نظم الخطب ولا نظم الأشعار ، ولا هو كاسماع الكهان . وأعلمه أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله ثم أمره أن يتحداهم على الإتيان به ،

(١) فصلت : ٤٢ (٢) الواقعة : ٧٧-٧٩ (٣) البروج : ٢٢ (٤) آل عمران : ٦٢
(٥) الانعام : ١٥٥ (٦) عيسى : ١٣ (٧) الاسراء : ٨٨

وان ادعوا أنهم يقدرّون عليه أو ظنّوه. فقال: ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ (١).
ثم نقصهم تسعاً ، فقال : ﴿قل فاتوا بسورة مثله﴾ (٢) .

فكان من الأمر ما يصفه غير أن من قبل ذلك دلالة : وهو أن النبي ﷺ كان غير مدفوع عند التوافق والتحالف عن الحصافه والمانه ، وقوة العقل والرأي ومن كان بهذه المنزلة ، ومع ذلك قد انتصب لدعوة الناس إلى دينه ، وذكر لهم أنه رسول الله .

وبلغ من ميله إلى إظهار دينه وحرصه على إدخال الناس في مثله ، أن يقاتل ويجاهد ويعاني الاوابد ويكابد الشدائد ، ولم يكن أن يقول للناس ايتوا بسورة من مثله ما جئتمكم به من القرآن ، ولن تستطيعوه ، فان أتيتم به فأنا كاذب ، وهو يعلم من نفسه ان القرآن لم ينزل عليه وهو الذي تولى وضعه ويعلم أولاً ما من أن يكون في قوله من يعارضه وينتظم له من الكلام ، ان صرف اليه همه مثل الذي انتظم له ، وان ذلك ان كان يطلب دعوته وانتفض أمره ، وكان أحسن أحواله ان سوماح فاستحى ، وسوهل فاستبقى أن يصر بين الناس في الكذب آية ، ولم يعلم له بعد ذلك عند أحد رأيه ، فهذا إلى أن يذكر ما بعده دليل قاطع على انه لم يقل للعرب ايتوا بمثله ان استطعتموه ولن تستطيعوا إلا وهو واثق متحقق مستيقن انهم لا يستطيعوه ، وليس يجوز أن يكون هذا اليقين وقع له من قبل نفسه ، فصح انه إنما وقع له من قبل ربه الذي أوحى إليه به موثق أجره وبالله التوفيق .

واما ما بعد هذا فهو أن النبي ﷺ قال لهم : ائتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين! فطالت المهلة والنظرة لهم في ذلك ولو أثرت الوقائع والحرب بينه وبينهم فقتلت صناديدهم وسبيت ذراريهم ونسأوهم وانتهبت أموالهم ، ولم يتعرض أحد لمعارضته ، فلو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهلهم وأموالهم ، وكان الاسم في ذلك قريباً منهلا عليه ، إذ كانوا أهل لسان وفصاحة وشعر وخطابة ، فلو لم يأتوا بذلك ولا ادعوه ، صح انهم كانوا عاجزين عنده في ظهور عجزهم عنه بيان انهم في المعجز مثلهم ، إذ كان بشراً مثلهم ، لسانه لسانهم وعاداته عاداتهم ، وطباعه طباعهم وزمانه زمانهم ، وان كان ذلك وقد جاء بالقرآن وجب القطع بأنه من عند الله لا من عنده وبالله التوفيق .

فان قيل : فان مسيامة قد ادعى أنه يأتي بمثل هذا القرآن ، وقال : لقد أنعم الله على الحبلى إذا خرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشاء ، وقال : يا ضفدع نقي كم تنقين فلا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين ، وقال : الفيل وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب طويل ، وشفر وثيل ، وان ذلك من خلق لقليل ، وعارض سورة الكوثر فقال : إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ، إن عدوك هو الكافر .

فالجواب : ان كل ما جاء به مسيامة فلا يعدو أن يكون بعضه محاكاة وسرقة وبعضه كاساجيع الكهان وأراجيز الأعراب ، وقد كان النبي ﷺ يقول ما هو أحسن منها لفظاً وأقوم معنى وأبين فائدة ، ثم لم يقل له العرب ها أنا محدث على الآيات بمثل القرآن ، ويزعم أن الجن والانس لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يقدرّون عليه ، ثم قد جئت بمثله مفترى انه ليس من عند الله وذلك قوله عليه السلام : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) (١) .

وقوله : (والله ، لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينتنا علينا ، وثبت الاقدام ان لاقينا) (٢) . وقوله : (اللهم ان العيش عيش الآخرة ، فأرهم الانصار والمهاجرة) (٣) .

وقوله : (تمس عبد الدنيا وعبد الدرهم وعبد الخميصة ، ان أعطي منها رضي ، وان لم يعط سخط وتمس وانتكس ، وان شيك فلا انتقش) (٤) . ولم يدع أحد من العرب ان شيئاً من هذا يشبه القرآن وان فيه كثيراً ، لقوله : ان أحداً لا يقدر على الاتيان بمثله . وقد جاء ان سيف بن ذي يزن ، لما ظهر على الحبشة وقصده عظماء قريش بالتهنئة ، وكان رأسهم عبد المطلب خلا سيف به وبشره بالنبي ﷺ . فقال : إذا ولد مولود

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٥٢ ، ٦١ ، ٩٧ ، ١٦٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » حديث رقم ٧٨ - ٨٠ .

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٣٤ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » رقم ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٣) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ١١٨ ، ١٨٠ .

(٤) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٧٠ ، وفي سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب ٨ . شيك الرجل : فهو مشوك اذا دخل في جسمه شوك .

بثهامه ، غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة ،
وانه سألته أن يوضح له قوله ، فقال : والبيت ذي الحجب ، والعلامات ذي النصب ، إنك
يا عبد المطلب لجده غير كذب .

وما زالت العرب تسجع وتزجر ، فما فطل عن أحد منهم انه ادعى أنه يشبه القرآن
اسجاعها وأراجيزها ، ولو علموا أنه ذلك لا تبدروا إلى المخاصمة والمعارضة ، فانهم كانوا
لما قال عز وجل : ﴿ وتذرع به قومًا لدًّا ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ ^(٢) .
فلما لم يقل أحد منهم علمنا انها غفلت فرق ما بين القرآن وبين الاسجاع والاراجيز ،
ولذلك ضربت صحتها صفحا ولم يشتغل بها أصلا ، فلذلك اسجاع مسيئة هذا سبيلها مع
ما فيها من المحاكاة والسرقه والهذر ، وكل واحد من الحاكي والسارق مستغن بما يأخذه
من أعيان ألفاظ المعارض وأوصافه كلامه على معارضته ، وإذا كان كذلك ، لم تخلص
منه المعارضة ، واثار كل واحد من الفعلين ظاهرة في كلام مسيئة :

فأما المحاكاة . فانه يحاكي نحو قوله عز وجل : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما
ودعك ربك وما قلى ﴾ ^(٣) .

وأما السرقه : فانه أخذ قوله : (لقد أنعم الله) من قوله الله عز وجل : ﴿ لقد من
الله ﴾ ^(٤) ، وقوله : ﴿ وإذا يقول للذي أنعم الله ﴾ ^(٥) وأخذ قوله : (إذا خرج منها
نسمة) من قوله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ ^(٦) . وأخذ قوله :
(تسمى) من قوله عز وجل : ﴿ فاذا هي حية تسمى ﴾ ^(٧) ، وأخذ جملة ذلك من قوله
عز وجل : ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ ^(٨) فسرق المعنى كما سرق اللفظ .

ثم قوله : (من بين صفاق وحشا) ولأن الولد لا يكون من بين الصفاق والحشا ، وإنما
يكون في الرحم ، والرحم من الحشا .

وقوله : (لقد أنعم الله على الحبلى إذا خرج منها نسمة تسمى) مع ذلك كلام مجيد
لأن انعام الله تعالى على الحبلى إنما هو بتقويته إياها على الحمل وتخليصها إذا جاء وقت الولاد

(٣) الضحى : ١ - ٣

(٢) الزخرف : ٥٨

(١) مريم : ٩٧

(٦) النحل : ٧٨

(٥) الاحزاب : ٣٧

(٤) آل عمران : ١٦٤

(٨) الروم : ٢٠

(٧) طه : ٢٠

من غير بأس ، وأما ما عدا هذا فإنه وإن كان انعاماً عليها ، فليس ذلك من حيث أنها حبلى ، والانعام على أن المولودين بالولد أكبر منه على الأم ، لأن الولد إليه ينسب ، وبه يعرف ، وعليه مؤونته وإليه دعوته .

وقوله : (الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل) محاكاة لقوله : ﴿ القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ (١) . والمحاكاة قريبة المعنى من السرقة ، وقد يحاكي الشاعر من ليس بشاعر ، فيستوي له ذلك ، ولو أراد أن يقول بيت شعر من ذي قبل لما قدر عليه .
وقوله : (ذنب طويل وشعر وثيل) من جملة الاسجاع التي قل أحد أن يعجز عن مثله . فان كان ذلك كالقرآن ، فلاسجاع كلها كالقرآن ، ومهما بطل أن يكون ما قيل ، هذا الكلام معارضة ، وثبت أنه محاكاة وسرقة ، فقد بطل الاعتداد به .

ولما ثبت لما بعده على الانفراد حكم ، لأن أكثر ما فيه أن يكون كمعارضة بعض السورة ، وتلك مما لم يقع التحدي عليها ، وهذا مع ما في قوله : (له ذنب طويل) من الخلف ، لأن ذنب الفيل ليس بالقياس على مقادير أعضائه وجوارحه طويلاً ، ولا هو مما ينبغي أن يشار إليه إذا وصف خلقه ، لأنه لا فرق فيه بينه وبين البعير ، وإنما يقع تمييزه من غيره بالخرطوم والنابين والرأس والأذنين وعظم الجثة ، واكبار المفاصل حتى لا تلس للوقوع بالأرض ، وان وقع لم يقدر على القيام ، فهذه خصائصه .

ووجدناه قد قال : (ما أدراك ما الفيل) فلما أخذ في وصفه لم يعرفه بما استحق تعريفه ، فدلنا ذلك على ركاكته وغباوته .

وأما قوله (يا ضفدع نقي كم تنقين ، لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين) فإنه أيضاً من ركيك الكلام ، المضاهي لترقيص نساء الاعراب أولادهم من نحو قول إحداهن أشبه أيا أمك وأشبه حمل ، ولا تكونن كلهوف ، وكل يصيح في مضجعة ، قد انحدل وأرق إلى الخيرات وأربأ في الحيل ، وعن قول من ربيب أباهما فقال : وابناه ، وابن الليل ليس سروب الفيل يضرب بالذيل كمقرن الحبل فان كانت هذا القول من مسيئة معارضة القرآن ، فكل واحد من كلام هاتين المراتين معارضة وإلا فليعلم أن ليس كل سجع وكل كلام منقطع كالقرآن والله حسبه .

فصل

ونقول في الفرق بين فصول القرآن وبين هذه المنقطعات ان الاسجاع وقوله في الاشعار يتحرى لها الالفاظ وجعل المعاني تابعة لها سيف بن ذى يزن لم يقل : انك يا عبد المطلب لجده غير كذب وترك أن يقول لجده حقاً لا مراعاة اللفظ ، وليزدوج آخر كلامه بادلة ، وإلا فليس في العادات أن يقول قائل : ان هذا هكذا غير كذب ، وإنما يقول حقاً أو صدقاً ، كما قال عز وجل : ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق ﴾ (١) .

وجرى النبي ﷺ هذه العادة لما قصد السجع ، فقال : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) (٢) . ولم يقل أنا النبي حقاً ، قال الله عز وجل : ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ (٣) لأن ذلك كان لا يزدوج مع الذي كان في نفسه ان يقوله من قوله : (أنا ابن عبد المطلب) ويجري للاسجاع إتفاق حروف المقاطع نحو ياء وميم وجيم .

وعلى هذا عادة الشعراء ويتوفى فيها معاً تبيان للفضل والبيت والبيت في الطول والقصر ، وليس القرآن كذلك ، لأن مقاطع آياته لم تكن على استواء الحروف ولا آياته على التساوي ، فعلم بذلك أن المعاني فيها بحق المقصودة ، والألفاظ تحتها لم تشبه ما تشبه الاسجاع والأشعار ، من تخالف الحروف في مقاطعها ، ولا طول آية وقصر التي تحتها .

ألا ترى أن النبي ﷺ لما سجع فقال : (أنا النبي لا كذب) اقتصر بعده ، على ان قال : (انا ابن عبد المطلب) ولم يقل : انا ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وإن كان كذلك بالحقيقة . لأنه لو قال هذا لزالته بهجة السجع وحسن النظام عن هذا الكلام .

وقد دخل هذا المعنى اكثر آيات القرآن فلم يسوءها ولم يعرضها لأن تمجدها الاسجاع وتنبوا عنها القلوب . فقليل : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (٤) . ثم قيل : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ (٥) . وذلك كلمتان ، والذي قبله ثلاث كلمات ومقطعها مختلف ، ثم قيل بعد هذا : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ (٦) وهي ثلاث كلمات ومقطعها الميم ، وقيل بعدها : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين آمين ﴾ (٧) . وفي هذه إضعاف

(١) الذاريات : ٢٣ (٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب ٥٢ ، ٦١ ، وفي صحيح مسلم « كتاب الجهاد » رقم ٧٨ - ٨٠ (٣) الاعراف : ٤٤ (٤) (٥) (٦) (٧) آيات سورة الفاتحة .

التي قبلها ومقطعها النون ، فلم يستنكر ذلك أحد سماعه من أهل البلاغة والنظم ، ولو كان ذلك في شعر أو سجع لا يستهجن ولم يعترف لصاحبه بأن آياته المتفاوتة قصيدة واحدة ، فعلم بهذا أن مبنى آيات القرآن على غير مبنى الاسجاع والقوافي .

ومن تأمل كلام مسيلمة على مشاكلته للاسجاع ومباينته آيات القرآن ، وكذلك بقصد الهزل ، والركيك من اللفظ والغث من المعنى ، فيقول : « يا ضفدع نقي كم تنقن ، لا الشراب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » فإن هذا من قوله يدل على أن اللفظ كان أغلب عليه من قصد المعنى ، وإلا فليس في هذا الكلام ما يستحسنه عاقل .

وهكذا قال الصديق رضي الله عنه لما سمعه : (ان هذا لم يخرج من إله) أي لم يخرج من عند الرب ، فان الرب حكيم ، والحكيم لا يتكلم بما لا يستجد معناه ، ولا يستفاد لفظه وكذلك قوله : (وقد أنعم الله على الجبلى إذا خرج منها نسمة تسمى من بين صفاق وحشا) قد عرض له في من الهجنة والركاكة مالا تفرضه له الا تجريده قصداً للفظ واعراضه عن المعنى .

وكذلك قوله في صفة الفيل الذي تقدم ذكره ، والكشف عما فيه ، إنما عرض له التقصير فيه لإرادته اللفظ وقلة حفله بالمعنى . وآيات القرآن كلها تخل من هذه الصفة ، فظهرت بذلك فرق ما بينها وبين غيرها وبالله التوفيق .

فان قيل : أرأيت لو تحدى العرب عليه من الإتيان بمثل هذا القرآن ، أهو مثله في النظم دون غيره أو في النظم أو المعاني ، فان كان في النظم والمعاني ، فأنت تعلمون انه لا اعجاز في المعاني ، وإن كان في النظم وجب أن يكون كل من تكلم بكلام منظوم مثل نظمه اتيا بمثله ، وإن كان ذلك الكلام هدرأ لا معنى تحته ولا فائدة فيه ، وفي هذا ما يمنعكم من الطعن في كلام مسيلمة لما فيه من اختلال المعاني ، وفساد الأعراض .

فالجواب : ان الاعجاز في لفظ "قرآن" ، ولكن لا يمنع اللفظ من الإفادة والإجادة ، فان تكلم متكلم بكلام يدل على عرض محتج ومعنى مستقيم منظوم بنظم لا يشبه نظم الشعر ولا نظم الخطب ولا نظم الرسائل ولا الاسجاع ، كان معارضاً للقرآن آتياً بمثله ، ولكن يكون ذلك أبداً شهادة من الله تعالى بذلك حقاً ، فأما ان نظم هدرأ أوضاع

كلاماً لا معنى تحته ، واستوى له من ذلك بقدر سورة من القرآن لم يحز أن يقال انه عارضه أو جاء بمثله ، لأننا وجدنا في الناس من لا يحسن ان يقول بيت شعر .

وقد قال قصيدة صاغها هذرا ونظمها من الفاظ لا معاني تحتها . ورأيت من يخدم الملوك ويصيب الرغائب منهم ولا سبب له عندهم إلا هذا الصنيع ، وشاهدته وهو ينشد قصائده التي وصفتها وهم يضحكون منه ، ولو أراد أن يقول بيت شعر مستقيماً لما قدر عليه ، فعلمنا ان الاعراض عن المعاني واغفالها مما يسهل السبيل إلى التوسع في الالفاظ الفارغة وبالله التوفيق .

وأما من زعم انه عارض سورة الكوثر ، فهو أضل من حمار أهله ، لأن قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك ﴾ ^(١) . وبعض ما بعده كلها أعيان سورة الكوثر ، وما بعضها محاكاة وسرقه ، فاني يكون ذلك معارضة ، لولا قلة المعرفة ، وبدل على صحة ما قدمنا ذكره خطباء العرب وقصحاؤهم لما سمعوا القرآن استعظموه ، فقالوا المعرفتهم مباينته جميع ضروب كلامهم : (إن هذا إلا سحر يؤثر) ^(٢) . كما قالت سائر الأمم للأنبياء لما رأوا من اعلامهم ما يبين الموجودات عندها ، قالوا هذا سحر مبين .

وروى ان الوليد بن المغيرة جمع قريشاً فقال لهم ، ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال بعضهم : هو كاهن ، فقال الوليد : سمعت قول الشعر فما هو شاعر ، وسمعت قول كهان اليمن فما هو مثله ! قالوا : فما تقول أنت ؟ فسكت ساعة ثم عبس فقال : ان هذا الا سحر يؤثر .

وفي رواية أخرى ان الله عز وجل لما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ ^(٣) ، قام النبي ﷺ في المسجد فقرأها والوليد قريب منه يستمع إلى قوله ، فلما نظر النبي ﷺ إلى الوليد يستمع إلى قراءته ، أعاد هذه الآية ، فقال : حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، في ملكه العليم بخلقه ، غافر الذنب لمن تاب من الشرك ،

(٢) المدثر : ٢٤

(١) الكوثر : ١ - ٢

(٣) غافر (المؤمن) : ١ - ٣

شديد العقاب لمن لا يتوب من الشرك ، ذي الطول ذي الغناء عمن لا يوجد ثم وجد نفسه حين لم يوجد كفار مكة ، فقال لا إله إلا هو .

فلما سمعها الوليد انطلق حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم فقال : (والله لقد سمعت لعمرك كلاماً أنفأ ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان أسلفه لمصدق ، وإن أعلاه لمشتر ، وإن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وإنه لمعلو أو ما يعلا ثم انصرف إلى منزله .

فقال قريش : قد صبا الوليد ، فوالله لتصبون قريش كلها ، وكان يقال له ربحانة قريش . فقال أبو جهل : أنا اكفيكموه ، فقعده اليه كهينة الحزين ، فقال له الوليد : مالي أراك حزينا ؟ فقال : وما يعني أن أحزن ، وهذه قريش ، قد أجمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك ، وزعموا انك إنما رتبت قول محمد لتصيب من فضل طعامهم ! فغضب الوليد وقال : أو ليس قد علمت قريش اني من أكثرهم مالا وولداً ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام ، فقام الوليد ، وانطلق مع أبي جهل حتى جلس بني مخزوم فقال : يزعمون أن محمدأ كذاب فهل رأيتموه كذب فيكم قط ، وكان يسمى قبل النبوة ﴿ الأمين ﴾ ؟ فقالوا : اللهم لا ! فقال : تزعمون أن محمدأ مجنون ! فهل رأيتموه جن فيكم قط ؟ فقالوا : اللهم لا ! قال : فتزعمون انه كاهن ! فهل سمعتموه يخبر بما يخبر به الكهنة ؟ فقالوا : اللهم لا ! فبرأه الله من هذه الثلاثة كلها .

ثم قالت له قريش : فما هو يا أبا المغيرة ؟ فيكفر ما يقول له ، ثم نظر فيما يقول ثم عبس وبسر ، فقال : ان هذا إلا سحر يؤثر .

وفي حديث آخر ان عيينة بن ربيعة قال لقريش : خلوا هذا الرجل واجعلوهالي والله لقد سمعت الشعر قريضة وزجره وقول الكهان ، فما سمعت مثل قوله ، وذلك عندما سمعه يقول : ﴿ حم ﴾ (١) . ﴿ السجدة ﴾ (٢) ، من أولها إلى ان بلغ : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ (٣) فأقسم عليه ان يسكه ويصد قريشاً ، فقال لهم ما قال : فقالوا سحرك يا أبا الوليد !

(٢) ان اسم السورة التي يعنيها هي (الشورى) وليس (السجدة) .

(١) لشورى : ١

(٣) الشورى : ٤٨

وهذا كله يبين انه لم يكن يخفى على العرب ان القرآن لا هو كالا سجاع ولا هو كارجيز العرب التي كلها أجلي وأنهى وأفصح وأهياً من اسجاع مسيلمه ، فكيف يقبل من مسيلمه ، فكيف يقبل من مسيلمه ان يدعي معارضة القرآن بشيء لولا قصد الحجاج وازالة الشبهة عن صدور المستضعفين لجلب نعمة الله على عباده بالسمع أن يصرفوا اليه ويشغلوه به وبالله التوفيق .

والاحتجاج بالقرآن وجه ثالث : وهو انه كتاب ناقض للعادات من كل وجه ، ولأن الناس حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ كانوا فريقين : معطلين وملايين . فالمعطون لم يكونوا يقولون بأمر ولا نهي ولا تحليل ولا تحريم ولا وعد ولا وعيد ولا تسبيح ولا تقديس ولا عبادة قط .

والمليون كانوا متمسكين بالشرائع الموروثة لهم عن اسلافهم ، المبدلة منها وغير المبدلة ، ولم يكونوا في العبادات ولا الاحكام عن المنهاج الذي نهجه القرآن ، والمعطلة من العرب لم يكن تعطيلها الا تقليداً ، ولم يكن لهم من النصر بالحجج وطرق النظر ما كانت لمعطلة الفلاسفة ، وكذلك المتدينة منها بنصرانية أو يهودية أو مجوسية ما كانت الا مقلدة ، ولم يكن لها في النظر والحجاج والجدل نصيب .

وكان النبي ﷺ مولوداً بمكة ، وبها تربى على عادات أهلها ، نشأ لم يجالس النظار ولا حملة الاشعار ، إذ لم يكن منهم من يليه أحد ولا أن يحل إلى من كان منهم في غير بلده ، فجالسه والتقى به ، ولا عرف البحث عن الديانة والخوض عنها من هم ودأبه ، وكان مع هذا الانفراد لا يكتب .

ثم انه جاءهم بالقرآن المشتمل على الاثبات والنوحيد والتسبيح والتقديس والتحميد والدعاء والاستغفار والتمجيد ، وإثبات العبادات على اختلاف وجوها وإبانة الاحكام في عامة الحوادث على كثرتها ويقين أصولها وفروعها ، وكانت جلستها مخالفة في أنفسها لما عليه المعطلة ، وفي أوصافها وشرطها لما عليه الملة المتدينة ، فدل على وجوه الحجاج وأرشد إلى طرق الجدل والخصام ، وكان في مجموع ذلك كله ثلاثة معاني أخذها القرآن كتاب وخبر وفيه تكرير .

وعلى ذلك فقد اشتمل من بيان احكام الحوادث على ما أفاد بعضها الكفاية ببعضه ، وفي بعضها ما يضمنه من المعنى الذي يتوصل به إلى معرفة الحكم فيما قصر اللفظ عنه ، فلا تخلو حادثة تحدث إلى قيام الساعة عن أن يمكن استدراك حكمها من قبله ، ومن وجه فيكون مرجعه اليه ومصدره عنه .

ومن علم النظر والاستدلال على مالا متجاوز عنه ولا زيادة عليه ، ولا تكاد العقول تبصر طريقاً سواه ، والنظار وإن أمعنوا وبالغوا وجاوزوا وصنفوا وقدموا وأخروا ، فإن أصل احتجاجهم اليه يرجع ، وعليه يقف : ومن علم العبادات على ما أتى بها وهذا إلى وجوها وأقسامها .

ومن علم الآداب والشائئ المحمود على نحو من علم العبادات والمعاملات أحكام الصروف والجنايات . ومن التسميح والتقديس والدعاء والتحميد مالا تبلغه بلاغة البلغاء ويمعز عنه عليه الفصحاء .

ويضاف إلى هذه الأبواب المواعظ والأمثال والقصص والوعد والوعيد ، وما بقي منها إلا اليسير خلا عن العبادة ، والتركيـز في مواضع كثيرة بالألفاظ مختلفة ، والأمر فيها مؤتلف ، والقائم به واحد منفرد ، فلا يمكن أن يكون استوى ذلك كله له حتى تولى وصعد من تلقاء نفسه ، لأن امكان ذلك مبين للعبادات لا يكاد يتفق ذلك لأحد من الناس فيما يحفظ أو يعرف ان جميع هذه ولا سيما على شرطه في الاعادة والتكرير والعبادة عن كل واحد منهما بعبارات كثيرة ، والفاظ مختلفة في كتاب قدره كقدر القرآن ، وجملته كجملته ، وفي ذلك ما يدل على انه انما جاء به من عند اللطيف الخبير الذي هو على ما يشاء قدير . والآخر انه ما من باب من هذه الأبواب التي ذكرنا الا وهو ناقص بها عادة فرق من الفرق التي عددها ، فإنه بما جاء به من الشرائع والاذكار والدعوات نقض عادة العرب ، وخالف طريقة عامة المعطلة ، فلا يمكن أن يكون أخذ عنهم ما لم يكن عندهم .

وأما أهل الملك فقد خالفهم أيضاً ، لأنه جاء بغير ما كانوا عليه من العبادات والاحكام وكنبيهم في كثير مما كانوا يدعونه ديناً وكذباً بالله عز وجل ، ولعنهم وكفرهم وظلمهم وقتلهم وغنم أموالهم وسبى ذراريتهم ونساءهم وضرب الجزية على الذين سالمهم ، وأنذر بالنار والعذاب الدائم من مات منهم ، ولم يمكن أن يكون أحد من يخالف دينهم عنهم .

وأما ما يوافق قولهم ، فلو كان أخذه عنهم لم يخف ذلك عليهم ولو لم يعفوا عليه في أول الأمر ، فقد كانوا يدر كونه إذا غلبت يده وظهر أمره ثم كانوا لا يمكنونه عليه ، بل يفسونه ويذيعونه حرصاً عليه متتابعين فيه ، ولما ذهب علم ذلك على النجاشي الذي كان أصحابه يلحون إليه وهو يومئذ ملك النصرانية ، وقد جاءهم بنسخ أحكامها وتبديل شرائعها وتكذيب أكثر الدائنين بها مما كانوا يقولونه في عيسى صلوات الله عليه .

ولما لم يقدر أحد من اليهود والنصارى والمجوس على أن يضيف إليه شيئاً مما ذكرت ، وإنما قالت العرب عند تخبرها في الأمر ، إنما يعلمه بشر ، فليشتبه إلى الأخذ عن أعجمي لا يحسن العربية ، وهو عندي لا يحسن الاعجمية ، حتى رد الله جل ثناؤه عليها قولها من هذا الوجه فصح انه لم يأت بالقرآن إلا من عند الله جل ثناؤه وبالله التوفيق .

والثالث هو ما أشار إليه جل ثناؤه بقوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) . منها عما قد كان ، ومنها عما قد يكون في الدنيا وفي الآخرة ولم يأت به النبي ﷺ جملة وإنما أتاهم به شيئاً بعد شيء ، وقد جرت العادة ، بأن الكذاب لا يسلم من المناقضة في كلامه ، ولا سيما إذا تشتت اخباره وتخللت بينها أزمان متباعدة ، وأحوال متتابعة .

فلو كان القرآن وضعاً وضعه من تلقاء نفسه ، لوجدوا في اخباره من التفاوت ما هو أظهر امارات الكذب ، وأبين ما يميز به الناس بين الصادق والكاذب ، فيقول قائلهم : أما فلان فلا تجري أقواله إلا على نهج واحد ، وأما فلان فإنه يقول مرة كذا ومرة كذا ، أي ان الأول محق صادق ، والآخر مبطل مخارق .

وما لم يوجد ما ذكرنا انه اماراة الكذب والكذاب في القرآن ، صح انه إنما جاء به من عند الله عز وجل ، وهذا كما قال : ﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ (٢) . أي ألم يقابلوا أحواله وأوصافه بأحوال المتحابين وأوصافهم حتى إذا لم يجدوا شيئاً منها له وفيه علموا انه ليس بمجنون .

فان قيل : ان اخبار القرآن لا تبلغ في الكثرة ان لا يطلق الاحتراز فيها من المناقضة

(٢) الاعراف : ١٨٤

(١) النساء : ٨٢

ولا سيما إذا كان الذي يأتي بما يريد ، يتوصل به إلى إثبات الرسالة لنفسه من الله تعالى جده !
فالجواب : انه ما من مخبر كاذب إلا وله في خبره غرض يريد أن يبلغه بخبره ، ويكره أن يظهر المخبر كذبه فيه ، ثم ليبين في ذلك ما يحتمل وجود التفاوت في كلامه إذا رددته في عدة مجالس في يوم أو أيام متدانية أو متباعدة ، وما ذاك إلا ان التحرز من المناقضة في بواعث العقل والتمييز وجب الذكر الجميل ، والاشفاء من الاسم الذميم .

ومن كان بهذه المنزلة لم يكذب ولم يقتصر على ان يكون كذبه معتدلا دون أن لا يكذب أصلا ، وانما يرضى لنفسه بالكذب من ضعف رأيه وخف وزنه أمامه الذي لومه حاله وعرضه القائم في نفسه حين تكلم تكلماً يغرب الحال ، واختلف العرض بغير كلامه ولم يجعل بما تقدم له منه .

وإذا كان هذا هكذا ، لم يكن في امكان التحفظ من المناقضة في قدر اخبار القرآن الكريم بما كان يحيل أو يمنع وجود آيات الكذب فيها لو كان الآتي بها صادق وبالله التوفيق .

وفيه وجه آخر وهو ان في هذه الآية : ان القرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه التفاوت والتناقض ولكن ليس فيها ان ذلك على أي وجه ، وجد من حيث ان الآتي به كان لا يقدر على التحفظ فيه أو من وجه سواء فيقول : بل من وجه سواء ، وهو ان الله عز وجل إذا رآه مستظهِراً بالتحفظ على التلبس ، ويتوصل إلى وضع شريعة وصرف الناس عن الشرائع الصحيحة اليها ، حال بينه وبين همه وسلبه الأوصاف الذي يتمكن بها من الاحتراز وعرضه لما يوقعه في المناقضة وحلاه حلية الكذابين ، فلما لم يفعل ذلك بمن جاءهم بالقرآن ولا هو أنزل عليه عذاباً ولا سلط عليه عدو أبلى كتب له النصر على من ناوأه او خالفه وجب أن يعلم ان من جاء بالقرآن من عنده وبالله التوفيق .

فصل

ومما يدخل في تعظيم قدر القرآن انه مخصوص : بانه الدعوة وهو الحجة ولم يكن مثل هذا الرسول قط ، إنما كانت تكون لكل واحد منهم دعوة ثم تكون حجة غيرها ، وقد

جعل الله تعالى القرآن لرسوله ﷺ دعوة وحجة ، إلا انه دعوة لمعاينة حجة لألفاظه ونظمه ، وحسب الدعوة شرفاً أن تكون الحجة نفسها ، وحسب الحجة قوة ان لا تتميز الدعوة عنها .

ومن خصائص القرآن ان الله تعالى جعل معجزة الرسول ﷺ باقية إلى يوم القيامة ، وذلك لنفاد دعوته إلى يوم القيامة .

وأما سائر الرسل فكانت إيمانهم تبقى قدر ما تلزم بها الحجة .. لا يوجد منها إلا ذكرها وبنائها . وهذا مما أكرم الله بها نبينا ﷺ ، ثم ان له عليه السلام وراء القرآن من الآيات الباهرة إجابة الشجرة إياها لما دعاها ، وتكليم الذراع المسمومة إياه ، وازدياد الطعام لأجله حتى أصاب منه بأس عظيم ، وخروج الماء من بين أصابعه في الخضب حتى توضع منه ناس كثير ، وجبر الجذع وظهور صدفه في معينات كثيرة أخبر عنها وغير ذلك مما قد ذكر ودون .

وفي الواحد منها كفاية ، غير أن الله عز وجل لما جمع له من أمرين : أحدهما بعثه إلى الانس والجن عامة ، والآخر ختم النبوة به ، ظاهر له بين الحجج حتى شدت واحدة عن فريق ببلغتهم أخرى ، وإن لم تنجع واحدة نجعت الأخرى ، وإن درست على الأيام واحدة بقيت أخرى ، والله في كل حال الحجة البالغة ، والله الحمد على نظره ورحمته لهم كما تستحقه .

ذكر الكهانة

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُوَفَّوْنَهُ ، وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فان قال قائل : ما الدليل على أن نبيكم لم يكن كاهناً ؟ أرايتم لو قيل لكم : ان الكهانة كانت فاشية في العرب وتحاكمهم إلى الكهان أمراً ظاهراً وقد علم أن الجن تقدر من الصناعات ما لا يقدر عليه الإنس ، وقد وصفهم الله عز وجل بذلك ، فقال في قصة سليمان

(١) الحاقة : ٤٠ - ٤٣

عليه السلام : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ (١).

وقال : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ (٢).

وجاء في الاخبار انهم كانوا يعملون له في البحر وينون البنايات العظيمة التي لا يبني الناس مثلها ، فلا يمكن أن تكون قوتهم على نظم الكلام كقوتهم على سائر الأعمال مع ما كان يذكره كل شاعر من كبار شعاريهم ، من ان له تابعة من الجن تلقيه وتعينه ، وذلك وجود في أشعارهم ، قد ذكروه واعترفوا به بل تبجحوا وافتخروا .

فيكون هذا القرآن من نظم الجن ومن نظم تابعة بينكم ، يعني أن يكون وحياً إليه على لسان الملك ، ويكون انقتال الذي ينسبونه إلى الملائكة واقعاً من قبل الجن ، وأن يكون مجيء الشجرة لما دعاها من قبل الجن إياها ، وزجرهم إليه لها ، وأن يكون حنين الجذع صوت جني عنده ، لا صوته بالحقيقة ، وكذلك كلام الذراع ، أن تكون أخباره عن كثير من المغيبات لأنباء الجن بذلك ، فيكون جميع أمره كهانة لا نبوة !

فالجواب : - وبالله التوفيق - ان هذا باطل ، والنبي ﷺ أظهر أمراً وأبين حالاً والشواهد على نبوته وصدق دعوته أكثر وأبهر من أن تسوغ هذه المعارضة لأحد في أمره .

فأما ما يختص بالابانة على انه لم يكن كاهناً فعدة أشياء منها أنه يبرأ من الكهانة ، فقال فيما قرأه على الناس حاكياً عن الله في وصف القرآن ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ (٣).

وقال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (٤) .

فلو كان يأخذ من الشياطين ، ثم يسبهم ويشتمهم ويغييهم ويكذبهم وينسب ما يغيبون ويعدونه إلى غيرهم من غير أن يريد بذلك ستراً عليهم وصيانة لهم عن مكروه يخافه عليهم من إظهار أمرهم لما سأله ، ولكان أقل ما يعاملونه به ان لم يضروه ان يهجروه .

(٢) سبأ : ١٣

(١) الانبياء : ٨٢

(٤) الشعراء : ٢٢٢ - ٢٢٣

(٣) الحاقة : ٤٠ - ٤٣

الا ترى أن واحداً من الناس إذا كان يتلقى عن أحد علماء مستفيد به في الناس ذكراً أو مالا أو جاهاً ثم ترك إلى أن ينسبه إليه ، لا لغرض سوى الترفع أن يقال : انه يأخذ عن فلان وينسبه إلى ضده ويخالفه وصار مع ذلك إلى سبه وشتمه وتكذيبه من غير ضرورة إليه ، أو عذر يعرف له فيه ، كان من أقل ما يعامل به إذا عرف ما يكون منه أن يقطع عنه مادته ويرفض في إرفاده عادته دون أن يتحمل لأجله المشاق والكلف في تحصيل حاجته ثم يعصمها عليه مع ما يعرفه من رفعة عنه ، وإساءة القول فيه .

وإذا كان كذلك ثم لم ينقطع عن النبي ﷺ ببراءته من الجن وتكذيبه مسترقة السمع منهم ، وذهمهم وإيham وتسميتهم باقبح الاسماء وهو الشياطين ، علم ما كان يأتيه ، ولقد ردت الشياطين على الاضرار به ، دل ذلك على أن العلم إنما كان يأتيه من الله تعالى على لسان الملك ، دون ان كان شيطان يلقي إليه شيئاً ، أو يسترق لأجله سمعاً ، منها : ان نبينا ﷺ ذكر للناس أن الكهانة قد أبطلت ورفعت ، وان الجن قد حيل بينهم وبين خبر السماء ، فقال فيما أوحى الله إليه من قول الجن : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً ، وشهاباً وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (١) .

وذكر ان فيما أنزل عليه : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ، ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (٢) :

وقوله عز وجل : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (٣) . فلو كان ما يقوله إنما يسمعه من مسترقة السمع وكان الإستراق بحالة ، والكهانة حالها الكذب وسائر الكهان ، ويكون تابع كل كاهن لصاحبه ، إنما يأتي محمد أمياً فلان ، وانه واحد منكم ، ولأخبر الكهان بذلك للناس ليتمكنوا من كهانتهم ، كما كانوا متمكنين منها قبل .

فلما اسكتوا وبطل أمرهم وانقطع التواقع إليهم لعدم العلم الذي كان يوجد فيما مضى

عندهم ثبت ان الكهان إنما عجزوا عن الطعن في النبي ﷺ ، فلم يدعوا انه من طبقتهم ، وواحد من حملتهم ، لأنه لم يكن منهم ، وكان صادقاً في قوله : ان الجنة حجبوا عن السماء ، وبطلت الكهانة وجاءت النبوة ، ولولا ذلك لقالوا : ما ذكرنا انهم لم يقولوه وزادوا على ذلك انهم كانوا يشاركونه في مخبراته شياطينهم ، يأتونهم بمثل ما كان يأتيه به شيطانه ، لو كان منهم ، فكان يظهر بذلك أن الجن لم يحجبوا عن السماء ، وان الكهانة لم تبطل وسيبين للناس انه منهم ومثلهم .

وفي انقطاع الكهانة وبطلان امداد الكهان ما دل ان النبي ﷺ كان صادقاً في جميع ما قال ، وان العلم كان يأتيه من عند الله على لسان الملك ، ولم يكن للجن إليه سبيل . ومنها أن نبينا ﷺ قد ثبت له اعلام لا يمكن إضافتها إلى الجن ، نحو الماء ينبس من بين أصابعه في المحصب حتى توضع منه ثمانون رجلاً .

والشاء التي أكل منها سبع مائة رجل وأكثر ، وبقي الطعام مع ذلك بحاله . ونحو اشتقاق القمر وغير ذلك مما لا يمكن أن يكون للجن فيه عمل .

فيثبت بهذه الاعلام صدقه ، ولم يحز معها أن يضاف إليها الكهانة أو هو قدبراً منها ، لأنه لو كان كاذباً في البراء بينها لما أيده الله تعالى بهذه المعجزات ، وفي تأييده إياه بها ، وجوب حكم للصدق والامانة له ، فصح أن الكفاية عنده مدفوعة والنبوة ثابتة وبالله التوفيق .

ومنها أن استراق السمع خيانة ونجس ، وإفشاء ما يجري في الملأ الأعلى من غير أن يأذن الله تعالى فيه خيانة ، كل ذلك فسق ومعصية ، فصح أن الشياطين الذين منهم يقع هذا يطرأ على شياطين الانس الذي تقع منهم السرقات وإفشاء الاسرار وهتك الحرمات . ومعلوم أن هؤلاء إنما يسألون أمثالهم من أسرار الناس ، ولا يسألون الصلحاء والبررة والأتقياء ولا يخاطبونهم ولا يصحبونهم .

فدل ذلك على أن أمثالهم من الجن إنما يساكنون من الانس الشرار والمردة وأهل الخبث والخلاعة ، دون الاخيار وذوي الصلاح والامانة والعفة .

وقد علم أن نبينا ﷺ ، كان أوفى الناس نفساً وأحدهم شمائل ، وأرضاهم انحاء ومذاهب ، وأصدقهم لساناً وأبينهم أمانة . كذلك كان قبل النبوة ، وكان يدعى بينهم

الأمين ، ثم ازداد فيها حمداً وفضلاً ، فكان أبعد الناس من أن تؤاياه مستترقة السمع من الجن ، أو تسالمة أو تصحبه .

فثبت من هذا الوجه أيضاً بعده عن الكهانة ، وهذا هو المعنى الذي أشار الله تعالى إليه بقوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفك أثم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ (١) . وبالله التوفيق .

ومنها أن أمره لو كان من قبل الكهانة لم يخل الجني الذي كان يأتيه من أن يكون مؤمناً أو كافراً ، فإن كان كافراً استحال أن يأتيه بغرض الايمان ، وعبادة الرب ويحمد الكفر ، وقتال جميع طبقات الكفار . فإن كان مؤمناً استحال أن يقول له وهو ليس بنبي نبياً ، وادعى أن الله تعالى أوحى إليك ونبأك ، لان من أمر بهذا غيره ، أو رضي به كفر ! فكيف إذا ظاهره على ذلك بأشياء تشبه في ظواهرها المعجزات ليحيى بها الناس صرفه نحو الحنين عند الجميع ، ليرى الناس أن ذلك حنين الجزع ، أو قوله عند الذراع : اني مسمومة ، ليتوصل القول له ذلك إلى أن يدعي الذراع كلمته .

وإذا كان كذلك ، صح ان أمره لم يكن من قبل الكهانة ، ولا علمه كان من جهة مستترقة السمع ، فإن ذلك لو كان لم يخل الجني الذي يحضره ويكلمه من أن يكون كافراً أو مؤمناً ، وقد بينا أن ذلك غير ملائم لواحدة من الحالين . فبطل أن يكون للجن إليه سبيل أصلاً ، وبالله التوفيق .

ومنها ان كهانة الكهان لم يكن بينها أمر ولا نهي ولا وعظ ولا وعد ولا وعيد ، وكان الأغلب مما جاء به النبي ﷺ الدعاء الى الله تبارك وتعالى ، وبيان أحكامه والارشاد إلى عبادته والوعظ والتبصير والإنذار والتبشير ، كما لذلك كان الذي جاء به موسى وعيسى عليهما السلام ، وتبرئتهما من الكهانة ، فليقل في نبينا ﷺ قوله فيهما ، لأن الذي جاء به كان نظير الذي جاء به موسى وعيسى ، انه لا نظير كهانة الكهان .

وان كان يزعم أن موسى وعيسى كاهنان كذبتهما المعجزات التي آتاها ما لا يجوز أن يكون للجن فيه صنع بوجه من الوجوه نحو انقلاب العصا حية وانقلاب النيل دماً ثم

عودة ماء الطمس على أموال قوم فرعون كانفلاق البحر ، وظهور طرق يابسة فيها بضربة واحدة ، وحياة الميت ، وانقلاب الطين طائراً حياً ، وبرء الاكمه والأبرص ، فان هذه أمور لا تمكن إلا من الله جل ثناؤه ، فاذا ثبت بها نبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وكانت دعوة محمد ﷺ مشاكلة لدعوتهما ، ثبت أن أمره لم يكن من ناحية الجن كما لم يكن أمرهما من ناحيتهم والله أعلم .

ويؤكد هذا ان الكهنة ما كانت لهم دعوة مستجابة في أحوال الضرورات العارضة للناس ، وقد كان منها لنبينا ﷺ ما كان للانبياء عليهم السلام مثله . فدل ذلك على انه كان نبياً ولم يكن كاهناً وبالله التوفيق .

فصل

فاما قول من قال : يجوز أن يكون تابعه محمد وأوليائؤه من الجن ، هم الذين قاتلوا المشركين ببدر ، دون أن يكون الله تعالى أمدّه يجند من السماء لأجل النبوة !

فالجواب : ان هذا لو كان هكذا لوجب أن يقاتل توابع المشركين وأوليائؤهم توابع النبي ﷺ وحزبه ، وإن كانت فعلت هذا ، فهلا وجد في المسلمين من قتلى الجن مثل ما وجد في المشركين من قتلى غير الانس ، فقد كان الكافر يقع بالأرض قبلاً ، ولا يرى قتله ، وترى أبدان المشركين طعنات لا تشبه طعنات بني آدم ، ولم ير باحداً من المسلمين من مثل هذا شيء ، فهذا يبين ان مدد المسلمين لم يكن إلا الملائكة .. التي لا يجوز أن تبصر الا أولياء الله بأمر الله ، وبالله التوفيق .

وأما الشجرة التي دعاها رسول الله ﷺ ، فأقبلت تجر الأرض حتى وقعت بين يديه ، لا يخلو من أن يكون فعلها والأمال بها من قبل الجن أو فعلا الله جل ثناؤه غير منضاف الى أحد سواه ، فان كان فعلا الله جل ثناؤه لا يضاف إلى أحد من خلقه منه شيء ، فهذا ما قلنا ، وإن كان من قبل الجن ، فالدلالة به على صحة نبوة نبينا ﷺ قائمة ، لأن ذلك يدخل في باب تسخير الجن له كما سخرُوا لسليمان عليه السلام وذلك ان من المعلوم الذي لا يلبس ان الجن لم تكن تعمل لأحد من الكهنة عملاً ، وما كانت تريد على أن يخبرها ببعض الحساب ، وما مضى من الكتابات .

فأما ما جاوز ذلك فلا ، وما كان العمل منها لسليمان عليه السلام تسخييراً من الله عز وجل إياها له . فان كانت الجن تصحب ﷺ في سفره وانفراده بنفسه ، واجتماعه مع اخوانه ، وحين يسلوبه أو يريد أن يقضي لنفسه حاجة ، أو يقيم على أحد برهانا ودلالة حتى ان دعا الشجرة قلمتها وأحضرتها إلى غير ذلك ما اضاف الطاغون إلى الجن . فقد كانت إذا مسخرة له وتسخيرها لأحد من الانس خلاف العادة . ولم يكن فيما مضى إلا لنبي ، فهو إذا نبي .

وأيضاً فلو كانت جن تفعل ذلك موالاة للنبي ﷺ ، وميلا اليه بطبعها ، لعلمت جن آخرون لمخالفته مثلها منها إياها وميلا اليها بطبعها ، ألا ترى ان القتال لما وقع بينه (وبين) قريش اعانه من الموافقين من اعانه ، وأعانت قريشاً أيضاً من موافقها من أعانها فكذا كان ينبغي أن تعمل الجن ، فإذا أعانته جن بما يكون له من المشركين أعانت المشركين جن مخالفتهم له وموافقون لهم مثله ، كيلا يجحد إلى الإحتجاج عليهم سبيلا . ولما لم يكن ذلك ، علم ان ما كان من هذه الأمور ، فلم يكن للجن فيها عمل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان قالوا : علمت النبي ﷺ بعمل لا يقدر الانس على مثله ، ليتوصل بذلك إلى دعوى انه نبي ، كان أقل ما يقدر عليه جن آخرون ، أن يخبروا الذين كانوا يأقونهم من الكهان بذلك فتدوم الكهانة ، ويعلم الناس من قبل الكهان ما يظهر للناس من الأمور المخالفة للعادة ، فهو من قبل الجن ، ولما لم يقدرُوا على ذلك ، علم انه لم يكن للجن اليه سبيل وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الشياطين ان قدرُوا على قلع الشجرة التي لا يقدر الآدمي على قلعها فلا يقدر على اعادةها وركزها واعلامها حتى تعود في الحال كما كانت ، فإن الآدميين قد يتعاونون على القلع أيضاً ثم لا يقدرُونَ على أن يعيدوها راسخة ثابتة في الحال كما كانت ، والحديث الذي روى فيه دعاء النبوة واقبالها روى فيه أيضاً : انه لما قضى حاجته أمرها أن تعود فعمادت إلى مكانها كما كانت لا ينزل منها شيء ، فثبت ان ذلك لم يكن من قبل الجن ، وإنما كان من الله الذي لا يعجزه شيء وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الأخبار ما دل على ان أمر الشجرة لم يكن من عمل الجن لأنه روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ان النبي ﷺ قال : (إني أمرت أن أتلو القرآن على

الجن ، فمن يذهب معي ، فسكتوا ، ثم الثانية فسكتوا ، ثم الثالثة ، فقال عبد الله : أنا أذهب معك يا رسول الله . فقال : أنت تذهب معي ! فانطلق حتى إذا جاء الحجون عند بعض الشعاب خط علي خطأ ، فقال لا تجاوزه ، ثم مضى إلى الحجون ، فانحدروا عليه امثال الحجل يحذرون الحجارة باقدامهم ، يمشون يقرعون في دفوفهم ، كما تقرع النسوة في دفوفها حتى غشوة فلا أراه ، فقامت فاروماً بيده إلى أن أجلس ، فتلى القرآن ، فلم يزل صوته مرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فقالوا له : ما أنت نبي ، فقالوا : من يشهد لك؟ قال : هذه الشجرة ، تعالي يا شجرة ، فجاءت تجر بعروقها الحجارة لها معامع حتى عادت ، كما كانت ، فلما أقبلت إلى النبي ﷺ قال : أردت أن تأتيني ، قلت : نعم ، قال : ما كان لك ذلك ، هؤلاء الجن أتوا يستمعون القرآن ثم ولوا إلى قومهم مدبرين (١) .

فثبت بهذه الرواية ان مجيء الشجرة بامر الله كان حجة له على خلق كان من الجن يحبرونها لم يخف على الجن الآخرين أمرها ولم تكن بذلك حجة عليهم والله أعلم .

ذكر القرآن المجيد : وأما القرآن فانه أكرم وأمجد وأعظم قدراً وأرفع ذكراً من أن ينسب إلى الجن وضعه ، أو يتوهم لها قدرة على مثله ، بل الجن في العجز عن ذلك كالانس وأضعف وأعجز ، لأن الجن وإن كانت مشاركة للانس في البيان .

فلم يظهر لنا من اقتدارهم على نظم الكلام خطبة ، أو رسالة أو شعر أماظهر لنا اقتدار الانس ، وليس للجن قديماً ولا حديثاً قصيدة تؤثر عنهم ، ولا كتاب يضاف اليهم ويعرف بهم ، فليس إذا كان لهم قوة على أعمال شاقة عنيفة لا تقوى الانس على مثلها ، وجب أن يكون حالهم في البيان مشاكلة كذلك ، فان في الانس من تشتد قوته وتستحكم جريته حتى يقدر من الأعمال وحمل الأثقال على ما لا يقدر عليه غيره على مثله وما يقرب منه ، ثم يكون أبعد الناس من البيان ، وأعجزهم عن نظم الكلام .

وقد أخبر الله عز وجل عن الأعمال التي كانت للشياطين تعملها لسلطان صلوات الله عليه ، ثم لم يخبر عنه انه استكتب منهم أحداً واستحفظه . فلو كان عندها من فضل

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

البيان ما كان عندها من فضل الاختبار على شذائد الأعمال ، لكان عليه السلام لا يبخل نفسه حظاً من بلاغتها ، كما لم يحجبها إياه من حلاوتها .

وفي وقوع السلف من نقلة الأخبار ومبتغى الآثار عنها في هذا الباب دليل على انه لا حال لها فيه ، فوجب البشر ويقتضي الإشارة والشهر والله أعلم .

وأما ما حكى عن شعر العرب من ادعائهم ان نوابغهم يعينونهم على اشعارهم ، فليس ذلك على معنى انهم يلقونهم الشعر ، إذ لو كان كذلك ، لكان أولئك هم الشعراء ، وهؤلاء ودادة لهم ، مخبرون عنهم ، وإنما هو على معنى انهم يذكرونه ، معنى لا يحصرهم من تشبيه أو مدح أو ذم أو شيء قد اعتاض عليهم . فانه إذا جاز عليها أن تذكر وقد يمكن أن تقع مثل هذه المعونة من الإنسان غير الشاعر للشاعر ، فان وقعت من حتى غير شاعر لا بشأن شاعر لم يبعد والله التوفيق .

ثم نقول: لو كان القرآن من نظم الجن لم يخل الذي نظمه منهم من أن يكون حكماً أو غير حكيم ، فإن كان حكماً ، فالحكم لا يكذب على الله عز وجل ، ولا يصنع كتاباً ، ثم يقول هذا كتاب الله ، ولا يقدر الانس والاجن على مثله ، ولا يأمر من ليس بنبي أن يتنبأ ولا يعينه بما يخيل إلى الناس انه صادق ليقبلوا منه ويأخذوا عنه ، فان لم يكن حكماً فغير الحكيم لا تجري أفعاله وأقواله ، لا على الحكمة ، والقرآن مبني على أبلغ الحكمة ، فثبت انه لا يجوز ان يكون من وضع من ليس بحكيم ، وإذا بطل الوجهان ، وكانت اضافة القرآن إلى الجن لا ينفع منها ، صح ان هذه الإضافة باطلة ، لأن مما لا ينفعك عن الباطل باطل .

وأيضاً فان تكذيب النبي ﷺ في ان القرآن كلام الله أنزله عليه على لسان ملك ، وادعى انه كاهن ، فان القرآن من وضع الجن لا فائدة فيه ، لمن يكفر به ، وإن تكذبه من هذا الوجه يؤدي إلى تصديقه ، وإذا وجب صدقه لم يحز تكذبه فيكون التكذيب عائداً على نفسه بالابطال .

وبيان ذلك : ان نبينا ﷺ ، ان كان أخذ القرآن عن جني فلم يكن يخلو غيره من الجن من أن يقدروا على مثله أولاً يقدروا ، فان قدروا فقد كان ينبغي لكفارهم أن يعينوا

أخوانهم من الانس بالمعارضة بعد أن يحدوا ، وقيل : ﴿ لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (١) .

وإذا لم يفعلوا وأسلموا اخوانهم للقتل والسبي ، دل ذلك على أنهم عاجزون عن معارضة صاحبهم ، وإذا وجب ذلك ، صح أن صاحبهم في العجز مثلهم ، وأنه لم يأت به من عند نفسه ، فعاد الأمر إلى أنه جني أمدته الله بمعجزة فشهد على أحقاق رجل من الانس بما يدعيه من رسالة ربه ، فيقبل ذلك منه ويعترف بالصدق له ، ولا فرق بين أن يرسل الله رسولا ، ويقرن برسالته حجة يتولى اقامتها بنفسه ، وهي أن يقيض معجزة ليصدقه في أن تصديقه واحد في الحالين .

فان كان كما قالوا : فالجن الذي أخذ عنه النبي ﷺ القرآن بزعمهم ، إذا صاحب معجزة ! وقد صدق النبي ﷺ في غير موضع من القرآن وشهد له بالنبوة والرسالة ، فوجب القبول منه وتصديقه ، فقد بان تكذيبه وإجراؤه في اعداد الكهان عاد موجبا لتصديقه ، ثم الاعتراف له بكل حال .

فان قيل : ما أنكرتم أن توابع الكفار من الجن كانوا قادرين على معارضته الا أنهم لم يفعلوا الآن الحرب ، كانت بين النبي ﷺ وبين كفار الانس . وأما الجن فكانوا منه في راحة .

قيل : فالجني الذي وضع القرآن بزعمكم للنبي ﷺ ، لماذا وضعه له ؟ أكان غرضه فيه ، ولم يكن يرجع اليه من يوجه أمره يقع ، ولا فائدة !

فان قال : هذا وإن كان هكذا ، فقد كان يجوز أن يحمله موالاته إياه واختصاصه به على أن يريد تمكينه واعلاء أمره ، فيكيد له اضداده بمثل هذه المكيدة !

قيل : فهلا حمل توابع الكفار موالاتهم إياهم ، واختصاص كل واحد منهم بواحد من الكفار على أن يريدوا نصرهم والدفع عنهم واعانتهم مما كان نازلا بهم بمعارضة يكيدون بها صاحبهم الذي كاد الكفار بالقرآن لأجل محمد ﷺ بعد أن كانوا قادرين عليها بزعمك ، وما الفضل ؟

ذكر الكاد في شهب القذف : وهي من جملة آيات السباء الدالة على نبوة نبينا ﷺ

الداخلة في قوله عز وجل : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ (١) .

قال قائل : ان الأصل الذي يذكرونه لبطلان الكهانة ليس بذلك البين لأنكم تزعمون ان الجن كانت تتسمع لخبر السماء ، فلما بعث نبيكم حرصت السماء ورصدت الشياطين فمن وجد منهم مسترقاً للسمع رمي نجم فاحرقته ، لئلا تنزل به الأرض فيلقيه إلى الناس ، فيختلط على النبي أمره ، ويرتاب الناس خبره ، وان سبب انقضا الكواكب هذادون غيره ولا يجوز أن يكون ما يذهبون اليه هذا حقاً ، لأن انقضا الكواكب مذكور في اشعار شعراء الجاهلية الذين سبقوا الاسلام .

وقد ذكرته الفلاسفة في كتبهم وزعم الزاعم منهم ان الارض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، فاذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها مكان اللهب الذي يرى غليان ذلك البخار ، فان كانت هناك أجزاء من البخار مجمعة واحترق شيئاً فشيئاً أرى شهل ذلك اللهب متطاولاً ، وإن احترقت دفعة واحدة رثيت كشكل القمر .

وهذا يبين ان انقضا هذه الكواكب ليس لاجل نبوة نبيكم ، ولو كان لأجله ، لوجب ان ينقطع بموته ، إذ ليس هناك اليوم ما يخشى أن يسابقوا اليه النبي فيسبقونه . وقال قائل : ان كانت السماء خرست في عهد النبي ﷺ ، أفكانت قبل ذلك ضائعة والشياطين للملائكة في علم ما يجري فيها مشاركة ؟ فان كان ذلك جائزاً فهل سكنت السماء كما مكنتها الملائكة ؟ وماذا أثر اخراج ابليس منها ؟ فانكم تزعمون ان الله عز وجل قال له : ﴿ فاخرج منها فانك رجيم ﴾ (٢) أفكانوا بعد هذا القول متمكنين من السماء يقفون على اخبارهم ، ويعلمون ما يجري فيها .

وقال قائل : كيف تقع الثقة بما يصفون من هذا الأمر العظيم ، وقد عقل أن الجن اللطف حواساً ، وأصفي أذهاناً وأثقب إفهاماً ، وأقوى على كثير من الأمور من الإنس ؟ فكيف يجوز أن يشاهدوا واحداً أو مائة من جنسهم يسترقون السمع ، فيقدمون السمع ، فيقدمون بالنار ويهلكون ، ثم هم على ذلك يعمدون لمثل صنهم ، وليس في العادات أن يستنصر عاقل بأمر فيعلمه سبباً للهلاك يقيناً ، فيتمرض له ، فكيف صارت الجن تعقل هذا وتختاره لأنفسها ؟

فالجواب : ان أصل الكهانة ما ذكرنا ، ولم يكن الكهان يدعون لأنفسهم سبياً غير اختيار الجن إياهم ، مما لا يجبرون به غيرهم ، وقد عقل أن الجن لا تصل إلى معرفة ما لا يكون في الأرض ولا في الحويل يكون في السماء إلا بان ، يخبرهم عنه مخبر ، فاما أن يهبط عليهم من السماء من يحدثهم ، واما أن يرتقوا هم إلى السماء فيستمعوا ولما لم يكن يهبط عليهم من السماء أحد ، دل ذلك على أنهم كانوا ينسبون بالارتقاء إليها إلى معرفة ما يجري فيها ، ولا يجوز أن يدخلوها ويتمكنوا فيها ، لأنها مكان غيرهم فثبت أنهم لم يكونوا يصلون إلى أكثر من استراق كما وصفه الله تعالى .

ثم ان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه من أمر الشهب ، فجملة القول فيه : انه ليس فيما يتلوه من كتاب ربنا عز وجل : ان الشياطين ترمي بالكواكب أو بالنجوم وإنما فيه ما يذكره ، وهو انه عز وجل قال حكاية عن الجن : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ (١) . فأخبرت الجن انه زيد في حراس السماء حتى امتلأت منها ومنهم .

وفي ذلك دليل على انه كان فيها قبل ذلك حراس وشهب معدة معهم . والشهاب في لسان العرب : النار المتوقدة ، وقال عز وجل : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (٢) . ويجوز أن تكون المصابيح هي الشهب المعدة مع حراس ، دون أن يكون المراد بها كواكب السماء لأن المصباح هو السراج ، فلو كانت الكواكب مصابيح لم يكن لتخصيص الشمس بتسميتها سراجاً معنى .

فثبت أن المراد بالمصابيح الشهب المعدة للقذف ، وان تزيين السماء بها هو تزيين ما يلي سكانها منها لا تزيين ما يلينا منها . وقال عز وجل : ﴿ إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ (٣) . فمن قرأ بالإضافة والجر فوجهه : ان السماء زينت بمثل زينة الكواكب . وزينة الكواكب النور والإشراق . فكذلك زينت في السماء لأجل الحراسة شعل منيرة مشوقة ، كأنها في رأي العين كواكب حساً وكثرة . ولو كان المعنى غير هذا لأشبه أن يقال : ان السماء الدنيا بالكواكب ، فلما قيل بزينة الكواكب ، دل ذلك على أنها زينت بزينتها لأنها أنفسها ، وزينتها كما ذكرنا والله أعلم .

(٣) الصافات : ٦

(٢) الملك : ٥

(١) الجن : ٨

ومن قرأ ﴿ بزينة الكواكب ﴾ ، والتنوين والجر ، جعل الكواكب تفسيراً للزينة ، وذلك ما يدفع ما أوجبه القراءة الأولى ، لأن كل نقطة بيضاء هي عند العرب كوكبة . وكذلك من قرأ ﴿ بزينة ﴾ ، فنون الكواكب فنصب ، و اراد بزينة جعلنا الكواكب لأنها تصلح أن يكون المراد بالكواكب في هاتين القراءتين الشمل التي أيدت بها الحراس ، بل ذلك هو الذي لا ينبغي غيره ، لأنه لا يجوز أن يقرأ الآية الواحدة قراءتين متضادتين ، فيكون المراد باحدهما خلاف المراد بالأخرى .

وقد بينا أن قرأ بالاضافة والجر فلا تخرج قراءته إلا على أن يراد بها زينا السماء بالزينة التي هي الكواكب . فلم يحز أن يكون المراد بالتنوين والجر ، والتنوين والنصب ، زينا السماء بالكواكب أنفسها ، لأن زينة الكواكب غير الكواكب كما ان زينة كل مزين غيره ، ويدل على هذا أن الله عز وجل ذكر السماء ذكراً مطلقاً والكواكب التي يراد بها النجوم هي في الأفلاك خاصة ، وليست مثبتة في السماء كلها ، فهذا يدل على أن المراد بها الشمل التي هي أشباه الكواكب ، وليست بالنجوم .

وأما قوله عز وجل : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى إلا الأعلى ﴾ ^(١) ثم قال : ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعته شهاب ثاقب ﴾ ^(٢) . فإبان ان القذف إنما هو الشهاب الذي هو النار لا يكون من كواكب الأفلاك ، ولم يذكر الله عز وجل في موضع من كتابه ان القذف لا يكون إلا بالشهاب وهو النار ، فكان ما ذكرنا مفسراً في عامة الآيات موافقاً لما أحمل في قوله عز وجل : ﴿ وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ﴾ ^(٣) والله أعلم .

ثم ان السلف اختلفوا في أن قذف الشياطين كان مبعث النبي ﷺ ، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعثه ، فروى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : (بينا النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول : يولد عظيم أو يموت عظيم ! قال : فإنها لا ترمي لموت أحد ولا لحيائه ، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا

(٣) الجن : ٨

(٢) الصافات : ١٠

(١) الصافات : ٧

قضي الأمر في السماء سحب العرش ثم سبح أهل السماء وسبح كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، ويسبحوا أهل السماء حملة العرش ، فإذا قال ربكم فيخبروهم ويخبر به أهل السماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، ويختطف الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ، ولكنهم يزدون فيه (١) .

قال : قلت للزهري أكان يرمي في الجاهلية ؟ قال : نعم ! قلت : أفرأيت قوله عز وجل : ﴿ وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (٢) . قال : غلطت وشدت أمرها حتى بعث النبي ﷺ .

وقال آخرون : ان ذلك حدث بعد مبعث النبي ﷺ فروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها سبعا ، فاما الكلمة فتكون حقاً ، واما ما زادوا فيكون باطلا ، فلما بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك . فقال لهم إبليس : ما هذا إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجد رسول الله ﷺ قائماً بصلي ، فأتوه فأخبروه ، فقال : (هذا الحدث الذي حدث في الأرض) .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لم تكن قبيلة من الجن إلا ولها مقاعد يستمعون منها ، فكان إذا نزل الوحي سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديد ألقتها على الصفا فخرؤا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم ، فإذا نزل قال بعضهم : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وإن كان مما يكون في الأرض يكلموا به ، قال : أيكون كذا وكذا ، وتسمعه الشياطين فيقولون به على أوليائهم قد جدوا بالنجوم ، فكان أول من علم بها ثقيف ، فكان ذو الغنم منهم ينطلق إلى غنمه فيذبح كل يوم شاة ، وذو الابل لينجر كل يوم جزور ، فاشرع ذلك في أمواهم ، فقال بعضهم لبعض : لا تفعلوا ، فان كانت النجوم التي تهتدون بها ، فهو من أمر الساعة ، فان كانت النجوم لا تعرف ، فهو من أمر حدث ، فنظر ، فاذا نجوم لا تعرف ، فكفوا .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : لما كان اليوم الذي نبي فيه رسول الله ﷺ ، منعت الشياطين ورموا بالشهب .

(١) ورد في سنن الترمذي « كتاب التفسير » باب ٣٥ ، حديث رقم ٣٢٢٤ . (٢) الجن : ٩

وعن عبد الملك بن سابور قال : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما ، فلما بعث محمد ﷺ حرس السماء ورميت الشياطين بالشهب ، ومنعت من الدنو من السماء .

وعن أبي كعب رضي الله عنه ، قال : لم يرم نجم منذ رفع عيسى حتى نبى رسول الله ﷺ فرمي بها ، فرأت قریش أمراً لم تكن تراه ، فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون برقابهم ، يظنون أنه الفناء ، فبلغ ذلك من فعلهم أهل الطائف ، ففعلت ثقيف من ذلك ، فبلغ عبد قابيل بن عمر ، فأصغت ثقيف فقال : فلم فعلتم ما أرى ؟ قالوا : رمي بالنجوم فرأيناها تتهافت من السماء ، قال : ان إفادة المال بعد ذهابه شديد فلا تعجلوا وانظروا ، فان تكن نجوم تعرف فهو عيد فيأمن الناس ، وان كانت نجوماً لا تعرف ، فهو أمر حدث ، فنظروا فإذا هي لا تعرف ، فاخبروه ، فقال : في الامر مهلة ، فهذا ظهور نبي ، فما مكثوا إلا يسيراً ، حتى قدم أبو سفيان على أقواله فجاءه عبد بابل فذاكره أمر النجوم ، فقال أبو سفيان : ظهر محمد بن عبد الله ، يدعي انه نبي مرسل . قال عبد بابل ، فعند ذلك رمي بها .

وعن نافع بن جبير ، قال : كانت الشياطين في الفترة ، تستمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله ﷺ رميت بالشهب .

فهذان القولان من السلف في الظاهر مختلفان ، وقد يحتملان التوقيف ، فقال : ان الذين قالوا ان الشياطين لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ، ثم رميت ، أي لم تكن ترمى رمياً من جانب ولا ترمى من جانب .

ولعل الإشارة بقوله عز وجل : ﴿ وَيَقَذِفُونَ مِنَ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ (١) إلى هذا المعنى ، وهو انهم كانوا لا يقذفون إلا من بعض الجوانب ، فصاروا يقذفون من كل جانب ، وكانوا لا يرمون إلا في بعض الأوقات ، فصاروا يرمون واصباً ، وإنما كانوا من قبل كالمنجسة من الانس يبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره ، ويسلم واحد ولا يسلم غيره ، بل يقيض عليه فيعاقب وينكل به ، فلما بعث النبي ﷺ شدد عليهم ، وزيد في حفظ السماء ، واعدت لهم شهب لم تكن من قبل ليدحضوا عن جميع

(١) الصافات : ٩ .

جوانب السماء ولا يقعدوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها ، فصاروا لا يقدرّون على سماع شيء مما يجري فيها ، الا ان يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة فيتبعه شهاب ثاقب ، قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقها إلى إخوانه فتحرقه فيطلب من فلك الكهانة وخلصت النبوة والرسالة والله أعلم .

ومعنى ما يجري في هذا الأخبار من أسماء النجوم ورميها إلى ما هو في رأي الغير كالنجم لأن ذلك الذي فيضىء لونه لون النجوم ، وإلا فليس بنجم على الحقيقة ، لأن النجوم لا تكون في جميع السماء ، وإنما تكون في الأفلاك .

وقد أخبر الله عز وجل أن شهب القذف قد ملأت السماء فهذا يدل على أنها ليست بنجوم على الحقيقة ، ويدل على هذا أيضاً أن الذي يخر لا يكون كوكباً كالكواكب ، ولكنه لا يظهر إلا في حال الانحرار .

فبدل ذلك على أنه شعلة يرمى بها من السماء إلى جهة الأرض ، فاذا فارقت حد السماء هاوية ظهرت ، وإذا اتصلت بالرمي فاحرقته جمدت ، ولو كان ذلك كوكباً بالحقيقة لكان مرتباً في مكانه قبل القذف ، ويعاد إلى مكانه بعد احراق من يرمي ، وثبت في موضعه . وأيضاً فإن انكدار النجوم وانتشار الكواكب في مواعيد يوم القيامة ، فلا يسبقه كما لا يسبقه تكوين الشمس ولا طي السماء وبالله التوفيق .

ومعنى ما قيل من أن السماء لم تكن تحرس في قبل هذه الفترة ، أي لم تكن تحرس الحراسة الشديدة كما تكون في زمن النبوة إذا بعث نبي وزيد في الحراسة ، وأكثر من القذف كان ذلك انه لبعث ذلك الشيء ، فتكون الكهانة الغاشة قبل بعثه منقطعة ذاهبة كبعثه والله أعلم .

وقد تكون الزيادة في الحرس والشهب عند مبعث النبي ﷺ وجه آخر ، وهوان معجزته الناشئة الباقية كانت القرآن ، والقرآن من خبر السماء ، فلو لم يحرس السماء حتى لا تصل الشياطين إليها ولا سمع ما يجري فيها أصلاً لادى ذلك إلى اختلاف أمر النبوة ولم يقع القرآن من قبل النبي ﷺ موقع المعجزة . لأن الشياطين كانت تسمع القرآن فينزل به إلى الكهان فيقرأه الكهان على الناس ، كما يقرأه النبي ﷺ ويزول حكم الحجة ، كما تسمع منه لانه يصير مشاركاً فيه من ليس بنبي ، فكان يقرن حجته

بالقرآن واعجازه في حجب الشياطين عن السماء لئلا يسمع أحد منهم ما يتلى فيها من القرآن ، فيسبق به الملك إلى النزول ، ويبلغ الكاهن قبل أن يبلغ النبي ﷺ ، وقد كان ذلك بحمد الله ومنه قامت المعجزة ولزمت بها الحجة والله التوفيق .

وفي هذه الجملة التي ذكرتها ما قطع عنها معارضة من معارضنا بأن الأوائل من الشعراء وغيرهم ، ذكروا انقضا الكواكب ، وإن ذلك يدل على وجود هذا الأمر قبل البعث ، وأعياناً عن تكليف الجواب عنها بغير ما بينا والله أعلم .

وأما قول بعض الأوائل إن هذه الشهب سببها الحرة ، ترتفع من الأرض ، فإذا بلغت النار التي دون الفلك احترقت فليس بشيء يلزم الاعتراف به ، لأن الذي قاله لم يقله الأعلى أغلب ظنه ، وتحسب ما وقع عندنا نظر فيه واجب الوقوف على وجهه إن كان له بعد أن كان لا يعرف من السماء ما يعرفه رسل الله صلوات الله عليهم يجهل بهم وتكذيبه لهم ، وكفره بخالقه ورازقه الذي يتقلب ليله ونهاره في نعمه ، ولا غنى به في حال من الأحوال عنه . وليس يجوز لنا أن ندع خبر النبي ﷺ الذي قامت الدلائل على صدقه عن خالق الشهب كظن ظنان ولا توهم متوهم .

وأيضاً فإن هذه الأبخرة تتصاعد من جميع الأرض إذا الشمس تنبسط على جميعها ، فكان ينبغي إذا وصلت إلى النار التي قالها هذا القائل وأحرقت بها أن ترى ذلك كهيئة المطبق العالي ما بين الأفق ، لأنها لا تتأى عن وجه الأرض النائي الذي يصعد منه في المنظر العظيم ، ويدق الجليل الجسم كالكوكب ، بل كان مرئي منه الشيء العظيم المبشر الذي كان لا يخفى أنه لو دنا من وجه الأرض أو قريباً منه ، لأن ما يرتفع من وجه الأرض من حين الضحى فيبلغ ما يبلغ ، أما في أوائل الليل أو في أوسطه وآخره .

فبين أن مسافته في البعد لا تنتهي إلى أن يرى المرتفع منه عن أكثر الأرض ، والمنتشر المنبسط بعد ذلك في الهواء يحط محطاً ، أو جبل فيصير بجرأ ، وكان ينبغي أن يرى ذلك من كل وجه لا يرى منه في جانب ما قيد سهم أو قيد قوس ، فإن طال حداً فقد رمح .

وأيضاً فإن العيان يقضي بأن ذلك قذف ومرمي لأن ما يظهر ذلك في السماء ، فهو في صورة ما يشاهد من القذافات فيشعل فيه دفعة واحدة ، ولكنه في المشاهدة كشيء يبدو

أو يمر مرأً طويلاً أو قصيراً ثم يقف فهو أشبه بما يرى من قذافات الأرض ، فكيف يجوز أن يترك العيان ويحدد بالالوهام والظنون .

وأيضاً فإن الابخرة التي تتصاعد عن وجه الأرض ، أين كانت إنما اكتسبت اليبس من قبل الشمس ، فينبغي إذا انقطعت مجاورة الشمس عنها بمجيء الليل وحالت الأرض بينها أن تعود إلى حالتها الأولى ، وترطب برطوبة الهواء ، ثم تستحيل إليه ولا تبلغ النار التي يقولونها وهي حارة يابسة ، وإن كان البخار الرطب يبلغ من تأثير الشمس فيه أن تجعله مهياً للاحتراق ولتؤثر هذا الاثر في الهواء نفسه ، فيخترق بالنار المجاورة له بزعمه ، أو لتؤثر تلك النار نفسها فيما يحاورها من الهواء وتحرقه ، في فساد ذلك فساد ما قاله هذا القائل والله أعلم .

ويقال له : أرأيت البخار الحار اليابس إذا احترق بالنار يصير ناراً فلا يمكنه أن يقول انه يصير رماداً ، إلا ان تلك الابخرة ليست أجزاء من التراب ، وإنما هي من قبل الانداء المركبة في أشياء الأرض ، ولا أن يقول انه يصير شيئاً ما يشير إليه ، فأنما ينبغي أن يقول : انها صارت في طبيعة النار تحدث بها ، فصارت ناراً ، وانقلابها نار لا يوجب ظهورها لابصارنا ، لان تلك النار ليست بمبرئية لنا ، فكيف يرى ما يتصل به ويتحد معها . ومعلوم ان تلك ينبغي أن تكون أعظم وأبسط وأقوى من هذه أضعافاً كثيرة ، فكيف صار هذا الجزء اليسير الذي انقلب ناراً ترى ، والعظيم والكبير الذي انقلب هذا اليه واتحد معه لا شيء ؟

فان قيل : انه يلزمكم من هذا بل ما ألزمتم غيركم لانه يقال لكم ، والجن الذي ترمي تحرق ماذا يصير ، فلا يمكنكم أن تقولوا : انه يصير رماداً ، وإن قلتم تصير ناراً ، فكيف صار هو وما قذف به النار يرى ؟ والنار العظيمة التي من فوق لا ترى ؟

فالجواب : ان الله عز وجل أخبر انه ﴿ خلق الجن من نار ﴾ (١) . فقد يجوز إذا ورد عليها نار أقوى منها أن تأكلها وتبطلها ، فأما ان هذا يرى ، وتلك النار التي يصفونها ان سلمت لهم لا ترى ، فلا يلزمنا منه ما يلزمهم ، لان هذا عندنا من اعلام النبوة ، واعلام النبوة كلها ناقضة للعادات ، ظاهرة للادراكات ، خارجة من حكم المغيبات ، والله أعلم .

فصل

وأما قول من قال : ان كان هذا القذف لاجل النبوة ، فلم دام بعد وفاة النبي ﷺ ؟
فجوابه من وجهين :

احدهما دام لدوام النبوة ، فان النبي ﷺ اخبر ببطلان الكهانة ، وقال : (ليس منها من يكهن) فلو لم تحرس السماء بقدرته لعادت الجن إلى سمعها ولعادت الكهانة ولا يجوز أن تعود بعد ما أخبر النبي ﷺ ببطلانها ، ولا قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لاجل النبوة فعادت الكهانة دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين ، ولم يؤمن ان الكهانة إذا عادت لتباهي النبوة ، فانها إنما كانت ارتفعت لاجلها ، فلو لا النبوة زالت لما عادت الكهانة ، فصح ان الحكمة تقتضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ وبعد أن يتوفاه الله تعالى إلى كرامته .
والوجه الآخر : ان السماء تحرس بعد وفاته لاقصاء الشياطين عن مشاهدة الملائكة المكرمين سماع كلامهم اذلالاً وإهانة ، وان كانت لا تحرس احتياطاً لما يوحى ، إذ كان الوحي قد انقطع ، والله أعلم .

فصل

وأما قول من قال : ان كانت السماء حُرست في عهد النبي ﷺ ، أفكانت ضائعة من قبل ؟

فجوابه : انها لم تكن ضائعة بل كانت محروسة ، لكن غلظ أمرها وشدت حراستها ببعث النبي ﷺ ، وعلى انها لو لم تكن محروسة ، ولا الشياطين عنها بالقهر ممنوعة لكان في بيعهم وزجرهم عن الصعود والسمع بالنهي كفاية . وقال الله عز وجل لابليس : ﴿ فاخرج منها فانك رجيم ﴾ (١) وقال : ﴿ فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ (٢) .

فمن كان من ذريته أو من جده أو من طبقته فهو مثله ، وله من الرجم والزجر ماله ،

فإن أغفلوا أو بعضهم التهي ، فليس ذلك يلزم ربنا جل ثناؤه بصنعها ولا اهمالها ، فمأ أكثرها
 شرع للانس وامر ونهى وأباح وحظر ورغب وحدد ونزه وندب ووعد وأوعد ، فضلوا
 عن شرائعه ، وتركوا الطاعة في نواهيه وأوامره ، ثم لم يعالجهم بالعقوبة ، ولم يلجسهم إلى
 فعل ما يرضيه عنهم ضرورة ، ولم يوجب ذلك اضافة التصنيع والاهمال اليه عن اسمه ،
 فلذلك شأن السماء وما جرى فيها ، والله أعلم .

فصل

وأما قول من قال : أن الجن اصفى اذهانا واثقب افهاما ، فكيف يعلم انها ترصد
 بالشهب ، وتعين من يحترق من المستمعين منهم ، ثم يعود فيجلس تلك المجالس ، ويتعرض
 للاحتراق ؟

فجوابه : ان الله عز وجل إذا كان قد قضى على طائفة منها الحرق ، لطغيانها وضلالها
 قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المرام المغفلة عن الاختيار ما يقرب عليها بعد الطلب ،
 ويحول بينها وبين سبيل المهرب ، ويوردها مواضع حتوفها ، فينزل بها قدر الله على رغم
 أنوفها وبالله التوفيق .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى ان نصب الحرس واعداده الشهب خارق في وقت النبي
 ﷺ ، وان ما ينسب إلى الاوائل من وضع الكتب في تأويل الشهب فغير موثوق به . فقد
 جرب المترجمون كثيراً من كلامهم ، ونسبت اليهم كتب لم يضعوها ، وأشياء لم يقولها ،
 وأما الاشعار فلم يثبت عن الجاهلين فيها شيء من القصائد التي فيها ذكرها ، بعضها من نسبت
 اليه ، والامر في ذلك أبين ، وبعضها شعر من المخضرمين الذين جمعوا بين الجاهلية والاسلام
 ولا يخالف القرآن بوجه من الوجوه ، وخصوصاً بخبر لا يعرف اصله ولا يعتمد نقله ،
 وبالله التوفيق .

ذكر فصول في هبوط الملائكة بالوحي على الانبياء صلوات الله عليهم :

قال قائلون من الظاعنين في النبوءات : ان الاجرام العلوية لا يمكن ولا يجوز أن تنزل
 إلى الارض ، والاجرام السفلية لا يمكن ولا يجوز أن تعلق إلى السماء ، كالنار التي إذا

تحركت لم يمكن أن تتحرك إلا نحو العلو ، والماء والتراب اللذين إذا تحركا لم يتحركا إلا نحو السفلى !

فالجواب : ان الملائكة اجسام فلا ينكر حركتها في الجهات ، لان ما جازت عليه الحركة نحو جهة ، جازت عليه الحركة من كل جهة .

فان قيل ان الملائكة أرواح مفردة ، والأرواح جواهر ، ولا ينكر ذلك احد منكم ، وليس الا جواهر مؤلفة أو يقال لهم : ان كان الجسم العلوي لا ينزل بطبعه فانه ينزل بالعسير كالجرم السفلي الذي اثبت لم يفك بطبعه ، فقد نقلوا بالقسر كلامهم ، والحجر يرمي إلى فوق ، فلا يخلو من ان يعلو أو يبلغ من العلو ما يبلغ ثم ينزل ، فما انكرت ان يكون الملك ينزل بالقسر الذي يلحقه من الباري جل ثناؤه ، وليكون منه في الأرض ما يريد ، ثم يرده إلى مكانه .

ويقال لهم : ان داعيكم متفقون على ان النفس عالما من فوق ، وقلتم مع هذا ان في كل بدن من ابدان الناس نفساً تجاوزه مدة ثم تفارقه ، وفي هذا اقالة النزول على النفس المجاورة البدن ، فلم جاز ان ينزل الملك ليساكن الناس وقتاً ثم يرجع إلى مكانه !

ويقال لهم : إذا كانت الملائكة ارواحاً ، فهل يخلو حي من روح تجاوزه مدة من المدد ثم تفارقه ؟ فإذا كان وجود الروح في الأرض مستمكناً على هذا الوجه ، فما الذي أحال هبوط الأرواح أو الروحانيين إلى الأرض من غير أن يداخل الأبدان ويسكنها ، لولا التسرع إلى القضاء بما يدعو اليه الهوى .

فصل

قالوا : ان كان ملك يهبط إلى الارض على انسان فيكلمه من حيث يراه ، فكيف لا يراه ناس ان كانوا حوله إذا كانوا في قوة البصر مثله ؟

فالجواب : ان الله تعالى يخصه بادراك الملك الذي هو من المدركات بالأبصار في الجملة ، ويمعز غيره عن إدراكه كما قد يخص واحداً بادراك بعض المعقولات ، ويمعز غيره عن إدراكه . وقد زعمتم ان فيثاغورس كان يسمع أصوات الافلاك والكواكب إذا تحركت وما سمع ان احداً سواه سمعها ، الا ما يروى عن نبينا ﷺ من قوله :

(أطت السماء وحق لها أن تئط) ^(١) فإذا اخرتم ان تكون الافلاك والكواكب أصوات عند حركاتها مسموعة ، ثم يختص واحد من بين الاولين والآخرين بسماعها ، فلم لا أجزتم ان يخص الله تعالى أنبياءه بادراك الملائكة إذا نزلوا عليهم دون حاضري مجالسهم من الناس تكريماً لهم وتمييزاً عن غيرهم .

فصل

قالوا : زعتم أن الملك كان ينزل على نبيكم في صورة إنسان ، أفكان يكون في تلك الحال ملكاً أو له لساناً ؟ فان قلتم كان يكون إنساناً فالملك إذا لم يهبط على أحد قط .
فالجواب : انه يكون ملكاً لأن التغير كان يلحق ظاهره دون باطنه ، وليس في هذا ما يوجب دخول الشبهه على الناس في تمييز بعضهم بعضاً لأن الملائكة لا تخالط الناس ولا يمشوهم في الأسواق ، ولا يجالسونهم في بيوتهم ، ولا يصافونهم في مساجدهم ، فوقع العلم لهم بذلك في الجملة تزيح الشك من صدورهم فيمن يرونه ، فلا يظنون انه ملك في صورة بشر والله اعلم .

فصل

قالوا : ان كان الملك ينزل على النبي ﷺ في صورة إنسان ، أفكان هو الذي ينقلب في صورة البشر ؟ قيل : كلا ، بل الله عز وجل كان يغير صورته ، لا يقدر على ذلك أحد سواه كما لا يقدر على خلق الانسان من التراب ، ثم إعادته تراباً . فأما هو جل ثناؤه فلا يعجزه شيء وهو على ما يشاء قدير .

فصل

قالوا : وكيف كان يعلم الذي ينزل عليه الملك ان الذي يراه ملك ، وليس بانسان ؟

(١) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب ١٩ ، حديث رقم ٤١٩٠ .
وفي سنن الترمذي « كتاب الزهد » باب ٩ ، والاطيط صوت الاقتاب ، واطيط الابل اصواتها وحنينها ، والمعنى ان الارض اطت لكثرة ما عليها من الملائكة .

قيل : يجوز أن يعلم النبي بها انه ملك وليس بإنسان ، وهكذا القول في موسى عليه السلام حين يسمع النداء ، قد يجوز أن يكون علم أن الله تعالى يكلمه ضرورة ، ويجوز أن يكون برق بإلهاب النار في شجرة خضراء من غير أن تحرقها ، أو تغييرها عن حالتها ، وذلك أمر يخالف العادات ، إن الله تعالى هو الذي يكلمه ، وهذا القول من الملك نفسه ، إذا بعث إلى أحد من البشر ، قد يجوز أن يعلم أن الله تعالى هو الذي يأمره ويرسله ضرورة ، ويجوز أن يعلم ذلك بأنه ينصها الله تعالى فيستدل بها على أنه مبعوث مأمور وبالله التوفيق .

فصل

قالوا : رويتم أن نبيكم كان يغش عليه عند نزول الوحي عليه ، فالغش عليه لا يدرك شيئاً من المحسوسات ولا من المعقولات ، فكيف كان يرى الملك ويميزه ويتلقى عنه ما يكلمه به .

فصل

قد قال بعض العلماء : ان الله تعالى كان يعرفه الوحي في تلك الحال تميزاً له عن ليس بنبي ، فكان ذلك إحدى الكرامات والمعجزات ، وقد يجوز أن يكون عقله لم يكن فارقه ، فاني لا أحفظ فيما جاء من الحديث انه كان يغش عليه ، وإنما فيه : انه كان يشغل وتأخذه البرحاء ، فقد يجوز أنه كان يتغير عن حاله المصمود تغيراً شديداً ، ولكن العقل لم يكن يفارقه وبالله التوفيق .

ذكر فصول في الايمان بالرسول :

إن سألت سائل : عن آمن بمحمد ﷺ ، وقال لا أدري ، أكان من البشر أو كان ملكاً أو كان حساً ، أيمكن مؤمناً به ؟

قيل له : أكان القائل هذا لم يسمع أخبار الله تعالى عن محمد بأنه بشر مثل قومه ، وأخبار محمد ﷺ نفسه ، وأخبار الناس عنه ، وذكرهم بنسبه وشماله ونعوته ، فلا وقف

على شيء مما ذكرنا لم يضره الجهل بحاله شيئاً ، كما لو عرف بأنه من البشر ، ولم يسمع بأنه كان من العرب أو العجم لم يضره ذلك شيئاً ، وكذلك لو لم يعلم أنه كان شاباً أو شيخاً أو مكياً أو عراقياً لم يضر ذلك إيمانه نبياً وحجته أنه أياً ما كان إنما يظنه به ، فقد يصلح لأن يكون رسولاً ، فلم يوجه الجهل بالحق من ذلك إلى الجهل برسالته ونبوته وفارق ذلك أن تقول : آمنت بالله ، ولا لتدري أجسم هو أو غير جسم ؟ لأن الجسم لا يجوز أن يكون إلهاً ، إذ الجسم هو المؤلف ، والمؤلف يقتضي مؤلفاً ، وما كان محلاً للاعراض قابلاً للافعال لم يكن قديماً ، ولم يحز أن يكون إلهاً ، فلذلك لم يثبت الايمان بالله مع الشك في أنه جسم أو غير جسم والله أعلم .

فصل

ان قال قائل : أتقولون ان آمن بالله وحده ثبت له أصل الايمان ، وإنما يحتاج إلى الايمان برسوله لاستكمال الايمان ، واستيفاء شعبه !

قيل له : لا نقول ذلك ، بل نقول : ان إيمانه بالله لا يعينه شيئاً ولا يثب له ديناً حتى يؤمن برسله . وحجة ذلك أن الله تعالى نص على أن التفريق بين الله ورسله كفر ، لأنه قال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقا ﴾ (١) . فإبان أن الفرق في الايمان بين الله ورسله كفر ، والفرق بين رسله في الايمان ٣٣ كفر .

فاما إيجاب الكفر بالتفريق بين رسل الله ، فقد ذكرت وجهه ، وأما التفريق بين الله ورسله ، فإنما كان كفر بالله ، لأن الله عز وجل إنما فرض على الناس يعبدونه بما شرع لهم في السنة الرسل ، فإذا جحدوا الرسل ، ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبادة التي أمروا بالتزامها ، فنزل ذلك منهم منزلة جحد الصانع ، وجحد الصانع ، كقولنا فيه من ترك التزام الطاعة ، فكان ذلك كفر .

فان قيل : فقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ﴾ (٢) . فأثبت

الايان لهم أولاً ثم أمرهم بالايان بالرسل ، فصح ان اسم الايمان بالاطلاق واجب لمن آمن بالله وحده .

قيل : لو دلت هذه الآية على أن اسم الايمان يجب من غير وجود الايمان بالرسل لدل على أنه يجب من غير وجود الايمان بالله تعالى ، لأنه كما أمر الذين آمنوا أن يؤمنوا برسل الله ، أمرهم أولاً أن يؤمنوا بالله فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٣) . أي أجمعوا إلى الايمان برسوله ، فإن الايمان به غير متقبل منكم إلا أن تضمّنوا إليه الايمان برسوله .

وقد بين ذلك بما أتبعه هذه الآية من قوله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسوله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ (١) . فإن في ذلك بياناً أن الفرق بين الله ورسوله في الايمان كفر ، وفي ذلك وجود أن يكون معنى الآية ما ذكرنا وبالله التوفيق .

فصل

فان سأل سائل : عن آمن بالله ولم يؤمن برسوله أيكون إيمانه بالله إيماناً ناقصاً يتوقف على ما يصله به من الايمان برسوله ، او يكون فاسداً غير صحيح ، فإذا أراد الايمان بالرسل احتاج إلى أن يستأنف الايمان بالله !

قيل له : ان الإعراف بالله تعالى بعض الايمان به ، لأن الايمان به هو التصديق به والتزام عبودته وطاعته ، فإذا صدق بالله ولم يلزم طاعته وعبودته كان آتياً بعض الايمان به فيوقف ذلك على ما يأتي به من البعض للآخر كما ان النصراني إذا لم يكن كفره إلا جحد نبوة نبينا ﷺ ، فإنه إذا آمن به تم إيمانه ولم يحتاج إلى استئناف الايمان بالله وبأنبيائه وعيسى . فلذلك من آمن بالله ولم يؤمن برسوله فانه إذا آمن بالرسل بعد ، تم إيمانه بالله ولم يحتاج إلى الاستئناف ، وعلّة هذا انه ليس للايمان وقت محصور تتعلق صحته ، لكن الأوقات كلها وقت الايمان ، فهي على سعتها بمنزلة أضيئ وقت منها .

ومعلوم أن من دعي إلى الايمان ، فأجاب إليه فإنه لا يأتي به إلا شيئاً فشيئاً ، لأنه يبدأ مؤمناً بالله ثم بنبيه ﷺ ، ثم اتصل ذلك بما ينبغي أن يصل به ، وكما يوقف الايمان بالله على الايمان بالرسول في المجلس الواحد ، فكذلك يتوقف في العمر لأن الايمان غير محصور بوقت ، فالعمر كله بمنزلة المجلس ، فإذا انقضى ولم يكمل حبط الموجود منه ولم يستوجب صالحة به آخر .

ومعنى ما قلت : ان الله عز وجل لما خاطب الناس بالايمان ، وبلغت عنه الرسل صلى الله عليهم صحت الاجابة إليه بمن سمع الدعوة فأجاب إليه في الحال ومن يسمع غيره مالا ، أو يستنكح امرأة ، فإن إجابته قبل أن يتفرقا أو يحدثا أو أخذهما ما يشبه التفرق صح الجواب ، فان أجابه بعد التفرق لم يصح . وذلك لأن الدعوة إلى دين الحق من حقها أن تدوم ، ولا تكون وقتاً دون وقت ، وإن كانت الدعوة ولم تختص بحال دون حال لم تختص للاجابة إليها بحال دون حال ، فكذلك قلنا أن بعض الايمان شيء واحد ، أما ربنا ما نفى عليه قراضى عنه أو تدانى منه وبالله التوفيق .



الثالث من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالملائكة

والايمان بالملائكة ينتظم معاني أحدها التصديق بوجودهم ، والآخـر : إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالانس والجن ، مأمورون مكلفون لا يقدرـون إلا على ما يقدر لهم الله تعالى ، والموت جائز عليهم ولكن الله جعل لهم أمداً بعيداً ، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى ولا يدعون الهة كما قد دعتهم الاوائل . والثالث : الاعتراف بأن منهم رسلا لله تعالى يرسلهم إلى من يشاء من البشر .

وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون حوله ، ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنة النار ، ومنهم كتبة الأعمال ومنهم الذين يسوقون السحاب ، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره ، فاما اثباتهم في الجملة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ (١) .

وقال في الايمان بهم خاصة : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٢) .

وأما أكثر ما في القرآن من ذكر الملائكة واستقصاء ذلك يطول . وأما إقرارهم ومنازلهم ، فقد قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ (٣) ، وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤) .

(١) البقرة : ٣٤ (٢) البقرة : ٢٨٥ (٣) النساء : ١٧٢ (٤) الانبياء : ٢٦-٢٩

فأخبر بهذه الآية عن منازل الملائكة وإبان انه لا يجوز أن يقال انهم ولد الله ولا انهم بنات الله ، كما كان كثير من العرب يقولون . فانكر الله عليهم قولهم ، وقال : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (١) . وقال : ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ﴾ (٢) .

وإذا تأمل المتأمل وجد قول العرب : ان الملائكة ولد الله نازعاً إلى قول الاوائل الذين يسمونهم قوابي ، ويزعمون انهم قاصوا عنه ، فإن كل ولد فهو يأتي والده وقابض عنه .

ثم ان العرب سمعتهم أولاداً كما يقولون في كثير من الأشياء : قول هذا من هذا ، وتجاوزت ذلك إلى تسميتهم بنات ، على معنى أنهم محجوبون عن الأبصار ، فهم كالخدعات من الأولاد ، وهن البنات ، فرد الله تعالى ذلك كله عليهم ، وانتقى منه ، فأنكره وأخبر انه : لا منزلة للملائكة إلا أنهم عباد مكرمون ، وإبان عن فضل خشيتهم ورهبتهم له ، ودل على أن كرامتهم عنده إنما هي لأجل طاعتهم له ، ولو عصوه لعذبهم بالنار ، كسائر العصاة .

فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد فيهم ، فيكون ذلك إيمانهم . الا ترى أن الإيمان بالمسيح صلوات الله عليه ليس أن يترك فوق منزلته ، كما يقول النصراني ، لكن ذلك كفر بالله عز وجل ، وبه أيضاً ، وإنما الايمان به أن يعتقد فيه أنه عبد الله ورسوله ، فكذلك الايمان بالملائكة ، ليس أن ينزلوا فوق منازلهم ، لكن أن لا يبخسوا حظاً جعله الله تعالى لهم من فضله والله أعلم .

واما تصريفهم على ما يصرفهم الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ (١) . وقال : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ . يعني الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط وقالوا : ﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ (٢) . وقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ (٣) . وقال : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ، إن الله يبشرك بيحيى ﴾ (٤) .

(١) الزخرف : ١٩	(٢) الصافات : ١٥٠	(٣) الحج : ٧٥
(٤) هود : ٨١ ، ٦٩	(٥) مريم : ١٧	(٦) آل عمران : ٣٩

وقال : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ (١) .

وقال : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ (٢) .

وقال حكاية عن الملائكة : ﴿ وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ (٣) .

وقال في يوم القيامة : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (٤) .

وجاء في الجن أن حملة العرش أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أمدوا بأربعة آخرين .

وقال في أهل النار : ﴿ وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ﴾ (٦) .

وقال في أهل الجنة : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (٨) .

وقال في قبض الأرواح : ﴿ تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾ (٩) . فهذا في المؤمنين ، وقال في غيرهم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا والملائكة ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (١١) .

وقال في قبيح الأعمال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ (١٢) .

وقال : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (١٣) .

وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (١٤) .

وأما سوق السحاب فيما وردت به الأخبار ، وكل ما ذكرنا مجتمع المعنى في أن الملائكة : يتعرفون على الأعمال لتعريف بني آدم ، فهذا هو الذي ينبغي أن يعتقد فيهم وبالله التوفيق .

(٣) الصافات : ١٦٥

(٦) الزمر : ٧١

(٩) النحل : ٣٢

(١٢) الانقطار : ١١

(٢) غافر : ٧

(٥) غافر : ٤٩

(٨) الرعد : ٢٣

(١١) السجدة : ١١

(١٤) الجن : ١٨

(١) آل عمران : ٤٢

(٤) الحاقة : ١٧

(٧) الزمر : ٧٣

(١٠) الانفال : ٥٠

(١٣) ق : ١٨

فصل

وأما الملائكة ، ما هم ؟ فان من الناس من ذهبوا إلى أن : الأحياء العقلاء الناطقون فريقان : انس وجان . وكل واحد من الفريقين صنفان : أخيار وأشرار . فأخيار الانس ابرارهم ، ثم ينقسمون إلى رسل وغير رسل . وأشرارهم يدعون فجاراً . ثم ينقسمون إلى كفار وغير كفار .

وأخيار الجن يسمون الملائكة ، ثم ينقسمون إلى رسل وغير رسل ، وأشرارهم يدعون شياطين ، ثم قد يستعار هذا الاسم لفجار الانس تشبيهاً لهم بفجار الجن ، وقد يحتمل هذا القسم وجهاً آخر : وهو ان الجن منهم سكان الأرض ، ومنهم سكان السماء ، فالذين هم سكان السماء يدعون بالملائكة الأعلى ويدعون بالملائكة . والذين هم سكان الأرض هم الجن بالاطلاق ، وينقسمون إلى أخيار وفجار ، ومسلمين وكفار .

وإنما قيل الملائكة ، لأنهم مستصلحون للرسالة التي تسمى الركام أكثر الناس على الملك أصله ملاك ، وان ملاك مقلوب وليس نبياً مستقيم ، وانه قيل لواحد من الملائكة ملاك بمعنى انه موضع للرسالة لكونه مصطفى مختار للساء أن يسكنها ، أو كانت الرسالة منها تأتي سكان الأرض ، ومن ذهب إلى هذا قال : أخبر الله عز وجل أنه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، ولم يكن من الملائكة ، لم يكن لاستثنائه منهم معنى ، ثم قال في آية أخرى : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ﴾ (١) .

فأخبر انه لعنه ورجه وأخرجه من السموات ، وإبان أن المأمورين بالسجود كانوا طبقة واحدة ، إلا أن إبليس لما عصى ولعن صار من الجن الذين يسكنون الأرض ، ولا سبيل لهم إلى مخالطة الملائكة . فكان كالعدل من الانس يفسق أو يرتد فيعصى وينفذ ويدعى فاسقاً وخبيثاً وفاجراً ، بعد أن كان يسمى عدلاً وبراً وتقياً والله أعلم .

وأيضاً فإن الله عز وجل حكى عن الكفار أنهم قالوا : ولد الله وان الملائكة بناته ، وجعلوا بينه وبين الجن نسباً ، فدل ذلك على أن الملائكة من الجن ، وان النسب الذي

(١) الكهف : ٥٠

جعلوا بين الله وبين الجن ، إنما هو قولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى عما قالوا علواً كثيراً .

وأيضاً فإن الانس منهم الظاهرون والجن هم المختبئون ، والملائكة مختبئون ، فينبغي أن يكون إسم الجن لاحقاً إليهم . وأيضاً فإن الله تعالى لما صنف الخلائق قال : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من نار ﴾ (٢) .

فلو كانت الملائكة صنفاً ثالثاً سوى الانس والجن لما كان يدع أشرف الخلائق ، فلم يتمدح بالقدرة على خلقه ، ويذكر ما دونه فيمتدح بالقدرة على خلقه ، هذا وقد نهبت أن الجن خلق من مارج من نار ، وأن إبليس مخلوق من النار ، والظاهر دخوله في جملة الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، وفي هذا رجوت أن تكون الملائكة من الجن والله أعلم .

ومن خالف هذا القول قال : إن سكان الأرض ينقسمون إلى انس وجن ، فأما من خرج عن هذا الحد لم يلحقه إسم الانس ، وإن كان مرثياً ، ولا إسم الجن وإن كان غير مرثي . ويدل على هذا أن الجن سموا جنّاً لأن الانس لا يرونهم ، وإلا فإن بعضهم يرى بعضاً ، والناس سموا انساً لأن الجن يرونهم ، وإنما وجب هذا التمييز بينهم ، لأن البقعة الواحدة من الأرض ، كالدار الواحدة ، والفضاء الواحد ، وقد تجمع الفريقين ، فيرى الجن الانس ، ولا يرى الانس الجن . وأما الملائكة فإنهم بأشد البعد من الناس ، فلا يلحقهم إسم الجن ، لأنهم لا يرونهم ، كما لا يلحق المشرقي إسم الجن ، لأن المغربي لا يراه ، ولا المغربي اسم الجن ، لأن المشرقي لا يراه والله أعلم .

ويدل على أن الملائكة غير الجن ، أن الله عز وجل لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس . أخبر الله عز وجل عن سبب مفارقة الملائكة : ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ (١) . فلو كانوا كلهم جنّاً لاشتركوا في الامتناع من السجود ولم يكن في أن إبليس كان من جملة الجن ما يحمله على أن لا يسجد . وفي هذا ما إبان أن الملائكة خير والجن خير وانهما فريقان شتى .

فان قال : ما معنى دخول إبليس في الأمر الذي خاطبت الملائكة به إن لم يكن منهم؟

قيل : معنى ذلك انه كان من الجن الذين خلقوا من النار ، وكان اجراته أنه في الأرض غير أن الله عز وجل اذن له في مساكنة الملائكة ومجاورتهم لحسن عبادته وشدة إجهاده ، وقد وردت الأخبار ببيان ذلك من حاله ، فلما أسكن السماء وطال اختلاطه بالملائكة ومباينته لجنسه جرى في عداد الملائكة ، وصار يواجههم كالأعجمي يختلط بالعرب ويسكن بلادهم ، فتعلم لسانهم وتخلق بأخلاقهم ، فيكون أعجمياً مبعوثاً ، ويدعى بذلك من العرب المستعربة كلهم هكذا .

فلما أمرت الملائكة بالسجود لآدم دخل في الجملة الملك الاصيل والملحق بالملائكة ، غير أن مفارقتهم الملائكة في أصل جلته على مفارقتهم في الطاعة ، قال الله عز وجل : إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، كما يكون الأعجمي المبعوث بين قوم فاذا همت العرب بأمر وأجمعت عليه ، حل الأعجمي أصله المخالف لأصل العرب على خلافهم ، فيقال انه كان من الأعاجم ، فكذلك لم يواطيه العرب ، فردّه الله بعد ذلك إلى مساكن جنسه ، وأخرجه من السموات ، فصار عند الاقصاء شيطاناً كما كان عند الأدنى ملكاً .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ (١) . فان الناس لم يتفقوا على أن الإشارة به واقعة إلى قولهم : الملائكة بنات الله ، لكن ذلك قد قيل ، وقيل غيره : وهو أن مشركي العرب كانوا يقولون للأصنام انها بنات الله ، وسمتها لذلك آلهة ، ويزعم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله عز وجل ، ولذلك كانت تسميها اللات والعزى ومناة . وإنما وقع لهم من حيث أن الشياطين كانت تدخل أجوافها . فيكلمهم منها ، فكانوا ينسبون ذلك الكلام إلى الله تعالى . فقال الله تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ لانهم سمو الأصنام لمكان تكليم الجنة إياهم من أجوافها آلهة ، وادعوا أنها بنات الله وأثبتوا بين الله تعالى وبين الجنة نسباً ، جهلاً منهم ، بأن الكلام الذي يسمعون ، إنما هو كلام الشياطين ، لا كلام الله جل ثناؤه ، وليس هذا في الظهور دون الوجه الآخر ، والله أعلم .

وأما قوله عز وجل : ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من نار ﴾ (٢) . فانها هو بيان ما ركب من خلق متقد ، فلم تدخل الملائكة في ذلك لانهم

مخترعون . قال الله عز وجل لهم ﴿ كُونُوا فَكَانُوا ﴾ كما قال للأرض التي خلق منها الجن ، والاصل الذي خلق منه الانسان وهو التراب والماء والنار والهواء كن فكان ، فكانت الملائكة في الاختراع كأصول الانس والجن ، لا كأعيانهم ، فكذلك لم يذكروا معهم والله أعلم .

فصل

ثم ان الملائكة يسمون روحانيين ، بضم الراء ، على معنى أنهم أرواح لا شيء معها من ماء أو نار أو تراب ، وإنما لا يرون للطافتهم . فاما الجن فهم مخلوقون من النار مرثية ، لا انهم حجبوا عن الابصار ، ولذلك سموا جنًا ، والجنة في لسان العرب السترة ، فكأنهم مستورون عن الناس ، وقد سمي الله عز وجل جبرائيل صلوات الله عليه الروح الامين ، وروح القدس . وقال : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ ^(١) وقال : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ ^(٣) . فقيل ان المراد جبريل ، وقيل انه ملك عظيم سوى جبريل يقوم وحده صفا والملائكة صفا ، ومن قال بهذا قال : الروح جوهر .

وقد يجوز أن يؤلف الله تعالى أرواحاً فيجسمها ويخلق منها خلقاً ناطقاً عاقلًا فتكون الروح مخترعاً ، والجسم وضم العقل والنطق اليه حادثاً من بعد . وقد يجوز أن تكون الاجسام على ما هي عليه اليوم مخترعة كما اخترع عيسى وناق صالح . وفي بعض الاخبار الواردة في شأن الملائكة ما يدل على هذا الوجه ، وقال بعض الناس : ان الملائكة روحانية بفتح الراء ، بمعنى انهم ليسوا محصورين في الابنية والطلل ، ولكنهم في فسحة وبسطة ، وقد قيل : إن ملائكة الرحمة هم الروحانيون - بفتح الراء - ، وملائكة العذاب هم الكريميون فهذا من الكرب ، وذاك من الروح والله أعلم .

ومما يدل على مفارقة الجن الملائكة ان الله عز وجل اخبر انه : تسأل الملائكة يوم القيامة عن المشركين ، فيقول لهم : ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ ﴾ ^(٤) . فتقول الملائكة : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ ^(٥) فتشهد ان الملائكة غير الجن

• (٣) النبأ : ٣٨

(٢) القدر : ٤

(١) مريم : ١٧

(٥) سبأ : ٤١

(٤) سبأ : ٤٠

إذ لو كانت الملائكة جنات لم يخل عباد من أن يكونوا عباد الملائكة فلم يكن لقول الملائكة انهم كانوا يعبدون الجن ولا يعبدوننا معنى ، والله أعلم .

فصل

ثم ان الناس قديماً وحديثاً تكلموا في المفاضلة بين الملائكة والبشر ، فذهب ذاهبون إلى ان الرسل من البشر ، أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة . وذهب آخرون إلى ان الملائكة مفضلون على سكان الأرض ، واحتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ (١) . فبدأ في نفي الاستنكاف من العبادة لله جل ثناؤه من المسيح ثم نبأ بنفيه عن الملائكة .

فدل ذلك على ان الملائكة ارفع قدراً وأعلى مرتبة إذ لم يكونوا كذلك لكان في معنى ما نفى عن المسيح دلالة على ان من دون بانتفاء ذلك عنه أولى ، فقد عقل ان الأعلى رتبة والارفع درجة إذا لم يأنف منه ، فالذي هو أعلى منه يأنف ولا يأنف ، فلذلك صار وجه الكلام أن يبدأ في مثل هذا بالادنى ثم انشئ بالاعلى ، ألا ترى انه يقال : لن يأنف الوزير أن يدعى خادماً للامير ولا الكاتب ، وما كان كذلك الا لعلو رتبته وارتفاعها عن رتبة الكاتب ، وكذلك ما ذكرنا والله أعلم .

ومما يشبه هذا ان ينفي علم عن واحد ثم يعطف عليه غيره « فيقال : ما تدري هذا فلان ولا فلان ، فيكون وجه الكلام الابتداء بالادنى في العلم منزلة ، لانه قد يجوز أن لا يدري ما يدريه الافضل ، ويبعد أن لا يدري الافضل ، ويدري من هو دونه ، فيحتاج إلى نفي العلم بعد نفيه عن الافضل .

ولكن إذا نفي الجهل عن واحد ثم يعطف عليه غيره ، فانما ينتفي أن يبدأ بافضلها فيقال : ما يحجل هذا فلان ، ولا الذي هو دونه لان العرض عن الانابة عن وضوح ما نقيت الجهالة عنه ، وقد يجوز أن يتضح لافضل الرجلين في العلم ما لا يتضح لمن دونه ، فإذا كان بحيث يعلمه قليل العلم كما يعلمه كثير العلم ، فذاك هو النهاية من الوضوح .

(١) النساء : ١٧٢

وعلى هذا يقال : ما يصلح للحكم بين الناس فلان ولا فلان ، فبدأ بالادون ، وإذا قيل : ما يدفع عن الحكم فلان ولا فلان بدىء بالأفضل .

وإذا قيل : ما يرضى الأمر فلان وفلان ، وأريد به تقييده بدىء بالأفضل ، لأنه قد يدرك برأيه من الخلل الذي فيه ما لا يدركه الذي دونه فيدعوه ذهابه عليه إلى أن يرضى به ، فيفي هذا المعنى باتباع الادون الأفضل ليدل به على إيضاح وجه الأمر ، وانتفاء اللبس عنه .

وإذا قيل : ما يكره هذا الأمر فلان ولا فلان ، وأريد به بخسه بدىء للادون لأنه يخفي عليه بعض ما فيه ، فذلك لا يكرهه ، فاما من هو أعلى منه فإنه كوقوفه على حقيقته بكرهه لينفي هذا المعنى بمطف الأعلى على الادون والله أعلم .

وحجة أخرى : هو ان الله جل ثناؤه أخبر عن آدم وحواء عليها السلام انه نهاما عن أكل الشجرة ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمها إني لكما من الناصحين ﴾ (١) .

فلو لم يعلم آدم صلوات الله عليه ان الملك أفضل من البشر لما استطاع إبليس أن يغره بأن شبه عليه انه نهى عن أكل الشجرة لئلا يكون ملكاً ، وفي نفاذ الغرور له عليه من هذا الوجه ما دل على أن الملك عند آدم أفضل من البشر .

وحجة ثالثة : وهي ان الله تعالى جعل الملائكة شفعاً لبني آدم فقال : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ومعلوم ان استغفار الملائكة لبني آدم ليس لحق بني آدم فيقضونه بالاستغفار لهم ، كاستغفار الولد لأبويه ، ولا هو على معنى التعاون كاستغفار بني آدم بعضهم لبعض لأنهم يستغفرون لبني آدم ولا حاجة بهم الى أن يستغفر بنو آدم لهم . فصح انه من جنس الشفاعة منهم لبني آدم كاستغفار النبي لأمته ، وفي ذلك يتأول على أنهم أفضل من الذين يستغفرون لهم ، كما ان كل نبي فهو أفضل من أمته والله أعلم .

وحجة رابعة : وهو أن يرسله الله تبارك وتعالى إلى أحد فهو أفضل من المرسل إليه .

(٢) غافر : ٧

(١) الاعراف : ٢١

ويدل ذلك على أن الرسول من البشر أفضل من قومه ، فقياس ذلك أن يكون الملك المرسل إليه أفضل منه .

وحجة خامسة : وهو أن الله جل ثناؤه سمى الملائكة الملائكة الأعلى ، وفي ذلك معنيان : أحدهما : أن الملائكة في اللسان ، هم العظماء والأشراف ، قال الله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ ^(١) . على خوف من فرعون وملثهم ، أي من أكبر قومه . وقال : ﴿ وقال الملائكة من قوم فرعون ﴾ ^(٢) . أي كبرائهم ، فإن جماعتهم لم يكونوا بخاطبي فرعون ، فلما سمى عز وجل عامة الملائكة بالاسم الموضوع للعظماء ، دل ذلك على أنه إنما سماهم بذلك لأنهم بالقياس إلى سكان الأرض غاية كبرى عظماء ، وليس فيهم من ينحط قدره من أحد من أهل الأرض .

والمعنى أنه نسبهم إلى العلو دلالة بذلك على فضلهم ، وتنسيبها على علو قدرهم ، لأنه لا شك أن السماء أفضل من الأرض ، فقد ينبغي أن يعقل من ذلك أن الله تعالى إذا كان هو الذي أسكن الملائكة السماء ، والبشر الأرض ، ولم يكن ليسكن أفضل المكانين أدون الخليقتين ، وأدون المكانين أعلى الخليقتين ، وفي هذا ما أبان أن الملائكة أفضل من البشر . وحجة سادسة : وهو أن التقي من البشر أفضل من الذي يخلط العمل الصالح بالسيئة . والملائكة كلهم يخلصون للطاعات ، وليس فيهم أحد يخلطها بشيء من المعصية ، ولا التقاة من البشر أن عصموا من الكبائر فقد لا يعصمون من الصغائر ، وإن سلموا من الفعل فقد لا يسلموا من الهم .

وقد أخبر الله عز وجل بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ولا يسبقونه بالقول وهم من خشية ربهم مشفقون ، وأنهم لا يستخرون عن عبادته ولا يفترون . وفي هذا سوى ما ذكرنا من أتقياء البشر أن سلموا من كبائر الذنوب وصغائرها فليس أحد منهم يتعبد دائماً ، والملائكة يعبدون الله دائماً لا يفترون . فيجب عن هذا أن لا يكونوا أفضل من البشر .

فإن قيل : لو وجب أن يكون أفضل الانبياء يحيى بن زكريا عليها السلام لأن نبينا ﷺ أخبر أنه لا يخطئ قط ، ولا هم بخطيئة ؟

فالجواب : أن الملائكة كما لا يخطئون ولا يهمون بالخطيئة فلذلك يعبدون الله دائماً ولا يفترون ، ويحيى بن زكريا عليه السلام لم يكن بهذه الصفة بل كان يأكل ويشرب وينام ويفتر فيستريح ، فيكون في هذه الأحوال منفكاً عن التعبد ، فإذا تعبد في غير هذه الأحوال ، فالظاهر من أمره أنه كان يتعبد بالصلوات والصيام والتقديس والتسبيح ، ولم يكن عليه من الجهاد في سبيل الله والدفع عن دين الله وأوليائه بالسيف ، ما كان على كثير من الأنبياء ، ولا من الحج والهجرة ما كان على غيره ، فلذلك لم يحز على القطع بتفضيله على عامة الأنبياء صلوات الله عليهم .

فان قيل : فانكم تعارضون في الملائكة بمثل هذا ، وهم انهم كانوا لا يعصون ويسبحون دائماً فلا يفترون ، فإن الناس يكابدون من الحج والجهاد والهجرة والتعليم والتأدب والعفة ما لا تكابده الملائكة ، فلا يجوز أن يقطع بفضل الملائكة عليهم .

فالجواب : ان نزول الملائكة من السماء إلى الأرض لا يختلف عن حج الحجاج وإقامتهم في الأرض لنسخ الاعمال ، لا تختلف عن هجرة النبوة ، وقد جاهدوا مع النبي ﷺ لما أمروا بالجهاد ، وإذا لم يجاهدوا ، فلأنه لا أعداء في الدين لهم من جنسهم . والناس أيضاً لا يقاتلون من لا يعاديهم في الدين من جنسهم . فالفرقان من هذا الوجه سواء . وإذا لم يهاجروا فانه لا مانع يمنعهم من حبسهم من عبادة ربهم في مقارم ومواضعهم ، والناس أيضاً لم يؤمروا بالهجرة حيث لم يكونوا يخافون الفتنة على أنفسهم ، ولا الحيلولة من طاعة الله وعبادته .

والحج ليس فيه الا قصد البيت والطواف حوله ، والملائكة حافون من حوله ، وأهل الثائي منهم عن العرش يلزمهم منه في بعض الاوقات حضوره ، وذلك مغيب عنا ، فلا نتكلم عليه بنفي ولا إثبات ، ثم ان العرش على كواهل عدة من الملائكة ، وليس البيت الذي في الأرض على كاهل أحد من البشر ، وفي هذا ما يبين أن الملائكة أثقل عملاً وأطول شغلاً .

وأما التأدب والتعلم والنفقة فلا حاجة بالملائكة ، لكنهم ما رأوا ذلك خزنة كتب الله تعالى وحملة وحيه .

وكذلك صار جبريل صلوات الله عليه موصوفاً بالعلم في قوله تعالى علمه شديد القوى ،

ولست تقصر رتبة التعليم عن رتبة التعلم ، لكنها تعلموها ، لان التعليم إعطاء والعلم قبول .
والاعطاء فوق القبول ، وليس ما وصفنا من شأن يحيى بن زكريا بسبيل أنه قد كان
له أعداء في الدين ، ومع ذلك لم يؤمر بإتيانه ، وحج البيت الذي فيه ، فثبت انه لا يلزم
من يفضل على سائر النبيين صلوات الله عليهم أجمعين ، بالرغم من تفضيل الملائكة على البشر
من الوجه الذي ذكرناه .

هذا مع أن الملائكة أعمالاً لا يتسع لها ، نحو نسخ الاعمال وقبض الارواح ، وسوق
السحاب ، ونحو ذلك ، ويحيى بن زكريا لم يكتب له بإزاء ما أسقط عنه ، وكان
مكتوباً على غيره ما هو مثلها أو أشق منها ، وفي ذلك ما يمنع من المعارضة بأمره
والله أعلم .

فان قال قائل : فان الله تبارك وتعالى أسجد ملائكته لآدم صلوات الله عليه ، بأننا
يدل بذلك على أنه كان أفضل منهم .

فالجواب من وجوه : أحدها أن معنى قول الله عز وجل : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ ^(١) .
أي اسجدوا إلى مستقبلي وجه آدم . وإنما هذا لقول الله عز وجل : ﴿ أقم الصلاة
لدلوك الشمس ﴾ ^(٢) . أراد به اقم الصلاة لي عند دلوك الشمس ، وكذلك قوله تعالى :
﴿ إني خالق بشرأ من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ^(٣) .
معناه : فقعوا إلى عند تمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين .

والدليل على هذا ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (إذا سجد ابن آدم ، قال
الشیطان : امر ابن آدم بالسجود فاطاع فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فمضيت فلي
النار) ^(٤) . ومعلوم أن ابن آدم لم يؤمر بالسجود إلا لله تبارك وتعالى ، فثبت أن
الشیطان أيضاً ، إنما أمر بالسجود لله تعالى ، وإنه عن ذلك امتنع فحققت عليه النار
والله أعلم .

فان قيل : لو أمر بالسجود لله تعالى لم يمتنع منه ، فإنه كان يعبد الله من قبل ذلك !
قيل : إنما امتنع من السجود لا لانه لم يؤمن به الله تعالى ، ولكن لان أمره به الله عز

(٣) ص : ٧١

(٢) الاسراء : ٧٨

(١) البقرة : ٣٤

(٤) ورد في صحيح مسلم « الايمان » رقم ١٣٣ .

وجل في وجه آدم كان يرجع إلى تكريم آدم ، فقال في نفسه : أنا خير منه ! فكيف يؤمر أحد بالسجود لله عز وجل في وجهه عند إتمامه خلقي ليكون ذلك تكريماً لي ، فإنما امتنع من السجود حسداً لأدم صلوات الله عليه ، على ما أوجب عليه تعالى من تكريمه ، لا لان السجود لم يكن لله جل ثناؤه !

فإن قيل : ان السؤال قائم وذلك انه إذا أمر الملائكة له وجه آدم تكريماً له ، دل ذلك على انه كرمه عليهم .

قيل : لا ، بل كرمه على سائر من علم انه أخرجه من ظهره وغير أمرهم أن يسجدوا له من وجه أحد منهم ، كما أمرهم أن يسجدوا له في وجهه أو كرمه على الجن وسائر ما كان في خلق قبله من أصناف الحيوان ، ولم يرد بذلك تكريمه على الساجدين ، كما انه لما أمر المسلمين أن يصلوا له تلقاء الكعبة ، كان بذلك مكرماً لها على الجهات الاخر التي لم يأذن في الصلاة إليها ، ولم يكن مكرماً لها على المصلين والله أعلم .

وحجة اخرى : وهو أنه يحتمل أن يكون الله أمرهم بالسجود لأدم معاقبة على قولهم : ﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ^(١) . كما قال لهم : ﴿ إني جاعل في الارض خليفة ﴾ ^(٢) .

وقد كان علم منهم قبل أن خاطبهم أنهم قائلون هذا ، فقال لهم : ﴿ إني خالق بشرأ من طين ﴾ ^(٣) وجاعله خليفة في الارض ، ﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين ﴾ ^(٤) . والمعنى ليكون ذلك عقوبة لكم في ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لي الآن ، فلا يلزم عن هذا أن يكون أفضل منهم كما لا يلزم عن معاقبة يونس صلوات الله عليه بتسليط الحوت عليه ، حتى التقمه الحوت عند هربه من قومه ، وامتناعه من تبليغهم رسالة ربه أن يكون الحوت أفضل منه .

وقد قال قائل : وقد قال الله عز وجل : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ ^(٥) . فأخبر أنه فضلهم على كثير ممن خلق - ومن اسم للذي يعقل - فثبت أنهم مفضلون على غيرهم من العقلاء وهم الملائكة !

(٥) الاسراء : ٧٠

(٣) ، (٤) الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢

(٢٥١) البقرة : ٣٠

فالجواب : لكن العقلاء سوى بني آدم ليسوا الملائكة فقط ، لكن الجن مشاركون لهم في العقل ، فإذا وجبت لهم الفضلة على الجن وقد وجبت الآية حفظها ، فلا يجب بمعد ذلك تفضيلهم على الملائكة إذ ليس في الآية أنهم مفضلون على كثير منهم ، بل في الآية دليل على فضل الملائكة عليهم ، لأن العقلاء ثلاثة أصناف : الملائكة والانس والجن ، وقد وجب أن يكون الانس أفضل من الجن ، فثبت الذين ليس الانس أفضل منهم هم الملائكة والله أعلم .

ومما يدل على فضل الملائكة أن الله تعالى جعل دخولهم على بني آدم في الجنة وتسليمهم عليهم من حلة الثواب الذي وعدهم بحسن أعمالهم ، فقال : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (١) .

فلو كانت الملائكة دونهم لم تكن زيارتهم إياهم نعمة يحتاج إلى التوصل إليها إلى ترك الشهوات ، وإجهااد النفس في الصالحات ، فلما كان ذلك لا يوصل إليه إلا بما ذكرنا ، بأن الملائكة أفضل وأرفع قدراً ، وإن زيارتهم للذين يزورونهم زائدة في أقدارهم معلية لرتبتهم والله أعلم .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه استدل على فضل البشر بأن الله عز وجل أقسم بحياة رسوله ﷺ فقال : لعمر ك ، وآمنه من العذاب بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (٢) . وقال للملائكة : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ (٣) .

فالجواب : إن الله عز وجل إن كان لم يقسم بحياة الملائكة ، فلم يقسم بحياة نفسه ، فإنه لم يقل : لعمر ك ، ولا قال بحياتي ، فلا يدل ذلك على أن حياة النبي ﷺ أجل قدراً من حياته ، وأقسم بالسماء والأرض ، ولا يدل ذلك على أنها أرفع قدراً من العرش والكرسي والجنان السبع التي لم يقسم بها وأقسم بالتين والزيتون ، فلا يدل على أنها أجل رتبة من النخل التي جعلها الله مثلاً لكلمة الاخلاص ، وسماها طيبة .

وأما قوله عز وجل : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ، فهو نظير قوله للنبي ﷺ ، ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من ﴾

(٣) الأنبياء : ٢٩

(٢) الفتح : ٢

(١) الرعد : ٢٤

الخاسرين ﴿١﴾ . فليس منه إذا دلالة ، وقد استوفيت الكلام في هذه المسألة فما خرجته من تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٢) الوقوف عليه - فليرجع إليه إن شاء الله .

فصل

إن قال قائل : ان ذكرت الرسل جملة وجعلت الإيمان بهم جميعاً شعبة واحدة إذ كان بعض الرسل من الناس وبعضهم من الملائكة ، كما قال الله عز وجل : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ (٣) .

قيل له : لأن الله عز وجل جعل الملائكة والرسل في الإيمان بهم صنفين ، فقال : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٤) . فلأن الملائكة ليست من جنس البشر ، والرسل من بني آدم جمعهم جنس واحد ، فكان للأحسن أن يكون الإيمان بالملائكة شعبة ، والإيمان بالرسل من البشر شعبة سواها .

وأيضاً : فان الإيمان بالرسل هو الاعتراف لهم بالرسالة من الله تعالى ، فأما الاعتراف بوجودهم فمما لا خلاف فيه بين المؤمنين بهم وبين المكذبين بهم ، وانما الخلاف في تصديقهم . فان الملائكة فانما يحتاج إلى الاعتراف بوجودهم أولاً ، ثم الاعتراف بمنازلتهم وأحوالهم وأقدارهم ، والاعتراف بوجودهم ليس من إثبات الرسالة في شيء ، ولذلك وجب أن يكون الإيمان بالملائكة شعبة سوى الإيمان بالرسل من البشر والله أعلم .

(٢) البقرة : ٣٠

(٤) البقرة : ٢٨٥

(١) الزمر : ٦٥

(٣) الحج : ٧٥

الرابع من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ
وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم

والايمان بالقرآن يتشعب شعباً فاولاها : الايمان بانه كلام الله تعالى ، والاتبين من وضع محمد ﷺ ، ولا من وضع جبريل عليه السلام .
والثانية : بأنه معجز النظم ، لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدررون عليه .

والثالثة : اعتقاد ان جميع القرآن الذين يوفى النبي ﷺ عنه ، هو هذا الذي في مصاحف المسلمين ، لم يفت منه شيء ، ولم يصنع بنسيان ناس ، ولا ضلال نجيب ولا موت فادي ، ولا كتمان كاتم ، ولم يحرف منه شيء ولم يزد فيه حرف ، ولم ينقص منه حرف .
فاما الوجه الاول : فان الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ (١) .
وقوله عز وجل : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (٢) .
وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ (٣) .
وقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً ﴾ (٤) . وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾ (٥) .
وقال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴾ (٦) .

(٣) البقرة : ٤
(٦) النساء : ١٦٦

(٢) البقرة : ٢٨٥
(٥) الانعام : ١٥٥

(١) النساء : ١٣٦
(٤) النساء : ٨٢

وقال : وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴿ (١) ﴾ . وقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ (٢) .

وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة ، فان عارض معارض بقول الله عز وجل في كتابه : ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ﴾ (٣) . وفي سورة أخرى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة (٤) عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ وزعم أن هاتين الآيتين دلالة على أن القرآن كلام جبريل ، قيل انه ليس معنى الآية ما توهمت لأن الله عز وجل قال في آية أخرى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٥) .

فأثبت أن القرآن كلامه ، ولا يجوز أن يكون كلامه وكلام جبريل معاً ، فثبت أن معنى قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ (أي قول تلقاه عن رسول كريم أو نزل عليه رسول كريم) .

فدل على هذا أن الله جل جلاله قال : ﴿ لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (٦) . فثبت أن القرآن معجز . فلو كان من وضع جبريل لم يكن معجزاً لأن المعجز ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

فان قال قائل : ما أنكرتم أن يكون قول الله عز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ (٨) . يجري على ظاهره ، ويكون معنى قوله حتى يسمع كلام الله أي الكلام الذي أمر الله عز وجل جبريل بالقائه إلى نبيه .

فأما قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ (٩) وسائر ما في مثل معناه ، فان وجهه : أن الله عز وجل إذا أمر جبريل أن ينزل على نبيه كتاباً ثم يحمله إليه ، ففعل الكاتب ذلك أن يقال : هذا كتاب ذلك الملك ، صدر بأمره أو بعلمه .

وأما الاعجاز فقد يجوز أن يوصف به القرآن ، وان كان من قول جبريل لأن الملك يقدر على ما لا تقدر عليه الانس والجن ، ولم يذكر الله عز وجل في التمجيز عن الاقيان بمثل

(٣) الحاقة : ٤٠

(٦) الحاقة : ٤٠

(٩) الانعام : ١٥٥

(٢) يوسف : ٢

(٥) التوبة : ٦

(٨) الحاقة : ٤٠

(١) الشعراء : ١٩٢

(٤) التكوين : ١٩ - ٢١

(٧) الاسراء : ٨٨

القرآن إلا الانس والجن ، فما الذي أحال أن يقدر على القرآن ، ولا تقدر عليه الانس ولا الجن .

هذا وقد جعل الله هذا ، وقد جعل الله تعالى فعلاً من أفعال الملائكة علماً يصدق نبي من الأنبياء ، وهو الذي أخبر قومه بأن الله بعث لكم طالوت ملكاً ، فلما قالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ (١) . قال : ﴿ إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ (٢) .

فجعل الله عز وجل حمل الملائكة ذلك التابوت المأنوس لبني إسرائيل من الوصول إليه ، انه لصدق النبي الذي أخبرهم أن الله تعالى ملك عليهم طالوت ، فلا ينكر أن يجعل الله القاء جبريل بالقرآن إلى نبينا صلوات الله عليه دلالة على صدقه ، وان جبريل هو الذي تولى وضعه ونظمه .

فالجواب : إن الله عز وجل لم يقصر التمجيز عن الاتيان بمثل القرآن على الانس والجن لأن الملائكة تقدر على الاتيان بمثله ، ولكن لان الرسالة كانت إلى الأنس والجن فوق التحدي للفريقين حتى إذا عجزوا كان عجزهم دلالة على أن النبي ﷺ عاجز مثلهم . فيظهر بذلك انه لم يأت بالقرآن من عند نفسه وانما أتى به من عند الله .

فأما الملائكة فلم يتحدوا عن ذلك ، لأن الرسالة إذا لم تكن إليهم لم يكن القرآن حجة عليهم فنبثوا أكانوا قادرين على مثله أو عاجزين ، وهم عندنا عاجزون .

وليس الاتيان بمثل القرآن من قلب المدائن ، والاتيان بالتابوت في شيء ، لأن قلب المدينة وحمل التابوت العظيم كالذي يوصف من تابوت بني إسرائيل ، لقصور قواهم عنه ، فاذا زادت قوة الملك على قوة الآدمي اضعافاً مضاعفة زاد عمله أيضاً كذلك .

وأما نظم القرآن فانه ليس من جنس نظم كلام الناس ولكنه مبين لهذا ، فلا يهتدى إليها فيحتذى ويمثل ، فهو كتركيب الجواهر غير الأجسام ، لتصير أجساماً ، ولا على قلب الأعيان ولا يقدرُونَ عليه من ذلك . والملائكة أيضاً لا يقدرُونَ عليه كذلك .

وما لا يقدر عليه الانس والجن من الاتيان بمثل القرآن ، والملائكة أيضاً لا يقدرُونَ ، وفي ذلك ما ابان نظم القرآن ليس من عند جبريل ، لكنه من عند الله اللطيف الخبير ، وبالله التوفيق .

وقد دخل فيما ذكرته من هذا الوجه الثاني من الأوجه الثلاثة التي تقدم ذكرها في صدر الكتاب .

فأما الوجه الثالث فبيانهُ أن الله تعالى حفظ القرآن ، فقال عند ذكره : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١) . وقال : ﴿ وإنه كتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢) . فمن أجاز أن يتمكن أحد من زيادة شيء في القرآن أو نقصانه منه ، أو تحريفه أو تبديله ، فقد كذب على الله تعالى في خبره ، وأجاز وقوع الخلف فيه ، وذلك كفر .

وأيضاً فإن ذلك لو كانت ممكناً لم يكن أحد من المسلمين على ثقة من دينه ويقين بما هو متمسك به ، لأنه لا يأمن أن يكون فيما كتب من القرآن أوضاع نسخ الصلوات أو بعض شيء منها ، أو تغيير أوقاتها أو الزيادة عليها ، أو نسخ الزكاة ، أو تغيير الأموال بها ، والزيادة في مقاديرها ، أو النقص منها ، أو نسخ الصيام أو الزيادة على شهر رمضان أو تبديله بغيره . أو نسخ الحج أو إيجاب تكريره . أو منع الجهاد ، أو تحليل المحرم والميسر وإطلاق المحرم من الفروج ، أو تحريم المحلل منها .

فكان أحد من الناس لا يقيم عبادة إلا متشككاً ، ولا يقدم على شيء ولا ينزع عن شيء إلا متشككاً . ثم كان لا يؤمن أن يكون وصف نبينا بأنه خاتم النبيين زيادة من نقصان الناس دون أن يكون تنزيلاً ، فلمله عن قريب يبعث بعده نبي ، أو يكون قوله : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٣) . تحريفاً وتبديلاً ، ويكون المنزل يا بني اسماعيل ، وإخباره هذا يدعو إلى تشريع كل خارج من الاسلام أن لا يدخل فيه ، وإن الثقة به لا توجد لأهله ، وهذا غير الكفر . فصح ان من تمام الإيمان الإعتراف : بان جميعه هذا ، المتوارث خلفاً عن سلف لا زيادة فيه ولا نقصان وبالله التوفيق .

فأما الإيمان بسائر الكتب مع الإيمان بالقرآن ، فهو نظير الإيمان بسائر الرسل مع الإيمان بنبيينا ﷺ وعليهم ، لأنه قد أخبر عن الله جل وعز : انه أنزل كتباً على أنبياء كانوا قبله ، كما أخبر عنه بأنه كانت لله تعالى قبله رسل وأنبياء فلا يكمل تصديقه فيما يذكر انه أنزل عليه إلا بتصديقه فيما انه أنزل على غيره .

وهذا هو المعنى الذي ذكرته في وجوب الإيمان بسائر الرسل معه إلا ان الإيمان بما أنزل عليه يقتضي قبوله واتباعه والعمل به على ما يلزمه ويدعو اليه .

والإيمان بما أنزل قبله لا يقتضي الا الاعتراف بأنها كانت من عند الله ، وكانت في أوقاتها حقاً وصدقاً واتباعها واجباً للمتعبدین المخاطبين بها ، كما ان الإيمان به يقتضي الإيمان بقبول ما جاء به واتباعه في عامة ما أمر به ، ويدعو اليه .

والإيمان بالرسل قبله لا يقتضي إلا الاعتراف بانهم كانوا صادقين محقين ، وكانت طاعتهم لازمة للذين بعثوا اليهم والله أعلم .

وفي الإيمان بالرسل معنى آخر لا لبس فيه : وهو ان عامتهم أتوا بمعجزات وبيّنات دلت على صدقهم ، فمن آمن بالنبي ﷺ بمعجز ، ليقولوا نؤمن بالنبي بعد قوة مع اثباتهم بالمعجزات ، كان قد أجاز على صاحب المعجزة مع إجازة المعجزة لغير النبي ﷺ ضدان يقتضيان لا ما يليقان ولا يليقان . فلهذا كان الإيمان بعامة الرسل من تمام الإيمان بنبيينا صلوات الله عليه وعليهم وبالله التوفيق .

فان قال قائل : ان الله عز وجل قال : ﴿ والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ (١) . بدأ بنفسه وثنى بملائكته وثالث بكتبه وذكر الرسل اخيراً ، وأنتم خالفتم هذا الترتيب فجعلتم الشعبة الثانية للإيمان بالرسل ، والشعبة الثالثة الإيمان بالملائكة ، والرابعة الإيمان بالكتب ، فهل لكم من عذر في هذا ؟

فيل له : أما التنبيه بالرسل فلان الله عز وجل قال في آية الأمر : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٢) . وقرن الإيمان برسوله بالإيمان به . وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ (٣) .

(١) البقرة : ٢٨٥

(٢) النساء : ١٣٦

(٣) الحديد : ٢٨

وقال في آية الوعد : ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ (١) فأوجبنا التثنية بالرسول عند تعديد شعب الإيمان ، هذا ولأن الهلي الملائكة ، إنما وقع بخبر الرسل ، فكانت التثنية بالرسول لذلك أولى من التثنية بالملائكة . ثم ذكر الملائكة بعد الرسل أولى من ذكر الكتب ، لأنهم من جملة الرسل وإن كانوا صنفًا غير الرسل الذين من البشر ، ولأن الكتب تنزيل الملائكة ، فالأحسن إذاً تقديم ذكرهم على ذكر تنزيلهم .

فصل

ونقول : إن الإيمان بالكتب المنزلة على الأنبياء الذين كانوا قبل نبينا ﷺ وعليهم ، وإن كان واجباً فلا يؤخذ بقراءة ما في أيدي اليهود والنصارى منها ، لأن الله عز وجل قد خوفهم وزجرهم ونسبهم إلى أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (٢) . وقال : ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ (٣) وقال : ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون﴾ (٤) . وإذا كان هذا هكذا ، لم يقع للمسلم تقديم بقول اليهود أنه من التوراة . ويقول النصراني أنه من الانجيل ، أو يقولان : أنه من الزبور ، إذ كان لا يأتيه أن يكون من وصفهم الذي أخبر الله عز وجل بانهم ينسبونه إلى الله عز وجل ، يعلمون من أنفسهم بانهم كاذبون .

وأيضاً فإن الكفار لا شهادة لهم أصلاً ، فكيف يقبل قولهم على الله تعالى ورسوله ، لكنهم أبعد الناس من ذلك ، فأولاهم بالرد والتكذيب . هذا وقد ظهر أكثر ما في أيديهم ، لا يجوز أن يكون منزلاً من عند الله عز وجل لأن ما يدعون إليه ، إنه التوراة مغايري موسى وقصته بعد فرعون ، وما دار بينه وبين بني إسرائيل طول مقامه بين أظهرهم ، وصفة وفاته .

(٢) آل عمران : ٧٥

(٤) آل عمران : ٧١

(١) النساء : ١٥٢

(٣) المائدة : ٤١

فلا يخفى على عاقل ان ذلك على وجهه لم ينزل عليه ، وانه بمنزلة الأخبار التي جاءت من السنن ومحاورات النبي ﷺ وأصحابه وسائليه والقادمين عليه من الوفود وغيرهم ، وعن جابر أن يلحق شيء من ذلك بالقرآن ، أو يدعى باسمه ، فذلك ما كان ذلك لموسى ﷺ ، لا يجوز أن يلحق بالتوراة أو يدعى باسمها .

فأما ما في القرآن من ذكر بعض حروب النبي ﷺ ، وليس على معنى الاقتصار له بتلك الحروب ولأصحابه وإنما هو ذكر أحوال ومقامات أكرمهم الله تعالى فيها بيده ونصره ، فقرر عندهم نعمه التي أنعمها عليهم ، لئلا يغفلوا عنها ، ويزداد بصيرة في دينهم لأجلها ، ويحمدوه عليها .

وذكر أمور وقعت منهم على وجه لم يرضه الله تبارك وتعالى ، فأنكرها عليهم ، لئلا يعودوا لمثلها ، وما في التوراة أن يدعو بها ليس على هذا الوجه ، وإنما هو اقتصاص مجرد لجميع ما كان من موسى وقومه ظعنًا وإقامة ، فما ذلك إلا كحديث رسوله ﷺ الذي رواه جابر فاستوفاه ، وسائر المغازي ، وما جاء في وفاة رسول الله ﷺ . فإذا لم تجز دعوى التنزيل في هذه فتلك مثلها وبالله التوفيق .

وأما ما يدعي النصارى انه الإنجيل ، فإن فيه من الكفر الصريح من نحو قولهم : ﴿ باسم الأب والابن والروح القدس ﴾ ، وقولهم : يا ملكوت ارحمنا ، مالا شكل على عاقل ان الله عز وجل لا يرضى من عباده باطلا ، فضلا عن أن يأمر بانزاله ، وعند علماء المسلمين انه ليس عند النصارى ذلك الانجيل المنزل على عيسى صلوات الله عليه ، وانه فات ما جرى على بيت المقدس وبني اسرائيل أيام بخت نصر^(١) .

ولكن جماعة من علمائهم وضعوا لها كتباً تجمعهم ، وسموه الإنجيل ، ليكون ذلك أعظم لاسمه ، ودعي الناس إلى قبوله ، وما كان بهذه المنزلة فالبر في مجانبته لا في قراءته وبالله المصيبة .

ولو ثبت ان شيئاً مما في أيدي اليهود والنصارى منزل من عند الله تعالى لكان الاحب

(١) فبوخذ نصر ،

— واسأل الله التوفيق — ان لا ينسخ ولا يدرس لما روى عن عمر رضي الله عنه انه جاء رسول الله ﷺ بصحيفة فيها التوراة ، فكان يقرأها ورسول الله ﷺ يتغير لونه من الغضب ، وعمر رضي الله عنه لا ينظر اليه فلا يراه ، فلما فرغ قال له : (أمنهو كون فيها أنتم يا ابن الخطاب ، ، لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي) (١) . فقال عمر : فوددت مما رأيت رسول الله لو كنت أسلمت يومئذ .

✓ ففي هذا الخبر انه لا ينبغي للمسلم أن يدرس التوراة ، فلا يجعل لها صحيفة عنده ، ومعنى ذلك — والله اعلم — ان النسخ والدرس إنما يراد بهما حفظ الكتاب عن الفناء والضياع ، وليس على المسلمين من ضياع تلك الكتب من أيدي اليهود والنصارى ضرورة لأنهم في بقاءها في أيديهم نفع ، بل ذهابها خير على المسلمين من بقائها . وبقاؤها أضر لهم من ضياعها ، لأنها ما دامت عندهم وفي أيديهم ، فانهم يدعون لاجلها أهل الكتاب ويظهرون من أنفسهم الاستغناء بها مما عندنا ، وإذا عفت ودرست ولم يبق عندهم منها شيء انقطعت عنا مضاهاتهم اياما ، وما تقدرونه من مكافأتنا ومساواتنا، ولعل الضرورة تحملهم على الدخول في ديننا ، كما دعت كثيراً من العرب من الفترة في الدخول في دين أهل الكتاب .

فأما القرآن، فإنما ينسخ ويعلم ويتعلم ويتلى آناء الليل والنهار لانها معجزة رسول الله ﷺ وحجته الباقية بعده ، وجامع الاحكام الثانية التي لا معقب لها إلى قيام الساعة ، فلا غنى عن حفظه وصونه عن الذهاب والضياع . وهذا المعنى غير موجود في تلك الكتب فيما بينه في النسخ والدرس والله أعلم .

وأيضاً فان المسلم إذا قرأ التوراة وقف على الاحكام التي كانت يومئذ ، ووجد بينها وبين الاحكام المشروعة لنا ذلك التباين العظيم ، لم يؤمن ان يكيد الشيطان فيوسوس اليه في بعضها انه ما يليق به أن يكون حكماً ، لانه لا يجد له فيما عنده وجهاً . وفي بعضها ان هذا لو كان اليوم حكماً لكان أشبه لما تجده في قلبه قرب وجهه وحسن

(١) لم أجد هذا في الكتب التسعة .

موقعه ، وكل واحد من هذين باب يسرع إلى الكفر ، فكان ابقاؤه اولى من التعرض له والله أعلم .

وأما ما جاء عن النبي ﷺ من استدعاء التوراة ، واستقرا به الرجم ، فإنما كان لأن اللذين أراد رجمها كانا يهوديين ، وكان عبد الله بن سلام أخبره ، وهو يومئذ مسلم ، ان الحكم عندهم في مثلها الرجم ، فأراد النبي ﷺ ، أن يضرب ذاك عليهم لئلا ينسبوه إلى انه قبله ادخالا للنقص على أهل دينهم ، لا لأن القتل كان واجبا عليهم وليصحح عليهم انهم يكتمون الحق وهم يعلمون ، وإن كتمانهم أمره الذي يحدونه في كتبهم ، مثل كتمانهم الحكم الذي كان عندهم ، ولم يكونوا يعترفون به ، والله أعلم ، وبالله التوفيق .



الخامس من شعب الايمان

وهو باب في ان القدر خيره وشره وحلوه ومره من الله عز وجل

القدر - بفتح الدال - هو المقدور . والقدر - بتسكين الدال - هو الفعل .

قال الله عز وجل : ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (٢) . وهي الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، وعلمنا انه أراد بالقدر ذلك الفرق . والقدر والتقدير واحد ، والقدر والمقدور واحد . والقدر والقدر كالنقص والنقص والحبط والحبط ، وبأن بذلك ان المراد بالحديث : ان كل مقدور فالله قدره ، وإن الخير والشر وإن كانا ضدین فان قادرهما واحد ، وليس قادر الشر غير قادر الخير ، وكما يقوله الثنوي .

فان قيل : فان الله عز وجل خص الخير بإضافته إلى نفسه ، فقال ببديل الخبر : انك على كل شيء قدير ، وعن النبي ﷺ في استفتاح الصلاة : (والخير منك واليك ، والشر ليس اليك) (٣) .

فالجواب : ان معنى تخصيص الخبر بإضافته إلى الله عز وجل للاعتراف له بأن النعم كلها من عنده ، لأرفع ان يكون الشر من عنده ، كما ان تخصيص السموات والأرضين بإضافتهما إلى خلقه ، إنما هو الإعتراف بأن كل موجود سواه وإن عظم ولم يقدر العباد قدره ، فالله خالقه ، لأرفع أن يكون الذر والهباء من خلقه .

وأما قول النبي ﷺ : (الخير منك واليك والشر ليس اليك) فان معناه : ان الإحسان منك واليك ، أي ان ما يصيبنا من خير وحسن فأنت مؤاتيه . والمنعم وما يكون منا من طاعة وفعل حسن ، فأنت المقصود به ، وعبادتك هي المراد منه .

(٢) القدر : ١

(١) المرسلات : ٢٣

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

فأما ما يصيبنا من خير وشر فإنه وإن كان منك أيضاً فإن ذلك بشرور أنفسنا وهي ما تقع من أعمالنا من سوء وقبيح فلست المقصود به ، أي ليس غرض المسئء منا في إساءة خلافك وعصيانك ، كما أن غرض المحسن منا في إحسانه طاعتك وعبادتك ، وإنما هو عقله بغرض فيتبع المسئء فيها شهوته من أن يكون العصيان عضده وإرادته ، ولو قصد ذلك لضاهى إبليس ومن كان من المتكبرين ، فإتاما هذا الكلام تبرأ من النفاق والعناد لا إنه نفى الشر اصلا عن الله ، وانكار أن يقدر الشر وبالله التوفيق .

فان قيل : قد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (١) . وهذا خلاف ما يقولون !

فالجواب : ان معنى الآية ﴿ ما أصابك من شيء ﴾ فسرك من صحة بدن وظفر بعد ، ووسعة رزق ونحو ذلك ، فالله متبديك بالإحسان به اليك ، وما أصابك من سوء يسؤك ، وتعمل فتكسب يدك ، لكن الله تعالى مع ذلك سابقه اليك ، والقاضي به عليك ، كما قال في أخرى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٢) .

ويدل على صحة هذا انه عز وجل قال في هذه السورة : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فهاهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ (٣) . ثم قال بعد هذا بلا متصل ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (٤) .

فكان الذي توجبه مجموع الآيات الثلاث التي ذكرتها : ان ما أصابك من حسنة من الحسنات التي تقدم ذكرها ، فالله موليا ومبتديا للأنعام بها ، وما أصابك من خلافها فالله قاضيا وقادرها أيضاً ، لكنها جزاء لمن أصابه ذلك بكسب حياة على نفسه ، فكأنه هو الفاعل بها بمكان نفسه كما ان قتل قتيل كأنما قتل نفسه ، وإن كان ولي قتيله هو الذي يقتله والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٤) . فليس على معنى يوجب أن يكون القدر هو القدرة والتقدير . ومعناه انا كل شيء خلقناه بحسب ما قدرناه قبل أن

(٣) النساء : ٧٨

(٢) الشورى : ٣٠

(١) النساء : ٧٩

(٥) القمر : ٤٩

(٤) النساء : ٧٩

نخلقه إذ كان علمنا به سابقاً له ، فاثبتنا منه ، فاعلمناه في أم الكتاب وبيننا ما هو كائن منه قبل أن يكون . فإذا كان بحسب ذلك الذي قدرناه وفي الوقت الذي قدرناه ، فالقدر هو المقدور ، وكما ذكرنا في صدر الكتاب وبالله التوفيق .

وجاء في ذكر ما نزلت فيه هذه الآية : ان قوماً من اليهود جاءوا يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت : ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

وروى في التعليل عن من قال ﴿ لا قدر ﴾ وان احد الذين هم أشد الناس عذاباً فكذب بالقدر أخبار .

وذكر أبو بكر الجلاب البصري عن المزني رضي الله عنه انه قال : سألت الشافعي رضي الله عنه عن القدرية فقال : هم الذين يقولون ان الله يعلم الذي يكون .

ومعنى تسمية هؤلاء قدرية ، ان الله عز وجل قال في كتابه : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ (٢) . فمن بني أن يعلم الله قبل كونه ، بني أن يكون الله تعالى كتاب أثبت فيه ما هو كائن قبل أن يكون ، وبين فيه انه كيف يكون ومتى يكون ، وأبطل أن يكون الله تعالى قدر قدر المقادير ، ودبر بعلمه الأمور ، والحقه في المعجز بعباده الذين لا يعلمون الشيء حتى يكون ، فقليل لهم قدرية لأن بدعتهم وضلاتهم كانت من قبل ما قالوه في القدر ، ثم على ذلك كفار ، لأن من عجز الله تعالى وجهله لم يكن عارفاً به وبالله المعصية .

وإذ قد كتبنا في تفسير اسم القدر فاعلمنا انه محتاج اليه ، فلنرجع إلى الكشف عن عرض هذا الكتاب ، والمقصود به بقول رسول الله ﷺ : (القدر خيرُه وشرُه من الله وحلوه ومره من الله) (٢) . فنقول - وبالله التوفيق - ان المراد بهذا إيجاب الاستسلام لا قضية الله تعالى وإقراره بالقلب واللسان معاً لهما بالقلب ، فان لا ينظر أحد ولا يتأثر بما يجري به القضاء بما يوافقه ، ولا يأنف ولا يجري لما يأتي به القضاء بما لا يوافقه .

وأما اللسان ، فهو أن لا يفتخر على غيره بسبب ذلك إلى سبب يكون مرجعه إلى

(١) الحديد : ٢٢ (٢) وود في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، حديث رقم ٨٧ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٧٠١

نفسه ، ولا يضجر مما يسوء فعل من يشكو أحداً وينسبه إلى ظلم أصابه من قبله ، لكن نضيف الأمرين إلى الله تعالى وننسبهما إلى قضائه وقدره ونذعن ونستسلم لما يكرهه ، ويحمد الله تعالى على ما يسره .

ومنزلة هذا الباب مما كتبت في باب الايمان بالله جل ثناؤه والاعتراف له كمنزلة التزام طاعة الله وطاعة رسوله والقبول لما خاطبه به في كتابه من آيات الباري جل ثناؤه والاعتراف له بالخلق والإبداع ، فان الإقرار له بالخلق كما يقتضي وجوب الطاعة له في أوامره ونواهيه ، فكذلك الإقرار له بالتدبير يقتضي الاستجداء له والاستسلام لتدبيره ، فلا ينسخط منه ما يثقل على الطباع ولا يستشعر لما يحل عليه اشرا ولا بطراً .

قال الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِكَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ (١) .

ومعلوم ان الحزن على ما يفوت والفرح بما يأتي موضوع في التنبيه والتجلب ، وان التجلي بالحزن بما يفوت أصلاً استحقاق له موجوداً ومعدوماً ، والتجلي من الفرح بما يسر ويأتي ازدياداً له وقلة حفل به أيضاً ، ومما جميعاً غير مرضيين . فثبت ان المراد بالحزن في الآية حزن السخط والتضجر وبالفرح فرح التبذخ والتكبر والله أعلم .

وقال عز وجل حكاية عن قارون انه لما قيل له : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

قال ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٣) ثم انكر عليه قوله ، واخبر باستحقاقه الأذى والمعقوبة ، فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا ﴾ (٤) .

فدل ذلك على ان من أبصر لنفسه حالاً يحبها ويرضاها ، فرأى انها انما دأبت له بقوة نفسه كان في ذلك مخالفة شرط إيمانه مبيناً لما يجب من حق الله عليه ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ يحتمل انه أراد به علم كنوز المتقدمين وقع اليه فاستخرجها فاستولى عليها .

(٢) القصص : ٧٧

(١) آل عمران : ١٥٣

(٣) القصص : ٧٨

ويحتمل انه اراد به علم الصنعة ، وانه كان من أصدق الناس بها وأبهرهم فيها ، وان تلك الكنوز لما اجتمعت له من هذا الوجه ، وايا ما كان من هذين فان الله عز وجل اخبر عنه : انه فرح لما رأى لنفسه من الأموال ، فقال له قومه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ (٤) والمعنى انه اختال وافتخر واستطال ونكر كما قال عز وجل في آية أخرى : ﴿ ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فقور ﴾ (٥) . وانهم سألوه ان يحسن إلى الناس فيواسيهم ويأخذ بأيديهم فقال لهم : ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ .

وظاهر هذا انه عارض بهذا الجواب قولهم : واحسن كما احسن الله اليك ، اى ليس هذا بما لا يأتي الله من غير كدح كان لي فيه ، ولكنه قال توصلت اليه بعلم كان عندي ، اى انه فائدة رأيي وتدبيرى ، فلا يلزمني ان اواسي به غيرى شكر الله تعالى به

ثم انه خرج على قومه في زينته كما يخرج ذو النعمة العظيمة والمال الجم القوى متعظماً بها على قومه ، فانكر الله ذلك عليه وعاجل أخذه بطغيانه وازافته المال إلى حوله وقوته ، وخسف به وبداره كان فيها من كنوز الأرض ولم يورثها موسى صلى الله عليه وقومه إذ كانت مشؤومة أطفقت قارون وأصلته وحملته على ترك الانقياد لموسى والايان به واتباع سبيله ، فكان يظن الأرض أولى بها من ظهرها .

ألا ترى أن الحل الذي جمعه السامري فاتخذ منه العجل وأضل به بني إسرائيل لم يذبه موسى ولم يردوه إلى الذين أخذ منهم ، ولكنه حرقه ثم ألقاه في اليم . كذلك كنوز قارون لما كانت كما ذكرنا سحقت وأبطلت ، ولم يمكن منها أحد من المؤمنين وبالله التوفيق .

وقد يحتمل ان كانت الكنوز اجتمعت له بعلم الصنعة ، أن يكون لله تعالى خسفها لأنها كانت معموله لم يكن ذهبها ذهباً ، ولا ورقها ورقاً ، فلم ير منها لله تعالى لنبيه موسى صلوات الله عليه ولا للمؤمنين من قومه ، ولو كانت خالصة نقية لاشبه أن يورثها إياه ، كما أورثه وقومه أموال فرعون وقومه حيث يقول : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ (١) . كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴿ (٢) . وفي آية أخرى : ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ (٣) وبالله التوفيق .

(٣) الشعراء : ٥٨

(٢) هود : ١٠

(٥) الشعراء : ٥٩

(١) القصص : ٢٦

(٤) الدخان : ٢٨

وقال عز وجل في آية ثالثة : ﴿ وتعملون رزقكم إنكم تكذبون ﴾ (١) . فجاء في تفسيره عن النبي ﷺ : أنهم كانوا يقولون : مطرنا بنو كذا ، ومعنى هذا أنهم كانوا يرون النور موجباً للمطر ، فكانوا ينسبون المطر إليه ، ويعقلون عن خلق الكواكب ورتب أحوالها من الأنوار وغيرها ، وإن يزول المطر عند الانواء ، إنما يكون بارادة الباري سبحانه وتعالى ، فإن شاء أن يغير العادة أو يعاقبهم بالجذب ، فيحبس المطر عند الانواء لم يكن له ذلك مانع ، ولا كان لما يريد بهم دافع ، فذم الله تعالى من قولهم وغايتهم ، فقال : ﴿ وتعملون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (٢) .

فالمعنى - والله أعلم - وتعملون شكر ربكم أنكم تكذبون بمن يرزقكم وتنسبون ما يأتيكم إلى ما هو خلقه ، وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ، لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه ، فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى ، فقيل : ﴿ وتعملون رزقكم ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقاً لكم ، إنكم تكذبون بالرازق أي تضعون التكذيب مكان الشكر كما قال : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ (٣) . أي لم يكونوا يصلون ، ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة من المسلمين .

وفي هذا بيان ما أصاب العبد من خير أو شر ، فلا ينبغي له أن يراد من قبل الوسائط إلى أخرى العادة بأن تكون أسباباً وجهات لحصول أفضيته وأقداره إلى عبده ، بل ينبغي أن يراه من قبل الله جل ثناؤه ، ثم يقابله بما يليق به من شكر أو صبر تعبداً له وتدللاً ، وبالله التوفيق .

ويدخل في هذا الباب ان التاجر الكسوب الضارب في الآفاق إذا اجتمع عنده المال ، فما ينبغي له أن يقول : إنما أصبت المال يجهدي وجدي ، بل ينبغي أن يقول : وفقني الله للكسب فكسبت ، ورزقني فأصبت ، لأن لو شاء لأقعده عن الكسب ، ولو شاء لحرمه ما كان يأمله بالكسب أو قوته بعدما يحصل ، إذ ليس كل طالب يجد ولا كل واحد يبقى له ما يجده وهذا عادة كما ان خلافه عادة ، فإضافة الموجود إذا إلى السبب المختلف خرق وجهل ، وإضافته إلى السبب الذي لا يخلف وهو فضل الله ورحمته هي التي تحق وتلائم ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ فاذا مس الإنسان ضر دعائنا ﴾ (٤) .

ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ، أي ابتلاء ومحنة ليظهر إخلاصه ومعرفته إن كان من المخلصين العارفين ، وجهله وغباؤه ان كان من الأغنياء الجاهلين . فيصف النعمة إلى الله عز وجل ويقوم بشكرها ان كان من الأولين ، وينسبها إلى قوله وينفل عن شكرها ان كان من الآخرين ، فيستحق في كل حاله خيراً يحب عمله الا ان يمكن بالعفو عنه إذا شاء والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ أو لم تعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (١) . فاستجمل عزيزي سعة الرزق وضيقه يكوئان الا من قبل الله تعالى ، واستنكر الذهاب عن معرفة ذلك ، لأنه لا سبب بقدر العبد أن يصل إلى المال من حصته وقد لا يصل ، وذلك انه يشهد أن الموجب للغناء والوجد ليس ما يخلف من الأسباب ، وإنما هو مما لا تخلف من إرادة الله تعالى ، فانه ان يرد الغناء لأحد فيفتقر ، ولا الفقر لأحد فيستغني ، فمن كان به للإيمان من الإذعان للحق إذا ظهر له ، فهذا له كافي . وبان بقوله عز وجل : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٢) . ان الاعتراف بما ذكرت الانقياد له من الايمان والله أعلم .

وقال عز وجل في آية أخرى : ﴿ أفرأيت ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ (٣) . فتداخل وعز بتعريفهم نفسه وانه خالقهم ومنشئهم ، لأن لا يرى أحد منهم انه إذا أصاب أهله فولدت منه كان هو السبب بنفسه لوجود ذلك الولد ، فانه إذا رجع عقله ، علم انه لا يقدر على إغلاق ما به برحم أهله ان لم يعلق ، وان علق فلا قدرة له على تعليق من حال إلى حال ، ولا الزيادة في أجزائه ولا تركيب الولد منه ، وتصويره .

وإذا نظر في انه ليس كل من يواقع أهله يولد له ، ولا كل ما يعلق ينمو ، ولا كل ما ينمو يسلم ، علم أن إحالته كون الولد على السبب الخلف باطل ، فانه لا وجه لإحالاته على إرادة الباري جل ثناؤه وصيغته ورزقه وبالله التوفيق .

ثم قال عز وجل : ﴿ أفرأيت ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكهون ﴾ (٤) فأبان لهم أن ما يحرثونه فليس يثمر غرضهم فيه بنفس

(٤) الواقعة : ٦٤

(٣) الواقعة : ٥٩

(٢٠١) الزمر : ٥٢

الحرث ، وإنما يتم ببنائه ونموه وتزايد حقه ببلوغ غايته التي يتجاوز له عنهما ، وكل ذلك ما لا صنع لهم فيه .

وقد يحرث الواحد فيصل من حرثه إلى مراده ، ويحرث الآخر فلا يصل من حرثه على شيء مما كان في نفسه .

فينبغي لهم أن يعلموا أن الله عز وجل هو المنبت للحب والقلب له حالاً فحالا ، إلى أن يظهر الربيع ، ويبلغه غايته التي قدرها له .

ولا يقول أحد جربت فأصببت بل يقول أعاني الله فجربت ، وأعطاني بفضلها فأملت واستحب لكل من ألقى في الأرض بذراً أن يقول بعد الاستعاذة : ﴿ أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ (١) . بل الله الزارع ، والمنبت والمبتغ ، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد وارزقنا ثمره وجنبنا ضرره ، واجعلنا لا نعمك من الشاكرين .

ثم قال : ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جملناه أجاباً ﴾ (٢) . يعرفهم أنهم كانوا يتخذون المصانع كما ينزل عليهم من القطر ، حتى يجتمع لهم فيها ما يشربونه ، ويستمتعون به المدة الطويلة ، فليس لهم أن يظنوا أن تمكنهم من الماء ووصولهم إليه ، إنما هو من قبل أنفسهم ، فيمتدحوا لسعيهم على تحصيله ، ويظنوا أنه على ما يسألهم إياه من أهل الحاجة إليه ، وينبذ جوابه على من لا عنده ، بل ينبغي لهم أن يعلموا أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إليهم ويطول به عليهم ، وانهم لو اتخذوا مكان كل مصنعة مصانع ، وحبس الله عنهم القطر لم تفن عنهم مصانعهم شيئاً .

ولو أنزل الله عز وجل عليهم القطر فأبرزه ولم يفزره لما افادتهم المصانع شيئاً ، ولو أعززه ثم ما يمكن عدمه مع وجوده ، ووجوده مع عدمه . بل الواجب إحالته على المنان الكريم الفعال لما يريد ، ومقابلة فضله بالشكر . رجاء أن يديمه لهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ أفرايتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ (٣) فعرفهم أن النار التي يورثونها من الأشجار ويقولون : في كل شجرة نار ، واسمخذ المزج

(١) الواقعة : ٦٤

(٢) الواقعة : ٦٩

(٣) الواقعة : ٧٢

والمقار هو الذي ركبها فيما يورى منه لا يستطيعون أن يدعون أنهم أو آباءهم الأقدمين ، الذين هم أودعوها إياها وركبوها فيها ، وإذا كان ذلك من صنعه ، كما جمع المتفرق منها في الشجرة عند معالجة الابراء ثم اخراجها منه صنعه ، وإلى ذلك ، فهو الذي هداهم أبر النار من الشجرة ، ولولا ذلك لما علموا أن الشجر الأخضر الذي جعل قوامه بالماء المطفي النار محلا للنار ، وجامع بينها وبين الماء ، ولو شاء عند قعدهم الابراء أن يحبس النار فلا يثررها لهم لفعل ، وانه ليس كل قادح يورى وقادح ، وان أمعن لا يورى ، لم يحز أن يتوهم أن القدح موجب للابراء ووجب أن يضاف إلى ذلك إلى السبب الذي لا يختلف وهو إرادة البارئ جل ثناؤه وفضله وعطيته ، ولا يوصف الشجر بالمجيد من صفات الله تعالى ، وهو المجيد والمajد وبالله التوفيق .

وقال جل ثناؤه في آية أخرى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون ﴾ (١) فأخبر نبيه ﷺ أنه إن أصابته حسنة ساءت المنافقين القاعدين عنه ، ويتخطوا إصابتها إياك .

وإن أصابتك مصيبة فرحوا بها وقالوا : إنا سلمنا مما أصاب غيرنا لأنا احتطنا لأنفسنا بالتخليف عنه ، واستقلنا الأمر بواجبه ، وحسنا تدبيره ، فذمهم الله عز وجل وعاب قولهم هذا ، وأمر النبي ﷺ أن يخالفهم فيقول : ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا ﴾ (٢) أى خالقنا ، وهو في أيدي الملائكة ينظرون فيه ويعلمون منه إحاطة الله تعالى بما هو كائن من أمور عباده قبل أن يكون .

فلا سبيل لأحد الاحتراز من أن يصيبه ما كتب أن يصيبه ، ولا إلى الاحتراز ما لم يكتب أن يصيبه ، وبالله التوفيق .

وقال عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ .

ثم قال : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (٣) . يحتمل أن يكون المعنى : فاعلموا هذا وأعلمناكم هذا لكيلا تحزنوا على ما يفوت ، ولا تفرحوا بما أتى .

(٣) الحديد : ٢٢

(٢) التوبة : ٥١

(١) التوبة : ٥٠

وقد بينت فيما تقدم أن هذا حزن السخط وقرح التبذخ ، ويدخل على ذلك قول الله عز وجل موصولاً بما ذكرت : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (١)

فإبان أن الفرح الذي ذمه وأنكره هو الاختيال والتفخر به على من لا يؤت مثل ما أوتي ، وذلك فعل من يرى أن الذي تيسر له فيمن قبل نفسه . فأما من يعلم أنه إنما أنعم به عليه من لا يعجزه تعميم العباد كلهم بمثل ما أعطاه وخير وأكثر منه ، فإنه لا ينكر بما أوتيته على غيره ولا يروى أحداً كما لأجل أنه لا يرى له مثل ما يرى لنفسه على حمد ربه والتقرب إليه بما يديم له عوارف فضله .

وقال في آية أخرى : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ (٢) فأمر نبيه ﷺ أن يخبر أمته أنه ليس إليه من أمره شيء ، وأنه لا يقدر على أن ينفع نفسه ولا يضرها ، ليعلموا أنه إذا كان مع اصطفاء الله تعالى إياه برسالته لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فمن لم يكن له من الله هذه الأثرة وهذه المنزلة فهو من أن يملك مضر نفسه أو نفعها بعد ، وعن أن يملك نفع غيره أو ضره أعجز ، وبالله التوفيق .

وأما الحديث الذي جاء عن رسول الله ﷺ في القدر ، وإن خيره وشره من الله ، فقد روى فيه : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك » (٣) . ومعنى هذا وجوب البصر ، وإلى الله تعالى من الحول والقوة والاستسلام للقضاء والقدر وشرح الصدر به . ومعنى حلوه ومره ما سر وجف عن الطبع وساء وثقل على القلب والله أعلم .

(٢) الاعراف : ١٨٨

(١) الحديد : ٢٣

(٣) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٠ ، حديث رقم ٧٧ .

السادس من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالله واليوم الآخر

ومعناه التصديق بان لا يام الدنيا أخرى ، أي أن الدنيا متصفة وهذا العلم يوماً ينتقض صنعه ، وينحل تركيبه في الإعتراف بانقضائه إعتراف بإبدائه ، لأن القديم لا يفنى ولا يتغير ، وفي اعتقاده وانشراح الصدر به ، ما يبعث به على فضل الهبة من الله تعالى وقلة الركون إلى الدنيا والتهاون باحزانها ومضائنها والصبر عليها ، وعلى مضض الشهوات إحساساً وثقة بما عند الله تعالى من حسن الجزاء والثواب ، وقد ذكره الله عز وجل في كتابه ، فقال : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ (١) . وقال : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ (٢) . إلى غير ذلك من آيات سواها .

ومن أنكر اليوم الآخر ، فكانما أنكره من حيث أن الأفلاك ليست بمحدثه ، وأن العناصر وهي الماء والتراب والهواء والنار ليست بمحدثه ، كان أهم ذلك إلى أن أنكروا فناءها واقتصاصها ، وللمسلمين عليهم في نقض أصولهم ، وإفساد مقالاتهم ، وإبانة أن كل ما سوى الله فهو صنعه ، فلا قديم عليه ما لا يبقى لتأمله بعد وقوعه عليه موضع شبهة باذن الله وتوفيقه .

وقد كتبنا في الشعبة الأولى من اطراف ذلك ما أمكننا أن تقع به الكفاية ، وإذا ظهر أن كل ذلك حدث ، فامر به إلى محدثه بنفيه ما شاء ويديم له هباته المشاهدة له ما يشاء . فإن أراد إفناءه أو تغيير كله أو بعضه لم يمجزه ، فانه القادر على ما يشاء والفعال لما يريد . وقد أخبر عز وجل على لسان نبيه ﷺ أنه مفني على وجه الأرض ومبدل الأرض غير الأرض ، وأن الشمس تكور ، وأن البحار تسجر ، والكواكب تنثر فيزورها قائمة

صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ، وكل ذلك كائن على ما جاء به الخبر ، وعهد الله صدق وقوله حق . وأما ما وراء ذلك مما لم يخبر الله عز وجل عنه بشيء ، فأمره إليه ، وهو أعلم بما هو فاعله .

ولا ينبغي لنا أن نتكلم فيه بشيء لأن القول على كل حال بغير علم حرام ، فالاجترار به على الله جل ثناؤه أشد وأولى بالحرمة . أعني بهذا إن سائل سأل : أن السماء إذا طويت والشمس إذا كورت أو الكواكب إذا انتثرت ، أو عن الأرض بعد ركوب الناس الصراط وفراغها منهم ، ماذا يكون من أمرها بعد ذلك ؟ لم يكن له جواب يمكن القطع به ، والأولى بالمسؤول أن يقول : كما قال الرسول ﷺ للذي سأله عن الساعة : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) .

فإن مثل هذا لا يدرك إلا بخبر ولم يأتنا في هذه الأبواب عن الله جل ثناؤه خبر إلا أن في الجملة يخبرنا بانتقاض الأجسام ، فإن أراد الله تعالى إفناها وحبس البقاء عنها ، وفعل ذلك بها ، وإن أراد غير ذلك فله الخلق والأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

فصل

إن سأل سائل عن تفسير الساعة التي تكرر ذكرها في القرآن ، قيل : الساعة على وجهين : أحدهما الساعة الأخيرة من ساعات الدنيا ، والآخر الساعة الأولى من ساعات الآخرة ، قال الله عز وجل : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض ﴾ (٢) فهذا على الساعة الآخرة لقوله تعالى : ﴿ لا تأتيسكم إلا بغتة ﴾ (٣) .

وكذلك قوله : ﴿ يسألك الناس عن الساعة ﴾ (٤) فهو على الساعة الأولى من ساعات الآخرة ، وهو حين يبعث من في القبور لقوله تعالى : ﴿ يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ (٥) .

(١) ورد في سن ابن ماجة « المقدمة » باب ٩ ، ٦٣ . وفي صحيح البخاري « الإيمان » باب ٣٧ .

(٢) الاحزاب : ٦٣ (٤) الروم : ٥٥

(٣٢) الاعراف : ١٨٧

وكذلك قوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (١) . وهو
 بمنزلة قوله : ﴿ يوم يبعث الناس ويوم البعث ﴾ ، والله أعلم .

فصل

وإن سأل سائل : عن اليوم الآخر : ما حده ونهايته ؟

قيل له : اليوم الآخر إنما يراد به أيام الدنيا ، والدنيا ببعث للحياة .

قال الله عز وجل : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع الغرور ﴿ (٣) فالיום الآخر هذا ، هو آخر أيام الحياة الدنيا . فاذا نفخ في الصور وصعق من في الأرض فلم يبق منهم أحد ، فيومهم الذي انقضت فيه حياتهم الدنيا هو يومهم الآخر إذا نفخ في الصور نفخة الأحياء فبعثوا فذلك يوم القيامة وما بينهما لا من الدنيا ولا من الآخرة ، وهو البرزخ الذي ذكره الله عز وجل في كتابه فقال : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (٤) .

فإن قال قائل : لم لا قلت : ان نهاية اليوم الآخر تكوير الشمس ، لأن الليل والنهار حالان من أحوال الشمس ، فاذا كانت الشمس فوق الأرض فهو نهار ، وإذا كانت تحت الأرض فهو ليل ، فاذا بطلت الشمس فلا ليل ولا نهار ، يعلم بهذا أن نهاية أيام الدنيا تكوير الشمس .

قيل : لو كان هذا هكذا ، لكان البعث يقع في الدنيا لأن الشمس تكوير على أبصار الناس بعد البعث . وقد أجمع الناس على أن الموتى لا يردون إلى الدنيا ، فبطل بهذا أن يكون نهاية أيام الدنيا تكوير الشمس على أن الدنيا صفة للحياة - كما قلنا - فلا جائز أن تكون الحياة منقطعة بالإطلاق إسم الدنيا باقياً والله أعلم .

(٢) العنكبوت : ٦٠

(٤) المؤمنون : ١٠٠

(١) غافر : ٤٦

(٣) الرعد : ٢٦

فصل

إن سأل سائل عن يوم القيامة : هل يكون له آخر ؟

قيل : قد يسمى الله هذا اليوم يوم الدين ، وهو الحساب والجزاء ، فإذا لم يكن الجزاء متقضياً لم يكن يومه متقضياً .

فان قيل : فما معنى قول الله عز وجل : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ (١) .

قيل : لم أجمع الله المسلمين على ما ذكرت لم يحز أن يكون يوم الدين مقداراً إلا أن يقول قائل : إن له أياماً كل يوم منها خمسون ألف سنة من أيام الدنيا ، فيكون ادعى ما لا يعرف يوم القيامة ، ولا يقوم له عليه دليل . وإن احتاج إلى بيان ما يقع به النصل بين الأيام لا يمكن أن يقول : ان لها ليالياً ، وإن أراد أن يقول غيرها لم يحده

وإذا كان الأمر على ما وصفت ، بأن هذا التقدير إنما هو لمروج الملائكة والروح من الأرض إلى الله جل ثناؤه لأن مفتتح هذه الآية : ﴿ تخرج الملائكة والروح إليه ﴾ (٢) . في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون فيحتمل أن يكون هذا المعنى : انها تبارك من السماء إلى الأرض ثم تخرج من الأرض إلى السماء الدنيا من يومها ، فتقطع ما لو احتاج الناس إلى قطعة من المسافة لم يقطعوها إلا في ألف سنة مما تعدون ، وينزل من عند العرش إلى الأرض ثم يخرج منها إلى السماء من يومها .

ولو احتاج الناس إلى قطع هذا المقدار من المسافة لم يقطعوها إلا في خمسين ألف سنة مما تعدون ، وليس هذا من تقدير يوم القيامة يسأل ، وهو لا متصل بما قبله من هذه السورة أو بعده ، ولكنه من صلة قوله : ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ (٣) . فانه لما وصف نفسه بنبي المعارج بين ان هذه المعارج للملائكة ، فقال : ﴿ تخرج الملائكة والروح إليه ﴾ (٤) . أى إلى حيث جعله مضافاً لهم حول العرش في يوم كان مقداره ألف سنة ، ثم قال : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ (٥) .

فعماد إلى ذكر العذاب الذي وصفه في أول السورة بأنه واقع وليس له دافع

(٣) المعارج : ٢

(٢) المعارج : ٤

(١) السجدة : ٥

(٥) المعارج : ٥

(٤) المعارج : ٤

فقال : انهم - يعني الكافرين - يرونه بعيداً من العذاب ، وتراه قريباً ، ولم يرد به انهم يرون اليوم الذي تقدم ذكره بعيد ، لأنهم لم يكونوا يثبتونه أصلاً ، فكيف يستبعدون لا يعرفونه ويحددون كونه .

وهذا التقدير الذي يذكر للعروج لا يختص به وقت دون وقت . فان كان ههنا دليل يدل على ان المراد بقوله تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ^(١) يوم القيامة ، فالتقدير أيضاً ليس يرجع إلى يوم الجزاء ، وإنما يرجع إلى عروج الملائكة ويكون المراد بها يوم الدين ، تخرج إلى الله فتقطع من المسافة مالا تقطع الناس مثلها في خمسين ألف سنة لو عمروها ، وذلك لطول الطريق عليهم ، فان السموات إذا طويت لم يكن لهم يومئذ مصعد يفرون فيه ، وإنما يعرجون ، إذا عرجوا إلى حول العرش .

وذكر وهب - رحمه الله - ان ما بين الأرض والعرش خمسين ألف سنة من أيامنا وشهورنا وسنيننا ، أو يقال : ان الملائكة كانت تستطيع قبل اليوم أن تنزل إلى الأرض من أعلى مقام لهم في السموات وفوقها ثم تخرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة . فأما في يوم القيامة فلا تستطيع ذلك ، لأنها وإن كانت آمنة من العذاب ، فإن ما يشاهدونه من عظمة الله وشدة غضبه ذلك اليوم على أهل العباد من عباده يفرقوهم فيحتاجون للعروج إلى مدة أطول مما كانوا يحتاجون إليه مما قيل ، فقدّر الله ذلك بخمسين ألف سنة ، فهذا كما جاءت به الأخبار : من ان العرش على كواهل أربعة من الملائكة ، ثم اخبر عز وجل عن أنهم يكونون يوم القيامة ثمانية ، فقال : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ ^(٢) . وفي بعض الأخبار ان أولئك الأربعة يؤيدون بأربعة آخرين ، وهذا على ما يشاهدونه يوم يكشف عن ساق تغرهم فيحتاجون إلى من يمدّهم ويعينهم ، فيحتمل ان تكون حالهم في العروج مثل هذا .

فصل

فان قال قائل : رويتم ان رسول الله ﷺ سئل عن الساعة فقال : (ما المسؤول عنها باعلم من السائل) ^(٣) . وهذا يدل على انه عنده بها علم . ورويتم عنه أيضاً قال : (بعثت

(١) المعارج : ٤

(٢) الحاقة : ١٧

(٣) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » ٩ ، رقم ٣ ، وفي صحيح البخاري « الايمان » باب ٣٧

انا والساعة كهاتين (١) . وهذا يدل على انه ان كان عالماً بها ، فكيف يأثلف وان الخبر يمان ؟

قيل لهم : قد نطق عنه القرآن بانه لم يكن يعلمها ، ولا أحد من خلق الله عز وجل ، لانه قال : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي ، لا يحليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) .

ومعنى قول النبي ﷺ : (بعثت انا والساعة كهاتين) أي اني أنا النبي الآخر ، فلا يليني نبي آخر ، وإنما تليني القيامة وهي مع ذلك دانية ، لأن شرائطها متتابعة بيني وبينها ، وذلك انه أشار باصبعيه المتجاورين إيمانها .

الا ان توليد الأنبياء عليهم السلام قد انقطع فليس يتراخى الأمر بعده إلى ان ندرس شريعته ويبعث بعده نبي ، وإنما تلوه القيامة كما تلي السبابة الوسطى ، وليست بينهما اصبع ، وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها ، لأن ما بين الاشراف وما بين آخر الاشراف والساعة ، وإذا لم يكن معلوماً لم يوجب العلم باول الاشراف ولا بدونها العلم بالساعة والله أعلم .

وهذه الاشراف قد ذكرها الله جملة في القرآن فقال : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ (٣) . أي دنت ، وأولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي .

ثم بين النبي ﷺ بما يليه من الاشراف ، فذكر أن تلد الأمة ، ومنها : وتطاول الناس في البنيان ، وضياح الحكم ، وشرب الخمر ويكثر المهرج وتتابع الفتن ، وتظهر المعارف ، ويكون زعيم القوم أرذلهم ، ويكرم الرجل مخافة شره ، وقد كان هذا كله . وذكر فيض العلم وقد بدت أوائله ، وأمور آتاهم الله تعالى ذكرها في قوله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو تأتي بعض آيات ربك ، يوم تأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيماناً لم تكن آمنت من قبل ﴾ (٤) .

(١) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » ٧ ، رقم ٤٥٥ ، وفي صحيح البخاري « رقاق » باب ٣٩

(٢) الاعراف : ١٨٧ (٣) محمد : ١٨ (٤) الانعام : ١٥٥

أراد بهذه الآية طلوع الشمس من مغربها ، وقد خبر النبي ﷺ : انه كائن وأنذر تغلبه
الانزال ، وخروج الرجال ، وأن عيسى عليه السلام ينزل ويقتل الرجال ويكسر الصليب
ويقتل الخنزير ، وأن المال يفيض في زمانه فلا يقبله أحد ، ونطق القرآن بخروج الدابة
من الأرض ، وجاء ذكرها في الأخبار ، وكل ذلك مقبول عندنا مصدق به .

ومن استبعد طلوع الشمس من مغربها فليراجع دينه إن كان ذا دين ، فان اطلاع
الشمس من مغربها دون تكويرها ، فإذا كان قد اعتقد تكويرها وطبي السموات بأفلاكها
فلا يستبعد إطلاع الشمس من مغربها دلالة من الله على عباده : على أنه يناقض تركيب العالم ،
وحال ربطه ، وإن الأمر في ذلك قد دنا وتقارب

وإذا كان يعلم أن الله عز وجل ، إذا كان جعل الكواكب الخمسة حالا إذا بلغها
رجعت ، فلا تزال كذلك تبلغ في رجوعها الحد الذي وضعه لها ثم تأخذ في السير المستقيم ،
فليجز أن يكون الله تعالى جعل الشمس في مسيرها نحو المشرق ودنو طلوعها حالا يبلغها
عند دنو الساعة وإذا بلغت رجعت حتى تكون بمغربها ، فنظر فيه إلا أنه لم يطلع عباده
على تلك الحال ، ولم يعلمهم إياها كما أعلم حال رجوع الكواكب .

وإنما قلنا هذا لأنه جاء في الحديث أن تلك الليلة تطول ، ولا يعلم بها المجتهدون
وأصحاب الأفراد ، فانهم يفرغون من أورادهم ولا يتخلى الليل عنهم ، حتى يعودوا
فيستوفون أوراد ليلة أخرى ، فعملنا أن طلوع الشمس من مغربها إنما هو : من أن تغرب
الشمس فتسير سيرا مستقيما حتى إذا قطعت ما تحت الأرض وكادت تطلع رجعت وراءها
فتقطع ما تحت الأرض راجعة في قدر ليلة أخرى ، حتى إذا بلغت موضعها التي غربت منه
ظهرت فرآها الناس طالعة من مغربها ، فيكون عند ذلك كرجوع الكواكب مما ألقاه الله
إلى عباده ، وعلم رجوع الشمس مما استأثر به ، ولم يوقف أحدا على الحال التي هيأها له
وبالله التوفيق .

فصل

ثم إن الحكم في تقديم الاضراط دلالة الناس عليها وأخبارهم : بأن منها ما إذا وقع لم
ينفع نفسا إيمانها بتنبيه الناس عن رقعاتهم وحشهم على الاختيار لأنفسهم بالتنزيه والاثابة

لي لا يعامضوا بالخول بينهم وبين تدارك الفوارط منهم وليكونوا عند ظهور هذه الاشارات شيئاً فشيئاً كالمريض إذا صادف إشارات الموت عليه شيئاً فشيئاً ، فإنه لا يألوأ في ذلك الوقت أن يتوب ويوصي وينظر لنفسه ولورثته وسائر أصحاب الوسائل عنده ، ولذلك ينبغي الناس أن يكونوا بعد ظهور اشرط الساعة ، نظراً لأنفسهم وانقطاعاً عن الدنيا واستبصاراً بالساعة واستعداداً لها وبالله التوفيق .

فصل

وكل ما تقدم ذكره في إخفاء أمر الساعة على الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم ، وتقرد الباري جل جلاله بعلم وقتها مما لا يختلف فيه المسلمون ، وقد أكثر المنجمون الحوادث في وقت انقضاء العالم ، ولم يقل أحد منهم فيه شيئاً يعلم لكن بظن وحس ، لأن جماعتهم استبقوا ما قالوه من أحوال الكواكب ، فقال بعضهم : عمر الدنيا سبعة آلاف سنة بعدد النجوم السيارة لكل واحدة ألف سنة . وقال بعضهم : ثلاثمائة وستون ألف سنة بعدد درجات الفلك ، لكل درجة ألف سنة .

وذكرت الهند لذلك حساباً طويلاً جعلوا آخره أن تجتمع الكواكب كلها في آخر نقطة من الحوت ، فتعود كما كانت حتى تحركت من أول نقطة من الحمل ، وذلك أمد بعيد جداً ، وما بقي من أيام العالم عندهم في هذا الحساب ، أكثر مما مضى .

وليس هذا حكماً يمكن القطع به ، وإن كانوا في الحساب الذي حسبوه مصيبين ، لأنه قد يجوز أن يكون هذا الأمر محتاجاً إليه لتصير الكواكب في آخر الحوت ، كما كانت اليوم الأول في أول الحمل ان تركت ، وبلوغ هذه الحال والمصير إليها ، ولكنها لا تترك وذلك لرجل يقول : بيني وبين أن أبلغ سن أبي ثلاثون سنة ، فإن أبي بلغ مائة سنة ، وأنا ابن سبعين سنة ، فيكون صادقك في قوله ، ولكن على معنى أن بينه وبين أن يبلغ سن أبيه ثلاثين سنة ان ترك وعمر ، وقد يمكن أن لا يترك وبلوغها بل يخترم دونها . فلذلك ما قاله هؤلاء في انقضاء الدنيا فهذا سيئه .

وأيضاً فإن الذي يؤمنهم ان بلغت الكواكب آخر الحوت وعادت إليه كما كانت أن يكون لها تحرك جديد من أول الحمل ، فتجدد الدنيا دون أن ينصرم وما الذي أوجب

أن تنقضي الدنيا في ذلك الوقت فهذا مما لا دلالة لهم عليه ، فإنما هو ظن والظن كذب الحديث وبالله التوفيق .

وكل ما قلته في قول الهند والسيارة لكل نجم ألف سنة أو انه إثنا عشر ألف سنة بعد البروج ، لكل برج ألف سنة ، لأن هذا الحكم وإن كان ملائماً لوضع الأفلاك والكواكب ، فقد يحوز ، إذاً من بعض الآلاف أن يحدث قطع كالإنسان الذي يمكن أن يبقى لكل طبيعة من الطبائع الأربع التي فيه مدة من المدد ، إلا أنه إذا مرت به قسمة بعضها ، انقطع عمر ، فلم تبلغ قسمة ما بقي منها ، فهذا من أصلهم مما يعارضون به ، فيلزم أن يخبروا حدوث مثل ذلك على عمر العالم والله الموفق .

ويقال لهم أن الكواكب مختلفة الأحوال ، مختلفة القوى ، متفاوتة الاجرام ، وأقدارها وبعضها سفليه . فلم جعلتم للكواكب السفلى من السنين مثل ما جعلتموه للعلوي الكبير ، ولم كان الذي يصيب كل كوكب أو كل برج ألف سنة دون أن يكون ذلك أقل وأكثر . وما الدلالة القاطعة بهذا والموجبة له ، فلا يحدون إلى إقامتها سبيلاً . وفي ذلك ما أبان انه ليس في هذا الباب شيء يحوز القطع به ، وليس إلا أن يفوض العلم فيه إلى الله جل ثناؤه كما جاء به القرآن وبالله التوفيق .



السابع من شعب الايمان

وهو باب في الايمان بالبعث بعد الموت

يَعْبُدُ اللهُ تَعَالَى الرِّفَاتِ مِنْ أَبْدَانِ الْأَمْوَاتِ ، وَيَجْمَعُ مَا يَفْرُقُ مِنْهَا فِي الْبَحَارِ وَبَطُونَ السَّبَاعِ وَغَيْرِهَا حَتَّى تَصِيرَ بَيْهَيْشَتِهَا الْأُولَى ، ثُمَّ يَجْعَلُهَا حَيَّةً فَيَقُومُ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِأَمْرِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَحْيَاءَ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ حَتَّى السَّقَطِ فَإِنَّهُ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : إِنْ السَّقَطُ لَيُظَلُّ مُحْنَطِيًّا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ : ادْخُلْ ، فَيَقُولُ لَا يَدْخُلُ أَبُوَايَ (١) ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّقَطِ هُوَ الَّذِي تَمَّ خَلْقُهُ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : أَنَّ الْمَوْوُودَةَ تَحْبَسُ وَتَسْأَلُ ، ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتُ ﴾ (٢) . وَالسَّقَطُ التَّامُ خَلْقُهُ قُرِئَتْ مِنْهَا . فَأَمَّا الَّذِي لَمْ يَتِمَّ خَلْقُهُ وَلَمْ يَنْفَخْ فِيهِ الرُّوحَ أَصْلًا ، فَهُوَ وَسَائِرُ الْمَوَاتِ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ .

فَإِنْ سَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الْأَحْمَالِ الَّتِي تَضَعُهَا الْحَوَالِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قَرَعِ يَوْمُنْذٍ ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوُنَّا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ (٣) .

قِيلَ لَهُ : إِنْ أُولَئِكَ الْحَوَالِلُ قَدْ مَتْنَ بِأَحْمَالِهِنَّ مَرَّةً فَإِذَا بَعَثْنَ فَاسْقُطْنَ مِنْ قَرَعِ الْقِيَامَةِ اسْقُطْنَ الْأَحْمَالُ الَّتِي كَانَتْ أَحْيَاءَ فَمَاتَتْ بِمَوْتِ أُمَمَاتِهَا أَحْيَاءَ ، ثُمَّ لَمْ تَمُتْ إِلَّا سَقَطَتْ لِأَنَّ الْمَوْتَ لَا يَتَكَرَّرُ عَلَيْهِنَ مَرَّتَيْنِ لِأَنَّهُ لَا مَوْتَ فِي الْقِيَامَةِ وَإِنَّمَا هُوَ يَوْمُ الْحَيَاةِ .

وَأَمَّا الْأَحْمَالُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ أَحْيَاءَ قَطُّ وَمَاتَتْ الْأُمَمَاتُ وَهِيَ فِي أَحْوَاقِهِنَّ فَانْهَنَ إِذَا اسْقَطْنَهَا مِنْ قَرَعِ الْقِيَامَةِ اسْقَطْنَهَا أَمْوَاتًا كَمَا كَانَتْ ، وَلَا تَحْيَى لِأَنَّ لِلْأَحْيَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِنَّمَا

(١) لَمْ أَجِدْ هَذَا النَّصَّ فِي الْكُتُبِ الثَّمَنَةِ ، إِنَّمَا وَرَدَ بِهَذَا الْمَعْنَى حَدِيثٌ فِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ « الْجَنَائِزِ » حَدِيثٌ رَقْمُ ١٦٠٨ .

(٢) التَّكْوِيرُ : (٣) الْحَجَّ : ١

يكون اعادة الحياة إلى من كان حياً وأميت ، ولم يكن له في الحياة الدنيا نصيب أصلاً فلا نصيب له في الحياة الآخرة والله تعالى أعلم . وقد ذكر الله تعالى البعث في كتابه فقال ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ (٦) .

فأخبر الله عز وجل عباده انه يميت جمعهم ثم يحييهم ويبعثهم من قبورهم ويجمعهم في صعيد واحد ويحاسبهم بأعمالهم ويجزئهم بما وقرت ذلك عليهم بأشياء كثيرة منها : الاحالة على القدرة ، ومنها المعارضة بالابتداء ، ومنها التنبيه على ما يشاهده من لقائه احياء واحيائها بعد موتها . ومنها ما اخبرهم به من ارائه ابراهيم صلوات الله عليه احياء الأموات ، وقد نقلته عامة اهل الملك ، ومنها ما أجبتم عن الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت ، فقال لهم : موتوا ثم احياهم .

ومنها ما اخبر به من شأن اصحاب الكهف الذي ضرب على آذانهم زيادة على ثلاثائة سنة ثم احياهم ليدل يومهم عندما اعتر عليهم على ان ما اندروا به من البعث بعد الموت لا ريب فيه . ومنها ما اخبرهم به من قلبه عصا موسى عليه السلام حية ، ثم أعادتها خشبة ، ثم جعلها عند الحاجة الشجرة حية ثم أعادتها خشبة ، وقد اشترك عامة اهل الملك في نقله . فاما الاحالة على القدرة : فقلوه تعالى : ﴿ أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات

(٣) فصلت : ٢٩

(٦) الجاثية : ٢٦

(٢) التغابن : ٩

(٥) فاطر : ٩

(١) التغابن : ٧

(٤) يس : ٧٩

والأرض ولم يمي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿١١﴾ .

واما المعارضة بالإبتداء فقربته من هذه الحجة ، وهو قوله عز وجل : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ ﴿١٢﴾ وإنما فرق بين الاحتجاجين ان احدهما ما يبدأ خلق الذين وعدم ان يعيدهم كما بدأهم ، والآخر يخلق الأجساد التي هي أعظم وأكبر من الناس ، وكل واحد منها لا يلزم لمنكرى البعث اشد اللزوم . اما احدهما فلان الانسان احد الحيوانات الأرضية ، فينبغي ان يكون خلق الأرض نفسها بما يحيط بها من السموات اكبر من خلق الانسان مبتدأ ومعاداً . فإذا كان الله قد خلق السموات والأرض ولم يمي بخلقها ، فأولى ان يقدر على خلق الانسان مبتدأ أو معاداً .

وأما الآخر فلان الإعادة ليس منها إلا ما في الإبتداء ، فإذا جاز أن يخلق آدم من حما مسنون ، ثم جعله صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح فجعله لحماً ودماً وعظاماً وعروقاً وأعصاباً ، فلم لا يجوز ان يعمل الأموات منه ومن ولده تراباً ثم يخلقهم منه مرة أخرى بشراً كما خلق آدم اولاً .

وهاتان الحجتان على من اعترف الباري جل جلاله وابتدائه الخلق ، وأما من بلغت به الزناخة أن يحجد الباري جل جلاله فإنما تكلم في اثباته أولاً ، ولا يقدم على ذلك مالا يطلق النظر تقديمه عليه والله أعلم .

فان قال قائل : اليس الخزاف قد يعمل الحرة أو الكوز ، فإذا انكسر الإناء لم يقدر على إعادته .

فيقال له : ان اعادة الخزف تراباً لدنا كما كان قبل ، لا يمكن للخزاف ان يعمل منه ثانياً مثل ما كان عمله اولاً ! ألا ترى ان الاناء المقروغ من صنعته لو انكسر من قبل أن يصير فخاراً لا يمكنه اصلاحه واعادته ، ولكن تكسره بعدما صار فخاراً لا يعيده تراباً لدنا كما كان .

والإنسان إذا رسم عاد تراباً كالتراب الذي خلق أول انسان منه ، فلما كانت القدرة قد اقتت على الخلق الأول فلذلك يأبى على الخلق الثاني ، ألا ترى ان أواني الحديد والرصاص

والنحاس إذا انكسرت أو ادخلت النار فاذيت حتى عادت تبراً كما كانت أولاً ، لا تمكن الصانع الذي صنع منها تلك الاواني أولاً أن يصنعها منها ثانياً ، فلذلك البارئ جل جلاله لما خلق آدم من تراب ثم جعله تراباً يقدر أن يخلقه منه مرة أخرى وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن الخزاف لا يتهيأ له تغيير الطبائع التي طبعها الله تبارك وتعالى والله جل ثناؤه لم يطبع الماء على أن يؤلف بين خزفين كما طبعه على أن يؤلف بين آخر التراب ، فأنها يمتنع على الخزاف إعادة ما ينكسر عليه بتمجيز الله جل ثناؤه إياه عن ذلك كما يتيسر له ابتداء الصنعة باقدار الله تعالى إياه عليه ، والبارئ جل ثناؤه لم يمتنع عليه شيء ولا يعجزه فالإبتداء والإعادة في قدرته سواء وبالله التوفيق .

ومن ذكر امر الخزاف مبتدأ للاحتجاج به لا معارضاً ، قيل له : سواء ما ذكرت . ليس الخزف لولا صدع لم يقدر الخزاف على أن يلام بما هو من حبه حتى يعود كما كان ، ولو اتخذ آنية صغيرة لم يقدر أن ينمها ويكبرها على الأيام ويحدث كل يوم منها زيادة يسيرة ولا يختص بها مكان معلوم ، ولكنها تسبغ في جملتها ولو مرتين يظن آنية ، أو أظهرها فذهبت الأضراس لم يمكنه أن يعيدها ، والله يبرئ الشحاح والجروح ، ويجبر العظام المنكسرة ، ويكبر الصغير وينمي على ما وصفته ، ويعيد الاسنان بعد سقوطها ، فلا ينكر أن يعيد الأموات بعد بلو أو رموا أحياء . وإن كان الخزاف لا يمكنه أن يعيد الخزف المنكسر كما كان .

وأما الاحتجاج بما يشاهده من أحياء الله تعالى الأموات ، فإنه وقع تبليه أشياء : أحدها بالأرض تكون حبة تنبت وتثمر وتموت ، فتصير إلى أن لا تنبت وتبقى خاشعة هامدة . فأما حياتها فإنها تكون عند سخونة الهواء الذي جاورتها واسخانها إياها ، وانسياق الماء إليها وترطيبه لها . وأما موتها فإنها يكون عند اسخان الشمس إياها من غير ما اتصل إليها ، لأنها تصير عند ذلك كالفضار ، وعند برودة الهواء المجاور إياها وتبريده لها ، وصل الماء إليها أو لم يصل .

وهذه أحوال تتعاقب على الأرضين كل سنة ، فإنها تنبت وقتاً ثم تصير إلى أن لا تنبت وقتاً ، فإذا انبتت كانت حية تهتز ، وإذا لم تنبت كانت ميتة هامدة ، والله عز وجل هو

الف عل للامرين ، والمصرف لها على الحاليين ، فإذا قدر على ذلك لم يعجزه ان يميت الإنسان أو يسلبه معاني الحياة ثم يعيدها اليه ويحمله كما كان وبالله التوفيق .

فان قيل : ليس فيما ان الأرض لا تنبت في الشتاء ما يوجب لها حكم الموت ولا اسمه ، فان الشجر لا ينبت الأوراق ولا يخرج الثمار في الشتاء ولا يوجب ذلك لها حكم الموت ولا اسمه .

فالجواب : ان هذا السؤال ليس يطمئن فيما قلنا بالحقيقة ، وإنما هو معارضة لأن الشجر إذا لم يورق ولا يثمر في الشتاء فان الأرض ميتة لا تنبت ، وورق الشجر وثمره غير خارجين من أن يكون انباتها مضافاً إلى الأرض ، فإذا ماتت الأرض فلا انبات منها لا لنفس الشجر ولا لورقها ولا لثمرها ، فلم يحز أن يستبدل بعدم الأوراق والاثمار من الشجر على انها ميتة ، لان الشجر ليس باصل في نفسه وإنما هو مستعد من غيره ، فإذا انقطع المدد عنه لم يكن له ورق ولا ثمر ، ولا صح الاستدلال بذلك وبغيره من وجود الاثبات على ان الأرض تموت في الشتاء إذا كانت لا تهتز لما يساق اليه ، ولا شمس تنبسط عليه ، ولا يكون منها اثبات كما لا تهتز الميت بسبب من الأسباب ولا تأتي منه الأفعال التي كانت تأتي في حال الحياة وبالله التوفيق .

فان قيل : لو كانت الأرض ميتة لم تبق الأشجار الراسخة فيها حية ولما نت ثمرتها .

فالجواب : ان الأرض تموت كما قال الله عز وجل ، ولكن الشجر الراسخ فيها لا يموت بموتها . لأنه قد استمد منها حسناتها تتباقى به إلى ان يحيى الله تعالى الأرض ، بذلك أجرى الله تعالى العادة ولو توهمنا الموت مستمرّاً بالأرض لم نتوهم الاشجار الثابتة فيها حياة . ألا ترى ان الشجر الرطب ان اقلع في الربيع فقد يتباقى أياماً كثيرة إلى ان يغرس ثانية ، ولم استمر به القلع ولم يغرس ، يتوهم مع ذلك حبه فكذلك يبقى بعد موت الأرض ، وهي انقضاء الشتاء إذا كانت قد استمدت قبل ذلك من الأرض والماء ما يكفيها ، ولو استمر الموت بالأرض لم تبق ، كما استمر بها القلع لم تبق .

فان قيل : قد استمدت من الأرض قبل موتها ما يحتاج اليه ، فلم لا يورق ويثمر .

قيل : ان الاستمداد في المستقبل ينقطع ولا يتسع ذلك الموجود لها ، ولزوائد تحدث فيها . وقد يمكن ان يسبق من هذا الموضع فرق بين الشجر والأرض جواباً عما عورضناه

وان كنا مستغنيين عنه ، وذلك بان نقول : ان حياة الشجر بالماء في طراوته ورطوبته بما تيسر به بعروقه من الماء سوى ما يجري به الماء من اجزاء الارض وتيسره لذلك . فان انقطع في الشتاء فان ما اشتد به من قبل لا يزايله ، ولكن يبقى منه فيه ما تدوم عضاضته وطراوته فيه ، وإن لم يبلغ حداً يكون من ورق أو ثمر ، فلذلك لم يحز ان يوصف بالموت .

وأما حياة الارض فإنها تكون بتعديل الهواء الحار ليردها ، وتعديل الماء الذي هو رطب لنبتتها حتى يتسع عند اعتدالها لها الانبات . ومعلوم ان الشتاء إذا جاءت فإن هذا التعديل كما ينقطع منه شيء ، وكذلك لا يكون الانبات فاستحقت لذلك الوصف بالموت والله أعلم .

والثاني من الثلاثة الاشياء التي ذكرناها ان الله تعالى احنح على عباده قوله عز وجل ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ (١) . يعني نطفاً في الاصلاب والارحام فجعلكم منها بشراً تنتشرون . وقال : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٢) .

فاعلمهم انه إذا أخرج النطفة من صلب الاب قد صارت ميتة ، ثم انه عز وجل يجعلها حية فيخلق من خلق منها ، ويركب الحياة فيه ، فهذا حيات ميت في المشاهدة ، فمن يقدر على هذا لا يعجز عن أن يميت هذا الخلق ثم يعيده حياً ، وبسط هذا المعنى جل ثناؤه في آية أخرى فقال : ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (٣) ، وهذا أبلغ ما يكون على الاحتجاج في هذا الموضع وبالله التوفيق .

والثالث قوله عز وجل : ﴿ إن الله فائق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ﴾ (٤) . وذلك ان الحب إذا جف ويبس بعد انتهاء تمامه ووقوع الناس من ازدياده .

وكذلك النوى إذا تنامى عظمه وجف ويبس كاتا مسبيين ثم انهما إذا أودعا الأرض الحبة فلقهما الله تعالى وأخرج منهما ما يشاهد من النخيل والزرع حبا ينشأ ويثمر إلى أن

(٢) المرسلات : ٢١

(١) البقرة : ٢٨

(٤) الانعام : ٩٥

(٣) القيامة : ٤٠

يبلغ غايته ويثمر اجل في هذا المعنى للبيضة بفارق الناقص ، فيجري عليها حكم الموت ثم يخلق الله تعالى منها فرخاً حياً ، فهل هذا الاحياء الميتة وهو أمر مشاهد والعلم به ضرورة .
قال قائل : الحب والنوى والبيض كلها حية لبقاء الرطوبة الاصلية فيها ، فلذلك تثبت الحبة والنوى ويخرج من البيض الفرخ . ألا ترى أن البيض إذا استوى ، والحب إذا قلى ، فلم يكن من ذاك فرخ ولا من هذا نبات !

فالجواب : ان البيض ميت فلذلك يعفن ويفسد بتناول الزمان عليه ، والحسي لا يعفن بمرور الزمان ، ولا الفرخ الذي يحدث من البيض يحدث ولا حياة به إلى ان تنفخ فيه الروح فيصير حياً ، فلو كان البيض حياً لكان اذا انقلب فرخاً ينقلب فرخاً حياً . ولو كانت النطفة حية لكانت إذا انقلبت ولداً ينقلب حياً ، ولما كان الامر بخلاف ذلك ولم يكن بين الحياة والموت واسطة ، علمنا ان الحال السابقة لنفخ الروح لم تكن الا الموت وبالله التوفيق .

واما الحب والنوى ، فان الماء الذي هو سبب حياة الاشجار منقطع عنهما ، وليس يتوقع ان تحدث فيهما زيادة بعد ما جفا ويبسا ، فكانا كالميت الذي انقطع الغذاء عنه ، ولا يتوقع أن يكون له نشوء وثمر ، فلم يجز وصفهما مع ذلك بالحياة . وأما الرطوبة التي فيهما فانما هي الدهنية ، ومعلوم انه لا سبيل الى استخراج الدهن من اللب الرطب فعلما انه قد مات اذا صار ان يسيل منه الدهن فقد فارقتة المائية بوحدة فلا منه ماء ولا هو يفرض أن يستمد من الماء فيزداد مقداره ، فعلما انه قد مات وبالله التوفيق .

واما ان البيض بعدما يستوي والحب بعدما يقلى لا يكون من احدهما فرخ ولا من الآخر شجر . فجوابه ان ذلك ليس ان الله تعالى لا يقدر ان يخرج من هذا فرخاً ، ولا من ذلك شجراً ، فان الله عز وجل خلق آدم صلوات الله عليه من صلصال كالفخار ، ولكنه لم تجر العادة بذلك كما لم تجر العادة بان يخلق انساناً لا من أبوين ، ولو شاء لخلق ، كما خلق آدم صلوات الله عليه من صلصال كالفخار ، ولكنه لم تجر العادة بذلك كما لم تجر العادة بأن يخلق إنساناً لا من أبوين ، ولو شاء لخلق كما خلق آدم لامر مثله .

والأصل أن وجود خلق البشر من الله دليل قاطع ، على انه تعالى قادر على مثله وعدم

خلق الشيء منه ، ليس بدليل على انه عاجز عن خلقه لأنه إنما يخلق ما يخلق مختاراً ، فإن شاء يخلق على ما يقدر على خلقه ، وإن شاء لم يخلق وهذا في كل مختار ينشأ ، هكذا يكون ، لأن اتخاذ النجار باباً يدلنا على أنه يمكنه أن يتخذ باباً سواه ، فإن لم يتخذ سريراً لم يكن ذلك دليل على أن ذلك خارج من وسعه .

فكذلك وجود إخراج الله تعالى الفرخ من البيض غير أن المستوى والنجم والشجر من الجنة والنوى غير المقلي ، دليل قاطع على أنه قادر على إحياء الموتى كما هو قادر على ما ذكرنا . وعدم إخراجه من البيض المشوي والحب المقلي ، لا يدل على أنه ليس بقادر على ذلك ، وأقصى ما عسى أن يقال في هذا أنه يعيد إلى البيض المشوي والحب المقلي ما أخذت النار منها ثم يخرج من هذا فرخاً ، ومن ذلك شجراً ، وهو إذا قدر على هذا ، فقد قدر على إحياء البيض والحب والنوى .

وليس الكلام على أنه كيف يحيي ؟ وإنما الكلام على الإحياء نفسه ، فقد ثبت أنه ليس بخارج من قدرته والله أعلم .

وأما ما أراه إبراهيم صلوات الله عليه لما قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ (١) فهو ان أمره بأن يأخذ أربعة من الطيور ، فيقطعن ، ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهن . فرجع كل جزء إلى مثله حتى يلتئم جملة ذلك الطير ، ويرد الله الحياة إليها ، ويأذن له في إحيائه ، فيأتيه سعيًا ، فجعل إبراهيم صلوات الله عليه ، وأنجز الله له وعده .

وقد أدى جل ثناؤه مثل هذا ، الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، وكان معه حمار وركوة عصير وسلّة تين ، على ما جاءت به الأخبار . فأما الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام . وكان قد ألمات الحمار وأبلاه ، فعلم أن لبثه لم يكن يوماً أو بعض يوم ، ثم ان الله تعالى أحياء على عينه . وقال له : أنظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحماً . واعلم أن الله على كل شيء قدير ، فنبهه فأحيا الحمار على أنه ان يحيى تلك القرية بعد موتها وهي بيت المقدس لم يعجزه ذلك ، وقد يكون أبقي الله عز وجل التين

والعصير بحالهما ليدله بذلك على انه لو شاء لابقى الحمار بحاله أيضاً . ولكنه أراد أن يريه احياء الميت عياناً لئلا يعود فيقول ما قال ولا يستعبد من أمر الله تعالى ما تقدمه كمال القدرة وليكون ذلك حجة على إنكار البعث ممن شاهده أو بلغه .

فأما عصا موسى عليه السلام فإن الله تعالى قال لموسى : ﴿ ألقها يا موسى ﴾ ، فألقاها فإذا هي حية تسمى ﴿ ﴾ ، فجعل الله الحية لحماً ودماً . وخبر ذلك شائع في أهل الملك لا ينكره أحد منهم . فقال له : ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ فلما أخذها عادت عصاً كما كانت .

ثم ان فرعون جمع له السحرة ، فألقوا حبالهم وعصيمهم ، وخيل إليه من سحرهم أنها تسمى ، فقال الله عز وجل : ﴿ وألق ما في يمينك ﴾ ، فلما ألقاها تلقفت حبالهم وعصيمهم ثم عادت كما كانت . فليس لأحد أن يستبعد مع هذا احياء الله تعالى للأموات وبعثتهم ، ويكذب الرسل الذين هم وعدوا ذلك عن الله عز وجل امامهم وبالله التوفيق .

وأما أصحاب الكهف فانهم كانوا بين ظهري قوم يكذبون بالبعث ، فضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم أقامهم ، واغتر قومهم عليهم ليعلموا بحفظ الله تعالى أجسادهم مع فقدهم الغذاء تلك المدة الطويلة وصيانة شعرهم وبشرهم مع ذلك عن أن تأكلها الأرض ، وكل ذلك خارج عن العادة ، ان الله تعالى قادر على إحياء الموتى ، وإعادة الأجسام الهامدة كما كانت ، وان كان ذلك مفارقاً للعادة وبالله التوفيق .

فصل

ان الله جل ثناؤه كما دل بالآيات التي سبق ذكرها على جواز البعث ، فقد ذكر بآيات سواها على وجوبه ، فقال : ﴿ أحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ، ألم يك نطفة من مني عني ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ! ﴿ (٢) ﴾ . فذكره القدرة على إحيائه الموتى ، إحتجاجاً بها على من يحسب انه يترك سدى .

فدل على أن المراد بالآية انه يحسب الانسان انه يترك سدى . فلا يجزى بما يسعى، وان
الجزاء إذا لم يكن قبل الموت في هذه الدار وجب أن يكون في دار أخرى بعد الموت ،
وإذا كان الميت يعرض البلى فواجب أن يعلم أن يجيء بما يكون في دار أخرى بعد الموت.
وإذا كان الميت يعرض الى باعده حياً بعد ما مات ، ونقله من الدار التي قطعه عنها
إلى دار سواها والله أعلم . وقال عز وجل : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا
ترجعون ﴾ (١) ، ليهلكم فلا يأمركم ولا ينهكم فعل من يعث بالشئ فيريده ، لا لغرض
صحيح ، او انا خلقناكم : اغفلنا أمركم فلا نجازيكم ، أي فلا تحسبوا هذا ، فان العبث ليس
من صفاتنا ولا هو لائق بنا ، واعلموا انكم إلينا ترجعون ، أي إلى دار عددناها لنجازيكم
فيها بأعمالكم ، فدلهم بهاتين الآيتين على ان العبث واجب في حكمته كما دل بغيرها على
انه جائز في قدرته .

فان قال قائل ليس لكم أن تقولوا شيئاً مما قلمتموه لأنكم تتلون في كتابكم : ﴿ والسارق
والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ (٢) . ومن يعمل سوء يجزيه . ويروون أن أبا
بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : كيف الصلاح بعد هذه الآية يا رسول
الله ! فقال : يا أبا بكر ، الست تحزن الست تمرض ، اليس تصيبك البلوى ؟ قال : بلى !
قال : فان كل ذلك مما تجزون به في القرآن في قصة اليهود ، فبدل الذين ظلموا قولاً غير
الذي قيل لهم : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (٣) .
وفيه : ﴿ علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٤) .
وفيه : ﴿ أفتمننون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم
إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ (٥) .

وفي هذا إثبات الجزاء في هذه الدار نصيباً . وفيه : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا
كل ذي ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا ،
أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببعضهم ﴾ (٦) .

(٢) المائدة : ٣٨

(١) المؤمنون : ١١٥

(٤) البقرة : ٦٥

(٣) البقرة : ٥٩

(٦) الانعام : ١٤٦

(٥) البقرة : ٨٥

وفي آية أخرى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ ^(١) وفيه في حد المحاربين : ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ﴾ ^(٢) .

وفيه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ ^(٣) .

وفيه في قصة اليهود : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ ^(٤) . وفي قصة النصارى : ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ﴾ ^(٥) وفيها معنى إثبات الجزاء في هذه الدار ، وفيه في قصة اليهود : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ^(٦) .

وفيه في ذكر قوم نوح : وانهم اغرقوا لتكذيبهم نوحاً ، وذكر عاد وثمود ، وما بالهم لتكذيبهم هوداً وصالحاً وذكر فرعون وما ناله وملاء لتكذيبهم موسى ، وذكر قوم لوط وما أصابهم لعصيانهم لوطاً قد عرفتم .

وإذا تتبع ما في كتابكم من أمثال هذه الآيات كبرت ، وفيما تدعون انه حدود الله تعالى من فعلهم ، وقبلهم عقوبة لهم بكفرهم ، وسي ذرارهم ونعيم أموالهم ، وجلد الزاني ورجمه وجلد الشارب والقاذف وقطع (يد) السارق وقتل المرتد وتارك الصلاة . وقتل القاتل وجرح الجراح ما يني عن وقوع المؤاخذات في الدنيا ، وكذلك الكفارات التي يدعون أنها واجبة بالأسباب التي تذكرونها شاهدة عليكم بمثل شهادة الحدود .

وقال نبيكم ﷺ : (اليمين الفموس يدع الديار بلاقع من أهلها) ^(٧) . وفيما يروى أيضاً مما جاء : (ما شيء أعجل عقوبة من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تحقق البركة ، والبيعان ان صدقا وبيننا بورك لهما في بيعهما ، وان كذبا وكتما خفت بركة بيعهما) ^(٨) . وقد جاء في منع الزكاة بما يشبه هذا .

(٣) البقرة : ٢٧٩

(٢) المائدة : ٣٣

(١) النساء : ١٦٠

(٦) البقرة : ٦١

(٥) آل عمران : ٥٠

(٤) آل عمران : ٢٢

(٧) ورد في صحيح البخاري « كتاب الديات » باب ٢ وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٢٠٢

(٨) ورد بهذا المعنى في صحيح البخاري « الادب » باب ٦ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢

ص ٢١٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٢

فأما ما يدخل في باب حسن الجزاء والثواب ، ففي قصة إبراهيم ، وآتيناه أجره وانه في الآخرة لمن الصالحين . وفي غيرها من الآيات : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ (١) .

وفيه : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ (٢) .

وفيه : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٣) .

وفيه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ (٤) .

وفيه : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ (٥) .

وفي قصة زكريا وما استجاب فرد عليه : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٦) .

وفيه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ (٧) .

وفي قصة إبراهيم لما أمر بذبح ولده ، ثم اфدى بذبح عظيم : ﴿ سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ﴾ (٨) .

وكذلك في قصة موسى وهارون والياس وقصة نوح انه قال لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٩) .

وفيما يروى عن نبيكم ﷺ : (الصدقة تطفي غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في

(٣) المائدة : ٦٦

(٢) النساء : ١٣٤

(١) آل عمران : ١٤٨

(٦) الانبياء : ٩٠

(٥) هود : ٣

(٤) الاعراف : ١٣٧

(٩) نوح : ١٠

(٨) الصافات : ١٠٩

(٧) النور : ٥٥

العمر ، والدعاء يرد البلاء ، لا يزال بالعبد يخرج من ذنوبه ويجعله كيوم ولدته أمه (١) .

وهذا النوع أيضاً إذا تتبع وجد كثيراً ، فاخبرونا عن هذه المثوبات والمثالات ان كانت موجودة عاجلاً ، فما الذي يضطر إلى اثبات دار أخرى للجزاء ؟ وما معنى قولكم : ما لم يكن الناس مجربين بأعمالهم في هذه الدار ولم يحز أن يكونوا مهملين ، صح ان وراءها دار أخرى ينقلون إليها ويحزون فيها ، وأنتم تقولون بالسنتكم : من آمن وعمل صالحاً فهو عدل تقبل شهادته ، ومن عمي فهو فاسق رد شهادته ، ومن بر أباه ورثه لئن مات ، ولئن قتله حرم ميراثه . ومن تصدق بماله ، ومن منع خافه بركة ماله . وتتلون في كتابكم ، وتروون عن نبيكم ﷺ ما حكيناه وكتبناه ، وعن ذلك مما تركناه ، وأي احتجاج ثبت لكم في هذا الباب مع الذي ألزمنكم ؟

فالجواب : - وبالله التوفيق - : ان الجزاء بكل واحد من الحسنى والسوء على ضربين : فأما آية جزاء السوء فجزاء الإنتقام ، وهو الجزاء المطلق . والآخر جزاء الدفع والرجس وليس هذا جزاء بالاطلاق . وأما أحد جزاء الحسنى فالتفويض من الطاعة والصبر عليها ومقاسات الشدة . وهذا هو الجزاء المطلق . والآخر جزاء البشرى ويراد به الترغيب والتعريض ، كما يراد بالذي قبله الردع والترهيب .

فأما جزاء السيئة فما يكون كفاء لها ، وهو جزاء الإنتقام . وجزاء الحسنات انما يكون كفاء العبودية والطاعة ، وليس شيء منه بموجود في هذه الدار . وأما جزاء الردع والزجر وجزاء الخرض والترغيب فهو الموجود . وفي هذه وهذا ليس بجزاء مطلق ، لأن الترغيب من توابع الأمر ولواحقه . والترهيب من توابع النهي ولواحقه .

فإذا لم يصلح ان يكون الأمر بنفسه جزاء ، فيقف معنى الجزاء فيما يراد به البعث على فعل المأمور به ، وإذا لم يصلح أن يكون النهي حسن الضعيف ، معنى الجزاء فيما يراد به البعث على ترك السعي عنه واحد هذين الجزاءين ، إذا بما يؤدي اليه الاضرار من العذاب والآخر مبشراً لما يوجبه الدوام من الثواب ، وليس هذا الجزاء بنفسه مطلقاً لكن غير ضرب التقييد ، ومن وجه دون وجه .

(١) لم يرد الاقي سنن الترمذى « الزكاة » باب ٢٨

فيقال للاحسان الذي هو الترغيب جزاء بمعنى انه لم يكن مبتدأ ، وإنما وقع في مقابلة حين تقدم من المحسن اليه ، فكانت صورته صورة الجزاء .

ويقال للاساءة التي هي الترهيب جزاء بمعنى انها لم تكن مبتدأ ، ولكنها وقعت في مقابلة شر يسبق من المساء اليه ، فكانت صورتها صورة الجزاء ، وكل ما عده هذا القائل فقال فيها الآيات ، وروى فيها الأخبار فهو داخل فيما وصفنا ، انه للعصاة وردع وتقويم وترهيب ، ومنع لهم عن الاضرار ، والمطيعين حرض وترغيب وبعث على اليان والدوام ، فلذلك كان موضعه هذه الدار ، وذلك انها دار العمل والترغيب والترهيب فيما يحسن وبها يليق .

فأما جزاء الانتقام وجزاء التعويض ، فلا يكتفيان بدار العمل ، لأن الحياة مادامت باقية ، والمحسن العدل ، يعرض أن ينقلب مسيئاً فاسقاً ، والمسيء الفاسق يعرض أن ينقلب محسناً عادلاً ، والمؤمن يعرض أن يكفر ، والكافر يعرض أن يؤمن ، فلاحق أن يتأخر جزاء كل منهما الى أن تنقضي حياته التي هي نهاية لمدة تكليفه ، فيكون جزاؤه بحسب ما يختم به عمره ، ويلقى به ربه ، وهذا جملة الجواب عن السؤال وبالله التوفيق .

ثم التفضيل ان الله عز وجل ان أمر يقبل المرتين فقد جعل لبعضهم منه مخرجاً بالجزية ولجماعتهم بالرق إذا جرى عليهم ، فلو كان ذلك جزاء الكفر لما سقط بالجزية ولا بالاسترقاق لأن الكفر منهم مع الآخرين قائم ولان ذلك لو كان انتقاماً منهم لكفرهم لا مكن منهم ليقتلوا .

ومعلوم ان الأولين هم الذين وصل إلى قتلهم ويسلم الأكترون ، فلا يبقى وراء هذا إلا اباحة لدمهم ، والاباحة نفسها لا انتقام يقع بها حتى يكون معها اراقة الدم واهلاك النفس ، فما كان ذلك مما لا يوصل اليه ، وقد يعرض عند القتال ما يمنع عنه في حكم الله تعالى ، علمنا ان قتل الكفار ليس إلا ردعاً لمن يفضل السيف منهم عن الأضرار ، ولذلك قام أخذ الجزية والاسترقاق لما فيها عليهم من الذلة والصغار فقام القتل والله أعلم .

فان قيل : فالمقتول منهم كيف يرتدع ؟ قيل : إنما كان ردعه باعلامه انه مقتول على كفره ، والتعريض بالسيف ، فان ابى وقاتل فهو القاتل بنفسه ، والله أعلم . والقول في الحدود كلها على هذا ، وذلك إنما روادع بما فيها من إبلام المحدود عليه من الشين والعار ،

والكفارات أيضاً روادع بما فيها من نقصان المال واجهاد النفس، وليس منها جزاء الانتقام .
 ألا ترى ان الحدود كلها تسقط بالتوبة لوقوع الاستغناء بارتداع من كان عليه الحد
 عن ردعه ، والقتل ايضاً بعد وجوه يزول عن الكافر باسلامه ، يعلم انه المردع في المستقبل
 عن الاضرار ، فلما ارتدع سقط ، ولو كان عرض الانتقام منه لكفره ، لما نفعه الإسلام
 بعد ما حق القتل عليه . وأما كل جرم ذهب ما المحرم لأهله ، ولا يخلو ذهاب ماله من أن
 يكون ردعاً له عن الاضرار ، ولغيره عن مثل فعله .

الا ترى انه لو كان مات قبل أن يذهب ماله لما ذهب له لجرمه . وأيضاً فان ماله إذا
 ذهب لم يهمله الله تعالى ولم يجعله من نظره لأنه يجب على المسلمين ان لا يضيعوه ولا يغفلوا عنه
 فيموت جوعاً أو عرياً في شدة حرراً وبرداً ، ولكنهم يكفونه ويموتونه فيصير
 كالمتروك بعض ماله عليه ، وهو مالا بد منه ، وفي هذا ما يبين ان الغرض انما كان التقويم
 لا الانتقام والله أعلم .

وأما ما في باب الإحسان من قوله عز وجل في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ
 أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَأنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) . فإنها هو إشارة للبشرى والترغيب ،
 لأن الله عز وجل لما ركب فيه العقل الذي يتوصل به إلى معرفته ليستدل به معرفته
 وحده . فلما أراد عدوه القاء في النار توكل على الله ، وآثر ما لديه فلم يرجع عن دينه ، ولما
 اضطره إلى الجلاء عن وطنه هاجر وقطع الأقربين في ذاته وابتلاء الله في ابنه ، بان أمره
 يذبحه ، فأسلم وصبر فعصمه الله تعالى من النار ، وأورثه الأرض المقدسة وكثر ماله وأنمى
 ولده ، وجعل فيهم النبوة والملك ، وأزال عنه الأمر بذبح الولد ، وفداه عظيم ، وجمع
 عليه الاسم فلا يكذبه أحد منهم بل يؤمنون به ويطيعون ، وكل ذلك ترغيب له ما دام
 حياً في الدوام على الطاعة ، وترغيب لمن يتبع غيره في إثبات طاعة الله تعالى والصبر على
 ما يلقيه فيها من أذى يؤذيه وجفاء من يحفوه ، فهذا أجره الذي آتاه الله في الدنيا وهو أجر
 الترغيب والبشرى فيما هو قادم عليه في الدار الآخرة ، فهذا وكل نعمة أنعمها الله تعالى على
 احد من مال أو غيره فسيبله ما ذكرت .

الا ترى انه لا يخلو فيما أنعم الله عليه من فرائض تلزمه ، فلو كانت غرضاً لسعيه وعمله

(١) العنكبوت : ٢٧

الذي قدمه ، لكان من حقه ان يكون محلي وإياه يعمل به ، وفيه ما يريد ، ولما لم يكن كذلك ، بل كانت لله عليه مطالبات ، علم انها ليست غرضاً لما قدم من بر وطاعة ، وإنما هي من جهة ماله فيها من الرفق ترغيب وتحريض على الثبات والدوام ، ومن غيرها انعام مبتدأ سبيله ان يشكر الله تعالى ويؤدي حقوقه منه ، وما كان هكذا لم يستحق أن يكون جزءاً بالاطلاق ، وبالله التوفيق .

ونقول من غير هذا الوجه ان قتل الكافر ليس يجوز أن يكون جزاء الكفر لأن القتل يجب بكفر ساعة كما يجب بكفر مائة سنة جزاء له ، لان عظم ما في القتل موت القتل ، ثم الألم الذي يصل اليه قبل خروج الروح .

ومعلوم ان الموت لا بد منه ، فانه مدرك كل احد ، فلم يحز أن يقال : ان الموت جزاء له ولا حد سواه ، فلم يبق الا الألم ، وذلك المقدر من الألم مما لا يشكل على ذى عقل انه لا يوازي كفر مائة سنة ، فبطل بهذا ان يكون القتل جزاء لكفر الكافر .

وكذلك الزاني لو زنى ثلاثين سنة ، فبطل بهذا أن يكون القتل وإفساد حرم الناس وهتك استارهم وتلويت انساب اولادهم . والشارب لو شرب سبعين سنة وهو لا يحتقر اراد الإمام حده ، لم يزد على أربعين جلده .

والسارق لو سرق من الف مسلم أموالاً عظيمة وهو لا يقدر عليه أو لا يعلم به من خبأ واعترف ، فانه لا يزداد على ان تقطع يمينه لهم جميعاً . ومعلوم ان ما ينال كل واحد من هذين لا يوازي عظيم جرمه ، ولكنه وغيره مما تقدم ذكره يصلح لوقوع الجزاء والردع به . فعلنا انه لذلك لا للانتقام والله اعلم .

وكذلك له الذي تعود الحلف بالله تعالى باطلا ، فهو يقدم كل وقت عليها ، وجرى على ذلك سنين ، فاذهب الله تعالى ماله والقى بمؤنثه على غيره ، فليس يجوز ان يكون تعويضه للحاجة إلى غير مواز بالجزاء به على الله تعالى ، والحلف باسمه على مالا حقيقة له فعلنا ان ذلك ردع وترهيب وليس بانتقام ، وبالله التوفيق .

وعلى هذا ، فإن من اتاه الله تعالى بعد مقامات كانت له في طاعة نبوة أو ملكاً عظيماً أو جاهاً عريقاً ، وادام له الصحة والسلامة ، فليس يليق بشيء من هذا ان يكون غرضاً ، وإن كان إحساناً وبراً لان الذي كان من العبد عبادات اخلصها الله تعالى .

فهذه الوجوه كلها سوى ما يرجع إلى العبد من فوائدها ، حقوق الله تعالى تلزمه وتفترض عليه ، لانه تعالى ان أنبأ احتاج أن يقوم باعباء النبوة وينخرد لها ويصير على ما يستقبله فيها ، وإن ملكه احتاج إلى الزنا حد نفسه بالعدل بين الناس ، والاختلاف للضعيف من القوى ، وإقامة حدود الله تعالى ، واستبقاء حقوق الله تعالى ووضعها مواضعها ومجاهدة أعداء الله تعالى إلى غير ذلك ، مما يطول على التعديد والإحصاء ، وإن كثرت ماله أو بسط جاهه ، فعليه من كل واحد منها حق معروف ، وجملته أن يواسي من كل واحد منها غيره مما يحتاج إليه وإن صح بدنه لزمه في الصلاة والصيام والحج والجهاد فرائض الأصحاء . فعلمنا ان كل شيء من هذا لا يخلص التعويض فهو إذا ترغيب وتحريض كما ذكرنا وبالله التوفيق .

ثم المعنى في عامة ما وصفت ان هذه الحياة كلها وقت له ، فكان الجزاء واقعاً بعد نقض العمل لاحتلاله .

والمعهود من الناس كلهم انهم يوفون العامل أجره ، إذا فرغ من عمله ، فذلك عند جماعتهم حسن جميل ، فكانت معاملة الله تعالى بنحو ما عرفوه واعتادوه . بل كان ذلك أليق بأن يكون له حكماً لما ذكرت من أن العدل يفسق ، والفاسق قد يعتدل ، والمؤمن قد يكفر ، والكافر قد يؤمن .

ولا وجه لان يجمع الجامع في حياته بين العدالة والفسق من ان يثاب على عدالته ويعاقب على فسقه ، ولا للجامع في حياته بين الكفر والايان ان يعاقب على الكفر وثبات الايمان ، لان هذه المعاني متدافعة غير متلائمة ، أعني أن العدالة والفسق صفتان لا تجيئان معاً لأحد ، لكن العدالة تنسخ الفسق ان كان تقدمها ، والفسق ينسخ العدالة إذا تقدمه ، والكفر ينسخ الايمان ويحبطه ، والايمان ينسخ الكفر ويحبطه .

فإذا كانت هذه الأوصاف مناسخة متنافية ، لم يجوز لأحد أن يجمع لأحد بين الواجبات التي تجب فيها ، فيؤتى ثواب العدالة مدة اعتداله تماماً ، ويعاقب بالفسق مدة فسقه تماماً ، ويمعذب على كفره مدة ما كفر ، ويثاب إيمانه مدة ما آمن ، لأن من حكم الله عز وجل وموضوع سنة نبيه ، ان من فسق ثم تاب وأصلح حبط فسقه ، ومن أصلح وقتاً ثم فسق أحبط فسقه من الطاعات التي قدمها دون أصل للايمان بعدده حتى لا يجب له ثوابها .

وأما أصل الايمان فأمره على الاختلاف ، وإذا كان كذلك ، وجب أن يكون الجزاء بعد انقطاع العمل وتقضي مدته ، ثبت أن الله عز وجل قد أعد للجزاء دارا سوى دار العمل ، وأنه يوردهم إياها واجبا ليجزيهم بأعمالهم ، فيثيب المحسن ثوابا يشترك فيه من يشبهه كل ما اشترك منها عن حسن العمل ، فيعاقب المسيء عقوبة يشترك فيها من ينسبها كلما اشترك فيها من سوء العمل وبالله التوفيق .

ويقال للمعارض الذي حكمت قوله واجبته عنه : أرأيت العابد الخاشع الناسك الذي لا يعصي الله ، ولا يتخلو من وجع أو شدة جوع أو عرى في الحر والبرد بما يؤدي ، ويخفى وهو بصير ولا يفارق عادته ، إذا مات على هذه الجملة ، أليس انما مات ولم يستوف ثواب عمله .

أرأيت الفاسق الخليع المتهتك إذا رضى أيامه في ضروب المعاصي ، فلم يدع شهوة إلا قضاها ولا لذة إلا استوفاهما وهو في ذلك لا يصيبه غم ولا وجع ولا نيل ولا يزداد على الايام الا غناء وثروة وجاها ، ورفعة وهو لا يقلع عما فيه إلى أن مات على هذه الجملة ! أليس انما يثاب غير مجزى بعمله ، فما حال هذين الرجلين عندك ، أضاع الموت سمعيها ، فهذا خلاف الحكمة ، والله الموفق تعالى حكيم له يحزيان ، فأين تجربان الا ان يحينا مثقلا إلى دار أخرى فيجربانها كما تقول !

وإذا كان هذا هكذا ، بان العباد إذا كانوا متقاربين الحال ، فمنهم محسن يلقي في حياته خيرا ومسيء يلقي في حياته شرا ، ومحسن ومسيء لا يلقي واحد منهما في حياته ما يلقي بجماله . فواجب أن لا يكون الخير الذي يلقاه المحسن ولا الشر الذي يلقاه المسيء جزاء بالحقيقة ، وانما يكون الجزاء ترغيبا وتحريضا وبشرى للمحسن ، والشر ترهيبا وإنذارا للمسيء ، لأنه لا يجوز أن يكون بعض العمال يجزون وبعض العمال لا يجزون ، وإذا لم يجز ذلك صح انما تفاوت فيه القوم لم يكن جزاء بالحقيقة ، وانما كان الغرض منه شيئا آخر والله أعلم .

فان قيل : هذه المعاني التي ثبت عليها جوابك كلها معان شرعية ، وإنما يعترض عليك بالسؤال الذي مضى ، من لا يعترف بالشرعية ، فكيف يلزمه ما أمعنت فيه من الجواب .

قلنا : ان الاعتراض إنما وقع علينا بأشياء مستخرجة من القرآن ، وأخبار الرسول .
وإذا بينا ان مصادرها غير ما ظن وجوها ، ليس ما قدر ، سقط السؤال عنها .
وان أفردنا ما قال عن ان سنوه إلى ربنا ونبينا ، كان جوابنا له : ان وجوب ما خبر
الجزء إلى دار أخرى يتفرع عندنا عما وضع الله حكمه وشرعه عليه ، وذلك بما قام
الدليل عندنا على انه من عند الله تعالى . فان سلمت لنا معانه ما كتبناه لازم لك ، وان
أثبت كان الكلام معك في النبوة وما يشتمل عليها من الأوضاع والأحكام وأفراد البعث
بالكلام فضل وبالله التوفيق .

فصل

وسأل سائل فقال : رأيتم ان من كان في الدنيا خالط الطاعة بالمعصية ، وكان ينحل
جسمه ويعتل وقتاً ، فكيف يحشر ؟ فإن قلتم : يحشر أعظم ما كان جسمه فقد أجزتم أن
يعاقب على السيئات التي أخرجها في حال الدقة والنحولة أجزاء من بدنه حدثت بعد تلك
الجرائم ، ولم يكن لها في افتراقها نصيب .

وان قلتم يحشر النحل ما كان جسماً وأدقه ، فقد أجزتم أن يخلوا الأجزاء التي زادت
في بدنه عند العظم ، والعقوله من ثواب الطاعات التي عملها في تلك الحال ، ولو جاز
أن يخلو بعض أجزائه من الثواب لجاز نحلها ، كلها ، فان جاز ذلك فليجز أن لا
يبعث أصلاً !

فالجواب : انه يجوز أن يقال : الله تبارك وتعالى ان ادخله النار عذبه على كل ذنب
أثاه ، وهو نازل أصلاً ، وعلى كل ذنب أثاه ، وهو عند العظم . فاما إذا صار له إلى
الجنة ، فإنه لا ينحل عليه فيثبته بما أثاه من الطاعات ، وهو نازل أصلاً ، لأن التفضل
بالاحسان كان منه ، وان كان الاشراف في العقاب غير واقع منه ، فيجعل في الجنة عبد
ليصل إليه ثواب ما عمله من الخير في حال عبولته باسم الجزء ، ويكون بنعم أجزائه
الزائدة على ما كانت عندما عمل من الخير ، وهو نازل ابتداء ، فضل من الله تعالى لاجزاء
بالحقيقة والله أعلم .

وسأل سائل عن كافر قطعت يده في حال كفره ثم أسلم ، ومات مسلماً برأ تقياً
ويصار إلى دار الجزاء ، فان قلت تبعث يده ، فانما هو جزء من بدنه الذي كفر به ، فكيف
يكون موضعها دار الثواب ؟

وان قلت يبعث بلا يد ، فقد أجزتم أن يبعث بعضه ولا يبعث بعضه . وسأل عن
مسلم قطعت يده : لم ارتد ومات على ذلك ، أيبعث بيده أو بلا يد ؟ فان قلت يبعث
بيده ، فكيف تلج النار يد لم يذنب بها صاحبها ؟ وان قلت : بلا يد ، فقد أجزتم أن لا
يبعث بعضه .

فالجواب : ان كل واحد منها يبعث تام النمو ، كامل البدن . وأما الذي مات مسلماً
وقد كانت يده قطعت في حال كفره ، فإن إسلامه أحبط كفره عن جميع بدنه ، فالتحق
بذلك ان تورده مورداً سائر أعضائه ، ولا ينظر إلى اتصال اليد به ، وانفصالها عنه ،
لأن اليد تابعة للبدن لا حكم لها على الانفراد في طاعة ولا معصية .

وأيضاً فإن واحداً من الاسلام أو الكفر لا يقع باليد ، ويقع بالقلب واللسان كانت
يداً أو لم تكن ، فإن جاز أن تدخل الجنة يد كانت ، إلا أن الإسلام لم يقع بها ، وان
وقع بغيرها جاز أن تدخلها يد لم تكن عند الكفر أصلاً أو وقع الكفر بغيرها
والله أعلم .

وأيضاً فإن اليد المقطوعة من جملة البدن الذي كان حياً في هذه الدار ، فلا يخلو من أن
تعاد الحياة إليها في الآخرة ، ومعلوم أن حياتها في هذه الدار كانت حياة الجملة ، تدل
ذلك على أنها في الآخرة تكون حية بحياة الجملة ، لأن الله عز وجل قال : « كما بدأكم
تعودون »^(١) ثم يكون فرح الاسلام بردها إليه من جملة ثوابه ، وردها أيضاً إلى الكافر
بما يتغلظ به عذابه ، لأن ألم ما عيس اليد من النار زيادة ألم يصيبه ، وقد جاء في الحديث :
« ان ضرر الكافر في النار مثل أحد »^(٢) فهذا دون ذلك وأقرب منه وبالله التوفيق .

(٢) ورد في صحيح مسلم « الجنة » رقم ٤٤٠٠

(١) الاعراف : ٢٩

فصل

وسأل سائل عن قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (١) وعما ما جاء عن النبي ﷺ : « ان الحماء تفيض من القراء » (٢) ، وقال : قد جعل الله بهيمة الأنعام وكثيراً من الوحوش طعمة للناس ، أفرايتم ما أكل من لحومها أيعاد إليها يوم القيامة للحشر أو لا أيعاد ؟

فإن أعيدت فما حال الأبدان التي أعيدت تلك اللحوم ، انقرض منها غيرها أو لا ، فإن عوضت ، فكيف يجوز أن تصل لذة الثواب وألم العقاب إلى غير ما اكتسبت الطاعة والمعصية من البدن ، وإن لم يعرض أوجب ذلك أن يكون ابن خمس سنين إذا اغتذى اللحوم حتى كبر وصار ابن خمسين سنة ، فيرع منه تلك اللحم كلها ، وردت إلى مواضعها إن قصر كابن خمسين سنة ، ولذلك تدخل الجنة أو النار !

فإن قلتم : لا تعاد إلى الحيوانات لحومها التي أكلتها النار ، فكيف تحشر ولا لحم لها ولا دم ولا نفس ولا مخ ، وإنما تكون لها الحياة دون هذه الأشياء .

فالجواب : - وبالله التوفيق : انه إذا كان لها هناك تعويض فتعوض الحيوانات من لحومها ولحوماً غيرها ، أشبه بأن ترد لحوماً إليها ، ويعوض الناس منها غيرها ، لأن ما نما من أبدان الناس بتلك اللحوم ، فقد صار من جملة أبدان مكلفة أحسنت وأساءت ، فصارت بذلك مستحقة للثواب والعقاب ، فلا ينزع عنها ، وتعاد إلى البهائم فيكون بدن الانسان قد قلب بهيمه ، وعوض منه عوضاً لاحظ له في طاعته ولا معصيته ، فيخرج من ذلك من أن يحزى بخير أو بشر مع ما في ذلك من مخ المنحسر في دار الجزاء ، وإنما المسخ من سخط الله وعقوبته وخزيه ، فكيف يجوز أن تكون عاقبة الذي آمن وعمل صالحاً إذا ورد يوم القيامة أن يمسخ ؟

وأما البهائم فقد قيل : انها تحشر لتعوض ما خلص إليها من ألم الذبح ومهانة السليخ والتمزيق والأكل عرضاً ، ولا تحشر لمحاسبة ولا لجنة أو نار ، فلا حظ لها في الحسنات والسيئات . وإذا كان حشرها للتعويض ، فهي إذا عوضت اتمام أبدانها وتصحيح أجسادها ،

(١) التكرير : هـ (٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

والذت بذلك ونعمت فقد توفر على الحشر عوضه وبالله التوفيق .

قال قائل : لو كان البعث بعد الموت حقاً لما جاز أن يأمر الله العباد أو ينهاهم ، ويكلفهم ضرباً من التكليف من لدن آدم إلى زمان عيسى ، ولا يطلع أحد على ما هو فاعل بهم ، ولا يدري أحد منهم أنه قد أعد للمطيعين داراً مشحونة بالنعمة والكرامة ، وهي الجنة ، وأعد للعصاة داراً تتأجج نارها مشحونة بالنقمة والعقوبة ، ولو كان قد أعد لهم ذلك ، واطلع العباد عليه لوجب ذكره في كتب المتقدمين ، والأمر بخلاف ذلك ، لأن دعاء الأولين إلى الله جل ثناؤه كنوح وإبراهيم وموسى ما أخبر أحد منهم قومه بأن لهم معاداً يحاسبون فيه ويحزون بأعمالهم . وإنما كانت مواعيدهم كلها عاجلة كما قال نوح لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (١) .

وقال هود أيضاً لقومه : ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ (٢) .

فإذا تصفحت التوراة لم تجد فيها للمعاد ذكراً ولا عن الجنة خبراً . وإنما هو وعد الخصب والصحة والظفر على الأعداء وما يشبهها على المعصية ، وما ذكر أحد قبل عيسى معاداً . فكان أول من رمز فقال : ان المسلمين المنحطين من الدنيا المتفرغين لعبادة الرب يرقون إلى ملكوت السموات وان الائمة والظلمة يصيرون إلى أغوار ومغور مظلمة ، فيلقون فيها جزاء أعمالهم السيئة ، ثم جاء بعده نبيكم فلم يقنع بذكر الأرواح حتى أخبر ان لا بد ان يعاد بها ، ووصف دارين : أحدهما مشتملة على الملاهي والملاذ ، فذكر أنها للثواب .

والأخرى مشحونة بألوان المكارة والآلام فأخبر أنها للعقاب وهذا يدل على أن الأولين لم ينتهوا في طلب الرئاسة ، فما ينتبه به الآخرون ، فاقترضوا على المواعيد العاجلة اتكالا على انه ان اتفق لمن يطيعهم خير ، قالوا : هذا لطاعتك ، وان اصابه شر ، قالوا : هذا لعصيانك وان جرى الأمر بخلاف هذا فيكون للطبع ، أو يخلف عنه ما وعده ، قالوا : هذا الشيء أحدثه أو سريرة رديئة بين الله تعالى وبينه أتاه لوجده كان يفعل كذا ،

وان اصابته القاضي حسنة ويحلف عنه ما أوعد به ، فقالوا : هذا لحسن خلقه ، أو لأجل جاره الصالح ، أو استعطاف من الله تعالى إياه واستتابه ، ومثل هذا سائر موجود في العامة . فانهم إذا رأوا رجلاً صالحاً عندهم قد وسع الله عليه الرزق وأصلح حاله ، قالوا : هذا من بركة الصلاح والخير ، وإن رأوا خيراً مثله عليه شيء الحال ، قالوا : ألا ترون أن الله تعالى تحميه الدنيا لموته في الآخرة ما هو أسنا وأفضل ، ونسوا ما قالوه في غيره ، وإذا رأوا رجلاً كافي المعاصي والمفاسد ضعيف الحال شديد الفقر والحاجة ، قالوا : هذا من شؤم المعصية ، وإن رأوا آخر مثله موسعاً عليه قالوا : ان الله تعالى أفاض الدنيا ليجد منه الآخرة ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقي الكافر منها شربة ، ونسوا ما قالوا في غيره .

فعلى هذا كان أمر الأولين ، ثم ان الآخرين يذهبوا لوجه لآخر أبعد من أن يقع فيه حلف يحتاجون إلى أن يطلبوا له علة ، أو يذكروا له عذرة ، وما حالوا على مواعيد احله ذكروا انها تكون بعد الموت وإلى مدة لا يعلم انقضاؤها إلا الله تعالى ، وعلموا انه لا شيء أحب إلى الناس من الحياة ، وانظروا عليهم بحرصهم عليها ، وأخبروهم انهم في الدار التي ينتقلون إليها يحيمون حياة شر مدتها لا انقضاء لها ليكون ذلك مأتما لهم على اتباعهم والقبول منهم حرصاً على أن يحيموا أبداً في النعيم الذي بشروهم به ، قال : فهذا سبب وقوع خبر البعث بعد الموت فيما بين الناس .

فالجواب : - وبالله التوفيق - إن الله جل ثناؤه لم يحل أحداً من رسله من انذار قومه على لسانه بالبعث بعد الموت والمحاسبة والجزاء بالجنة والنار ، ونحن قد علمنا ذلك قبل أن يدعيه ولا يتوقف فيه ، وهذا المعارض لا علم له بما قال ، ولا يرجع فيه الا إلى ظن مجرد ، والظن لا يعني من الحق شيئاً .

وانما قلنا هذا لأن نبينا صلوات الله عليه النائب إلى بالاعلام الكثيرة الباهرة صدقة كما أخبرنا بالبعث بعد الموت .

فلذلك قد أخبرنا عن الله تعالى ما أرجاه من ذلك إلى أنبياء آدم صلوات الله عليه ، وعن النبيين قبله صلوات الله عليهم ، قبل موسى عليه السلام من الكتب قليلاً ولا كثيراً ، ولا شاهداً عن الذين كانوا يدينون بالدين ، ورجوا عليه أحداً أو أكثر مما يفزع إليه في

تصحيح قوله : « انه لم يجد في المعاد الذي يصفه ذكرا في التوراة ، ولا عنه خبرا عند اليهود ، فمن له بالتوراة حق نحاكمه إليها ؟

فلن الذي في أيديهم يدعون انه التوراة فيها مغازي موسى عليه السلام ووفاته وحزن قومه عليه ، وفيه من تعجيز الله وتكفيره وتشبيهه بخلقه ، وتكفيره هارون ، ورميه بالتخاذ العجل ما لا يمكن أن يكون منزلاً من عند الله تعالى .

فان كان ذكر المعاد لا يوجد فيها فلا خير فان الجناية في حد ما أنزل من عند الله واسقاطه أيسر منها في القول على الله وإضافة ما ليس في تنزيله إلى تنزيله ، علما اني سمعت عالماً من علماءهم يقول : ان الله تعالى يقول في التوراة لموسى اني رفعت القتل عن النافين من الذين اتخذوا العجل فأخرت امرهم إلى قوم علمه عندي ، فاذا جاء ذلك اليوم كنت يجزأهم بصيرا ، وسألت عن الكتب المنزلة بعد موسى ، فأخبرني ان ذكر البعث بعد الموت فيها كثير .

وان يوشع بن نون عليه السلام يسأل الله تعالى أن يريه إحياء الموتى فأمره ان يذهب الى واد سماه له ، فيه ما لا يحصى من رميم الأموات ، فأذن الله تعالى العظام المفنيه من الأبدان المتفرقة أن تحيي ، فكان كل عظم وكل مفصل يفقد منه مكانه ، ويرجع إلى موضعه من بدن صاحبه الى ان تتم جلته ، وتستوى كما كانت حتى أراه الأبدان كلها ناشرة ، ولم يذكر انه أحيأها .

الا ان المنكر للاحياء ، منكر للأعادة ، وقد ثبت وجود الخبر عنها . ما نقلته اليهود عن يوشع ، وثبت أيضاً ان يوشع سأل الله تعالى ارائه احياء الموتى ، فأجابه إلى ما يتقدم للأحياء من اعادة الأبدان ، ولم يجبه إلى الأحياء لالتقائه بما أراه ، فانه لم يكن يخفى عليه أن الأحياء بعد اعادة الأجساد ، كيف تكون .

ولم يكن يوشع ليسأل الله تعالى أن يريه احياء الأموات ، إلا بعد أن أخبره الله تعالى وأخبر موسى عليه السلام انه ما تحب عبادة بعد الموت ، فاذا أراد أن يتعجل النظر إلى ذلك ليطمئن قلبه ، وان كان قد تقدم منه الايمان به .

وقرأت أنا فيما يذكرون أنه الزبور الخبر عن يوم القيامة ، وجزاء الناس بأعمالهم في عدة مواضع ، فليس لأحد أن يدعي على الأنبياء قبل عيسى عليه السلام انهم لم يذكروا

لأهماتهم المعاد ولا ان يدعي على الانبياء قبل عيسى عليه السلام ، انهم لم يذكروا لامهم المعاد ، ولا أن يقطع بنفي ذلك اعتمادا على انه لم يجد في التوراة له ذكراً .

فانه لو ثبت ان التوراة المنزلّة كانت خالية من ذكر المعاد ، لكان وجه ذلك ان الله عز وجل اخبر موسى بالمعاد بوحى ، او جاءه خارجاً عن التوراة . فكيف وغير ذلك ثابت ، وليس شيء مما علومه عنه منه ثقة ، الا ما ثبت بغير خبرهم انه فيما انزله الله تعالى ، وبالله التوفيق .

وأيضاً فان بعض نسخ الكتاب الذي يدعون أنه التوراة هو الخالي من ذكر البعث بعد الموت ، فأما الذي ترجمه أحمد بن عبد الله للأنجيل وفيه شيء كثير ، ذكر انه مما انزل الله على موسى من صحف إبراهيم صلوات الله عليهما ، فما أكثر ما فيه من ذكر القيامة ، وقد قرأته مرات وعلقت كثيراً منه ، ولو لم يكن من هذا شيء ليس من المجتمع عليه أن نبينا صلوات الله عليه كان من أولي الأبواب ومشهوراً بالحكمة ، فان كان الخاسرون لا يشهدون له بالنبوة ، ومعلوم أن القاتل المكلف بأمر من الأمور ، الحريص على جمع الناس على الاعتراف لديه ، لا يأتي بما ينفرهم عن تصديقه ، ويضطرهم إلى تكذيبه ، وإنما يحتشد في تقريب قراء عليهم ، وإشرا به قلوبهم . فاذا كان هذا هكذا ، لم يجوز أن يكون محمد نبينا صلوات الله عليه ، أخبر بني إسرائيل بان نبينهم ومن تقدمه أخبروهم بمعاد فيه الجنة والنار ، من غير أن يعلم أن ذلك كان منهم ، أو مع علمه بانه لم يكن ، وإنما كانت مواعيدهم كلها عاجلة لا آجلة ، ولم يكن يخفى عليه وهو عاقل مميّز أنه إذا أخبره عن أنبيائهم وكتبهم خلاف ما يعرفون ، كان ذلك مدعاة لهم على تكذيبه وجحد نبوته ، وتنفيراً لهم عن الدخول في دينه .

فثبت انه انما أخبرهم بذلك بأن الله عز وجل قد أنزل ذكره وصفته في كتبهم على أنبيائهم لاستبانة ان ذلك حق ، ولم يكن هذا اليقين يقع له إلا أن يكون صادقاً في أن الله تعالى يرسل إليه الملك بما يشاء من أمره ، ويطلع على الغيب الذي يريد اطلاعه فصح ووضح انه كان رسول الله حقاً فوجب تصديقه عن خبراته والبعث بعد الموت وان الرسل المتقدمين أخبروا قومهم به جملتها ، فلزم تصديقه وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن خبر المعاد لم يزل فاشياً في الملتين وغيرهم من الأوائل المتقدمين ، وقد ذكر

سقراط أن الذين يعضون إلى الآخرة ، وقد أفنوا أعمارهم بالطهارة وسبيل القصد ، فإن الملك يقودهم إلى الأرض مشرقة عجيبة ، وما نبتت فيها من الأنوار والأشجار بخلاف هذه ، إذا كانت التربة والاحجار خلاف لتلك الاحجار ، ملمس متسقة ، حسنة الألوان كأنصاف اليواقيت والزبرجد ، وليس فيها بأكل ولا فساد ، ولا في تربتها عفونة ، وجميع ما تم من الحيوان ومن النبات بخلاف هذا كله .

وتلك الأرض مزينة بالذهب والفضة ، وليس لأولئك مرض ، وحواسهم بخلاف حواسنا ، واذهانهم بخلاف اذهاننا ومفهومنا ، وثم لهم ملائكة يكتبون ، ووحى وآثار سيئة ومعارضات عجيبة ، وان الذين عظمت ذنوبهم وجنایاتهم ، ونزلوا واجبات الشريعة فإنهم يحملون إلى نهر يلتهب بنار عظيمة ، ويغلي بماء وطین ، فيكونون فيها أبدأ ، لا يخرجون عنها ، وأما الذين برزوا في حسن السيرة وانهم يصيرون إلى فوق إلى المسكن التقى فيسكنونه ، ومن كان من هؤلاء قد آثر الحكمة ويبقى بها نقياً بالغا ، فإنهم يعيشون بالأبدان ، ويصيرون إلى مساكن لا تسهل الدلالة عليها . قال : فقد ينبغي لما قلت يحتمد الجهد كله حتى ينال في سيرتنا الفضيلة والفوز في الذكاء والفهم .

وهذا الذي قاله سقراط من أن من آثر الحكمة ويبقى بها ويمش في الآخرة بلا بدن ، يدل على ان عامة ما قدمه في غير هذه الطبقة من خير أو شر ، فإنما أراد به أن ينال أبدانهم ، فإنهم لو كانوا عنوة بلا أبدان لم يكن بينهم وبين المؤثرين للحكمة فرق .

وهذا هو الذي أنكره المعارض الذي حكيما اعتراضه وقده ، ورغم ان المسيح أول من رمز باعادة الأرواح ، ولم يرض الذي جاء بعده - يعني المصطفى نبينا ﷺ - بذلك حين قال : (إن الإيمان يعلو) (١) فيقال له : ان كان الأمر كما قلت ، فمن أين قال سقراط ما حكيما منه ، وهو على ما يقال : كأن قبل موسى عليه السلام بسنين كثيرة ، وإن أيامه كانت قريبة من عصر ابراهيم عليه السلام ، وهل يمكن أن يكون ما قال استنباطاً واستخراجاً له بعقله ، فان كان ذلك يمكن ادراكه بالعقول .

فما أحرى بالذي جاءوا به عن الأنبياء صلوات الله عليهم التصديق والتنزيه من أن

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

يكون زوروه أو افتعلوه ، ليكذبوا به العامة ويقودوهم إلى طاعتهم واتباعهم ، فإن مثل هذه التهمة انما تليق بمن قال قولاً لا يحيد له في المعقول أصلاً ، فاذا ذلت عليه العقول ، وشهدت بصحته الأصول ، فإن القبول إله منه يلزم ، وإن لم يكن نبياً .

فكيف يجوز ان يتهم فيه بالتزوير إذا كان نبياً ، أتى بالمعجزات ، وأتت نبوته بالدلائل والبيّنات ، فإن كان سقراط لم يقل ما حكيناه عنه من قبل المعقول ، وإنما قاله سماعاً من الدعاة إلى الله ، كانوا في ذلك الوقت أو قبله ، فقد بطل قول المعارض : ان أول من جاء بهذا الوعد محمد ﷺ .

وأما الذين تقدموا فإنما كانوا يعترضون على المواعيد العاجلة ، وقال سقراط عند موته إلى الله الابتهال في أن يكون نقلي من هذه الدار إلى الدار الآخرة نقلة سعادة .

وقال تاليس المليسي ، أحد السبعة الذين كانوا يدعون اساطين الحكمة : ان فوق السماء عالم مبدعة ، لا يقدر المنطق على أن يصف تلك الأنوار ، وذلك الحسن والبهاء ، وهي مبدعة من غير لا يدرك العقل غوره ، وهو الدهر المحض من نحو أخوه لا من نحو بدته واليه تشتاقي العقول والانس أشد الشوق ، وهذا الذي سميناه الديومة والبقاء في حد النشأة الثانية . فقد أثبت هذا الرجل أيضاً النشأة الثانية ، وقوله في السماء عوالم لا يقدر على أن يوصف حسنهما يوافق ما جاء من ذكر العرش ، وإن جنة عدن في ظلاله وبقربه ، وما جاء من قول الله جل ثناؤه : (أعددت لعبادي الصالحين . ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) (١) .

فكيف يجوز المعارض ان يقول : ان فكر المعاد ابدعه محمد ؟ وإن هذا القول مستعان على اسرائه قلوب العامة مما يعلم منهم من الحرص على الحياة ، وقد سبق محمد ﷺ إلى هذا من ذكرناه ممن لا يعد في أصحاب الشرائع وليس عند المعارض بموضع تهمة .

وقال هرقل العظيم من أهل افيسيوس : إن السماء في النشأة الثانية تصير بلا كواكب لان الكواكب فيها ذكر ، تهبط سفلاً حتى تحيط بالارض ، وتلتهب فيصير بعضها متصلاً ببعض حتى تكون كالدائرة حول الارض ، فكل نفس شريرة تبقى محيطة بها تلك النار

(١) ورد في سنن الدارمي « الرقائق » باب ٩٨ ، ١٠٤ .

وتصير الانفس الزكية المطهرة إلى السماء وتكون سماء نورية أشرف من هذه ، فيها آثار الباري عز وجل بلا متوسطات وهناك الصور والحسن المحض والقوة .

فقد أثبت هذا أيضاً النشأة الأخرى ، وقد سمي الله عز وجل الحياة الآخرة بهذا الاسم في القرآن فقال : ﴿ وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى ﴾ (١) وقوله : ان الكواكب تهبط سفلا ، وهو عين ما ورد به القرآن من قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ (٢) . وقوله في النار التي تحيط بالارض ، قول الله عز وجل : ﴿ نَارٌ أَحَاطَ بِهَا سَرَادِقُهَا ﴾ (٣) وقوله في الانفس الزكية انها تصعد إلى السماء وسماءهم انور وأشرف من هذه ، يدل على ان التي أشرف كواكبها تزول عنده فيضاهي ذلك ما في القرآن من قوله : ﴿ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ (٤) .

وقال سقراط : فإن الذين مروا من قديم الدهر ، ان الذي يصير إلى الآخرة من البقاء والاستبصار ، فانه ساكن الملائكة وعلى زرابيته الاكاليل ، وإن الذين يمضون إلى الآخرة وليس عندهم نقاء فانهم يكونون في الحمأة والبلاء ، لم يكونوا اخساء ولا اراذل ولا جهال ولكن أهل فهم وعقل وفضل وجلالة ، وأنا قد اجتهدت عند هذا كله في طلب الصواب وتيقنت تيقناً لا يتقدمه شيء ان مصيرى إذا اخرجت من هذه الدنيا انما هو مؤول في غابة الجود والخير ، ورؤية اقوام خيار ، فلم اعسر على مختلف من أخلقه من إخواني وساداتي لما أرجو اني القى هناك اخوانا وسادات خياراً ليسوا بديلاً من هؤلاء .

فقد أثبت سقراط ان ذكر الآخرة موجود سائر في الناس عند قديم الدهر ، وان الذين أخبروا بذلك كانوا أهل جلال وفضل وفهم ، وذلك تكفيت للمعترض في دعواه ، ان أول من جاء بذلك نبينا ﷺ ها هنا وما كتبناه من كلامه قبل هذا : إن أهل البقاء يصيرون إلى فوق وخلافهم يكونون في الحمأة والبلاء ، موافق لما في القرآن من قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلْيَيْنَ ﴾ (٦) .

(٣) الكهف : ٢٩

(٦) المطففين : ١٨

(٢) الانفطار : ٢

(٥) المطففين : ٧

(١) النجم : ٤٦

(٤) الزمر : ٦٧

وقول سقراط : إن الحياة تذهب بهم إلى نهر يلتهب بنار عظيمة وتغل بماء وطن ،
يوافق بما جاء غير واحد من الصحابة في قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (١) ، أنها تحمي
فتصير جهنم ويحبس فيها قوم من العصاة .

وقال بعضهم : سجرت أى سألت ، فقد يحوز أن يحيي ويرسل فتصير انهاراً جارية
يغل بعضها بنار وبعضها بماء وطن ، وبالله التوفيق .

فان قيل : كيف يحوز اثبات حكيم عن بقراط ولم يكن مصدقاً بالرسول ؟

قيل : إنما حكينا عنه قوله ، ويقال : إنه كذا وكذا ، فإنه قد أثبت لهذا الخبر انه
سمع ما قال إنه ليس بذلك ، إنما ادعاه المعارض من أول ابداع هذا الوعد ، إنما كان
نبينا ﷺ ، وانه تنبه لما كان لا يحوز أن يشبه له ، الا الاولون من الدعاة إلى الله تعالى ،
إذ كانوا هم المبتدئين للامر بهت وكذب ، وإن كان هذا مسموعاً متعالماً منذ قدم الدهر ،
ثم سواء كان سقراط مثبتاً لهذا الوعد مصدقاً لهذا القول ، أو منكراً بإياه ومكذباً به ،
وعلى أنه يمكن أن يكون مثبتاً له من جملة ما أخبرت به الرسل ، وإن كان غير معترف
برسالتهم لاستبصاره من دلائل العقل ما يوحيه في الجملة ، فإن لم يكن فيها التفصيل الذي
جاءت به الرسل والله أعلم .

وعلى ان سقراط فيما قيل من خبره كان مصدقاً بالرسول فيما خلا ثم صار إلى تكذيبهم ،
لا من حيث رأى : إنه لا يحوز ان يكون لله تعالى إلى خلقه رسول ، ولكن الامر يسير
دخلت عليه الشبهة من قبله ، وهو انه كان صاحب جهد في استنباط العلوم التي كانوا
يسمونها رياضية وطبيعية .

فلما شاهد الرسل أمل أن يجد عندهم من هذه العلوم ما يستغنى بها عن الجهد والطلب ،
وستبين له الحقائق وتزول عنه الخواطر والشكوك ، فلما لم يجد عندهم منها شيئاً استبعد
أن يكون الرسول الموحى اليه في البعد من هذه المعلومات كالعادة ، فصار ذلك سبباً
لاتهامه بإيهم ، وجحدته بثبوتهم .

ولو كان الله تعالى كتب له السعادة لعلم ان الله عز وجل إنما بعثهم ليوقف عبادة بهم
على ما خلقهم له من عبادته ولم يكلمهم ان يعلموا ما يبعث سقراط وأمثاله فيه أنفسهم

شيئاً ، ولا ذلك مما ينفعهم في الآخرة شيئاً ، وإذا كان هذا سبب كفره فلا ينكر أن يكون ما حكاه من أمر النشأة الثانية شيئاً سمعه من أحياءهم قبل أن يتغير رأيه فيهم ويكون منه ما كان وبالله التوفيق .

وأيضاً فإن في اشعار العرب في الجاهلية قولاً يثبت المعاد يوم الحساب ، فقال زهير بن أبي سلمى في قصيدته المعروفة :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى فمهما تكتم ، الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أم يعجل فينقم

وليس يمكن أن يكون زهير أخذ عن النبي ﷺ لأنه سبق أيامه ، فصح أنه أخذ عن مقدمه ، وإن علم العباد كان خاشياً عندهم والله أعلم .

وأما قول المعترض في المواعيد العاجلة ، فجوابه : أن المواعيد العاجلة أدل به على صدق الوعد لأنه ما لم يبق عن نفسه الثقة التامة بأنه صادق مصدق لا يقدم على أن يعد الناس على اتباعه ، ويوعدهم على خلافة مواعيد عاجلة ويصرف لنا مواقيتاً معلومة لأنه لا يأمن أن وقع فيها قال خلف : أن ينتهك ستره ويعامل ما يعامل به الكذابون المزورون . ولما كانت الدعاة إلى الله عز وجل المتقدمون فعلوا ذلك صح أنهم كانوا مسبقين لصدق أنفسهم ، فلا يمكن أن يكون اليقين وأفعالهم للامر قبل اخبار الله تعالى وإياهم بما أخبروا به قومهم ، فثبت بذلك احقاقهم ولم يحز بعد ذلك أن يتأول عليهم ما تأوله المعترض من أنهم قدروا في أنفسهم أن خلفوا ان وقع في ميعادهم وضعوا له علة ، فإنا قد بينا أن ذلك غير ممكن أن يكون منهم مع قطعهم بما ذكروا أنه كان بعينه وقت تنبئه بعينه ، وإنا يصلح طلب العلة لمن وعد خيراً منها أو وعد شيئاً منها لا في وقت بعينه .

وأيضاً فإن ما قال : أن كان مثله يمكن أن يكون من واعد وموعد ، فلم يقع في خبر أحد من الأنبياء عليهم السلام ، حلف احتاج إلى أن يطلب له علة لكن كل ما أخبر به وقع في الوقت الذي قال بعينه . لأن نوحاً عليه السلام ان انذر قومه بالاحتياج ودعا على قومه بأن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً . وقد كان ذلك بعينه ، فإن الله عز وجل أرسل الطوفان فعم الكافرين بالفرق ولم يتخلص إلا نوح ومن آمن به .

ولئن كان هود عليه السلام أنذر قومه بالبوار ، فقد حقق الله تعالى ذلك فأرسل عليهم ريحاً عاتية لم يبق منهم أحداً .

ولئن كان صالح عليه السلام أنذر قومه : ان آذوا الناقة ومسوها بسوء بعذاب قريب ، فعقروها ولم يخافوا عقبي جناتهم عليها ، فقد صدق الله تعالى وعده وأرسل عليهم الثالثة والرابعة صيحة أهلكتهم وان كان موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل عن الله تعالى أن يخلصهم من فرعون واستعباده إياهم ، ويورثه أموال قومه فقد فعل ذلك بهم . وما يتنبأ للمعترض أن ينص على وعد ووعد لني أخلف ، فاحتاج إلى أن يطلب لاختلافه علة ، فدل ذلك أن مواعيدهم لم تكن صادرة من جهتهم وإنما كانت تصدر عن عبد الله تعالى عاجلة كانت أو آجلة ، وبالله التوفيق .

وأما ما حكاه عن عوام المسلمين من اختلاف أموالهم في المطيع والعاصي ، إذا رأوا أحداً منها باحسن حال ، فإنما هو مثل ضربة للأنبياء عليهم السلام من مواعيدهم ، وقد ثبت أن الحال التي وضعها لم تكن لهم ، فبطل بذلك أن يكون مثلهم مثل الذي ضربه لهم ، وبأن ذلك انه وضع التشبيه غير موضعه ، وشك النبي بخلافه لا ينظره على ان ما قاله ليس بقدرح في الكلام الذي حكاه عن العوام لأن جميع ذلك حق .

وقد فاوت الله بين عباده في الأخلاق والأهم فجعل منهم من لا يصلحه الا الغني ، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر ، فهو عز وجل يوسع على المصلح الذي جبله على الصبر وسعة الصدر ، ليجزيه في الآخرة بصبره كما يجزيه بغيره من عمله .

والمفسد أيضاً قد يوسع عليه افساده لئبتيه حتى إذا قابل انعامه بالكفر ، جزاه بذلك كما يجزيه بغير ذلك من سيئات أعماله ، وقد يقر عليه تشقيقاً وتشديداً عليه . فيكون ذلك وبالا عجلة له ، فأبي شيء من ذلك قاله قائل فيمن ذكرت كان مصيباً صادقاً ، وعي حد السالكين سبيل المعترض هذا أيضاً ، لان المنجمين منهم قد ينظرون في حال الرجل ، فإذا وجدوها شبهة ضيقة قالوا : هذا من آثار رجل . وقد ينظرون في حال آخر ، فإذا وجدوها رفيعة صالحة ، قالوا هذا من عطية رجل :

فلو قيل لهم : هذا أيضاً مختلف ، قالوا : كلا ، فإن الرجل إذا كان في موضع من الفلك موافق أعطى ، وإن كان في موضع رديء أخذ ، فجعلوا لكل واحد من القضائين

حالا غير حال الآخر يتحززون بذلك قضاؤهم عن التناقض ولا ظناً منهم ينظرون إلى رجل متحز حذر يسلم ، فيقولون ما تفعل الحكمة باهلها ، ونظروا إليه لا يسقم ، وعلى اختلاف الحالات يسلم .

وقد ينظرون إلى متحز محاذر لا يسلم ، فيقولون الحمية ليست محدودة بالاطلاق . ولبعض الأطباء كتاب في الحمية مفرطة مهلكة للبدن ، ونسوا ما قالوه للآخر . وقد يرون رجلاً يتهاقت بالطعام والشراب وعلى ذلك يسلم فيقولون : ما أقوى طبعه وأحكم تركيبه . وقد يرونه لا يحتزز ولا يسلم ، فيقولون : هذا لانه لا يسامح نفسه ولا يحسن تدبيره ، ونسوا ما فضوا به للآخر .

فلو قيل لهم : ان هذه القضايا مختلفة متفاوتة مضطربة ، قالوا : كلا ان لكل قضاء من هذه حالا يخرج ، وبها يتعبد ، فيقال للمعترض : فان عوام المسلمين كذلك يقولون لك ويزعمون ان لكل مقام مقالا ، وان لكل قول حكيته عنا حالا ، فارض منا بما ترضى به من الأطباء والمنجمين وبالله التوفيق .

ويقال له ان المواعيد العاجلة لم تصدر من الأنبياء عليهم مصادر المواعيد الآجلة ، التي استبعدتها ، وإنما كانت عن جهة حجج ، أو لذكر الأنبياء على قومهم فانها ، اذا خفت كانت حلاله على صدقهم ، وكان يزول ما نفع الابعاد به بالموعدين تردعه لمن يأتي بعدهم من المُنذرين عن أن يكونوا أنبياء ، ان جاءهم بآية ، وبوعدهم على تكذيبه بوعيد ، وان لا يقنعوا منه بتلك الآية ، ويتربصوا لينظروا أيصدق وعيده أو يكذب ، وهذا بين في اقتصاص الله تعالى أيضاً الأمم الماضية ، لأنه قال في قصة نوح :

﴿ فكذبوا عبدنا ، وقالوا مجنون وازدجر ، فدعاه ربه إني مغلوب فانتصر ، ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ (١).

وقال : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم خمس مستمر ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إلى قوله : ﴿ فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصباً ، إلا آل لوط نجيناهم بسجر ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ (٢) . فقد أبان الله عز وجل المواعيد العاجلة انها كانت مؤكدة لبينات الرسل ، فلما لم تقبل منهم آياتهم أرسل عليهم من العذاب ما كانوا أنذروا به ، ليؤكدوا ذلك الآيات التي أعدوها في الدلالة على صدقهم ، أو تردع الجائين بعدهم عن مثل صنيعهم ، إذ كانت الدار دار التكليف والتعبد .

فأما هتك حرمة الإله المبدع الباريء المصور ، الخالق الرازق ، فليس يجوز أن يكون العرق أو الصحة أو الريح أو الخسف جزاؤه ، لانه ليس في شيء من ذلك أعظم من سلب الروح ، وذلك عقبي كل ذي روح ، آمن أو كفر . وما وراء ذلك فإنما هي روعة ساعة أو كرب ساعة .

ولا يشك أن ذلك لا يقابل عند عظيم حرمة الله عز وجل لإيواء الكفر مع تتابع نعمه التي لا تحصى ، الزمان الطويل والأمد البعيد ، ولا تكذبت رسله والكفر بهم ، فصح بذلك أن هذه المواعيد لم تكن تصدر من الأنبياء عليهم السلام ، مقابلة الحق من الإيمان والكفر ، ولا الإيمان والكفر بهم أنفسهم ، وإنما كانت تصدر منهم على الوجه الذي بيناه وشرحناه .

وإذا كان كذلك صح إنها يستخص به بالكفر بالله وبرسله ، هو شيء خارج عن هذه المؤاخذات العاجلة ، وإن جزاءهم بالحقيقة زائد عليها اضعافاً لا يحصى إلا الله تعالى ، فهو لا محالة واصل إليهم إذا صح ذلك ، ثم وجدنا الانذار ببادون ذلك ، لم يحز أن لا تكون الأبدان بهذا الا عظم وانفاً لأن ظن الخبر عنهم غرور لهم ، ولا يجوز على الغرور . فثبت انه قد وقع منهم وإن لم يوجد في كتبهم وبالله التوفيق .

وإذا قد ثبت لنا ، أردنا إثباته في مجيء الأنبياء عليهم السلام ، بذكر البعث بعد

الموت، في الجزاء بالأعمال ، علمنا أن الدائمين له ، يبعثون بذلك البروج على المتممين
المترفين من الملوك ، وذوي الأعمال العظيمة ليستأكلوا بها أعمالهم ، ويكتسبوا به
الوجاهة عندهم . وإنما يستعينون على اشتراب ذلك قلوبهم بما في الطباع من حب الجمال
والراحة ، والميل إلى الخفض والدعة ، فلا مكيدة لهم ولا لغيرهم من طبقات
الكمال أعظم من أن تصور ما يقرب عليهم ترك الصلوات ومنع الزكوات والعقول
عن غيرها من الطاعات ، وتسهيل سبيلهم إلى إتباع الشهوات ، ومن تأمل الحال عرف
صدق المقال وبالله التوفيق .



الثامن من شعب الايمان

وهو باب في حشر الناس بعدما يبعثون من قبورهم إلى المواقف الذي بين لهم من الأرض فيقومون ما شاء الله تبارك وتعالى ، فإذا جاء الوقت الذي يريد الله (به) محاسبتهم أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون ، تذكر فيها أعمال الناس ، فأتوها . فمنهم من يؤتي كتابه بيمينه ، أولئك هم السعداء . ومنهم من يؤتى كتابه بشماله ، أو وراء ظهره وهؤلاء هم الأشقياء .

قال الله تعالى في المطففين : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (١) . فأخبر ان الناس يكونون يوم القيامة واقفين على أقدامهم . وأبان ان لا حال لهم سوى القيام من قعود واضطجاع . قال : ﴿ وكل إنسان الزمناء طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تعملون ﴾ (٣) . وقال عز وجل : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٥) . وأخبر ان الذين يقرأون كتبهم يقولون : ﴿ مال هذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (٦) .

وإن من أوتي كتابه بيمينه يقول : ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ، إني ظننت اني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ﴾ (٧) .

(٣) الانقطار : ١١

(٢) الاسراء : ١٣

(١) المطففين : ٤ - ٦

(٧) الحاقة : ١٩ - ٢٧

(٦) الكهف : ٤٩

(٥) الجاثية : ٩

(٤) ق : ١٨

وقال : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ويصلى سعيراً ﴾ (١) .

فإذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التي يؤتوها حوسبوا ، قال الله عز وجل : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ (٢) . فدل ذلك على ان المحاسبة انما تكون ابتاء الكتب ، ولعل ذلك - والله أعلم - لأن للناس إذا بعثوا لا يكذبون ذاكرين لأعمالهم ، فان الله عز وجل يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، فإذا ذكروها وقفوا عليها : حوسبوا بها ، ولا يمكن ان يقطع في صفة المحاسبة بشيء لأنها لا تدرك إلا بتوقيف .

غير أنه جاء في الخبر عن النبي ﷺ انه قال : (ما من أحد الا وسيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان) (٣) .

وسمعت منهم من يقول : ان الملائكة يحاسبون بأمر الله والمحاسبة حكمة ، فلذلك يضاف اليه كما انه أضاف الحكم الى نفسه . فقال : ﴿ ألا له الحكم ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ (٥) الا انه جعل مع ذلك إلى العلماء عباده أن يحكموا بين الناس ، فالحكم له والعباد يتولونه باذنه . كذلك المحاسبة حقه وحكمة ، غير ان الملائكة يتولونها باذنه ، والله أعلم .

وقد قيل ان الله عز وجل لما قال : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٦) .

فخص هؤلاء بان الله لا يكلمهم يوم القيامة ، دل ذلك على ان من لم يكن في معناتهم ، فانه - تعالى جده - يكلمهم ، فان كان هكذا فانه سيكلم المؤمنين ويحاسبهم حساباً يسيراً بنفسه من حيث لا يكون بينه وبينهم ترجمان اكراماً لهم .

كما أكرم موسى عليه السلام في الدنيا بان كلمه تشريعاً له وتفضيلاً ، فان المقضوب

(٢) الانشقاق : ٩

(١) الانشقاق : ٩ - ١٢

(٣) ورد في سنن ابن ماجة « المقدمة » ٧ ، باب ١٣ ، ١٨٥ ، وفي صحيح البخاري « المتابع » باب ٢٥

(٦) آل عمران : ٧٧

(٥) الاعراف : ٨٧

(٤) الانعام : ٦٢

عليهم من الكفار وغيرهم ، فانه لا يكلمهم ، ويأمر الملائكة بحاسبتهم ليميزهم بذلك عن أهل الزلفة والكرامة والله أعلم ، ما هو فاعله .

وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه بأنه أسرع الحاسبين وانه سريع الحساب وقال : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) ، ف قيل : إن معناه محاسبة الخلائق لا يعتصم عليهم لكثرتهم وكثرة أعمالهم كما يحتاج المحاسب من البشر إلى مدة مديدة إذا كثرت الذين يحاسبهم ، لكنه حاسبهم جميعاً بنفسه لمحاسبة أحدهم ومحاسبة أحدهم لا يتناول عليه لكثرة عمله ، فيحتاج منها إلى وقت أمد من وقت محاسبة غيره ، ممن هو أقل عملاً منه ، لكن مدته تتسع لحاسبتهم معاً وإن كثروا ، وكان بعضهم أكثر عملاً من بعض .

وإن كان المعهود من محاسبة الناس بعضهم من بعض خلاف هذا ، ألا ترى ان مدته تتسع لأحداث خلائق كثيرة معاً كما تتسع لأحداث احدهم ، وقدرته على أحداث الخلق العظيم ، كقدرته على أحداث خلق صغير ، وقد بين جل ثناؤه ذلك في كتابه فقال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (٢) ، أي الا لخلق نفس واحدة ، وليس هذا للعباد ، ولأن أحداً منهم لا يقدر على الجمع بين بناء دارين وركوب دابتين ، وقطع ثوبين وخياطة قميصين .

وإذا تعاطى أحدهما لم يفعله إلا شيئاً فشيئاً ، واحتاج لاكثرهما شغلاً إلى زمان أطول ، لذلك تتسع قدرة الله تعالى لمحاسبة الخلق كلهم معاً ولا يحتاج لمحاسبة أكثرهم عملاً إلى زمان يطول هذا ان حاسب نفسه ، فأما ان أمر الملائكة بالمحاسبة ، فانه يقتصر لكل واحد منهم ملكاً بحسابه ، فيقتضي محاسبتهم في وقت واحد من هذين مما لا يقدر عليه غيره على مثله ، فيستحق في الوجهين أن يكون أسرع الحاسبين وبالله التوفيق .

فصل

وقد أخبر الله جل ثناؤه ، ان المحاسبة تكون بمشهد النبيين والشهداء ، فقال عز وجل : ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ (٣) .

(٣) النساء : ٤١

(٢) الزمر : ٦٩

(١) الانبياء : ٤٧

وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (١) .
 فالشهيد في هذه الآية النبي ﷺ . وشهيد كل أمة نبيها ، وأما الشهداء من قبلها فالأظهر
 انهم كتبة الأعمال بحضرة الأمة ورسلاها ، فيقال للقوم : ما أجبت المرسلين ؟ فيقول الرسل
 لله تعالى : ﴿ لا علم لنا إنك علام الغيوب ﴾ (٢) ، وذلك اما لأنهم نسوا ما أجيوا به ،
 واما لأن الهيبة تأخذ بجامع قلوبهم ، فيذهبون في تلك الساعة عن الجواب ، وإن كانوا
 ذاكرين له من قبل . ثم ان الله تعالى ينبتهم ويحدث لهم ذكراً فيشهدون بما أجابتهم به
 أمهم ، فهذا فيما بين كل نبي وقومه .

فأما كل واحد من القوم على الانفراد فالشاهد عليه صحيفة عمله وكاتباه ، فانه قد
 أخبر في الدنيا بأن عليه ملكين موكلين بحفظان أعماله وينسخانها ، واعلم ان جميع ما
 ورد عليه قبل أن يرد ، وعرف ان الملائكة أمناء لا يعصون الله ما أمرهم ، وانهم من
 خشيته مشفقون ، فريق بذلك كله ، واعتقد واعترف بأنهم لا يزيدون ولا ينقصون ولا
 يحرفونه ولا ينتمون ولا يغلطون ولا ينسون ، فلا حجة عليهم في موقف العرض والحساب
 أولى بأن يقام عليهم من شهادتهم وما كتبوه لهم وعليهم .

وليس هذا لان الله عز وجل غير محتاج في تثبيت الذنب على العبد ليعاقبه به
 إلى حجة وبينه ، ولكن الناس يردون القيامة ، وقد تباعد عهدهم بأعمالهم ونسوها
 وأغفلوا عنها . فقد كانوا في الدنيا ينسبون ما يكون منهم بأخف من هذه العوارض التي
 عرضت لهم .

فان تلك الحوادث إذا قوبلت بالموت والبلى ، ثم الإعادة والبعث ومشاهدة أهوال
 يوم القيامة ، كانت هباء .

ولذلك إذا قيل لهم : كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : ﴿ لبثنا يوماً أو بعض
 يوم ﴾ (٣) فإذا عرضت عليهم الصحف الناطقة بأعمالهم وشهد عليهم كتبها بما فيها ، ووقع
 لهم العلم بما كان منهم ضرورة ، وتبين لهم من الصواب والخطأ وفيما كان منهم ما كانوا في
 الدنيا جاهلين أو مستكئين فيه ، وذلك بما وعدهم الله عز وجل أن يفعله بهم ، لان الله
 عز وجل خبر في غير آية انهم يردون اليه فيثيبهم بما كانوا فيه يختلفون . فدخل من دخل

النار منهم عن بصيرة باستحقاقه إياها . ودخل من دخل منهم الجنة متحققاً بفضل الله تعالى عليه ، بما أهله له من الكرامة التي أوردته إياها يوم القيامة والله أعلم .

وأما أخبار الله عز وجل عن شهادة الجوارح على أهلها بقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وقالوا لجلودهم : لما شهدتم علينا ، قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٣) .

ومما جاء عن النبي ﷺ من قوله : ﴿ انكم مقدمون يوم القيامة ، فأول ما يتكلم من أحدكم فخذ ﴾ (٤) .

وإن ذلك والله أعلم - يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون زيادة على ما ينطق به كتاب بعض العصاة ، يريد الله تعالى به فضيحة يوم القيامة ، لانه في الدنيا كان يجاهر بالفواحش ويخلو قلبه عندهما من ذكر الله عز وجل فلا يفعل خائفاً مشفقاً .

لكن فعل من لا يرى عليه تقية بحال ، فيجزيه الله تعالى بمجاهرته الا ساعة تفحشه وفجوره على رؤوس الاشهاد ، ويكون معنى قول الله تعالى : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ (٥) . أي فعلتم فعل من يظن هذا .

كما قال في قصة يونس عليه السلام : ﴿ فظن أن لن نقدر عليه فنادى ﴾ (٦) . أي فعل من يظن انه لا يقدر عليه والله أعلم .

والآخر أن يكون هذا ، فيمكن أن يقرأ كتابه فلا يمترب بما ينطق به على هذا . انهم يقولون لجلودهم : لم شهدتم علينا . فهذا يدل على ان الذين يشهد عليهم جوارحهم ،

(٣) يس : ٦٥

(٢) فصلت : ٢١ ، ٢٠

(١) النور : ٢٤

(٤) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٥ ، ص ٣

(٦) الأنبياء : ٨٧

(٥) فصلت : ٢٢

بلغوا غاية التمرد ، فلم يذعنوا لشهادة الصحيفة ، ولا كاتبها ، فاستحقوا من الله تعالى
الفضح والاجزاء ، نعوذ بالله منها والله أعلم .

فصل

والحساب وإن كان الله تعالى ذكره جملة ، وكذلك جاء ذكره في كثير من الاخبار ،
فان في بعضها دلالة على ان كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب وهم المتوكلون .
فصار الناس إذا ثلاث فرق : فرقة لا تحاسب أصلاً ، وفرقة تحاسب حساباً يسيراً ، وهاتان
الفرقتان من المؤمنين ، من يكون أدنى إلى رحمة الله فيدخله بغير حساب . وليس يبعد
أن يكون من الكفار من يكون أدنى إلى غضب الله فيدخله النار بغير حساب . فتكون
الفرق أربعاً .

وقد جاء في الحساب اليسير عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : (اللهم حاسبني حساباً يسيراً ، قلت : وما الحساب اليسير ؟ قال : ينظر في كتابه
ويتجاوز عن سيئاتهم ، وأما من نوقش الحساب عذب ، قلت : فأي قول الله عز وجل :
﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (١) . قال ذلك العرض (٢) .
وقيل في معنى العرض : هو أن يقرأ كتابه ليقراه ويعرف ما كان منه من حسنة
وسيئة ثم يتجاوز عن سيئاته من غير أن يقال : لم فعلت هذا ، ولم تركت هذا . فيسأل
عن الحجة إذا سئل عنها لم يجدها ، فكان العذاب يحق عليه . ومناقشة الحساب أن يقول :
هلا فعلت هذا ؟ أم هلا تركت هذا ؟ ولم تركت هذا ؟ ويطلب بالحجة ، فإذا لم يجدها
عذب والله أعلم .

فصل

فأما الكفار فان الله جل ثناؤه قال : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ، وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (٣) .

(١) الانشقاق : ٨ (٢) لم يرد الا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٥ ، ص ٤٨

(٣) الصافات : ٢٤

وقال في سورة أخرى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم الجرمون ﴾ ^(١) وقال في الثالثة : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ ، ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ . ﴿ يعرف الجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ ^(٢) .

وفي آيات العدل التي ذكر بعد الفراغ من ذكر الحساب إبانة بالغة عن محاسبة الكفار وهذه الآيات لا اختلاف فيها تناقض لأنها آيات عامة الألفاظ واللفظ العام قد يطلق والمراد به بعض من يشملهم اللفظ اعتماداً على أصل قد يفرد بما إذا رجع المخاطب إليه وجد فيه دلالة الخصوص فيكون الموجود في تلك الدلالة ، اللفظ عام بمنزلة الاستثناء المقترن باللفظ .

وإذا كان هكذا احتمل الجمع بين هذه الآيات من وجهين : أحدهما أن الكفار يحاسبون بالكفر الذي كان طول العمر شعارهم وديارهم .

وكل دلالة من دلائل الإيمان خالفوها وعاندوها وذهبوا عنها ، فإن ينكثوا عنها يسألون عنها ويسألون عن الرسل وتكذيبهم إياهم وذهابهم عن الدلائل الدالة على صدقهم .

فأما تعاطيهم وتصرفهم ، فكل شيء أثاره على بما كان ممنوعاً من الملك أو معطلاً وكان قبيحاً في العقول فإنه يسأل أيضاً عنه ويحاسب به . فأما ما فعله على بما كان مطلقاً في قلبه وغير مطلق في الإسلام فهو إنما يسأل عن ملته التي كان يعتقدها بعد أن تميل عنها ، ويسأل عن ذلك الذنب نفسه كما يسأل المسلم عن ذنوبه كلها ، لأن سؤال المسلم عن ذنوبه ، أن يقال له : إذا كنت مسلماً وكان الإسلام لا يطلق لك هذه الأعمال ، فلم عملتها ، وما الذي هون عليك تعاطيها ويبعد أن يقال لمعتد ملة من الملك ، إذا كنت تعتقد ملة كذلك ، وكانت الأعمال مما يطلقها لك ملك الملة ، فلم عملتها وما الذي هون عليك تعاطيها ؟ لأنه يقول : هونها علي أن ملتي كانت توحىها ، وتمنعني من خلافها .

ولو قال هذا لكان يقال له : ولم اخترت تلك الملة وقد كان تعالى نسخها ودعاك إلى غيرها . وبعث بذلك الفير إليك رسولا ، وانزل به كتاباً وأمد ذلك الرسول من الدلائل بكذا وكذا ، فبان بهذا أن الرسول لهؤلاء إنما يكون عن كفرهم .

وما احرموا من الذهاب عن الحق ودلائله لا عن الذنوب ، الا ان تكون الذنوب بالصفة التي ذكرتها وإذا كانت هذه الجملة معقولة وجب أن يرجع إليها في تبين منازل الالفاظ التي وردت بها تلك الآيات ، فيقول - يعني قول الله عز وجل : ﴿ وقفوههم إنهم مسئولون ﴾ (١) عن الله ورسله صلوات الله عليهم ، وعن الايمان في الجملة ، وهو معنى قوله عز وجل : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ (٢) ومعنى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ (٣) ، أي لا يسألون عما فعلوه مما كانت ملهم وتقتضيها وتوجبها لما ذكرت .

وله وجه آخر : وهو أنهم لو فعلوا خلاف ما كانت تلك الملك توجبه ، لم يكن في ذلك بر ولا قرينة لهم مع تمسكهم بالملك الفاسدة ، فكيف يقال لهم : الا خالفتم ما كانت ملككم تدعوكم إليه ، ولو كانوا فعلوا ذلك لم يكن ذلك بانفراده برا ولا قرينة لهم . وأما المسلم فإنه يقال له : لم فعلت ما كان دينك لا يقتضيه ، لأنه لو كان فعل بخلاف ذلك ، لكان لزوم ما يوجبه دينه عليه برا له وقرينة ، فهذا فرق ما بينهما والله أعلم .

والوجه الآخر : ان الكفار يحاسبون بتعاطيهم كما يحاسبون بأصل دينهم ، ومعنى قول الله عز وجل : ﴿ وقفوههم إنهم مسئولون ﴾ (٤) ، أي محاسبون . ومعنى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ ومعنى ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين ، أي أن الملائكة لا تحتاج الى ان يسأل أحد يوم القيامة فيقول : ما كان دينك ، وما كنت تصنع في الدنيا حتى يتبين له باخباره عن نفسه ، انه كان مؤمناً أو كافراً ، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه ، منشرحي الصدور ، والمشركون سود الوجوه زرقا مكرويين ، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار ، أو تمييزهم في الموقف عن المؤمنين كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم والله أعلم . ومن قال هذا فيحتمل أن يقول : ان الأمر يوم القيامة يكون بخلاف ما هو كائن قبله على ما وردت به الاخبار من سؤال الملكين الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه ، يسأل عن ربه ونبيه ودينه ، أي إذا كان يوم القيامة ، لم تسأل الملائكة عند الحاجة إلى

(٣) القصص : ٧٨

(٢) الرحمن ٣٩

(٥) القصص : ٧٨

(١) الصافات : ٢٤

(٤) الصافات : ٢٤

تبيير فريق عن فريق عن هذا لاستبقائهم بمنظرهم عما وراءها والله أعلم .

ومن رأى بهذا الرأي فعسى أن يحتج بقول الله عز وجل : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (١) . فأخبر أنهم يسألهم عن أعمالهم ، وهذه الآية في الكافرين . ولمن ذهب المذهب الأول أن يقول : إذا سألهم عن أصل كفرهم ثم عن تحديدهم إياه في كل وقت باستزائهم بآيات الله ورسوله ، فقد سألهم عما كانوا يعملون ، وذلك هو المراد بالآية والله أعلم .

فصل

وإذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فان المحاسبة لتقرير الاعمال والوزن لظهارها معانيها دبرها ليكون الجزاء بحسبها قال جل ثناؤه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ﴾ (٢) ، ﴿ والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار ، وهم فيها كالحون ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأما هاهنا وما أدراك ما هاهنا ، نار حامية ﴾ (٥) .

وفي هذه الآيات كلها أخبار بوزن أعمال الكفار ، لأن غاية المعنيين بقول الله تعالى : ﴿ خفت موازينه ﴾ في هذه الآيات هم الكفار . فان في احديها ، ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ والظلم بآيات الله للاستزاء بها وترك الازعان لها .

وفي الثانية : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ (٦) .

(٣) الأعراف : ٨
(٦) المؤمنون : ١٠٣ - ١٠٥

(٢) الأنبياء : ٧٤
(٥) القارعة : ٩

(١) الحجر : ٩٢
(٤) المؤمنون : ١٠١

وفي الثانية : ﴿ فأمه هاوية وما أدراك ما هية ، نار حامية ﴾ (١) . فهذا الوعيد بالإطلاق لا يكون للكفار فإذا جمع بينه وبين قوله تعالى : ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) .

ان الكفار يسألون عن كل ما خالفوا فيه الحق من أصل الدين وفروعه ، إذ لو لم يسألوا عما وقفوا فيه أصل دينهم من ضروب تعاطيهم ولم يحاسبوا لم يعيدها في الوزن أيضاً ، وإذا كانت موزونة في وقت الوزن ، دل ذلك على أنهم محاسبون بها في وقت الحساب والله أعلم . ومن قال بالوجه الآخر بقي أن يقول : إنما وصف الله تعالى ميزان الكافر بالحفة ، وذلك يقتضي أن يكون له وراء كفره ، معاصي توزن معه ، لأنه وإن لم يوزن من أعماله إلا الكفر وحده ، فليس ذلك بدافع الحفة عن ميزانه ، فبطل الاستشهاد بهذه الآيات ، على أن فروع كفره موزونة ، فأما قوله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ (٣) ، فأما هو في أن اليسير من الطاعة لا يضع لفاعله ليكون قد ظلم .

فأما السيئة إذا لم يؤت بها فليس في ذلك ظلم يلحق صاحبها ، فدل أن ذلك يعزل عما أريد بالآية والله أعلم .

فان قيل : فان معاصي الكافر لا توزن مع الكفر ، فهل يعاقب عليها ؟ قيل : من قال بهذا القول فينبغي أن يقول : يعاقب الكافر المنهمك في السيئات على كفره عقوبة أغلظ مما يعاقب به الكافر المجرد للكفر عن تلك السيئات ، لأن كفره هو الذي حمله على ما أقترفه وجنأه ، ولا يعاقب على سيئة عقوبة مفردة ، هو الذي يليق بأن الكفار مخاطبون بالشرائع . وأما القول الآخر : فانه إنما يليق بأن يكونوا غير مخاطبين بالشرائع حتى يؤمنوا ، وفي القرآن ما يدل على أنهم مخاطبون بها مسئولون عنها ، محاسبون مجزيون على الإخلال بها ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ (٤) ، فتوعدهم على منعمهم الزكاة ، وأخبر عن المجرمين انه يقال لهم : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ (٥) ، فيقولون ﴿ لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا

(٣٠٢) الأنبياء : ٤٧

(٥) المدثر : ٤٢

(١) القارعة : ٩

(٤) فصلت : ٧

نكذب بيوم الدين ﴿١﴾ ، فبان بهذا ان المشركين مخاطبون بالإيمان بالبعث ، وباقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وانهم مسئولون عنها محاسبون بها ، مجزيون على ما أخلوا منها والله أعلم .

فصل

ان قال قائل : أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه لأنه قد يكون للمؤمن حسنات وسيئات ، فإذا قوبلت احدهما بالأخرى وجدت حقيقة الوزن ، والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن ؟

فالجواب : ان ذلك على وجهين : أحدهما ان الكافر يحضر له ميزان فيوضع كفره ، أو كفره وسائر سيئاته في إحدى كفتيه ، ثم يقال له : هل لك فن طاعة تضمها في الكفة الأخرى ، فلا يجدها فيشال الميزان فترفع الكفة الفارغة ، وتبقى الكفة المشغولة ، فذلك خفة ميزانه ، وهذا ظاهر الآية ، لأن الله جل ثناؤه انما وصف بالخفة الميزان لا الموزون ، وإذا كان فارغاً فهو خفيف .

والوجه الآخر : ان الكافر قد تكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس ورحم الضعيف وإعانة الملهوف والرفع عن المظلوم وعتق المملوك ونحوها ، مما لو كانت من المسلم لكانت قرباً وطاعات ، وهي تقع حسنات في أنفسها ، وإن كانت لا تسلم له عبادة وطاعة ، كما ان من المباح من الطعام والشراب واللباس . إذا تعاطاه وقع ذلك منه مباحاً ، فهذه الخيرات من الكفار فانها تجمع وتوضع في ميزانه ، غير أن الكفر اذا قابلها رجع بها ، ولم يخل من أن يكون الجانب الذي فيه هذه الخيرات من ميزانه خفيفاً ولو يكن له الأخير واحد وحسنة واحدة لا حضرت ووزنت كما ذكرناها .

ومن قال بالوجه الأول ، قال : لو احتسب جزاؤه حتى يوزن لجوزي بها جزاء مثلها ، وليس له منها جزاء ، لأن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان وقيل له انه كان يقرى الضيف ويصل الرحم ويعين في الثواب ، فهل ينفعه ذلك ؟ فقال : لا ، ان عبد الله ابن جدعان لم يؤمن يوماً قطرب أغفر لي خطيئتي يوم الدين (٢) ، أي لم يكن يؤمن بالله

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(١) المذكر : ٤٣ - ٤٦

والبعث والحساب ، فيدعوه ذلك إلى الاستغفار وسأله عدى بن حاتم عن أبيه مثل ذلك ، فقال : (ان أباك طلب أمراً فأدر كه) (١) ويعني الذكر .

فدل ذلك من ان خيرات الكافر ليست بخيرات له ، وإن وجودها وعدمها سواء . ومن قال بالوجه الآخر قال : قد قال الله جل ثناؤه : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) وليس في الآية فصل بين نفسين ، فبخيرات الكافر تحضر وتوزن ويحزى بها ، إلا ان الله تعالى حرم عليه الجنة فيحزى بها أن يخفف هذاب الكفر عنه .

وقد أخبر النبي ﷺ : (إن أبا طالب في صحصح من نار وعليه نعلان من النار تغلي منه دماغه ، ولولا مكانة لكان في الدرك الأسفل من النار) (٣) ، فقد بان إحسان أبي طالب إلى النبي ﷺ ينفعه من حيث يخفف عذابه فكان كل ذي حساب وخيرات من الكفار في هذا مثله .

وأما ما قال النبي ﷺ في عبد الله بن جدعان وحاتم طي فأنما هو في أنها لا يدخلان الجنة ولا ينعمان بشيء من نعمها والله أعلم .

وهذا الثاني وجه فاسد ، لأن الله عز وجل إذا خفف عن الكفار العذاب الذي ذكره جزاء الكفر كان ذلك مغفرة منه لبعض الكفر ، وقد أخبر الله عز وجل في كتابه انه لا يغفر ان يشرك به ، فلو جاز مع هذا الخبر ان يغفر بعض الشرك ، لجاز معه أن يغفره ، وذلك ممتنع .

وفي هذا بيان خبر أبي طالب صحيح ، لا يجوز إثباته عن النبي ﷺ إلا أن يكون معناه : ان جزاء الكفر من العذاب واصل اليه ، ولكن الله تعالى وضع وراء ذلك عنه الوافا من العذاب على جنابات جناها سوى الكفر تطيباً لقلب النبي ﷺ ، وثواباً له في نفسه لا لأبي طالب ، ولا في هذا القول احتساباً بحسنات الكافر ، وتلك ليست بحسنات منه في الحقيقة .

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة . (٢) الأنبياء : ٧٧ .

(٣) ورد في صحيح البخارى « مناقب الأنصار » باب ٤٠ ، وفي صحيح مسلم « الايمان » رقم ٣٥٧ ، وفي مسند الامام أحمد بن حنبل ج ١ ، ص ٢٠٦ .

ولا لقائل أن يقول : وجود الحسنات منه كوجوه السيئات من المؤمن لأن الحسنات طاعة والكافر لا يثب الجنة دار المطيعين والكافر لا طاعة منه ، وأما السيئة فهي معصية المؤمن ، فثبت الأمر الذي يتصرف العصيان اليه ، فصحت السيئة منه ولهذا جاز أن يستوجب بها النار .

وإذا كان كذلك صح ان حسنات الكافر لا يجوز أن توزن ليجزي بها خيراً ، وأقصى ما يكون أن يقال فيها : انها توزن قطعاً بحجته ، وعلى معنى أن يقال : ان كانت خيراً بلى هذه فقد وزناها الا ان الكفة لما قابلها رجح بها واحبطها ، فما ذلك بعد هذا فأما على غير هذا الوجه فلا يمكن أن تكون موزونة والله أعلم .

ولا يصح لأصحابنا من هذا الوضع قول سوى هذا ، لأنهم ان قالوا : ان تثبت حسناته كما تثبت سيئات المؤمن ، وانها تحبط بقدرها من سيئات الكافر كما تحبط سيئات المسلم بقدرها من حسناته ، فإذا تهيأ لهم أن يقولون إذا لم يبق للكافر سيئات وخلص الأمر إلى كفره . فإن قالوا : لا تحبط حسناته من أصل كفره شيئاً ، فإذا ثواب حسناته وقد حرم الله عليه الجنة ، وإن قالوا تحبط ، لزمهم أن يقولوا ان حسناته إذا ترادفت لم ترك يحيط من أصل كفره الشيء بعد الشيء حتى يحيط جميعه .

فإذا قالوا : كذلك يكون ، قيل لهم : أن يكون هذا الكافر بعد ذلك ولا دار إلا الجنة أو النار ، ولاحظ في واحد منها ، فيضطرون عند ذلك إلى ترك هذا القول ، ولا يعرض لهم مثل هذا في سيئات المؤمن ، لأن الله تعالى لم يحرم النار على المسلمين ، ما حرم من الجنة حق على الكافرين فهم يقولون : ان سيئات المؤمن تحبط حسناته التي هي دون الايمان ، فإذا لم يبق منها شيء ازهقت نفسه بالنار ، ومن أجاز من المتقدمين أن تحبط السيئات ثواب أصل الإيمان . قال : إذا لم يبق من ثوابه شيء فإن كانت له مع ذلك مسيئة باقية خفت عليه النار إلا ان يعفو الله تعالى عنه ، وإن لم تكن عليه سيئة باقية ، فإن الله تعالى يحسن اليه فيدخله الجنة اما بشفاعة النبي ﷺ ، وأما ابتداء بالتفضيل عليه ولا يمكن أن يقال في الكافر ان خيراته احبطت سيئاته كلها ادخل الجنة ، فيتبين بهذا تبان الفرقين وبطلان التسوية بين الطبعتين وبالله التوفيق .

فان قيل : ان كان الكافر مثلاً يعمل الخيرات بالأمر الذي يسجله في الكتاب الذي يدين الله تعالى به ، فلم لا يكون فعله لها طاعة كما تكون السيئة للمؤمن معصية ؟

قيل : لأنه مأمور بتلك الخيرات بالأمر الذي بلغه النبي ﷺ عن الله جل ثناؤه ، فإذا لم تثبت له طاعته ، وأما الأمر المتقدم فقد تناهى وزال قيام الحجة به ، ولولا أن هذا هكذا وكانت بعض رسالة رسل المتقدمين باقية ، ولكان الرسل إلى بني اسرائيل في بعض الأشياء ليوم موسى ومحمد صلوات الله عليهما معاً ، وليس ذلك كذلك ، ولكن الرسول محمد ﷺ وحده ، فمن لم يثبت الأمر الذي بلغه على لسانه لم تثبت له طاعة الأمر ، ولم يكسب بما يفعل بر ولا قربة .

فان قيل : أرأيت ان كان للكافر انما يفعل هذه الحسنات لأنه يجدها حسنة في عقله ، ويجد الإحسان حسناً ، والعقل داعية من دواعي الله تعالى ، فلا تزول على حكمه طاعة . قيل : ان الأمر المقرون بالوعد والوعيد هو السمعي ، فمن لم يفعل ما يفعله من الخير لامر يثبته فلا طاعة منه تستحق به الجزاء .

فان قيل : قفوا ، ان لم يثبت الامر لم يثبت له عصيانه كما قلتم ، ان من لم يثبت الامر لم تثبت له طاعته ، فلزكم على هذا أن لا يكون المعطلة عصاه .

قيل : إن العصيان إنما هو مفارقة الامر وترك العمل به ، وجحد الامر من أعظم الدواعي إلى ترك العمل به ، فاستحال أن يقال : ان لم يثبت الامر لم يؤخذ منه عصيانه وأما الطاعة فهم العمل بالامر وجحد الامر ليس من الدواعي إلى العمل لكنه من الموانع ، فاستحال أن تثبت طاعة الامر ممن لا يثبت ، لان الشيء لا يوجد مع واقعه ، وإنما يوجد عند وجود دواعيه وبالله التوفيق .

ومما يدل على صحة هذا القول ، قول الله جل ثناؤه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ (١) ، فان أعمالهم الصالحة في أنفسهم لم تنفعهم ، وخفف عنهم العذاب لاجلها لما كانت هباء منثوراً . وقال جل ثناؤه : ﴿ عاملة ناصبة ، تصلي نارا حامية ﴾ (٢) ، وذاك أيضاً اشارة إلى نصيب الكافر في عمله الذي يرى انه طاعة له وقربة لا تجدى عليه شيئاً ، ولا تدفع عنه من شدة حمى النار شيئاً والله أعلم .

فصل

فان سأل سائل عن وزن الاعمال كيف يكون ، فانما الأعمال حركات الناس وهي أعمال لا بقاء لها ، وقال : كيف تبقى الأعمال إلى يوم القيامة وكيف يمكن وزنها ؟ قيل له : قد تكلم الناس في ذلك فقالوا : ما يكون المراد من الوزن مقابلة الأعمال ، ويتبين ما ينبغي ان يعامل به بيانا ظاهرا للملائكة والنبين والشهداء ، أو قد تدعو الحاجة في الدنيا إلى أن يعرف مقدار عمل ، كالذي يحتاج الى أن يعطي آخر مثله ، فيقابل عمله ذلك بأمثاله من غير ميزان يكون التعديل به .

وقد استعمل الناس ذكر الوزن في الشعر ، وفي كل كلام مستحال ، ولم يربدوا به الا الاعتدال ، واستوى بعضه ببعض عند المقابلة بين فصوله ، فقل ان وزن الاعمال يوم القيامة من هذا .

وقال آخرون : انه تكون هناك موازين بالحقيقة ، لكل ميزان كفتان ، احدهما من نور والأخرى من ظلمة ، كما جاءت به الأخبار ، فالكفة المنيرة للحسنات ، والكفة المظلمة للسيئات .

ثم ان الناس يومئذ ثلاث طبقات : احدهما المؤمنون المتقون ، وهم الذين يوافون يوم القيامة بلا كبائر الذنوب . والثانية المؤمنون المخلطون وهم الذين يوافون القيامة بالفواحش والكبائر . والثالثة الكفار .

فأما المتقون فان حسناتهم توضع في الكفة النيرة ، وصغائرهم - ان كانت لهم - في الكفة الأخرى ، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنا ، وتثقل الكفة النيرة حتى لا تبرح ، وترفع المظلمة ارتفاع الفارغة الخالية ، واما المخلطون فان حسناتهم أيضاً توضع في الكفة النيرة ، وآثامهم وسيئاتهم في الكفة المظلمة .

فيكون يومئذ لكبائرهم التي جاءوا بها وحسناتهم ثقل ، إلا أن الحسنات تكون بكل حال أثقل لأن معها أصل الإيمان ، وليس مع السيئات كفر ، ويستحيل وجود الإيمان والكفر معاً لشخص واحد ، فيوزن أحد بالآخر ، ولأن الحسنات لا يراد بها إلا وجه الله تعالى ، والسيئات لم يقصد بها مخالفة الله تعالى ، واشفاق من غضبه فاستحال ان

توازي السيئات وإن كثرت حسنات المؤمن ، ولكنها عند الوزن لا تخلو من ثقل يقع بها للميزان حتى يثقلها كبعض ثقل الحسنات ، فيجزى أمر هؤلاء على ما يثبت في باب زيادة الايمان ونقصانه .

وأما الكفار فإن كفرهم ومعاصيهم التي دعاهم إليها ، وهو بها عليكم ، كفرهم في الكفة المظلمة ولا يوجد لهم حسنة توضع في الكفة الأخرى ، فتبقى خفيفة لفراغها وخلوها من الجزاء ، فيأمر الله تعالى جده بهم إلى النار ، ويعذب كل واحد منها بقدر أوزاره وأيامه .

وأما المتقون فإن صفائهم باجتنايبهم الكبائر تغفر ، ويؤمر بهم إلى الجنة ، ويثاب كل واحد منهم بقدر حسناته وطاعاته . وهذا ان الصفات هما المذكوران في القرآن في آيات الوزن ، لأن الله عز وجل لم يذكر حيث ذكر وزن الأعمال الا من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه ، وقطع بل ثقلت موازينه بلا فلاح ، والعيشة الراضية على الاطلاق . ولمن خفت موازينه بالخلود في النار بعد ان وصفه بالكفر ، وقد علمنا أن الناس كلهم لا يكونون هذين الفريقين ، لكن يكون معهما فريق ثالث وهم الذين يخلطون الشيء الصالح . ووردت الأخبار بأن النبي ﷺ يشفع فيهم فيخرجون من النار بعدما صاروا حمماً . إلا أن هذا الفريق لم يذكر في آيات الوزن ، ولكن الله عز وجل قد قال : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١)

وفيها بيان الخلط توزن حسناته وسيئاته ، ولذلك قال ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ ، أي لا توزن له سيئة ، لأن نقصانها من ميزانه كان لا يحول بينه وبين الجنة ، كما لو تركت للخلط حسنة ازداد ذلك من ثقل سيئاته ، وأوجب ذلك زيادة عذاب عليه . فعللنا أن الطبقات يومئذ ثلاث كما بينا والله أعلم .

فأما ان الوزن كيف يكون ، ففيه وجهان : أحدهما ان صحف الحسنات توضع (في) الكفة المضيئة ، وصحف السيئات توضع في الكفة المظلمة ، لأن الأعمال لا تنسخ في صحيفة واحدة ولا كاتبها يكون واحداً ، لكن الملك الذي يكون على اليمين يكتب الحسنات

(١) الأنبياء : ٤٧

والملك الذي على الشمال يكتب السيئات ، فيفرد كل واحد منها بما ينسخ ، فإذا جاء وقت الوزن وضمت الصحف في الموازين فيثقل الله منها ما يحق تثقيله ، وخفف ما يحق تخفيفه . والوجه الآخر : انه يجوز أن يحدث الله أجساماً مقدرة بعدد الحسنات والسيئات ، ويميز أحدهما عن الآخر بصفات يعرفونها ، فيوزن كما توزن الأجسام بعضها ببعض في الدنيا ، والله أعلم .

فصل

إن سأل سائل: عن الأعمال إذا وزنت ما يعتبر فيها في الوزن فيظهر بها الأخف والأثقل . قيل له : تعتبر فيها مواقعها من رضى الله عنه تعالى أو سخطه ، وذلك ان المؤمن قد يأتي بحسنة لا يريد فيها إلا وجه الله تعالى ولا يحمله عليها إلا حبه لله تعالى ورغبته في تحصيل مرضاته .

وقد يأتي بها خوفاً من عقابه ، وقد يأتي بها فرقا في حال اتيانه بها من ان لا تقبل منه ، وان لا تكون وقعت من كل وجه على ما يرضاه الله تعالى .

وقد يأتي ساكن العلم إليها معتقداً انه قد أدلها وخرج عن عهدها وعلى هذا قد يواقع السيئة غافلاً عن نهي الله تعالى لا يخطر بقلبه ان الذي يأتيه سيئة لا يرضاها الله تعالى وذلك لألفة إياها ومرونة عليها وان كان لو وقف في تلك الساعة وسئل عما يأتيه لاعترف بها سيئة خائفاً من تبعثها فرقا من مواجهة الله تعالى إياه بها .

الا ان ما يغلب عليه من الهوى يحول بينه وبين الكف عنها ثم ذلك الهوى أيضاً يختلف فقد يشد حتى يجد صاحبه اتباعاً لذة كثيرة ، وقد يخف فلا يجد صاحبه في اتباعه الا لذة يسيرة .

وكذلك الداعي إلى الحسنة يختلف وقد يقوى حتى يجد صاحبه من اجابته وفعل الحسنة التي دعا إليها فرحاً شديداً ، إنما تبشره لها ، وقد لا يبلغ هذا المبلغ فيكون فرح الفاعل للحسنة بحسنة دون فرح الذي ذكرناه ، وكل هذه الوجوه معتبرة في الوزن .

فلذلك يصلي رجلان بصلاة واحدة ويصومان يوماً واحداً ويحجان معاً ، ويكون ما يظهر من أعمالها سواء الا ان عمل احدهما أثقل وزناً وأكبر ثواباً ، ويصل واحد ركعتين

فرقا ور كعتين مثلها وقتاً آخر ، فتكون احدى صلاتيه أفضل من الأخرى .
وكذلك الصيام وغيره ، ويشتركان في معصية فيكون ما يظهر من أفعالهما سواء ،
الا ان عمل احدهما يكون أكثر تبعه ، وأظهر في ميزانه من الآخر ، فقد قيل في قول الله
عز وجل : ﴿ وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ (١) ، معنى
اطلاعها على الأفئدة ان تؤلم كل أحد بقدر ما في قلبه من المعصية التي واقعها فصار
معاقبا عليها .

فان محل الدواعي كلها هو القلب ، والافعال اجابة عن الأعضاء لتلك الدواعي مختلف
مقاديرها وما يستحق بها بحسب اختلاف تلك الدواعي في أنفسها .
ألا ترى أن العبد قد يدعوه سيده خير فيجيبه الا ان اجابته غير سيدة لا يقع منه
موقع اجابته سيده ، فانه انما يجب سيده على ان ذلك واجب عليه لا يسعه خلافه ويجب
غير سيده تبرعاً في الجملة ، فبان بذلك ان أحكام الأفعال مأخوذة من دواعيها ، وهي
كذلك في الدنيا وكذلك يكون في الآخرة والله أعلم .

فصل

ان سال سائل : عن كبائر الذنوب وصفائرها وواجباتها . فقد قال الله عز وجل :
﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (٢) .
وقال : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ (٣) .
وقال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ (٤) .
وقال : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (٥) .
وقال : ما الفرق بين ما سماها الله تعالى كبائر وما سماها فواحش ، وما يجوز أن يقال
لها صفائرها ؟ .

فالجواب : انه ما من ذنب الا وفيه صغيرة وكبيرة ، فقد تنقلب الصغيره كبيرة

(٣) النساء : ٣١

(٢) الأعراف : ٣٣

(١) الهمزة : ٥ - ٧

(٥) الشورى : ٢٧

(٤) النجم : ٣٢

بقريئة تنضم إليها وتنتقل الكبيرة فاحشة بانضمام قريئة إليها الا الكفر بالله عز وجل ،
فانه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة ، فأما ما عدها فالأمر فيه ما ذكرته .

وجاء عن النبي ﷺ انه سئل عن الكبائر ، فذكر الشرك بالله جل ثناؤه ، وقتل
النفس بغير حق والزنا بحليلة الجار ، وقذف المحصنات والفرار من الزحف وعقوق الوالدين
والسرقة ، وقد قال الله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ
تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ
وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ وَإِنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْكَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحَرِّ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ فَعَلَ لِلنَّاسِ وَأَثْمُهَا أَكْبَرُ مِنْ
نَفْعِهَا ﴾ (٤) .

وقال النبي ﷺ : (من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر) (٥) ، والمعنى فقد استحق
ما يستحق الكافر وهو القتل .

وإذا تتبع ما في الكتاب والسنة من المحرمات كثر ، وإذا أردنا هذه لنبين الصفائر
والكبائر بيانا خارجا نأتي على ما يحتاج إليه في هذا الباب بأذن الله تعالى فنقول : ان قتل
النفس بغير حق كبيرة ، فان كان المقتول ابا او ابنا او ذا رحم في الخلعة او اجنبيا بالحرم
فهو فاحشة ، واما الخدشة والضربة بالعصا مرة أو مرتين فمن الصفائر ، والزنا كبيرة ،
فان كان بحليلة الجار أو بذات رحم أو لا بواحدة من هاتين ، لكن يأثم في شهر رمضان
أو في البلد المحرم فهو فاحشة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِحَادِ بَظْلَمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٦) ، فالزنا كله

(١) النساء : ١٠	(٢) النساء : ٢٩	(٣) المائدة : ٣
(٤) البقرة : ٢١٩	(٥) ورد في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٤٠١ .	
(٦) الحج : ٢٥		

كبيرة ، إلا ان ما كان منه على وجه مما تقدم ذكره فازداد كثيراً فالتحق بالفواحش ، وأما ما دون الزنا الموجب للحد فانه من الصفائر ، فان مع امرأة الأب أو حليمة الابن أو مع أجنبية اثم لكن على سبيل القهر والاكرام كان فاحشة كبيرة .

وقذف المحصنات كبيرة ، فان كانت المقدوفة اما أو اختاً أو امرأة فانه كان فاحشة كبيرة .

وقذف الصغيرة والمملوكة والحرة المنتهكة من الصفائر ، وكذلك القذف بالخيانة والكذب والسرقة والفرار من الزحف كبيرة ، فان كان من واحد أو اثنين ضعيفين وهو أقوى منهما ، أو اثنين حملا عليه بالسلاح وهو شاك السلاح ، فذلك فاحشة وعقوق الوالدين كبيرة ، فان كان مع العقوق سب أو شتم أو ضرب فهو فاحشة ، وان كان العقوق الاستئصال لأمرهما ونهيها والعبوس في وجهها والتزم بها مع بذل الطاقة ولزوم الصمت فهذا من الصفائر ، فان كان ما يأتيه من ذلك ينجيها إلى أن ينقضا عنه فلا يأمره ولا ينهيها أو يلحقها من ذلك ضرر فهذا كبيرة ، والسرقة من الكبائر ، فأما أخذ المال في قطع الطريق فاحشة .

وكذلك قطع يد السارق ويد المحارب ورجله من خلاف وقتل النفس في قطع الطريق فاحشة . وكذلك لا يعمل عفو المولى عنه إذا قدر عليه قبل التوبة ومرة الشيء التافه صغيرة ، فان كان المسروق منه مسكيناً لا عناية عما أخذ منه فذاك كبيرة ، وان لم يكن على السارق الحد وأخذ الأموال بغير حق كبيرة ، فان كان المأخوذ ماله يفتقر أو كان أب الآخذ أو امه أو كان الآخذ بالاستكرام والقهر فهو فاحشة ، وكذلك ان كان على سبيل القمار ، فإن كان المأخوذ باقياً ، والمأخوذ عنه غنيا لا يتبين عليه من ذلك ضرر ، فذلك صغيرة .

وشرب الخمر من الكبائر ، فان استكثر من الشرب حتى سكر أو جاءهم به فذلك من الفواحش ، فان مزج خمرأ مثلها من الماء فذهبت شدتها وشربها فذلك من الصفائر . وترك الصلاة من الكبائر ، فإن صار عادة فهو من الفواحش ، فان أقامها ولم يوفها حقها من الخشوع ، لكنه التفت فيها أو فرقع أصابعه أو استمع إلى حديث الناس أو سرى الحصى ، أو أكثر من لحيته فذاك من الصفائر ، وان ترك إتياء الجمعة من غير عذر

فذلك من الكبائر ، فان اتخذ عادة فهو من الفواحش ، وان ترك إيتاء الجمعة لغيرها فذلك من الصغائر ، وان اتخذ ذلك عادة قصد به مباينة الجماعة والانفراد عنهم فذلك كبيرة ، وان اتفق على ذلك أهل بلده فهو من الفواحش .

ومنع الزكاة كبيرة ورد السائل صغيرة ، فان اجتمع على منعه أو كان المنع من واحد الا انه زاد على المنع الاشهار والاغلاط فذلك كبيرة .

وكذلك ان أتى محتاج موسعاً على طعام فتاقت إليه نفسه ، فان تعاطيه كبيرة وتعاطيه على وجهه يجمع وجهين أو وجهاً من التحريم كان فاحشة ، وتعاطيه على وجهه يقصر به عن رتبة المنصوص أو تعاطي ما دون المنصوص الذي لا يستوفى معنى المنصوص الذي نهى عنه ، لئلا يكون ذريعة له إلى غيره ، فهذا كله من الصغائر ، وتعاطي الصغيرة على وجهين أو وجهاً من التحريم كبيرة .

مثال ذلك ان قتل النفس بغير حق محرم بعينه منهي عنه لمعنى في نفسه ، فهو انتهاك حرمة الله عز وجل بانتقاص مخاطب مكلف من الجملة ، فذلك ان كان عمداً كبيرة ، لأن العامل متسع لاستيفاء من يريد قتله وانتقاصه . فان احتقار الانتقاص وقتل فقد أراد الخيانة وآثرها فكانت منه كبيرة . وإن وقع ذلك خطأ لم تكن كبيرة ، ولأن زوال العمل يقصر بقتله عن رتبة المنصوص فانه لا يكون عند ذلك مؤثراً لانتقاص عدد المخاطبين المكلفين من بين الجملة .

فان كان المقتول أباً أو ذا رحم ، أو كان القتل في البلد الحرام أو قطع طريق كانت فاحشة لما في ذلك من انتهاك حرمت كثيرة مضمونة إلى حرمة المقتول ، وان ترك القتل إلى شيء دونه من إيلاام بضرب غير منهك أو جرح لا ينقص به المجرع عضواً ولا يتعطل به عليه من منافع بدنه منفعه لم يكن ذلك كبيرة . لأن هذه الجناية لا تستوفي معنى القتل المنصوص وإن وجد فيه بعض معناه . لأن معنى الإيلاام أو انهار الدم وإن وجد ، فإن أماته الحي لا يوجد فيه ، فيفارق بذلك القتل وقطع الطريق ولا يكون كبيرة .

وإن تعاطي قتل أب أو أم أو ذوي رحم من كان ، أو كان ذلك في حرم أو شهر حرام أو استضعافاً لمسلم أو استعلاء عليه ، فذلك كبيرة لأنه فعل يجمع إيلاام المجني عليه ، وانهار شيء من دمه أو طرفه إليه فصار بذلك كبيرة .

وإن دل رجل على مطلوب ليقتل ظلماً ، أو أحضر المرتد للقتل سكيناً فهذا كله حرم لأنه يدخل في قوله : ﴿ ولا تعاونوا على الأثم والعدوان ﴾ ^(١) لكنها صفائر ، لأن المنهي عنه ليس لأنفسها لكنها ذرائع الظالم إلى المتمكن من ظلمه ، فأكثر ما في إعانة القاتل بها ، أن المعين مشارك له في القصد ، والقصد إذا خلا عن الفعل لم يكن كبيرة .
وكذلك سؤال الرجل غيره الذي لا تلزمه طاعته أن يقتل ليس من الكبائر ، لأنه ليس فيه إلا إرادة هلاكه من غير أن يكون معها فعل والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل عن أصحاب الكبائر عن أهل القبلة إذا وافوا القيامة بلا توبة قدموها ، ماذا يكون من أمرهم ؟؟

قيل له : - وبالله التوفيق - أمرهم الله تعالى ، فإن عفا عنهم مبتدئاً وإن شاء شفع فيهم نبيهم ، وإن شاء أمر بادخالهم النار وكانوا معذبين بها مدة ، ثم أمر باخراجهم منها إلى الجنة اما بشفاعة ولا يخلد في النار إلا الكفار .

فان سأل عن الدلائل على ما قلنا ! أما الدليل على أن غير الكفار لا يخلد في النار فهو قول الله عز وجل ﴿ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ^(٢) ، فأخبر أن التخليد في النار إنما هو لمن احاطت به خطيئته ، والمؤمن صاحب الكبيرة والكبائر لم تحط به خطيئة ، لأن رأس الخطايا هو الكفر ، وهو غير موجود منهم ، فصح أنه لا يخلد في النار .

فان قيل : هذا معارض بأن الله تعالى قال بمقرب هذه الآية : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ ^(٣) ، فوعد الجنة من جمع بين أصل الإيمان وفروعه وصاحب الكبيرة أو الكبائر تارك للصالحات فصح أن وعد الجنة ليس له .
فالجواب : ان التعاطي للكبائر إذا تاب عنها ووافى القيامة تائباً لا يخلو من أن يكون

(٢) البقرة : ٨٢

(٢) البقرة : ٨١

(١) المائدة : ٢

تاركا للصالحات التي هي أصداد الكبائر ، ثم لأنه إذا شرب الخمر فقد ترك العمل بقول الله عز وجل .

وإذا زنى فقد ترك العمل بقول الله عز وجل : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ (١) .

وإذا فر من الزحف فقد ترك العمل بقول الله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ (٢) ، وعلى هذا جميع الكبائر .

ثم انه إذا تاب سقط العذاب عنه بالتوبة ، وصارت الجنة داره ، وإن لم تصر بالتوبة جامعاً بين أصل الايمان وفروعها من الصالحات . لأنه وإن تاب منها اليوم فلا يخلوان من كان من تاركا لها بالأمس وقع بهذا ، جاز أن تكون داره .

فلا ينكر ان الذي يوافي القيامة بكبائر لم يتب منها مثله ، فان قتل ليسا سواء ، لكن التائب يقيم التوبة مقام السيئات التي قدمها ، والمصر ترك الطاعات ولم يقم مقامها شيئاً ، قيل التائب غير مبدل من الطاعات التي تركها شيئاً ، لأن التائب هو الذي يندم على ما جنى ولا يعود لمثله في المستقبل . فأما بذمة هلى ما معنى فانما هو بكرهه لما كان منه ، وقد كان مأموراً من حين : ف قيل : الا ان تاب بان يكون متكرهاً له ، فلما لم يفعل وأخره إلى الوقت الذي تاب منه كان إيتاء من هذا الغرض ببعضه لا يجمعه .

واما نزوعه عن الفعل وترك العود لمثله في المستقبل فهو أيضاً بعض ما كان عليه ، إلا انه كان عليه أن يكون نازعاً عن الفعل أبداً ، فإذا قدم عليه وقتاً ثم نزع عنه وقتاً كان بذلك مبغضاً للغرض ، وبعض الغرض لا يكون بدلا من جميعه ، فصح ان التائب غير مبدل من الطاعات التي تركها بدلا ولا يقيم مقامها خلفاً ، ومع ذلك جاز أن يدخل الجنة ، فليجز أن يدخلها المصر .

فان قيل : لو كانا سواء لكانت الجنة واجبة للمصر ، كما هي واجبة للتائب ، ولما كان المصر معذبا كما لا يكون التائب معذبا ، دل انها لا تستويان .

قيل : انها أردنا بما أجبنناكم به ، أن التائب لا يخلو من أن يكون تاركا للصالحات التي

كانت عليه ، ومع هذا يدخل الجنة ، فعلم بهذا أن الجنة ليست للجامع بين أصل الإيمان وفروعه دون غيره ، وقد ثبت هذا .

فأما قولكم : ان المصر لو كان كالتائب لما كان معذباً ، فيجوابه أن يقال . ان التائب انما لا يعذب لأنه رجع إلى ما كان عليه ، وترك ما لم يكن فعله فعفى الله عنه عملاً لا تمكنه مداركه فيما مضى ، فإنه لا يمكنه أن يجعل ما كان منه غير كائن . والمصر يجدد للمعصية في كل وقت وكان يعرض العقوبة الا ان ين الله تعالى عليه بالعفو ، اما باستغفار يكون منه أو بشفاعة من يشفع له في الآخرة .

ألا ترى ان التائب من الكبائر اذا احتدم من ساعته فقد يفارق المتقي الذي يرد القيامة بلا كبيرة في أن المتقي يجب له من الثواب ما لا يجب للتائب من كبائره ، واقتراحها هذا يستوجب من الاحسان ما لا يستوجبه الآخر ، ولا يمنع من أن ين الله تعالى على التائب بكرامات وخيرات تعدد ثواب المتقين او يؤتة ذلك بشفاعة النبي عليه السلام .

فكذلك اقرار التائب والمصر في ان التائب يستوجب الجنة ، والمصر لا يستوجبها عاجلاً لا يمنع من أن ين الله تعالى على المصر فيدخله مع التائب الجنة ، اما باستغفار او بشفاعة تشفع له والله أعلم .

والدليل على جواز ان يعفو للمصر باستغفاره قول الله عز وجل : ﴿ إِنِ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) ، وهذا في الصلوات المفروضة فعلناها انها كفارات ، وإذا كانت الصلاة كفارة للمذنب ، والمذنب ليس هو الداعي اليها والباعث عليها ، فلئن كان الاستغفار كفارة وهو طاعة تدعو الذنب إليها وتحمل عليها أولى واحق .

ووجه آخر : وهو قول الله تعالى : ﴿ إِنِ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) ، ولا يجوز ان يعرض في خير الله تعالى خلف .

فان قيل : المعنى انه يغفر الصغائر ليجتنب الكبائر ، ولا يغفرها لمن لا يجتنب الكبائر ، كما قال في آية اخرى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (٣) .

(٣) النساء : ٣١

(٢) النساء : ٤٨ ، ١١٦

(١) هود : ١١٤

فأما الكبائر أنفسها فلا يغفرها الا للتائب . والدليل على ذلك انه تعالى لما توعد اصحاب الكبائر بالنار والخلود فيها لم يستثن منهم الا التائبين ، لأنه عز وجل قال: ﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ إلا من تاب ﴿ (١) .

فعلما ان يخلص أصحاب الكبائر بالتوبة فان المغفرة الموعودة لها دون الشرك ، انها هي لأصحاب الصغائر المجتنبين للكبائر .

فالجواب : - وبالله التوفيق - ان هذا الوعيد ينصرف الى جميع ما تقدم ذكره ، فان الله جل ثناؤه فتح بهذه الآية بذكر الشرك فقال : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ (٢) ، فانصرف قوله ومن يفعل ذلك إلى جميع ما تقدم ذكره . ولسنا ننكر ان يكون الجامع بين هذه الكبائر مستوجبا هذا الوعيد ، وان لا يخرج منه إلا التائب .

ويدل على ان المراد بالآية هذا ، أن الله عز وجل لا يضاعف له العذاب ، فبان ان المراد بها ان من جمع بين الشرك وغيره من الكبائر ، فيصير العذاب مضاعفا عليه ، وذكر الخلود في هذا الموضع ، فثبت انه لاحظ في ذلك لمن اقتصر على الكبائر التي هي دون الشرك ، ولم يضم إليها شركا .

ويدل على هذا أيضاً انه عز وجل لما ذكر التوبة قال : ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ (٣) ، فذكر في التوبة الإيمان والعمل الصالح ، فثبت ان الوعيد على من اشرك وضم الى الشرك اعمالا سيئة فكانت توبته ، أن يؤمن ويعمل في ايمانه الاعمال الصالحة ، فيحبط الايمان كفره ويحبط اصلاحه في الايمان افساد الذي كان في الكفر .

ومثل هذا جاء حديث عن رسول الله ﷺ ، وقد أثبتناه في أول الكتاب - وبالله التوفيق - وان جعلوا دلائلهم على صحة تأويلهم ، قول الله عز وجل : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ (٤) ، قيل لهم : جاء الحديث عن رسول الله

ﷺ انه قال : « ذلك جزاؤه ان جازاه » (١) ، وكذلك يقول ويذهب إلا ان لا يجازيه لأنه من حكمه ان يغفر ما دون ذلك لمن يشاء والقتل دون الشرك فثبت انه قد يغفره لمن يشاء .

وايضاً فإنه لم يقل : فجزاؤه جهنم الا أن يتوب ، ولكن حمل المطلق منها على انه الاستثناء التي كان تأويلها عندهم انها في صاحب الكبيرة ، كافراً كان أو غير كافر ، فلا يدفعونها عن أن تحملها على الآية التي فيها وعد المغفرة ، فيقول : « ذلك جزاؤه » لولا ان الله تعالى وعد أن يغفر ما دون ذلك لمن يشاء أن يغفر أصلاً ، فلا يأخذ فاعله به . وإذا كان كذلك ، علمنا انه إذا اخذه به لم يخلده النار لأنه لا قائل يقول : ان من القائلين من يعفو عنه ، وان لم يكن قدم توبة فلا يعاقب اصلاً ومنهم من يخلد في النار . فان قيل : انفصلوا عمن قلت هذا عليكم ، فنقول : قد ثبت بقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ لبعض أصحاب الكبائر ، فيجزيه مجري الشك ، لانه قد حكم تأبياً ما عدا الشرك ، وإذا كان دونه كانت عقوبته دون عقوبته ، فصح ان القلب الذي ادعوه لا يتوجه لهم وبالله التوفيق .

فان قيل : قالوا عقوبته دون عقوبة الشرك في الحقة والغلط لا في طول المدة وقصرها . قيل لهم : انفصلوا فيمن قال هو في الطول والقصر لا في الحقة والغلط ، وإذا لم يكن أحد هذين القولين أولى من الآخر ولم يكن بينهما تنافي وجب ان يجمع بينهما فيقال : عقوبة بما دون الشرك دون عقوبة الشرك في الحقة وقصر المدة وبالله التوفيق .

وجواب آخر : وهو ان هذا تخصيص الآية بلا دليل ، لأن قوله عز وجل : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فيه تخصيص كبيره من صغيره ولا دليل يوجب هذا التخصيص فوجب أن يضم هذا في الوعد إلى التوبة فيكون كأنه قال : ﴿ من تاب أو شاء الله أن يغفر له ﴾ .

فان قيل : أفتقولون ان من أصحاب الكبائر من لا يشاء الله أن يغفر له فيخلده النار . قيل : يقول : ان منهم من لا يشاء الله ان يغفر له ، ولا يقول : أن منهم من إذا لم يغفر له

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

خلده النار ، لأن الله عز وجل قد اخبر : ان ما عدا الشرك فهو دون الشرك .

وقد علمنا ان في عدله لا يسوى بين جزاء من خف ذنبه وجزاء من عظم ذنبه ، كما لا يسوى بين المحسن والمسيء ، فدل ذلك على ان جزاء المشرك إذا كان التخليد كان جزاء من قصر دينه عن ذنبه مقاماً دون ذلك والله أعلم .

وجواب آخر : عن كلامهم في أنه المغفرة ، وهو أن يقول : ان كان لا يستثنى من الوعيد إلا التائب ، فما بال الصغائر تصير مكفرة مغفورة لا حساب الكبائر ؟ لم لا جاز أن يغفر الكبائر لاجتناب الكفر ؟

فان قيل : صاحب الصغائر أصلاً وصاحب الكبيرة إذا وافى القيامة بلا كفر وإخاها ، وكبرته مستحقاً لأن يعذب عليها . فكيف يستويان ؟

قيل له : ان مغفرة الصغائر لمجتنب الكبائر بفضل من الله جل جلاله عليه ، ومن تفضل الله عليه بشيء لم يجب أن يتفضل ، فدل ذلك على أن الله تعالى إذا كان يتفضل على مجتنب الكبائر بالصفح عن صغائره جاز ، ولم يمتنع أن يتفضل على مجتنب الكبائر بالعفو عن كبائره ، وإن كان ذلك غير واجب والله أعلم .

وإن أصبحوا بصحة جمعهم بين الآيتين بقول الله عز وجل : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ ، وقالوا : لما وعد الجنة من تاب علمنا ان المصر لاحظ له في الجنة .

وقيل : ومعناه إلا من تاب أو شاء الله تعالى أن يجعل أخذ ما تيسر باجتنابه الكفر غفران خطاياهم ، ووضعها عنه ، أو يشفع النبي ﷺ أو كثرت نوافله وخيراته . فأراد الله تعالى أن ينبه منها العفو من كبائره فان كان مما دلت الدلائل على جواز أن تقابله مغفرة الكبائر من هذه الوجوه يصير كالمقرون بالتوبة نصاً ، الا ان يرى الدليل لما دل على ان اجتناب الكبائر يجوز أن يكون سبباً لمغفرة الصغائر .

كان اجتناب الكبائر من يرتكب الصغائر كالتوبة من مرتكب الكبائر .

وكذلك الوجوه التي ذكرتها هي لمرتكب الكبائر كالتوبة ، ولا فضل وان احتجوا بقول الله عز وجل : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ،

ويقولون : سيففر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله إلا الحق ﴿١﴾ ، وقالوا : في هذه الآية دليل على أن قولهم المصّر على الكبيرة ستغفر في قول غير حق .

قيل لهم : ان هذه الآية في اليهود ، والذين وصفهم الله تعالى في أكل أموال الناس بالباطل في آية ، وأكلهم السحت ، في آية أخرى ، وتخويفهم كتاب الله ، وقولهم مع ذلك ﴿٢﴾ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴿٣﴾ ، ودعواهم انهم ابناء الله وأحباءه ، أي انه متجاوز عنهم حيالهم كما يتجاوز الناس عن محبوبه ، مالا يتجاوزنه عن غيره .

فأخبر الله عز وجل ان قولهم سيففر لنا قول غير حق ، لأن من حكم الله تعالى ان لا يغفر للكفار وهم كفار ، وإن احتجوا بقول الله جل ثناؤه ، ﴿٤﴾ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين ﴿٥﴾ .

قيل لهم : إن الله تعالى قابل الفجار بالمتقين في غير هذه الآية فقال : ﴿٦﴾ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴿٧﴾ ، فقلت هذه المقابلة على أن الفاجر خلاف المتقي .

ومعلوم ان رأس التقوى هو الإيمان فلا يقال لغير المؤمن تقي . فدل ذلك على ان رأس الفجور المقابل للتقوى هو الكفر ، وقابل في هذه الآية : الفجار بالأبرار ، ورأس البر الإيمان .

قال الله عز وجل : ﴿٨﴾ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴿٩﴾ ، فعلمنا ان رأس الفجور هو الكفر ، وإن الفجار المقابلين بالأبرار وبالمتقين هم الكفار ، ولسنا ننكر أن يكون الكفار مرادين بالآية .

وجواب آخر : وهو إن ثبت ان المراد بالفجار أصحاب الكبائر من أهل القبلة ، فلسنا ننكر أن يصلوا يوم القيامة النار ، ولكن قوله عز وجل : ﴿١٠﴾ وما هم عنها بغائبين ﴿١١﴾ ، عن حضرتها فلا يمكن أن يصلوها لكنهم لا بد مارون عليها مشاهدوها ، والآخر انهم إذا دخلوها لم يخرجوا منها ، فوجب صرفه إلى الوجه الأول للمعاني التي سبق تكريرها .

(٣) الانقطار : ١٥

(٦) الانقطار : ١٦

(٢) البقرة : ٨٠

(٥) البقرة : ١٧٧

(١) الاعراف : ١٦٩

(٤) ص : ٢٨

وجواب ثالث : وهو ان الله عز وجل انما نفى الغيبة عن الجحيم بعد صلتها عن الفجار
أجمعين ، ولذلك يقول : لا تغيّبون عنها حق لا يبقى فيها أحد منهم ، وأما بعضهم فيدعون
أن تغيّب عنها ، وإذا احتملت الآية ذلك ، وجب تنزيلها عليه لما سبق ذكره .

فان قيل : على الجواب الأول : رويناه عن النبي ﷺ انه قال : (الا ان الصدق يدعو
إلى البر ، والبر يدعو إلى الجنة ، والكذب يدعو إلى الفجور ، والفجور في النار) (١) ،
وإنما أراد بذلك ان التوحيد الذي هو صدق يدعو إلى تحقيق ما صدر منه عن اللسان
بالافعال التي كلها بر ، ويوجب لصالحها الجنة ، والكفر الذي هو كذب ، ويدعو إلى
موافقة ما نهى الله عنه أو ذلك فجور يوجب لصاحبها النار . فثبت ان الفجور اسم الإفساد
في العمل

فالجواب : ان الصدق نفسه بر ، يقال : في يمينه إذا صدقها ، وفجور في يمينه إذا
كذبها ، واليمين الفاجرة هي الكاذبة ، وكان معنى الحديث : (ان الصدق هو يدعو إلى
ما يكون بر أمثله ، والكفر الذي هو فجور يدعو إلى ما يكون فجوراً مثله) وذلك ما
لا ينكر والله أعلم .

والذي يخالفوننا في هذا ، لهم أصول عليها ، بنوا قولهم في التخليد احدهما ان قالوا :
ان الوعد كالوعيد ، فلما كان أحد الذين وعد الله تعالى الجنة لا يجوز أن يدخلها لأن ذلك
إذا كان أخلف بوعده فصار كذباً ، والكذب ينفي عن الله ، فكذلك أحد الذين أوعدهم
الله تعالى النار لا يجوز أن يدخلها لأن (الله) لا يخلف وعيده فيصير كذباً . وهو جل
ثناؤه قد أوعده من غير التائبين النار ، فلا بد لهم من ان يدخلوها .

والثاني : قولهم : ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن وإنما هو فاسق ، والفسق منزلة بين
الايان والكفر ، والجنة دار المؤمنين فمن لم يكن مؤمناً فلا حظ له فيها . والثالث انهم
يقولون لا يجوز أن يشفع النبي ﷺ لأصحاب الكبائر من وجوه احدها ان الله تعالى مدح
الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢) ، دل ذلك على ان
الشفاعة لأصحاب الكبائر مخالفة لخشية الله تعالى فلا يجوز وجودها من النبي ﷺ .

(١) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ٤٦٧ ، وفي صحيح مسلم « كتاب البر » رقم ١٠٣ - ١٠٥

(٢) الأنبياء : ٢٨

ووجه آخر : وهو ان الله عز وجل وصف يوم الدين بأنه ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ (١) ولو جازت الشفاعة لأصحاب الكبائر ونفعت لكان قد ملكت فيه نفس لنفس أعظم الأشياء وهو الخلاص من النار وذلك خلاف ما وصف الله تعالى به ذلك اليوم .

ووجه آخر : لما نزل قول الله تعالى : ﴿وأندر عشيرتك الأقربين﴾ (٢) ، قال رسول الله ﷺ (يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً) (٣) ، خص عين واحد منهم بمثل ذلك ، حتى قال : (يا فاطمة بنت محمد ، اشترى نفسك من الله ، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً) .

فدل ذلك على ان الشفاعة يوم الدين لا تقع لأصحاب الكبائر لما جاز أن يخبر بها أمته ، ولكان إخفاء خبرها عنهم أولى من إخفاء ليلة القدر لئلا يتكلمون ، لأن في علمهم ذلك تجرئة الشقاق ، وحملانهم على ان يفرموا بضروب الفسق وينهمكوا فيها ، متكلين على الشفاعة .

وفي ذلك بطلان حكم الله تعالى في الوعيد ، وتنزيل النبي ﷺ منزلة من يقول : ان الله تعالى يوعدهم بالنار ، ولكن لا يأمن عليكم فإني أشفع لكم ، وهذا غير جائز على ان يخرج منه وينقضه . والدليل على ذلك انه إذا ثبت لم يحتج ان تجريد الإقرار ، فلو كان خارجاً من الإيمان لم يعد اليه الا بعقد جديد . وفي اجتماع الأمة على انه محتاج في ثبوت الإيمان له إلى عقد جديد ، وما دل على انه خارج من الإيمان .

ووجه آخر : وهو ان اجماعهم على انه لا يكفي ، والله عز وجل يقول : ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ (٤) ، فقسم هذين القسمين . فلما لم يكن صاحب الكبيرة كافر أظهر انه مؤمن .

ووجه ثالث : وهو ان إيمانه أكبر طاعته ، وكل ذنب طول الكفر ، فليس بأكثر معاصيه ، فلم يجوز أن يحبط الأصغر الأكبر ، كما لا يجوز ان يقال : الصغائر تحبط الإيمان ، أو ما يتفرع عنه من فرائض الطاعات .

(٢) الشعراء : ٢١٤

(١) الانتظار : ١٩

(٣) ورد في سنن الدارمي « الرقائق » باب ٢٣ ، ج ٢ ص ٣٠٥ . وفي صحيح البخاري « وصايا »

(٤) التغابن : ٢

باب ١١ « مناقب » باب ١٣

ووجه رابع . وهو ان المعاصي دون الكفر . لا يوجد من مسلم على سبيل مضادة الايمان ، لأن المسلم لا يريد بها الخلاف والعباد ، وخلع رباق الطاعة من عنقه ، وإنما يتبع الهوى ويريد قضاء شهوته ، فهي إذا توجد منه مضادة لما كان عليه مكانها ، ولا توجد مضادة لأجل الايمان ، فلم يجوز ارتفاعه بها كالصغائر ، وأما معاصي الكافر فإنها توجد منه مضادة الايمان لأن الكفر هو الذي يحرك عليها ، الا ترى انه لا يعتقد فيها انها معاصي ، وإن الله تعالى وصفها فكانت كمحسنات المؤمن التي تكون إيماناً . لأن أصل الايمان هو الذي يحرك عليها ، ألا ترى انه يقطعها على انها طاعات تقربه من الله تعالى .

فأما معاصي المسلم ، فإن هو اهو يحركه عليها لا الكفر ، فكانت كبائره من هذا الوجه كصغائره ، ولم يجوز ان يرتفع بها الايمان وبالله التوفيق . وتدل على هذا حسنات الكافر لا تخرجه من الكفر ، لأن الايمان ليس هو يحركه عليها لان التكريم وطلب الذكر وشبه ذلك مما لا يرجع في الجملة إلى الدين ، فكذلك سيئات المؤمن لا تخرجه من الإيمان ، لأن الكفر ليس هو المحرك له عليها ، لكن الهوى والشهوة ، وبالله التوفيق .

وأما الجواب عن تشبيه الوعيد بالوعد ، فهو ان العفو عن صاحب الكبيرة لا يوقع حلفاً في الوعيد ، لأن الله عز وجل إذا قال : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) ، فما أخذ بوعيده مع هذا الا ويصير ذلك الوعيد مقروناً بشرط المشبه ، فيكون قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٢) ، فانه قرن به الاستثناء .

ف قيل : الا ان يكون ممن سبقت له مشيئة الله تعالى بأنه يدخله الجنة ، أو الا ان يشفع له رسول الله ﷺ ، أو يكون المعنى هذا جزاؤه ، ولكنه قد لا يحزبه بل يعفو ، فمن عفا عنه لم يلحق خبره من ذلك خلف والله أعلم .

وجواب آخر : هو ان خطاب الله تبارك وتعالى في القرآن عباده عما وقع بلفظة المرب لأن الرسول ﷺ كان منهم ومن ظهر انهم فلذلك خاطبهم بحسب عاداتهم عن حكم العادة فيما تتفق فيه عاداتهم ، وعادة غيرهم .

(١) النساء : ٤٨

(٢) النساء : ٩٣

ومعلوم من عادات الناس أجمعين أن وعيدهم يكون باثاً ووعيدهم معلقاً ، فمن قال عنهم لغيره : لأعطينك كذا ، لم يقله على خيار ، ومن قال : لأضربنك قاله على خيار . وذلك لأنهم يعلمون ان الاحسان والعفو أولى بالمدح من العقاب والمؤاخذة ، فان العقاب ينزع إلى استيفاء الحق والعفو ينزع إلى التصديق بالحق .

ولا يخفى بعد ما بين الأمرين . وتفاوت ما بين الفعلين . فمن وعد آخر خيراً فممنحه كان تار كماً للفضل إلى ما لا فضل منه . ومن يرعد آخر بشر فلم يفعله ، كان تار كماً لا لفضل فيه إلى ما هو الفضل .

وإذا كان كذلك صح أن الوعد يصدر من صاحبه باثاً ، لأنه يريد الاحسان الذي هو سبب المدح والثناء عليه في الدنيا وسبب المثوبة في الآخرة ، فلا يليق الخيار بكلامه الذي كان لهم في مخاطبتهم .

وإذا كان خطابه لهم فيما تختلف فيه عاداتهم وعادة غيرهم بحسن عاداتهم وان الوعيد يصدر معلقاً ، لان الموعد قد يرى ان يدع غير الفضل إلى الفضل ، فلا يليق مع هذا بوعيده الثبات ، بل يكون المعلق أولى به ، فيكون عند قوله : لافعلن بك كذا وكذا ، كأنه يصبر على الاستثناء فوصله به . وقال : الا ان يشفع شافع ، أو إن شئت .

وإذا كان هذا عادة الناس في وعدهم ووعيدهم ، وجب أن يكونوا من الله تعالى محمولين على قضيته ، العادة المعروفة التي نزل القرآن بها بين ظهرانيهم ، ووقع الخطاب به لهم ، فيصير الوعد كأنه نص على بته ، والوعيد كأنه نص على تعليقه . فلا يتقلب الوعيد بالعفو كذباً وبالله التوفيق

فان قيل : لو كان هذا هكذا ، لوجب ان احلف الرجل : ليضربن عبده اليوم مائة ، ثم عفا عنه ولم يضربه حتى انقضى اليوم ، أن لا يجيب ، لانه لو صرح فقال : لأضربنك اليوم الا ان شاء العفو عنه فمعا عنه ولم يضربه حتى انقضى اليوم ولم يحث ، قيل : إنما حث لان كلامه يحمل على التعليق الذي ذكرنا إذا صدر منه مطلقاً ، فلم يظهر لنا انه أراد خلاف ما هو العادة في مثله .

وأما إذا أكد وعيده باليمين التي يراد بها في العادات أيضاً تأكيداً للأمر المحلوف عليه ، والاحتراز من وقوع الحلف منه كان البت أغلب عليه وأولى بظاھرہ من التعليق وصار

الحالف لذلك كأنه قال : « لأضربنك اليوم شئت أو كرهت » شفع شافع أو لم يشفع . ولو قال ذلك فأنقضى الوقت ولم يضربه يحنث . وكذلك إذا اكد قوله باليمين ، ثم خالف ما قال حنث والله أعلم .

وأما الجواب : عما قالوه في الشفاعة ، فهو أنه قد جاء عن نبينا ﷺ أنه قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (١) . وأنه ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » (٢) . ووردت الأخبار المتواترة فلا عذر في ردها والذهاب عنها .

وأما قول الله عز وجل ولا تشفعون إلا لمن ارتضى ان تشفعوا له ، كما قال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (٣) ولا يحتمل انه غير ذلك . لأن المرتضين عند الله لا يحتاجون إلى شفاعة ملك ولا نبي . فصح أن المعنى ما قلنا ، ولا يجوز أن يقال : ان الله عز وجل لا يرتضي ان يشفع لصاحب الكبيرة لان المذنب هو الذي يحتاج إلى الشفاعة ، حائلا بينه وبين الشفاعة .

فان قيل : ما جزاء الشفاعة للكافر ؟ قيل : امتناع الشفاعة للكافر لأن ذنبه كبير ، تعالى الباري المشفوع اليه جل ثناؤه ، أو الرسول الشافع صلوات الله عليه ، أو لان الله عز وجل أخبر أنه لا يشفع فيه أحد ، فهذه المعاني كلها معدومة في صاحب الكبيرة من أهل القبلة ، فجاز ان يشفع له عند النبي ﷺ ، وليس ذلك بمخالف خشية الله عز وجل لان الشفاعة لا تكون الا بعد الاذن من الله تعالى فيها . وإذا جاء الاستئذان والتوقيف إلى أن يكون الاذن ، فقد وفيت الحشية حقها والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ﴾ (٤) . فإنه لا يدفع الشفاعة لأن المراد بالملك ، الدفع بالقوة ، كما يكون في الدنيا أن يدفع الناس بعضهم عن بعض وعن أنفسهم بالقوة ، ولا يكون ذلك يوم الدين . والشفاعة ليست من هذا الباب

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣١٠ . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٨٢ ، ٧٠ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣٠٧ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ج ٥ ، ص ٣٢٦ . (٣) البقرة : ٢٥٥ (٤) الانقطار : ١٩

لأن ذلك من ذي الشفاعة للمشفوع عنده ، وإقامة الشفيع بذلك من المشفوع له ، فلا يوم ألقى به وأشبه بأحواله من بيوم الدين .

فأما قول النبي ﷺ : « يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله ، فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً » (١) . فقد يخرج على أن يكون نهاهم عن التقصير في حقوق الله اتكالا على انهم عترة رسول الله ﷺ ، ولعلمهم لا يسألون عما يعملون لأجله . فأخبرهم أن أفضالهم به لا يسقط عليهم تغلب أعمالهم ، وانهم مسئولون ومحاسبون كغيرهم ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله تعالى ان شاء عذبهم وان شاء عفا عنهم ، ولم يرد به ان لا يشفع لهم ، وليست الشفاعة أغنى عنهم من الله شيئاً ، لأن الشفاعة فيما بيننا ليست بمرحبة ، فكيف يتوهم أن تكون الشفاعة عند الله تعالى مرحبة وبالله التوفيق .

وأما قولهم ان الشفاعة لو كانت واقعة لأصحاب الكبائر فيه لما جاز ان يخبر بها لما في ذلك من تجربة الخاطئين في خطاياهم . فجوابه : انه ليس في إخبارهم بذلك إلا ما في إخبارهم بأن من قضى شؤنه كلها دهرأ طويلاً ثم تاب إلى الله تعالى توبة صحيحة ، صحت بتلك المزية عنه في تلك الساعة جميع الأوزار ، وصار كيوم ولدته أمه . فإن كان هذا جائزاً ، والأخبار به جائزاً مثله ، فلم لا جاز أن تكون الشفاعة والأخبار بها جائزين ؟ . فان قال : لا تجزئه في منزل للتوبة واحباط الخطايا ، لأن الخاطيء لا يعلم من نفسه ان التوبة تنفعه له أو لا تنفعه : قيل له : والخطيء لا يعلم أن الشفاعة تناله أو لا تناله . فان الخاطئين كلهم لا يسلمون من النار انما يسلم منها بعضهم وبالله التوفيق .

فان قال قائل : الشفاعة حق ، ولكنكم تضعونها في غير موضعها ، وإنما هي لصاحب الكبيرة ، والمنهمك في الخطيئة إذا مات ، ثم أخبرهم ، من قريب توفي في القيامة ، وليس وراء الايمان عمل صالح فيشفع النبي ﷺ له الى الله تعالى ليعحسن إليه منتدباً ان كان لا يستحق ان يحسن إليه جازياً ومشياً .

فالجواب : ان قول النبي ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » (٢) . تأبى هذا

(١) ورد في صحيح البخاري « مناقب » باب ١٣ ، وفي سنن الدارمي « الرقائق » باب ٢٣ ،

ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » باب ٣٧ ، رقم ٤٣١٠ .

التأويل ، لأن فيه ان المشفوع له يكون أهل الكبيرة حتى يشفع له ، والتائب في الدنيا لا يوافي القيامة بكبيرته ، فلا تكون الشفاعة كما ذكرت شفاعة لصاحب كبيرة لانه لا كبيرة له يحاسب بها يوم القيامة .

وأيضاً فان الروايات قد نطقت بإبطال هذا التأويل لان ابن عباس قال : قيل لرسول الله ﷺ : شفاعتكم للمتقين ! فقال : ان المتقين في غناء ، ان الله عز وجل يقول ﴿ إِنِ الشَّافِعِينَ مَفَازٌ ﴾ ^(١) ، إنها شفاعتني للهلاك من أمتي . ومعلوم ان التائب لا يكون هالكا ، فصح ان المراد به المضر على الكبيرة والله أعلم .

وأيضاً فان التائب إذا دخل الجنة أثبت بالإيمان ، فلو جاز ان يشفع لكل مقصر به عن غيره ليبطل درجة من فوقه إلى ان يستوي أهل الجنة كلهم في نعيمها ، ويزول التفاضل من بينهم . ومعلوم ان ذلك لا يكون ، فالذي قاله مثله وبالله التوفيق .

وأيضاً فان الذي في العادات ، ان الشفاعة لمن عظم ذنبه بعد ما عفي عنه ليخلو بمن لا ذنب له إحساناً إليه أعظم من الشفاعة له ليعفي عنه . فإن كانت أعظم الشفاعتين جائزة ، فلم لا تجوز التي دونها ؟ وبالله التوفيق .

وإذا بطلت هذه العلل كلها صح ان يخلو أصحاب الكبائر من أهل القبلة في النار ، وكان مما بيناه انهم مؤمنون بما يوجب أن يكون لهم في الجنة نصيب ، وان وافوا القيامة غير تائبين ، لأن الله عز وجل في قضائه ، فلا يجوز ان يستوفي بتعذيب صاحب الكبيرة حقه ولا يوفيه من عذاب الايمان حقه . وإذا كان ذلك غير جائز ، وكان من أدخل الجنة للثواب لا يخرج منها أبداً ، دل على أنه إذا عذب لم يعذب دائماً ، ولكن إلى وقت ، ثم يخرج إلى الجنة ، وبالله التوفيق .

فان قيل : الدار داران : الجنة والنار ، وقد أجمعنا على أن من أدخل الجنة للثواب لم يخرج منها ، ومن يدخل النار ولم يكن كافراً لم يخرج منها أيضاً ، كما لا يخرج المؤمن من الجنة ، وان كان غير كافر لم يحزن ان يخلد فيها ، لان ذلك يؤدي إلى حرمانه اجر الإيمان ، وذلك غير جائز ، وبالله التوفيق .

قال قائل : ما أنكرتم أن يكون جزاء إيمانه تخفيف العذاب عنه في النار ، فقال .

(١) النبأ : ٣١

بما يفضل من قال : لا يدخل النار أصلاً بل يدخل الجنة ويحعل جزاؤه بكبائره حطة عن بعض الدرجات ، وحرمانه بعض ما نواه ، لو كان في إيمانه بجانباً للكبائر . فإن كنت لا تجيز هذا ، فالذي قبله مثله فلا يحزه وبالله التوفيق .

فصل

ان قال قائل : أخبر الله تعالى عن الناس انهم محاسبون مجزون . واخبر انه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ، ولم يخبر عن ثواب الجن ولا عن حسابهم ، فما القول في ذلك عندكم ؟ .
فالجواب : أنه قد قيل : ان الله تعالى لما أن قال : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ (١) . وقال عز وجل : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ (٢) دخل في الجملة الجن والأنس ، فثبت للجن من وعد الجنة بعموم الآية ، ما ثبت للأنس .

فإن قال قائل : فما الحكمة في إفراد الجن عن الأنس في الوعيد ، وترك أفرادهم عنهم في الوعد ؟

ف قيل في جواب ذلك : انهم قد ذكروا في الوعد لأن الله عز وجل يقول : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ (٣) . ثم قال : ﴿ ولكل درجات بما عملوا ﴾ (٤) ، وانما أراد ولكل من الجن والأنس ، فقد صاروا مذكورين في الوعد مع الأنس كما ذكروا في الوعيد .

فان قيل : أليس قد ذكر يخاطب الجن في النار ، ولم يذكر يخاطب الفريقين في الجنة لأن الله عز وجل قال : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ (٥) . وقال : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ (٦) . ولم يأت عن تعارض الفريقين في الجنة خبر .

(٣) الأحقاف : ١٨

(٢) البقرة : ٨٢

(١) الكهف : ٣٠

(٦) ق : ٢٧

(٥) ابراهيم : ٢٢

(٤) الأحقاف : ١٩

قيل : انما ذكر في معارضهم في النار ان الواحد من الانس يقول للشيطان الذي كان في الدنيا قرينه انه المغاوي وأضلني . فيقول له قرينه : ما أطفيتك ، ولكن كان ضالاً في نفسه غويا ، وهذا تخاصم يدعو إليه طاعة الانس لقرنائهم من الجن وهم الشياطين في الدنيا ، ولا سبب بين الفريقين يدعو أهل الجنة منها إلى التفاوض ، فذلك سلب عنهما . وايضاً فان الله جل ثناؤه ، أخبر الناس ان عصاتهم يكونون قرناء الشياطين يخاصمون في النار ليزجرهم بذلك عن التمرد والعصيان . وليس في اجبار الاخيار باجتماع الجن معهم في الجنة ما يحرصهم على الازدياد من الطاعات ولاستكثار من الخيرات ، إذ لا معنى فيهم يسوق الانس إليهم ويحثهم على مجاورتهم . فيحتمل أن يكون ذكرهم مع الانس في الوعيد ، والسكت عن ذلك في الوعد لهذا ، والله أعلم .

ووجه آخر : وهو ان السكت عن ذكر الجن وادخالهم الجنة يحتمل ، لأنهم لا يخالطون الانس فيها ، ولا يجاورونهم مجاورة الانس بعضهم بعضاً ، ولكنهم مع الانس في الجنة كما يكونون معهم في الأرض ، لا يرى هذا ذاك ، ولا ذاك هذا ولعل ذلك لا يجاوز الاشكال أنس ويمجاوز الأضداد وحشة ، والجن اضداد الانس . فان الجن مخلوقون من النار ، والانس مخلوقون من الماء والتراب . والماء ضد النار ، وفي التراب أيضاً بعض المضاد لانه يطفئ النار كما تطفئها الماء .

فالتضاد بين الفريقين في أصل الجملة ، ولان الجن في الدنيا انما كانوا يتعيشون بروائح الاطعمة دون أجسادها ، فذلك في الجنة يتنعمون بنسيم الجنة وطيب روائحها ، وروائح الاطعمة والأشربة التي تكون فيها ، فتكفيهم من المكان في الجنة مثل ما كان يكفيهم منه في الدنيا ، فيكونون لاختبائهم عن الأبصار كالمعدومين ، فتشبه ان يكون افرادهم بالذكر بما لم يقع لهذين المعنيتين او لاحدهما والله أعلم .

فأما الذين يوردون النار من الجن ، قد يجوز أن يكونوا أيضاً غير مرتئين للأنس ، ولا تطهر لهم فيرونهم ، ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴿ (١) ﴾ . فذلك أهل النار من الفريقين ، وان تخصصوا فذلك لا يقتضي ان يرى بعضهم بعضاً ، والله أعلم .

وأما المحاسبة فإن الله جل ثناؤه قد أخبر ان في الجنة يسألون ، لأنه تعالى قال جزاء عما يقال لهم يوم القيامة يا معشر الجن والانس : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَى ﴾ (١) . وهذا سؤال ، وإذا ثبت بعض السؤال ثبت كله ، والله أعلم .

فصل

فإن سأل سائل عن الملائكة ، هل تكتب أعمالهم ويحاسبون ويثابون ؟ . قيل له : أما كتبة أعمالهم فما يشبه ان تكون ؟ لأن الملائكة هم الذين يكتبون أعمال الناس ، ولو كتبت أعمال الملائكة لاحتاج كل ملك إلى كاتب أو اثنين ، وذلك الكاتب إلى مثل ذلك إلى ما لا يتناهى . والقول بذلك فاسد .

والمحاسبة أيضاً لا معنى لها ، لأنهم لا يخلطون الحسنات بالسيئات ، وما أكثر من لا يحاسب من بني آدم ، فلا تكون الملائكة أولى ولا أدنى منزلة منهم .

وأما الالابة فقد قيل : يرفع التكليف عنهم فيتنعمون بالراحة ويتلذذون بالخفض والدعة ، وليسوا من أهل المطاعم والمشارب فيوردون موارد بني آدم من الجنة ، ويحتمل أن يكون قد أوضع التكليف غيرهم نعمة أعدها الله لهم ولا تبلغها أفهامنا وعقولنا ، فانه تعالى يقول : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) (٢) . وإذا جاز أن يعيد للناس مثل هذا الثواب المقيم ، فأولى أن يكون ذلك للملائكة والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن قول الله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) فقال : التعارف بينهم يكون بالكلام . وقد قال الله عز وجل

(٢) ورد في سنن الدارمي «الرقائق» ج ٢ ، ص ٣٣٥

(١) الزمر : ٧١

(٣) يونس : ٤٥

في آية أخرى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ (١) وفي آية ثالثة انهم يقولون ﴿ من بعثنا من مرقداً هذا ﴾ (٢) . وهذا كلام وهو مضاد إليكم . والتعارف مخاطب وهو مضاد للصم والبكم معاً .

وقال عز وجل ﴿ وقفوهم انهم مسئولون ﴾ (٣) . وقال جل ثناؤه : ﴿ فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (٤) . والسؤال لا يكون إلا بالسمع والناطق يتسمع للجواب .

وقال . ﴿ ونحشر المحرمين يومئذ زرقاً ، يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرأ (٥) وهذا كلام ، والأبكم لا يستمع له .

وقال في آية أخرى : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ (٦) وفي آية أخرى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراغاً ، كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ (٧) . والنسلان والاسراع خالفان للخبر على الوجوه فما وجوه هذه الآيات عندكم ؟

فالجواب — وبالله التوفيق — : ان الناس إذا أحيوا وبعثوا من قبورهم ، فليست حالهم واحدة ، ولا موقفهم ومقامهم واحد ولكن لهم مواقف وأحوالاً .
واختلف في الاخبار عنهم لاختلاف مرافعهم وأحوالهم .

وجملة ذلك انها خمسة أحوال : اولها حال البعث من القبور ، والثانية حال السوق إلى الحساب ، والثالثة حال المحاسبة ، والرابعة حال السوق إلى دار الجزاء ، والخامسة حال السوق إلى مقامهم في الدار التي يصارون إليها .

فأما الحالة الأولى : : وهي حال البعث من القبور ، فإن الكفار يكونون فيها كاملي الحواس والجوارح لقول الله عز وجل : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ (٨) وقوله : ﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرأ ﴾ أو قوله : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فاسأل العادين ، قال : ان لبثتم إلا قليلاً لو انكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم انما لا ترجعون ﴾ (٩) .

(١) الاسراء : ٩٧	(٢) يس : ٥٢	(٣) الصافات ٢٤
(٤) الاعراف : ٦	(٥) طه : ١٠٢ - ١٠٣	(٦) يس : ٥١
(٧) المعارج : ٤٣	(٨) يونس : ٥	(٩) طه : ١٠٣
		(١٠) المؤمنون : ١١٢

والحالة الثانية . حال السوق إلى موضع الحساب ، وفي هذه الحال يضاً أبجواس تامة يقول الله عز وجل : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (١) . ومعنى فاهدوهم دلوم عليه ، ولا دلالة للاعنى الاصم ، ولا سؤال الأبكم ، فثبت أنهم يكونون باسماع وأبعاد وألسن ناطقة .

واما الحالة الثالثة : وهي حالة المحاسبة فإنهم يكونون فيها أيضاً كاملي الحواس ليسمعوا ما يقال لهم ، ويقرأوا كتبهم الناطقة بأعمالهم ، وتشهد عليهم جوارحهم بسيئاتهم ، فيسمعوها ، وقد أخبر الله عز وجل أنهم يقولون : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (٢) ، وإنهم يقولون لجلودهم لم شهدت علينا وليشاهدوا أهوال القيامة وما كانوا مكذابين في الدنيا به من شدتها ، ويصرف الأحوال بالناس فيها .

واما الرابعة : وهي السوق إلى جهنم ، فانهم يسلبون فيها أسماعهم وأبصارهم والستتهم وعلى ذلك يوردون جهنم ، لقوله عز وجل : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً ، مأواهم جهنم ﴾ (٣) . ويحتمل أن يكون قوله عز وجل : ﴿ يعرف المجرمون بسيئاتهم ﴾ (٤) . فيؤخذ بالنواصي والاقدام ، اشارة إلى ما يشعرون به من سلب الاسماع والابصار والنطق .

والحالة الخامسة : حال الاقامة في النار ، وهذه الحالة تنقسم إلى بدء ومآل . قيدوها انهم إذا قطعوا المسافة بين موقف الحساب وشفير جهنم عمياً وبكاً وصماً بإذلالهم وبشيراً عن غيرهم ردت الحواس اليهم ليشاهدوا النار وما أعد لهم فيها من العذاب ، ويعاينوا ملائكة العذاب ، كل ذلك مما كانوا مكذابين به ، فيستقروا في النار فاطقين سامعين مبصرين .

ولهذا قال الله عز وجل ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ (٥) .

وقال عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ (٦) .

(٣) الاسراء : ٩٧

(٦) الانعام : ٢٧

(٢) الكهف : ٤٩

(٥) الشورى : ٤٥

(١) الصافات : ٢٤

(٤) الرحمن : ٤١

وقال عز وجل ﴿ كلما دخلت أمة لعنت اختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً ، قالت أئراهم لأولاهم . ﴾ (١)

وقال عز وجل : ﴿ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتهم ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ (٢) .

فأخبر الله عز وجل : أنهم ينادون أهل الجنة فيقولون : ﴿ ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ وإن أهل الجنة ينادونهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، قالوا ، نعم ﴾ (٣) .

وأنهم يقولون : ﴿ يا مالک ! ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ما كنون ﴾ (٤) وأنهم يقولون لحزنة جهنم : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (٥) ، فيقولون لهم : ﴿ أو لم تلك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٦) .

وأما العقبي والمال ، فإنهم إذا قالوا ، ربنا اخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون . فقال عز وجل : ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٧) .

وكتب عليهم الخلود بالمثل الذي يضرب لهم . وهو ان يؤتى بكبش يسمى الوزح ، ثم يذبح على الصراط بين الجنة والنار ، وينادوا : يا أهل الجنة خلود ولا موت ، يا أهل النار خلود ولا موت . سلبوا من ذلك الوقت اسماعهم وقد يحوز أن يسلبوا الأبصار والكلام ، ولكن سلب السمع بين لأن الله عز وجل يقول : ﴿ لهم فيها زفير وهم لا يسمعون ﴾ (٨) .

وإذا سلبوا الاسماع صاروا إلى الزفير والشهيق ، ويحتمل أن تكون الحكمة في سلب الاسماع أنهم إنما أوتوا من قبل أنهم سمعوا نداء الرب عز وجل على السنة رسله فلم يجيبوه بل جحدوه وكذبوا به بعد قيام الحجة عليهم بصحبته ، فلما كانت حجة الله تعالى عليهم في الدنيا للاسماع عاقبهم على كفرهم في الأخرى ، فسلب الاسماع تبين ذلك أنهم

٤٤ : (٣) الأعراف :

(٦) غافر : ٥٠

(٢) الملك : ٨

(٥) غافر : ٤٩

(٨) الانبياء : ١٠٠

(١) الأعراف : ٣٨

(٤) الزخرف : ٧٧

(٧) المؤمنون : ١٠٨

كانوا يقولون : ﴿ وفي آذاننا قر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ (١) .

وإن قوم نوح كانوا يستغشون ثيابهم يتستروا منه لئلا يروه ولا يسمعوا كلامه .

وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار في وقت نبينا ﷺ بمثله فقال : ﴿ ألا انهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ (٢) ، وبالله التوفيق . وإن سلب أبصارهم فلأنهم أبصروا بالعين فلم يعتبروا ، أو النطق فلأنهم أوتوه فألحدوا وكفروا والله أعلم .

وأما الحشر على الوجوه : فالمراد به حال السوق إلى جهنم ، فيجمع عليهم فيها بين الحشر على الوجوه وبين سلب الحواس والمنطق ، وقد بين ذلك في آية أخرى فقال : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾ (٣) فبان الحشر على الوجوه ، إنها يكون حال السوق إلى النار .

فأما حال البعث : فإنهم يبعثون قياماً ، لقول الله عز وجل : ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (٤) وأما حال السوق إلى موضع الحساب ، فإنهم ينسلون فيها ويسرعون ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ (٥) . فهذا وجه الجمع بين هذه الآيات عندنا والله أعلم .

وقد يحتمل قول الله عز وجل : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً ﴾ (٦) . على ما ذكرنا في أن هذا يكون في حال سوقهم إلى النار وجهاً آخر ، وهو أن يكون ذلك مثلاً مضروباً لهم : وهو أن الله عز وجل وصفهم في هذه الدار بأنهم صم وبكم وعمي ، ثم كان معنى ذلك أنهم صم عما يسمعون من دعاء الداعي إلى الله عز وجل ، بكم عن الإجابة عمي عن البينات والحجج .

فكذلك وصفهم الله تعالى في الآخرة ، عندما يحشر المتقون إلى الرحمن وقد أأو يساق الجرمون إلى جهنم ورداً ، بأنهم يكونون عمياً بكماً صماً على السنة ، وهو أنهم صم عن تحيات الملائكة وبشاراتهم ، بكم عن المعاذير والحجج ، كما قال الله عز وجل : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (٧) أي لا يكون لهم كلام يجري عليهم فيتكلمون به ،

(٣) الفرقان : ٣٤

(٢) هود : ٥

(١) فصلت : ٥

(٥) المعارج : ٤٣

(٤) الزمر : ٦٨

(٧) المرسلات : ٣٥

(٦) الاسراء : ٩٧

ولا عذر فيؤذن لهم في تركه عني عن طريق الجنة لأن الله عز وجل قد قال : ﴿فأهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون﴾ (١) فهم لا يهتدون إلى غيره .

وهذا أيضاً كما قال الله عز وجل : ﴿لم يكن الله ليفغر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم﴾ (٢) وقال : ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ (٣) . فدللت هذه الآيات على ان المراد بهذه الآيات الصم والبكم والعمي في الآخرة ما ذكرنا والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل : ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ (٤) فيحتمل أن يكون المراد انهم من مر الذلة يكونون ناكسي رؤوسهم ، لا يبصر أحد منهم إلا موضع قدمه ، فهو كذلك كأنه يمشي على وجهه قصد قدميه لا قصد نفسه ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك فقال : ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم﴾ (٥)

فيحتمل أن تكون إشارة إلى حشرهم على وجوههم ، لأن وجوههم إذا كانت على الأرض ، كانوا ناكسي الرؤوس ، ويكون الدليل على هذا ما روى أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، الكفار يحشرون على وجوههم . قال (أليس الذي امشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) . (٦)

فهذا الحديث ينيء ان ذكر الحشر على الوجه تحقيق وليس بمثل للخشوع ، وليس ذلك بمستنكر ، فان الله تعالى جعل الجنة التي هي عدو بني آدم يمشي على بطنها ، فإن ألحق الكفار والذين هم أعداء المؤمنين في الآخرة بها فجعلهم مشاة على بطونهم ووجوههم لم يبعدوا والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل عن كيفية انتهاء الحياة الأولى وابتداء الحياة الأخرى ، وصفة يوم القيامة ، وما يكون قبل المحاسبة ، قيل له - والله للتوفيق - :

- | | | |
|---|------------------|------------------|
| (١) الصافات : ٢٤ | (٢) النساء : ١٦٨ | (٣) الفرقان : ٢٢ |
| (٤) الاسراء : ٩٧ | (٥) السجدة : ١٢ | |
| (٦) ورد في صحيح البخاري تفسير سورة ١٥ / ١ ، وفي صحيح مسلم « المنافقين » ٥٤ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٦٣ | | |

اما انتهاء الحياة الأولى فإن له مقدمات تسمى اشراط الساعة ، وهي اعلامها : منها خروج الدجال ونزول عيسى صلوات الله عليه وقتله الدجال ، ومنها خروج يأجوج ومأجوج ، ومنها خروج دابة الارض ومنها طلوع الشمس من مغربها ، فهذه هي الآيات العظام .

وأما ما تقدم هذه من قبض العلم وغلبة الجهل واستعلاء أهله وتبعية الحكم ، وظهور المعارف ، واستفاضة شرب الخمر ، واكتفاء النساء بالنساء والرجال بالرجال ، وإطالة البنیان وزخرفة المساجد وامارة الصبيان ، ولعن آخرة الأمة أولها وكثرة الهرج ، فإنها أسباب حادثة ، ورواية للاخبار المنكرة بها بعدما صار الخبر عيانا ، الا انها في الجملة اعلام للساعة ، وقد مضى من هذا القول في هذا ذكر اليوم الآخر .

وأما الدجال فانه رجل من بني آدم كأعظمهم وأجسرهم ، أعور كأن احدى عينيه غيبة طافية ، وقد أنذر النبي ﷺ أمته ووصفه لهم ، ولكنه لم يبين لهم وقت ظهوره . واخبرهم عن تميم الدرامي : انه رآه في جزيرة في البحر ، مغلوله يدها إلى عنقه ، مصفدا بالحديد عن ركبتيه إلى عقبيه .

وانه سأل عن النبي ﷺ العربي ، وطاعة العرب له . فاخبروه انه قد خرج وانه قد اذعنت له العرب واطاعته ، فقال : ذلك خير لهم أن يطيعوه ، وانه قال له فيما قال : يوشك أن أطلق ، فلا يبقى بلد وأرض الا وطئتها ما خلا طلبية . فاخبرهم النبي ﷺ : أنه أراد بذلك المدينة التي سهاها طلبية ، وأن عليها ملائكة يمنعونها عنها ، وان مكة محرمة عليه ، فلا يدخلها ، وأنه كان في حديث تميم : أنه في البحر الذي في المغرب ، فإنه لا يأتي الناس إلا من قبل المشرق .

وأخبرهم ان الناس يهبطون قبل خروجه بثلاث سنين ، فتحبس السماء في السنة الأولى ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها . وتحبس السماء السنة الثانية ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها . وتحبس السماء في السنة الثالثة جميع قطرها والأرض جميع نباتها ، ثم يكون خروج الدجال .

وأخبرهم ان عيسى بن مريم صلوات الله عليه ينزل بيت المقدس وقت صلاة الفجر ، والمؤمنون يومئذ قليل ، وشيعة الدجال اليهود ، فيصل عليه السلام ويتوجه نحو الدجال

والمؤمنون معه فينصره الله تعالى عليه ، فيقتله ولا يبقى بعده كافراً الا ويقتل أو يسلم ، فيكون الدين كله يومئذ لله تعالى ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويفيض المال في زمانه حتى لا يقبله أحد .

وأخبرهم ان الدجال إذا بلغ ظاهر المدينة ، رأى بها رجلاً من خير الناس . فيقول له أشهد انك الدجال الذي قد حدثنا رسول الله ﷺ حديثه . فيقول الدجال : أرايتم لو قتلت هذا ثم احببته ، هل تشكون في الأمر ، فيقولون لا : فيقتله ثم يحببه ، فيقول له : ما قتل ، أشد بصيرة مني اليوم ، فيزيد الدجال قتله ، فلا يتسلط عليه .

ومعنى احبائه ذلك القتل انه يعالج منه أمراً ما فيحبيه الله تعالى هو فتنة للناس ، كما يحبي الموتى المسيح صلوات الله عليه دلالة للناس على صدقة في دعوته . فيظن بعض من يراه انه هو المحيي له ، وانه صادق فيما يدعيه من أنه رب الناس والههم . ويتمسك بالحق من يوفقه الله تعالى .

فان قال قائل : إذا كان لا يجوز أن يد الله تعالى مدعي النبوة باطلا بالمعجزات فمن أين جاز أن يحبي الميت ليدعي الربوبية عند حاجته إلى ذلك .

قيل له : هذا لأن مدعي الربوبية غير منفك في نفسه من دلائل الحديث ، وامارات الخلق والصنعة ، لأنها به محيطة وعليه بالكذب شاهده ، فلا يؤدي احياء الميت له إلى تبين حاله ، فيمكن أن يكون إلهاً ، لأن من راجع عقله علم انه لا فرق بينه وبين سائر المحدثات من الناس وغيرهم من الشواهد المحدثه عليه . ولم يسأل مع ذلك بأنه ليس بإله ، إذ المحدث لا يكون إلهاً . ولو جاز أن يكون محدث إلهاً ، لجاز أن يكون كل محدث ، فتكون الموجودات كلها آلهة وذلك فاسد محال .

وأما مدعي النبوة ، فإنه مدعي أمراً ممكناً بالا انه مغيب ولا شاهد من نفسه على انه محق أو مبطل فيه . وإنما يحتاج إلى علم ذلك بدليل يفرح من جهة أوصافه وأحواله المعهودة . فإذا كان كاذباً وأمد بالمعجزات كما يدعي الصادق لم يكن الفرق بينها أبداً وصار ذلك سبباً للشك في كل مدعي النبوة ، أو الكفر بالصادق والأيمان بالكاذب ، وذلك خارج من الجملة ، فلهذا أنكرنا ان يد الله تعالى بآياته وبيناته إلا من كان صادقاً عليه في انه رسول والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن وجه انزال عيسى صلوات الله عليه لقتل الدجال دون نصره المؤمنين الذين يكرمون يومئذ عليه ، فيكونوا هم الذين يقتلونه .

قيل له : يحتمل ان يكون ذلك لأن اليهود همت بقتل المسيح عليه السلام وصلبه . وجرى أمرهم معه على ما بينه الله تعالى في كتابه ، وهم أبأ يدعون انهم قتلوه ، وينسبونه إلى السحر وغيره ، إلى ما كان الله تعالى يراه ، ونزعه منه .

وقد ضرب الله تعالى عليهم الذلة ، فلم تقم منذ أعز الله تعالى الاسلام وأظهره راية ، ولا كان لهم في بقعة من بقاع الأرض سلطان ولا قوة ولا شوكة .

ولا يزالون كذلك إلى ان تقرب الساعة فيظهر الدجال ، وهو أسحر المسيح ، ويتابعه اليهود فيكونون يومئذ حيرة مقديرين انهم ينتقمون به من المسلمين ، فإذا صار أمرهم إلى هذا أنزل الله تعالى المسيح عليه السلام إلى عندهم انهم قتلوه ، وأبرزه لهم ولغيرهم من الموافقين والمخالفين حياً ، ونصره على رأسهم وكبيرهم المدعي الربوبية فيقتله ، ويهزم جنده حتى إذا فرغ منه اتبع بمن معه من اليهود المؤمنين اليهود فلا يجدون مهرباً وان توارى أحد منهم بشجرة أو مدرة أو حجر أو جدار ناداه :

يا روح الله ها هنا يهودي حتى يوقف عليه ، فإما أن يسلم وأما ان يقتل . فكذلك كل كافر من كل صنف فلا يبقى على وجه الأرض كافر ويدرك المسيح صلوات الله عليه من أعداؤه ، عندما رفعوا رؤوسهم وظنوا ان الامر قد عاد إليهم تارة ، ويشفي الله تعالى منهم صدره ويذيقهم ما هموا ان يذيقوه ، وظنوا انهم فعلوه .

ويظهر للمسلمين أن ما بلغهم نبينهم صلوات الله عليه من أمره عن الله تعالى كان حقاً كما عرفوه واعتقدوه ، فيقع العلم به عياناً ، ويصير ذلك دلالة باهرة على موته ، بعدما قبضه الله تعالى إلى كرامته والله أعلم .

ووجه اخر : وهو انه يحتمل ان يكون انزال عيسى صلوات الله عليه وسلم لا لقتال الدجال ، ولكنه لدنو أجله ، لأنه رفع إلى السماء فبقي فيها ما أراد الله تعالى ، الا انه قد جعل له اجلاً إذا جاء أدركه من الموت ما يدرك أمثاله ، ثم لا يتبقي للخوف من التراب

ان يموت في السماء ولكن أمره يحري على ما قال الله تعالى : ليقره في الأرض مدة يراه فيها من يقرب منه ويسمع من ناب عنه ، ثم يقبضه الله تعالى بتولي المؤمنين أمره ، ويصلون عليه ، ويدفن حيث دفن بقية الأنبياء الذين أمهم مريم من نسلهم ، أعني الأرض المقدسة فينشر إذا نشر معهم .

هذا سبب انزاله غير انه يتفق في تلك الأيام من بلوغ الدجال باب الدماء قد وردت به الاخبار ، فاذا اتفق ذلك ، كان الدجال قد بلغ من فتنته ان ادعى الربوبية ، والمؤمنون قلة لم يكن أحد ليمتص لقتاله ويتوجه نحوه لخوف منه ، ولا أحد بان يظفر عليه ، ويجري قتله على يده أولى منه ، إذ كان ممن اصطفاه الله تعالى لرسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وجعله آية ، وانه فعل هذا الوجه ليكون هذا الأمر لا أنه ينزل لقتال الدجال قصداً ، والله أعلم .

وقد ورد الخبر بما ذكرنا من انه يموت ويلى أمره المسلمون ، ويصلون عليه ، فمن هناك وقع الاشتقاق ، بهذا الجواب وبالله التوفيق .

فصل

لئن سأل سائل: عن منزلة عيسى صلوات الله عليه إذا نزل انه يكون نبياً أو غير نبى وانه إذا كان حكماً كما قال النبي ﷺ : « لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير » ^(١) فبماذا يحكم وكيف يكون مع المسلمين أمره ؟ .

قيل له : - وبالله التوفيق - : ان عيسى صلوات الله عليه قد تناهت رسالته عندما بعث الله تعالى نبينا محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن ، فان عامة قومه لزمهم ان يدخلوا في دين محمد ﷺ ، وينتقلوا إلى دعوته وشريعته ، فيرفضوا مما تقدم بخلافها ويعملوا بما يوافقها على انه شريعة محمد ﷺ الا انه شريعة موسى وعيسى صلوات الله عليهما .

وإذا كانت رسالته قد تناهت في ذلك الوقت ، وقد أخبر الله عز وجل ان محمداً نبينا ﷺ خاتم النبيين ، لم يحز ان يتوهم ان عيسى صلوات الله عليه إذا نزل نزل رسولاً ،

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الفتن » باب ٣٣ ، رقم ٩٧٧ ، ٤٠٧٨

فصح أن يكون يومئذ من اتباع محمد ﷺ ، كما أخبر به عن موسى عليه السلام ، حيث قال لهم : لو كان حياً ما وسعه إلا اتباعي .

وجاء في بعض الاخبار أنه إذا نزل صلوات الله عليه صلى خلف الإمام بيت المقدس ولم يتقدمه ، وإنما صار حكماً ، فإنه لا سلطان له يومئذ للمسلمين ، ولا إمام ولا قاضي ولا مفتي قد قبض الله العلم وخلا الناس منه فينزل ، وقد علم بأمر الله عز وجل في السماء قبل أن ينزل ما يحتاج إليه من علم هذه الشريعة للحكم به بين الناس والعمل به في نفسه فيجتمع المؤمنون عند ذلك إليه ، ويحكموه على أنفسهم ، أو يكون له أن يحملهم على أن يحكم بينهم ، لأن تعطيل الحكم غير جائز ، ولا أحد يصلح لذلك يومئذ غيره .

ولا يبعد على هذا أن يقال أن قتاله الدجال يكون من هذا الوجه ، وذلك أنه إذا حصل بين ظهري الناس وهم مفتونون ، فدعم فرض الجهاد أعيانهم ، وكان أحدهم لزمه من هذا الغرض لم يلزم غيره ، ولذلك يقوم به ، وذلك داخل في اتباع نبينا ﷺ وبالله التوفيق .

فصل

وأما دابة الأرض ، فإن الله تعالى ذكرها في القرآن : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ (١) .

فيحتمل أن يكون معنى وقوع القول عليهم : أي وجب الوعيد عليهم لتأديبهم في العصيان والفسوق ، واعراضهم عن آيات الله عز وجل وتركهم تدبيرها والنزول على حكمها ، وانتهائهم في الطغيان إلى ما لا تنجع فيهم موعظة ، ولا تصرفهم عن غيهم تذكره بقول عز من قائل فإذا صاروا كذلك ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ (٢) . أي دابة تمقل وتمطق ، وذلك - والله أعلم - ليقع لهم العلم بأنها آية من قبل الله تعالى ضرورة ، فإن الدواب في العادات لا كلام لها ولا عقل ، فإذا خرجت لهم دابة تمقل وتكلم ، ولم تكن مع ذلك من الدواب المهودة ، لكن دابة مباينة لأصناف الدواب ، انبثقت عنها الأرض وكانت منفردة بنفسها لا يتعلق أمرها بمدعي نبوة أو أحد من الناس .

فيقال : انه سحر وتحويل ، انبثقت إليهم عنها من كل وجه ، ولم يشك أنها آية أراها الله تعالى عباده والله أعلم .

وأما الأمر الذي لم يخرج الدابة ، فهو تمييز المؤمن والكافر والمنافق ، ورسم كل فريق من هؤلاء الفرق في وجهه بما يعلم الله تعالى منه ، وهي وإذا تعقل ذلك بالهام الله عز وجل إياها ، لا باخيتار وامتحان يقع فيها للناس ، ووردت الأخبار بعد القرآن بذكرها . وفي بعضها انها تخرج بمكة بين الصفا والمروة .

وجاء عن عبد الله بن عمر انه قال وهو يومئذ بمكة : لو شئت لاخترت بشيء به هاتين ، ثم مشيت حتى ادخل الوادي الذي تخرج منه دابة الارض ، فانها تخرج ، فتلقى المؤمن فتسمه في وجهه وكفيه ، فيبيض بها وجهه ، وتسم وجه الكافر وكفيه فيسود بها وجهه . وهي دابة ذات رغب وریش ، فيقول : ﴿ ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ وهذا والله أعلم ، إنما نذكر الناس بهذه التلاوة ، انها الدابة التي أخبر الله تعالى عنها في القرآن ، فقال : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ان دابة الارض تخرج من بعض أودية تهامة ذات زغب وریش ، لها أربع قوائم ، فتكتب بين عيني المؤمن بكثة يبيض منها وجهه ، وتكتب بين عيني الكافر بكثة فيسود منها وجهه . والبياض في هذين الاثرين بياض من من غير سوء ، يشبه ان يكون ذلك عبارة عن النور والاشراق والله أعلم .

واما ظهور يأجوج ومأجوج فإنه يكون في أيام عيسى صلوات الله عليه بعد قتله الدجال بذلك . ووردت الأخبار ، وفيها انهم إذا خرجوا لم يأتوا على أحد إلا أهلكوه فتهرب الناس ، ويأتون عيسى عليه السلام مستغيثين منهم ، فيدعو الله عليهم دواباً يقال لها النفث فتأخذ بأقفيتهم فتقتلهم ، فتتبين الارض منهم ، فيأتي الناس صلوات الله عليه ثانية فيدعو الله عليهم ، فيبعث الله عليهم الماء فيذهب بهم فيقذفهم في البحر .

وأما طلوع الشمس من مغربها ، ، فقليل في قول الله عز وجل : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا

ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴿ ١١ ﴾ .

ان المراد بطلوع الشمس من مغربها . وجاء ذكره نصاً عن النبي ﷺ ، وفي بعض الاخبار ان تلك الليلة تطول فلا يعلم بحالها إلا المجتهدون أصحاب الأوراد ، فانهم يفرغون من أورادهم ، والليل بحاله ، فيعودون لمثلها .

فإذا فرغوا منه ولم يصبحوا قاموا ظناً ولم يستفتوه حتى يعودوا لأورادهم ، فإذا فرغوا وجدوا الليل لا يحلى استفتوا ، وفرق الناس فصاحوا وفرغوا إلى ذكر الله تعالى والصلاة والبكاء ، فإذا طلع الفجر رأوه من قبل المغرب ثم طلعت الشمس من مغربها فيشاهدونها لا نور لها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها .

وفي بعضها انها تطلع من قبل وتبقى الدنيا حتى يلتقي الشيخان الهرمان ، فيقول أحدهما للآخر : متى ولدت ؟ فيقول : أخبرتني أهلي أني ولدت ليالي طلعت الشمس من مغربها .

فصل

فأما أول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى صلوات الله عليه ثم خروج يأجوج ومأجوج وبيان ذلك أن الكفار في وقت عيسى عليه السلام يفتنون ، لان منهم من يقتل ومنهم من يسلم ، وتضع الحرب أوزارها ، فيستغني عن القتال على الدين بذلك أخبر رسول الله ﷺ ، فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربها لم ينفع اليهود إيمانهم أمام عيسى صلوات الله عليه ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً باسلام من يسلم منهم .

فأما الآيتان الباقيتان فالذي نسبته ان عيسى صلوات الله عليه ، إذا قبضه الله تعالى دخلت الارض منه ، وتطاول الايام على ذلك اخذ الناس في الرجوع إلى عاداتهم واحداثوا الأحداث من الكفر والفسوق كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه الله تعالى حجة عليهم ، ثم قبضه فيخرج الله تعالى دابة من الارض كما تقدم وصفه ، فيميز المؤمن من الكافر ، ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم والفساق عن فسقهم ويستبصروا وينزعوا أعمالهم فيه من الفسوق

والعصيان ولا يتجاوزون الأمر في ذلك الوقت هذا الحد ، وتغيب الدابة عنهم ويمهلون
ويصيرون إلى طغيانهم .

أطلعت الشمس من مغربها لم تقبل بعد ذلك لكافر ولا فاسق توبة ، وأزيل الخطاب
بها والتكليف عنهم . ثم كان قيام الساعة على أثر ذلك قريباً لأن الله عز وجل يقول :
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) . فإذا قطع التعبد عنهم لم يقرهم بعد ذلك
في الأرض زماناً طويلاً ، إلا أنه لا يعلم متى تقوم إلا الله تعالى .

وروي أن رسول الله ﷺ ، كان يكثر السؤال عنها حتى نزلت : ﴿ فم أنت من
ذكرها ، إلى ربك منتهاها ﴾ (٢) . فأمسك عن السؤال بعد ذلك .

وقال عز وجل : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي ، لا
يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفي
عنها ، قل إنما علمها عند الله ﴾ (٣) .

وسئل النبي ﷺ عنها فقال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « لتقوم الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبها بينهما ولا يتبايعانه
ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نجسته فلا يطعمه ، ولتقوم
الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا
يطعمها » (٥) .

وجاء عن النبي ﷺ : « لا تقوم إلا نهاراً ، وأنها تقوم يوم الجمعة » (٦) والله أعلم .
وفيما ذكر أنه يكون في زمان عيسى صلوات الله عليه أن الضريح يأتيه إن ذا السويقين
الحبش قد سار إلى البيت ليهدمه ، فيبعث عيسى صلوات الله عليه طائفة من بين الثماني
إلى التسع .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « يوشك أن يحشر الفرات عن جبل من ذهب ، فمن

(٣) الاعراف : ١٨٧

(٢) النازعات : ٤٤

(١) الذاريات : ٥٦

(٤) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ٩ .

(٥) ورد في صحيح البخارى « الفتن » حديث رقم ٦٤ ، وفي صحيح البخارى « ايمان » باب ٣٥ .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

حضر فلا يأخذ منه شيئاً» فيشبه ان يكون هذا الزمان الذي أخبر النبي ﷺ : « ان المال يفيض فيه فلا يقبله أحد » (١) وذلك في زمان عيسى صلوات الله عليه . ولعل سبب هذا الفيض العظيم ، ذلك المثل مع ما يغنمه المسلمون من أقوال المشركين والله أعلم .

فان قيل : فما المعنى في نهي النبي ﷺ : « من حضر ذلك الجبل لا يأخذ منه شيئاً » . قيل : يحتمل أن يكون ذلك لتقارب الأمرين ، وظهور اشراطه ، فان الركون إلى الدنيا والاحتشاد لها ، مع ذلك جهل واغترار . ويحتمل ان يكون لانه مجرى المعدن ، فإذا أخذه ، ثم لم يجد من يخرج حق الله تعالى إليه ، لم يوفق بالبركة من الله تعالى فيه ، فكان الانقباض عنه أولى والله أعلم .

وفي بعض الاخبار ما يدل على ان أول الإشرط ناز تظهر بالحجاز ، فتضيء منها أعناق الابل ببصرى . وفي بعضها : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . وفي بعضها عن النبي ﷺ قال : « لن تذهب الايام حتى يملك رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً لما ملئت جوراً » (٢) .

وفي بعضها : انه يفتح القسطنطينية وجبل الديلم ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد يطول الله ذلك اليوم ففتحها على يده « وفي بعضها : لا تقوم الساعة حتى يقتتل فتیان عظيماً مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة ، وحتى يخرج دجالون كلهم يزعم أنه نبي .

فأما قول الله عز وجل : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (٣) . فقد روى أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية فأراهم القمر منشفاً بنصفين والجبل بينهما ، فقال : أشهد وأؤمن . قال معناه : ينشق كما قال : « أتى امر الله فلا تستعجلون » معناه يأتي .

فان كان هذا هكذا فقد أتى . ورأيت ببخارى الهلال وهو ابن ليلتين منشقاً بنصفين عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع او خمس ، وما زلت انظر اليها حتى اتصلا ، ثم لم يعودا كما كانا ولكنها صارا في شكل اترجة ولم امل طرفي عنها إلى ان غابت ،

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد إلا في سنن الترمذی « فتن » باب ٥٠ ، ٥٢ .

(٣) القمر : ١ .

وكان معي ليلتئذ جماعة ما بين شريف وفقهه وكاتب وغيرهما من طبقات الناس ، وكل
وأى ما رأيته .

واخبرني من وثقت به ، من كان خبره عندي كعيان : أنه رأى الهلال وهو ابن ثلاث
مئتين بنصفين ، وإذا كان هذا هكذا ، ظهر ان قول الله عز وجل : ﴿ وانشق القمر ﴾ (١)
انما هو على الانشقاق الذي هو من اشراط الساعة دون الاشتقاق الذي جعله الله تعالى آية
لرسوله ﷺ وحجة أهل مكة وبالله التوفيق .

فصل

واذا انقضت الاشراط وجاء الوقت الذي يريد الله تعالى اimate الأحياء من سكان
السموات والبحار والأرضين ، أمر اسرافيل وهو أحد حملة العرش وصاحب اللوح المحفوظ
ينفخ في الصور . وفي بعض روايات العرب ، يروى ان رسول الله ﷺ قال : كيف أنعم
الله أو قال كيف اضحك ، وصاحب القرن قد التقمه ، وحق ظهره ينتظر متى يوم
ينفخ ، فإذا نفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض ، إلا من شاء الله (٢) .
وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه ان الاستثناء لاجل الشهداء فان الله عز وجل يقول :
﴿ أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٣) وهذا مما لا تحتمل الامة غيره ، لان من خالف هذا
القول زعم ان الاستثناء لاجل الشهداء وحمة العرش وجبريل وميكائيل وملك الموت .
أو زعم انه لاجل موسى صلوات الله عليه ، فان النبي ﷺ قال : « أنا أول من تنشق
الارض عنه ، فأرفع رأسي ، فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري
أفاق قبلي إذ كان ممن استثنى الله تعالى » (٤) . وشيء من هذه الأقوال يصح .
أما الاول فلأن حملة العرش وجبريل وميكائيل ليسوا من سكان السموات ولا من سكان
الارض ، لان العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات .

(١) القمر : ١ (٢) ورد في سنن الترمذي « القيامة » باب ٨ ، وفي مسند الامام

(٣) آل عمران : ١٦٩

أحمد بن حنبل ج ١ ، ص ٣٢٦

(٤) ورد في سنن ابن ماجه « الزهد » ٣٧ ، رقم ٤٣٠٨ .

وأما جبريل وميكائيل فمن الصافين المسبحين حول العرش ، فإذا كان العرش فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله في السموات .

وكذلك القول الثاني لان الولدان والحوار في الجنة والجنان ، وان كانت بعضها أرفع من بعض فان جميعها فوق السموات دون العرش وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك انها بمعزل عما خلف للفناء والله أعلم .

واما صرف الاستثناء إلى موسى صلوات الله عليه فلا وجه له ، لانه قد مات بالحقيقة ، فلا يموت عند نفخ الصور ثانية ، فهذا لم يعد في ذكر اختلاف المتأولين بالاستثناء بقول من قال : الا ما شاء الله ، ان الذي موتهم قبل نفخ الصور ، لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة . فما من لا يمكن دخوله فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليس بغرض ان يصعقوا ، فلا وجه لاستثنائهم ، وهذا في موسى صلوات الله عليه موجود ، فلا معنى لاستثنائه والله أعلم .

وقد جاء عن النبي ﷺ في ذكر موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو ان قال : « ان الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، وإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أو جرى بصعقة الصور » (١) .

فظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة عيسى يوم القيامة لا صعقة الموت الحادث عن نفخ الصور . فاذا حمل الحديث عليها ، فذاك . وان حمل على صعقة الموت عند نفخ الصور وصرف ذكر القيامة ، إلى انه أراد أوائله ، قيل المعنى ان الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أنا أول من يرفع رأسه ، فاذا موسى اخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أو جرى بصعقة الصور ، أفلا أدري ان بعثة قبلي كان برسالة ، وتفضيلا من هذا الوجه كما فضل في الدنيا بالتكلم ، أو كان جزاء بصعقة الطور ، وقدم بعثه على بعث الانبياء الآخرين بقدر صعقته عندما تجلى به الجبل إلى أن أفاق ليكون بهذا جزاء له بها ، وما عداها فلا يثبت والله أعلم .

فأما الملائكة الذين ذكرناهم فإننا لم ننف عنهم الموت وإنما اثبتنا أن يكونوا هم

(١) لم يرد إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٣٣ .

المرادين بالاستثناء من الوجه الذي ذكرناه . قد وردت الأخبار بأن الله عز وجل يبيت حمة العرش وملك الموت وميكائيل ، ثم يبيت آخر من يبيت جبريل عليه السلام ويحييه مكانه ويحيي هؤلاء الملائكة الذين ذكرناهم .

وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر ، وكما ظهر انها دار الخلد ، فاذا كان الذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلاً للموت ، فالذي خلق فيها أولى أن لا يموت أبداً . وأيضاً ان الجنة دار لذة وسرور ، لا خوف فيها ولا حزن ، وإن من فيها لا يمرض ولا يموت .
وأما أهل السماء فانهم خائفون وجلون ، وأهل الأرض بالبلايا والمصائب منتحبون . فلا ينكر أن يكون هؤلاء يموتون وأولئك لا يموتون .

وأيضاً فان الموت انها هو لقهر المكلفين ونقلهم من دار إلى دار وأهل الجنة لم يبلغنا ان عليهم تكليفاً ، فان اعفوا عن الموت كما اعفوا عن التكليف لم يكن ذلك ببعيد .
فان قيل : ان الذين يدخلون الجنة انما لا يموتون ولا يخافون ولا يحزنون ، جزاء لهم بأعمالهم ، والولدان والحوار لم يربوا في الجنة ، جزاء لهم بعمل صالح قدموه فان ماتوا فذلك ، ولا يبعد من أمرهم .

قيل : لو صح هذا لجاز على قياسه أن يمرضوا ويبتلوا بالجماعة والجهد والخوف من الذين يحرمونه من أهل الجنة ، فان كان شيء من هذا لا يلحقهم ، وإن لم تكن الجنة جزاء لهم ، فلا ينكر أن لا يكتب عليهم الموت ، وإن لم تكن الجنة جزاء لهم ، وبالله التوفيق .

فان قيل : فان الله عز وجل يقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (١) . وفي هذا دليل على ان الجنة يفنيها ثم تعاد ليوم الجزاء . فما أنكرتم أن الولدان والحوار يموتون ثم يحيون !

قيل : يحتمل أن يكون معنى كل شيء هالك إلا وجهه ، أي ما من شيء الا وهو قابل للهلاك . فیهلك ان اراد الله ذلك الا وجهه أي الا هو ، فإنه تعالى قديم والقديم لا يمكن أن يفنى ، وما عداه محدث والمحدث انما يبقى قدر ما يبقيه محدثه ، فإذا حبس البقاء عنه هلك ، ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معدل ، انه يهلك العرش ويبقيه ، فلتكن الجنة مثله والله أعلم .

فصل

وقد سمي الله عز وجل الصور بإسمين : أحدهما الصور والآخر الناقور ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ ، فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (٢) . وقول المفسرين انه الصور . والظاهر ان الصور وإن كان هو الذي ينفخ فيه النفخات جميعاً ، فإن الاصعاق يخالف صيحة الاحياء .

وجاء في الأخبار : ان في الصور ثقباً يعد الأرواح كلها ، وانها تجمع فيه النفخة الثانية ، فيخرج عند النفخ كل روح من إحدى الثقوب نحو الجسد الذي نزع منه وحق يرجع اليه ، فيعود الجسد حياً بإذن الله تعالى ، فيحتمل أن يكون الصور يجمع الآيتين ، ينقر في أحدهما ، وينفخ في الأخرى ، فإذا فيه للأصعاق جمع بين النقر والنفخ لتكون الصيحة أهل وأعظم . وإذا نفخ فيه للأحياء لم ينقر فيه ، واقتصر على النفخ ، لأن المراد ارسال الأرواح في ثقب الصور إلى أجسادها لا ينفرها من أجسادها . والنفخة الأولى للتنفير ، وهي نظير صوت الرعد الذي قد يقوى فيموت وبالله التوفيق .

فصل

فإذا مات الأحياء كلهم تركوا أربعين سنة ، ثم نفخ في الصور نفخة الأحياء واتفقت الروايات على أن بين النفختين أربعين ، وقال العلماء : هي أربعون سنة ، وذلك - والله أعلم - بعد أن يجمع الله تعالى ما يفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض ، وما أصاب النيران منها بالحرق ، والمياه ، وما ابتلته الشمس وذرقه الرياح . فإذا جمعها واكمل كل بدن منها ولم يبق إلا الأرواح ، جمع الأرواح في الصور ، وأمر اسرافيل صلوات الله عليه . فان سلها بنفخة من نفث الصور ، فرجع كل روح إلى جسده بإذن الله تعالى .

وجاء في بعض الأخبار : ما بين ان كل شيء اكله طائر أو سبع حشر من جوفه أو هو مارواه الزهري عن أنس رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ بحمزة يوم أحد ، وقد جدع

ومثل به فقال : (لولا أن نجد صفته في نفسها لتركناها حتى يحشره الله تعالى من بطون السباع والطير) (١) .

فان سأل سائل عن كافر اكل لحم مؤمن ، أو مؤمن أكل لحم كافر ، كيف يحشر هؤلاء ؟ قيل له : الله أعلم بذلك ، لكن الذي تبلغنا علمه فيه ، هو ان الكافر إذا أكل لحم مؤمن لم يرجع لحمه من بدن الكافر إلى بدن المؤمن ، إذا كان قد بقي في جوف الكافر ، وصار غذاء له . فأما إن أكله فمات أو قيل : قبل أن يصير غذاء له ، فإنه يرجع منه عند البعث إلى بدن المؤمن ، وإذا لم يرجع في الحال الأولى عوض المؤمن مثله ، وأكمل جسده ، ونفخ فيه روحه فقام باذن الله تعالى حياً .

وعلة هذا - والله أعلم - ان تلك الأجزاء التي انقلبت بدن كافر ، بعد ان كانت من بدن المؤمن ، فقد وجد منه الكفر والمعاصي بها ، فلو أعيد إلى بدن المؤمن فادخل الجنة لكان قد أدخل الجنة أجزاء من كافر ، وليست الجنة دار الكفار . فصح إذا انها تصار إلى النار ويعوض المؤمن من أمثلها اختراعاً يخترعه الله عز وجل .

فان قيل : وكذلك إذا قلتم انها لا تعود إلى بدن المؤمن ، قلتم انها تصار إلى النار ، وفي ذلك ابطال ما عمل المؤمن بها من الطاعات أيام حياته .

فالجواب : ان ذلك الثواب لا يبطل عمل المؤمن ، وإنما يبطل بنعم تلك الأجزاء التي انقلبت فصارت من بدن الكافر بالثواب ، وذلك لأن الثواب انها هو لنفس المدين ، ولكن أيضاً من بدنه إذا سلمت له وصلت نعمة الثواب إلى نفسه من أما كن شقي ، فاذا مات بعضها وصلت هذه النعمة اليه مما بقي من عرض ما فات .

وأما الأجزاء الفانية التي صارت من بدن الكافر ، فإنها لا تنعم بشيء ، فان ذلك لو كان يفرح به الكافر ولم يشعر به المؤمن الذي كانت هذه الأجزاء من بدنه ، وذلك غير جائز والله أعلم .

وأما المؤمن إذا أكل لحم كافر واغتذى به ، فالقول فيه على ما وصفت أيضاً ، وهو ان أجزاء الكافر لا ترد من بدن المؤمن إلى بدن الكافر ، إنها أجزاء وجدت من المؤمن

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

الطاعات بها فلو أعيدت إلى بدن الكافر لكانت أجزاء من المؤمن قد دخلت في النار ، وإننا الخلود في النار للكافر وأما عذاب الكفر كاملاً فإنه واقع بالكافر لا ينقص منه شيئاً لما فات من أجزائه .

فان قيل : فكيف يبعث : قيل : يجوز أن يقال أن الله عز وجل يعوضه مما أكل المؤمن من لحمه مثله ، فيكمل جسده الذي كان .

فان قيل : أفيخلص العذاب إلى هذا العوض ، أو يكون الألم كله على البدن القديم ؟ فان قلتم ان العذاب يخلص إلى العوض الحادث اجزمت تعذيب ما لم يكن له نصيب في الذنب . وإن قلتم : إن الألم يحل كله على البدن القديم ، أوجبتم نقل حصة الأجزاء الفانية من العذاب إلى الأجزاء الباقية ، وذلك غير جائز .

قيل : وما في هذا إن قلنا ان العوض الذي كمل به جسمه يتألم بالعذاب ، فان الله عز وجل قال : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليدوقوا العذاب ﴾ (١) فليس هذا مثله وإن قلنا ان الألم كله يخلص إلى باقي البدن القديم ، فان عذاب الكافر القتل وعذاب الكافر القتل قد يجوز أن يكون سواء ، فامكن هذا مثله ، وليس ما قالوا من نقل العذاب من بدن إلى بدن في شيء ، لأن العذاب كله على النفس الكافرة فان كملت ابعاض البدن خلص الألم إليها من اما كن شق ، وإن نقصت ابعاض البدن خلص الألم إليها فما بقي لمقدار في الحالين واحد والله أعلم .

وأما المؤمن يأكل لحم مؤمن فإن المأكول لحمه يعوض من لحمه ما يأكل به بنيته ، ويبعث ويحزي بما عمل من الطاعات ، ويوصل اليه ثوباً كاملاً لا يبخس منه شيئاً . فأما الأجزاء التي كان عمل بها عمل الطاعات ، ثم صارت من بدن غيره فانها لا تفرد بثواب . لأن الثواب للنفس المؤمنة ، فلو كانت تلك الأجزاء الباقية مع ما بقي من بدنه لكانت نعمة الثواب تأتي نفس المؤمن من قبل جميعها ، ولكنها إذا ماتت لم تنعم بنعمة لا يشعر بها المؤمن الذي كان قربها منه ولا يحدها في نفسه .

وأما الكافر يأكل لحم كافر ، فالقول فيه على هذا أيضاً ، وهو ان المأكول لحمه يعوض ما يكمل به بنيته ويحزي بما عمل من السيئات جزاء كاملاً ولا تعود الأجزاء التي صارت

(١) النساء : ٥٦

من بدن غيره لجزاء ، لأن ذلك لو كانت يتألم به الكافر الذي كانت هذه منه . وإنها لجزاء له ، فكيف يجزي بما لا يحده في نفسه ولا يشعر به والله أعلم .

فان قيل : فما الفرق بين ما أكله السبع وحوت الماء والطيير ؟ يقولون انه يرد إلى الأبدان التي أكلت منها ، وبين ما أكله الناس بعضهم من بعض يقولون ان شيئاً منه لا يرد إلى أصله لكن صاحبه يعوض منه .

قيل : الفرق بين الناس ما أكله الناس من بعضهم من بعض ، فقد انقلب من مكلف إلى مكلف ، فلا بد للمكلف في الدنيا من معاد وجزاء في العقبى . والمعاد اما الجنة واما نار ، اوجبنا أن يكون الاكل أحق بأن يبقى له ما أكل من المأكول منه ، لأن ذلك ان لم يكن كذلك يؤدي إلى ادخال جزء من الكافر الجنة أو جزء من المؤمن النار ، وقديمت في أكل المؤمن لحم الكافر ، وأكل الكافر لحم المؤمن ، وإذا وجب هذا الحكم من هذين ، كان أكل المؤمن لحم المؤمن وأكل الكافر لحم الكافر في معناها . لأن كلا من ذلك أكل مكلف من لحم مكلف .

فقلنا : إن ما أكله الآكل فمتروك عليه والمأكول لحمه يعوض عنه . وأما ما أكله سبع أو طائر أو حوت ، فهو في معنى ما أكلته الأرض نفسها فلما كان ما تأكله الأرض لا يترك تراباً ، لكنه يعاد كما كان فكذلك ما يأكله حيوان لا تكليف عليه . فانه يعاد كما كان أولاً يترك على ذلك الحيوان والله أعلم .

فان قيل : إذا أجزتم أن يخلو الجزء الذي أكله الكافر من لحم المؤمن عن التنعم بالثواب الذي يصل إلى المؤمن ، فلم لا أجزتم أن يخلو بدنه من التنعم أصلاً ، وأن يكون ثواب نفس المؤمن بالسرور الدائم والراحة دون المطاعم والمشارب والملابس والمناسكح ، فيصير بذلك إلى قول غيركم .

قيل : انما أجزنا أن يخلق لجزاء الفائت من بدن المؤمن عن التنعم بالثواب الذي يصل إلى المؤمن على شرائطه أن يعوض الله جل جلاله المؤمن منه عوضاً فيكون وصول نعمة الثواب إلى النفس من قبل البدن قديمة وحديثة ، فإنما يقام وصوله اليها من قبل الاول لو كان باقياً بحالة لم يفت منه شيء .

فكيف يلزمنا عن هذا ان نجيز خلو البدن من التنعم بالثواب أصلاً ، وانفراد النفس

به دونه ، بل الأصل ان نفس المؤمن لما لم تنفرد باكتساب الطاعات عن البدن ، لكن جهد العبادة خلص إلى النفس من قبله ، فلذلك ينبغي أن تخلص نعمة الثواب إليها من قبل البدن . فان كان البدن المكتسب للطاعات فإنما تخاله معرضاً للابانة بتنعم الثواب . وإن كان أو بعضه فانياً ، قام المثل الذي يبتدىء الله جل جلاله خلقه المؤمن مقامه والله أعلم . فان قيل : كيف يجوز هذا ، والعوض المبتدأ خلقه ليس هو الذي كان اكتساب الطاعات به .

قيل : يجوز ، لأن الذي كان اكتساب الطاعات منه لم يتفق ذلك إلا بحلول النفس المؤمنة إياه ، وتصريفها له ، فاذا انقلب بعد ، فصار من بدن كافر ، وكان إيراد الجنة فتجاوز كل ما يخلق للنفس من مثله ليحل به ويخلص من قبل ما يناله من الثواب والنعمة واللذة إليها ، فذلك قائم مقام الفائت وعامل عمله .

فان قيل : فما تقول في كافر قتل مؤمناً ومزقه وقطعه ولم يدع منه لحماً ولا عظماً ولا شيئاً قط الا أكله ، كيف يبعث ؟ .

قيل : الأصل الذي ذكرنا ، يقتضي أن يخلق الله تعالى لنفسه بدنًا جديدًا ويصرف الثواب الذي استحقه عليه ، فيكون هذا الخلق الجديد عوضاً له من بدنه الفائت والله أعلم . فان قيل : فان كان هذا هكذا ، فأجزاء يحدث الله تعالى عند النشأة الثانية . لكل نفس بدنًا جديدًا أو لا يعيد البدن الذي كان ؟

قيل : ولا هذا يلزمنا لانا لم نقل ان ما فات من بدن المؤمن ، فإن صار بدنًا للكافر ولا يعاد ، فيلزمنا عن ذلك إجازة أن لا يعاد شيء أصلاً .

وأما التعويض فإنها يليق بما فات ، لان ما هو قائم بعينه ، فكلما أكلته الأرض فإنها هو البدن غير ان أعراضه تبدلت باعادة الاعراض التي كانت له حتى يصير بدنًا كما كان ، أولى بها من خلق بدن جديد لينال بالثواب ما أجهده العمل بعينه ، حتى إذا كان اتصال الثواب إلى ما أجهده العمل مجالاً لانقلاب ما كانت الطاعة أجهده بدن كافر ، كانت اقامته مثله مقامه ما عدل وأمثل ، فانه لم يقم مقامه مثله حلت النفس ، ولم تتبع وحدها لتنعم أصلاً ، ففي ذلك اتصال الثواب وإبطاله يضيع الحسنات .

وقد أخبر الله عز وجل : ﴿ انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ (١) وإن كان يتسع للحياة ، والاستثناس بمثلها ، والفرح بمكانها الذي فيه ، ففي ذلك تقليل الثواب ، لأنها لو كان معها بدن طاعم وشارب لابس يتمتع بالشهوات ، ويتقلب في اللذات لكان بنعمها مما يخلص اليها من النعمة واللذة من قبل البدن أكثر . فعلمنا ان التعويض من الفائت اقرب إلى الانابة بالحسنات لا عن تعويضه .

فان قيل : النفس العاقلة لا تتنعم بالشهوات .

قيل : انما لا تتنعم بها إذا كان في اتباعها اغفال للطاعات والحسنات والخيرات ، والتوغل في المفاصد والسيئات ، وهذا انما يكون في الدنيا . فأما الدار الآخرة فلا تكليف فيها ، وإنما هي دار فراغ ، والتنعم فيها بالشهوات واللذات هو الخير المحض لان من فاته لا يرجع منه إلى ما يكون له خيراً منه . فبطل قول من قال : إن النفس العاقلة لا تتنعم بالشهوات والله أعلم .

فصل

فإذا اكمل الله تعالى جسده للاجساد على ما هو أعلم به من صفة اكمالها ، إلا انما بعد تراب . ففيه بعض الأخبار : ان الله تعالى يطير عليهم من تحت العرش فتنموا به أجسادهم . فقد يحتمل ان كان هذا ثابتاً انه ينبتهم بهذا الطين الذي ينزل عليهم حتى يجعلهم بشراً كما روى في قصة الذين يخرجون من النار . وقد صاروا حمماً انهم يقتسلون من نهريأتي الجنة فينبتون به كما تنبت الحبة في حميل السيل ، حتى إذا لم يبق إلا ان يحيوا ، أمر اسرافيل عليه السلام بنفخ الصور ، فاذا وصل ما في الصور إلى هذه الاجساد وصار فيها عادوا أحياء بأذن الله تعالى ، وتكون هذه الاجساد من هذا الوجه كالحسل في بطن أمه ، ينقلب حالا حتى إذا صار في هيئة البشر فعند ذلك ينفخ فيه احد الملائكة الروح بأمر الله تعالى . فأما نفخ جبريل عليه السلام في مريم ، فانه يحتمل وجهين :

احدهما يحتمل ان يكون الله تعالى جده ، اخترع عند مخاطبة جبريل مريم بان يكون

(١) الكهف : ٣٠

عيسى بشراً سوياً في رحم مريم ، ثم أمر جبريل فنفخ الروح فيها . لكن إذا وصل الروح المنفوخ إلى عيسى يحيى ، فكانت فضيلة عيسى بأن الله تعالى جده خلقه لا من تراب . ثم بأن نفخ فيه الروح ، كان من الروح الامين الرسول الكريم ، لا من بعض الاملاك الموكلين بالارحام .

والوجه الآخر : ان جبريل عليه السلام نفخ في مريم عليها السلام ، وهي غير حامل فحملت عند وصول نفخته إلى رحمها ، وتكون نفخة جبريل في هذا الوجه كالرياح التي وصفها الله تعالى بأنها لواقع ، فإذا جاز ان تلقح الرياح الشجر ، فيكون لها منه حمل ، جاز ان يجعل الله بنفخة ملك وهي في الحقيقة ريح لاقحة ، لا نبياً من ولد آدم ، فتكون منها لها حمل .

ومن قال هذا ، قال : ألا ترى ان الله عز وجل قال بعد اقتصار هبوط جبريل عليها ، ومخاطبته إياها فحملته . فدل ذلك على انها من قبل لم تكن حاملاً ، فيكون أثر جبريل نفخ الروح في الحمل فقط . ومن قال بالوجه الاول ، قال : انها قال : ﴿ فحملته ﴾ ، فانتبذت به مكاناً ﴿ ^(١) فأراد انها حملته من ذلك المكان إلى مكان آخر لانها حملته وهو في رحمها ولم يرد به الحمل الذي هو العلق والله أعلم .

فصل

وإذا أحصى الله تبارك وتعالى الناس كلهم ، قاموا يجلس ينظرون ما يراد بهم ، لقوله : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ^(٢) وقد أخبر الله عز وجل عن الكفار انهم يقولون : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ^(٣) وانهم يقولون : ﴿ يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ ^(٤) فتقول الملائكة : ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ ^(٥) . ثم يعرض الجميع إلى موقف العرض والحساب وهو الساهرة .

قال الله عز وجل : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾ ^(٦) . وجاء

(٣) يسن : ٥٢

(٦) النازعات : ١٣

(٢) الزمر : ٦٨

(٥) الصافات : ٢١

(١) مريم : ٢٢

(٤) الصافات : ٢٠

عن النبي ﷺ انه قال : « عليكم بالشام أرض الحشر والمنشر » ^(١) ويقال : ان الساهرة أرض معروفة عند بيت المقدس . والساهرة عند أهل اللغة وجه الأرض . ومعنى فإذا هم قد صاروا على وجه الأرض بعد ان كانوا في جوفها . قيل الساهرة صحراء قرب شفير جهنم والله أعلم .

وقد جاء في صفة الحشر في قول الله عز وجل : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ ^(٢) . أخبر منها ما روى النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله عز وجل : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » قال اما انهم ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً ، ولكنهم يؤتون بنوق من فوق ينظرون الخلائق إلى مثلها ، رحالها الذهب ، وزمامها الزبرجد ، فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة .

وسمي المتقون وفداً لانهم يسبقون سائر الناس إلى حيث يدعون إليه ، فانهم يكونون على نجائب تسرع بهم ، ومع ذلك لم يعلموا ان قدومهم على ما يسرهم فهم المتبطئون ، لكنهم يجدون ويسرعون ، والملائكة تقتلهم بالبشارات . كما قال عز وجل : ﴿ وتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ ^(٣) فيزيدهم ذلك إسراعاً .

وانما فسرنا الوفد إذ ذكرنا لان الوافد في الابل والقطا وغيرها مما سبق سائر الصنوف في طيرانه ووروده . قال كثير من أهل العلم باللسان : وحق للمتقين أن يكونوا سابقين إلى الحشر ، لانهم كانوا يسبقون المخلطين في الدنيا إلى الطاعات ، ويفوتون الظالمين فينبغي لهم أن يشعروا إذا خرجوا من قبورهم بشعارهم ، فيكونون هم السابقين إلى موضع الحساب والجزاء .

كما أخبر النبي ﷺ : ان المحرم إذا مات يبعث يوم القيامة مليباً ليكون إحرامه الذي عنده لله تعالى على نفسه شعاراً له وجمالاً في دار الجزاء والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ : « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين راهبين ، إثنان على

(١) لم يرد إلا في سنن ابن ماجه « الاقامة » باب ١٩٦ ، رقم ١٤٠٧ . وفي مسند الإمام أحمد ابن حنبل ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٢) مريم : ٨٥ . (٣) الانبياء : ١٠٣ .

بعير ، وثلاث على بعير ، وأربع على بعير ، وعشرة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، يقلل منهم حيث قالوا ، ويبعث منهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتسي معهم حيث أمسوا ،^(١) فيحتمل أن يكون قول النبي ﷺ : « يحشر الناس على ثلاث طرائق » إشارة إلى الأبرار والمخلصين والكفار .

فالأبرار هم الراغبون إلى الله تعالى بما أعد لهم من ثوابه ، والراهبون الذين هم بين الخوف والرجاء ، فأما الأبرار فانهم يؤتون بالنجائب كما روى في الحديث الآخر . وأما المخطئون فهم الذين ارتدوا في هذا الحديث . وقيل : انهم يحملون على الأبرة . وأما الفجار فهم الذين تحملهم للنار ، بأن الله تعالى لا يهملهم بأن يبعث إليهم الملائكة فيقبض لهم نوقهم ، ولم يرد في الحديث إلا ذكر البعير .

فأما ان ذلك من ابل الجنة أو من الابل التي تجيء وتحشر يوم القيامة . فهو مما لم يأت بيانه والأشبه ان لا تكون من نجائب الجنة ، لان من خرج من جملة الأبرار المخلصين كان مع ذلك من جملة المؤمنين ، فانهم بين الخوف والرجاء ، لان من هؤلاء من يغفر الله تعالى له ذنوبه ، فيدخل الجنة مع الداخلين ، ومنهم من يعاقبه بالنار ، ثم يخرج منه ويدخله الجنة .

وإذا كان كذلك لم يلق أن يوردوا موقف الحساب على نجائب الجنة ، ثم ينزل عنها بعضهم إلى النار . لان من أكرمه الله تعالى بالجنة مرة ، لم يهنه بعد ذلك بالنار . وفي حديث آخر عن ابن هريرة رضي الله عنه قال : « يحشر الناس ثلاثة أصناف ، ثلاث ركبان وثلاث على أقدامهم مشاة ، وثلاثة على وجوههم » إلا انه قال بعد هذا : قلنا يا رسول الله : فكيف يمشون على وجوههم ، فقال : « إن الذي امشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، إلا انهم يتقون بوجوههم خدود وشوك »^(٢) وهذا ان ثبت مرفوعاً ، ففيه ان الناس يكونون أثلاثاً ، ومعنى أصناف ثلاثة إلا انهم أثلاث

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب رفاق » باب ٥ : ، وفي صحيح مسلم « كتاب جنة » رقم ٥٩ ،

وفي سنن النسائي « الجنائز » باب ١١٨ .

(٢) لم أجد هذا الحديث إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٤٤٧ .

متساوية : أحدهم الركبان وهم المتقون السابقون الذين يغفر الله تعالى لهم ذنوبهم بعد الحساب ، ولا يعذبهم ، إلا أن المتقين يكونون على نجائب الجنة .

والصنف الثاني الذين يعذبهم الله تعالى بذنوبهم ثم يخرجهم من النار إلى الجنة وهؤلاء يكون مشاة على أقدامهم ، فقد يحتمل على هذا أن يمشوا وقتاً ويكونون ركباناً . فإذا قاربوا المحشر نزلوا فمشوا ليتفق الحديثان والله أعلم .

والصنف الثالث المشاة على وجوههم ، وهؤلاء هم الكفار ، وقد يحتمل أن يكونوا ثلاثة أصناف : صنف وكلهم ركبان لكن على من أتت لهم . وصنفان من الكفار : أحدهما العتاة وأعلام الكفر ، فهؤلاء يحشرون على وجوههم ، وآخرون الأتباع وهم يشون على أقدامهم .

وقد ذكرت فيما مضى أن مشي الكفار على وجوههم إنما يليق أن تكون حالهم في سبقهم من موقف الحساب إلى جهنم ، لأن الله تعالى قال : ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ (١) لأن الله تعالى خص أبصارهم فوصفها منهم بالخشوع في حال المعنى إلى موقف الحساب . فقال : ﴿ يخرجون من الأجداث سراة كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ (٣) . فلو كانوا في هذه الحال مشاة على وجوههم لم يكن الخشوع من أبصارهم وحدها . وفيما ذكرت دليل على أن المشي من القبر إلى موقف الحساب فيكون على الأقدام . ومن المواقف إلى جهنم تكون على الوجوه .

ويؤكد هذا أن الله عز وجل قال فيما وصفهم به : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ (٤) . فلو كان ذلك حالاً بهم من حين يبعثون إلى أن يدخلوا جهنم لم يكن لتخصيص حال دخولهم النار .

فهذا الوصف معني ، إلا أن هذا ، وإن كان كما وصفت ، فإن حديث أبي هريرة الثاني رويناه ، يدل على خلافه ، فقد يحتمل أن يخرج ذلك على أن الكفار بعضهم أغشى من

(٢) المارج : ٤٣

(٤) القمر : ٨

(١) الفرقان : ٣٤

(٢) القمر : ٧

بعض لأن منهم من جحد ربه أصلاً ، ومنهم من جحد رسله كلهم ، ومنهم من أقر بهم إلا بواحد منهم ، ولا شك انهم متفاوتون في العذاب ، ولولا ذلك لم يقل الله عز وجل : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ (١) فلما قال : علمنا ان للنار دركات ، كما ان للجنة درجات .

وقد يجوز أن يكون بعض أهلها يحشرون مشاة على الاقدام ، وبعضهم مشاة على الوجوه ، وجاء شرهم وسابقهم في الحالين النار والله أعلم .

وقد قال الله عز وجل فيما ذكرهم به : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ (٢) ف قيل في تفسير : عطاش .

وقيل في تقريب هذا المعنى : إن الابل لا تورد الماء إلا بعد ان تعطش ، فكأنه قال : ونسوق المجرمين إلى جهنم أو زاد الابل لشدة ما بهم من العطش . وقد يجوز ان يكونوا سموا أوراداً ، لأنهم يشربون الحميم في جهنم شرب الهم .

وأما العطش الحادث عليهم فهو بشقيق من الله عز وجل عليهم ، والاخبار تدل على ان العطش يعم للناس ، دليل كلهم في ذلك اليوم إلا المتقون ، يسقون من حوض نبينا محمد ﷺ ، ولذلك قال في صفة من شرب منه شربة لم يظمأ أبداً .

وأما الكفار فلا يسكن عطشهم ، ولكن يزداد عطشهم فوق عطش المؤمن ، لأن عطش المؤمنين انما هو تعريض من الله تعالى إياهم ، لا يكرمهم بالسقي من حوض المصطفى ﷺ ، فيجدوا لذة الماء وطيبه ، إذ كان الريان لا يستلذ كما يستلذ العطشان .

وعطش الكافر تشديد وتفسير ذلك المشي والوقوف عليهم وتعويض الله تعالى المؤمنين ما ذكرنا زيادة في التشقيق على الكافرين ، فانهم اذا علموا ان هناك ما يمكن منه المؤمنون ، ولا يمكن منه الكافرين ، كان ذلك أشق عليهم من أن يكون عندهم إلا ما يرده أحد مؤمناً كان أو كافراً والله أعلم .

وقد يحتمل أن تكون شدة عطش الكافر يومئذ للجهد الذي يلحقه من المشي على قدميه أو على وجهه مسرعاً ، ثم من دنو النار العظيمة منه ، لانه سابقة وحاشرة على ما ورد به الحديث عن النبي ﷺ والله أعلم .

فصل

ان قال قائل: لم أخبر الله ان الكفار يكونون يوم القيامة مهطعين مقنعي رؤوسهم^(١) وقد علم ان اقناعها دمعها ، وانه لا يرتد إليهم طرفهم . وقال في غير هذه الآية : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾^(٢) وقال : ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾^(٣) فكيف يكون الرافع رأسه ، الناظر نظراً طويلاً ، حتى ان طرفه لا يرتد إليه ، خاشع البصر .

فالجواب : - وبالله التوفيق - : انهم يكونون في حال المشي إلى الموقف خاشعة أبصارهم . وفي هذه الحال ، وصفهم الله تعالى بخشوع الابصار ، واما إذا توافوا ، وضمهم إلى الموقف ، وطال القيام عليهم ، فانهم يصيرون من الجنة ، كأن لا قلوب لهم ، ويرفعون رؤوسهم فينظرون النظر الطويل الدائم فلا يرتد إليهم طرفهم ، كأنهم قد نسوا الغمض أو جهلوه ، وذلك داخل في جملة التشويق عليهم إلا أنه في غير ذلك الحال والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل عن قول الله عز وجل : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج ﴾^(٤) فقال : إنما تكون الصيحة للخروج وهم أموات ، فكيف يسمعونها . قيل : ان نفخة الاحياء تميد وتطول ، فكانت أوائلها للاحياء وما بعدها للازعاج من القبور ، فما كان للاحياء فانهم لا يسمعون . وما كان للازعاج فهم يسمعون . ويحتمل أن تتناول تلك النفخة كما ذكرت ، والناس يحسبون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيي واحد سمع ما يحيي به لمن بعده إلى ان يتكامل احياء الجميع والله أعلم .

فصل

وإذا حشر الناس بعد ما نشروا حشروا حفاة عراة غرلاً ، لانهم كذلك بدؤوا ، والله عز وجل : يقول : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾^(٥) فلما كانوا بدؤوا غرلاً بعثوا غرلاً ،

(٣) القمر : ٧

(٢) المعارج : ٤٤

(١) ابراهيم : ٤٣

(٥) الانبياء : ١٠٤

(٤) ق : ٤٢

لثلا يمتد عن الاعادة شيء من أخبارهم ، ويحشرون حفاة عراة ، لأن الملابس في الدنيا أموال ، ولا مال في الآخرة ، زالت الاملاك بالموت وبقيت الأموال في الدنيا .
ولأن كل نفس يومئذ فانها تثيبها المكاره ثواباً وجب لها بحسن عملها ، أو رحمة مبتدأة بما بين الله تعالى عليها ، فاما الملابس فلا غناء فيها يومئذ ، ثم ان الاخبار وردت بأن كثيراً من الناس يكسون إذا خرجوا من قبورهم .

روى عباد بن كثير عن ابن الزبير عن جابر قال : ان المؤذنين والمبلين يخرجون يوم القيامة من قبورهم ، فيؤذن المؤذن ، ويلبي الملبى ، وأول من يكتسي من حلال الجنة إبراهيم خليل الله ثم محمد صلى الله عليهما ، ثم النبيون والرسل صلوات الله عليهم ، ثم يكس المؤذنون ، وتتلقاهم الملائكة على نجائب من ياقوت أحمر ، أزمتها من زبرجد أخضر رجالاتها من الذهب ، ويشيهم من قبورهم تسعون ألف ملك إلى المحشره .

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ قال : « انكم تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فأول من يكس إبراهيم ثم أوتى بحلة لا يقوم بها البشر » (١) .

فيحتمل أن يكون تقديم إبراهيم صلوات الله عليه بالكسوة لما يروى انه لم يكن في الاولين والآخرين لله تعالى عبد اخوف له من إبراهيم فيعجل كسوته بما ناله ليطمئن قلبه ويحتمل ان يكون ذلك لما جاء به الحديث انه أول من يلبس السراويل إذا صلى مبالغة في السير وحفظاً لفرجه من أن يباس فضلاً ، ففعل ما أمر به ، فيخرج بذلك ان يكون أول من يستز يوم القيامة .

ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن أراد قتله . وان كان ما أصابه في ذلك في ذات الله تعالى ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله ، دفع عنه شر النار في الدنيا والآخرة أو جزاءه بذلك العرى ان جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة على رؤوس الشهداء والله أعلم .

وإذا بدأ في الكسوة بإبراهيم وثنى بمحمد ﷺ ، أتى لمحمد ﷺ بحلة لا يقوم بها البشر لينجز التأخير بنفاسة الكسوة ، فيكون كأنه كسي مع إبراهيم عليها السلام ولم يؤخر عنه والله أعلم .

(١) ورد في صحيح البخاري « انبياء » باب ٨ ، في صحيح مسلم « الجنة » رقم ٥٨

فصل

فأما الكوائن يوم القيامة قبل الحساب ، فقد قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

وقال جل ثناؤه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢) .

والذي ثبت بسياق الآيات وشواهدنا ان هذه الزلزلة انما تكون بعد احياء الناس وبعضهم من قبورهم ، لأنه لا يراد بها إلا إرغاب الناس والتهويل عليهم ، فينبغي أن يشاهدوها ، ويعلموا انها لهم ليفرغوا منها ، ويهولهم أمرها ولا يمكن المشاهدة منهم وهم أموات .

ولانه عز وجل قال : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أي تخبر بها حل عليها من خير وشر ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فدل ذلك على أن هذه الزلزلة انما تكون والناس أحياء . واليوم يوم الجزاء ، ولأنه عز وجل قال : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء ، فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٣) .

فدلّت هذه السورة أيضاً على ان اصطدام الأرض والجبال الموجب لا بد حال زاويتها وبنيانها ، وتلاها وجبالها وأشجارها . انما تكون يوم القيامة ، وللعرض لا يكون إلا بعد الاحياء ، فثبت ان هذه الكوائن انما تكون بعد النشأة الثانية ، والله أعلم .

وإذا كان ذلك كذلك ، فالمعنى — والله أعلم — إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت

الأرض انقلها ، و فرغت وتجلت وشهد بذلك قوله عز وجل : ﴿ ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

فنص على أنهم يرونها ويفرعون منها ويصيرون من الخوف إلى الحال التي وصفها ، ثم أبان ذلك ، لأن عذاب الله شديد ، فصح ان الزلزلة الموصوفة بالعظم انها تكون يوم التقدير والجزاء والله أعلم .

وأما قوله : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ فانه يحتمل وجهين : احدهما . ان يكون ذلك مثلاً ، أن يكون يوماً لا يهم أحداً فيه إلا نفسه ، والحامل تسقط من مثله كما تسقط الحوامل من الصيحة الشديدة من طلب السلطان ونحوه . فانما أريد بذلك على ان الهول يكون عظيماً والخوف شديداً .

والوجه الاخر : ان يكون ذلك حقيقة لا مثلاً ، ويكون المعنى ان من كانت محشورة مع ولد رضيع ، فانها إذا رأت هذه الزلزلة ذهلت عن ولدها ، ومن حشرت حاملاً وضعت حملها .

ثم يحتمل ان يحیی الله كل حمل كان قد أتم خلقه ، ونفخ فيه الروح ويسويه ويعدله ، فان الام تذهل عنه ، ولو لم تذهل ما قدرت على ارضاعه ، لانه لا غذاء لها يومئذ ولا لبن ، واليوم يوم الحساب والجزاء لا يقبل من أحد فيه عذر ولا علة ، فكيف والاشتغال بالولد ما عليها من الحساب ، وهي بصده من الجزاء .

واما كل حمل لا ينفخ فيه الروح قط ، فانه إذا سقط صار مع الوحوش تراباً ، ولم يبدأ حياة ، لأن اليوم يوم الإعادة فمن لم يمت في الدنيا لم يحيى يومئذ والله أعلم .

وقد قال الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم ﴾ (٣) ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ (٤) .

(٢) طه : ١٠٥

(١) الحج : ٢

(٤) النمل : ٨٨

(٣) الكهف : ٤٧

- وقال : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ (١) .
- وقال : ﴿ وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (٢) .
- وقال : ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ﴾ (٣) .
- وقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفرash المبشوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (٤) .
- وقال : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (٥) .
- وقال : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ (٦) .

فصل

انها تبدل ، بمعنى ان اعراضها وصفاتها تغير ، فانها ذات جبال وتلال وروابي وأكام ، وأودية ووهاد ، وغدران وأشجار وبنيان ، فتزال هذه كلها ، ويسوي بعضها ببعض ثم تمد الأديم ، فتزيد بذلك سعتها ، فتتمكن الحلائق من الأولين والآخرين من الوقوف عليها ، وعلى هذا معنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (٧) .

فيكون ذلك من جملة تبديلها ، لانها إذا كانت مشرفة على ان تضيق باهلها ، فمدت حق وسعتهم ، فقد غيرت . إلا ان ذلك تغيير الأعراض ، دون قلب العين .

وأما قوله عز وجل : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ (٨) فليس معناه انها تجعل شيئاً آخر سوى الارض ، فيكون مكان الارض مرفقاً ليس بأرض . وانما هو انها تهياً هيئة أخرى ، حق تكون في المنظر غير هذه التي يشاهدونها ، وهو الرجل بغير خلقه وسيرته مع صديقه ، فيقول تبدلت وتغيرت ، ولست الرجل الذي كنت ، والله أعلم .

وأما الجبال فقد وضعها الله تعالى بصفات مختلفة فيما ترجع إلى الجبال منها ، ومجموعة فيما ترجع إلى الارض ، لانها كلها تعود تفريغ الارض منها ، وابرار ما كانت تواريه من محلها حق يبرز وينكشف .

(٣) الواقعة : ٤

(٦) الكهف : ٨

(٢) الانشقاق : ٣

(٥) ابراهيم : ٤٨

(٨) ابراهيم : ٤٨

(١) النبأ : ٢٠

(٤) القارعة : ٤

(٧) الانشقاق : ٣

فاما تلك الصفة فمنها الاندكاك ، ومنها قصير كالعن المنفوش ، ومنها ان تصير هباءً منبثاً ، ومنها ان تسف ، ومنها ان تمر مر السحاب ، ومنها ان تسير فتكون سراياً . فيحتمل - والله أعلم - ان يكون أول أحوالها الاندكاك ، وذلك من قبل الزلزلة .

والحال الثانية ان تصير كالعن المنفوش ، وذلك إذا صارت السماء كاللؤلؤ ، وقد جمع الله تعالى بينهما في موضع فقال ﴿ تكون السماء كاللؤلؤ ، وتكون الجبال كالعن ﴾ (١) . والحال الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة بارزة في مواضعها ، والارض تحتها غير بارزة ، فتنشق عنها لتبرز ، فإذا انشقت فبإرسال الرياح عليها .

والحال الخامسة ان الرياح ترفعها عن وجه الارض ، فتذرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار فمن نظر اليها من بعد حسها ليحسبها اجساداً خامدة ، وهي بالحقيقة مارة ، إلا أن مرورها مرور الرياح منندكة متنبية .

والحال السادسة ان تكون سراياً يعني لا شيء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها ، كما ان من يرى السحاب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجد شيئاً ، والله أعلم .

فصل

قد وصف الله تبارك وتعالى هذا اليوم بأن العشار تعطل فيه ، كما وصفه بان كل مرضعة تذهل فيه عما أرضعت ، ومعنى ذلك - والله أعلم - أنهم إذا قاموا من قبورهم وشاهدوا بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محشورة ، وفيها عشايرهم التي كانت أنفس أموالهم ، لم يعبأوا بها ولم يهتمهم أمرها ، ويحتمل تعطيل العشار ، وابطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم أياها في الدنيا وأهل العشار يرونها لا يجدون اليها سبيلاً والله أعلم .

فصل

ووصف الله تعالى هذا اليوم بان البحار تسجج وتفجر منه ، فقال في سورة : ﴿ وإذا

(١) المعارج : ٨

البحار فجرت ﴿١﴾ . وقال في آية أخرى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (٢) . فقيل : إن معنى سجرت وفجرت واحد . وقيل : معنى سجرت أحميت . فمن قال معنى سجرت وفجرت واحد ، قال يحتمل ذلك وجهين : أحدهما أن الأرض والجبال إذا حملتا ودكتا فقد يمكن أن تصير فيها أخاديد عظيمة تفجر اليها مياه البحار .

وقيل : معنى فجرت ، تفجر بعضها في بعض ، وترقق الحواجز التي بينها اليوم ، وأي واحد من هذين ، قيل : فإن مرجعه إلى أن البحار إذا اخلت من المياه ، أبرز مكانها نار مخلوقة تحتها ، ملأت البحار ملء المياه إياها ، وذلك هي جهنم . وأرض البحار أطباق لها ، فإذا كشف الغطاء برزت ، فذلك قوله : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ (٣) . وأما من قال : سجرت ، أحميت ، فإنه يقول : معناه أن البحار تقلب ناراً وكذلك عند تكوين الشمس كما سنبينه .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : (لا يركب أحد البحر إلا حاجاً أو معتمراً ، أو مجاهداً في سبيل الله ، فإن تحت البحر نار ثم بحر ثم نار حتى عد سبعة أبحر) (٤) وليس المعنى في السبعة أنها محاذية تحاذي الاطباق ، ولكنه أن كل بحر من البحار التي على وجه الأرض تحته نار . ثم العطف ها هنا لا للترتيب .

وروى يعلى ابن أمية قال : قال رسول الله ﷺ : (البحر هي جهنم) (٥) فقيل له في ذلك فقال : (نار أحاط بهم سرادقها) ثم قال يعلى : لا تصيبني منه قطرة حتى أعرض على الله ، ولا أدخله حتى ألقى الله . وهذا إلى قول من يقول : أن البحر تقلب ناراً أقرب .

وقد قيل في معنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (٦) قلبت ، وقد يحتمل أن تنشف أرضها الماء ، فكان الماء ناراً ، ويحتمل أن تقلب المياه نيراناً ، ويؤدد فيها فيزداد أمثلاً والله أعلم .

(٣) النازعات : ٣٦

(٢) التكويد : ٦

(١) الانقطار : ٣

(٤) لم يرد إلا في سنن أبي داود « كتاب الجهاد » باب ٩

(٥) لم يرد هذا الحديث إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٢٢٣ .

(٦) التكويد : ٦

فصل

وقد وصف الله عز وجل هذا اليوم بأن السماء تنشق منه ، وتكور الشمس فقال عز وجل : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ (١) وقال : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان ﴾ (٢) .

وقال : إذا السماء انشقت (٣) .

وقال : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ﴾ (٨) .

وقيل ان السماء انما تنشق لما يخلص اليها من حر جهنم ، وذلك إذا بطلت المياه ، وبرزت النيران ، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن . وتنشق لما يريده الله تعالى من نقص هذا العالم ورفعه .

وقيل : ان السماء تتلون فتصفر ثم تحمر ، أو تحمر ثم تصفر كالمهرة الورد في الربيع إلى الصفرة . فإذا اشتد البرد مالت إلى الحمرة ، ثم بعد ذلك إلى الصفرة . والله أعلم .

وقيل : ان الجبال بعد اندكاكها ، انها تصير كالعهن من حر جهنم ، كما تصير السماء من حره كالمهل . وهذا — والله أعلم — لان مياه البحر كانت حاضرة بين جهنم وبين السموات والارضين ، فإذا ارتفعت وزيد مع ذلك في احياء جهنم أقرب في كل واحد من السماء والجبال ما ذكرنا والله أعلم .

(٣) الانشقاق : ١

(٦) النبأ : ١٩

(٢) الرحمن : ٣٧

(٥) المرسلات : ٩

(٨) الانفطار : ١

(١) الفرقان : ٣٥

(٤) الانفطار : ١

(٧) التكوير : ١

وقد قيل في قوله عز وجل : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُورَتْ ﴾ (١) أذهب ضوءها حتى تصير
 هي والقمر كالحاسفين ، فذلك قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ (٢) وقيل :
 كورت : لفت . وقيل : تلف ثم تلقى في البحار ، فمنها يحمي وينقلب ناراً ويحتمل ان
 كان هذا هكذا ، إن البحار في قوله بين فقد فسر التسجير بالامتلاء . مما هو ان النار
 حينئذ تكون أكثر ما كان الماء ، لان الشمس أعظم من الارض مرات كثيرة . فإذا كورت
 والقيت في البحار ، فصارت ناراً ، ازدادت امتلاء والله أعلم .

وأما الكواكب بعد انتشارها فليس في شيء من اخبار المسلمين ذكر لها يكون من
 حالها . وفي بعض كتب الأفاويل ان الكواكب في النشأة الثانية تهبط سفلاً وتحيط بالأرض
 كالدائرة ، وتلهب ناراً فتتلقاها الأنفس الشريرة . فقد يحتمل ان كان ما وصفوه مأخوذاً عن
 شيء ، فان الكواكب إذا انتثرت سقطت في البحار فصير معها سرايا ، وإذا ذهب المياها
 برزت الجحيم فتناثرت الكواكب ، سقطت في النيران والتهب منها .

وقد أخبر الله عز وجل ﴿ ان السموات يوم القيامة مطويات بيمينه ﴾ (٣) وقال : ﴿ يوم
 نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ (٤) ويحتمل انها اذا وهت كما قال عز وجل : وانشقت
 السماء فهي يومئذ واهية (٥) ، ان الملائكة يطودنها بأمر الله جل ثناؤه طيماً شديداً لئلا
 تعود فتنتشر ، كما يطوي الرجل ما يكون مكتوباً فيه من ذكر حكم مبهم أو غير مبالغة
 في صيانتها عن أن ينشر فيلحقه من الانتشار خلل ، ولذلك قال عز وجل بيمينه ، فان كل
 عمل عمله العامل بيمينه كان أشد وأوفى من الذي يعمل به يساره ، إذ اليمين أقوى من الشمال
 فضربت اليمين مثلاً لشدة الطي ، والله أعلم .

وكما طويت سماء نزلت ملائكتها إلى الأرض كما قال عز وجل : ﴿ ويوم تشقق السماء
 بالغمام ، ونزل الملائكة تزيلاً ﴾ (٦) .

وقيل ان معنى قول الله عز وجل : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ (٧) . هو انها
 تفرج بعد ان لم يكن لها فرج وتفتح لها أبواب وتنزل فيها الملائكة .

(٣) الزمر : ٦٧

(٢) القيامة : ٨

(١) التكوين : ١

(٥) الحاقة : ١٦

(٤) الانبياء : ١٠٤

(٧) النبأ : ١٩

(٦) الفرقان : ٢٥

وقيل : انها تصير الفروج لها والأبواب من قبل السقف والله أعلم .

ودل القرآن على ان الملائكة يومئذ يكونون من بين الناس أجمعين ، وانهم يسوقون الكفار إلى النار ، ويلقونهم فيها ، ويعذبونهم من حيث يرونهم ، فانه عز وجل قال حكاية عنهم : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتوا كبيرا ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجراً محجوراً ﴾ (١) فابان انهم يرونهم يوم القيامة .

ووردت الأخبار بان الناس في قيامهم يعرفون حتى يبلغ الرسخ انصاف آذانهم ويسيل عنهم سبعين ذراعاً ، فقل ان ذلك من شدة الحر . فيحتمل أن يكون ذلك بشي الأفلاك والحلها . وأجمعت الأقاويل على ان الفلك المحيطة بالاملاك نار محضة .

وفي أخبار المسلمين ان فوق السموات ناراً ، وإن لم يكن فيها انه فلك ، وان اسمها الأثير ، كما سماه الذين ذكرناهم به ، فان كان ذلك مأخوذاً لهم عن شيء ، فتلک النار من جملة هذا العالم ، لا فرق بينهما وبين سائر الأفلاك وغيرها من اجزاء السموات والكواكب ، فلا يخلو من أن يلحقها ما يغيرها عن حالها الأولى ، كما يلحق غيرها من ابعاض العالم . وإذا كانت الكواكب منيرة ، فتشبهه ولا تبعد بقطع تلك النار وتنزل سفلاً ، فيجمع بينهما وبين نار جهنم ، كما جمع زمن الطوفان ، بين ماء السماء وماء الأرض . قال الله عز وجل : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا ﴾ (٢) فالتقى الماء على أمر قد قدر .

وإن كان هذا كما وصفنا ، فقد يمكن أن يكون اشتقاق السماء من انها إذا وهت وانخلت تدانت ودنت الغالبة منها بعد ان كانت شديدة البعد حداً فتكون بغيرها من هذا الوجه لا من النار التي تكون في السفلى والله أعلم .

ثم تكون الحلة - والله أعلم - في بعث الناس قبل هذه الكوائن ، ان يشاهدوها فيكون ذلك اشد لتكذيب الذين كانوا يقولون في الدنيا ان هذا العالم لم يزل على ما هو عليه ، فلا يزال على ذلك أيضاً .. وتصديق الذين كانوا يؤمنون بانقضائه وزواله ، إذا لم يقع للفريقين

(٢) القمر : ١١

(١) الفرقان : ٢١ - ٢٢

بذلك ضرورة ثم يكون حجة للمؤمنين على الكافرين ، أمر الله عز وجل ثناؤه نبيه ﷺ ان يقول : ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ (١) .

فصل

ووردت الأخبار بان الناس يطول عليهم القيام في ذلك اليوم ، فانه يوم القيام وقد وصفه الله عز وجل بذلك ، فقال : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (٢) . ويحتمل أن يكون معناه يوم القيام صرعة الموت ، ويحتمل أن تكون تسميته للمعنيين جميعاً .

فإذا ضجروا وجهدوا سألوا أباهم آدم صلوات الله عليه : أن يشفع إلى الله جل ثناؤه ، فيقضي فيهم قضاؤه ، فيحيلهم على نوح ، ونوح على إبراهيم ، وإبراهيم على موسى ، وموسى على عيسى ، وعيسى يحيلهم على محمد ﷺ أجمعين . فيسجد نبينا المصطفى تحت العرش ، ويحمد الله ويشي عليه بما هو أهله ، ولا يزال ساجداً إلى أن يقال له : ارفع رأسك ، وسل تعطى واشفع تشفع . فيسأل الله تعالى أن يحاسب عباده ويقضي فيهم قضاءه . فيأمر الله جل ثناؤه عند ذلك ان يحضر النبيون وكتاب الأعمال ، وهم الكرام الكاتبون والمعنيون بالشهداء في قوله تعالى : ﴿ وجيء بالنيبين والشهداء ﴾ ، فحوسب الناس ، ما تنطق بهم كتبهم ووريت لهم الأعمال ، فيقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين .

فصل

ثم الذي أوجب أن يكون الإعتراف بالحساب من شعب الإيمان ان الله عز وجل ذم الكفار بانكارهم إياه ، وتكذيبهم به ، فقال : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ (٣) وقال : ﴿ ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٤) فكان ذلك نظر ذمة جل ثناؤه إليهم بانكارهم البعث في قوله : ﴿ زعم الذين كفروا ان لن بيعثواقل :

(٢) المطففين : ٦

(٤) ص : ٢٦

(١) الزمر : ٤٦

(٣) النبأ : ٢٧

بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم . وذلك على الله يسير ﴿ (١) 》 .

فلما كان التكذيب بالحساب كفرأ ، ذلك على ان الاعتراف بالحساب من الإيمان ، كما ان التكذيب بالبعث لما كان من الايمان كان الاعتراف بما كان الخلق لأجله ، وهو الطاعة والعبادة والتزام ذلك وتقبله من الايمان والله أعلم .

وإنما عددت الحساب والميزان بيعة واحدة ، لأن المحاسبة تكون بالاعمال ، وتميز الأقل والاكثر من الطاعة والمعصية ، وإنما يكون بالوزن ، فلم أر لتمييز الوزن عن الحساب وجهأ ، فعددتها بيعة واحدة . والله أعلم .

فصل

وقال قائل من السفهاء الملبسين بالحكماء : أخبرونا عن الكرام الكاتبين أين يجلسون ، وعلى ماذا يحيطون ؟ وماذا يكتبون ؟ وان دخل أحد الخلاء ، فهل يدخلون معه ؟ وقد رويتم : لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب أو صورة ، فان كان هذا حقاً فليربط من يريد ان لا تكتب أعماله في بيته كلباً ، أو يعلق ستراً فيه صورة ، فيأمن بذلك من أن تنسخ أعماله ولا شيء أحب إلى الاحياء من الحياة . وأنتم تتلون : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (٢) .

فما الذي يمنع أحدكم من اقتناء الكلب في بيته ، لينفر به ملك الموت عن نفسه ، فيبقى في الدنيا خالداً ولا يخرج منها أبداً !

فالجواب - وبالله التوفيق - ان الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه كلب أو صورة . هم الذين يدخلون بيوت الاخيار للدعاء لهم والترتيل عليهم والاستماع إلى ذكر يجري فيه ، والبيت لقلوبهم في الحال التي يحتاجون إلى ذلك فيها ، فان هؤلاء إذا وجدوا أخذ من ذكرنا خالف ما يليق بطريقه إلى ما لا يليق بها ازور عنه ، ولو وجوده يقني كلباً ، وقد نهى عن اقتنائه ، لم يدخلوا عليه لأن الكلب فيه شيطان : احدهما سبغ عاد إلى أن يكون

معلماً مطوعاً لصاحبه ، واقتناؤه سوء نظر من يقتنيه لنفسه ولجيرانه ، ولمن يدخل عليه ويخرج من عنده .

والآخر انه يحبس لايؤمن ان ينجس إياه أو بساطاً أو لباساً أو طعاماً أو شراباً من حيث يشعر به صاحب البيت أو من حيث يشعر به ، وكذلك ممن يدخل عليه أو يخرج من عنده من بيوت الجيران ، وباب البيت والممر كان امساكه ، وفيه هذان المعنيان . فإذا رأت الملائكة ذلك من احد اجتنبوه ، لانهم يعدون ذلك حدثاً أحدثه صاحب البيت مما لا يرضي الله تعالى . وكذلك الصورة لان تصوير ذوات الأرواح حرام .

وجاء عن النبي ﷺ : « ان المصورين يعذبون يوم القيامة ، ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » (١) ، وذلك لان المصور يريد ان يضاهي بتصويره خلق الله عز وجل ، وهذا أعظم والملائكة أخوف لله تعالى من ان يصبروا على مثله . فلذلك ينصرفون عن بيت فيه التصوير ولا يدخلونه لحط من الخير يكون لصاحب البيت في دخولهم إياه .

فأما الملائكة الموكلون بنسخ الاعمال وقبض الأرواح ، فانهم لا يمنعون من دخوله بيت أحد يحدث قبيح يحدثه فيهم ، لكنهم ينتهون إلى ما هم ما يتورون به ويبلغون فيه رضى الرب جل ثناؤه .

ومثل هذا في ما بيننا مما لا يستنكره أحد من العقلاء موجود ، فان الخير من الناس قد يغشاه الاخيار متبركين بمجالسته ، متكثرين بصداقته ، فان ظهر لهم منه ما يكرهون ، انقبضوا عنه وتركوا غشيانه ، ولكن المحسنين واخوانهم يأتونه بل يهجمون عليه ، مقومين إياه ورادعين له عن سوء صنيعه ، ويدخله أحوال المسلمين ، فيخرجونه ليقوموا عليه حداً ان كان لزمه ليحاسبوه .

فلذلك الملك لئن لم يدخل بيتاً فيه كلب أو صورة لينتفع بدخوله صاحب البيت ، فقد يدخل بيته ليحصى أعماله ، أو يتزع روحه ، لا يمنع أحد به معصية الله باقتناء الكلب أو نصب الصورة الملك من دخوله بيته لامر يكون عليه ، وان منع من دخوله لحط عن الخير يكون له ويرجع إليه ، كما يمنع افساد صاحب المنزل ، فيلجأ الناس من أن يدخلوا

(١) لم يرد الا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٤

منزله مؤاخين إياه ، متوددين إليهم . ولا يمنهم من ان يدخلوه منكبين ومغرين عليه ، أو مطالبين بحق ربه وبالله التوفيق .

وأما ان الملائكة لا تصحب رفقة فيها كلب أو جرس ، فلأن الكلب سبع عاد محرم الاقتناء إلا لصاحب صيد أو ماشية ، لا تدفع لصغرها وضعفها السباع عن أنفسها وهي الغنم .

فان أراد الناس ان يحترزوا من عوائل أصغارهم بها هذا سبيله ، لم يطلبوا من الله تعالى ان يبعث معهم ملائكة يحرسونهم ويحفظونهم . والجرس تسكن إلى صوته الابل ، ويقال ان الجن كلها تميل إلى أمثاله وتجتمع عليه والابل فيها مغان من الجن ومن ذاك يكون نفارها في كثير من الأوقات بلا سبب ظاهر يعرف ، او من شيء لا يليق بها على ما هي عليه من الشدة والقوة ان تنفر منه .

فان ما يحمل ذلك منها على ان الشياطين تعرض لها وتستهوئها فتتفرق وتميل إليها بالمسألة التي بينها خاصة دون سائر الدواب .

فان كان هذا كذا فان تعليق الاجراس ، كاستدعائهم وتألفهم وجمعهم ، وهم بالحقيقة أحد المسلمين ، فمن آثر لنفسه هذا في سفره كان حقيقاً لكن لا يقبض الله تعالى لحراسته ملائكته وأوليائه الا ان هذا لا يمنع الموكلين بهؤلاء السفر من ملائكة الله تعالى أن يكتبوا عليهم أعمالهم ، لكنهم في حال المعصية أولى بالتضييق عليهم منهم في حال الطاعة ، وان يقبضوا أرواحهم إذا جاءت آجالهم ، فان المقيم على ما يرضاه الله تعالى أولى أن لا يعزل ولا يؤجل عن أحد أجله من المتمسك بالطاعة والله أعلم .

فان قيل : وما فائدة المسلمين في صحبة الملائكة إياهم .

قيل : فائدتهم إذا لزموا الطاعة لله تعالى ان تثبت الملائكة قلوبهم ، فلا يحلوا ولا يضيعوا بالحل والترحال والسير بالليل والنهار درعاً ، ولا تنفر دوابهم لمعارضة الشياطين إياها ، ولا يصلوا عن سوار فيه من الهوام والسباع واللصوص ، ان حضروا سرأ ليعلمهم ، فلا يقدروا على الاضرار بهم أو حضورهم جهداً ، ليجهدوا ولا يصلوا إلى مرادهم . ولعل لهم من الخير في ذلك ما لا يحضر ذكره ولا يعلمه إلا الله تعالى وبالله التوفيق .

واما قول القائل : ان الكرام الكاتبين ، هل يدخلان الحلاء بدخول وكلاشه إياه ؟
فجوابه : انه لا علم لنا بهذا ، ونقول في الجملة : ان كانا مأمورين بالدخول معه دخلا ،
وان كان الله تعالى يكرمهما عن ذلك ويطلعهما على ما يكون من الداخل مما سبيله أن
يكتباه لئلا يغفلا عنه وينسخاه ، فعلا ما يؤمران به . وليس في خفاء ذلك عابنا ما يوجب
قدحا في ديننا ومقالتنا .

وأما قوله : أين يجلسان ، فان الله عز وجل يقول : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما
كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ (١) . وقال : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من
قول إلا لديه رقيب عنيد ﴾ (٢) .

والمعنى عن اليمين قعيد وقد يعلم في الجملة ان الملائكة حيث هم من السماء والارض حالا
في الاستفزاز يكونون عليها خلاف الحال الذي يكون لهم إذ كانوا مثقلين ذاهبين وحابين
أوصافهم حول العرش مستحِينَ قبل الحال التي تكون لهم إذا رحلوا بهم ، فيفرقوا في
جوانبهم . وتلك الحال ان كانت نحواً من قعود الناس ، وإلا فأنتم القعود لها ، مستعمار
وبالله التوفيق .

واما قوله : انهم بماذا يكتبون وعلى ماذا يخطون ، فجوابه : ان لا علم لنا بذلك ونقول
في الجملة : إنهم يكتبون على شيء يحتمل الطي والنشر ، لقوله الله عز وجل ﴿ ونخرج له
يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ (٣) .

وان الله الذي خلقهم وخلق غيرهم لا يمجزه ان يخلق لهم بتنوير الجلود والقراطيس
وما يكتب عليه الناس شيئاً يخطون عليه ، اما بقلم يخلقه بتنوير الاقلام التي يخط بها
الناس ، واما بشيء كالقلم بمداد أو بغير مداد ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

التاسع من شعب الايمان

وهو باب في ان دار المؤمنين ومآبهم الجنة ودار الكافرين ومآبهم النار

قال الله جل ثناؤه : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ (١) .

وقال فيما وصف يوم القيامة : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، فعلى ما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ (٢) .

وقوله جل ثناؤه : ﴿ إلا ما شاء ربك فيه وجهان : ان الله تبارك وتعالى لما أخبر عن اليوم الموعود بان الذين شقوا ففي النار ، والذين سعدوا ففي الجنة . كان الذي يقتضيه هذا الظاهر أن دخول كل واحد من الفريقين الدار المعدة لهم يقتصر باتيان اليوم الموعود . فقال جل ثناؤه : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ من وفقهم حيث كانوا فيه إلى ان حوسبوا ووزنت أعمالهم ، وسبق كل فريق منهم إلى حيث قضى له لئلا يعارض الخبر المقدم خلق . ومن قال بهذا قال : ان قوله ما دامت السموات والأرض ، لم يرد به انهم يبقون حيث ذكر وسمي قدر ما بقيت السموات والأرض ، لان التوقيت ينافي الخلود ، وإنما ذلك عبارة عن طول مدة بقائهم ، فضرب للمخاطبين مثل ذلك بهذه بقاء السموات والأرض ، إذا لم يكن فيما يعلمونه من خلق الله جل ثناؤه ، ويعرفون حاله أطول بقاء منها ، ولم يكن في جملتها شيء ، أخبروا أنه ليس بمنقض ، فيضرب لهم مثل الجنة والنار .

فهذا القدر هو المراد لان بقاء أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار كما يتبين إلى وقت ثم ينقضي ، لكنه دائم باق ولا انقضاء له والله أعلم .

والوجه الآخر : ان المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك من الزيادة عليه .

ألا ترى انه قال في أهل الجنة ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع ، فلو كان المعنى انهم يقيمون قدر ما دامت السموات والارض ثم يخرجون ، لكان العطاء مجذوذاً . فلما أخبر انه غير مجذوذ علمنا ان معنى الاستثناء ما ذكرنا والله أعلم .

قال بهذا ، قال إلا بمعنى سوى ، وذلك يحسن إذا كان المستثنى أكثر من المستثنى منه كرجل يقول : لفلان علي ألف درهم الا الألفين التي هي إلى سنة ، فيكون المعنى سوى الألفين .

وعلى هذا يكون قوله تعالى في أهل النار : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ ^(١) بمعنى انهم خالدون في النار ما دامت السموات والارض سوى ما شاء ربك من الزيادة على ذلك فلا يتعاضدكم ذلك من أمره ، فانه يفعل ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويحتمل أن يكون ذكر مدة السموات والارض في هذا الوجه إشارة إلى ان الآخرة لا تتقدر بمقدار الدنيا ، ولكنهم ان استوفوا في الجنة والنار مدة العالم المقتضي ، فلا الجزاء الذي لقوه منقضى ، ولا المآب الذي أعد لهم منقضى ، ولكن هذا كله دائم والله أعلم .

فإذا ظهر ان مآب المؤمنين الجنة ، ومآب الكافرين النار ، وقد قال عز وجل : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ ^(٢) ﴿ كلا إن كتاب الابرار لفي عليين ﴾ ^(٣) .

وكان المعنى ما كتب لهؤلاء علمنا ان السجين خلاف العليين ، كما ان الفجار خلاف الابرار ، وسمى الله عز وجل النار هاوية ، ووصف الجنة بأنها عالية ، وجاء في الميزان : روح المؤمن تعلو به ، وان روح الكافر تهوي به ، ولم نعلم أحداً قال : ان الجنة في الارض ثبت ان الجنة فوق السموات ودون العرش .

واحتمل قول الله عز وجل : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ ^(٤) انها تكشط عما وراءها

(٢) المطففين : ٧

(٤) التكوثر : ١١

(١) هود : ١٠٧

(٣) المطففين : ١٨

من الجنان فتظهر آثارها . وان يكون ذلك أولى بها في قوله عز وجل : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ (١) وقد قالت الأوائل : ان فوق السماء عوالم لا يقدر المناطقة على أن يصفوا حسنهما ، وإليها تشتاق العقول .

وهذه إشارة منهم إلى الجنان ونعيمها ، وان لم يسمعوها باسمائها . وفي كتاب الله عز وجل : ﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾ (٢) وفي بعض الأخبار : ان جنة عدن تحت ظلال العرش وفي قول الله عز وجل بعد قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٣) . ﴿ ومن دونها جنتان ﴾ (٤) دلالة على ان الجنان في العلو . ولذلك يكون بعضها دون بعض والله أعلم .

وأيضاً فقد تتابعت الأخبار بذكر الصراط وسمي في بعضها جسر جهنم فعلنا بهذا ان الجنة لا في الارض ولا عند نهايتها ذائبة منها . إذ لو كانت كذلك لم يحتاج الصائر إليها إلى جسر يجتاز منه إليها . وفيما وردت به الاخبار من هذا بيان انها في العلو كما ان جهنم في السفلى والله أعلم .

وإذا كان الامر على ما وصفنا ، وكان الله تبارك وتعالى لم يهيئ للناس هيئة من سفلى إلى علو من غير سبب يتعلق به ، فيمسك قدميه ، احتاجوا في الانتقال من الارض إلى الجنة إلى سبب متصل من طرف الارض إلى طرف الجنان ، فكان ذلك هذا السبب هو الصراط الذي جاء به الخبر .

وروي انس رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال : « ان على جهنم جسراً أعلاه نحو الجنة وخص منزله يجنبيه كلاليب ومسك من النار ، يجلس الله تعالى به من يشاء من عبادة الزالون والزالات يومئذ كثير ، والملائكة يجنبيه قيام ينادون : اللهم سلم ، ويعطون النور يومئذ على قدر ايمانهم وأعمالهم ، فمنهم من يمضي عليه كدمج البرق ، ومنهم من يمضي عليه كمر الريح ، ومنهم من يحصر عليه كحصر الفرس السابق ، ومنهم من يشد عليه شداً ، ومنهم من يهرول ومنهم من لا يعطى نور إلا قدر قدميه ، ومنهم من يحبو حبواً ، وتأخذ النار منه بذنوب أصابها ، وهي تحرق من شاء الله منهم على قدر ذنوبهم حتى تنجوا أول

(٢) النجم : ١٤

(٤) الرحمن : ٦٢

(١) الشعراء : ٩٠

(٣) الرحمن : ٤٦

زمرة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، كأن وجوههم القمر ليلة البدر . ثم الذين يلونهم كاضواء نجم في السماء حتى يخلصوا إلى الجنة برحمة الله » (١) .

وفي بعض الروايات في هذا الحديث « ان الصراط أدق من الشعر ، وأحد من السيف » (٢) والمعنى - والله أعلم - ان امر الصراط والجواز عليه أدق من الشعر ، ان يكون عسره على قدر الطاعات والمعاصي ، ولا يعلم حدود ذلك إلا الله تعالى جده لحفاؤها وغموضها ، وقد حرت العادة بتسمية الغامض الخفي دقيقاً ، وضرب المثل به بدقة الشعر ، فهذا والله أعلم من هذا الباب .

واما انه أحد من السيف ، فيكون معناه - والله أعلم - ان الامر الدقيق الذي يصله من عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نقاد حدة السيف ومضيه ، اسراعاً منهم إلى الطاعة وامثالاً ، ولا يكون له مرد ، كما ان السيف إذا نفذ بحدة وقوة ضاربة في شيء لم يكن له بعد ذلك مرد .

فاما ان يقال : ان الصراط نفسه أحد من السيف وأدق من الشعر ، فذلك مرفوع بنفس هذا الحديث ، لأن فيه : « ان الملائكة يقومون بجنبه ويقولون : اللهم سلم سلم » وفيه « ان فيه كلاليب ومسكا » وفيه « ان ممن يمر على الصراط من يقع على بطنه ، ومنهم من يزل ثم يقوم » وفيه : « ان من الذين يمشون عليه من يعطى النور بقدر موضع قدميه » وفي ذلك إثبات ان المارين عليه مواطىء الأقدام ، ومعلوم ان دقة الشعر لا تحمل هذا كله . وقد سألت أحد الحفاظ عن هذه اللفظة فذكر انها ليست ثابتة . فاما ان لا يشتغل بها ، واما ان يحمل على المعنى الذي ذكرنا والله أعلم .

فأما ما قيل في هذه الرواية : من ان أعلى الحسن نحو الجنة ، ففيه بيان أسفله نحو طرف الارض ، وذلك لما مضى بيانه من أن جهنم ساقطة ، والجنة عالية . فاما نهاية الميزان وقدر بعد الجنة منها ، فلم يرد فيها شيء إلا ان الله عز وجل قال في سورة الشعراء ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ (٣) وقال في سورة ق : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير

(١) ورد في مسند الامام احمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٢٥ ، ص ٢٦

(٢) لم يرد الا في صحيح مسلم « الايمان » باب ٣٠٢ ، وفي مسند الامام احمد بن حنبل

ج ٦ ، ص ١١٠ . (٣) الشعراء : ٩٠ .

بعيد ﴿١﴾ . اخبر انه يقال لهم قبل أن يدخلوها : ﴿ هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ ﴾ (٢) .

وفي ذلك دليل على انها تكون بحيث يمكن الاشارة إليها ، فقد يحتمل - والله أعلم - ان السموات إذا طويت ادنيت الجنان من أهلها ، وذلك لان أبعادها قبل يوم الدين إنما يكون ليؤمن أهلها بها وهي غائبة ، ليس عندهم منها إلا الخبر عنها ، فيستوجبوها بإيمانهم بها .

فإذا كان يوم الدين جاء وقت الجزاء وكشفت الاغطية عنها ، اعني كشط السموات أدنيت أيضاً . كما تبرز الجحيم لأهلها بعد ان كانت محجوبة عن أبصارهم ولا يمكن أن يشار إلى مقدار دونها وهو أعلم بالحقائق ، ليس عندنا أكثر من أن الارض تمد مد الاديم ، فنزول استدارتها وتنقلب عن حالها فتكون يومئذ مسطحة ذات طول وعرض ، والجنان فوقها ولكن متنجية منحى مشارق سطح الدار عن الدار عن صحنها لان الله عز وجل سماها غرفاً فقال : ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ (٣) وقال : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ﴾ (٤) وقال : لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴿ (٥) .

وظاهر هذا انه عز وجل سمى جميع أبنية الجنة غرفاً ، فثبت انه سماها بذلك لاشرافها على مساكن الآخرين ، ولأنه أخبر ان من في الجنة وقد تطاع فيرى من يريد في سواء الجحيم . وذلك كاطلاع من ينظر من طرف سطح أو لرأس جدار إلى من في سطح الدار فيراه .

وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك ان أهل الجنة ينادون أهل النار ، وأهل النار ينادون أهل الجنة .

وأخبر ان أصحاب الاعراف ينظرون إلى أهل الجنة مرة فيسلمون عليهم طمعاً في المصير اليهم والاختلاط بهم ، وإلى أهل النار فيستعيزون بالله من حالهم ، وإنما هم كالواقف على رأس جدار عال يشرف منه على غرفة منها قوم على مقيمون على سرور ولذة من وجه ، وعلى صحن كان فيها ماتم وبكاء وجزع من وجه .

(٢) سبأ : ٢٧

(٣) ق : ٣٢

(١) ق : ٣١

(٥) الزمر : ٢٠

(٤) الفرقان : ٧٥

فأهل الجنة العالية أصحاب الأعراف كأهل السطح الذين هم في السرور ، وأهل النار هم كأهل الصحف الذين هم في الغموم .

إلا ان بين الجنة العالية من الوجه الذي يشرف على الأرض والنيران السافلة حجاباً ، وهو سور يضرب يوم القيامة ، والأعراف أعلى من هذا السور ، فلا يكون بين أهل الجنة وأهل النار تلاق ولا تقارب ، الا أن يكون تناد من أهلها إلى ملائكة الجنة ينادي أهلها إلى ملائكة العذاب ، وملائكة النار ينادي أهلها إلى ملائكة الجنة ، أو يقوى الله تعالى الأصوات والاسماع فيسمع أحد الفريقين مع بعد المسافة الآخر ، وهذا قبل أن يسلب أهل النار اسماعهم .

وإذا كانت البحار تسجر يوم القيامة فتكون هي جهنم والبحار في الأرض ، فقد صار بعض الأرض جهنم ، فلا يبعد أن يكون تبديل الله تعالى الأرض غير الأرض بعد ركوب الناس الصراط كما قال النبي ﷺ هو أن تقلب الأرض كلها ناراً ، كما تقلب مواضع المياه منها ناراً ، وأن يكون بقاء الأرض تراباً مدة فيها يحتاج إليها للقيام عليها . فإذا فرغت منهم صارت ناراً .

وقد قال بعض العلماء : إن الكفار لا يجازون على الصراط لأنهم في النار وهم في معدن النار إذا النار في الأرض فإذا خلص المؤمنون وحصلوا على الصراط وانفروا الكفار بمواقفهم صارت مواقفهم من النار ، فلم يلق مع ذلك باحوالهم أن يجازوا على الصراط ، وهذا القول يقرب ما قلناه والله أعلم بما هو فاعله .

وذكر وهب في كتابه : ان الله عز وجل إذا أراد أن يكشف عن سقر غطاها خرجت منها نار تفتق بالبحر المطبق على شفير جهنم ، واشتعلت في الأرض السبع فتركتها جرة واحدة ، فقد يحتمل أن يكون شقها البحر قبل حساب الخلائق ، واشتعلها في الأرضين السبع لتصير جرة واحدة بعد أن ركب المؤمنون الصراط ، فيرجع هذا القول الذي حكته والله أعلم .

وأما ما ذكر في هذا الحديث من الأنوار ، فقد قيل : ان ذلك انما يكون إذا أمر باهل الجنة إلى الجنة وباهل النار إلى النار ، فيتقدم المؤمنون ، وقد أعطى كل واحد منهم نوراً

بقدر عمله . والباقون في ظلمة شديدة من دخان جهنم ، فيقولون لهم : ارجعوا وراءكم
فالتمسوا نوراً .

قال الله عز وجل : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله
العذاب ﴾ (١) فيحتمل - والله أعلم - ان هذا السور إنما ضرب عند انتهاء الصراط ،
وينزل له باب يخلص منه المؤمنون إلى طريق الجنة ، فذاك هو الرحمة التي في باطنه .

وأما ظاهره فإنه يلي النار ، وإن كانت النار سافلة عنه لا محاذية إياه ، فإذا لم يجد
المنافقون إلى باطن السور سبيلاً إلا أن يقذفوا من أعلى الصراط ، فيهبون منه إلى الدرك
الأسفل من النار ، ولم يذكر الله تعالى في قصة النور إلا المنافقين .

فقد يحتمل من قول من يقول ان الكفار لا يجازون على الصراط ، ان المنافقين يخلصون
بالاجازة عليه على معنى أن يحلوا واتباع المؤمنين ، ليظنوا انهم ينجون بنجاتهم ، حتى إذا
بلغوا الحد ميزوا عنهم ، فنادوا المؤمنين : ﴿ ألم نكن معكم ، قالوا : بلى ولكنكم فتنتم
أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الفسور ﴾ (٢)
فيكون هذا مما أخبر الله تعالى انه فاعله بهم في قوله : ﴿ قالوا : إنما نحن مستهزئون ، الله
يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والله أعلم .

واختلف الناس في أصحاب الاعراف فقال قائلون : ﴿ انهم ملائكة يقومون عليها ،
وينظرون إلى أهل الجنة مرة فيحيونهم ، وإلى أهل النار مرة فيبكونهم ، ويحملهم ما
يشاهدونه من سوء أحوالهم على الاستعاذة بالله تعالى منها وذلك بعيد من وجهين : أحدهما
ان الله عز وجل قال : ﴿ وعلى الاعراف رجال ﴾ (٣) واسم الرجال لذكور العقلاء ، والملائكة
ينقسمون إلى ذكور وإناث .

والآخر : انه تعالى أخبر عنهم انهم يقولون لأهل الجنة : ﴿ سلام عليكم ﴾ ، طامعين
أن يدخلوها . والملائكة غير محجوبين عن الجنة ، إلا ان تكون ملائكة المذاب ، ولئن
كان منهم من ان لا يدخلها ، فانه لو دخلها ليتلذذ بنعيمها ، إذ التلذذ بما يتلذذ به الناس غير

(٢) الاعراف : ٤٦

(٣) الحديد : ١٤

(١) الحديد : ١٣

مركب فيهم . فيقال إذا لم يصل اليها انه يطمع أن يدخلها . وأيضاً فان الحيلولة بين الطامع وطمعه تستبق ولا عذاب يومئذ على ملك .

وقيل : انهم قوم قتلوا في سبيل الله لا انهم مع ذلك أصحاب كبائر ، فلم يدخلوا النار ، الا ارواحهم ذهبت في سبيل الله تعالى ولم يدخلوا الجنة للكبائر التي وافوا القيامة بها فيحبسهم الله تعالى بين الجنة والنار خائفين ، راجين إذا نظروا أهل الجنة ، قالوا ﴿ سلام عليكم ﴾ (١) مستعجلين بان يلحقوا بهم ، وإذا أشرفوا على النار ، قالوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ (٢) .

فيكون ذلك الخوف عقوبة لهم إلى ان يمن الله تعالى عليهم بالجنة . وقيل . انهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، لان الحسنات تحول بينهم وبين النار ، والسيئات تحول بينهم وبين الجنة ، فيحبسون هناك ما شاء الله عقوبة لهم على سيئاتهم ثم يدخلون الجنة .

وهذه حال قد بينا من قبل انها لا تكون ولا يمكن انها لا تكون ، ولا يمكن لانه لو جاز أن تستوي الحسنات والسيئات مع تقدير الحسنات باصلها وهو الايمان ، وانفرد السيئات عن الكفر لا يمكن أن تزيد السيئات على الحسنات حتى يكون ميزانها هو الثقل وميزان الحسنات هو الخفيف ، ولو امكن أن يكون ذلك لم يدخل من كان هذا حالة الجنة أبداً ، لأن الوزن لم يظهر له حسنة قط إذا كان ميزان السيئات هو الذي يثقل ، ولا يوازي ثقلها من جانب الحسنات ثقيل أصلاً .

ولو كان لا يجوز أن يكون مؤمن يخلد في النار ، علمنا ان زيادة سيئات المؤمن على حسناته غير ممكن ، وإذا نظرنا في ذلك وجدنا المعنى : أن مع حسنات المؤمن إيمانه الذي هو اصل الطاعات ، ولا يوازن الاصيل ما ليس بأصل

فاذا وجب هذا المعنى أيضاً : ان لا تساوي حسنات المؤمن سيئاته ، وان يكون أثقل ميزاني المؤمن ميزان حسناته - والله أعلم - الا ان يقول قائل : ان حسنات المؤمن سوى إيمانه ، وسيئاته قد يستويان ، ولكنه هذا إذا كان وضع الإيمان مع حسناته في الميزان

(٢) الأعراف : ٤٧

(١) الأعراف : ٤٦

فرجع . فيزول حينئذ استواء الحسنات والسيئات والله أعلم .

الا ان هذا فان كان هكذا ، فقد يجوز أن يكون أصحاب الاعراف قوماً كثرت سيئاتهم ، ولم يرد الله تعالى أن يحشرهم في النار وينالهم فعذبهم بحر النار وكرها ولم يسلطها على أجسادهم فيحرقها والله أعلم .

وأما قول الله عز وجل ، ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيئاتهم ، قالوا : ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ (١) فانما هو انهم يقولون لقوم من أهل النار هذا فيقول لهم أهل النار في جواب ذلك وأنتم فما أغنى عنكم إيمانكم ، والله لا يالكم من الله رحمة فيكذب الله تعالى بين أهل النار ويقول هؤلاء : اقسمت عليهم أي ومن أين أجزتم لانفسكم أن تحكموا على الله ، ثم يقول لأصحاب الاعراف : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ (٢) والله أعلم .

ومما يدخل في هذا الباب قول الله عز وجل ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ، ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ (٣) فقيل : ان الورد النظر لا الدخول ، الا ترى ان ورود الماء بلوغ مكانه والوقوف على طرفه لا حوضه ، ولا الشروع فيه ، وقد أخبر الله عز وجل انه يحصر الكفار حول جهنم جثياً ، والجثو حال المحاسبة ، كما قال عز وجل : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ (٤) .

فاذا كان موضع الحسنات حول جهنم ، وحيث يكون الصراط والمؤمنون والكافرون في ذلك سواء ، وذلك هو الورد على هذا الخارج قوله عز وجل ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ (٥) أي تخريج ذلك على وجهين أحدهما ننجي الذين اتقوا وان نباعد بينهم وبين النار ، ونأمر بالظالمين إلى النار ويذرمهم فيها .

والآخر : ننجي الذين اتقوا من حول جهنم بالاجازة على الصراط ، وإذا أخرجناهم سلطنا النار على الظالمين الذين كانوا جثياً ، فاخذتهم على حال جثوهم بركبائهم ، فيها . وهذا على ان ذلك المكان يصير من جهنم بمزايلة المؤمنين إياه ، وإن الكفار يجازون على الصراط المستقيم ، والله أعلم ،

(٣) مريم : ٧١

(٢) الأعراف : ٤٩

(٥) مريم : ٧١

(١) الأعراف : ٤٨

(٤) الجاثية : ٢٨

وفيه قول آخر : وهو ان المؤمنين والكفار يجازون على الصراط والله أعلم ، وذلك ورود المؤمنين النار ، لان الصراط انها هو جسر جهنم ، وقد يلحق الذين يجوزون فيه من النار أذى .

فان كان من شرط الورد مس النار والورود ، فقد كان ذلك ، وإن كان لا يلحقهم أو بعضهم منها أذى ، فان ركوب جسرهما الذي يلقي منه ما يلقي إلى النار ، وتختطف الكلاليب بعضهم حقيقة بأن يقال له ورود ذلك ، وذلك هو الذي أراد الله تعالى بهذه الآية .

ومن قال هذا ولم يقطع بان الارض قصير أو شيء منها من جملة جهنم قال الاشبه ان الارض تعدم إذا ركب الناس الجسر ، كما طويت السموات فكانت عدماً . والدليل على ذلك ان الله عز وجل سوى بين السموات والارضين في قوله خالدين فيها ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك ، فبان ان مدة الارض متناهية ، كما تكون مدة السماء متناهية ، ومن قال بالاول ، قال : مدة أرضها متناهية كما ان مدة سمائه والله أعلم .

فان قيل : جاء عن النبي ﷺ انه قال : (من مات له ثلاثة لم تمسه النار الا بخلة القسم) يعني قول الله عز وجل : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (٢) وهذا يدل على ان الورد ليس هو التطرف ، فيكون الجواز على الصراط ، وحضور شفير جهنم عند المحاسبة جازياً عنه قبل .

قيل : اسمى مس النار كما قال أيوب ﷺ ﴿ إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ (٣) أي عوضني . كذلك لأن مسه بالحقيقة وكما قال عز وجل : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ، ولا هم يحزنون ﴾ (٤) . أي لا ينادون بسوء ولا يسوءهم شيء . فيكون معنى تمسه النار ، أي ينادي بها .

وإذا كان هذا هكذا ، وقد أخبر الله عز وجل ان جهنم ﴿ ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر ﴾ (٥) ، وجاء الحديث انها ترمي زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل

(١) لم يرد إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) ص : ٤١

(٣) مريم : ٧١

(٤) المرسلات : ٣٣

(٥) الزمر : ٦١

الاتمه نفسه وانها إذا برزت غشيت أهل المجمع منها ظلمة شديدة ، وإن شررها يقع على رؤوس الخلائق ، فتكاد أفئدتهم تنخلع من الخوف إلى غير ذلك .

فليس يبعد أن يكون ورود المؤمنين جهنم ان يحضروا شغير جهنم للمحاسبة فيروها عين اليقين ، وإذا أخذت تموج وتتأرجح وترمي بشررها اشفقوا منها وإذا زفرت فرقوا من زفيرها ، وتغشاهم من ظلمتها ماء يغشي غيرهم . فيكون هذا مس النار إياهم دون اللذع والاحراق والله أعلم .

فان سأل سائل عما روينا ، وقال : كيف يحوز اثبات الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين تهمهم أنفسهم يوم القيامة ما يرون من الأهوال والشدائد والله عز وجل يقول فيمن دونهم من الأولياء : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيبها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون . ﴾ (١) ويقول : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (٢) .

قيل له : ان المذكورين في هذه الآية يكونون آمنين من حيث يبشرون بالخير والنعمة ، ولكن لا ينكر انهم إذا رأوا هؤلاء لم يشاهدوها قط ، ولا خطرت على قلوبهم أن ينفقوا في ذلك الوقت عن الأمن الواقع لهم ، ويغلب الخوف على قلوبهم ، فقد يحتمل أن يكون خوف الانبياء عليهم السلام في الحال التي ذكرتها من هذا الوجه .

وأما قوله عز وجل : ﴿ لا يسمعون حسيبها ﴾ ، فالمعنى انهم لا يسمعون ما تفعله النار بأهلها إذا حصلوا في الجنة ، وحصل أهل النار في النار . الا ترى انه قال على أثر هذا : ﴿ وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ (٣) . فاما من قبل دخول الجنة فقد يسمعون زفيرها ، ويردون كثيراً من أهوالها والله أعلم .

فان سأل سائل : عن معنى إيراد الله تعالى جده المؤمنين جهنم .

قيل له : قد قال الناس في ذلك وجهين : أحدهما أن يعلم المؤمنون بالعيان ما كانوا يخبرون عنه من شدائد بدار أعد الله تعالى جده الكفار من العذاب ، فإذا صاروا منها إلى

(٣) الأنبياء : ١٠٢

(٢) النمل : ٨٩

(١) الأنبياء : ١٠٠ - ١٠٣

الجنة كانوا أشهر بها وأقر عيناً ، وكانت في نفوسهم أعظم قدراً موقعاً .
والاخر ان الفريقين إذا جمعها مجمع واحد وهو شفير جهنم أو الصراط ، ثم ميز
أحدهما عن الآخر ، وصير به إلى الجنان ، والاخر إلى النيران ان كانت الحشرة على الذين
يصار بهم إلى النار أشد ، ومصيبته أقطع وأوجع . وقد يجوز أن يكونا معاً هما المراد .
فان قيل : فلم لا يرى أهل النار أهل الجنة ، كما يرى أهل الجنة النار ليعلموا ما الذي
فاتهم وحرموه بالمعاصي أنفسهم ، فيكون ذلك أعم وأوجع لهم .
قيل : لان حريم الجنة وحريم النار كالنار ، فلما كانت النار يخرج منها عصاة
المؤمنين ، ولا يخلدون فيها ، صلح إيراد المؤمنين شفيرها ليروها ، ويعاينوا أحوالها ،
ثم ينقلوا عنها . ولما كانت الجنة لا يخرج منها دخلها لم يلق بها ان يورد الكفار حريمها
فيستنشقوا رائحتها ويشاهدوا نعيمها ثم ينقلوا عنها .

فصل

فان قال قائل : كأن جهنم هو البحر ، فما يبقى قوله عز وجل : ﴿ وإن جهنم لموعدهم
أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ ^(١) . فان كانت النار في أسفل
كما وصفهم فاجازة الكفار على الصراط لأي سبب ؟

قيل له : ان من قال . ان الكفار يركبون الجسر ، فقد يخرج عن قوله ان تكون
أبواب جهنم في الجسر فروجاً ، فيه أشباه أبواب السطوح ، فهم يقذفون منها في جهنم ،
وانما يجمع بينهم وبين المؤمنين على الصراط ليكون فرج المؤمنين بالفوز والخلاص أعظم ،
وحسرة الكفار وغمهم أشد وأفظع ، والقاؤهم من الجسر أخوف وأهول .

ولعل قول الله جل ثناؤه : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ^(٢) يكون في هذا
الوقت ، وما في القرآن من قول الله عز وجل : ﴿ كلما ألقى فيها فوج ﴾ ^(٣) ، وقوله
تعالى ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ﴾ ^(٤) . فالدليل على هذا ، لأن الالتقاء في الشيء

(٢) يس : ٥٩

(٤) ق : ٢٤

(١) الحجر : ٤٤

(٣) الملك : ٨

أكثر ما يستعمل في الطرح من علو إلى أسفل ، نحو قولهم : ألقاه في الحوض وفي البيت ، وإذا لم تكن كذلك ، قيل : ألقاه على قارعة الطريق ، وألقاه على ظهره والله أعلم .

ومن قال : ان الكفار لا يركبون الجسر ، قال : قد يكون لجهنم يوم القيامة سبعة مشارع يصار بالكفار إليها ، ثم يلقي بعضهم فيها ، ويسحب بعضهم على وجوههم ، ويساق بعضهم سوقاً ، ويكلفون دخولها ، وليس يكون هذا ، لان الملائكة يتعذر عليها هذا الأمر في مكان من جهنم ، ويتيسر في موضع ولكن لأهل النار سبعة أصناف ، كما قال الله تعالى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴿ (١) ﴾ فيجعل الله يومئذ لها سبعة مشارع لتمييز الاصناف بعضها من بعض والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى النار ، سماها بثمانية أسماء : الجحيم - والسعير - وسقر - ولظى - وجنم - والحريق - والحطمة - والهاوية .

وقد يحتمل ان يكون ما عدا جهنم أسماء الدركات المحتملة ، التي أعدت لأهل النار كما يليق بأحوالهم وسيئات أعمالهم ، وتكون جهنم اسماً للجميع ، كما قال : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب ﴾ (٢) وقال : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ (٣) فالأبواب السبعة في المشارع إلى هذه المسميات السبعة وجهنم اسم لجللتها .

جاء عن النبي ﷺ في حديث يرويه سلام الطويل عن أبي سفيان عن انس بن مالك رضي الله عنهم عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل : لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم : « جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء صيروا رعيتهن بحطهم من الله ، وجزء عتوا على الله » (٤) .

فان كان هذا ثابتاً عن النبي ﷺ ، والمشركون بالله هم الثنويين والوثنيين ، والشاكون هم الذين لا يدرون ان لهم إلهاً أولاً إله لهم ، ويسألون في شريعته ولا يدرون انها من عنده .

والغافلون عن الله هم الذين يمجدون أصلاً ولا يتبعونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون

(٢٠١) الحجر : ٤٤ (٣) الزمر : ٧١

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

شهواتهم على الله ، المنهمكون في المعاصي لتكذيبهم رسل الله تعالى جده وأمره ونهيه ،
والشاقون غبطهم بغضب الله ، القتالون أنبياء الله وسائر الداعين إليه المذبذبون من ينصح
لهم ، أو يذهب غير مذهبهم ، والمصيرون وغيرهم يحطهم من الله ، هم المنكرون للبعث
والحساب . فهم يعبدون بأي ما يرغبون فيه لهم جميعهم ، حطهم من الله جل ثناؤه .
والعاتون على الله الذين لا يبالون بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً ، فلا يتفكرون ولا
يعتبرون ولا ينظرون ولا يستدلون ، والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ ان كان الحديث
ثابتاً عنه .

فصل

وقد أخبر الله تعالى جده : ان في النار انكالا وهي القيود ومقامع من حديد ، وان
فيها شجراً طلعها كأنه رؤوس الشياطين . وقال في آية أخرى ، ان شجر الزقوم طعمام
الاثم وان فيها حميماً وهو الماء الجار المقطع للامعاء . وجميع ذلك يحتمل وجهين : احدهما
ان يكون كل ذلك نيراناً مختلفة الاوصاف ، كما ان فيها في الارض ما بين دواب وأشجار
وزروع كلها من تراب ، الا ان الاعراض مختلفة ، والاصناف متغايرة بالخشب والحديد ،
هناك نار مهيأة بهيئة الشجر ونار مهيأة بهيئة الحديد ، والحميم نار مهيأة بهيئة الماء .

وكل ما جاءت به الاخبار ، من ان في النار حيات وعقارب فان كانت تلك الاخبار
ثابتة فهي محمولة على هذا المعنى وهو ان تلك نيران مهيأة بهيئة الحيات والعقارب . وليس
ينكر ان يخلق الله تعالى من النار المفردة خلقاً ويجعله حياً ، فقد أخبر عز وجل انه : خلق
خلق الجن من مارج من نار ، وهو على ما يشاء قدير .

والوجه الاخر : ان يكون الشجر خشباً ، والقيود والمقامع حديداً ، والحميم ماء ،
والحيات والعقارب ما عرفت الا ان الله عز وجل يسكها ، ويدفع الاحتراق والفساد
عنها . فانه خالق الطبع والمطبوع . فكلمنا انه إذا أراد تغيير المطبوع غيره . فكذلك
إذا أراد تغيير الطبع غيره .

وإذا كان يحرق أهل النار ولا يمسهم خلاف المعروف في الدنيا من ان من أحاطت به

النار وأحرقته هلك ، فما الذي ينكر من ان يمسك في النار خشباً وحيات وعقارب فلا حرق بالنار ما لا يطفأ بالنار ولا تأكله النار وبالله التوفيق .

فصل

فاما الجنان ، فان الله حصرها بأربعة أعداد فقال عز وجل : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ ^(١) وقال بعد ذلك : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ^(٢) ولم يذكر سوى هذه الاربعة جنة خامسة .

فان قال : ﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾ ^(٣) قيل : جنة المأوى اسم لجميع الجنان يدل على ذلك انه قال : ﴿ فلهن جنات المأوى ، نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ ^(٤) . والجنة اسم الجنس ، فمرة يقال : جنة ، ومرة يقال : جنات عدن ، وجنة عدن . لان المعدن الاقامة ، وكلها دار الاقامة ، كما ان كلها مأوى المؤمنين . وكذلك دار الخلد ودار السلام لان جميعها للخلود والسلامة من كل خوف وحزن .

وكذلك جنات النعيم ، وجنة نعيم ، لان جميعها مشحونة بأنصاف النعيم . وانما منعنا ان نجعل كل واحد من المعدن والمأوى والنعيم جنة تنوى لان الله عز وجل ان كان سمى شيئاً من هذه الاسماء جنة في موضع فقد سمى الجنان كلها بذلك في موضع آخر فعلنا ان هذه الاسماء ليست لتمييز جنة من جنة ولكنها للجنان اجمع لا سيما وقد أتى الكتاب بذكر العدد ولم يثبت إلا أربعاً .

وقد أثبت الله عز وجل هذه أبواباً بقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ ^(٥) . وجاء عن النبي ﷺ : « ان أبواب الجنة ثمانية » ^(٦) فقد يحتمل أن يكون ذلك لان لكل جنة من الجنان الاربع بابين .

وقد وصف الله تعالى هذه الجنان في كتابه ، فوصف أهل الجنة ، فصنفهم صفين : أحدهما السابقون المقربون ، والآخر أصعباب اليمين . فعلنا ان السابقين أهل الجنتين

(٣) النجم : ١٤

(٢) الرحمن : ٦٢

(١) الرحمن : ٤٦

(٥) الزمر : ٧٣

(٤) السجدة : ١٩

(٦) ورد في سنن ابن ماجة « الطهارة » باب ٤٧ ، ٦٠ ، وفي صحيح البخارى « اذان » باب ١٢٩ .

العالمين في قوله تعالى ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنات ﴾ إلى قوله ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ فقال : فهاتان للمقربين ، وهاتان لأصحاب اليمين .

وعن أبي موسى الأشعري نحو من ذلك ، وأصحاب اليمين هم الذين يؤتون كتبهم بإيمانهم وتخصيصهم بهذا الاسم ليس لان السابقين لا يقرأون كتبهم ، ولكن لان الثناء عليهم بالسبق إلى الطاعات أشرف لهم من وصفهم بإيتاء الكتب بإيمانهم ، لانهم بشرهم في إيتاء الكتاب باليمين من ليس له سبقهم وتقدمهم ، ولا يشركهم في إيتاء الكتاب باليمين من سبق غيرهم . فذكروا برفع الذكرين ، ولما لم يكن من أهل الجنة بعدهم إلا من لم يكن لهم مثل فضيلتهم ، فيذكروا معهم قبل لهم أصحاب اليمين أي الباقون بعد السابقين من أصحاب اليمين والله أعلم .

والسابقون هم المتسارعون إلى الطاعات من اتباع الانبياء صلوات الله عليهم ، وتصديقهم ونصرهم على أعدائهم ، وما يتبع ذلك من أوامر الله جل ثناؤه وغير متباطئين عنها ولا مستغلين لها أولا متطلبين للاعذار والعلل للاخذ بالهوينى فيها ، فان جزاءهم عند الله ان يجعلهم سابقين إلى جنته والنعيم التي أعد فيها لأهل رضوانه ، وتقدمهم على غيرهم ، كما قدموا في الدنيا طاعته على أهوائهم ، وتركوا أهلها أراد بهم .

ولما وصف الله تعالى بعض نعيم الجنان أشار إلى الفرق بين الجنتين اللتين ذكر انهما لمن خاف مقام ربه وبين الجنتين ومن دونهما فقال في الأوليين : ﴿ فيهما عيتان تجريان ﴾ (١) وفي الآخرين : فيهما عيتان نضاحتان ﴿ (٢) أي فوارتان ، ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضح دون الجري .

وجاء عن النبي ﷺ قال : « جنتان من ذهب للمقربين ، أو قال للسابقين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين » (٣) فقال في الأوليين : ﴿ فيهما كل فاكهة زوجان ﴾ (٤) فعم ولم يخص . وقال في الآخرين : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (٥) ولم يقل من كل فاكهة وقال في الأوليين : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ (٦) وهو الديباج . وفي

(١) الرحمن : ٥٠

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « المقدمة » باب ١٣ حديث رقم ١٨٦ بهذا المعنى .

(٣) الرحمن : ٥٤

(٤) الرحمن : ٦٨

الأخريين ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ ^(١) والعبقري الوشي .
ولا شك ان الديباج أغلى من الوشي ، والرفرف كثير الخباء ، ولا شك ان الفرش
المفردة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء .

وفي الاوليين في صفة الحور العين : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ ^(٢) . وفي الاخريين :
﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ ^(٣) . وليس كل حسن بحسن الياقوت والمرجان .
وقال في الأوليين : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ ^(٤) وقال في الاخريين : ﴿ مدهامتان ﴾ ^(٥)
أو خضراواتان ، كأنهن من شدة خضرتها سوداوان . فوصفت الاوليين بكثرة الاغصان ،
والاخريين بالحضرة وحدها . وفي هذا كله إشارة إلى تحقيق المعنى الذي قصد بقوله :
﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ^(٦) ولعل ما يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما ذكر .

فان قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الاوليين .
قيل : الجنان الاربعة لمن خاف مقام ربه ، الا ان الخائفين لهم مراتب . والجنتان
الاوليان لا على العباد رتبة في الخوف من الله جل ثناؤه . والجنتان الاخريان لمن حاله في
الخوف من الله تعالى عنهن .

واختلف في الحور العين المذكورات في القرآن ، فقال الحسن البصري : ان الحور
العين هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين ، يخلقن في الآخرة على أحسن صورة ،
والمشهور ان الحور العين ليس من نساء أهل الدنيا ، انما هن مخلوقات في الجنة ، لان الله
عز وجل يقول : ﴿ لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ^(٧) . ونساء الدنيا أكثرهن مطمئنا .

فعلما ان الحور خلقهن غيرهن ولا النبي ﷺ يروى عنه : (ان أقل ساكني الجنة النساء)
وإذا كانت نساء الجنة أقل من رجالهم لم يصب كل واحد منهم امرأة . ووعد الحور
العين لجماعهم فثبت انهن غير نساء الدنيا . ومن ذهب مذهب الحسن قال : إذا قضى الرجال
شهواتهم في الجنة ، علما ان النساء هن مثل ذلك ، فلو لم يردون إلى الرجال لم يحدن غيرهم
فثبت ان نساء أهل الجنة أزواج رجالهم .

(٣) الرحمن : ٧٠

(٢) الرحمن : ٥٨

(١) الرحمن : ٧٦

(٥) الرحمن : ٦٤

(٤) الرحمن : ٤٨

(٧) الرحمن : ٥٦

(٦) الرحمن : ٦٢

وجواب ان ذلك يمكن أن يكون ولا يجب عنه أن يكون الرجال مقصورين عليهن ، فانه لا يمتنع أن يرددن عليهم . ويراد من الحور العين خيراً آمنهن . وأيضاً فان الله عز وجل جعل الحور العين من أوصاف الجنان وعدهن في نعيمها ، كما ذكر الفواكه والماء والخمر واللبن والفرش واللباس . وليس يجوز أن تكون الثياب بالجنة من نعم الجنة وأوصافها ، فيكون أهل الجنة مسوقين اليها بانفسهم . فصح أن الحور العين مخلوقات في الجنة وليس من نساء الدنيا والله أعلم .

وأما الولدان والغلمان فان من الناس من قال : لما لم يكن في الجنة ولدان علمنا انهم من ولادة الدنيا . وروى عن النبي ﷺ قال : (الأطفال خدم أهل الجنة) ^(١) وعن سلمان : أطفال المشركين خدم هذه الجنة .

وعن الحسن في قوله عز وجل : ﴿ يطوف عليهم ولدان ﴾ ^(٢) قال لم تكن لهم حسنات يجوزون بها ، ولا سيئات يعاقبون عليها ، فوضعوا هذا الموضع . وقد يحتمل مع هذا أن يكون الغلمان مخلوقين في الجنة . فيكون ذكور الخدم كأباؤهم ، وسموا ولدانا من طريق التشبيه لهم في صور الولدان والغلمان ، كما قيل في الفرش وعبقري حسان . وليس في الجنة عبقري ، كما ليس فيها ولادة ، وقيل . ﴿ وزراني مبثوثة ﴾ ^(٣) وليس في الجنة نسخ والله أعلم .

ومعنى مخلدون ، والمخلدة الحليه ، وقيل مفرطون ، وقيل على سن واحد لا يتغيرون عنها أبداً . وقيل مخلدون مع من يحرمونهم ولا يزايلونهم أبداً . وذكر وهب وغيره ان الجنان سبع : دار الجلال - ودار السلام - وجنة عدن - وجنة المأوى - وجنة الخلد - وجنة الفردوس - وجنات النعيم . على الهامش .

وفي بعض الأخبار الشائمة جنة نعيم ، ويشبه أن تكون الفردوس أساء لجميع الجنان كلها ، كجهنم التي تجمع النيران كلها . لأن الله عز وجل مدح في أول سورة المؤمنين أقواماً

(١) لم أجد هذا النص في الكتب الثمينة .

(٢) الفاشية : ١٦

(٣) الواقعة : ١٧

وصفهم ثم قال : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (١) ثم
ثم أعاد ذكرهم في سورة المعارج وقال : ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ (٢) فعللنا أن
الفردوس جنات لاجنة واحدة كما قال وهب والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : (إذا سألت الله فسلوه الفردوس) (٣) فهذا والله أعلم -
ان للجنات مراتب لا يستوي الناس في استحقاقها ، فلا ينبغي لأحد أن يتخير احداها
فيسلمها الله ، وإنما أعدها الله تعالى لغيره ، فيكون داخلا في جملة قوله تعالى : ﴿ ولا تمنوا
ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ (٤) بل ينبغي له أن يسأل الله الفردوس ، فيكون قد
سأله الجنة . في الجملة ، وليس في شيء من درجاتها بمرغوب عنه والله أعلم .

فصل

قال بعض الضالال : ان للشواب والعقاب صوراً للناس بصور جسمانية لتقرب إلى
أفهامهم . فقبل لهم : إن في الجنة مآكل ومشارب ومناكح وملابس ثم وضعت لهم بأحسن
الأوصاف ، وأولها بأن يشوق إليها لأنهم لم يعرفوا اللذة والسرور والغبطة في الحياة
الطيبة في العيش ، إلا من هذه الوجوه ، فضربت مثلاً لهم والا فالحقيقة انه لا ألم هناك ولا
موت ولا حزن ، وإنما هو مسرة دائبة متصلة ، ولذة وبهجة غير منقطعة ، كما يلتذ الطاعم
بطعم الشيء الطيب اللذيذ ، ومجامة من يميل إليها ويستحسنها ، والفرش والملابس الناعمة .
قال : ومما يبين ذلك ان الله عز وجل ذكر أن في الجنة زراعي ، وقد علم انها الطنافس ،
وإن الطنافس التي يعرفونها أصواف مصبوغة مغزولة منسوجة ، وإنه لم يردها بما قال ،
وإنما جعلها مثلاً . وقال : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى ﴾ (٥) .
والعبقرى ما كان نسج من عنبر . فصح انه جعل ذلك مثلاً ولم يرد عينه ، فكان جميع
ما ذكر من المطاعم والمشارب والمناكح مثلاً ، قياساً على ما ذكرنا .

(٢) المعارج : ٣٥

(١) المؤمنون : ١٠

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٥) الرحمن : ٧٦

(٤) النساء : ٣٢

فالجواب - وبالله التوفيق - أن ما يقال لهذا القائل : وما الذي يلجئ إلى هذا التأويل ؟ وينبغي أن يكون في الجنة مآكل ومشرب وملبس ومنكح . فانا لا نجد في عقولنا لامتناع هذه الأمور وجهاً : قال : ان الذي يلجئ اليه ان النفوس هي الصائرة إلى الآخرة دون الأجساد . قيل : وما الذي يمنع من اصارة الأجساد إلى الآخرة وتخليه فلا نجد على ذلك دلالة ، وإنما يفرغ في دعواه إلى أن ذلك يبعد في وهمه ، وليس كل ما بعد من الوهم لم يكن على أن ذلك قريب من وهم غيره حتى انه لمتسلط على نفسه ، فيقطع بانه هو الأمر الذي لا يحوز غيره .

وقد كتبنا في هذا الباب ما نرجو أن تقع به الكفاية ، ويقال له : ان البعث إنما يكون للجزاء بالحسنات والسيئات ؛ والنفوس لم تكتسب بانفرادها خيراً ولا شياً ، وإنما كان التكسب مشتركاً بينها وبين الأجساد ، فيجب أن يكون الجزاء مشتركاً بينهما وبين الأجساد سواء كان الكسب فعل شياً أو ترك شياً . فاذا اجتمع النفس والبدن على التبع في الدنيا باتباع الشهوات الممنوعة ، كانت الحكمة أن يؤلماً جميعاً بأشد الآلام ، وليكن ذلك الا عذاب النار .

وإذا جرت في الدنيا من مطاعم وملابس ومناكح كان يشبهها من جنس ما أحل الله غير انه لم يحدها فلم يتسخط قضاء الله تعالى لحبسها عنه وأحسن الظن به فيه أو من جنس ما حرم الله تعالى جده عليه فتركها أو صبر عنها جاهداً محتسباً ، كان أولى ما يعرض عنه في الحكمة أن يوصل من جنسها إلى ما هو أسنى وأجزل وأعظم قدراً وأجل خطراً منها لتصل اللذة إلى ما وصل الالم اليه ويتنعم بالاصابة ما تأذى بالقوت .

ثم لا ينكر أن يصير إلى ذلك من غير هذه الاجناس أسباب يتمتع ويفرح ويتلذذ بها ، ولكن ما يدخل في جملتها أشبه بمعاني الثواب .

ويبين ما قلنا ان إقامة العبادات في الدنيا لما كانت سبباً للتعبد والنصب ، وجب أن تكون الراحة عوضاً منها في الآخرة باتفاق . فلذلك تخريج المرادات وقع الشهوات في الدنيا لوجه الله تعالى يقتضي أن يكون التمكين من قضائها على وجه أفضل وأكمل عوضاً منها في الآخرة ، وبالله التوفيق .

هذا والشر لا من بعض الوجوه المعقولة في الدنيا مما لا يتصور فهم ولا هم ولا يكاد إلا

حالة عليه ، ويحرك على الطاعة ، ولا يقع موقع التبشير ، وكذلك الغم لاشي من الاسباب المعقولة في الدنيا أمر غير معقول ، فالإنذار به لا يزجر عن معصية ، ولا يقع موقع التحريف وهم أبدأ يهاكموننا إلى العقل ، فإذا هم في هذا الموضع قد فارقوه ، وقالوا بما لاشاهد لهم عليه منه وبالله العصمة .

فاما قولهم : ان كل موعود من نعم الجنة ، فمثل مضروب ، واستشهادهم بالزراي والعقري ، فجوابه : إن الزراي ليس بمثل وإنما أريد بها الزراي في مناظرها غير انها ليست من أصواف مصبوغة منسوجة ، وإنما هي مخترعة مبتدعة ، وهي وان أشبهت في مناظرها الزراي ، فهي أنعم منها والين ، واللذة التي تخلص إلى البدن من الجلوس عليها لا تكون في قدر ما يوجد منها في زراي الدنيا ، لكنها تزيد على ذلك زيادة لا يعرف قدرها إلا الله عز وجل .

وكذلك العقري إنما أريد به انه في منظر العقري الا انه ليس الفرش ، بل هو فرش غير انه يزيد في معاني اللذة والنعمة على مثله من فرش الدنيا أضعافاً مضاعفة لا يحصيها الناس ولا يقدرونها .

ولذلك لبنها لبن إلا أنه غير محلوب ، وخرها خمر غير أنها ليست بمعتصرة ، وكيف لا تكون خمرأ بالحقيقة ، والله عز وجل يقول :

﴿ يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم ﴾ فهذا جعل مثلاً لشيء آخر ليعرفوه به ، ومتى كان المجهول يعرف الا ان هذا كله والثمار وغيرها تكون مخترعة مبدعة ، وإن الذي خلق خير منها ، واسنى وأفضل في الدنيا والآخرة . فإن كان الذي سأل السؤال الذي ذكرنا يعرف بالله جل ثناؤه فليس له أن يعجب من هذه الموعودات فيطلب لها تأويلاً ويسميا أمثالها وبالله العصمة .

وقد قال من قال من الاوائل : ان جوهر الشمس الذهب ، وجوهر الزهرة الزبرجد والزجاج ، وجوهر عطارد الالماس وجوهر القمر الفضة ، ومعلوم ان الناس لا يعرفون الذهب الا ما يستخرج من المعادن ، وكذلك الفضة والحديد والنحاس .

وإن الكواكب لا تخلق من المستخرجات من المعادن من هذه الأجناس ، فإنها في

جواهرها ليست كالتي في المعادن من هذه الاشياء في الكثافة والصلابة ونحوها ، ولكن التباين بينهما شديد .

فإن جاز أن يخلق الله تعالى في السماء خلقاً من ذهب أو ورق أو نحاس غير مستخرج من معادن الارض والطف من المعدن أضعافاً مضاعفة ، فلم لا جاز أن يحدث في الجنة خيراً غير معتصره من العنب ولبنا غير مستدر من ضرع ، وزراي لا من صوف مجزوز عن ظهر الغنم ، وإن كان المعروف في الدنيا أن الحجر من العنب واللبن من الضرع ، والزراي من الاصواف التي على ظهر الغنم وبالله التوفيق .

فصل

ان سال سائل فقال : انكم تزعمون ان للجنة خزنة ورأسهم في رضوان ، وللنار خزنة ورأسهم ملك ، ويتلو في القرآن : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (١) فاخبرونا عن هؤلاء الخزنة ، ماذا يعملون ؟ وعن من يخزنون والخزن فيما بيننا أن يكون حفظاً لما يخشى عليه أن يؤخذ ويفوت على صاحبه ، فمن الذي يمكن أن يأخذ من الجنة شيئاً ، يفوته ؟ ولئن كان ما في الجنة يخزن لانه نعم مرغوب فيها ، فالذي في النار يخزن منها ، وما الذي يدعو إلى خزنه ؟

الجواب : ان خزن ملائكة الجنة نعيمها انما يكون لاهلها ، فكل واحد منهم يعمل اليه مراعاة قسط معلوم من تلك النعم لمن أعد له ، حتى إذا وافى الجنة كان هو الذي يمكنه منه بأمر الله تعالى بخزنه إياها قبل التسليم هو مقامه على ملاحظة ما جعل بسبيله وانتظار من أهل له ، واتصال ذلك اليه إذا حضر ، وعرضه عليه على الوجه الذي يكون أسر له والترتيب الذي يكون أوقع بقلبه وأنعم بعينه ، وذلك عبارة منه لله تعالى لأنه يأمره بعمل ما يعمل ، فهذا خزن نعم الجنة لاحفظهم عن أحد يخاف منه عليها .

وأما خزن ملائكة النار فيحتمل أن يعجز كل واحد منهم بعض الانكال والمقامع والاغلال والسلاسل لمعنى أن يتفرد به ، فيكون هو المستعمل والواضع والرافع إلى الذين

(١) غافر : ٤٩

يباشرون العذاب ويتولونه ، فتكون مراعاة ذلك منه أيضاً عبادة له لانه بأمر الله تعالى يفعل ولا ينتقم لا ان هناك من يخش أن يأخذ شيئاً منها ويفوت بها والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل عن قول الله عز وجل: ﴿كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ (١) فقال : إذا لم تكن الدار لا الجنة والنار ، وكانت الجنة عالية والنار سافله ، وليس في السفلى شيء الا النار ، قال أين يريد أهل النار أن يخرجوا ؟

قيل له : يحتمل أن يكون المعنى المعذبين منهم في جب من جهنم أو موضع أغم من غيره ان قصدوا أن يخرجوا إلى صحصحاح يكون الغم والألم فيه أقل ، لم يتركوا أو أعيدوا ان كانوا قد رجعوا قليلا اليه ، وقد قال عز وجل في آية : كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ، أعيدوا فيها ، فيقرب أن يكون هذا معنى الآية والله أعلم .

فصل

ان سأل سائل : عن المعذبين من أهل الكبائر ، إذا خرجوا إلى الجنة كيف يصار بهم إلى الجنة ؟ والاولون انما أخبروا إليها على الصراط ، أفيكون الصراط باقياً ما بقي في النار من المؤمنين أحداً ! أو يعاد الآخرون أو يجعل لهم سبب سواه ، فيخلصوا إلى الجنة ؟

قيل له : لم يبلغنا من أمر الصراط ، وان المؤمنين إذا جازوا عليه يرفع أو يترك إلى أن يحوز عليه آخر من يبغي منهم ، خبر ، وقد يحتمل أن يكون باقياً ما دام من المؤمنين أحد يعرض الجواز عليه ، وان أزيل عن مكانه ، فقد يحتمل أن يرفع من يعفو الله عنه إلى السور الذي فيه الاعراف ، وذلك بان يصعد به ملك إليه ، أو يجعل الله تعالى له سبباً ما شاء بمن يمجزه الاجتياز فيرتقي من قبله إلى السور ثم ينزل منه كما ينزل أصحاب الاعراف وإذا أمر بهم إلى الجنة فيصيروا إليها والله أعلم .

فصل

ان مآل مائل عن قول الله عز وجل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ^(١) . وقال : ما تفسير هذه الآية وتأويلها ؟

قيل له : انما قال عز وجل : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ التي هي احدى دركات النار فإنه قال تعالى : ﴿ سأصليه سقر وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر ، لواءة للبشر ، عليها تسعة عشر ﴾ ^(٢) فلا يمكن أن يقطع بأن ملائكة العذاب كلهم تسعة عشر إذا الدركات سبع وقد يمكن أن يكون كل واحد من هذا مثل هذه العدة أو أكثر .

فأما قوله : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ ^(١) فانه يقال أن أبا جهل لما سمع عليها تسعة عشر هوى وقال لقريش انا اكيفكم عشرة واكفوني تسعة فأنزل الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي التسعة عشر ليسوا بني آدم فيقاوم أمثالهم أو يقاوم الواحد عشرة منهم ، وانما هم ملائكة غلاظ شداد ينقلون المدائن ، وينزلون من السماء إلى الأرض ، ثم يرجعون إليها من نومهم ، وقال : من قال لا يقاس الملائكة بالحدادين أي بالنحاسين من بني آدم انكار المبالغة عن أبي جهل .

وأما قوله عز وجل ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن ﴾ ^(٢) أي وما جعلنا أخبارك بعد أصحاب سقر إلا فتنة للذين كفروا ، وقوله : ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ^(٣) .

فيكون أخباراً إياك بعدم فتنة للكافرين والمنافقين ، واستيقان المؤمن وأهل الكتاب ، هو ان علم عدد هؤلاء الملائكة ليس من العلم العام ، ولا هو مما يوجد مثله عند العرب .

(٢) المدثر : ٢٦ - ٢٩

(١) المدثر : ٣١

(٣) المدثر : ٣١

فإذا أخبرت به أهل الكتاب ووجدوه موافقاً لما عندهم ، ازداد المؤمنون بك إيماناً لمعرفتهم بأن أحداً لم يخبرك به إلا الله جل ثناؤه واستيقن أهل الكتاب أن ذلك ينزل من الله تعالى عليك كما هو تنزيل من يقدمك ، ولا يرتاب المؤمنون وأهل الكتاب بذلك ، ولو لم يكن في كتبهم من هذا خبر ، لانهم إذا راجعوا عقولهم ، علموا أن الله تعالى قادر على أن يقوي تسعة عشر ملكاً ومن دونهم على تعذيب عالم من الناس ، وأنه لم يقصرهم على هذه العدة إلا للحكمة كانت له فيها ، ولكنه استأثر بها ولم يطلع عليها خلفه فلم يوقع فله العدد الذي أخبرناك به رتبة في قلوبهم .

ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً^(١) أي ليقولوا : هذا مثل وليس بحقيقة ، فما أراد الله بهذا ، وليستعدوا أن يكون الذين يوردون سقر على كثرتهم ، بلى يعذبهم تسعة عشر ملكاً ، فأخبرك بهذه العدة يجري مجرى سائر ما أنزلناه عليك اختباراً لقومك ، ليظهر المؤمن المستيقن من المراتب والمشكك وتثبيتاً للذين آمنوا وتقوية لعزائمهم والله أعلم .

فصل

ان قال قائل : أليس الله بكل شيء عليم ؟ قلنا : بلى ! قال : أفيعلم مبلغ حركات أهل الجنة وأهل النار ؟ قيل : انها لا مبلغ لها ، وإنما يعرف مبلغ ما يكون له مبلغ . فأما ما لا مبلغ له فيستحيل أن يوصف بأنه يعلم لها مبلغاً .

يقال لهذا القائل هل يعلم الله مقدارها كلها ؟ فإن قال : لا كل لها . فيقال : انه يعلم . قيل له : وكذلك لا كل لحركات أهل الجنة وأهل النار . قيل : انها لا مبلغ لها وإنما يعرف مبلغ ما يكون له مبلغ . فأما ما لا مبلغ له فيستحيل أن يوصف بأنه يعلم لها مبلغاً .

يقال لهذا القائل . هل يعلم الله تعالى مقدوراته كلها . فإن قال : لا كل لها . فيقال : انه يعلمه . قيل له : وكذلك لا كل لحركات أهل الجنة وأهل النار معلمه وبالله التوفيق .

فصل

ان قال قائل : ما أنكرتم أن أهل النار لا يبقون في النار معذبين أبداً ، لأن الله عز وجل عدل في حكمه ، وليس من العدل تعذيب قوم أذنبوا ذنوباً متناهية بعذاب غير متناه . وإذا لم يحز ذلك ، فليس إلا أن يبقوا فيها قدر ما يكون جزاء لهم بأعمالهم ، ثم يكونون فيها غير معذبين ولا متألين . وكذلك أهل الجنة يثابون بأعمالهم ، ثم يؤول أمر الفريقين في السكون الدائم .

فالجواب : ان مقدار الذنب لا يعرف بالمدة لأنه لو كان كذلك لوجب أن تكون الذنوب كلها أكبر من الكفر ، لأنه يقع بالخطرة تسكن النفس إليها ، واللاحظة واللفظة ، ولا ذنب أقل اقتضاء للمدة منه .

وفي ثبوت أن لا ذنب أعظم من الكفر ، ما أبان أن الذنوب لا تقدر بالمدة ، وأيضاً قلوا كانت أقدار الذنوب تعرف بالمدة لم يحز أن يكون لذنوب ساعة إلا عقوبة ساعة ، ولما جاز أن يعاقب الكافر على كفره يوماً ، أكثر من يوم . ولما جاز أن يزيد مقام الكافر الذي لم يكن في يوم الكفر يوماً ، ثم هلك في النار على قدر يوم من أيام الدنيا . فعلمنا أن الذنوب لا تقدر بالمدة ، وإنما تقدر بواقعها من سخط الله تعالى جده .

ألا ترى أن الزنا بجميلة الجار أعظم من الزنا بالأجنبية ، والقتل في الشهر الحرام أغلظ منه في غيره ، وضرب الوالد وشتمه أعظم من ضرب الأجنبي وشتمه ، وزنا المحصن أغلظ من زنا غير المحصن . ومدة الأغلظ وغير الأغلظ في هذه الذنوب متفقة .

وإذا جاز أن يكون هذا هكذا في أحكام الدنيا جاز في أحكام الآخرة مثله . وهو أن لا ينظر إلى مدة الذنب ، وإنما ينظر إلى موقعه من هتك الحرمة ، وإذا نظر إلى ذلك لم يقدر قدر الكفر ، لأن حرمة الله تعالى هي التي تهتك به ، وليس لجلال الله وعظمته مدد تحاط به ، ولا لحقوقه على العبد في الوجود قدر يشار إليه ، ولا النعمة التي بذاتها عبادة في معاني الإحسان قدر يعبر عنه ، فكذلك حرمة لا قدر لها في معنى الإشارة يعرف ولا حد لها يوصف . فجزاؤه إذا عذاب لا يقدر قدره ولا يمكن حده .

فمن هذا الوجه يستحق الكفار التخليد في النار ، وإن كانت ذنوبهم في الزمان

متناهية . وأما ما عدا الكفار فإن ما فيه من هناك الحرمة أقل لأن فاعله يعتده ديناً ، ويمتقد أن له تبعه ، فيأتيه متردداً بين الخوف والرجاء ، فكان في حال الدنيا مراعيّاً لبعض الحق ، فأوجب ذلك أن يكون جزائه قدر وجد ، كما كان لدينه قدر وجد ، من حيث كان في الجملة دون الكفر بدرجات كثيرة ، فلذلك قلنا ان التخليد لا يقع لها وبالله التوفيق

ويدل على أن نعيم أهل الجنة وشدائد أهل النار غير منقضية ، ان نعيم أهل الجنة لو كان منقضاً لكان أهل الجنة أشد خوفاً وحزناً لأنهم كانوا يخافون إنقضاء نعيمهم فيحزنون له . وقد أخبر الله عز وجل أنهم ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) ولو كان عذاب أهل النار منقضاً لكان في رجاء الإنقضاء والخلاص واحد لهم في الحال ، وليس في النار أمن ولا سرور ، كما ليس في الجنة خوف ولا حزن . فثبت أن واحداً من الجزائين ليس بمنقضى والله أعلم .

ومن العلماء من قال : أن الله عز وجل إنما يدخل النار من يدخلها لأنه خلقهم لها ، ويدخل الجنة من يدخلها لأنه خلقهم لها . والطاعة والمعصية علامتان يميز بهما المخلوق للجنة من المخلوق للنار ، لأن النبي ﷺ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » (٢) وقال : « ما أحد يدخل الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » (٣) .

وقال الله عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ﴾ (٤) ومن ذهب إلى أن هذا لم يلزمه السؤال الذي قدمت ذكره ، لأنه يقول : بأنه خلق الكافر للنار ، ولا يغني عنه تنامي دينه في الزمان شيئاً والله أعلم .

فصل

وكل معذب في الآخرة من كافر أو مؤمن ، فإنه يميز بينه وبين من لا عذاب عليه عند

(١) يونس : ٦٢

(٢) ورد في صحيح البخاري « القدر » باب ٢٠ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٤٢٧

(٣) ورد في صحيح البخاري « رقاق » باب ١٨ ، وفي صحيح مسلم « منافقين » رقم ٧١ - ٧٣ - ٧٥

(٤) الأعراف : ١٧٩

نزول الملائكة عليه لقبض روحه ، وفي حال القبض ، وفي الموضع الذي تصار إليه روحه
وبعدما تغير . قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الملائكة أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تَدْعُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي
الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَلَ مِنْ
غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١) فقيل : ان هذا عند حضرة الموت تبشرهم الملائكة بالجنة وتؤمنهم ما
كانوا يخافون ، ويعلمونهم انهم كانوا كونهم في الدنيا ويوالونهم في الآخرة .

وقال في الكفار : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأُذُنَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢) ويقولون لهم هذا تعريفاً إياهم انهم يقدمون على
عذاب الحريق .

وقال ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ،
أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٣) .

فدللت هذه الآيات على أن الكفار يعرف عليهم في نزع أرواحهم ، واخراج أنفسهم ،
ويعرفون مع ذلك انهم قادمون على الهوان والعذاب الشديد ، كما يرفق بالمؤمنين ،
ويبشرون بما هم قادمون عليه من الأمن والنعيم المقيم .

وقال الله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُونَ ،
كِتَابٌ مَرْقُومٌ ، يُشْهَدُ الْمُقْرَبُونَ ﴾ (٤) وقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْكُفَّارِ لَفِي سَجِينٍ ، وَمَا
أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴾ (٥) فابان جل ثناؤه : إن الكتاب الذي يشتمل على أن أعمال
الأبرار يعلى به فيكون بمشهد المقربين ، وذلك - والله أعلم - إشارة إلى أن روحه
تعمل به إذا نزع من بدنه ليعرف المقربون انه روح صاحب الكتاب ، فيكون له بذلك
شرف وفضل .

وان كتاب الفجار يهوي به إلى أشد المحابس والسجون ، وذلك عند جهنم المكتوبة
تحت البحار المواراة بها ، إلا أن يأذن الله في إبرازها ، وذلك - والله أعلم - إشارة إلى

(٣) الأنعام : ٩٣

(٢) الأنفال : ٥٠

(٥) المطففين : ٧

(١) فصلت : ٣٠ - ٣٢

(٤) المطففين : ١٨

روحه تهوي به فيكون حيث يكون كتابه وصحيفة عمله ، ويشاهد من آثار ما هو قادم عليه ما يتمجل الغم والله أعلم .

وأما ما ينال المقبور فإن أوله ضغط القبر ، يروى عن النبي ﷺ انه قال : « لو نجح أحد من ضغطه القبر لنجا سعد بن معاذ » (١) .

وجاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : لو سمع أحدكم ضغطة القبر لجزع أو قال يجزع ، وقيل في قول الله جل ثناؤه : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ (٢) المراد عذاب القبر . وفي قول الله عز وجل : ﴿ والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٣) دليل على أن لهم عذاباً وأصلاً إليهم يوم الموت .

وفي قصة بدر أن النبي ﷺ وقف على القلب الذي قد طرحت فيه جيف القتلى من المشركين ، فناداهم « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، حتى عدتهم . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فقليل له يا رسول الله : أتتادي أقواماً موتى . والذي بعثني بالحق ، أو قال : والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » (٤) .

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال « انهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول » (٥) .

وفي حديث آخر أنه مر بقبر فقال : « لا دريت ، فسئل عن ذلك فقال . انه سئل عني ، فقال : لا أدري ، فقلت : لا ، دريت » .

وعنه ﷺ أنه قال في حديث ذكره : « ولقد أوحى إلي انكم تفتنون في قبوركم ، يولى أحدكم في قبره ، فيقال : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم . فأما المؤمن فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى . فأجبناه واتبعناه ، فيقال له : علمنا أنك

(١) لم يرد الا في مسند امام احمد بن حنبل ج ٦ ، ص ٥٥ ، ص ٩٨ .

(٢) السجدة : ١٢ (٣) الانعام : ٩٣

(٤) لم يرد الا في سنن النسائي « الجنائز » باب ١١٧

(٥) ورد في سنن ابن ماجه « كتاب الطهارة » باب ٢٦ ، رقم ٣٤٧

تقول فيهم صالحاً ، فأما المنافق المرتاب فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا ، دريت ، ويغلظ له في قبره ، (١) .

فقد أثبتت هذه الأخبار وغيرها أن الموتى يسألون عن دينهم إذا قبروا ، وفي بعضها أن ملكين يدعيان منكراً ونكيراً ، يأتیان الميت فيسألانه والذي يشبه أن تكون ملائكة السؤال جماعة كثيرة يسمى بعضهم منكراً وبعضهم نكيراً ، فيبعثون إلى كل ملك منها إثنان كما كان الموكل عليه للكتب أعماله في حياته ملكان .

فإذا انقضى السؤال ، فمن أصاب الجواب أفلح ، ولم يكن عليه بأس إلى يوم القيامة ، ومن أخطأ وزل ، ضرباه بعمود يصير بدنه منها ناراً ثم تحمد بأذن الله ، بهذا جاءت الرواية .

ومن كان من هذه الطبقة ، فامرهم يختلف ، لأن الله عز وجل قال في قوم نوح مما ﴿خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾ (٢) وظاهر ذلك أنهم عوجلوا بالعذاب ، وقال في فرعون : ﴿النار يمرضون عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (٣) . هذا دون ما دل ظاهر الكتاب عليه من حال قوم نوح صلوات الله عليه ، لأن ذلك إنما يدل على ادخال النار .

وهذا على العرض على النار ، وقد روينا عن النبي ﷺ انه قال في المذبذبين ما قال ، وفي ذلك دلالة على ان أجاب الملكين يجواب المسلمين ، فانه إذا كان مختلطاً لم يسلم في القبر من عذاب كان في الآخرة معذبا ، وليس يكون في المسلمين مذنب يداني قوم فرعون ، فإذا كانوا لا يرادون على المرض على النار وجوباً أن يكون عذاب المسلم المختلط دون ذلك أيضاً بدرجات كثيرة والله أعلم .

ولم يعلم من أهل السنة خلافاً . ان عذاب القبر حق ، وإننا تكلم الناس في كيفية التعذيب وفيما يصل إليه العذاب من الشخص المعذب ، وإلا ظهر ان السؤال والتعذيب لا تكون إلا مع الأحياء .

وقيل في الاحتجاج لهذا ان الله تعالى اخبر عن الكفار ، وانهم يقولون يوم القيامة

(١) ورد في صحيح البخاري « كتاب علم » باب ٢٤ . وفي صحيح مسلم « كسوف » باب ٨ ، ١٠ .

(٢) نوح : ٢٥ (٣) غافر : ٤٦

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ﴾ (١)
 وانهم أرادوا بإحدى الاماتين . الموت المعروف ، وبالاماتة الثانية الموت بعد الاحياء في
 القبر للسؤال والتعذيب . وإحدى الاحياء ، الاحياء في القبر للسؤال والتعذيب ، وبالاحياء
 الثاني الاحياء يوم القيامة .

فان قيل : فان من تعذب غدواً وعشياً يحىء كل غدو وعشي ، وهذا يزيد على الرب
 فضلاً عن اثنتين .

قيل له : قد قال بعض العلماء في ذلك ان الاحياء في القبر إنما يكون لأدنى جزاء
 يحتمل الحياة والعقل ، فان كان ذلك كما قاله هؤلاء فلا حرر من أولى ، فهذا الحكم من القلب
 الذي كان من قبل أن يموت ينبوع حياته ، ومحل عقله وفهمه .

وقال النبي ﷺ : (إن في الجسد لمضة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت
 فسد الجسد كله ألا وهي القلب) (٢) فيسل ويعذب بما يشاء الله ويعذب ان كان أهلاً للتعذيب ،
 ويكرم إن كان أهلاً للتكريم ، ثم لا يمات ما دام الله يريد تعذيبه ، وإنها يمات إذا رفع
 العذاب عنه إلى يوم القيامة ، فلا يكون الموت على هذا أكثر من اثنين والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : قد يحوز أن يكون قوم نوح اغرقوا ببعض البحار ، والبحر نار
 يوم القيامة ، فلعل ما غرقوا فيه جفت عليهم ناراً ، فصلتهم قبل النيران لا قبل المياه
 والله أعلم .

ولا أعلم لهذا القائل في تخصيصه بعض أجزاء الميت بالاحياء غرضاً صحيحاً ، فإن كان
 إنما فرضى أن جميع الميت إذا أحيى ، فلا يتخلو من أن يترك حياً ، ما دام الله يريد تعذيبه .
 أو يجزي كلما عذب وأميت ، فان نزل حياً فلا فرق ، وإذا بين المقبور بين المنشور ، وإنها
 هو كالذين طي ظهر الأرض ، إلا انه لا يطعم ولا يشرب . وإن أحيى ثم أميت ثم أحيى
 ثم أميت ، لم يكن هذا اماتتين ولا إحياءين . ولكنه يبلغ عدداً أكثر لا يحصى إلا الله
 جل ثناؤه .

فهذا كله في البعض موجود ، ولأنه إذا أحيى منه أقل خبر يحتمل الحياة والعقل ، لم

(١) غافر : ١١

(٢) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٣٩ ، وفي سنن ابن ماجه « الفتن » باب ١٤ .

يكن هذا للجواب ، لأنه ليس كل من يفهم ما يقال له يقدر على الجواب ، ولكنه يحتاج مع هذا إلى أن يطلق له آلة الكلام كما أطلقت له آلة الفهم ثم ان كان أحسب آلة للفهم وآلة الكلام ، لان السؤال والجواب من دونها مستحب ، فليحسب كله ، لانه إذا جاد في الجواب عن الحق ضرب بعمود يلتهب منه ، وفي هذا ما دل على ان الاحياء ينبغي أن يعم جميعه أو يخص بالعباد قلبه ولسانه وذلك أمر غير معقول والله أعلم .

وهذه الطريقة التي شرحناها هي لمن لا يثبت إلا الروح والبدن . فأما من قال : ان الانسان له أجزاء نفس وروح وبدن ، وإنه يقول : إن نفس الحي هي الموصوفة بالعلم والجهل والغم والسرور واللذة والالم ، وإذا فارقت البدن مات البدن لانه يصير بفرض الفساد والبلى بعدما كان بفرض التيسر والنمو . فأما النفس وعدما فانها تبقى حية تعلم وتفهم وتتلاذ وتتألم مما يعمها ويسيرها ، وهي في هذه الحالة أشبه باللائكة منها إذا كانت مجاورة البدن الطاعم الشارب الناكح .

فمعنى السؤال في القبر أن يحبس هذه النفس بعد خروجها من البدن ، وتورد معه القبر حق يحضر المكان فيسألها وهي على صورة بجمال قلبه . فقال : ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (١) فان ظهر لها منها الفجور ، علما بان البدن إنما كان يتصرف فيما تأمره به النفس الفاجرة ، فأى شيء فعلاه بما يجري مجرى الإهانة ، فانه وإن وقع بالبدن .

فان النفس التي هي تتعذب بما يخلص اليها من الكرب والخوف ، ويقع لها من العلم بأنها إذا أعيدت فيه يوم الجزاء تعذب معه بما يصل إليه من الشدائد كما تنعمت معه في الدنيا بما وصل اليه من الملاذ ، وإن ظهر لها منه البر انصرف عنه .

الا انه إن كانت للميت ذنوب يريد الله تعذيبه عليها في الآخرة ، فان النفس تعذب وهي محبوسة في القبر ، بلى البدن أو لم يبلى ، ويمرض على النار أو تجر بما هي لافيه ، فتكون مكروبة مضومة بذلك ما شاء الله تعالى جده .

وقد يمكن أن تخرج النفس من القبر إذا انقضى السؤال وتورد مورد أمثالها ، فتكون في تنعم به من البشارات والاطاعات وتنعم به من التخويفات والتوبيخات هناك الا ان

ذلك كله يسمى عذاب القبر ، بمعنى انه العذاب الذي يكون ما دام الميت في القبر لم ينشر منه ولم يجمع بينه وبين ما غاب عنه والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : ان العذاب لا يسبق الحساب ، ولو كان الله عز وجل معذبا قبل الحساب لم يمت العبد ، ولينقله عند انتهاء مدته إلى مكان الجزاء الذي أعده له ، ويفعل ذلك بالواحد بعد الواحد من غير امهال وتأخير . فلما أخبر عز وجل انه : ﴿ جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (١) ومحبيهم وباعثهم ومحاسبهم وجازيهم بما تنطق به كتبهم وصحف أعمالهم ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر وذلك بعد أن توزن . وتميز بين (من) ثقلت موازينه وبين من خفت موازينه ، علمنا ان الذي سبق هذه الامور بعد الموت هو السؤال ثم التبشير والإنذار والتخويف والإيمان والاطماع في الجنة ، أو العرض على النار .

وهذه كلها مما يكفي النفس لها ، وليست تحتاج إلى البدن فيها ، وإنما تحتاج اليه إذا جاء الوقت الذي يوفى فيه الموعود من تغريق في الهوان ، أو تقليب في نعم الجنان ، ويدل على ذلك ان الاخبار وإن جاءت بعذاب القبر فليس في شيء منها ان من لا عذاب عليه يطعم أو يسقى أو يلبس في قبره ، فعلمنا ان ما يتأجل في ذلك للمحسن ، فان خلافه أيضاً يتأجل للمسيء ، وإن التعجيل للفريقين ما ذكر والله أعلم .

ومن قال هذا ، قال : معنى أمتنا بائنتين وأحييتنا اثنتين ، امتنا بارسالنا من اصلا بآبائنا نطفة ميتة ، ثم أحييتنا في ارحام أمهاتنا ، هم أمتنا في الدنيا ثم أحييتنا يوم القيامة ويحتمل أن يقال ان الميت كلما يحيى للسؤال لانه إنما يقع في البدن الذي يعم النفس والبدن .

فإذا انقضى السؤال فالجواب أميت ولعل معنى ذلك - والله أعلم - إن الميت قد حول من ظهر الارض إلى بطنها الذي هو الطريق إلى الهاوية ، فيوقف في قبره ويحيى ثم يسأل ، فإن وجده الملكان من الابرار عرجت الملائكة بنفسه وروحه إلى عليين وكان ذلك نظير أن يوقف في المحشر على شفيع جهنم ، ويستعرض عمله ، فإذا وجد في الابرار أجيز على الصراط ، وإن وجده الملكان من الفجار هوت الملائكة بنفسه وروحه إلى

سجين ، وكان ذلك نظير أن يوقف في المحشر على شفير جهنم ، فإذا نظر في عمله فوجد من الفجار التي في النار .

فأما ما وراء ذلك من عذاب ، فإن أحداً من المسلمين لا تداني ذنوبه ذنوب آل فرعون ، فإذا كانت الله عز وجل لم يعاملهم قبل الآخرة بأكثر من العرض على النار دون احساسها أبدانهم ، رجونا من فضله ورفته ان لا يس مسلماً ناراً قبل أن يورده الآخرة ، وكل ما دون ذلك من إرغاب وتخويف وتمريض للحسرات والندامات ، أو خلاف ذلك من أطماع وتبشير واعلام بالحباب والمسرات ، فإن النفس لا تحتاج في الإجابة إلى البدن فيكون ما يكون لها وعليها والله أعلم .

وفي هذا الرأي جمع بين القولين اللذين سبق أيضاً ضمهما ، فيكاد من هذا الوجه أن يكون وسطاً والله أعلم . وإنما نذكر هذه الوجوه اراحة لما عسى يعترض به الملحدون وينسبون إليه اخبار الديانات ومحبيها بالامتناع اليه في العقول ، لكن له مكان الوجه الواحد أوجهاً ، وإلا فالأولى بالمسلم الايمان بما يثبت عنده عن النبي ﷺ ، والتسليم له دون أن يتوقف في ذلك إلى أن يبين له وجهه .

فان الصحابة قبلوا عن النبي ﷺ ما أخبرهم به وأنذرهم إياه من عذاب القبر وغيره ، ولم يراجع فيه منهم أحد ، ولا سأله عن وجهه وكيفيته ، فكذلك ينبغي لمن بعدهم أن يفعل فيكون التابعين لهم بإحسان وبالله التوفيق .

فصل

ان سأل سائل عن معنى ما روى عن النبي ﷺ انه قال : (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) (١) .

قيل له : هذا حديث رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابنه عبد الله يزعم ولما بلغ عائشة رضي الله عنها قولهما ، قالت انكم لتحدثون من غير كاذبين ، ولكن السمع قد يخطيء ، ان الله أضحك وأبكى ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

(١) ورد في صحيح البخاري «الجنائز» باب ٣٣ ، وفي صحيح مسلم «الجنائز» رقم ٢٣٠٢٢٠١٧٠١٦

وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه وفي رواية أخرى قالت عائشة : إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية فقال : (انكم لتبكون عليها ، وإنها لتعذب في قبرها) (١) ولكن للحديث وجوهاً إذا حمل عليها خرج خروجاً حسناً .

ولم تقع ضرورة إلى تغليظ عمر وابن عمر مع فضلها وكبر محلها ، أحدهما : ان أهل الجاهلية كانوا يوصون بأن يناح عليهم إذا ماتوا وتذكر أحوالهم ومقاماتهم ، فكان إذا مات أحدهم بكى عليه أولياؤه ، وأقاموا عليه النوح ، يذكرون أعماله وعاداته ، وحروبه وركوبه المحارم من النساء ، وغيرهن ، فقل إنما قال النبي ﷺ : (الميت يعذب ببكاء أهله عليه) (٢) إذ بكأؤهم عليه بوصيته وعلى الوجه الذي بينته .

وقيل قد يجوز أن يكون الميت قد استحق عذاباً بذنوبه غير ان الله تعالى قضى ان أهله إن بكوا عليه عذبه بذنوبه ، وإن تركوا البكاء عليه ترك تعذيبه ثواباً بصبرهم ، ويبلغ النبي ﷺ : (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) كي إذا سمع أهل الميت هذا عرفوه تركوا البكاء عليه وارتدعوا كما يكون سبقاً لإيصال العذاب اليه .

ويقال يعذب ببكاء أهله عليه ، وإن بكأؤهم عليه إن لم يكن مؤمناً لتعذيبه ، فقد كان سبباً لتعذيبه بذنوبه ، فيجوز في الكلام أن يقال عذب ببكاء أهله وهذا التأويل يليق بالمسلمين خاصة ، لان الله تعالى يترك تعذيب الكافر بصبر أهله عليه عن البكاء عليه ، ولا يعرض أهل الكفار أيضاً من صبرهم ان لا يعذب ميتهم .

وقيل : المعنى ان المحتضر إذا رأى أهله يبكون عليه البكاء المفرط ، فأعجبه ذلك منهم فسكت وأراد أن يكون منهم ذلك بعد وفاته عذب بعد الموت ببكاء أهله لأنه كان عليه منهم ، فلم ينههم عنه ليشبوا عليه رضاء منهم بصنيعهم ، وقد كان قيمهم وصاحب أمرهم فكان عليه زجرهم عما لا يجوز ، فلما لم يفعل ، قام ذلك مقام الأمر به ، فلذلك عذب .

(١) ورد في صحيح البخاري « الجنائز » باب ٣٢ ، وفي سنن ابن ماجه « الجنائز » باب ٥٤

(٢) ورد في صحيح البخاري « الجنائز » ٣٣ ، وفي صحيح مسلم « الجنائز » رقم ١٦ ، ١٧ ،

وقيل : سواء كان المعنى هذا ، والوصية بالندبة والنياحة ، فليس في هذا الحديث إلا انه يعذب ببكاء أهله عليه ، وليس فيه متى يعذب فقد يجوز أن يكون المعنى يوم القيامة ، وليس يجب البحث عن معنى هذا الحديث للوقت . فإن التعذيب في القبر ليس بمستكر .

وقد جاء في اليهودية انهم ليبكون عليها ، وإنها لتعذب في قبرها ، وإنما يجب الوقوف على معنى تعذيب الميت ببكاء الحي عليه . وقد ذكرنا من ذلك منا ما فيه الكفاية وبالله التوفيق .

* * *

العاشر من شعب الايمان

وهو باب في محبة الله جل ثناؤه

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ، يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ (١) . فدل ذلك على أن حب الله تعالى . ويدعو إليه .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فالرجل يحب المرء لا يحبه إلا الله . والرجل إن قذف في النار كان أحب إليه من أن يرجع يهودياً أو نصرانياً » (٢) فبان بهذا الحديث أيضاً أن حب الله تعالى جده من الايمان . وقال الله جل ثناؤه : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٣) فأبان عز وجل أن اتباع نبيه ﷺ من موجبات محبة الله .

فإذا (كان) اتباع النبي ﷺ إيماناً فقد وجب أن يكون حب الله الموجب له إيماناً من العبد ، كما أن اتباع النبي ﷺ لما كان من موجبات الاقرار بالله تعالى . فكان بنفسه إيماناً ، كان الاقرار الموجب له إيماناً من العبد والله أعلم .

فصل

فان قال قائل : ما معنى محبة الله تعالى جده ؟ .
قيل له : ان محبة الله تبارك وتعالى ليست إسماعاً لمعنى واحد ولكنه إسم لمعان كثيرة .
أحدها : إعتقاد أنه — عز اسمه — محمود من كل وجه ، لا شيء من صفاته إلا وهو مدح له .

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٢ - ٤ ، وفي سنن ابن ماجه « الفتن » باب ٢٣ ، ٤٠٣٣

(٣) آل عمران : ٣١ .

والثاني : إعتقاد أنه محسن إلى عباده بنهم متفضل عليهم .
والثالث : أن الاحسان الواقع منه أكبر وأجل من أن يقضي قول العبد وعمله ، وإن حسنا وكثرا شكره .

والرابع : أن لا يستقل العبد قضاياه ولا يستكبر تكاليفه .
والخامس : أن يكون في عامة الأوقات مشفقاً وجلًا من اعراضه عنه ، وسلبه معرفته التي أكرمها بها ، وتوحيده الذي حلاه وزينه به .
والسادس : أن تكون آماله معقودة به ، ألا ترى في حال من الأحوال انه غني عنه .
والسابع : أن تجمله يمكن هذه المعاني في قلبه ، في أن يديم ذكره بأحسن ما يقدر عليه .

والثامن : أن يحرص على أداء الفرائض والتقرب إليه من نوافل الخير بها يطيقه .
والتاسع : أنه ان سمع من غيره بني عليه ، وعرف منه تقرباً إليه ، وجهاداً في سبيله سراً وعلانية ماله وولاه .

والعاشر : انه سمع من أحد ذكر آله بها يحل عنه ، أو عرف عنه عناء عن سبيله شرأ وعلانية فأنبه وناوأه ، فإذا استجرت هذه المعاني في قلب أحد فاستجباها من المشار إليه باسم محبة الله تعالى جده وهي إن لم تذكر مجتمعة في موضع ، فقد جاءت مفرقة عن النبي ﷺ فمن دونه .

فما جاء عنه ﷺ مما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنه فإنه قال : « أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة » (١) وهذا يحتمل أن يكون عاملاً بالأنعمة كلها ، وأن يكون إسم الغذاء في الطعام والشراب حقيقة ، ولما عداها من التوفيق والهداية ونصب أعلام المعرفة ، وخلق الحواس والعقل مجازاً ، ويكون جميع ذلك بالاسم مراداً .

فقد جاء في بعض الأخبار - وقد روينا - ثلاث من كن فيه ، وجد حلاوة الايمان (٢) وفي بعضها « طعم الايمان جازت تسميته غذاء » فيدخل الايمان وجميع نعم الله في هذا الحديث والله أعلم .

(١) لم يرد الا في سنن الترمذی « كتاب المناقب » باب ٣١

(٢) ورد في صحيح البخاري « الايمان » باب ٢ - ٤

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « علامة حب الله تعالى جده ، لم يعد المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه ، ولم يستقل وظائف عبادته وتكاليفه المكتوبة عليه ، كما أن من أحب أحداً من جنسه لم يلد يبصر منه إلا ما يستحسنه ويزيده إعجاباً به ولا يصدق به من خبر المخبرين عنه إلا ما يحده سبباً للولوغ به والغلو في محبته » (١) .

وجاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : من ذاق حب الله تعالى شغله ذلك عن حب الدنيا ، وهذا لأنه إذا تشاغل بالدنيا عن عمارة السبل التي تؤذي إلى الله تعالى جده لم يأمن أن يقطع الله عنه الطاقة ويكمله إلى نفسه . وقد حكى الله جل جلاله عن أهل الجنة أنهم يقولون ﴿ إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ (٢) . فقليل في تفسير : كانوا مشفقين أن يسلبوا الاسلام ، وهذا أحد ما تقدم ذكره .

وجاء عن بعض المتقدمين أنه قال : لا يكون العبد محباً لربه حتى يذل نفسه في مرضات الله ظاهراً وباطناً وعن بعضهم أنه قال علامة من أحب الله أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض الله ، وعلامة من أحب ما أحب الله أن يبغض الدنيا ومتاعها ويقال أن في كتاب داود ﷺ : من أحب الله لجأ إلى طاعته ، ومن أبغض الله لجأ إلى معصيته .

وعن سعيد المقبري رضي الله عنه أنه قال : مفتاح حب الله تعالى معرفة منه الله . وقال بعض السلف : أول أحوال المحبة الموافقة والاقبال على من هو مقبل عليه ، والاعراض عنه هو معرض عنه ، وخوف السقوط من عينيه ، قال ومن علامة حب النبي ﷺ حب القرآن فحب القرآن حب ما حمده وبعض ما ذمناه .

قال بعضهم : علامة المحبة إستجلاء الطاعة ولزوم الخدمة وإدامة الفكرة . وقال بعضهم : الحب اللزوم ، فإن من أحب شيئاً لزم ذكره قلبه فمحبة الله تعالى لزوم ذكره ، وهذا الذي فسر به هذا القول : المحبة من أنه اللزوم وموافق لقول أهل اللسان لأنهم يقولون : أحب وإذا ترك فلزم مكانه .

وقيل في قوله عز وجل حكاية عن سليمان ﷺ : « إني أحببت ، أي كسلت فأقمت مكاني من حب الخيل حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولم أقم الصلاة . وقد قال عز وجل

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(١) الطور : ٢٦

لرسوله ﷺ : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (١) أي أنكم تحبون الله فإني قائم بالدعاء إلى الله جل ثناؤه ، وأداء حقوقه والجهاد في سبيله وإعلاء كلمته وحشر الناس إلى دينه ، فلا أحد أشد موافقة لكم مني ، فأحبوني تحبوا الله ، واتبعوني فإن محبتكم لله تعالى تقتضي إتباعي لا مخالفتي والازورار عني ، فإن أبيتم فاعلموا أنكم غير محبي الله ، وإن إسم العداوة والبغض أولى بكم والزم بكم من إسم المحبة والله أعلم .

وقال الله عز وجل : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

فاعلمهم جل ثناؤه أنهم إذا قعدوا عن الجهاد إشفافاً من أن يصابوا فيتضرر بذلك قرباتهم أو حسرة على المساكن التي يرضونها ، واسفاً على ما يفوتهم من التمتع بسكنائها ، أو شحاً بالأموال التي اكتسبوها ، وخوفاً من نقصانها ، لم يكونوا محبين لله عز وجل بل كان ما يتركون لأجله الجهاد في سبيله ، ويحملوا بسببه كفر الكفار ، وغيم وانتهاكهم محارم الله ، هو الأحب إليهم والآخر لديهم . فإن واحداً من أمثالهم لو سبهم وأذاهم وأسمعهم في أنفسهم أو في بعض أسلافهم ، وحسب لاحد منهم امرأة أو جارية لقاتلوه ولم ينتفعوا على أموالهم ولا مساكنهم ولا على ما يكسب من تجارتهم .

وإذا سمعوا الذين يلحدون في أسماء الله . ويستهنئون بآيات الله ، وعرفوا ما قدم أسلافهم من قبل الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأنهم اليوم لفعلمهم راضون ، ثم لم يوادوهم إشفافاً على القربات والأموال أو على الأنفس لم يكونوا محبين لله تعالى جده حقاً ، بل كانوا أحب بغيره منه ، أي لا ينبغي أن يكون ذلك كذلك ، بل خلاف ذلك هو الأولى بكم والألزم لكم ، فثبت يجمع ما يثبت أن حب الله تعالى من الايمان وبالله التوفيق .

فإن سأل سائل : عن قول الله عز وجل : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ (٣) فإذا أريد به : الذين يعترفون بالله جل ثناؤه . فإن ظاهره

(٢) التوبة : ٢٤

(١) آل عمران ٣١

(٣) البقرة : ١٦٥

يوجب أن يكون الكفار محبين لله جل ثناؤه ، ولولا ذلك لم يقل : يخبونهم كحب الله ، أي كحبهم لله .

قيل له : قد يجوز أن يكون المعنى يحبونهم كالحب الذي ينبغي أن يكون لله عز وجل وقد يحتمل أن يكون أراد به المشركين الذين يعترفون بالله عز وجل ويزعمون أنهم يحبونه ، وهو أيضاً يحبهم ، غير أنهم مشركون به بعض خلقه ، كالنصارى الذين يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه وزعموا مع ذلك أن المسيح ابن الله . ومشركي العرب الذين عبدوا الأوثان وعظموها ، وقتلوا من سبها ، هي بعينها ، وقالوا : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فأحبوا الله تعالى وأحبوا الأوثان أكثر من حبهم لهم ، فحبط بذلك حبهم لله تعالى ، ولم يحصلوا منه على ثواب واستحقوا بإيحادهم الأنداد من دونه أعظم العقاب والله أعلم .

فصل

فأما ما بدأ بذكره من معاني المحبة وهو في اعتقاد أن الله عز وجل محمود ممدوح من كل وجه ، فإنه أبين أركان المحبة إذا كانت العبادة الجارية ماضية به ، فإن أحداً لا يحب المذمة تكون فيه ، وإنه يحبه لمحمد يعرفها له إما بالاطلاق وإما بحسب ما يكون عنده فيها . فإما بالاطلاق : فنحو محبة المسلمين بعضهم بعضاً لأن الموافقة والموافقة من بعض لبعض محمودة عندهم ، وإن كانت الموافقة على الخير هي المستوفية للحمل . فثبت أن الحب لا يكون إلا على ما يحمدون ما يذم بمحبة الله تعالى ، أولها : إعتقاد أن كلها مدائح ، وهي كذلك بالحقيقة ، فوجبت لها المحبة عليها وبالله التوفيق .

وكذلك إعتقاد المعنيين الآخرين وهما إحسانه وإنعامه ، وإلا مجاوزتها حد ما يأتي عليه الشكر ، هما باللسان (١) للمعنى الذي تقدم ذكره ، لأن أولها يلزم الشكر والآخر يضاعفه والأول يلزمه المنه والآخر يؤنس من إسقاطها ، وكل واحد منهما ينافي بالبغض لأن من أبغض أحداً لم يستطع حمله ونشر محاسنه ، والاعتراف له بالفضل والافضال .

(١) والمقصود معجم « لسان العرب » لابن منظور .

ومن انس من مقابلة منعم إذا شكره علم ان أقل ما يلزمه له أن يعتقد أنه مرتين بحقه ، ويصلح قلبه له حتى لا يتمكن منه ما لو بدأ المنعم يكرهه ، ولا بتوطئه إلا ما ظهر له منه كبيرة وأعجبه ، والله عز وجل لا يخفى عليه شيء ولا انعام يعدل انعامه ، ولا إحسان يوازي إحسانه . فهو أحق بأن لا يعتقد العبد في ذاته إلا ما يرضاه ، ويعصي في ارتكاب ما يكرهه هو الله وبالله التوفيق .

وكذلك ما ذكرته في ترك الإشتغال لقضاياه ، وترك الاستكثار لتكاليفه ، لا استقال^(١) القضايا واستشعار ظلم ، واستكثار التكاليف واستشعار حمل ، وكل واحد منهما حقاً واعيان فمن أضمر هذا للآخر في نفسه فقد سهل لبعضه لان المظلوم لا يحب الظالم ولا المحمول عليه الحامل .

وأما إذا لم يستقل القضايا وعلم ما نفذ فيه قضاؤه فإنما كان ملكه ، وكان أولى به منه أو تجاوز ذلك إلى أن يستجلي ما يحزى به القضايا لأجل إنما عرض ، فمن قبل المولى لا من قبل أحد ، لقوله : وواحد ، فيكون ذلك عائداً عليه بفضاضة وحقارة ، فناهيك بالأمرين : أما أولها فابعاد لما يفسد المحبة عن القلب ، والآخر فيوصل إلى اكتساب محبة الله ، وكل واحد منهما مما تبعث عليه الرغبة في رضى الله جل جلاله ، والكرهية تسخطه ، وإذا لم ينكر الفرائض علم أن الله تعالى قد أبقي عليه ولم يخرج ، ويسأله ولم يشدد عليه ، فدعاه ذلك إلى نعم طاعته ، ويطلب رضاه وموافقته .

فإن الإتياء من يملك الاستيفاء اتصال ، كما أن الاستيفاء من يملك الاتقاء شديدوا الأيفاء والآنعام والافضال عن دواعي المحبة والبواعث عليها . وكذلك للاشفاق من انقطاع نظر الله جل جلاله هو اكدار كان المحبة ، لأن الاشفاق لا يكون إلا على مظنون به متنافس فيه فمن كان نظره إلى ما أكرمه الله تعالى من معرفته وتوحيده هذا النظر دل ذلك من حاله على علمه بحقه .

والعارف بحق سيده والمنعم عليه لا يكون مبغضاً له وكذلك تعلق الأمل بالله عز وجل ، مع العلم بأنه لا غنى عنه ، وأنه جواد كريم هو من أسباب المحبة ، لأن أحداً لا

(٢) وهي مصدر للفعل « استقل » .

يُبغض من لا يصل إلى محبوبه إلا به ومن قلبه ، فكذلك يجب من يوصله إليه ، ولا سيما إذا لم يكن له إليه موصل غيره ، وكان كريماً يصدق الأمان ويكثر الأفضال ويحب الدعاء ولا يحب الرجاء .

وكذلك هيجان القلب للذكر الحسن والتقرب بنوافل الخير ، ومولاة من يحده على طريقته ، ومناوأة من لا يحده وتبرئه منه ، والغلظة عليه كل ذلك من أركان المحبة في العبادات المعروفة ، وهو أمر لازم للطباع . وقد قال الله عز وجل : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يؤادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ ، ومن يتولهم منكم ، فإنه منهم ﴾ (٢) .
وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ (٣) .
فدل ذلك على أن ولاية الله تعالى جده لا تقارق مولاة أعدائه من أعلام ولايته ومحبه والله أعلم .

فصل

فأما ادامة ذكر الله تعالى جده التي ذكرناها أنها من إمارات المحبة ، فقد جاء منها قول الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ (٤) وقوله عز وجل : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ (٥) .
وجاء عن رسول الله ﷺ ، وفي الأحوال التي يستحب الذكر فيها وفي فضيلته والحث عليه أخبار ، فمنها ما جاء في الحث على الاستكثار من الذكر ، فإنه ليس شيء أفضل من ذكر الله ، ولو اجتمع الناس على ما أمروا به من ذكر الله ما كتب الله الجهاد على عباده وإن الجهاد شعبة من ذكر الله .

(٢) المائدة : ٥١

(٦) البقرة : ١٥٢

(٢) التوبة : ٢٣

(٥) الأحزاب : ٥١

(١) المجادلة : ٢٢

(٤) المتحنة : ١

وفي هذا الحديث ان المراد بالذكر ليس هو الذكر باللسان وحده ولكنه جامع للسان والقلب ، والذكر بالقلب أفضل لأن الذكر باللسان لا يردع عن شيء ، والذكر بالقلب يردع عن التقصير في الطاعات والتهافت في المعاصي والسينئات ، وعنه عليه السلام ، انه أتى في طريق مكة على جبل فقال : (الله أكبر ، هذا حمدان ، سبق المؤذنون قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) (١) .

وفي بعض الروايات : (الذين اهتروا بذكر الله) . وعنه عليه السلام ، فيما ذكر عن الله تعالى جده : (أنا مع عبدي ما ذكرني ، وتحركت بي شفتاه يعني باسمي وقال - ان أهل الجنة لا يتحسرون على شيء إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله فيها) (٢) .

ومنها ما جاء في لزوم مجالس الذكر ومصاحبة أهله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا مررتم برباط الجنة فارتعوا ، قالوا يا رسول الله ، وما رباط الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ، فأعدوا فيها وروحوا في ذكر الله) (٣) وعنه عليه السلام : (ما اجتمع قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده) (٤) .

ومنها ما جاء في عمارة البيت بذكر الله عز وجل ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل البيت الذي يذكر الله فيه ، والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت » (٥) .

ومنها : الاحتراز من الشيطان بذكر الله تعالى جده ، يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أوحى الله إلى يحيى ثم زكريا عليه السلام ان الله يأمر الناس بذكر الله تعالى » (٦) .

ثم قال : « مثل ذاكر الله كمثل رجل طلبه العدو رسارع في أثره حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه ، فكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله » (٧) وعنه

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) ورد في صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب ١٥ ، ٤٣ ، وفي سنن ابن ماجه « الادب » باب ٥٣ ، رقم ٣٧٩٢ .

(٣) لم يرد إلا في صحيح مسلم « الذكر » رقم ٢٥ .

(٤) ورد في سنن أبي داود « الورع » باب ١٤ .

(٥) لم يرد إلا في صحيح مسلم « مسافرين » رقم ٢١١ .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

ﷺ : « أن الشيطان واضع خطمه في قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله حبس وان نسي الله التعم قلبه » (١) .

ومنها : ما جاء في مفارقة المجلس من غير ذكر الله تعالى جده فيه ثم يفرقوا عنه إلا كان كأنما يفرقوا عن صفة حمار ، وكان ذلك عليهم حسرة يوم القيامة .

ومنها : الذكر عند كل اضطجاعه ، قال النبي ﷺ : « من اضطجع مضجعاً لا يذكر الله فيه كان شره عليه يوم القيامة » (٢) .

ومنها الذكر عند كل مشي ، قال رسول الله ﷺ : « من مشى مشياً لم يذكر الله فيه ، كان عليه برة يوم القيامة » (٣) .

ومنها ذكر الله عز وجل عند كل حجر ومدر وشجر ، قال معاذ بن جبل رضي الله لرسول الله ﷺ ، أوصني ! قال : « اذكر الله عند كل حجر وشجر ، واتق الله ما استطعت » (٤) .

ومنها الذكر في الخلوة ، قال رسول الله ﷺ لأبي زرير : « يا أبا زرير ، إذا خلوت فأكثر ذكر الله » (٥) والأغلب أن المراد به في هذا الحديث ذكر القلب ، لئلا يكون منه في الخلوة ذنب لا يستطاع منه في الملاء . وعنه ﷺ : « سبعة في ظل الله يوم القيامة منهم رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (٦) .

ومنها الذكر في الملاء ، قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عن الله عز وجل : « أنا مع عبدي إذا ذكرني ، فإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم وأطيب » (٧) .

ومنها الذكر الخفي ، وهو ضربان : أحدهما الذكر في النفس ، وقد قال الله عز وجل

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد إلا في سنن أبي داود « الأدب » باب ٢٥ ، ٩٨ .

(٣) لم يرد إلا في مسند الامام احمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) ورد في صحيح مسلم « الذكر » حديث رقم ١٨٠٢ ، ١٩٠٤ .

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية﴾ (١) والآخر ما دار به اللسان ولم يسمعه إلا صاحبه .

وقال النبي ﷺ : « خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي » (٢) .

وقال : « يفضل الذكر الخفي الذي لم تسمعه الحفظة على الذي سمعته الحفظة سبعين ضعفاً » (٣) .

ومنها الذكر عند الشدة قال رسول الله ﷺ : « فيما يؤثر عن الله جل جلاله : عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي يذكرني وهو ملاق » (٤) . وعنه ﷺ قال : « طوبى لمن أكثر من ذكر الله جل ثناؤه في الجهاد ، والكلمة بسبعين ألف » (٥) .

ومنها : الذكر بعد الغداة إلى طلوع الشمس ، قال النبي ﷺ : « لأن أجلس إلى قوم يذكرون الله بعد صلاة الغداة إلى أن تطلع الشمس ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » (٦) .

ومنها - الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس ، قال النبي ﷺ : « لأن أجلس مع قوم يذكرون الله بعد العصر إلى غروب الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » (٧) .

ومنها : الذكر بين الغافلين قال رسول الله ﷺ : « ذاكر الله في الغافلين كالذي يقاتل في الغازين ، وذاكر الله في الغافلين مثل المصباح في البيت المظلم ، وذاكر الله في الغافلين مثله مثل الشجرة الخضراء وسط الشجر الذي قد تجاف ورقها ، وذاكر الله في الغافلين يغفر له بعدد كل فصيح وأبكم ، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده في الجنة » (٨) .

ومنها : الاشتغال بالذكر عن الله ، قال رسول الله ﷺ ، فيها ذكره الله عز وجل :

(١) الأعراف : ٢٠٥

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) لم يرد الا في سنن الترمذي « دعوات » باب ١١٨

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٨) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

« من شغلته ذكرى عن ملتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » ^(١) ثم الذي شذ عن هذا كله ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من أكثر من ذكر الله برىء من النفاق » ^(٢) .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله ﷺ أي الإيهان أفضل ؟ قال : « أن تعمل لسانك في ذكر الله » ^(٣) فبان بهذا أن ذكر الله تعالى إيهان وإذا كان الذكر وهو مما يبعث عليه الحب والخوف ، وكل واحد منهما كسب العبد ، ثبت أنها إيهان ، كما أن عقد القلب لما كان هو الباعث على الإقرار باللسان ، وكان الإقرار إيهاناً ، كان الاعتقاد إيهاناً ، والله أعلم .

وإذا كان محل ذكر الله عز وجل ما وصفت ، كان من حق المبدئ أن يحافظ عليه ، ولا يخل به ما استطاع ثم أن يتخري من الأذكار ما طهر فضله وجاء عن رسول الله ﷺ ، الحث عليه . فمن ذلك قوله الذي صح منه : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » ^(٤) .

ومن ذلك ما جاء عنه ﷺ أنه قال . « أربع كلمات لا تضرنك بهذه دابة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ^(٥) . وقد خصت بهذه الأذكار صلاة شرع التنفل بها لمن أحب ، فروي أن النبي ﷺ قال لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قدم من أرض الحبشة : « الا أخبرك الا لنجيك » ^(٦) فعلمة هذه الصلاة .

وروي عنه ﷺ أنه علمها العباسي ، وأمره أن يصليها كل يوم مرة فقال لا أستطيع قال ففي كل جمعة . قال : لا أستطيع . قال : في كل شهر . فقال : لا أستطيع . قال : ففي كل سنة مرة تكبر الله وتقرأ الفاتحة وسورة ثم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها عشرأ ، ثم ترفع فتقولها عشرأ . وفي الثانية مثل ذلك ، فذلك مائة وخمسون مرة ، ومن ذلك الاستغفار .

(١) لم يزد إلا في سنن الترمذي « ثواب القرآن » باب ٣٥ .

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) ورد في صحيح البخاري « كتاب إيمان » ١٩ ، وفي صحيح مسلم « دعوات » باب ٣١ .

(٥) ورد في صحيح مسلم « أضيحي » باب ٤٣ .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

قال الله عز وجل : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ (١) .

وجاء عن النبي ﷺ : أنه قال : « للقلوب صدأ كصدأ النحاس ، وجلاؤها الاستغفار » (٢) وعنه ﷺ : « من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، وفي كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » (٣) وقال « اني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٤) .

وعنه ﷺ : « ما لقي عبد ربه في صحيفته بشيء خير له من الاسلفار » (٥) .

وعنه ﷺ : « من استغفر الله إذا وجبت الشمس سبعين مرة غفر له ذنبه » (٦) وشكا إليه ﷺ حذيفة دون اللسان على أهله ، وقال إني أخشى أن يدخلني النار : فقال له : « فأين له أنت يا حذيفة من الاستغفار ، فأني أستغفر الله كل يوم مائة مرة » (٧) وبالله التوفيق .



(١) فوح : ١٠

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) ورد في مسند الامام احمد بن حنبل ج ١ ، ص ٢٤٨ ،

(٤) ورد في مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٤ ، ص ٢٦١ .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « الادب » باب ٥٧

(٧) ورد في سنن ابن ماجه « الادب » باب ٥٧

الحادي عشر من شعب الايمان

- وهو باب في الخوف من الله تعالى -

قال الله عز وجل : « إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنین » (١) .

وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس وأخشوني ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ واذکر ربک فی نفسك تضرعاً وخفیة ﴾ (٤) .

وأتى على ملائکته یخوفهم فقال : ﴿ وهم من خشیته مشفقون ﴾ (٥) .

ومدح أنبیاءه علیهم السلام وأولیاءه مثل ذلک فقال : ﴿ إنهم كانوا یسارعون فی الخیرات ویدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعین ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ والذین یصلون ما أمر الله به أن یوصل ینحشون ربهم ینحافون سوء الحساب ﴾ (٧) .

وعاتب الکفار علی غفلتهم ، فقال : ﴿ ما لکم لا ترجون الله وقاراً ، وقد خلقکم أطواراً ﴾ (٨) فقیل فی تفسیره ما لکم لا تخافون عظمة الله ، وذمهم فی آیه أخرى فقال : ﴿ الذین لا یرجون لقاءنا ﴾ (٩) . أرار به لا یخافون .

فدل جمیع ما وصفنا علی أن الخوف من الله من تمام الاعتراف بملکته وسلطانه ، ونفاذ مشیئته فی خلقه . فان اغفال ذلک اغفال للمعبوده ، إذ کان من حق کل عبد ومملوک أن

(٣) البقرة : ٤٠

(٦) الانبیاء : ٩٠

(٩) یونس : ١١٠

(٢) المائدة : ٤٤

(٥) الانبیاء : ٢٨

(٨) فوح : ١٢ ، ١٣

(١) آل عمران : ١٧٥

(٤) الأعراف : ٢٠٥

(٧) الرعد : ٢١

يكون راهباً لمولاه لثبوت يد المولى عليه ، وعجز العبد عن مقاومته ، وترك الانقياد له .
والخوف على وجوه :

أحدها : ما يحدث عن معرفة العبد بذلة نفسه ، وهو أنها وقصورها وعجزها عن
الامتناع عن الله تعالى ، إن أَراده بسوء . وهذا نظير خوف الولد والديه ، وخوف الناس
سلطانهم ، وإن كان عادلاً محسناً ، وخوف الممالك ملاكهم .

والثاني : ما يحدث من الحمة ، وهو أن يكون العبد في غاية الأوقاف وجلال من أن
يكله الله إلى نفسه ويمنعه مواد التوفيق ، ويقطع دونه الأسباب . وهذا خلق كل مملوك
أحسن إليه سيده يعرف قدر إحسانه واجبه عليه ، وأنه لا يزال مشفقاً على منزلته عنده ،
خائفاً من الأسقوط عنها والفقد لها .

والثالث : ما يحدث عن الوعيد ، وهذا دون هذه الأنواع وتألفها بالأنفس الحسيسة
التي لا يأتيتها ولا قوي فعلها مريض . ومن كان من هذا النوع فإنه قد يحدث عند الهيم
بالمعصية ، فاما أن يردع عن مواقعها فيكون قد وقع . واما أن لا يقطع به إرتداد فيصير
سبباً ليغلظ المعصية ، فإن مواقعتها على ذكر من الوعيد ، أغلظ من مواقعتها على غفلة
وسهو عنه ، وقد يحدث بعد المعصية ، فاما أن يحدث يوماً عاجلاً أو آجلاً ، فيكون قد
أفاد خيراً ، وأما أن يتبعه سهو ونسيان ، فيعود الخائف بعده كما كان .

وقد نبه الكتاب على هذه الأنواع كلها . فاما الاول فبقوله عز وجل : ﴿ مَا لَكُمْ لَا
تَرْجُونَ اللَّهَ وَقَارَأَ ﴾ (١) أي تخافون الله عظمة . ولا فرق بين أن يقول السيد لمملوكه : ما
لك لا تخاف سلطاني ومملكتي ، وبين أن يقول له : ما لا تعرف نفسك قدرها ، ولا ينزلها
منزلة مثلها . فبين أن الكلامين يراد بهما تقدير حال العبد عند نفسه لئلا يأمن من سطوة
سيده ، ويدعوه ذلك إلى مفارقة طاعته .

وأما ما هو أبين من هذا فبقوله عز وجل : وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون
إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً ، أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر
أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمنت أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل
عليكم قاصفاً من الريح فيفرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا علينا به تبيهاً (٢) .

فعرّفهم أنه لا ينبغي لهم في حال من الأحوال أن يفارقوا طاعته أو يقصروا فيه مستبشرين منه أمر لما يروونه من نعمه السابغة عليهم مقدرين أنه راض منهم بالتستر من الطاعة التي يوفونه من أنفسهم ، فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون . بل سبيلهم في الأحوال كلها أن يكونوا مشفقين من سخطه ومؤاخذته ، محضرين بقلوبهم أنه إن أراد بهم بلاء سوى دونه ما كان لم يهدوا من يدفعه عنهم ولا من يمنعه بما يهلكهم منهم .

وأما الثاني : فإن الله عز وجل أثنى على الذين يدعونه فيقولون : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ ^(١) وسامهم راسخين في العلم . ومعلوم أن أحداً لا يدعو فيقول : رب لا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، إلا وهو خائف على الهدى (الذي) أكرمه الله تعالى به ، من أن يسلبه إياه . كما أن أحداً لا يدعو : رب لا تسلبني سمعي وبصري بعدما جعلتها لي ، وهو خائف عليها ، وجل من ذهابها .

فلما أثنى الله تعالى على الداعين إياه بما ذكرنا ، كان ذلك الثناء في الحقيقة بما استحقوا بمعرفتهم قدر النعمة عليهم في هداية الله تعالى إياهم ، وحجبهم بها ، لأن دعاءهم عنها بشأنها ولاجلها كان وقال عز وجل حكاية عن أهل الجنة أنهم يقولون : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ولقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوة إنه هو البر الرحيم ﴿ ^(٢) .

وجاء في التفسير : أنهم كانوا مشفقين من أن يسلبوا الإيمان ثم يوردوا يوم القيامة موارد الأشقياء ، وكانوا يدعون الله تعالى بأن لا يفعل بهم ذلك ، وهذا عين ما ذكرت ، والقول في عامة نعم الله تعالى كالقول في الاسلام ، وإن كان الاسلام أعلاها وأعظمها .

وجاء عن النبي ﷺ أنه كان يدعو : « رب لا تكلني إلى نفسي طرفه عين » ^(٣) وهذا أيضاً للاشفاق من أنه إذا سلب التوفيق لم يملك نفسه ولا يأمن أن يضيع الطاعات ويتبع الشهوات فينبغي لكل مسلم أن يكون هذا الخوف من همه وبالله التوفيق .

(٢) الطور : ٢٦ - ٢٨

(١) آل عمران : ٨

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة ، وإنما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١ ، ص ١٢ ؛ حديث مشابه وهو : « فأنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبي من الشر » .

واما الثالث : فما أكثر ما في القرآن من ذكره والبعث عليه . قال الله عز وجل في غير موضع : يا أيها الناس اتقوا ربكم ^(١) وقال ﴿ وإياي فاتقون ﴾ ^(٢) . وقال : واتقوني يا أولي الأبواب ^(٣) وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ، وقودها الناس والحجارة ﴾ ^(٤) .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المجتمعة المعاني ومرجعها إلى الأمر بالتقوى . وهو أن يقي المخاطبون أنفسهم نار جهنم بفعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه . ومعنى اتقوني : اتقوا عذابي ومؤاخذتي ، والكلام لا يحتمل غيره والله أعلم . ولعل الاخافة بالوعيد إنما هي لأنه ليس كل مخاطب يكمل لأن يلتقي ما يعرفه من ذلة نفسه وعظمة الله تعالى عن التحويل على ما فيه رضى الله تعالى بالوعيد ، فكان الوعيد بينها لأهل الغفلة ، ودلالة على ما في العصيان من المشقة . وقد جاء في هذا المعنى أخبار كثيرة مرجعها إلى ما ذكرت والله أعلم .

فصل

وقد يجد الناس في أنفسهم الخوف من أشياء كثيرة مثل خوف الوالد من موت ولده ، وذهاب ماله والفرق أو الحرق أو الهدم ، أو ذهاب السمع أو البصر أو الوقوع بيد سلطان جائر أو ابتلاء بسبع أو عدو ومن كان وما يشبه ما ذكرنا من أصناف المكروه ، إلا أن هذا ينقسم إلى محمود ومذموم :

فالمحمود أن يكون الخوف من هذه الأمور مما يمكن أن يكون تحتها من سخط الله جل ثناؤه ، فأنها قد تكون عقوبات ومؤاخذات من خافها وامتنع لأجلها من المعاصي خيفة النار ، وكذلك ان خشي أن يكون أخذ الله تعالى منه ما أعطاه إيلاء واختباراً حق ان صبروا واحتسب ااثابة ، وان جزع واضطرب لم يسلم لقضائه ، زاده مثلها ، فخاف ان ذلك ان كان لم يملك نفسه ، وكان منه بعض من لا يحبه الله تعالى جده . ومن

(٢) البقرة : ٤١
(٤) التحريم : ٦

(١) النساء : ١
(٣) البقرة : ١٩٧

هذا الوجه كان إشفاقه وكرهيته لهذه الأمور . فهذا أيضاً محمود ، وهذا خوف ينشأ من المحبة والتعظيم جميعاً .

وأما المذموم فهو أن يكون خوفه بعض هذه الأمور لحرصه على ماله منها من المنافع الدنيوية ، وشدة ركونه إليها في مثله إلى التكثر بماله منها ، والتوصل بها إلى ما يريد ويهوى ، كان في ذلك رضى الله أو سخطه ، وإنما كان هذا مذموماً للغرض الذي كان ينشأ هذا اخوف ، ولأن جميع نعم الله عند العبد من مال وولد وما يشتهيها إنما هي عوادي والركون الى العوادي ليس من فعل العقلاء والمخلصين .

فصل

فأما شرائع الخوف فمنها أن تهيب العبد بآيات الله التي يهب خلقه لحسوف الشمس والقمر والزلازل والرياح والعواصف والرعد والبرق والظلمة في غير وقتها ، وانقطاع المطر في وقته ونحو ذلك .

فإن الله عز وجل وضع في قلوب عباده الانزعاج لهذه الحوادث ، كما وضع فيها السكون والطمأنينة لما يخالفها ، فلما كان ضياء الشمس والقمر ، وهدوء الأرض وسكون الرياح المؤذية وخلق السحاب من الرعد والبرق وصفاء الهواء ونزول المطر في وقته نعمة . وروحاً من الله تعالى ورحمة وجب أن يكون ما بخلافها تهيباً وتخويفاً ومؤاخدة .

قال الله عز وجل : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ ^(١) فمن غفل عن يبدو له من ذلك ولم يترك لأجله قبيحاً كان فاعله ازداد جرمه وتغلظ ذنبه واستحق من العقاب ما لم يكن مستحقاً قبله .

وقال النبي ﷺ : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت واحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى » ^(٢) وفي رواية أخرى (إلى الصلاة) .

(١) الاسراء : ٥٩

(٢) ورد في سنن ابن ماجه « الاقامة » باب ١٥٢ حديث رقم ١٢٦١ ، ١٢٦٣ ، وفي صحيح

البخاري « بدء الخلق » باب ٤ ، وفي باب الكسوف - باب ١٣٠١ .

وفي حديث آخر : « ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خضع له » (١) فقد يحتمل أن يكون معنى هذا أن الله تعالى إذا ظهرت قدرته على شيء حدث فيه ما يريد ، ولم يكن منه إمتناع عليه .

وكذلك إذا تجلى لكم بأن خالف بكم ما عودكم وسلب الشمس ضياءها في نهاركم ، أو القمر نوره في ليلكم ، فأحسنوا له بأن تصلوا وتسبحوا وتقعدوا وتستغفروا ولا يمنعكم عن ذلك أن تقولوا : عن قريب ستجلوا إعتدأ على عادة الفتموها ، فإنه إذا تجلى كان ذلك التجلي إبتداء نعمة منه ينعمها عليه ، وليس يجوز أن يكون لتحديد النعمة سبباً للاخلال بشكر ما سلف فيها والله أعلم .

ومنها التخضع عند قراءة القرآن وسماعه وذكر الجنة والنار كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ۚ ﴾ . وقال جل ثناؤه : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْر مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ۚ ﴾ (٢) .

وقال جل ثناؤه : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ ﴾ (٣) ، أي لو كان من حقه أن لا يستقر بل يتصدع من خشية الله فكتب لا تراه ان رأيت إلا متصدعاً ، فكيف بقلب المؤمن الذي هو ألين من الجبل انه بالخوف والخشية والتهيب والرهبة أولى وأحق .

ويحتمل أن يكون المعنى . ان قلب الكافر الذي إنما هو كمضغة لحم ليس بلين لقبول مواعظ القرآن ولا لنبيين اعجازه وما فيه من صدوف حجج الله على عباده ، أي فقد كان بأن يخشع أولى من الضجر لولا أن الشقي لا ينقلب سميداً ، والخبث لا يتبدل طيباً ، وما ذكرنا في هذا الفصل فلا يكاد يخفي وجهه ، لأن الرهبة من الله تعالى وإن كان حقها أن لا يلزم المؤمن دائماً ، فإنها عند تجرد العهد بسماع الوحي ، والوعد والوعيد ، أحق وأخلق . ولهذا كان النبي ﷺ يبكي إذا قرأ بالليل في صلاته حتى يكون لصدرة أزيز المرجل من البكاء ، وكان إذا مر بآية رحمة سأل الله رحمته ، وإذا مر بآية عذاب إستعاذ بالله

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الإقامة » باب ١٥٢ ، حديث رقم ١٢٦٣ .

(٢) الزمر : ٢٣

(٣) الحشر : ٢١

من عذابه ، فكذلك ينبغي للمؤمن سواه أن يكونوا هم أولى بذلك منه إذا كان الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانوا من أمرهم على خطر - وبالله التوفيق - لما يرضيه والعباد بما يسخطه انه أولى للامرين ومالكهما برحمته .

ومنها إساءة الظن من كل أحد بنفسه حتى لا يظن في حال قط إلا أنه مقصر في حق الله تعالى جل جلاله وغير موف حق العبودية كما يلزمه ، وإن كان مؤدياً للفرائض غير نخل بها أمرها وتهتكاً لا تبدو وطاعة ولا مواقع معصية ، وذلك أن يعتقد أن ما كلفه الله عز وجل إذا كان لا يستغرب وسعه ولا يستنفذ طرفه .

وكان الله عز وجل خلقه لعبده ، فهو إذا قد أبقى عليه كثيراً من حقه ، ثم انه إذا كان أمره أن يعبد به يثبته له وفضله على شرط الاخلاص ، فقال : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ (١) وكان لا يصلي إلا وما في قلبه من أشغال الدنيا أكثر من شغل الصلاة ، أو لا يخلو من اختلاطها به ، ولعله مع ذلك يراي ، ويتصنع ولا يزكي إلا من جزاء الدفع ، مما طلائم متساهلاً بنفسه فيما يعطي وفيمن يعطي .

ولا يصوم إلا متبرماً بالصيام مستطيلاً للنهار ، مستعجلاً للمساء ، ومعرضاً للنوم ، لثلاث يشعر بالصوم ، أو مستكثرأ من الطعام لثلاثين عليه أثر الصيام ، أو حافظاً للمساك عن الطعام والشراب ، ما لو وقع في أعراض الناس وغير ذلك مما لا يجوز ولا يحل . ولا يحج إلا مدافعاً بالفرض مستتبيناً ثم مكداً للطهر محملاً إياه ما لا يطيقه ولا يكون في أوله وآخره إلا غافلاً عما شرع الحج له حتى يدعوه ذلك إلى أن يكون بعده كما كان قبله أو شراً منه .

فكيف يجوز له مع هذا كله ومع ما تركناه من أمثاله ، فلم يمكنه أن يرى أنه قد وفى حقوق الله تعالى فيؤديه ذلك للامن وسكون الحساس فالاولى به إذا ، ان أهيب له داعياً إليه في العفو والغفران . فإن ذلك أشبه بالعبودية والاستكانة والله أعلم .

ومنها أن التخوف لا يحق إلا من الله عز وجل لأنه ملك الملك وولي النفع والضرر والأخذ والترك والنواصي كلها بيده ، لا يملك أحد من دونه ضراً ولا نفعاً . وقد يقصد الواحد من عباده أن يسيء إلى مثله ، فيصرف قلبه عنه ، إما إلى الاساءة وإما إلى الحرمان .

(١) البينة : هـ

قال الله عز وجل حاكياً عن هود صلوات الله عليه أنه قال لقومه : ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ (١) .

وقال : ﴿ وإياي فارهبون﴾ (٢) وقال : ﴿ وإياي فاتقون﴾ (٣) .

وقال : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ (٤) فقليل تفسيره هو أهل التقوى ، هو أهل ان يتقى فلا يعفي وهو أهل ان يغفر لمن اتقى أي لا أحد يستحق أن يتقى غيره . وقال جل ثناؤه ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني﴾ (٥) وقال ﴿ فلا تخافوهم - يعني الشيطان - وخافوني إن كنتم مؤمنين﴾ (٦) وذم قوم يخشون غيره فقال ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ (٧) فذم هؤلاء كما ذم الذين يتخذون أنداداً من دونه فيحبونهم كحب الله .

فان ما ذكرنا أن الخوف من الله تعالى جده وحده ، فمن خاف غيره فانما صرف إليه حقاً من حقوق ربه ، فاما من أخلص للخوف له ، فإنه جل جلاله مدحه وأثنى عليه ووعده إلا من يوم الفرع ، فقال : ﴿ أن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (٨) .

وقال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ (٩) .

وقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل الله له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ (١١) .

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لن يلج النار حق يكتب من خشية الله حق يعود اللبن إلى الضرع » (١٢) .

(٣) البقرة : ٤١

(٢) البقرة : ٤٠

(١) هود : ٥٦

(٦) آل عمران : ١٧٥

(٥) المائدة : ٤٤

(٤) المدثر : ٥٦

(٩) النور : ٥٢

(٨) الملك : ١٢

(٧) النساء : ٧٧

(١٠) النازعات : ٤٠ - ٤١ (١١) الطلاق : ٢ ، ٤

(١٢) لم يرد إلا في مسند الامام احمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ١٣٦ .

وأما ما يخص قولنا أن الخوف من الله تعالى إيمان فالدلالة عليه قوله : ﴿ وخافوني إن كنتم مؤمنين ﴾ (١) . فلما كانت طاعة الله ورسوله إيماناً كان خوف الله إيماناً . وقوله جل جلاله : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ﴾ (٢) فإنه تعالى طالب الخشوع من قد آمن واستطابه فيه لأجل ما قدم من الإيمان . فدل ذلك على أنه طاعة من الطاعات التي يحرك عليها الإيمان ، فوجب أن يكون إيماناً كامثاً . ويقدر بهذا أن ضد الخوف الأمن ، والأمن من الله تعالى من غير إيمان منه كفر ، لأن ذلك لا يقع من صاحبه إلا على أحد أوجه :

أما أن يقدر به عجزاً عن مؤاخذته ويظن به اغفالا وتصنعاً لأمره . أو يرى أنه راض عنه غير مفكر ما يفعله أو يتركه ، إذ كان لا يفعل إلا ما أمر به ولا يتركه إلا ما نهى عنه ، أو يحسب أن ما يفعله يخفى عليه ، فلا يعلمه . وكل هذه الأوجه ترجع إلى إضافة النقص إلى الله تعالى وإجازته عليه وذلك كفر .

ولعل قائل يقول في هذا الموضع : ما في ظن العبد أنه إذا أقام الطاعات وتجنب المعاصي ، فلا ينبغي أن يكون عليه خوف ما ينبغي أن يلام عليه .

فيقال له : موضع الخلاص في هذا أن الله عز وجل على العبد سلطاناً من غير وجه الأمر والنهي ، وهو أنه يملك أن يسلبه ويعرضه للمصائب والمكازر من غير ذنب يكون منه كما يفعل ذلك بغيره واحد من رسله صلوات الله عليهم .

وقال نبينا ﷺ : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل (٣) . فإذا اعتقد العبد أنه إذا أدى الطاعة في أمره ونهيه فلا ينبغي أن يخافه ، فإذا اعتقد أن لا سلطان له عليه للامر قبل التكليف ، وهذا كفر . ثبت أن الأمر من الله تعالى بلا نص إيمان يكون منه جل ثناؤه وكفر ، فوجب أن يكون ضده وهو الخوف إيماناً وبالله التوفيق .

(٢) الحديد : ١٦

(١) آل عمران : ١٧٥

(٣) ورد في سنن ابن ماجه « الفتن » باب ٢٣ ، رقم الحديث ٤٠٢٣ ، وفي سنن الترمذى « الزهد »

باب ٥٧ .

الثاني عشر من شعب الايمان

وهو باب في الرجاء من الله جل جلاله

وهو على وجوه :

أحدها : رجاء الظفر بالمطلوب والوصول إل المحبوب .

والثاني : رجاء دوامه بعدما قد حصل . والثالث : رجاء دفع المكروه وصرفه

لثلايق . والرابع : رجاء الدفع والاماطة لما قد وقع .

وكل ذلك حسن جميل على التفضيل الذي بينا ذكره للدعاء ، وإذا استحکم الرجاء حدث عنه من التخشع والتذلل نحو ما يحدث عن الخوف إذا استحکم لأن الخوف والرجاء متناسبان إذ الخائف في حال خوفه يرجو اخلاف ما يخافه ويدعو الله به ويسله صرفه ، فلا خائف إلا وهو راجي ، ولا راجي إلا وهو خائف ، ولذلك كانت طريقتها في الدعاء والاستكانة واحدة فالراجي بقوة رجائه وشدة رغبته فيما يرجو لا يبقى شيئاً أو يرى أنه يقرب مراده إلا وينتهي إليه ، والتذلل لمن وقعت الحاجة أولى سبب لتقريب المراد ، لأن من إليه حاجة إذا كان كريماً - أي لصاحبها - يتذلل لله حقاً ، وأوجب له به ثواباً ، وقد علم أنه لا ثواب أحسن موقعاً عنده من نيله ما يريد ، وهو يحببه ولا يخيب رجاءه .

والدعاء والجملة من جملة التخشع والتذلل ، لأن كل من سأل ودعا فقد أظهر الحاجة وباح بها واعترف بالذلة والفقر والفاقة لمن يدعو ويأله ، فكان ذلك في العبد نظير العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز اسمه ، ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (١) فأبان الدعاء عباده ، والخائف فيما وصفنا كالراجي لأنه إذا خاف خشع وذلل لمن يخافه ، وتضرع إليه في طلب التجاوز عنه .

(١) غافر : ٦٠

فإذا وقع ذلك من العبد لله جل ثناؤه، كان ذلك في الاعتراف بالحاجة إليه والذلة له،
نظر عباداته التي يتقرب بها إليه، ولأجل تناسب الأمرين جمع الله تعالى بينهما في غير آية
من كتابه فقال: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً أن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ (١) فالخوف
للاشفاق، والطمع للرجاء. وقال في قوم مدحهم وأثنى عليهم: ﴿يرجون رحمته ويخافون
عذابه﴾. وقال: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ (٢).

فالرغبة والرجاء والرغبة والخوف، وإنما كان الرجاء من شعب الايمان لأنه من امارات
التصديق، وامارات التصديق كلها إيمان فكذلك الرجاء. وبين ما قلنا ان من لا يصدق
بأن له رباً أمره بهذه وهو على ما يشاء قدير، لا يرجوه، فإن من الموجود بيننا ان كل
عبد فإنما يأمل الخير من قبل مالكة ولا يأمله حتى يعلم مالكة أنه قادر على إبطاله، فدل
ذلك على أن تعليق العبد أمله بالله تعالى تصديق منه به وبملكه وقدرته موجودة. فوجب
أن يكون ذلك إيماناً كسائر ما تحرك عليه التصديق.

وقد ضرب بعض العلماء الآيات: ان التصديق قد يكون بالفعل كما يكون بالقول مثلاً.
فقال: لو أن رجلاً قال لرجل في يوم تسفر السماء فيه مصحبة والشمس طالعة. انا نظرت
الساعة فقال الآخر: صدقت فسميناه مصدقاً. ولو أنه بعد قوله قام يجمع ثيابه ويكنس
سطحه ويفتح مجاري الماء لها عد الصلاة هذه الأفعال دون قوله صدقت. بل أجروه مجراه
وجعلوه تصديق مثله. فان هذا على أن كل ما كان من اجازات التصديق بالله تعالى فهو
إيمان كالأقرار والله أعلم.

فان قيل: فإن ضد الرجاء اليأس، أتقولون أن اليأس كفر كما قلتم أن الرجاء إيمان.
قيل: الرجاء يوقع الخير من الله تعالى للعلم بأنه بيده لا مالك له غيره ولا مانع لما
أعطاه لا معطي لما منع، وضده صرف الأهل عن الله تعالى.

أما التكذيب به أو بأنه الرازق والمعطي والمانع والمدبر والمقدم والمؤخر، والرجاء على
الوجه الذي ذكرت إيمان، واليأس على الوجه الذي وصفت كفر، قال الله عز وجل حكاية
عن يعقوب عليه السلام: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (٣).

(٣) يوسف : ٨٧

(٢) الانبياء : ٩٠

(١) الاعراف : ٥٦

وأما إذا كانت اليأس على وجه الاستبعاد للمؤمن ، وترجح أنه لا يكون ، على أنه يكون في النفس فذلك خطأ وضلال . وقال الله عز وجل : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ (١) .

ويدخل في الرجل يسرق على نفسه ، وينهمك في المعاصي ويفرق في الذنوب ثم لا ينزع عنها ولا يتوب ما يبطأ من أن تنفعه التوبة مع عظم ذنوبه وطول أيامها فهذا مثل جهل وخطأ ، لأنه لو لم يكن في النزوع إلا قلة الذنوب لكان ينبغي له أن يختار على التادي والاصرار فكيف وفيه تمحيص ما مغني وتكفير ؟

وفي هذا يدل قوله عز وجل : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (٢) .

ويدخل فيها الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها . قال : ﴿ أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأما الله مائة عام ثم يمته قال ، كم لبثت ، قال : لبثت يوماً أو بعض يوم قال : بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (٣) ، أي لا تستبعدن مع علمك بقدرته أصلاً . وبالله التوفيق .

والقول في الخوف نظير القول في الرجاء : فلو سأل سائل فقال :

إذا كان الخوف من الله جل ثناؤه إيماناً ، أقولون أن الأمن منه كفر ؟ قيل له : الذي نشأ عن المعرفة بالله جل ثناؤه إيمان ، والأمن الذي ينشأ عن الجهل به كفر ، وأما ما يشبه الأمن من الانهماك إلى المعاصي ، وترك أخطار العقبي بالقلب من غير جهل بالله تعالى ، فإنه غفله وضلال وليس بكفر . وهذا يقع من العبد على وجهين :

أحدهما : أن يرى نفسه قد ركب من المعاصي رأسه ، ولا يرى من الله جل جلاله تغييراً عاجلاً فيففل عن المؤاخذة وينساها أصلاً ، ولا يرى من الله جل جلاله كالماشين ، إذا استمرت بهم أيام الحر وتناولت عليهم بسوء البرد ، وغفلوا عنه فلم يذكروه ولم يخطر بقلوبهم أنه آتيهم ، فيستعدوا إلى أن يهجم عليهم بغته .

والآخر : ان يركن إلى حسنات يعملها لنفسها خلال السيئات ، فيقول في نفسه لئن كنت أسيء فلقد أحسن قبل بملك ، فإن هذا الحكم وهذا التعديل يكون أعظم ذنوبه إذا الحكم لله جل ثناؤه ولا للعبد ، والله عز وجل لم يأمره إلا بالاحسان ، ولم يأذن له ، فليس إذا أحسن في شيء أن يسيء في غيره ، ثم يزيد على ذلك أن يحكم لنفسه ويعدل إساءته بإحسانه من غير علم منه ، بقدر حسنة ولا بقدر سيئة ، فإنما علم ذلك عند الله عز وجل دون غيره وبالله التوفيق .

وقال بعض أهل العلم : الرجاء واسطة بين المعرفة والطلب فان من لا معرفة له بالمرجى لا خيراً له فيه على الطلب لمعرفة تبعث على الرجاء ، والرجاء على الطلب ، والخوف واسطة بين المعرفة والهرب ، والمرجى هو الخير أو ما يظن به أنه خير ، والخوف هو الشيء ، أو ما يظن به أنه شر .

وكل ما ذكرته في باب الخوف من أنه لا ينبغي أن يكون الرجاء إلا لله جل جلاله إذا كان المنفرد بالملك والدين ، ولا يملك أحد من دونه نفعاً ولا ضرراً ، فمن رجا من لا يملك ما لا يملك فهو من الجاهلين ، وإذا علق رجاءه به جل ثناؤه فينبغي أن يسأله ما يحتاج إليه صغيراً وكبيراً ، لأن الكل بيده لا قاضي للحاجات غيره ، وسؤاله إنما يكون بالدعاء على ما سنبينه .

قال الله عز وجل : ﴿ أدعوني أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (١) ولم يزل الدعاء دأب الأنبياء الذين خلفهم أئمة وأمر أن يقتدي بهم فهداهم ذكر الله عز وجل : ان أبانا آدم صلوات الله عليه لما ابتلي بالخطيئة ، فرغ إلى الدعاء ، وامنا عليهما السلام معه كذلك فقالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢) .

وان نوحاً عليه السلام لما طال عليه الأذى من قومه لجأ إلى الدعاء فقال : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ (٣) ولعل بدله كان قوله : ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ (٤) .

(٢) الاعراف : ٢٣

(٤) القمر : ١٠

(١) غافر : ٦٠

(٣) الأنبياء : ٢١

وقوله : ﴿ لا تذّر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (١) أو غير ذلك مما دعاه ولم يحكمه عنه .

وان أيوب عليه السلام لما أبغ عليه البلاء دعاه فقال : ﴿ إني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ (٢) ﴿ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ (٣) فاستجاب له ربه ، فكشف الضر عنه وأتاه أهله ومثلهم معهم .

وان ذا النون نادى في الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (٤) فاستجاب له ونجاه من الغم .

وان زكريا عليه السلام دعاه لما تمنى أن يكون له ابن يرثه فقال : ﴿ رب لا تذرنني فرداً ﴾ (٥) ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربي رضياً ﴾ (٦) فاستجاب له بيمينى .

ثم ان عز وجل ابان أنه جعل إجابة دعوات المذكورين صلوات الله عليهم أجمعين ثواباً لها بأعمالهم الصالحة ، فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٧) متذللين بالطاعة خائفين حذرين ، فجعلنا إجابتهم إذا دعونا ثواباً لهم بطاعتهم ، إذ أمرنا وتمجيل ما سألونا جزاء لمسارعتهم إلا ما كلفنا . وفي ذلك تحريك على الطاعة وزجر عن المعصية وحث على البدار إلى فعل المأمور ، ومجانبة التفريط والتقصير . والله أعلم .

(٣) الانبياء : ٤٣

(٢) ص : ٤١

(١) توح : ٢٦

(٥) الانبياء : ٨٩

(٤) الانبياء : ٨٧

(٧) الانبياء : ٩٠

(٦) مريم : ٥

ذكر فصول في الدعاء يحتاج إلى معرفتها

الدعاء : قول القائل يا الله ، يا رحمن يا رحيم ، وما أشبه ذلك وهو أيضاً نداء ، قال الله عز وجل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ ^(١) . وقال ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ، رب لا تدنني فرداً ﴾ ^(٢) . وقال في آية أخرى ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال : رب ﴾ ^(٣) ومعنى رب ، يا رب . فثبت أن النداء دعاء .

ثم إن له أركاناً وآداباً ، فاما أركانه فمنها : أن يكون المرغوب فيه مما يبلغ فكر السائل إن سأل .

ومنها : أن لا يكون عليه في سؤال ما يسأل حرج .

ومنها : أن يكون في السؤال غرض صحيح .

ومنها - أن يكون حسن الظن بالله جل ثناؤه عند الدعاء فتكون الاجابة أغلب في قلبه من الرد .

ومنها : أن يدعو الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلی .

ومنها : أن لا يسأل ما يسأل إلا بحمد وحقيقة ، ولا يأخذ دعاء مؤلفاً فيسرده سرداً أو عن حقائقه غافلاً .

ومنها : أن لا يشغله الدعاء عن فريضة الله تعالى حاضرة فيفوتها .

ومنها : أن يكون دعاؤه سرّاً لا بالحقيقة ، لا اختباراً بربه جل ثناؤه .

ومنها : أن يصلح لسانه ، إذا دعا ، ولا يخاطب ربه جل ثناؤه بما لو خاطب به كفؤه وقريبه ينسبه إلى قلة الحياء وسوء الأدب أو ركاكة العقل .

ومنها : أن لا يدعو ضجراً مستمجلاً يضر ، إنه إذا في الوقت الذي يريده . والا

(٢) آل عمران : ٣٨

(٢) الأنبياء : ٨٩

(١) مريم : ١ - ٣

يدعو متعمداً خاشعاً يضرر أنه لا يزال يدعو أو يتضرع إلى أن يجاب ، وكلمات زادت
الاجابة عنه تراخياً : اد الدعاء تتابعاً وتراكتاً .

ومنها : أن حاجته إذا عظمت لم يسألها الله تعالى مستعظماً إياها في ذات الله ، بل
يسأله الصغيرة والكبيرة سؤالاً واحداً ، ويرى منه الله تعالى في إجابته إليها عظمة ، فتلك
فيما تبلغه معرفتي أحد عشر .

فاما آدابه : فمنها : أن يقدم التوبة أمام الدعاء . ومنها : الجد في الطلب والالحاح .
ومنها : المحافظة على الدعاء في الرخاء دون تخصيص حال الشدة والبلاء . ومنها : ان
يعزم إذا سأل . ومنها : أن يدعو أملاً فاته .

ومنها : أن يقتصر على جوامع الدعاء ما لم تعرض له حاجة بعينها فينص عليها .

ومنها : افتتاح الدعاء وختمه بالصلاة على رسول الله ﷺ .

ومنها : أن يدعو وهو طاهر . ومنها : أن يدعو مستقبلاً القبلة .

- ومنها : أن يدعو دبر الصلاة .

ومنها : أن يرفع اليدين حتى يجاري بها النكبين إذا دعا .

ومنها : ان يخفض صوته بالدعاء .

ومنها : أن يمسح بيديه وجهه إذا فرغ من الدعاء .

ومنها : أن يحمد الله إذا عرف الاجابة .

ومنها : أن يخلط يوماً وليلة من الدعاء ويتحرى للدعاء الأوقات والأحوال والمواطن

التي ترجى فيها الإجابة .

فاما الاوقات : فمنها : ما بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء .

ومنها : ما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى أن تغرب الشمس .

ومنها : الدعاء في الاسحار .

ومنها عند الأفياء .

ومنها : الدعاء يوم عرفة إلى أن تغرب الشمس .

واما الاحوال : فمنها حال النداء للصلاة . ومنها : حين فطر الصائم .

ومنها : عند نزول الغيث . ومنها : عند التقاء الصفيين .

ومنها: عند اجتماع المسلمين على الدعاء. ومنها: إدبار المكتوبات. ومنها: عند القيام من المجلس.
واما المواطن : فالوقوفان والحرمات وعند البيت والملتزم خاصة وعلى الصفا والمروة .

فاما الفصل الاول

فتفسيره أنه ليس لأحد أن يتشبه بإبراهيم صلوات الله عليه وسلم ، فيدعو الله جل ثناؤه ان يريه كيف يحيي الموتى . ولا أن يتشبه بموسى صلوات الله عليه فيقول : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ (١) ولا أن يتشبه بعيسى صلوات الله عليه فيقول : ﴿ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ﴾ (٢) .

ولا لاحد أن يسأل الله جل ثناؤه إنزال ملك عليه فيسله عن خبر من أخبار السماء ، واحياء أبويه واخياء ولده ، لأن بعض العادات إنما تكون من أمر الله تعالى ، التأييد من يدعو إلى ذنبه لشهوات العبادات ومنهم إلا أن يكون السائل نبياً ، فبجمع إجابته أثناء نبوته وتأييده بما يصدق دعوته ، ولكنه ان دعا كما دعا نوح ﷺ فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (٣) جاز لأن الله عز وجل إنما فرض الجهاد ليقاتل المشركين . فاما أن يسلموا واما أن يستأصلوا ، فمن دعا بهذا الدعاء فإنما يسأل تيسير ما أمر الجهاد لأجله ، وليس ذلك من شهوات النفوس وأمانيتها ، وإنما يبعث عليه نقص من الله تعالى ، فكان دعا النبي ﷺ وغير النبي واحد والله أعلم .

وليس لأحد أن يدعو فيقول : اللهم اجعل لي الصفا ذهباً ، أو احبس لي الشمس ، أو برد لي النار ، لأن هذه أشياء خص الله لكل شيء منها نبياً ، ليظهر بذلك محله وقدره عند عباده . فكان تحويل الصفا ذهباً مما ورد الخبر ، بأن جبريل ﷺ نزل على نبينا ﷺ يخبره عن الله تعالى في ذلك . فقال : « بل أكون عبداً نبياً » (٤) .

وحبس ليوشع بن نون صلى الله عليه الشمس ، وتبريد النار لابراهيم الخليل صلوات الله عليه . فمن سأل الله تعالى لنفسه شيئاً من (هذا) فإنما يسأل الله أن يسوي بينهم وبينه ويلحقه فيما أهلهم له من ذلك بهم ، فلا فرق بينه وبين من يقول : رب اسجد لي ملائكتك ،

(٣) نوح : ٢٦

(٢) المائدة : ١١٤

(١) الاعراف : ١٤٣

(٤) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « المناسك » باب ١٠٤ ، رقم ٣١١٣ .

ما أسجدتهم لك ، أو رب كلمني كما كلمت موسى ، أو أمر بي هذه الليلة إلى المسجد الأقصى كما أسريت بمحمد ﷺ .

فإذا كانت هذه الدعوات بما لا يجوز الاجترار على الله بها ، فالأولى أمثالها والله أعلم . وقد يجوز أن تحدث للعبد حاجة وضرورة فيسأل الله عز وجل كشفها عنه سؤالاً مطلقاً ، إلا أن الله عز وجل عند الإجابة ينقص له عادة أو يفعل ذلك به من غير مسكنة جزاء له لتوكله وقوة إيمانه ، مثل أن يكون في بادية لم يدخلها إلا في ثواب الله عز وجل على وجه ما دون له فيه ، فتصيبه نخصة شديدة ، وليس معه ولا قريبه أحد . فيقول : اللهم ادفع عني الجوع بما شئت فيحدث الله مكانه طعاماً فياً كله .

وإن أصابه برد شديد خاف على نفسه منه ولم يكن له ما يتدثر به ، فيقول : اللهم اصرف عني البرد بما شئت ، فيحدث له كسوة ليلبسها . أو يشبع الأول بلا طعام ، ويدفعه الثاني بلا كسوة .

ومثل هذا أن يسأل الله تعالى أعمى لا قائد له ، ولا أحد يسمى في حوائجه أن يرحمه ويكفيه بما شاء في وجوه كفاياته فيرد البصر عليه مكانه . لأن هذه ضرورات واقعة لا كاشف عنها إلا الله جل ثناؤه . فمن رغب عن هذه المسألة مع حدوث الضرورة فلم يوف العبادة حقها .

وإذا صح السؤال من العبد ووقع موقع الجوار ، فكثير ما أجاب الله به دعوته ، فهو داخل في حد الحكمة ، وليس يشني منه تخارج عنه والله أعلم .

وأما الفصل الثاني :

فهو ان ليس لأحد أن يسأل الله سبحانه وتعالى خيراً يشربها ، وامرأة يزني بها أو الظفر على غير حرج ليقطع عليها ونحو ذلك . قال الله تعالى لو أجاب دعاءه ، ويسر له ما يسأله لكان قد أباحه ذلك ، وأطلقه له ولم يكن عليه في فعل شيء من ذلك ما تم ، ولما كان بموقع التحليل من الله تعالى لذلك محالاً صح ان دعاءه ومسألة تيسيره وتسهيله محال غير جائز والله أعلم .

وجاء عن النبي ﷺ انه قال : (ما من مسلم يدعو الله ليس بشيء فيها قطيعة رحم ولا إثم

الا أعطاه الله إحدى خصال ثلاث : إما أن يجعل له دعوته ، وأما أن يدخرها له في الآخرة ، وأما أن يدفع عنه مثلها (١) . فصح ان الدعاء بما فيه غير جائز ، إذ كان جزاؤه على الله تعالى ، وتوقع إجابته والله أعلم .

ويدخل في هذا الباب أن يدعو أحد بالشر على من لا يستحقه أو على بهيمة ، يروى عن رسول الله ﷺ انه سمع رجلا في سفره يلعن بعيره ، فقال : (من هذا اللاعن بعيره ؟ فقال : أنا يا رسول الله . فقال انزل عنه ، فانه لا يصحبنا ملعون) (٢) فعاجله بالإنزال عنه وهو في الحاجة اليه قائمة ، عقوبة له بلعنه .

ومعنى لا يصحبنا ملعون مدعو عليه باللعن ، لأن الذي أدركته اللعنة . ثم قال ﷺ (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم ولا على أموالكم ، لا توافقوا من الله عز وجل ساعة عطاء فيستجاب لكم) (٣) ومعنى هذا النهي عن أن يدعو الرجل على نفسه أو على ماله بالهلاك ، فيعطى ما سأل عقوبة له على دعائه لا إكراماً بالإجابة والنهي عن أن يلعن البهيمة فتهلك أو يبيد غيرها ، أو أن تقع بيد الأعداء فيقاتلوه عليها ، وكل ذلك عقوبة له بدعائه لا إكرام له بالإجابة والله أعلم .

واما الفصل الثالث :

فتفسيره أن يدعو الله تعالى مريض بالعافية ، فينبغي أن يكون غرضه في ذلك أن يبرأ ، فيصل ويصوم . أو يدعو فقير فيسأله مالا ينبغي أن يكون ذلك ليسقط مؤنثته عن المسلمين ويبرأ فيتصدق ويواسي . أو يدعو فرد فيسأله ولداً . فينبغي أن يكون ذلك ليخرج من صلبه من يوحد الله تعالى ويعبده ويعمل بشريعته . أو يسأله سائل عمراً طويلاً فينبغي أن يرغب في ذلك لتكثر طاعاته وحسناته .

فأما طلب المال للتفاخر والتكاثر والإستعانة على قضى الشهوات ، وطلب البر والتمكن به مما منع المريض عنه من الأمور التي تبعث عليها الالهواء ، وكان ذلك غير جائز ، والدعاء به جرأة على الرب عز وجل .

(١) لم يرد هذا الحديث إلا في مسند الإمام احمد بن حنبل ج ٣ ، ص ١٨ .

(٢) لم يرد هذا الحديث إلا في صحيح مسلم «كتاب الزهد» رقم ٧٤ .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

واما الفصل الرابع :

فإن أصل الدعاء هو ان الرجاء يبعث عليه إذا الدعاء طلب ، ولا طلب إلا بعد الرجاء فإذا كان الأغلب على قلبه والداعي انه لا يحيا لم يكن رجاءه صدقاً فلم يخلص الدعاء ولم يتحقق منه الطلب الا بعد الرجاء . فإذا كان الاغلب على قلبه الداعي انه لا يحيا لم يكن رجاءه صدقاً فلم يخلص الدعاء ولم يتحقق منه الطلب كما لا يتحقق الباعث عليه ، والداعي إنها يحيا تصديقاً لرجائه ، فإذا لم يصدق رجاءه ولم يستوجب أن يحيا والله أعلم .

وقد جاء عن النبي ﷺ انه قال : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) (١) والأشبه أن يكون معناه وأنتم لا تظنون الرد ، ولا يكون هو الغالب على قلوبكم لأنه أراد: ادعوه معتقدين ان الإجابة إلى غير ما يسألون واقعة لأن الرد ممكن ، والنبي ﷺ لا يأمر أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه .

واما الفصل الخامس :

وهو أن يدعوا الله بأسمائه الحسني ولا يدعوه بما لا يخلص بنا وإن كان في نفسه حقاً . قال الله عز وجل : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ (٢) قيل في تفسيره : الله ، والرحمن والرحيم ، وهي قراءة في أول آية في القرآن ، وجاء عن النبي ﷺ انه كان إذا اجتهد في الدعاء قال : (يا حي يا قيوم) . وعنه ﷺ : (يا ذا الجلال والإكرام) .

وروي عنه ﷺ انه كان إذا رجع من سفر فابصر المدينة قال : (اللهم رب السموات وما أقلن ، والشیاطين وما أضللن ، والرياح وما ذرين ، انا نسألك من خير هذه البلدة وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها) (٣) .

وكان ينبغي أن يدعي وإن قال : رب السموات ورب العرش . أو قال : ملك يوم الدين . أو قال : له الأولين والآخرين — أو قال : ربنا ورب آبائنا الأولين أو قال : رب محمد وإبراهيم ، فانه كان من أعظم دعاء بني إسرائيل ، إله إبراهيم واسحق ويعقوب وكل ذلك حسن .

(١) ورد في سنن الترمذي « دعوات » باب ٦٥ ، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ، ص ١٧٧

(٢) الاعراف : ١٨٠

(٣) لم يرد هذا الحديث الا في سنن الترمذي « دعوات » باب ٩٠

ولا يقال في الدعاء ولا الثناء المमित حتى يقال معه المحيي ، ولا الضار حتى يقال معه المقدم . لأن المعنى أن يعترف له بالقدرة على الشيء وخلافه ليسل خيرها ويستعاض من شرها ، والإقتصار على المستعاض منه في النداء والثناء ليس بتمجيد ولا تحميد والدعاء به ليس بدعاء .

ولا ينبغي أن يقال : يا خالق القردة والخنازير ، يا خالق الحيات والعقارب لأن هذه كلها ضارة مؤذية ، فمن قال من ذكرنا فكأنما يقول : يا ضار أو مسلط الضرار ، وليس ذلك لأن الدعاء بدعاء تعبد وتذلل وليس الاعراض عن دعاء الله بما توجهه نعمه العارضة منه على عباده له من الأسماء والتجريد لذكر ما خلق فتنه للناس من التعبد في شيء ، فلذلك لا ينبغي أن يعبد به في الدعاء . وبالله التوفيق .

وأما الفصل السادس : فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال : (إذا سألت الله فاعظموا الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه اعطاؤه) (١) وليس معنى هذا أنه لا ينبغي لأحد أن يسأل الله تعالى إلا شيئاً عظيماً ، وإنما هو على أن من عظمت حاجته فلا يمنعه عظمها عنده من أن يسأل الله جل ثناؤه فإنها وإن تعاضمت فلا يتعاظم الله ولا يكبر عليه شيء . والعظيم والصغير من حاجات العباد في اتساع قدرته لقضائها .

وأما عوارض الحاجات فإن صغيرها وكبيرها متفقان في أن سبيلهما أن يرفعا إلى الله جل ثناؤه ويتوقع نجاحهما من عنده . قال رسول الله ﷺ (اسألوا الله حوائجكم كلها حتى شسع نعالكم إذا انقطع وحق الملح) (٢) .

وأما الفصل السابع : فإن الدعاء سؤال في عهد إلى سؤال غيره ، فسرد يسرد أو هو لا يحيط بمعناه ، وإن أحاط به كان مصروف الهم عنه إلى لفظه ، وكان اختياره ذلك الدعاء على غيره لأجل الذي نظمته وإعجابه به لم يكن داعياً ولا سائلاً وإنها يكون كالقاضي دعا غيره .

والمنشد شعر غيره إلا أن تكون استعانت بدعاء غيره لأن يجب أن يكون ما يسأل

(١) لم أجد هذا الحديث في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد إلا في سنن الترمذي « دعوات » باب رقم ١١٧

الله تعالى بالفاظ حسنة ، والثناء عليه أمام المسألة بليغاً لا يقصد فيه فئة ولا يهتدي مع ذلك إلى تأليف ونظم ، ويجد لغيره في مثل ما أنعمه من السؤال دعاء مستحسن أو يكون عن تسبب الدعاء اليه ممن يقتدي به ويترك بكلامه ، فيستعين به لهذا المعنى ويحضر عند السرد قلبه وتوفيه من إخلاص الطلب حقه ، فيكون عند ذلك والمنشيء للدعاء من عنده سواء بل أفضل من بعض الوجوه والله أعلم .

واما الفصل الثامن : هو ان لا يشغله الدعاء عن فريضة الله حاضرة ، فلأنه إذا اشتغل بالدعاء عن فريضة حاضرة صار عاصياً فلم يستحق أن يعطيه الله من إذا سأله يمنع مراده ، ولأن الدعاء بعد أن يكون تصاحبه الإجابة ، والله أعلم .

واما الفصل التاسع هو أن يكون الدعاء لا على وجه الاختبار ، فلان الرب يختبر العبد فيجزيه بما يظهر عنه ، وليس العبد أن يختبر الرب ، لأن الطاعة له لازمة اساء أو أحسن اليه ، ولأن الإختبار ليس باستنجاح ، وإنما الدعاء طلب واستنجاح فما خلا عنها فليس بدعاء والله أعلم .

واما الفصل العاشر : وهو التحفظ من الخطأ في الدعاء ، فلأن تعظيم الله تعالى واجب على العبد بكل حال ، وهو في حال مسألته والرغبة أوجب والزم ، فلذلك ينبغي للعبد إذا دعا أن لا يخرج في دعائه إلى ما هو في العبادات فجأة وراكه .

كما يروى عن بعض السلف كانوا يدعون به للتقوية على غشيان النساء ، لكنه إذا أراد ذلك . قال : اللهم متعني بأعضائي وجوارحي .

وإن كان يشتهي الطعام ولا يقدر على أن يصيب منه صاحبه فلا يقول . اللهم قوّني فأصيب من الطعام حاجتي ، وليقل . اللهم أجزل من رزقك فارزقني وزدني به قوة ازد ذلك طاعة وعبادة .

ان نفرت عليه امرأته فلم تحضر فراشه ، فلا يقولن : اللهم اهما أن تحضر فراشي ، ولا : اللهم اسكنها ونحو ذلك . وليقل . اللهم اصلحها لي ، كما قال الله عز وجل في زكريا صلوات الله عليه . ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَةً ﴾ ^(١) أي جعلناها تلد بعد ان كانت عاقراً ، واسم الاصلاح يأتي على ذلك وغيره مما ذكرت .

(١) الأنبياء : ٩٠

وقد جرت عادة المسلمين بأن يدعوا الله تعالى باصلاح واليهم لأنهم رأوا اسم الصلاح منتظماً عامة ما فيه النفع له ولهم . فأمر المرأة أقل من ذلك .

وأما الفصل الحادي عشر : وهو أن لا يدعو ضجرأ مستعجلاً ، فإن ذلك فعل من له حق عند آخر يقتضيه .

وليس لأحد من الله حق حاصل عنده ، متأخر عنه ، فيستعجل به ويضجر من تأخره ، والأمر في إجابة الدعاء إلى الله تعالى أن يفضل على عبده ، فهو المحمود عليه ، وإن لم يفعل فلا عتب ولا اعتراض عليه ولأن الدعاء عبادة واستكانة والضرير والاستعجال به إقصاء بها فدل ذلك على انها من الحوائل بينها وبين الإجابة كما يرجى أن يكون خلافاً من مقربات الإجابة والله أعلم فهذه الأركان .

وأما الآداب فالفصل الأول منها : تقديم التوبة أمام الدعاء ، لما روى عن النبي ﷺ (إن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام ، أخبر قومك أنه لا يغرب علي شيء ، فلا يدعوني أحد منهم وهو مقيم على ذنبه ، فإنه لا يزداد مني إلا بعداً ، ولا أزداد عليه إلا غضباً ، ولكن ليتب ثم ليدعي) .

وليس معنى هذا الحديث عندي . ان المذنب لا تجاب دعوته بحال ، فإنه لو كان هكذا لاشبه أن لا يجاب إذا قال : اللهم بغض إلي معاصيك ووفقي لما تحب وترضى ، أو قال : اللهم تب علي ومعلوم ان له أن يقول هذا ، ويأمل الإجابة .

فوجه الحديث إذا - والله أعلم - أن لا يدعني أحد باسمائي الحسنى ولا يتقرب إلي بالثناء على اتمام حاجة يستقضيها وهو مقيم على ذنبه ، فأني وإن قضيت حاجته ، فلا أعد دعاءه عبادة ، لأنه إنما أدخلته فيه حاجته لا تعظيمه إياي ، وحبه إلي ، إذ لو كان كذلك لم يعصني ولم يرتكب ما يهينه عنه ، ولا يزداد مني إلا بعداً ، لاني أرد عليه ثناءه ولا أقبله منه ، ولا أزداد عليه غضباً لأنني ابتليته بالحاجة التي لا يحملها دعائي فلم ير في حق جلالي وعظمي ان يتقدس بالتوبة أمام دعائي ، لكنه لزم خطيئته ، ولم يفارق فيها عاداته .

ولئن كان هذا الوعيد مع الإجابة فكأنه يقول : لا أزداد عليه إلا غضباً لأنه عرف الحاجة ، فلم يتدلل بالتوبة ، ثم رأى الإجابة فلم يشكر بالتوبة ، فتغلظت ذنوبه السالفة بذلك ، واستحق لها زيادة الغضب من الله تعالى .

وفي هذا الحديث معنى آخر : وهو ان إجابة الدعاء للمصر على الذنب يكون تعريضاً عاجلاً له من الثناء على الله ، فيخرج دعاءه كذلك من جملة العبادات التي يثاب عليها في الآخرة ، وينزل ذلك منزلة رد بنائه عليه التي يتداعى فان دعاءه يكتب له عبادة حسنة ، وأقل جزاء : الحسنة عشر أمثالها ، يتعجل منها الإجابة ثم يكون ما وراءها مدخراً له إلى يوم القيامة .

واما الفصل الثاني : فقد جاء عنه فيه عن النبي ﷺ انه قال :

(إن الله يحب الصالحين في الدعاء) ^(١) وانه ﷺ قال : (إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل أو ساهي) ^(٢) وانه ﷺ قال (إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه لكي يسمع تضرعه) ^(٣) أي يجيب دعاءه ، ويشبهه بتضرعه .
وفي هذا بيان التضرع من آداب الدعاء والله أعلم .

واما الفصل الثالث : فقد جاء فيه عن النبي ﷺ انه قال : (من سره أن يستجاب له عند الشدائد والكرب ، فليكثر الدعاء في الرخاء) ^(٤) .

ويحتمل أن يكون الدعاء في الرخاء بدل الثناء والشكر والاعتراف بالمتن ومسألة التثبت والتوفيق والمعونة والتأييد والإستغفار لغوام ، والتقصير فان العبد وإن جهد لم يوف ما عليه من حق الله تعالى بتمامه .

وأما الفصل الرابع : فقد جاء فيه عن النبي : (إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء . فان الله لا يشكره له) ^(٥) وجاء أنه قال : (فليعزم في الدعاء ولا يقبل اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم اعطني إن شئت ، وليسأل مسألته عزمًا ، فإن الله يشكره) .

ومعنى هذا : إن من سأل آدمياً مثله فإنما يقول : إن رأيت وإن أملت وليتك ، فقلت لا تقدر في المسؤول كراهيه ، ويخش ان عزم عليه أن يحمله الحياء ، أو معنى سؤاله على إجابة ، وهذا لا يليق بالباري عز وجل ، لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم يرد إلا في سنن الترمذي « دعوات » باب ٦٤ .

(٣) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « الفتن » باب ٢٣ (ان الله ان أحب قوماً ابتلاهم)

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٥) ورد في صحيح البخارى « التوحيد » باب ٣١ .

وإذا كان كذلك ، وكان الدعاء سؤالاً وطلباً وجب تجريد الطلب لأنه أخشع من خلافه
فإن الطلب إذا كان تدللاً ، فكل ما كان منه أخلص وأبين كان التدلل فيه أشد والله أعلم .

واما الفصل الخامس : فقد جاء فيه عن النبي ﷺ انه كان إذا سأل سأل ثلاثاً ، وإذا
دعا دعا ثلاثاً . وقد يجوز أن يدخل في هذا الباب الإلحاح ، ولكن لأن الدعاء أوله وآخره
على الله عز وجل وذكر له بدائحه ، وهو جل ثناؤه قال : ﴿ اذكروا الله ذكراً ﴾ (١)
وأقل الكثير ثلاث والله أعلم .

واما الفصل السادس : وهو أن لا يستشعر البأس إذا دعا فلم يظهر الإجابة ولكنه
يدعو ما دامت الحاجة قائمة ولا يقطع الرجاء . فإن هذا يروى عن النبي ﷺ انه قال :
(يستجاب لأحدكم ما يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي فيخسر عند ذلك الدعاء) (٢)
وهذا لأنه قد جاء في حديث آخر : (إن الله تعالى إذا أحب عبداً آخر إجابته لسمع
صوته ، وإذا أبغض عبداً عجل إجابته أو ألقى البأس في صدره) (٣) .

فلا ينبغي للعبد أن يقطع الدعاء إذا لم ير له إجابة عاجلة ، بل يحسن الظن بالله تعالى
ويرجو أن يكون تأخيره إجابة دعائه لانه ممن يجبه ، فأراد أن يسمع تضرعه ، فإن لم
يقدر على هذا ولم تطاوعه نفسه عليه ، واستشعر بأساً فامسك عن الدعاء خيف أن
يكون ممن كره الله صوته عن الدعاء بالاقنات .

واما الفصل السابع : وهو الاقتصاد في الدعاء على الجوامع ، فلانه يروى عن النبي
ﷺ انه قال : (أحب الدعاء إلى الله وأعجبه اليه الجوامع) (٤) والله أعلم - مثل أن
يقول : ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وأن يقول : اللهم
إني أسألك خيراً من خير ما سألك به محمد عبدك ونبيك ، ومثل أن يقول : (اللهم
إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من
قول أو عمل . وما أشبه هذا .

(١) الأحزاب : ١ :

(٢) ورد في صحيح البخاري « دعوات » باب ٢٢ ، وفي سنن ابن ماجه « الدعاء » ٧ رقم ٣٨٥٣ .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) ورد بهذا المعنى في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٦ - ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ ، ص ١٨٩ .

لانه إذا دعا بالجوامع فقد سأل الله تعالى من كل خير ، وإذا اقتصر على حسنة بعينها ، فقد قصر في النظر لنفسه ، فلا ينبغي له أن يعدل عن الجوامع إلا أن تعرض له حاجة بعينها . فينبغي في المسألة عليها مثل أن يمرض له من يعز عليه أو يغيب أو يصل إليه قال أو يخاف أحداً ، فيدعو الدعاء الجامع ويضم إليه الفرد الذي وجب الحال إلى مسألته والله اعلم .

وأما الفصل الثامن : فهو الصلاة على رسول الله ﷺ ، روى عنه ﷺ انه قال : (إذا دعا أحدكم فليحمد الله ثم ليصلي على نبيه ثم ليسل) (١) وقال . (كل امر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله اقطع) (٢) والدعاء امر ذو بال وقد يجوز أن يكون المعنى في حمد الله مدحه والثناء عليه وهذا شيء لا يخلو الدعاء منه .

وقد يجوز أن يكون المعنى شكره على سوائف نعمه ، رجاء أن يجعل الله ذلك الشكر سبباً للمزيد ، وأن تكون إجابة الدعاء مما تريد ، وإذا صلى على النبي ﷺ في أول الدعاء صلى الله عليه في آخر الدعاء ، كما انه يشني على الله تعالى ويذكره بمدائحه في طرفي الدعاء جميعاً ، وذلك ارجاء أن لا يميز الله تعالى دعاءه فيجب ويرد بعضه ، وقد يكون لأن الدعاء وأركانه وآدابه إنما أخذ عن النبي ﷺ ، وعلى لسانه علمنا الله تعالى ما علم .

فيقضي ختمه عند الدعاء فرحاً بما علمناه منه واعتداداً بالنعمة وجزيل الحظ فيه بان يدعوا له قبل الدعاء الذي يكون في نفوسنا وبعده لما تدعوا له في صلاتنا بعد ذكر الله تعالى لهذا المعنى والله أعلم .

وأما الفصل التاسع : هو الدعاء في حال الطهارة ، فإنه يروى أن النبي ﷺ « توضأ حين دعا لأهل المدينة ، وأمر عائشة أن تتوضأ ثم تدعو وهذا لأن الدعاء ذكر يراد به العبادة فهو كقراءة القرآن والأذان والخطبة ، وكل منها تستحب له الطهارة ، فاستحب للدعاء .

وأما الفصل العاشر : وهو استقبال القبلة ، فإنه يروى عن النبي ﷺ أنه استقبل القبلة حين دعا لأهل المدينة وحين دعا يوم بدر وهذا لأن استقبال القبلة في كل مجلس مستحب ، لأن النبي ﷺ قال : « أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » (٣) فهو باب

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) ورد في سنن ابن ماجة « النكاح » باب ١٩ ، رقم ١٨٩٤ .

(٣) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

يستحب الدعاء أحق ، ولأن الدعاء ذكر يراد به العادة ، فهو كالأذان وقراءة القرآن والله أعلم .

واما الفصل الحادي عشر : فهو الصلاة أمام الدعاء ، ولأن النبي ﷺ ، كذلك فعل حين دعا لأتمته بقباء ، وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (١) فقليل معناه : فاجهد نفسك بالدعاء ، وإليه فارغب وسله ما عنده من الخير ، فإنه لا يمكنه ولا يمن به غيره . وفي هذا بيان . ان الدعاء ينبغي أن يكون بعد الصلاة والله أعلم .

واما الفصل الثاني عشر : وهو رفع اليدين بالدعاء لما يروى عن النبي ﷺ : « ان الله يستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين » (٢) ومعنى يستحي لا يفعل ، لأن في العادات ان من استحيا من شيء ، تركه . ومعنى لا يفعل : أي لا ينبغي أن يكون الظن به أن لا يفعل لأن ذلك هو الأحسن ، وحسن الظن بالله في الجملة أولى ، ولأنه يؤثر عنه جل جلاله أنه قال : « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني » (٣) .

فالذي يليق بهذه المقدمة أن يكون الظن الداعي بالله جل جلاله حين دعائه إياه أنه داخل في هذا الوعد ، وان كان ذلك خيراً مما يحتمل إطلاقه من الخصوص ، والتقيد بالشروط ما يحتمله الأمر والنهي والله أعلم .

وغاية رفع اليدين أن يحاذي بهما المنكبين ، لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « الدعاء هكذا ، ورفع يديه حذو منكبيه ، وجهل ظهورهما مما يلي السماء ، والابتهاال هكذا ، ورفع يديه إلى السماء مداً . والاخلاص هكذا ، ورفع إصبعه التي تلي الابهام من اليد اليمنى ليشير بها » (٤) والابتهاال أشد الدعاء فكذلك تمد اليدين به نحو السماء .

وروي أن النبي ﷺ كان إذا أصابته شدة رفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه ، وهذا - والله أعلم - على أن الداعي يمد يديه أشد ما يقدر عليه رفعا لها نحو السماء ، كالحرص على شيء يراد إلقاؤه إليه ، لتكون يده أقرب إليه . فإن أصل

(١) الانشراح : ٧ - ٨ .

(٢) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « الدعاء » باب ١٣ ، حديث رقم ٣٨٦٥ .

(٣) ورد في صحيح البخاري « التوحيد » باب ١٥ ، ٣٥ ، وفي صحيح مسلم « الذكر » باب ٢ .

(٤) ورد بهذا المعنى في سنن ابن ماجه « الاقامة » باب ١٥ ، أكثر من حديث .

ورفع اليدين هكذا ، وهو أن يكون الداعي كالتكفف المتعرض ، وإن يملأ كفيه مما يسئل ، وكذلك إذا جده الأمر مدهما لما ذكرت .

واما الفصل الثالث عشر : وهو خفض الصوت بالدعاء ، فإن الله عز وجل قال : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر في القول ﴾ (١) ومعنى ذلك أنه أخشع وأخضع ، وذلك بحال الداعي أليق وأشبه .

واما الفصل الرابع عشر : وهو مسح الوجه باليدين بعد الدعاء ، فلما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ما يمنع أحدكم إذا عرف الإجابة في نفسه ، فشفي من مرض أو قدم من سفر أن يقول الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات ، وإذا أبطأ عليه شيء من ذلك أن يقول : الحمد لله على كل حال (٢) وهذا أيضاً على حسن الظن بالله جل جلاله وأنه لم يؤخر الإجابة إلا لحين علمه لعبده ، وأراد به ولم يستشعر به ، ولا بأساً يمنعه عن الدعاء في المستقبل ، وقال : اللهم لك الخلق والأمر . تفعل ما تريد وأنت على كل شيء قدير .

واما الفصل الخامس عشر : وهو أن لا يخلي يوماً وليلة من الدعاء لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل مسلم ومسلمة في كل يوم وليلة دعوة مستجابة » (٣) .

وأيضاً فقد جاء عن النبي ﷺ : « من لم يدع غضب الله عليه » (٤) وقال عز وجل بعد قوله : ﴿ أدعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٥) .

فإذا كان هذا هكذا ، فما ينبغي لأحد أن يخلي يوماً وليلة من الدعاء لأن الزمان يوم وليلة وما وراءها تكرر فإذا كان ترك الدعاء أصلاً موجب الغضب ، فأدنى ما في تركه يوم وليلة والله أعلم .

واما الفصل السادس عشر : فهو تحري الأوقات والأحوال والمواطن أرجى من بعض والدعاء طلب واستنجاح ، فينبغي أن يتحرى له ما يقرب منه النجاح والإجابة . فالأوقات التي تقدم ذكرها خمسة :

(١) الأعراف : ٢٠٥

(٢) لم يرد إلا في سنن ابن ماجه « الادب » باب ٥٥ ، رقم ٣٨٠٣

(٣) لم أجده في هذا النص في الكتب التسعة .

(٤) ورد في سنن ابن ماجه « دعاء » رقم ٣٨٢٧ .

(٥) غافر : ٦٠ .

اولها : بين الظهر والعصر من يوم الأربعاء ، قال جابر بن عبد الله دعا رسول الله ﷺ في مسجد ثلثا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ، فمرفت البشر في وجهه ، قال جابر فلم يزل في أمرهم غليظ الا توخيت تلك الساعة ، فأدعو فيها فأعرف الاجابة .

وقد يحتمل ما جاء في هذا الحديث أن وجهه ما جاء في خبر يرويه عن النبي ﷺ أنه قال : « أتاني جبريل فقال ان الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد » (١) وقال : يوم الأربعاء يوم نحس مستمر » (٢) ومعلوم أنه لم يرد لذلك أنه نحس على المصلحين بل أراد به نحس على الفجار المفسدين .

كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن نحس على الكافرين من قوم عاد لا على نبيهم ، والمؤمنين منهم . وإذا كذلك ان تمهل الظالم من يوم الأربعاء إلى نزول الشمس -س- ، فإذا أدبر النهار ولم تحدث رجفة استجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحساً على الظالم . ودعاء النبي ﷺ إنما كان على الكفار قول جائز لم يترك أمر غائظ فيه إشارة إلى ما ذكرت والله أعلم .

والثاني : ما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى أن تغرب الشمس ، فان النبي ﷺ قال : « في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه » (٣) ثم روى عنه : « أن تلك الساعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس » (٤) .

وروي عنه ﷺ أنه أخبر : « ان الساعة ما بين أن يجلس الى أن يقضي الصلاة » (٥) وهذا اما أن يكون إذا جلس الامام قبل أن يفتتح الخطبة واما بين خطبته ، واما بين الخطبة والصلاة ، وأما في الصلاة بعد التشهد .

وروي عنه ﷺ أنه كان في صلاة العصر من يوم الجمعة ، فلما صلى ركعتين جاء كلب ليمر بين يديه ، فدعا عليه رجل من القوم فوقع ميتاً ، فصلى رسول الله ﷺ الركعتين الآخرين ، فلما قضى صلاته قال : « من الداعي على هذا الكلب ؟ . قال سعد بن مالك :

(١) ورد في سنن ابن ماجه « الاحكام » باب ٣١ ، رقم ١٣٦٨ - ٢٣٧٠ .

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة ، وانما وردت أحاديث تشيد الى ان يوم الاربعاء هو يوم بلاء .

(٣) ورد في صحيح البخاري « الجمعة » باب ٣٧ ، وفي سنن ابن ماجه « اقامة » ٩٩ - ١١٣٨ .

(٤ و٥) ورد في سنن ابن ماجه « اقامة » ٩٩ ، رقم ١١٣٩ .

أنا يا رسول الله . قال : بأي شيء دعوت ؟ قال : قلت : سبحانك لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، اهلك هذا الكلب . فقال : « والذي بعثني بالحق ، لقد دعوت في ساعه لو دعوت فيها على ما بين السماء والأرض لاستجيب لك » (١) . وقال بعض العلماء : هذه الأخبار في يوم الجمعة غير متنافية ، لأنه أخبر أن فيها ساعة ، ثم أجاز أن تكون كل ساعة من الساعات المذكورة تلك الساعة ، كما أخبر ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان ، ثم أجاز أن يكون كل وتر من أوتارها تلك الليلة والله أعلم .

والثالث : الاسحار ، روي أن النبي ﷺ سئل لما أخر يعقوب بنيه إلى السحر فقال ﷺ : « لا دعاء السحر مستجاب » (٢) ، وقد أثنى الله عز وجل على المهجدين بالاسحار فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (٣) . وقال : ﴿ والمستغفرين بالاسحار ﴾ (٤) قبلت بذلك فضيلة هذا الوقت .

والرابع في الأفياء روي عن النبي ﷺ أنه قال : « تحروا بالدعاء في الأفياء » (٥) فقليل معناه أن يتحول الظلال عن الزوال من جانب إلى جانب . وقيل معناه : إذا فات الأفياء وذلك قبل غروب الشمس بيسير .

والخامس . يوم عرفة . وروي عن النبي ﷺ قال : أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير » (٦) .

وقد يجوز أن تكون تسمية النبي ﷺ هذا الذكر ، وإن لم يكن ندأ ولا سؤالاً ، لأن الغرض منه ذلك اليوم ، وفي ذلك الوقت خير يعود من الله عز وجل على الذاكر ، فكان بالحقيقة سائلاً ، وإن كان لا يأتي بلفظ السؤال كالذي يطوف على بعض الأبواب والأسواق ، ليدعو الناس يكون سائلاً ، وإن حذف لفظ السؤال ، وعلى أن الذاكر قد يثني على الله عز وجل بحماده ، ويظهر حاجته فلا يبوح بها ، علماً بأن الله تعالى يعلمها مني ويستغفل

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) الذاريات : ١٨

(٤) آل عمران : ١٧

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

بالذكر مكان التكلم بحاجته إعتدأ على ما بلغ الرسول عن ربه عز وجل . (من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) (١) وبالله التوفيق .

وأما الأحوال التي سبق ذكرها فسبق أولها : حال النداء للصلاة ، وبين الاذان والاقامة ، وعند الاقامة لما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا نودي للصلاة فتمت أبواب السماء ، وأبواب الجنان واستجيب الدعاء » (٢) ومعنى هذا - والله أعلم - أن الله يستجيب الذين يسمعون النداء للصلاة فيأتونها ويقيمونها كما أمروا به إذا دعوه وسألوه ، لتكون إجابته - جل ثناؤه - إياهم إلى ما سألوه ثواباً عاجلاً بمسارعتهن إلى ما أمرهم به . وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : « الدعاء بين الاذان والاقامة لا يرد » (٣) وعنه ﷺ : « انه إذا أقيمت الصلاة لم ترد دعوه » (٤) وعنه ﷺ : « تفتح أبواب السماء عند الاقامة ، ويستجاب للدعاء » (٥) .

والثانية فطر الصائم . يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « للصائم عند فطره دعوة لا ترد » (٦) .

والثالثة . نزول الغيث . جاء عن النبي ﷺ . (إن أبواب السماء تفتح عنده) (٧) وقال الله عز وجل : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ﴾ (٨) فبان بهذه الآية ان حال نزول الغيث حال رحمته ، والاسترحام في حال الرحمة ارجاء فيه حال لا يعرف حقها .

والرابعة : التقاء الصفيين . وفي هذه أيضاً جاء السبي ﷺ : « أن أبواب السماء تفتح عندها ، وأحد ما تفتح السماء أن يكون مثلاً لاجابة الدعاء » . أي انه لا يحجب ، ومعنى لا تحجب تجاب ولا ترد .

والخامسة : اجتماع المسلمين على الدعاء . فانه يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لا

(١) ورد في سنن الترمذى « ثواب القرآن » ٣٥ ، وفي سنن الدارمي « فضائل القرآن » ٦ .

(٢) ورد في صحيح مسلم « الصلاة » ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) ورد في سنن أبي داود « الصلاة » باب ٣٥ .

(٤) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٦) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٧) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٨) الشورى : ٢٨

يجتمع أربعون رجلاً من المسلمين يدعون في أمر واحد إلا استجاب لهم حتى لو دعوا على جبل لزلزله» (١) وقد يحتمل أن يكون هذا ، لأن الأربعين عدداً يلزمهم الجمعة وتنعقد بهم ، وعدد المسلمين الذين لما بلغوه أظهروا الإسلام ، فبرجاً إذا بلغ عدد الدعاة هذا ان يلحقهم الله تعالى بجماعة المسلمين الذين لو أمكن أن يجتمعوا على دعاء فاجتمعوا عليهم لاستجاب لهم وبالله التوفيق

والسادسة : ادبار المكتوبات . يروى أن النبي ﷺ سئل . أي الدعاء أسمع ؟ قال : « شطر الليل الآخر ، وادبار المكتوبات » (٢) . وهذا قد يلحق بقول الله عز وجل . ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ (٣) وقد تقدم الكلام فيه . وقد يحتمل أن يكون المعنى في ادبار المكتوبات ان القوم لما أوفوا ما عليهم منها طالبين به رضوان الله تعالى . وقد يرجي أنهم دفعوا في تلك الحال حاجة أجيبوا ، لأن الاجابة في حال كان منهم فيها ما يوجب الرضى عنهم أرجىء منها في حال سواها والله أعلم .

والسابعة : القيام في المجلس . وهذه الحال إنما يدعي فيها الكفارة المجلس دون غيرها . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كفارة المجلس أن يقول : إذا أردت أن تقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك » (٤) وقل سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، لأن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول بعد نزول سورة الفتح : فلقصيري عليه ، وذلك لأن نفسه نعت إليه بها ، فينبغي لكل من ظن انه لا يعيش مثل ما قد عاش أو قام من مجلس يظن أن لا يعود إليه أن يستعمل الذكر والله أعلم .

وأما المواطن فسبعة : الموقفان والجرتان وعند البيت وعلى الصفا ، وعلى المروة . جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ترفع الأيدي إلا في سبع مواطن فذكرها » (٥) . والمعنى . لا ترفع الأيدي بالدعاء الا في هذه المواطن ، لأنها ترفع فيها بالدعاء لفضلها ، ولما يرجى من الاجابة عندها .

(١) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٢) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

(٣) الانشراح : ٧ - ٨

(٤) لم يرد الا في مسند امام احمد بن حنبل ج ٢ ، ص ٣٦٩ .

(٥) لم أجد هذا النص في الكتب التسعة .

فصل

وكل ما ذكرت من الأوقات والاحوال والمواطن فانها أسباب تقوي الرجاء بالله جل ثناؤه ، وفي إجابة الدعاء ، لان الدعاء لا يقبل إلا عندها ، فمن عرضت له حاجة في غيرها ، فلا ينبغي له أن يمتنع من الدعاء خيفة الرد ، بل يدعو قوي الرجاء ، حسن الظن بالله تعالى ، فإنه يستجيب دعاءه بحودة وكومه .

فصل

ان قال قائل : إذا كان الله تعالى قد قدر التقادير ودبر الامور وميز السعداء من الأشقياء ، وأجرى العلم بمن هو صائر إلى الجنة أو صائر إلى النار ، فما فائدة الاجتهاد في العبادات . ما نقول له ؟ فإن قال : العبادات مأمور بها وإنما على العبد الطاعة والتدبير إلى الله تعالى . قيل له : فإن إحدى العبادات الدعاء وهو مأمور به ، وسئل العبادات يسمعون ويطيعون ويدعو الله تعافى في الشدة والرخاء والتدبير إلى الله تعالى .

وان قال : إنما ينبغي الاجتهاد في العبادات لأنه قد أبان أن المطيع يدخل الجنة والعاصي يدخل النار ، فكل يجتهد برباء أن يدخل الجنة قيل ، وقد أمر بالدعاء ، وقال حكاية عن نبي من أنبيائه عليهم السلام أنه قال : ﴿ لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (١) وقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٢) .

وجاء عن النبي ﷺ : « من لم يدع غضب الله عليه » (٣) . فينبغي للعبد أن يدعو أو يرجو إنجاح حاجاته من الله تعالى ، فإنه إن لم يفعل كان أمّا قانطاً وأما مستكبراً ، وكل واحد من الأمرين موجب للغضب .

ويقال له : أليس العبد وان اجتهد فقد كان ممكناً انه يجتهد أن يدخله الجنة بفضل الله فيما معنى الاجتهاد ؟ .

فان قال : يجوز أن يكون عند الله تعالى انه ان اجتهد ثبتته بالقول الثابت في الحياة

(٢) غافر : ٦٠

(١) يوسف : ٨٧

(٣) ورد في سنن ابن ماجه « الدعاء » باب ١ ، رقم ٣٨٢٧ .

والدنيا وفي الآخرة فأدخله الجنة ، وان ساهل نفسه واتبع الشهوات سلبه الايمان وأدخله النار .

قيل : وقد يجوز أن يكون عند الله تعالى ان العبد ان سأل خيراً من خير الدنيا والآخرة أمّا إياه ، وإن لم يسأله لم يؤته ، وانه ان استعاذ به من النار أعاده ، وان لم يستعذ به منها لم يعذه . فينبغي لهذا أن يدعوه .

ويقال له : أليس الله تبارك وتعالى ، قد قدر الأعمال والاجال والصحة والسقم فما فائدة النداي من الأمراض ؟.

فان قال : قد أمر رسول الله ﷺ بالتداوي . قيل له : قد أمر الله بالدعاء ، وانه قال يجوز أن يكون عند الله تعالى في بعض المرضى انه ان تداوى سلم فعاش ، وان أهمل أمره أفسده المرض فهلك .

قيل : ويجوز أن يكون عند الله ان بعض المرضى إن دعاه وسأله العافية أو دعا وسأل له عزة عافاه . وإن لم يدع لنفسه ولا دعا غيره أهلكه ، فليحسن الدعاء بمثل ما أحسن له الدواء وبالله التوفيق .

فصل

ان سأل سائل : عن قول الله عز وجل : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ (١) وقال : قد يدعى فلا يستجيب ، فما وجه هذا ؟

قيل : أمره جل جلاله بالدعاء للاجابة كالأمر بالتداوي للعافية ، وخلق الدواء الاماطة الداء ثم قد يتداوى فلا تكون العافية ، وقد يتداوى من الداء بدوائه فلا يزول ، ولا سؤال يؤخذ هناك فكذلك ما هنا .

ونقول : معنى قوله جل ثناؤه أدعوني أستجب لكم ، أي بحسب نظري لكم ورحمتي لكم ، لا بحسب أهوائكم وأمانيتكم ، صحت أو فسدت وخفت أو بطلت لأن هذه الآية غير مفردة في القرآن عن أخرى فيها بينا بها ، وهو قوله عز وجل : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ﴾ (٢) وقوله : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ،

(١) غافر: ٦٠

(٢) المؤمنون : ٧١

وكان الإنسان عجولاً ﴿١﴾ وذلك والله أعلم - على معنى انه ربما دعا بما هو شر له ولا يدري ، فيحسبه خيراً له .

فدلت الآيتان جميعاً على أن الله تعالى إنما يستجيب الدعاء بالمستجمع شرائطه إذا علم للداعي فيما سأل خيراً . فأمّا إذا علم أن له فساداً أو شراً فإنه لا يستجيب له دعاءه إكراً وثواباً له بدعائه . ولكنه إذا كان عليه سخطاً فقد يفعل ذلك به عقوبة له والله أعلم .

وقيل : ليس بشيء من دعاء المؤمنين إذا استجمع شرائطه غير مستجاب لأنهم منزلتان الاجابة أو الرد . فإذا لم يكن رد فليس إلا الاجابة . والرد أن لا يعطي بدعائه شيئاً فتكون منزلته بعد ما دعا كمنزلته قبل أن يدعو ، أو ما عدا هذا فليس يرد وإنما هو اجابة . الا ان الاجابة تختلف كما قال النبي ﷺ : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليست فيها قطيعة رحم ، ولا اثم ، إلا أعطاه احدى خصال ثلاث : اما يقبل دعوته ، واما ان يدخرها له في الآخرة ، واما أن يدفع عنه مثلها ، قال يا رسول الله . إذا تكبر . قالوا الله تعالى أكثر أتي الله أكثر خيراً وفضلاً لا يمجزه اعطاؤكم وإن كثر سؤالكم » (٢) . فبان بهذا الحديث ان الاجابة تنقسم ستة أقسام احدها عطاء السائل عما سأل ، ثم قد يكون ذلك قريباً ، وقد يكون بعيداً .

والاخر : تعويضه منه مثله أما خيراً بعطائه ، أما شراً يصرف عنه وهذا أعظم ما تكون معنى للاجابة ، وإذا كان الله جده أوجب على عبده غير حق ثم رضي منه بالبدل والفدية ويجعله بها مؤدياً حقه ، فكيف لا يجيب العبد ما يعوضه الله تعالى من دعائه ومساأله اجابة له وتصريفاً لأمله . بل يرى ان ذلك رد وتحبيب .

والثالث . أن يعوضه في الآخرة . ومعنى ذلك أن يغفر له ، فكان ما سأل في الدنيا ديناً أو ذنباً في الآخرة ، فيعود هذا إلى صرف بلية بقدر ما سأل بدعائه لأنه لا بلية أعظم من النار ، فإذا أشرق عليها ، ثم صرف عنها كان سروره بذلك أشد من سروره في الدنيا بما سأل له لو كان أعطاه .

وفي هذا أيضاً اجابة دعائه لأنه لا يخلو من أن أعطى به شيئاً كان لا يعطاه ولا دعاؤه

(١) الاسراء : ١١

(٢) لم يرد إلا في مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ١٨ .

وليس هذا من الرد بمستحيل . فأما قول الله عز . ﴿ بل أباه تدعون ﴾ ^(١) فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وهذا للكفار كقوله . ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ ^(٢) وهو كقوله عز وجل ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما ألجأهم إلى البر إذا هم كافرين ﴾ ^(٣)

إن أنه قد يحرمهم ويرد دعاءهم بكفرهم ، قد يجبههم عين ما يسألون تأكيداً للجملة عليهم . أما المؤمنون فإن دعاءهم لا يرد إذا استجمع شروطه ، ولكنه يجاب ، ثم الإجابة على ما ألفت وبالله التوفيق .

فصل

فالفرق بين دعاء الرجل لغيره بالخير وبين الشفاعة له ، فهو إن الدعاء إنما يكون قبل ظهور حال المدعو أو لعله حسن الحال عند الله تعالى ، وما يراد له حاصل بلا دعاء أحد ، فيكون الدعاء لمن يدعو له محافظة على حق الإسلام الجامع بينهما ، أو حق المدعو له قبله ولم يكن شفاعة .

أما الشفاعة فإنها تكون بعد أن يظهر سوء حال المشفوع له ، معناها استنباط العقوبة أو استعاط المتعة ، فلا تحمل إلا لمن كان حسن الحال عند تعالى ، ومن لم يعلم ذلك لنفسه ، فمن المحال أن يشفع لغيره ، ولعله محتاج إلى من يشفع له . فلهذا لم تكن الشفاعة مطلقة لكل أحد كالدعاء ، ويبين افتراقهما أنه ما من أحد إلا ويدعو لنفسه كما يدعو لغيره . لا تكون إلا من عن المذنب للمذنب ، فدل ذلك على تباينها والله اعلم .

نجز الجزء الأول من كتاب الحليمي وبالله التوفيق . يتلوه في الجزء الثاني إن شاء الله تعالى الثالث عشر من شعب الإيمان ، وهو باب في التوكل على الله جل ثناؤه . .
على يد السيد الفقير إلى الله تعالى الراجي عفوه وامتنانه أحمد بن محمد الشافعي البتوي الكنتاني نسباً غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين آمين . . .

محتويات الجزء الأول من كتاب المنهاج في شعب الإيمان

الصفحة

١٨٣	الأول من شعب الإيمان
	وهو باب في الإيمان بالله تعالى
	الثاني من شعب الإيمان
	وهو باب في الإيمان بالنبي ومن تقدمه من النبيين
	الثالث من شعب الإيمان
	وهو باب في الإيمان بالملائكة
	الرابع من شعب الإيمان
	وهو باب في الإيمان
	على نبينا محمد عليه وسلم
	وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء
٣٧	صلوات الله عليهم
	الخامس من شعب الإيمان
	وهو باب في أن القدر خير من الشر
٢٦	وحلوه ومرو من الله عز وجل
	السادس من شعب الإيمان
٣٣٦	وهو باب في الإيمان بالله واليوم الآخر
	السابع من شعب الإيمان
	وهو باب في الإيمان بالبعث
٢٤٥	بعد الموت
	الثامن من شعب الإيمان
	وهو باب في حشر الناس بعدما
٣٧٩	يبعثون من قبورهم إلى المواقف...
	التاسع من شعب الإيمان
	وهو باب في أن دار المؤمنين ومآبهم
٤٦٠	الجنة ودار الكافرين ومآبهم النار
	العاشر من شعب الإيمان
٤٩٦	وهو باب في محبة الله جل ثناؤه
	الحادي عشر من شعب الإيمان
٥٠٨	وهو باب في الخوف من الله تعالى
	الثاني عشر من شعب الإيمان
٥١٧	وهو باب في الرجاء من الله جل جلاله
	- ذكر فصول في الدعاء يحتاج
٥٢٢	إلى معرفتها

الصفحة

٥	الامضاء
٧	المقدمة
١١	ارشادات وتنبيهات
١٣	حياة الامام أبي عبد الله الحسين
٢٠	ابن الحسن الحلبي .
٢٨	آراؤه الكلامية
٢٩	تصانيفه
٣٨	مخطوطات كتاب « المنهاج »
	قائمة بليوغرافية بمصادر البحث

	الصفحة
٣	مقدمة المؤلف
	القسم الأول :
١٩	البيان عن حقيقة الإيمان
	القسم الثاني :
٥٥	القول في زيادة الإيمان ونقصانه
	القسم الثالث :
١٢٧	الاستثناء في الإيمان
	القسم الرابع :
١٣٣	في ألفاظ الإيمان
	القسم الخامس :
١٤٥	في إيمان المقلد والمراتب
	القسم السادس :
	القول فيمن يكون مؤمناً بإيمان
١٥١	غيره أو لا يكون
	القسم السابع :
١٦٥	القول فيمن يصح إيمانه أو لا يصح
	القسم الثامن :
١٧٥	القول فيمن لم تبلغه الدعوة
	القسم التاسع :
١٧٩	فيمن مات مستديلاً
	القسم العاشر :
١٨٣	القول في شعب الإيمان